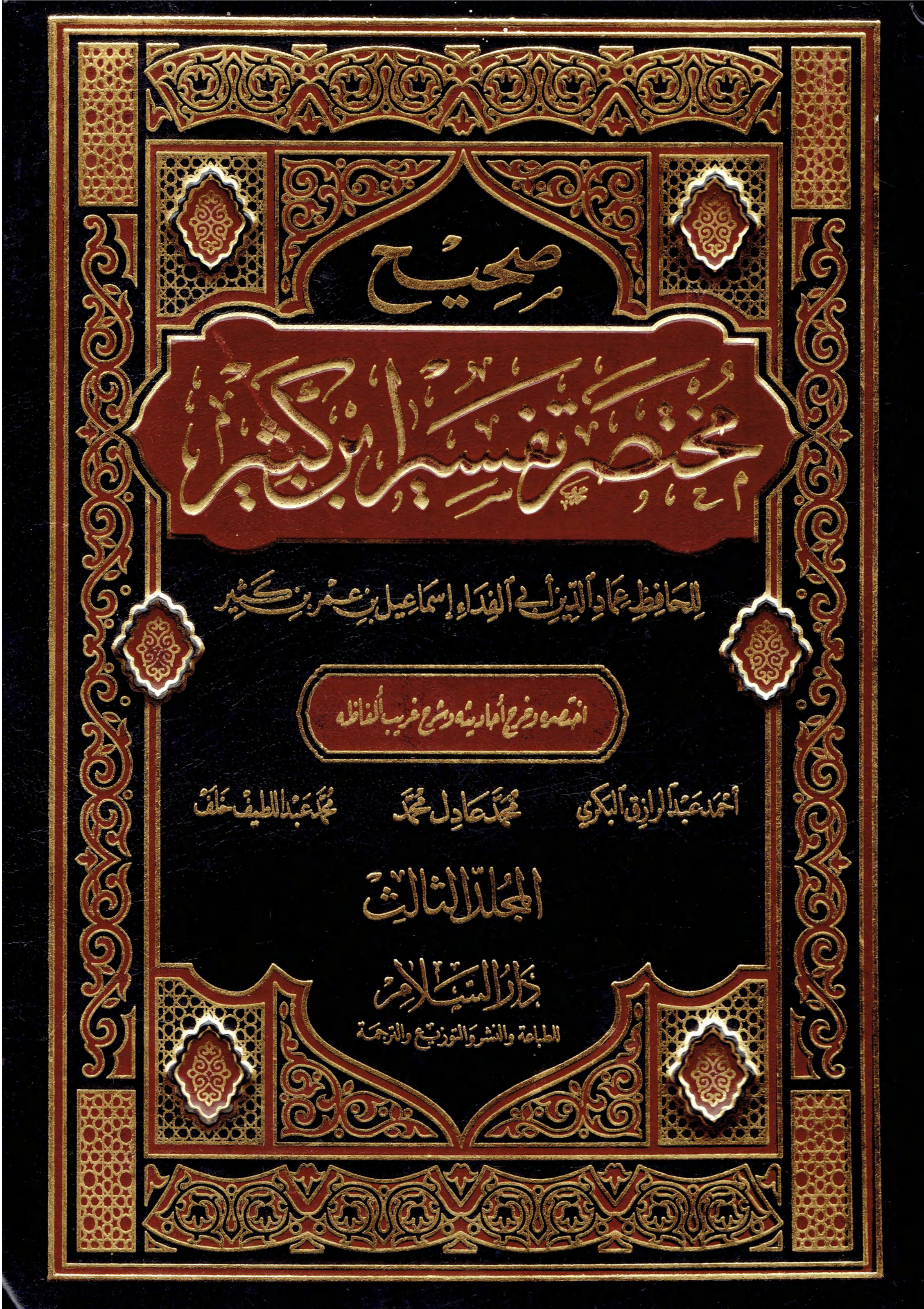
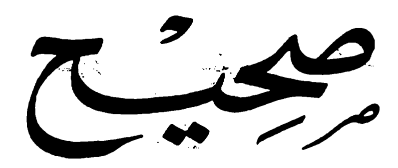

صحيح
مختصر تفسير ابن كثير
للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه
أحمد عبد الرازق البكري
محمد عادل محمد
محمد عبد اللطيف خلف
المجلد الثالث
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



مختصر تفسير ابن كثير

للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه

أحمد عبد الرازق البكري | محمد عادل محمد | محمد عبد اللطيف خلف

المجلد الثالث

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م
الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
الطبعة الثالثة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور . وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ﴾ أي : هذه آيات ﴿ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : بين واضح ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه ، وعمل فيه وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال وشرها ، والجنة والنار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي : يكذبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي : حسنا ما هم فيه ، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم ، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ﴿ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ أي : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ لَتُلَقَّى ﴾ أي : لتأخذ ﴿ ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي : من عند حكيم عليم أي : حكيم في أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام .

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكرًا له ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه الله ، وكلمه وناجاه ، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له . فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ ﴾ أي : اذكر حين سار موسى بأهله فأفضل الطريق ، وذلك في ليل وظلام ، فآنس من جانب الطور نارًا أي : رأى نارًا تأجج وتضطرم . فقال : ﴿ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي : عن الطريق ﴿ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي : تستدفئون به . وكان كما قال فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نورًا عظيمًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي : فلما أتاها ورأى منظرًا هائلًا عظيمًا حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا توقدًا ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عباس وغيره : لم

تكن نارًا وإنما كانت نورًا يتوهج . وفي رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجبًا مما رأى فنودي ﴿ أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ . قال ابن عباس : تقدس . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي : من الملائكة . وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يرْفعُ إِلَيْهِ عَمَلَ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلَ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » . زاد المسعودي : « وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كلَّ شيء أدركه البصر » . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [١] . وقوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : الذي يفعل ما يشاء ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسماوات بل الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ، الحكيم في أقواله وأفعاله ، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلًا واضحًا على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء ، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ والجان ضرب من الحيات أسرعه حركة وأكثره اضطرابًا . وفي الحديث نهى عن قتل جنان البيوت [٢] . فلما عاين موسى ذلك ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي : لم يلتفت من شدة فرقه ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أي : لا تخف مما ترى ، فإني أريد أن أصطفيك رسولًا ، وأجعلك نبيًّا وجيهًا ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل سيئ ، ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار ، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف . وقوله تعالى : ﴿ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ ﴾ أي : هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهانًا لك إلى فرعون وقومه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ . كما تقدم تقرير ذلك هنالك ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أي : بينة واضحة ظاهرة . ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم ، فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾ أي : في ظاهر أمرهم ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي : علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أي : ظلمًا من أنفسهم سجيه ملعونة ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أي: استكبارًا عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة . فحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣ ، ٢٩٥) وابن ماجه في سننه (١٩٥) والإمام احمد في مسنده (٣٩٥/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في (السلام) (١٣٤/٣١) والإمام أحمد في مسنده (١٤٦/٢) .

يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى ، فإن محمدًا ﷺ برهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ المواثيق له ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود ، وابنه سليمان عليهما السلام ، من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام في الدنيا ، والنبوة والرسالة في الدين . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . روي أن عمر بن عبد العزيز كتب : إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ أي : في الملك والنبوة ، وليس المراد وراثة المال ؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لدواد مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ » (٢) . وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي : أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم حتى أنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضًا ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به رسوله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي : مما يحتاج إليه الملك ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي : الظاهر البين لله علينا .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كَانَ دَاوُدُ عليه السلام فِيهِ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَكَانَ إِذَا خَرَجَ أُغْلِقَتِ الأَبْوَابُ ، فَلَمْ يدخل عَلَى أَهْلِهِ أَحَدٌ يَرْجِعَ - قَالَ : فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ وَأُغْلِقَتِ الأَبْوَابُ ، فَأَقْبَلَتِ امْرَأَةٌ تَطَّلِعُ إِلَى الدَّارِ ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ ، فَقَالَتْ لِمَنْ فِي البَيْتِ : مِنْ أَيْنَ دَخَلَ هَذَا الرَّجُلُ وَالدَّارُ مُغْلَقَةٌ ؟ وَاللَّهِ لَتُفْتَضَحُنَّ بِدَاوُدَ ، فَجَاءَ دَاوُدُ عليه السلام ، فَإِذَا الرَّجُلُ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ . فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : الَّذِي لَا يَهَابُ المُلُوكَ ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنَ الحُجَّابِ ، فَقَالَ دَاوُدُ : أَنْتَ إِذًا وَاللَّهِ مَلَكُ المَوْتِ ، مَرْحَبًا بِأَمْرِ اللَّهِ ، فَتَزَمَّلَ دَاوُدُ مَكَانَهُ حَتَّى قُبِضَتْ نَفْسُهُ حَتَّى فَرَغَ مِنْ شَأْنِهِ ، وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ عليه السلام لِلطَّيْرِ : أَظِلِّي دَاوُدَ ، فَظَلَّلَتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَتَّى أَظْلَمَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ ، فَقَالَ

(١) ذكره السيوطي في الدر (١٠٣/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٣/٢) .

لَهَا سُلَيْمَانُ : اقْبِضِي جَنَاحًا جَنَاحًا » قال أبو هريرة : يا رسول الله كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله ﷺ يده وغلبت عليه يومئذ المضرحية [١] . قال أبو الفرج ابن الجوزي : المضرحية هي النسور الحمراء. وقوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعني : ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه ، والجن وهم بعدهم في المنزلة والطير ، ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها . وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي : يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له . قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم . وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ أي : حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم . ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ أي : ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان ، وعلى والدي بالإسلام لك ، والإيمان بك ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ أي : عملًا تحبه وترضاه . ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي : إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَمْلَةٌ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ، أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ ؟ فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً ؟ » [٢] .

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قال ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندسًا يدل سليمان عليه السلام على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه ، فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان ، فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره . فنزل سليمان عليه السلام يومًا بفلاة من الأرض ، فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ حدث يومًا عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس فقال له : قف يا ابن عباس غلبت اليوم ، قال : ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض ، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ، ويحثو على الفخ ترابًا فيجيء الهدهد ليأخذها ، فيقع في الفخ فيصيده الصبي . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس لما أجبته ثم قال له : ويحك إنه إذا نزل القدر عمي البصر ، وذهب الحذر ، فقال له نافع : والله لا أجادلك في شيء من

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١٩/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٩) ومسلم في (السلام) (١٤٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٠٣/٢) .

القرآن أبدًا . وقوله : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال ابن عباس : يعني نتف ريشه ، وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه ملقي يأكله الذر والنمل . وقوله : ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ يعني قتله ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ بعذر بيِّن واضح ، وقال سفيان بن عيينة : لما قدم الهدهد قالت الطير : ما خلفك فقد نذر سليمان دمك ، فقال : هل استثنى ؟ قالوا : نعم قال : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ قال : نجوت إذًا .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ الهدهد . ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي : غاب زمانًا يسيرًا ، ثم جاء فقال لسليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أي : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك . ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أي : بخبر صدق حق يقين ، وسبأ : هم حمير ، وهم ملوك اليمن ، ثم قال : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ قال الحسن البصري : وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ، وقال قتادة : كانت من بيت مملكة ، وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلًا كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل ، وكانت بأرض يقال لها : مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء . وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي : من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني : سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ . قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم ، وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مشرقه ، ومثلها من مغربه ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة ، وتغرب من مقابلها ، فيسجدون لها صباحًا ومساءً . ولهذا قال : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي : عن طريق الحق ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ﴾ معناه . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ﴾ أي : لا يعرفون سبيل الحق التي هي : إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ . وقرأ بعضهم (ألا يا اسجدوا لله) [1] جعلها ألا الاستفتاحية ويا للنداء وحذف المنادى تقديره عندهم : ألا يا قوم اسجدوا لله . وقوله : ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . قال ابن عباس : يعلم كل خبيئة في السماء والأرض . وقال سعيد بن المسيب : الخبء الماء . وقال عبد الرحمن بن زيد : خبء السماوات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق ؛ المطر من السماء ، والنبات من الأرض . وهذا

---

(١) قرأ أبو جعفر والكسائي ورويس (ألا يا اسجدوا) بتخفيف اللام ويقفون (ألا يا) ويبتدئون (اسجدوا) بهمزة مضمومة على الأمر فهو في تقدير (ألا يا هؤلاء اسجدوا) فهما كلمتان فمن فصلت وقفًا ، والباقون بتشديد اللام ويسجدوا كلمة واحدة فلذا لم تفصل (انظر : تقريب النشر ص : ١٥٤) .

مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها . وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي : يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال . وقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : هو المدعو الله وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعيًا إلى الخير ، وعبادة الله وحده ، والسجود له نهي عن قتله . فعن أبي هريرة ﷺ قال : نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد [(١)] .

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قول قول سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ أي : في إخبارك هذا ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ في مقالتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ وذلك : أن سليمان عليه السلام كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها ، وأعطاه ذلك الهدهد فحمله ، وذهب إلى بلادهم ، فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ، ثم تولى ناحية ؛ أدبًا ورياسة ، فتحيرت مما رأت وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها وكبراء دولتها ومملكتها . ثم قالت لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره ، كون طائر ذهب به فألقاه إليها ، ثم تولى عنها أدبًا ، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، ثم قرأته عليهم : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام ، وأنه لا قبل لهم به ، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة ، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها . وقال العلماء : لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾ قال قتادة يقول : لا تجبروا علي ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . وقال عبد الرحمن ابن زيد : لا تمتنعوا ولا تتكبروا عليَّ وأتوني مسلمين . قال ابن عباس : موحدين ، وقال غيره : مخلصين ، وقال سفيان بن عيينة : طائعين .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها ولهذا قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أي : حتى تحضرون وتشيرون ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٢/١ ، ٣٤٧) وأبو داود في سننه (٥٢٦٧) وابن ماجه في سننه (٣٢٢٤) .

﴿ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي : منوا بَعَددِهم وعُدَدِهم وقوتهم ، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أي : نحن ليس لنا عاقة ، ولا بنا بأس إن شئت أن تقصديه وتحاربيه فما لنا عاقة عنه . قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ : فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرًا عجيبًا بديعًا . فقالت لهم : إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه ، فيقصدنا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إليَّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا . ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ قال ابن عباس : أي إذا دخلوا بلدًا عنوة أفسدوه أي : خربوه . ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ أي : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر . قال ابن عباس : قالت بلقيس : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ قال الرب عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة ، والمسالمة والمخادعة والمصانعة . فقالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي : سأبعث إليه بهدية تليق بمثله ، وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجًا نحمله إليه في كل عام ونلتزم له بذلك ، ويترك قتالنا ومحاربتنا . قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ : ما كان أعقلها في إسلامها وشركها ، علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس . وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك . وقال بعضهم : أرسلت بلبن من ذهب . والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب . والظاهر أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكرًا عليهم : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ أي : أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم ؟ ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾ أي : الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ أي : أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل إلا الإسلام أو السيف .

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : بهديتهم ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أي : لا طاقة لهم بقتالهم . ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً ﴾ أي : ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي : مهانون مدحورون . فلما رجعت إليها رسلها بهديتها ، وبما قال سليمان : سمعت وأطاعت هي وقومها ، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان ناوية متابعته في الإسلام ، ولما تحقق سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قدومهم عليه ، ووفودهم إليه فرح بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ .

عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد والله عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته شيئًا ، وبعثت إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك ، وما تدعونا إليه من دينك ، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه . وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى آتيك ، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف ، قيل : من ملوك اليمن تحت يدي كل قَيْلٍ منهم ألوف كثيرة ، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من الجن والإنس ممن تحت يده فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ . وقال قتادة : لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه . وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مستترًا بالديباج والحرير ، وكانت عليه تسعة مغاليق ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم فقال : ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ وهكذا قال عطاء والسدي .

﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ فتحرم عليَّ أموالهم بإسلامهم ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ قال مجاهد : أي مارد من الجن ، قال أبو صالح : وكان كأنه جبل ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ قال ابن عباس ﷺ : يعني قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك . وقال السدي وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات ، وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ قال ابن عباس : أي قوي على حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر ، فقال سليمان عليه السلام : أريد أعجل من ذلك ، ومن ها هنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك ، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان : أريد أعجل من ذلك ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان ، وكان صديقًا يعلم الاسم الأعظم . وقال قتادة : كان مؤمنًا من الإنس واسمه آصف . زاد قتادة : من بني إسرائيل . وقال زهير بن محمد : هو رجل من الإنس يقال له ذو النور . وقوله : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أي ارفع بصرك ، وانظر مد بصرك مما تقدر عليه ، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك ، فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى . قال مجاهد : قال : يا ذا الجلال والإكرام . قال الزهري : قال : يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت ائتني بعرشها . قال : فمثل بين يديه . قال مجاهد وغيره : لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس ، وكان في اليمن وسليمان عليه السلام ببيت المقدس غاب السرير ، وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان .

وقال عبد الرحمن بن زيد أسلم : لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه قال : وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر ، فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقرًا عنده ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ

رَبِّي ﴾ أي : هذا من نعم الله عليّ ﴿ لِيَبْلُوَنِيٓ ﴾ أي : ليختبرني ﴿ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ . كقوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أي : هو غني عن العباد وعبادتهم ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي : كريم في نفسه ، وإن لم يعبده أحد ، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد ، وهذا كما قال موسى : ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وفي صحيح مسلم « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (١) .

﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها ، أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال : ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه ، وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر ، وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله . وقال عكرمة : زاودا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ، ومقدمه مؤخره ، وزادوا فيه ونقصوا ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أي : عرض عليها عرشها وقد غيّر ونكر ، فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته ، وإن غيّر وبدل ونكر . فقالت : ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ أي : يشبهه ويقاربه . وهذا غاية في الذكاء والحزم . وقوله : ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قال مجاهد : يقوله سليمان ، وقال تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام في قول مجاهد ، أي : قال سليمان ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ، وهي كانت قد صدها أي : منعها من عبادة الله وحده ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ . وهذا الذي قاله مجاهد حسن ، وقاله ابن جرير أيضًا ، ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون في قوله : ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله عز وجل تقديره ومنعها ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي : صدها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ قلت : ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي .

وقوله : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيمًا من قوارير ، أي : من زجاج ، وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ لا

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) وأحمد في مسنده (٥/١٧٧) .

تشك أنه ماء تخوضه قيل لها ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ . فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله ﷻ وحده ، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله فقالت بقول الزنادقة . فوقع سليمان ساجدًا إعظامًا لما قالت ، وسجد معه الناس ، فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ماذا قلت ؟ قالت : أنسيت ما قلت ؟ فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فأسلمت وحسن إسلامها .

قلت : أصل الصرح في كلام العرب هو : القصر وكل بناء مرتفع ، قال ﷻ إخبارًا عن فرعون لعنه الله أنه قال لوزيره هامان ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ الآية . والصرح قصر في اليمن عالي البناء ، والممرد المبني بناءً محكمًا أملس ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أي : زجاج ، وتمريد البناء تمليسه ، ومارد : حصن بدومة الجندل . والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة ليريها عظيمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى ، وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، وأسلمت لله ﷻ . وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي : بما سلف من كفرها وشركها ، وعبادته وقومها للشمس من دون الله ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أي : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته . ولهذا قال : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أي : ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرًا ، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحدًا منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه . قال مجاهد : تشاءموا بهم ، وهذا كما قال الله تعالى إخبارًا عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾ الآية . وقال هؤلاء : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : الله يجازيكم على ذلك ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية . والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ تُفْتَنُونَ ﴾ أي : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر ، وتكذيب صالح وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضًا ، بأن يبيتوه في أهله ليلًا ، فيقتلوه

غلية ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك . فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي : مدينة ثمود ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي : تسعة نفر ﴿ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ؛ لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم . قال ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أي : الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك . قال تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ . وقال عطاء - ابن أبي رباح - ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم ، يعني أنهم كانوا يأخذون منها ، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عددًا كما كان العرب يتعاملون . وعن سعيد بن المسيب أنه قال : قطع الذهب والورق من الفساد في الأرض ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس [1] . والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها ، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ أي : تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلًا غيلة ، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم . قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا على هلاكه ، فلم يصلوا إليه ، حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء التسعة بعدما عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحًا ، فإن كان صادقًا عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذبًا كنا قد ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلًا ليبيتوه في أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح ، فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبدًا ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقًا تزيدوا ربكم عليكم غضبًا ، وإن كان كاذبًا فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك . وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : لما عقروا الناقة قال لهم صالح : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ قالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام ، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث . وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعيب هناك يصلي فيه ، فخرجوا إلى كهف - أي : غار - هناك ليلًا فقالوا : إذا جاء يصلي قتلناه ، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ، ففرغنا منهم . فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم ، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا ، فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار فلا يدري قومهم أين هم ، ولا يدرون ما فعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء ها هنا ، وهؤلاء هاهنا ، وأنجى الله صالحًا ومن معه ثم قرأ : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ أي : فارغة ليس فيها أحد ﴿ بِمَا ظَلَمُوٓا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٤١٩) .

يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۞ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أنذر قومه نقمةَ اللَّه بهم في فعلهم الفاحشةَ ، التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكور دون الإناث ، وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، فقال : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أي: يرى بعضكم بعضًا ، وتأتون في ناديكم المنكر ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أي : لا تعرفون شيئًا لا طبعًا ولا شرعًا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ . ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي : يتحرجون من فعل ما تفعلونه ، ومن إقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم ، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم ، فعزموا على ذلك ، فدمر اللَّه عليهم وللكافرين أمثالهم ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ أي : من الهالكين مع قومها ؛ لأنها كانت ردءًا لهم على دينهم وعلى طريقتهم ، في رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي اللَّه ﷺ لا كرامة لها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أي : حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ولهذا قال : ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي : الذين قامت عليهم الحجة ووصل إليهم الإنذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه ، وهموا بإخراجه من بينهم .

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يسلم على عباد اللَّه الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام ، وقال الثوري : هم أصحاب محمد ﷺ ، ورضي عنهم أجمعين . ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد اللَّه الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى . والقصد أن اللَّه تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر ، أن يحمدوه على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار . وعن ابن عباس : ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ قال : هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم اللَّه لنبيه رضي الله عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ؟ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع اللَّه آلهة أخرى ، ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره فقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي : خلق تلك السماوات في ارتفاعها وصفائها . وما جعل فيها ، وخلق الأرض في استفالها وكثافتها ، وما جعل فيها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي : جعله رزقًا للعباد ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ﴾ أي : بساتين . ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي : منظر حسن وشكل بهي ﴿ مَّا

كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ أي : لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها . وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل ، بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ أي : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق . وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة ، من هو المتفرد بالخلق والرزق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أي : أإله مع الله يعبد ، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضًا أنه الخالق الرازق ؟!! . ومن المفسرين من يقول : معنى قوله : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ فعل هذا ، وهو يرجع إلى معنى الأول ؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المتفرد به . فيقال : كيف تعبدون معه غيره ، كما قال : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ الآية . وقوله تعالى ها هنا : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ . ﴿ أَمَّنْ ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق ، وإن لم يذكر الآخر ؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك . وقد قال تعالى : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، ثم قال في الآية الأخرى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : يجعلون لله عدلاً ونظيرًا . وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي : أمن هو شهيد على أفعال الخلق حركاتهم وسكناتهم ، يعلم الغيب جليله وحقيره ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله ؟

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي : قارة ساكنة ثابتة لا تميد ، ولا تتحرك بأهلها ، ولا ترتجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهادًا بساطًا ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك . ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾ أي : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها في خلالها ، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار ، وبين ذلك . وسيرها بحسب مصالح عباده وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه . ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أي : جبالًا شامخة ترسي الأرض ، وتثبتها لئلا تميد بكم . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أي : تجعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا أي : مانعًا يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا . فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه . فإن الأنهار السارحة الجارية بين الناس المقصود منها أن تكون عذبة زلالًا يسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة ماؤها ملح أجاج لئلا يفسد الهواء بريحها كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أي : فعل هذا أو يعبد على القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : في عبادتهم غيره .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ أي : من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه . عن جابر بن سليم الهجيمي قال :

أتيت رسول الله ﷺ وهو محتب بشملة ، وقد وقع هدبها على قدميه فقلت : أيكم محمد رسول الله ؟ فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت : يا رسول الله أنا من أهل البادية وفيّ جفاؤهم فأوصني قال : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ المُسْتَقِي ، وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ ، فَلَا تَشْتِمْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ وِزْرُهُ ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ ، فَإِنَّ إِسبالَ الإِزارِ مِنَ المَخِيلَةِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ المَخِيلَةَ ، وَلَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا » . قال : فما سببت بعده أحدًا ولا شاة ولا بعيرًا [(١)] . وقال عبيد الله بن أبي صالح : دخل عليّ طاوس يعودني فقلت له : ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن . فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أي : يخلف قرنًا لقرن قبلهم ، أي : أمة بعد أمة ، وجيلًا بعد جيل ، وقومًا بعد قوم ، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ، ولكن لا يميت أحدًا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض ، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويذرأهم في الأرض ، ويجعلها قرونًا بعد قرون ، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أي : يقدر على ذلك أو أإله مع الله بعد هذا ! وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له ؟ ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي : بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين الأذلين القنطين ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

أي : هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ . ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الارض ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء فيسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار ، والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أي : فعل هذا ، وعلى القول الآخر بعد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٨٣/٣) والبيهقي في سننه (١٨٨/٤) .

هذا ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ، ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول معلمًا لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ استثناء منقطع أي : لا يعلم أحد ذلك إلا الله ﷻ ، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية . والآيات في هذا كثيرة . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : وما يشعر الخلائق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى : ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أي : ثقل علمها على أهل السماوات والأرض . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : من زعم أنه يعلم - يعني النبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وقال قتادة : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجومًا للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك ، فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . وإن أناسًا جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذهِ النجومِ كهانة ، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والذميم ، وما علم هذا النجم ، وهذه الدابة ، وهذا الطير بشيء من الغيب ، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون . وقوله : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أي : إنتهى علمهم ، وعجز عن معرفة وقتها . وقرأ آخرون : ﴿ بَلِ ادْرك عِلْمُهُمْ ﴾ أي : تساوى علمهم في ذلك . كما في الصحيح لمسلم أن رسول الله ﷺ قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة : « مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » [1] أي : تساوى في العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل . قال ابن عباس : أي غاب . وقال قتادة : يعني : بجهلهم بربهم ، يقول : لم ينفذ لهم علم في الآخرة . وعن عطاء الخراساني ابن عباس : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي : حين لم ينفع العلم . وبه قال السدي أن علمهم إنما يدرك ، ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك . كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . وعن الحسن أنه كان يقرأ : ﴿ بل أدرك علمهم ﴾ [2] قال : اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ عائد على الجنسِ والمراد الكافرون . أي شاكون في وجودها ووقوعها . ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أي : في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها .

---

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (١ ، ٧ ، ٥) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ بل أدرك ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ﴿ بل ادارك ﴾ انظر زاد المسير (١٨٨/٦) .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن منكري البعث من المشركين أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظامًا ورفاتًا وترابًا ثم قال : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي : ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ، ولا نرى له حقيقة ، ولا وقوعًا ، وقولهم : ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي : أخذه قوم عمن قبلهم من كتبهم يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة ، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : المكذبين بالرسل وبما جاءهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف حلت بهم نقمة اللَّه وعذابه ونكاله ، ونجى اللَّه من بينهم رسله الكرام ، ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم ، وتذهب نفسك عليهم حسرات . ﴿ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي : في كيدك ورد ما جئت به ، فإن اللَّه مؤيدك وناصرك ، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ قال اللَّه تعالى مجيبًا لهم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ . قال ابن عباس : أن يكون قرب أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون . وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ . وإنما دخلت اللام في قوله : ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ لأنه ضمن معنى عجل لكم ، كما قال مجاهد في رواية عنه : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ عجل لكم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي : في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي : يعلم الضمائر والسرائر ، كما يعلم الظاهر . ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ . ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السماوات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو ما غاب عن العباد ، وما شاهدوه فقال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ ﴾ قال ابن عباس يعني : وما من شيء ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان ، أنه يقص على بني إسرائيل ، وهم حملة التوراة والإنجيل : ﴿ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ كاختلافهم في عيسى ،

وتباينهم فيه فاليهود افتروا ، والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام . كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : هدى لقلوب المؤمنين به ، ورحمة لهم في العمليات . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم ﴾ أي : يوم القيامة . ﴿ بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي : في انتقامه ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم . ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي : في جميع أمورك ، وبلغ رسالة ربك . ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ . أي : أنت على الحق المبين ، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي : لا تسمعهم شيئًا ينفعهم . فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفي آذانهم وقر الكفر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : إنما يستجيب لك من هو سميع بصير السمع والبصر النافع في القلب ، والبصيرة الخاضع لله ، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركِهم أوامرَ الله ، وتبديلهمُ الدينَ الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل : من مكة ، وقيلَ : من غيرها - كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى - فتكلم الناس على ذلك . قال ابن عباس : ويروى عن علي ﷺ تكلمهم كلامًا أي : تخاطبهم مخاطبة . وقال عطاء الخراساني : تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . وفي هذا القول نظر لا يخفى والله أعلم . وقال ابن عباس في رواية : تجرحهم ، وعنه رواية قال : كلًّا تفعل يعني هذا وهذا ، وهو قول حسن ، ولا منافاة والله أعلم . وفي الحديث : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشرَ آياتٍ : طُلُوعَ الشَّمْس مِنْ مَغْرِبها ، وَالدُّخانَ ، وَخُرُوجَ يَأْجُوجَ ومأجوج ، وَخُرُوجَ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عليه السلام ، وَالدَّجَّالَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِالمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِجَزيرَةِ العَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَن تَسُوقُ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ تَبِيتُ مَعَهُمْ حيث بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهمْ حَيْثُ قَالُوا » (١) .

وعنه ﷺ قال : « إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى ، وأَيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا ، فَالأُخْرَى عَلَى أَثَرِهَا قَرِيبًا » (٢) .

وعنه ﷺ قال : « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدُّخَانَ ، والدجَّالَ ، والدَّابَّةَ ، وخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ ، وَأَمْرَ العَامَّةِ » (٣) .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الفتن (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٧/٤) والترمذي في سننه (٢١٨٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٠٦٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الفتن (١٢٨ ، ١٢٩) والإمام أحمد في مسنده (٤٠٧/٢) .

يقول تعالى مخبرًا عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله ﷻ ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقريعًا وتوبيخًا ، وتصغيرًا وتحقيرًا فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أي : من كل قوم وقرن فوجًا أي : جماعة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال ابن عباس ﵄ : يدفعون وقال قتادة : وزعة ترد أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد : يساقون ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا ﴾ ووقفوا بين يدي الله ﷻ في مقام المسألة ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة . وكانوا كما قال الله عنهم : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ الآية . وهكذا قال ها هنا : ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد وردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية . ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي : في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه ، وتهدأ أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي : منيرًا مشرقًا فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ۝ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ۝ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه . وفي حديث الصور أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولًا نفخة الفزع ويطولها ، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من في السماوات ، ومن في الأرض ﴿ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون . عن عبد الله بن عمرو ﵄ وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ؟ أو : لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما . لقد هممت أن لا أحدث أحدًا شيئًا أبدًا ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا يخرب البيت ، ويكون ويكون - ثم قال - قال رسول الله ﷺ : « يَخْرُجُ الدَّجَّالُ في أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ الله عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إلا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ في كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تقبضَهُ » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال : « فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ في خِفَّةِ الطَّيرِ ، وَأَحْلام السِّبَاع لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ : أَلَا تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟

فيأمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأوْثَانِ ، وَهُمْ في ذلِكَ دَارٌ رِزْقُهُمْ ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ، ثُمَّ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَلا يَسْمَعُه أَحَدٌ إلَّا أصْغَى لَيتًا ورَفَعَ لَيتًا - قَالَ : وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حوضَ إبِلِهِ قَالَ : فَيَصْعَقُ ، وَيُصْعَقُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّه - أَوْ يُنْزِلُ اللَّه - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قال الظلّ - شعبة الشاك - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسادُ النَّاسِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخرى ، فإذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ، وقِفُوهُمْ إنَّهُمْ مَسؤُولُونَ ثُمَّ يُقَالُ : أَخرِجُوا بَعْثَ النَّارِ ، فَيُقَالُ : مِنْ كَمْ . فَيُقَالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَة وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ قَالَ : فَذَلِكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا ، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ »(1). ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ أي : صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ وفي حديث الصور أنه في النفخة الثالثة يأمر اللَّه الأرواح ، فتوضع في ثقب في الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعدِ ما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نورًا ، وأرواح الكافرين ظلمة . فيقول اللَّه ﷻ: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم في اللديغ ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم . قال اللَّه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ أي : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهي تمر مر السحاب أي تزول عن أماكنها . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي : يفعل ذلك بقدرته العظيمة . ﴿ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي : أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي : هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء . ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ قال قتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هي لا إله إلا اللَّه ، وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أي : من لقي اللَّه مسيئًا لا حسنة له ، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه . ولهذا قال تعالى : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال ابن عباس وأبو هريرة في قوله : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ : يعني بالشرك .

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا رسوله وآمرًا له أن يقول : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف والاعتناء ، وقوله تعالى :

(1) أخرجه مسلم في الفتن (١١٦) والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٥٠) والإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٦٦) .

﴿ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ أي : الذي إنما صارت حرامًا شرعًا وقدرًا بتحريمه لها . كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّه إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، وَلَا يلْتَقِطُ لقطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا ، وَلَا يخْتَلى خَلَاهَا »[(١)] . الحديث بتمامه . وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ من باب عطف العام على الخاص أي : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي : الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له . وقوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي : أنا مبلغ ومنذر . ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أي : لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلصوا من عهدتهم ، وحساب أممهم على اللَّه تعالى كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ . ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أي : للَّه الحمد الذي لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بل هو شهيد على كل شيء . عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَغْتَرَّنَّ أَحَدُكُمْ بِاللَّه ، فَإِنَّ اللَّه لَوْ كَانَ غَافِلًا شَيْئًا لأَغْفَلَ البَعُوضَةَ وَالخَرْدَلَةَ والذَّرَّةَ » . وعن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان اللَّه مغفلًا شيئًا لأغفل ما تعفي الرياح من أثر قدمي ابن آدم .

وقد ذكر عن الإمام أحمد أنه كان ينشد هذين البيتين إما له وإما لغيره :

إذا ما خلوت الدهر يومًا لا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن اللَّهَ يغفلُ ساعةً ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٧٨) ومسلم في الحج (٤٤٦) .

سورة القصص

عن معد يكرب قال : أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا طسم المائتين ، فقال : ما هي معي ، ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الأرت ، قال : فأتينا خباب بن الأرت ، فقرأها علينا ﷺ (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ .

وقد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ أي : هذه ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي : الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان ، وما هو كائن . وقوله : ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية . كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ أي : نذكر لك الأمر على ما كان عليه ، كأنك تشاهد وكأنك حاضر . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : تكبر وتجبر وطغى . ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي : أصنافًا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته . وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ يعني : بني إسرائيل ، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم . هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملها في أخسّ الأعمال ، ويكدهم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ، ويستحيي نساءهم إهانة لهم ، واحتقارًا ، وخوفًا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه ، وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل ﷺ ، حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ، ومنعه منها بقدرته وسلطانه . فبشر إبراهيم ﷺ ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه ، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل . ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب ولهذا قال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ - إلى قوله - يَحْذَرُونَ ﴾ . وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ - إلى قوله - يَعْرِشُونَ ﴾ . أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ، وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفًا من الولدان ، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٩/١) .

على يديه . لتعلم أن رب السماوات العلى هو القاهر الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتًا ، ومهدت فيه مهدًا ، وجعلت ترضع ولدها ، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته في ذلك التابوت ، وسيرته في البحر ، وربطته بحبل عندها . فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعته في ذلك التابوت ، وأرسلته في البحر ، وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء واحتمله ، حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري ، فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون . ولا يدرين ما فيه ، وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها ، فلما كشفت عنه إذا هو غلام في أحسن الخلق ، وأجمله وأحلاه وأبهاه ، فأوقع اللَّه محبته في قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها وما أراد اللَّه من كرامتها وشقاوة بعلها . ولهذا قال : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ الآية . قال محمد بن إسحاق وغيره : اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل ؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه . ولكن إذا نظر إلى معنى السياق ، فإنه تبقى اللام للتعليل ؛ لأن معناه أن اللَّه تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوًّا لهم وحزنًا ، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ الآية . يعني أن فرعون لما رآه همَّ بقتله خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل ، فشرعت امرأته آسيه بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه ، وتحببه إلى فرعون فقالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ فقال فرعون : أما لك فنعم وأما لي فلا ، فكان كذلك ، وهداها اللَّه بسببه ، وأهلكه اللَّه على يديه . وقوله : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ وقد حصل لها ذلك ، وهداها اللَّه به ، وأسكنها الجنة بسببه . وقوله : ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي : أرادت أن تتخذه ولدًا وتتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : لا يدرون ما أراد اللَّه منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغًا أي : من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي : إن كادت من شدة وجدها وحزنها ، وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد ، وتخبر بحالها لولا أن اللَّه ثبتها وصبَّرها . قال اللَّه تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي : أمرت ابنتها ، وكانت

كبيرة تعي ما يقال لها فقالت لها : ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أي : اتبعي أثره وخذي خبره ، وتطلبي شأنه من نواحي البلد ، فخرجت لذلك . ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ . قال مجاهد : بصرت به عن جنب : عن بعد .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده . وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التي في دارهم فلم يقبل منها ثديًا ، وأبى أن يقبل شيئًا من ذلك ، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها . قال تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : تحريمًا قدريًا ؛ وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه ، ولأن الله ﷻ جعل ذلك سببًا إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة . فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ، ورجاء منفعته ، فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك ، وخلصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلها ، فدخلوا به على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا ، وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلًا ، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها ، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها ، وقالت : إن لي بعلًا وأولادًا ، ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجرت عليها النفقة والصلات ، والكساوي والإحسان الجزيل . ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أي : به ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أي عليه . ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين ، فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعًا وشرعًا . وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ، ذكر أنه لما بلغ أشده ، واستوى آتاه الله حكمًا وعلمًا . قال مجاهد يعني : النبوة . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة ، والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين . فقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ . قال ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء . وعن عطاء بن يسار عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار . ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي :

يتضاربان ويتنازعان ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أي : إسرائيلي . ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أي : قبطي . فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام ، فوجد موسى فرصة ، وهي غفلة الناس ، فعمد إلى القبطي ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ قال مجاهد : ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾ أي : طعنه بجمع كفه . وقال قتادة : وكزه بعصا كانت معه فقضى عليه أي : كان فيها حتفه فمات . ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ أي : بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ أي معينًا ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۝ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا ﴾ أي : من معرة ما فعل ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر . فمر في بعض الطر ق، فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر ، فقال موسى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي : ظاهر الغواية كثير الشر ، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ ؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون ، وألقاها عنده . فعلم فرعون بذلك ، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى ، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ وصفه بالرجولية ؛ لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقًا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه فسبق إلى موسى فقال له : يا موسى . ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أي : يتشاورون فيك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾ أي : من البلد ﴿ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قبله بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة . ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : يتلفت . ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : من فرعون وملئه ، فذكروا أن الله ﷻ بعث إليه ملكا على فرس ، فأرشده إلى الطريق فالله أعلم . ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أي : أخذ طريقًا سالكا مهيعًا فرح بذلك . ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي : الطريق الأقوم ، ففعل الله به ذلك ، فجعله هاديًا مهديًا . ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أي : لما وصل إلى مدين ، ورد ماءها ، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء . ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ

ﭐلنَّاسِ يَسۡقُونَ ﴾ أي : جماعة يسقون . ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ ﴾ أي : تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا . فلما رآهما موسى ﷺ رق لهما ورحمهما ﴿ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ ﴾ أي : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ ﴾ أي : لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء . ﴿ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴾ أي : فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى . قال اللَّه تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ . روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى ﷺ لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرةُ رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافيًا فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل ، وهو صفوة اللَّه من خلقه ، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . وقوله : ﴿ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ قال ابن عباس : جلس تحت شجرة ، وقال عبد اللَّه ابن مسعود : حثثت على جمل ليلتين حتى صبَّحْت مدين ، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى ، فإذا هي شجرة خضراء ترف فأهوى إليها جملي ، وكان جائعًا ، فأخذها جملي فعالجها ساعة ، ثم لفظها فدعوت اللَّه لموسى ﷺ ، ثم انصرفت [1] . وقال السدي : كانت الشجرة من شجر السمر [2] . وقال عطاء بن السائب : لما قال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ أسمع المرأة .

﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ۝ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾ .

لما رجعت المرأتان سريعًا بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعًا ، فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى ﷺ . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال اللَّه تعالى : ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾ أي : مشي الحرائر . كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء دلاجة ولاجة خراجة . قال الجوهري : السلفع من الرجال الجسور ، ومن النساء الجرية السليطة ومن النوق الشديدة . ﴿ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ ﴾ وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلبًا مطلقًا لئلا يوهم ريبة ، بل قالت : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ ﴾ يعني : ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا . ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ ﴾ أي : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يقول : طب نفسًا ، وقرَّ عينًا ، فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم في بلادنا . ولهذا قال : ﴿ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ

(١) أورده ابن جرير الطبري في تفسيره (٧٢/٢٠) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٢٥/٥) .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو ؟ على أقوال ؛ أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء . وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة ؛ تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد ، وما قيل إن شعيبًا عاش مدة طويلة ، إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ها هنا . وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ أي : قالت إحدى ابنتي هذا الرجل ، قيل : هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ أي : لرعيه هذه الغنم ، قال عمر وابن عباس : لما قالت : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرةُ رجال ، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اختلفت علي الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه . وقال عبد الله ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال : أكرمي مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ . قال : ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ ﴾ أي : طلب إليه هذا الرجلُ الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ، ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين ، وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : بعتك أحد هذين العبدين بمائة فقال : اشتريت ، أنه يصح . والله أعلم .

وقوله : ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ ﴾ أي : على أن ترعى غنمي ثماني سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك ، وإلا ففي الثمان كفاية . ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي : لا أشاقك ولا أؤذيك ، ولا أماريك . وقوله تعالى إخبارًا عن موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ . إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين ، فإن أتممت عشرًا فمن عندي ، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد ، وخرجت من الشرط . ولهذا قال : ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ﴾ أي : فلا حرج علي مع أن الكامل ، وإن كان مباحًا ، لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج . كما قال تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ وقال رسول الله ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه ، وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصوم في السفر فقال : « إِنْ شِئْتَ فَصُمْ وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ » (١) . مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر . هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما . وعن سعيد بن جبير قال : قال سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟

---

(١) أخرجه مسلم في (الصيام) (١٠٣) والإمام أحمد في مسنده (٣/٤٩٤) .

فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت على ابن عباس ، فسألته فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل .

وعن محمد بن كعب القرظي أن النبي ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ - قال -: « أوفاهما وأتمهما » (١) .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ۝ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ .

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما ، وأكملهما وأنقاهما . وقد يستفاد هذا أيضًا من الآية الكريمة حيث قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ ﴾ أي : الأكمل منهما والله أعلم . وقال مجاهد : قضى عشر سنين ، وبعدها عشرًا أخر ، وهذا القول لم أره لغيره ، فالله أعلم . وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ﴾ قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله ، وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره ، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلًا فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئًا فتعجب من ذلك ، فبينما هو ذلك كذلك : ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ ﴾ أي : رأى نارًا تضيء على بعد ف ﴿ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾ أي : حتى أذهب إليها ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق . ﴿ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي : قطعة منها ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ أي : تستدفئون بها من البرد . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ أي : من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب . والنار قد وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لفح الجبل مما يلي الوادي ، فوقف باهتًا في أمرها . فناداه ربه ﴿ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ وعن أبي عبيدة عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التي نودي منها موسى عليه السلام سمرة خضراء ترف ، وقال قتادة : هي من العوسج ، وعصاه من العوسج ، وقوله تعالى : ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي : الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ، وقوله : ﴿ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ ﴾ أي : التي في يدك قال تعالى : ﴿ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴾ فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون . وقال ها هنا : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ ﴾ أي : تضطرب ﴿ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا ﴾ أي : في حركتها السريعة مع عظم خلقتها ، وقوائمها واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها ، تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادة في واد فعند ذلك ﴿ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ ﴾ . أي ولم يكن يتلفت ؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك ، فلما قال الله له : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول ، ثم قال الله تعالى : ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ

---

(١) الطبري في تفسيره (٢٠/٨٥) .

سُوٓءٍ ﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ، ثم أخرجتها ، فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق . ولهذا قال : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي : من غير برص .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ قال مجاهد : من الفزع . وقال قتادة : من الرعب . وقال عبد الرحمن بن زيد : مما حصل لك من خوفك من الحية ، والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر ﷺ إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهو يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء ، فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة . وقوله تعالى : ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني إلقاء العصا ، وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ أي : وقومه من الرؤساء ، والكبراء والأتباع . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ أي : خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ .

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خرج من ديار مصر فرارًا منه ، وخوفًا من سطوته . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يعني ذلك القبطي ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أي : إذا رأوني ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾ وذلك أن موسى ﷺ كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدة في التعبير ، ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ أي : وزيرًا ومعينًا ، ومقويًا لأمري يصدقني فيما أقوله ، وأخبر به عن الله ﷻ ؛ لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد ولهذا قال : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ وقال محمد بن إسحاق : ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ أي : يبين لهم عني ما أكلمهم به ، فإنه يفهم عني ما لا يفهمون . فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي : سنقوي أمرك ، ونعز جانبك الذي سألت له أن يكون نبيًا معك . وقوله تعالى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾ أي : حجة قاهرة ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي : لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ - إلى قوله - وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أي : وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ومؤيدًا ، ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ، ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة ، فقال تعالى : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ووجه ابن جرير على أن المعنى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ ، ثم يبتدئ فيقول : ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ تقديره أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا . ولا شك أن هذا المعنى صحيح ، وهو حاصل من التوجيه الأول ، فلا حاجة إلى هذا والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة ، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله ﷻ . فلما عاين فرعون وملؤه ذلك ، وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم ، وبغيهم إلى العناد والمباهتة ، وذلك لطغيانهم ، وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى ﴾ أي : مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك . وقوله : ﴿ وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ يعنون : عبادة الله وحده لا شريك له ، ويقولون : ما رأينا أحدًا من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى . فقال موسى عليه السلام مجيبًا لهم : ﴿ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ ﴾ يعني : مني ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم ولهذا قال : ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ ﴾ أي : من النصرة والظفر والتأكيد . ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي : المشركون بالله ﷻ .

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ۝ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه ، وافترائه في الإلهية لنفسه القبيحة لعنه الله : كما قال تعالى : ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ ﴾ وذلك أنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية : فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم ، قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ ؛ وانتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة ، وحتى أنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ يعني : أمر وزيره هامان ، ومدبر رعيته ، ومشير دولته ، أن يوقد له على الطين يعني : يتخذ له آجرًا لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع العالي كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴾ .

وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ أي : في قوله أن ثمّ ربًا غيري لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله ؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا ، فإنه قال : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وقال : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾ وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾ أي : طغوا وتجبروا ، وأكثروا في الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾ ولهذا قال تعالى ها هنا :

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أي : أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد . ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي : لمن سلك وراءهم ، وأخذ طريقتهم في تكذيب الرسل ، وتعطيل الصانع . ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولًا بذل الآخرة وقوله تعالى : ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي وشرع الله لعنتهم ، ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله ، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء ، وأتباعهم كذلك . ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على موسى الكليم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه . وقوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين . وقال أبو سعيد الخدري : ما أهلك الله قومًا بعذاب من السماء ، ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى . ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾[1] . وقوله : ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي : من العمى والغي ، ﴿ وَهُدًى ﴾ إلى الحق ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي : إرشادًا إلى العمل الصالح ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على برهان نبوة محمد ﷺ ، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرًا كأن سامعه شاهد وراءٍ لما تقدم ، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئًا من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئًا من ذلك . ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ يعني : ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطىء الوادي ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ لذلك ، ولكن الله ﷻ أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهانًا على قرون قد تطاول عهدها ، ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي : وما كنت مقيمًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه وما ردوا عليه : ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك إلى الناس رسولًا . ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ عن أبي هريرة ﷺ قال : نودوا أن : يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وأجبتكم قبل أن تدعوني[2] .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠/٩٨) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠/١٠٠) .

وقال مقاتل بن حيان : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت . وقال قتادة : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى . وهذا - والله أعلم - أشبه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ ثم أخبر ها هنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي : ما كنت مشاهدًا لشيء من ذلك ، ولكن الله تعالى أوحاه إليك ، وأخبرك به رحمة منه بك ، وبالعباد بإرسالك إليهم : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله ﷻ ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ الآية . أي : وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول . أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد ، والكفر والجهل والإلحاد : ﴿ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ الآية . يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل : العصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار ، وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة والحجج القاهرة ، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام حجة وبرهانًا له على فرعون وملئه وبني إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه . بل كفروا بموسى وأخيه هارون كما قالوا لهما : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي : أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾ أي : تعاونا ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ أي : بكل منهما كافرون .

قال مجاهد : أمرت اليهود قريشًا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك فقال الله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾ قال : يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم . ﴿ تَظَٰهَرَا ﴾ أي : تعاونا وتناصرا ، وصدق كل منهما الآخر ؟ وبهذا قال سعيد بن جبير في قوله : (ساحران) يعنون موسى وهارون ، وهذا قول جيد قوي ، والله أعلم . وعن ابن عباس : (قالوا ساحران تظاهرا) قال : يعنون موسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم ، وقال قتادة : يعني عيسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم ، وهذا فيه بعد ؛ لأن عيسى لم يجر له ذكر ها هنا والله أعلم . وأما من قرأ : ﴿ سِحْرَانِ

تَظَٰهَرَا ﴾ فقال العوفي عن ابن عباس : يعنون التوراة والقرآن . قال السدي : يعني صدق كل واحد منهما الآخر . وقال عكرمة : يعنون التوراة والإنجيل ، واختاره ابن جرير . وقال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن . والله ﷻ أعلم بالصواب . والظاهر على قراءة ﴿ سِحْرَانِ ﴾ أنهم يعنون التوراة والقرآن ؛ لأنه قال بعده : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ﴾ ، وكثيرًا ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ - إلى قوله - وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ . وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذي أنزل على موسى . وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتابًا من السماء ، فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه ، أكمل ولا أشمل ، ولا أفصح ولا أعظم ، أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ ، وهو القرآن وبعده في الشرف والعظمة . الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام ، وهو الكتاب الذي قال الله فيه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾ . والإنجيل إنما أنزل متممًا للتوراة ، ومحلًا لبعض ما حرم على بني إسرائيل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي : فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ ﴾ أي : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ، ولم يتبعوا الحق ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ ﴾ أي : بلا دليل ولا حجة . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي : بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ قال مجاهد : فصلنا لهم القول . وقال السدي : بينا لهم القول . وقال قتادة : يقول تعالى : أخبرهم كيف صنع بمن مضى ، وكيف هو صانع ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ . قال مجاهد وغيره ﴿ وَصَّلْنَا لَهُمُ ﴾ يعني : قريشًا ، وهذا هو الظاهر .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ - إلى قوله - فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ قال سعيد بن جبير : نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون ، وأسلموا ونزلت فيهم الآية الأخرى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ . يعني : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أي : موحدين مخلصين لله مستجيبين له . قال الله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ أي : هؤلاء المتصفون بهذه الصفات الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ؛

ولهذا قال : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي على اتباع الحق ؛ فإن تجشُّم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد في الصحيح عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها فتزوجها » (١) . وعن القاسم بن أبي أمامة قال : إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح فقال قولًا حسنًا جميلًا ، وقال فيما قال : « مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي : لا يقابلون السيئ بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي : ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات ، وصدقات النفل والقربات . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أي : لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أي : إذا سفه عليهم سفيه ، وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ، ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ، ولهذا قال عنهم أنهم قالوا : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أي : لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها . قال محمد بن إسحاق في السيرة : ثم قدم على رسول الله ﷺ - وهو بمكة - عشرون رجلًا أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه ، وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم إلى الله تعالى ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن ، فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركبًا أحمق منكم ، أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيرًا . قال ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران فالله أعلم أي ذلك كان . قال : ويقال - والله أعلم - : نزلت هذه الآيات : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ - إلى قوله - لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ قال : وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت . قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه ﷺ ، والآيات اللاتي في سورة المائدة : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا - إلى قوله - فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١) ومسلم في (الإيمان) (٢٤١) والإمام أحمد في مسنده (٤٠٢/٤) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٩/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٣/١) .
(٣) سيرة ابن هشام (٣٢/٢) .

يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد ﴿ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أي : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، له الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ، ممن يستحق الغواية . وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله وكان يحوطه وينصره ، ويحبه حبًا شديدًا لا شرعيًا فلما حضرته الوفاة ، وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه ، واستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة التامة ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ : « يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه كَلِمَة أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّه » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » . فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾ وأنزل في أبي طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ يقول تعالى مخبرًا عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أي : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا . قال الله تعالى مجيبًا لهم : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ يعني : هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل ؛ لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظّم آمن منذ وضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمنًا لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمنًا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟ وقوله تعالى : ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي من عندنا ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى معرضًا بأهل مكة في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي : طغت وأشرت ، وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، قال تعالى : ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : دثرت ديارهم ، فلا ترى إلا مساكنهم . وقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي : رجعت خرابًا ليس فيها أحد ، ثم قال تعالى مخبرًا عن عدله ، وأنه لا يهلك أحدًا ظالمًا له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا ﴾ وهي مكة ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي - وهو

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٢) ومسلم في (الإيمان) (٣٩) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٣/٥) .

محمد ﷺ المبعوث من أم القرى - رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام . كما قال تعالى : ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ . فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى ؛ لأنه مبعوث إلى أمها ، وأصلها التي ترجع إليها . وثبت عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ » (١) . ولهذا ختم به النبوة والرسالة ، فلا نبي بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة . وقيل : المراد بقوله : ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ أي : أصلها وعظيمتها كأمهات الرساتيق والأقاليم .

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا ، بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ . وقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّهِ مَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي اليَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ » (٢) . وقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ . يقول تعالى : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال ، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ، فهو ممتع في الحياة الدنيا أيامًا قلائل . ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ . قال مجاهد : من المعذبين ، ثم قد قيل : إنها نزلت في رسول الله ﷺ ، وفي أبي جهل . وقيل : في حمزة وعلي وأبي جهل ، وكلاهما عن مجاهد والظاهر أنها عامة .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ۝ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ يعني : أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد . وقوله : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ يعني : الشياطين والمردة ، والدعاة إلى الكفر . ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم ، فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم كما قال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ . وقال الله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٣) والإمام أحمد في مسنده (١١٦/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٥/٦) .
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٢٣٢٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٧٤/٤) .

ولهذا قال : ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا . ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي : وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة . وقوله : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ أي : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ . النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يُسأل العبد في قبره : من ربك ، ومن نبيك ، وما دينك ؟ فأما المؤمن ، فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول : هاه هاه لا أدري ، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ؛ لأن من كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ قال مجاهد : فعميت عليهم الحجج ، فهم لا يتساءلون بالأنساب . وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ أي : يوم القيامة ، وعسى من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب ، قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : ما يشاء فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه . وقوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ نفي على أصح القولين . كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ . وقد اختار ابن جرير أن ﴿ ما ﴾ ها هنا بمعنى الذي تقديره : ويختار الذي لهم فيه خيرة ، والصحيح أنها : نافية كما نقل عن ابن عباس وغيره أيضًا ، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له في ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئًا . ثم قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ . أي : يعلم ما تكن الضمائر ، وما تنطوي عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق . وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعد له وحكمته ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أي : الذي لا معقب له لقهره ، وغلبته ، وحكمته ، ورحمته ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : جميعكم يوم القيامة ، فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر العمال .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما ، وبين أنه

لو جعل الليل دائمًا عليهم سرمدًا إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ولسئمته النفوس ، وانحصرت منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ أي : تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ؟ ثم أخبر تعالى : أنه لو جعل النهار سرمدًا أي : دائمًا مستمرًا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان من كثرة الحركات والأشغال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أي : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي بكم ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي : خلق هذا وهذا . ﴿ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ أي : في الليل . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي : في النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر . وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ .

وهذا أيضًا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهًا آخر . يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد فيقول : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي : في دار الدنيا . ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ قال مجاهد : يعني رسولًا ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ أي : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أي : لا إله غيره ، فلم ينطقوا ، ولا يحيروا جوابًا . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ كان ابن عمه ، قال ابن جريج : هو قارون بن يصهب بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث . وزعم محمد بن إسحاق بن يسار أن قارون كان عم موسى بن عمران عليه السلام . قال ابن جريج : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه والله أعلم . وقال قتادة ابن دعامة : كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى ، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق ، كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله ، وقال شهر بن حوشب : زاد في ثيابه شبرًا طولًا ترفعًا على قومه . وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ ﴾ أي : الأموال . ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ أي : ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها . وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ أي : وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا ، على سبيل النصح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ . قال ابن عباس : يعني المرحين . وقال مجاهد : يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم ، وقوله : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة في طاعة ربك ، ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : مما أباح الله فيها من

المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمناكح ، فإن لربك عليك حقًا ، ولنفسك عليك حقًا ، ولأهلك عليك حقًا ، ولزورك عليك حقًا ، فآت كل ذي حق حقه . ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أي : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض ، وتسيء إلى خلق الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ أي : إنما أعطيته لعلم الله فيَّ أني أهل له ، وهذا كقوله : ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي : على من الله بي ، وقال الله تعالى رادًا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أي : قد كان من هو أكثر منه مالًا ، وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم ، وعدم شكرهم . ولهذا قال : ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي لكثرة ذنوبهم . قال قتادة : ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ : على خير عندي ، وقال السدي : على علم أني أهل لذلك . وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد ، فإنه قال في قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ قال : لولا رضا الله عني ، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال . وقرأ : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ الآية ، وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه لولا أن يستحق ذلك لما أعطي .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ، ويميل إلى زخارفها وزينتها ، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي . ﴿ قالوا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي : ذو حظ وافر من الدنيا ، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون. كما في الحديث الصحيح : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَاقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ »[1] . وقوله : ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ . قال السدي : ولا يلقى الجنة إلا الصابرون ، كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة ، وكأنه جعل ذلك مقطوعًا من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله ﷻ ، وإخباره بذلك .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٩) والإمام أحمد في مسنده (٢/٦٦) .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه ، وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض كما ثبت في الصحيح عن سالم عن أبيه عنه ﷺ قال : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » [(١)] .

وعن أبي سعيد قال : قال ﷺ : بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر اللّه الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ أي : ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة اللّه وعذابه ونكاله ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ أي : الذين لما رأوه في زينته قالوا : ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ . فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : ليس المال بدال على رضا اللّه عن صاحبه ، كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إِنَّ اللّهَ قَسَّمَ بَيْنَكُمْ أَخلاَقَكُمْ كَمَا قَسَّمَ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللّهَ يُعْطِي المَالَ مَنْ يُحِبُّ ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ » [(٣)] . ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أي : لولا لطف اللّه بنا ، وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ يعنون أنه كان كافرًا ، ولا يفلح الكافر عند اللّه لا في الدنيا ولا في الآخرة .

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوًّا في الأرض أي ترفعًا على خلق اللّه ، وتجبرًا بهم ، ولا فسادًا فيهم . كما قال عكرمة : العلو : التجبر . وقال سعيد بن جبير : العلو البغي . وعن مسلم البطين : العلو في الأرض التكبر بغير حق ، والفساد أخذ المال بغير حق [(٤)] ، وعن علي قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [(٥)] وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره . فإن ذلك مذموم . كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ : « إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٩٠) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٠/٣) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والحاكم في المستدرك (٣٣/١) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٤٩/٢٠) .
(٥) ذكره الطبري في تفسيره (١٤٩/٢٠) .

تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » [١] . وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل ، فهذا لا بأس به . فقد ثبت أن رجلًا قال : يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسنًا ، ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لَا ، إِنَّ اللَّه جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ » [٢] . وقال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ أي : يوم القيامة . ﴿ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أي : ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافًا كثيرة ، وهذا مقام الفضل . ثم قال : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا مقام الفضل والعدل .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله صلوات وسلامه عليه ببلاغ الرسالة ، وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبرًا له بأنه سيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي : افترض عليك أداءه إلى الناس . ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي : إلى يوم القيامة ، فيسألك عن ذلك كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ .

وقال ابن عباس : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ يقول : لرادُّك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن . وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال : إلى يوم القيامة ، وعن سعيد ابن جبير عن ابن عباس : ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ : إلى الموت ، ولهذا طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي بعضها لرادك إلى معدنك من الجنة . وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وقال الحسن البصري : أي والله إن له لمعادًا ، فيبعثه الله يوم القيامة ، ثم يدخله الجنة . وقد روي عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخاري في التفسير من صحيحه عن ابن عباس ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال : إلى مكة [٣] . وقال مجاهد : إلى مولدك بمكة . وعن نعيم القاري أنه قال : إلى بيت المقدس . وهذا والله أعلم يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة ؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنتشر ، والله الموفق للصواب . ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ كما فسر ابن عباس سورة : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ إلى آخر السورة ، أنه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك وقال : لا أعلم منها غير الذي تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله : ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله ، وإبلاغها إلى الإنس والجن ؛ ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله على الإطلاق .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة (٦٤) وأبو داود في سننه (٤٨٩٥) .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢٤٨/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٣) .

وقوله تعالى : ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ أي : قل لمن خالفك وكذبك من قومك من المشركين ، ومن تبعهم على كفرهم . قل : ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة . ثم قال مذكرًا لنبيه نعمته العظيمة عليه ، وعلى العباد إذ أرسله إليهم : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ أي : أما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ولكن ﴿ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ ﴾ أي : إنما أنزل الوحي عليك من اللَّه ، من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا ﴾ أي معينًا . ﴿ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم ، ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ ﴾ أي : لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك ، لا تلوي على ذلك ، ولا تباله ، فإن اللَّه معلٍ كلمتك ، ومؤيد دينَك ، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ، ولهذا قال : ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ ﴾ أي : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ أي : لا تليق العبادة إلا له ، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته . وقوله : ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت ، ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ أي إلا إياه . وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عنه ﷺ قال : « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ لَبِيدَ :

أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا الله بَاطِلُ » (١)

وقال مجاهد والثوري في قوله : ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ أي : إلا ما أريد به وجهه .

وهذا القول لا ينافي القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة ، إلا ما أريد به وجه اللَّه تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة ، إلا ذاته تعالى وتقدس ، فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء . وقوله : ﴿ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ ﴾ أي : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه . ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ أي يوم معادكم ، فيجزيكم بأعمالكم إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر .

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب) (٦١٤٧) و (مناقب الأنصار) (٣٨٤١) ومسلم في (الشعر المقدمة) (٣) والإمام أحمد في مسنده (٤٧٠/٢) .

سورة العنكبوت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه أن الله ﷻ لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان . كما جاء في الحديث الصحيح : « أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَب دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ في دِينِهِ صَلَابَة ؛ زِيْدَ لَهُ في البَلَاءِ » [1] . وهذه الآية كقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي : الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه ، والله ﷻ يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة . وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ إلا لنرى ؛ وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ماهو أغلظ من هذا وأطم ولهذا قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أي : يفوتونا ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : بئس ما يظنون .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ ﴾ أي : في الدار الآخرة ، وعمل الصالحات ، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ، ويوفيه عمله كاملًا موفرًا ؛ لأنه سميع الدعاء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ أي : من عمل صالحًا ، فإنه يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله تعالى غني عن أفعال العباد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال الحسن البصري : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يومًا من الدهر بسيف . ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم ، ومع بره وإحسانه بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٢/١) والحاكم في المستدرك (٣٤٣/٣) .

ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ، ولهما عليه غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق ، والوالدة بالإشفاق ، ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ ﴾ أي : وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما فلا تطعهما في ذلك ، فإن مرجعكم إليّ يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك - وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا - فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب . أي : حبًا دينيًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ . عن سعد قال : نزلت فيّ أربع آيات فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعامًا ، ولا أشرب شرابًا حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها . فنزلت : ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ ﴾ الآية [1] .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم ، فارتدوا عن الإسلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ . قال ابن عباس : يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ - إلى قوله - هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ . ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ ﴾ أي : ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد ، وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء لكم : إنا كنا معكم أي : إخوانكم في الدين كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ ﴾ . وقال تعالى مخبرًا عنهم ها هنا : ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ ﴾ . ثم قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي : أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ أي وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ليتميز من هؤلاء من يطيع الله في الضراء والسراء ، ومن إنما يطيعه في حظ نفسه ، كما قال تعالى بعد وقعة أحد التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ ﴾ الآية .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في سننه (١/١٨١ ، ١٨٦) .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ⑫ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كفار قريش ، أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا ، ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ﴾ أي : وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا ، كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك في رقبتي ، قال الله تعالى تكذيبًا لهم : ﴿ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ أي : فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ⑩ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ ، إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم ، وأوزارًا أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا ، الآية . وفي الصحيح : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجورِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » [١] . وفي الصحيح : « وَمَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ » [٢] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي : يكذبون ، ويختلقون من البهتان ، وفي الصحيح « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الجِبَالِ ، وَقَدْ ظَلَمَ هذَا ، وَأَخَذَ مَالَ هذَا ، وأخذ مِنْ عَرْضِ هذَا ، فَيَأْخُذُ هذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وهذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِذَا لَمْ تَبْقَ لَهُ حَسَنَةٌ ؛ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ » [٣] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ⑭ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا ، وسرًّا وجهرًا ، ومع هذا ما آمن معه منهم إلا قليل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾ أي : بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار ، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ، فإن الله يهدي من يشاء ، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ⑯ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ الآية . اعلم أن الله سيظهرك ، وينصرك ويؤيدك ، عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى كثر الناس وفشوا . وقال مجاهد : قال لي ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال : قلت : ألف سنة إلا خمسين عامًا . قال : فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم ، وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا . وقوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ أي الذين آمنوا

(١) أخرجه مسلم في (العلم) (١٦) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٧/٢) والترمذي في السنن (٢٦٧٤) .
(٢) أخرجه مسلم في (القسامة) (٢٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٣/١) .
(٣) أخرجه بنحوه مسلم في البر (٦٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٣/٢) .

بنوح عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي ، أو نوعها جعله الناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ . وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ أي : وجعلنا نوعها رجومًا ، فإن التي يرمى بها ليست هي زينة للسماء . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ ولهذا نظائر كثيرة . وقال ابن جرير : لو قيل : إن الضمير في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ عائد إلى العقوبة لكان وجهًا ، والله أعلم .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوي ، فقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أي : أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة . ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة ، وإنما هي مخلوقة مثلكم . هكذا رواه العوفي عن ابن عباس ، وروى الوالبي عن ابن عباس ، وتصنعون إفكًا أي : تنحتونها أصنامًا ، واختاره ابن جرير رحمه الله . وهي لا تملك لكم رزقًا . ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ وهذا أبلغ في الحصر ، كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . ولهذا قال ﴿ فَابْتَغُوا ﴾ : أي فاطلبوا ﴿ عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ أي لا عند غيره فإن غيره لا يملك شيئًا . ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ أي : كلوا من رزقه واعبدوه وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم . ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ يعني : إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الخليل عليه السلام : أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا ثم وجدوا ، وصاروا أناسًا سامعين مبصرين ، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته ، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآيات المشاهدة من

خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبراري وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذي يقول للشيء كن فيكون . ولهذا قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ أي : هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ » (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أي : ترجعون يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي : لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شيء خائف منه فقير إليه ، وهو الغني عما سواه ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ أي : جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : موجع شديد في الدنيا والآخرة .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ، ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل ، أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، فعدلوا إلى استعمال جاههم ، وقوة ملكهم ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۝ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحوطوا حولها ، ثم أضرموا فيها النار ، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم ، فكتموه وألقوه في كفة المنجنيق ، ثم قذفوه فيها ، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا ، وخرج منها سالمًا بعد ما مكث فيها أيامًا ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أي : سلمه منها بأن جعلها عليه بردًا وسلامًا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول لقومه مقرعًا لهم ، وموبخًا على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان ، إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة ، وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا ، وهذا على قراءة من نصب ﴿ مودة بينكم ﴾ على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع (٢) فمعناه إنما اتخاذكم هذا لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٢/٥) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ﴿ مودةً ﴾ وقرأ الأعشى ﴿ مودةٌ ﴾ وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿ مودةُ ﴾ (حجة القراءات ص ٥٥٠) .

ينعكس هذا الحال ، فتبقى هذه الصداقة ، والمودة بغضًا وشنآنًا ، ثم : ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أي : تتجاحدون ما كان بينكم ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أي : يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع . ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب قالت : قال لي النبي ﷺ : « أُخْبِرُكِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْمَعُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَمَن يَدْرِي أَيْنَ الطَّرَفَانِ ؟ » قَالَتْ : اللَّه ورسوله أعلم - « ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ فَيَشْرَئِبُّون - قَالَ : أَبُو عَاصِمٍ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ - ثُمَّ يُنَادِي : يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّالِثَةَ : يَا أَهْلَ التَّوحِيدِ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَفَا عَنْكُمْ - قال : « فَيَقُومُ النَّاسُ قَدْ تَعَلَّقَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فِي ظُلَامَاتِ الدُّنْيَا - يعني المظالم - ثُمَّ يُنَادِي : يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ : لِيَعفُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ وَعَلَى اللَّهِ الثَّوابُ » [١] .

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم أنه آمن له لوط يقال إنه ابن أخي إبراهيم ، يقولون : هو لوط بن هارون بن آزر يعني : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة إبراهيم الخليل ، لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم عن سارة ما هي منه فقال : أختى ، ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبيني ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فأنت أختي في الدين [٢] . وكأنما المراد من هذا - والله أعلم - أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك ، فإن لوطًا عليه السلام آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها ، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ يحتمل عود الضمير في قوله : ﴿ وَقَالَ ﴾ على لوط ؛ لأنه هو أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم . قاله ابن عباس والضحاك . وهو المكنى عنه بقوله : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ ﴾ أي : من قومه ، ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين ، والتمكن من ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به الحكيم في أقواله وأفعاله ، وأحكامه القدرية والشرعية . وقال قتادة : هاجرا جميعًا من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى الشام . وعن شهر بن حوشب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية قدمت الشام ، فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي فجئته ، إذ جاء فانتبذ الناس ، وعليه خميصة ، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّهَا سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَة ، فَيَنْحَازُ النَّاسُ إِلَى مَهَاجَرِ إِبْرَاهِيمَ لَا يَبْقَى فِي الأَرْضِ إِلَّا شِرَارُ أَهْلِهَا ، فَتَلْفِظُهُمْ أَرَضُهُمْ ، تقذرُهُمْ نَفْسُ الرَّحْمنِ ، تَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ ، فَتَبِيتُ مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا ، وَتَأْكُلُ مَنْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ » . قال : وسمعت

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/١٦١) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٨) .

رسول الله ﷺ يقول : «سَيَخْرُجُ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي مِنْ قِبَلِ المشْرِق يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْن قطع ، كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قطعَ - حتى عدها زيادة على عشرين مرة - كلما خرج منهم قرن حتى يخرج الدجال في بقيتهم (١).

وقال عبد الله بن عمرو : لقد رأينا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول : «لَئِنْ أَنْتُمْ اتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ ، وَتَبَايَعْتُمْ بِالعينَةِ ، وَتَرَكْتُمْ الجِهَادَ في سَبيلِ الله ؛ لَيُلْزِمَنَّكُمُ اللهُ مَذَلَّةً في أَعْنَاقِكُمْ لَا تُنْزَعُ مِنكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَتَتُوبُوا إِلَى اللهِ تَعَالَى » (٢). وفي الحديث : « يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يُسِيئُونَ الأَعْمَالَ يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ » قال يزيد لا أعلمه إلا قال : « يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ عِلْمَهُ مع عِلْمِهِمْ ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ فَإِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ، فَطُوبَى لمن قتلهم ، وطوبى لمن قتلوه ، كلما طلع منهم قرن قطعه الله » . فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة أو أكثر ، وأنا أسمع (٣) .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ كقوله : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ أي أنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي ، وولد له ولد صالح نبي في حياة جده ، وكذلك قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ ﴾ أي : زيادة . كما قال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي : يولد لهذا الولد ولد في حياتكما تقر به أعينكما . وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن ، وثبتت به السنة النبوية . قال الله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ الآية . وفي الصحيحين : « إِنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابن الكريم ابن الكريم يُوسُف بن يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ » (٤) . فأما ما رواه ابن عباس في قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ قال : هما ولدا إبراهيم ، فمعناه : أن ولد الولد بمنزلة الولد ، فإن هذا الأمر يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلًا ، وجعله للناس إمامًا أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم فقام في ملئهم مبشرًا بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة . الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام . وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٩/٢) والحاكم في المستدرك (٤٨٦/٤) .
(٢ ، ٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٤/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٨) والإمام أحمد في مسنده (٩٦/٢) .

الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه كما قال ابن عباس ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أي : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ورسوله ، ويخالفون ويقطعون السبيل أي : يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ أي : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك . فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملأ ، قاله مجاهد . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ، قالته عائشة رضي الله عنها والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، وينافرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شرًّا من ذلك ، وعن مجاهد ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ قال : الصفير ولعب الحمام ، والجلاهق والسؤال في المجلس ، وحل أزرار القباء . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم ، وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة ، فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي للضيف ، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام ، نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ، ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ، وكانت حاضرة ، فتعجبت من ذلك ، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لعلهم ينظرون لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي : من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم ، وبغيهم ودبرهم ، ثم ساروا من عنده ، فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان ، فلما رآهم كذلك ﴿ سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي : اغتم بأمرهم إن هو

أضافهم ، خاف عليهم من قومه ، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلها عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابًا يوم المعاد . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً ﴾ أي واضحة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين ، فقال : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم : معناه : واخشوا اليوم الآخر ، وقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد ، وهو السعي فيها والبغي على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحةٍ أخرجت القلوب من حناجرهم ، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم . وقوله : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ قال قتادة : ميتين . وقال غيره : قد ألقي بعضهم على بعض .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم ، فعاد قوم هود عليه السلام يسكنون الأحقاف ، وهي قريبة من حضر موت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبًا من وادي القرى . وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله وبرسوله ﷺ ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ أي : كانت عقوبته بما يناسبه ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ وهم عاد وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ، فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جدًّا ، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيه عليهم وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقى بدنًا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوه سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبي الله صالحًا ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخمدت

الأصوات منهم والحركات ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى ومشى في الأرض مرحًا ، وفرح ومرح ، وتاه بنفسه واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال في مشيته فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي فيما فعل بهم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقًا بما كسبت أيديهم . ثم قال : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ أي : من هؤلاء المذكورين ، وإنما نبهت على هذا ؛ لأنه قد قال ابن عباس في قوله : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال : قوم لوط ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قال : قوم نوح وهذا منقطع عن ابن عباس ، فإن ابن جريج لم يدركه . ثم قد ذكر الله في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء ، وأطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق . وقال قتادة : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال : قوم لوط ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ قوم شعيب ، وهذا بعيد أيضًا لما تقدم ، والله أعلم .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدي عنه شيئًا . ثم قال تعالى متوعدًا لمن عبد غيره ، وأشرك به ، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ أي : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم ، المتضلعون منه . قال عمرو بن العاص رضي الله عنه : عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل [1] . وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة أنه خلق السماوات والأرض بالحق يعني لا على وجه العبث واللعب ، ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية . ثم قال تعالى آمرًا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يعني : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات أي : مواظبتها تحمل على ترك ذلك ، وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعًا : « مَنْ لم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٣/٤) .

تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ ؛ لَمْ تَزِدْهُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا » (١) .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « لا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يُطِع الصَّلَاة » وطاعة الصلاة أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر . قال : وقال سفيان ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ قال سفيان : أي والله تأمره وتنهاه (٢) .

وعن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلانًا يصلي بالليل ، فإذا أصبح سرق . فقال : « إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ » (٣) . وتشمتل الصلاة أيضًا على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي : أعظم من الأول ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ أي : يعلم جميع أعمالكم ، وأقوالكم . وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ قال : إن الصلاة فيها ثلاث خصال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه . وقال ابن عون الأنصاري : إذا كنت في صلاة فأنت في معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر . وقال حماد بن أبي سليمان : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ يعني : ما دمت فيها .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يقول : ولذكر الله لعباده أكبر ، إذا ذكروه من ذكرهم إياه . وكذا روى غير واحد عن ابن عباس ، وفي رواية عن ابن عباس ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : ذكر الله عند طعامك ، وعند منامك ، قلت : فإن صاحبًا لي في المنزل يقول غير الذي تقول ، قال : وأي شيء يقول ؟ قلت : قال : يقول الله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه ، قال : صدق . وفي رواية أخرى عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : لها وجهان : قال : ذكر الله عند ما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه ، عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لي ابن عباس : هل تدري ما قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؟ قال : قلت : نعم ، قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح ، والتحميد ، والتكبير في الصلاة ، وقراءة القرآن ونحو ذلك ، قال : لقد قلت قولًا عجيبًا ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عندما أمر به ، أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه ، واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ .

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف . وقال آخرون : بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين ، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه . كما قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ الآية . وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٢٥٨) والطبراني في الكبير (١١/٥٤) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠/١٨٩) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٤٧) .

وهذا القول اختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ أي : حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا . فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم . قال مجاهد : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ يعني أهل الحرب ، ومن امتنع منهم من أداء الجزية . وقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعني : إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نقدم على تكذيبه ؛ لأنه قد يكون حقًّا . ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلًا ، ولكن نؤمن به إيمانًا مجملًا معلقًا على شرط : وهو أن يكون منزلًا ، لا مبدلًا ، ولا مؤولًا . وفي الحديث « لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » [(١)] .

وعن عبد اللَّه بن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق ، أو تصدقوا بباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال [(٢)] . وقال ابن عباس : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ؟ وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول اللَّه ﷺ أحدث ، تقرأونه محضًا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من عند اللَّه ؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا واللَّه ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم [(٣)] . وقال حميد بن عبد الرحمن ، أنه سمع معاوية يحدث رهطًا من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب [(٤)] ، قلت : معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد ؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا اللَّه ﷻ ، ومن منحه اللَّه علمًا بذلك . كل بحسبه وللَّه الحمد والمنة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : يقول اللَّه تعالى : كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل . كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب ، وهذا الذي قاله حسن ، ومناسبته وارتباطه جيد . وقوله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي : الذي أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد اللَّه بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ يعني : العرب من قريش وغيرهم . ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ أي : قد لبثت

---

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام) (٧٣٦٢) (والتوحيد) (٧٥٤٢) والبيهقي في سننه (١٠/١٦٣) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢١/٦) . (٣) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٦٣) .
(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٦١) .

في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرًا ، لا تقرأ كتابًا ، ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي ، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ الآية . وهكذا كان رسول اللَّه ﷺ دائمًا إلى يوم الدين ، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده ، بل كان له كتَّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ، ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد اللَّه . فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري ، ثم أخذ فكتب . وهذه محمولة على الرواية الأخرى ، ثم أمر فكتب . ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي : وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالًا ، وخطبوا به في محافلهم ، وإنما أراد الرجل - أعني الباجي - فيما يظهر عنه : أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال ﷺ إخبارًا عن الدجال : « مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِر » وفي رواية « ك ف ر ، يقْرَؤُهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ » (١) . وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له .

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ ﴾ أي : تقرأ ﴿ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾ لتأكيد النفي ﴿ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ تأكيد أيضًا ، وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى : ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي : لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس ، فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وقال ها هنا : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي : هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق ، أمرًا ونهيًا وخبرًا يحفظه العلماء ، يسره اللَّه عليهم حفظًا وتلاوة وتفسيرًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ وقال رسول اللَّه ﷺ : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّه إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا » (٢) . وفي صحيح مسلم يقول اللَّه تعالى : « إِنِّي مُبْتَلِيكَ بِكَ وَمُنزِلٌ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ المَاء تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا » (٣) . أي : لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ؛ لأنه قد جاء في الحديث الآخر : « لَوْ كَانَ القُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَا أَحْرَقَتْهُ النَّار » (٤) ولأنه محفوظ في الصدور ، ميسر على الألسنة ، مهيمن على القلوب معجز لفظًا ومعنى . ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في هذه صفة الأمة : أناجيلهم في صدورهم . واختار ابن جرير أن المعني في قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابًا ، ولا تخطه بيمينك آيات

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٩٥) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٣/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

(٣) مسلم في (الجنة) (٦٣) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥١/٤ ، ١٥٥ ، ١٧١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٨/٧) .

بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب . قلت : وهو الذي رواه العوفي عن ابن عباس ، وهو الأظهر والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أي : ما يكذب بها ، ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون أي : المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ، ويحيدون عنه .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات ، يعنون ترشدهم إلى أن محمدًا رسول الله كما أتى صالح بناقته قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ؛ لأن هذا سهل عليه يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان فلا يجيبكم إلى ذلك ، وقوله : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : إنما بعثت نذيرًا لكم بيِّن النذارة فعليَّ أن أبلغكم رسالة الله تعالى . ثم قال تعالى مبينًا كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه . فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ أي : أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدًا من أهل الكتاب ، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب ، مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : إن في هذا القرآن ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أي : بيانًا للحق وإزاحة للباطل ، وذكرى بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين ، والعاصين لقوم يؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ ﴾ أي : أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ . وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به . ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ ﴾ أي : لا تخفى عليه خافية ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي : يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق ، واتباعهم الباطل ، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله من أن

يحل عليهم : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي : لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة . لجاءهم العذاب قريبًا سريعًا كما استعجلوه . ثم قال : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة .

ثم قال ﷻ : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ الآية . فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ في العذاب الحسي وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوي على النفوس ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ۞ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۞ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ عن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : « البِلَادُ بِلَادُ اللَّه ، وَالعِبَادُ عِبَادُ اللَّه ، فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقِمْ » (١) . ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هنالك . فوجدوا خير المنزلين هنالك ، أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى . فآواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سيومًا ببلاده ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة . ثم قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي : أينما كنتم يدرككم الموت . فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله ؛ فهو خير لكم . فإنه إلى الله المرجع والمآب ، فمن كان مطيعًا له جازاه أفضل الجزاء ووافاه أتم الثواب . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي : لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : ماكثين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولًا ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ نعمت هذه الغرف أجرًا على أعمال المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أي : على دينهم وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده ، وعن أبي مالك الأشعري : أن رسول الله ﷺ حدثه : أن في الجنة غرفًا ، يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله تعالى لمن أطعم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦٦/١) والبيهقي في سننه (١٤٢/٦) .

الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام [١].

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ في أحوالهم كلها، في دينهم ودنياهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب؛ فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله، ولا تدخر شيئًا لغد ﴿ ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي: الله يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء، والحيتان في الماء. قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

وفي الحديث «سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا» [٢]. قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره، معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم، فتفاوت بينهم فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلًّا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرًا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك [٣].

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد. وقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى، ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائمًا ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ الآية، وقال ها هنا: ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ عن عكرمة ابن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارًّا منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء؛ فإنه لا ينجي ها هنا إلا هو، فقال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٦/١).
(٢) أخرجه البيهقي في سننه (١٠٢/٧).
(٣) أخرجه مسلم في الحج (٢٢).

عكرمة : والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر أيضًا غيره ، اللهم لك عليَّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد ، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا فكان كذلك . وقوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك ، وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمنًا فهم في أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضًا ، ويقتل بعضهم بعضًا . وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ، و ﴿ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ فكفروا بنبي الله وعبده ورسوله ، فكذبوه فقاتلوه فأخرجوه من بين أظهرهم ، ولهذا أرغم الله آنافهم وأذل رقابهم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله ، فقال : إن الله أوحى إليه ، ولم يوح إليه شيء . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر والثاني مكذب . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين . ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي : لنبصرنهم سبلنا أي : طرقنا في الدنيا والآخرة . قال عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبي الحواري : فحدثت به أبا سليمان يعني الداراني فأعجبه ، وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئًا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حتى وافق ما في قلبه . وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال الشعبي : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، والله أعلم .

سورة الروم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ .

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام ، وما والاها من بلاد الجزيرة ، وأقاصى بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي .

عن مسروق قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الدخان واللزام والبطشة ، والقمر ، والروم[(١)] . وقال عبد الله بن مسعود ﷺ : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب دينهم فلما نزلت : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ قالوا : يا أبا بكر إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين قال : صدق ، قالوا : هل لك أن نقامرك ؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع ، فمضت السبع ولم يكن شيء ، ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « مَا بِضْعُ سِنِينَ عِنْدَكُمْ ؟ » قالوا : دون العشر . قال : « اذْهَبْ فَزَايِدْهُمْ وَازْدَدْ سَنَتَيْنِ في الأَجَلِ . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك وأنزل الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾[(٢)] .

وعن نيار بن مكرم الأسلمي قال : لما نزلت ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفي ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ . وكانت قريش تحب ظهور فارس ؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ، ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر : فذاك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان ، وقالوا لأبي بكر : كم نجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين ؟ فسم بيننا وبينك وسطًا ننتهي إليه قال : فسموا بينهم ست سنين قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبي بكر . فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس قال :

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٦٧) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢١/٢٥) .

فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين . قال : لأن الله يقول ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير [(١)] .

ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات فقوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة . وأما الروم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عم إسرائيل ويقال لهم : بنو الأصفر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة . ويقال لها : المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالي ، وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها ، وفيه محاريب إلى جهة الشمال ، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة . وكان من ملك منهم الشام يقال له : قيصر ، فكان أول من دخل في دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين ابن قسطس ، وأمه مريم الهيلانية الغندقانية من أرض حران كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها وكان قبل ذلك فيلسوفًا فتابعها . يقال : تقية واجتمعت به النصارى ، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافًا كثيرًا منتشرًا متشتتًا لا ينضبط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفًا ، فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة وإنما هي الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين ؛ يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيروا دين المسيح ﷺ ، وزادوا فيه ، ونقصوا منه فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير ، واتخذوا أعيادًا أحدثوها ، كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعانين ، وجعلوا له الباب ، وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساقسة ثم الشمامسة ، وابتدعوا الرهبانية ، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية يقال : إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب وبنت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ، ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا وهم فرق وطوائف كثيرة . كما قال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُم افْتَرَقُوا على اثْنَتَيْنِ وسبعين فِرْقَةً » [(٢)] .

والغرض أنهم استمروا على النصرانية . كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل ، وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غورًا ، وأقصاهم رأيًا ، فتملك عليهم في رياسة عظيمة ، وأبهة كثيرة فناوأه كسرى ملك الفرس ، وملك البلاد كالعراق وخراسان والري وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف ، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر ، وكانوا مجوسًا يعبدون النار ، فتقدم عن عكرمة أنه قال : بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه . والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره ، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية ، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيمًا زائدًا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ؛ لأن نصفها من ناحية البر ، ونصفها الآخر من

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣١٩٤) .

(٢) أخرجه وابن ماجه في سننه (٣٩٩٢) .

ناحية البحر فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك ، فلما طال الأمر ، دبر قيصر مكيدة ، ورأى في نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصالحه عليه ويشترط عليه ما شاء ، فأجابه إلى ذلك وطلب منه أموالًا عظيمة ، لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة ، فطاوعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشرة ، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام ، وأقاليم مملكته ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال : إني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عينته من جيشي ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتي ، وإن شئتم وليتم عليكم غيري ، فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيًّا ، ولو غبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط ، هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعًا حتى انتهى إلى بلاد فارس . فعاث في بلادهم قتلًا لرجالها ، ومن بها من المقاتلة أولًا فأول ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهي كرسي مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحريمه وحلق رأس ولده ، وركبه على حمار ، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخذه ، فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله تعالى واشتد حنقه على البلد ، فجد في حصارها بكل ممكن ، فلم يقدر على ذلك ، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك . احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة ، وركب في بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعدًا ، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر ، فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض فخاضوا وأسرعوا السير ، ففاتوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يومًا مشهودًا عند النصارى ، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون ، لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادهم قد خربتها الروم ، وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم ، فكان هذا من غلب الروم لفارس ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم ، وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز . وقال مجاهد : كان ذلك في الجزيرة وهي أقرب بلاد الروم من فارس ، فالله أعلم . ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهي تسع فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع . وكذلك جاء في الحديث « أَلَّا احْتَطْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ فَإِنَّ البِضْعَ مَا بَيْنَ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ » [١] .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٩١) .

وقوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ أي : من قبل ذلك ومن بعده ، فبني على الضم لما قطع المضاف ، وهو قوله : ﴿ قَبْلُ ﴾ عن الإضافة ونويت ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي : للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس . وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء ، وعن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به ، وأنزل الله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١) . وقال الآخرون : بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية . إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس ، فرح المؤمنون بذلك ؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة ؛ فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس كما قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ وقال تعالى ها هنا : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وقال ابن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، كل ذلك في خمس عشرة سنة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي : انتصاره وانتقامه من أعدائه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ أي : هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق ، وخبر صدق لا يخلف . ولا بد من كونه ووقوعه ؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل . وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ أي : أكثر الناس ليس لهم علم ، إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها ، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة ، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة . قال الحسن البصري : والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلي . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على التفكر في مخلوقاته الدالة على وجوده ، وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ، ولا باطلًا

---

(١) أخرجه : الترمذي في السنن (٣١٩٢) .

بل بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم . فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين . ولهذا قال : ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي : كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة ، أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ . وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومكنوا في الدنيا تمكينًا لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعمارًا طوالًا فعمروها أكثر منكم ، واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ، وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزأوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا السُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وعلى هذا تكون السوأى منصوبة مفعولًا لأساءوا ، وقيل : بل المعنى في ذلك ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا السُّوٓأَىٰٓ ﴾ أي : كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون . فعلى هذا تكون السوأى منصوبة خبر كان ، هذا توجيه ابن جرير ، ونقله عن ابن عباس وهو الظاهر - والله أعلم - لقوله : ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

﴿ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰٓئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي : كما هو قادر على بداءته ، فهو قادر على إعادته . ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله . ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : ييأس المجرمون ، وقال مجاهد : يفتضح المجرمون ، وفي رواية : يكتئب المجرمون ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا ﴾ أي : ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ . قال قتادة : هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، يعني أنه إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل سافلين ، فذلك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون . وقال يحيى بن أبي كثير : يعني سماع الغناء ، والحبرة أعم من هذا كله .

﴿ فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة

الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح - وهو التحميد - فقال تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : هو المحمود على ما خلق في السماوات والأرض ، ثم قال تعالى : ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام ، والإظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا وهذا ، فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكنًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾. وعن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أُخْبِرَكُمْ لِمَ سَمَّى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ الَّذِي وَفَّى ؟ ! لأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا أَمْسَى : سُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تظْهِرُونَ »[1] . وعن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ الآية بكمالها ، أدراك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدراك ما فاته في ليلته »[2] . وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، وهذه الآيات المتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكُر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ؛ ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك : إخراج النبات من الحب والحب من النبات ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن . وقوله تعالى : ﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ﴾ إلى قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته ، أنه خلق أباكم آدم من تراب . ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ فأصلكم من تراب مهين ، ثم تصوَّر فكان علقة ، ثم مضغة ، ثم صار عظامًا شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحمًا ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيرًا ضعيف القوى ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ، فسبحان من أقدرهم وسيَّرهم وصرَّفهم في فنون المعايش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدرِ الأَرْضِ ، جَاءَ مِنْهُمُ الأَبْيَضُ وَالأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٩/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٧/١٠) .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٧٦) .

وَالخَبِيثُ والطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ والحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ »[١] . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي : خلق لكم من جنسكم إناثًا تكون لكم أزواجًا ﴿ لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ يعني بذلك حواء ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكورًا ، وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم ، إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة - وهي : المحبة - ورحمة - وهي : الرأفة - فإن الرجل يمسك المرأة ، إما لمحبته لها ، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها ، وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار . وقوله تعالى : ﴿ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يعني : اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء فرنج ، وهؤلاء تكرور ، إلى غير ذلك ، مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم ، واختلاف ألوانها وهي حلاهم فجميع أهل الأرض ، بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة ، كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان ، وليس يشبه واحدٌ منهم الآخر ، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح ، لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي : ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب ، والأسفار في النهار وهذا ضد النوم . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي : يعون ، عن زيد بن ثابت ﷺ قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قُلْ : اللَّهُمَّ غَارَتِ النجومُ ، وَهَدَأَتِ العُيُونُ ، وَأَنْتَ حَيٌّ قَيُّومٌ ، يَا قَيُّومُ أَنِمْ عَيْنِي وَأَهْدِئْ لَيْلِي »[٢] فقلتها فذهب عني .

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي : تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضه ، وما يأتي بعده من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد(٤/٤٠٠ ، ٤٠٦) والحاكم في المستدرك(٢/٢٦١) وأبو داود في السنن(٤٦٩٣) والترمذي في السنن(٢٩٥٥) .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد(١٠/١٢٨) .

المطر المحتاج إليه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي : بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ وكان عمر بن الخطاب ﷺ إذا اجتهد في اليمين قال : والذي تقوم السماء والأرض بأمره ، أي : هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسماوات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ، ودعائه إياهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أي : من الأرض كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ .

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : ملكه وعبيده ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ أي : خاضعون خاشعون طوعًا وكرهًا ، عن أبي سعيد مرفوعًا « كُلُّ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ يُذْكَرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ » (١) . وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال ابن عباس يعني : أيسر عليه ، وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداءة والبداءة عليه هينة . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ : فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ : فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » (٢) . وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء . وقال العوفي عن ابن عباس : كل عليه هين . ومال إليه ابن جرير وذكر عليه شواهد كثيرة قال : ويحتمل أن يعود الضمير في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ إلى الخلق أي : وهو أهون على الخلق . وقوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وقال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره ، وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شيء ، وقهر كلَّ شيء بقدرته وسلطانه الحكيم في أقواله وأفعاله شرعًا وقدرًا . وعن محمد بن المنكدر في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ قال : لا إله إلا الله .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ

(١) ذكره السيوطي في الدر (١/ ١١٠) بنحوه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٧٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٢٠) .
(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٩٤) والإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٥٠ ، ٣٩٤) .

عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ .

هذا مثل ضربه تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء ، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ ﴾ أي : تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم . ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ أي : يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكًا له في ماله ، فهو وهو فيه على السواء ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ أي : تخافون أن يقاسموكم الأموال . قال أبو مجلز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذاك ، كذلك الله لا شريك له . والمعنى : أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ، وعن ابن عباس قال : كان يلبي أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله تعالى : ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ (١) ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى . قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ثم قال تعالى مبينًا أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهًا وجهلًا : ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ أي المشركون ﴿ أَهْوَآءَهُم ﴾ أي : في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ ﴾ أي : فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ أي : ليس لهم من قدرة الله منقذ ، ولا مجير ولا محيد لهم عنه ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

يقول تعالى : فسدد وجهك . واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، إنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره . وفي الحديث : « إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ﴾ قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فيكون خبرًا بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ ﴾ وهو معنى حسن صحيح ، وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك . ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي : لدين الله ، وقال البخاري : قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ﴾ لدين الله ، خلق الأولين دين الأولين ، الدين والفطرة الإسلام (٣) . وعن أبي هريرة قال : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَواهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) .

(٢) أخرجه بنحوه مسلم في (الجنة) (٦٣) والطبراني في الكبير (٢٦٣/١٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .

بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تحسونَ فيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ». ثم يقول : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (١) . عن الأسود بن سريع قال : أتيت رسول الله ﷺ ، وغزوت معه فأصبت ظفرًا . فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَهُمُ القَتْلُ اليَوْمَ حَتَّى قَتَلُوا الذُّرِّيَّةَ ؟ » ، فقال رجل : يا رسول الله أما هم أبناء المشركين ؟ فقال : لاَ ، إنما خياركم أبناء المشركين ، ثم قال : « لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية » وقال : « كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها ، أو ينصرانها » (٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « اللَّه أَعلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ إِذْ خَلَقَهُمْ » (٣) .

وعن عِيَاض بن حِمَار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « إِنَّ رَبِّي عز وجل أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا : كُلُّ مَا نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلاَلٌ . وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عز وجل نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ، وَقَالَ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ المَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا ويَقْظَانَ ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحرِقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ : رَبِّ إِذًا يَثْلَغ رَأْسِي فَيَدَعهُ خبْزَةً ، قال : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ ، وَاغْزُهُمْ نغزك ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقُ عَلَيْكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَث خَمْسَةً مِثْلَهُ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ ، قال : وأَهْلُ الجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ ؛ ذُو سُلْطَانٍ مُقسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى مُسْلِم ، وَرَجُلٌ عَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ » قال : « وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لاَ زَبرَ لَهُ ، الَّذِينَ فيكم هُمْ تَبَعٌ لاَ يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلاَ مَالاً ، والخَائِنُ الَّذِي لاَ يَخْفَى له طَمَعٌ وإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » (٤) . وذكر البخيل والكذاب والشنظير الفحاش . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي : التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ قال ابن زيد : أي : راجعين إليه ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أي : خافوه وراقبوه ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الطاعة العظيمة ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه . قال يزيد بن أبي مريم : مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل ، فقال عمر : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات ؛ الإخلاص وهي الفطرة فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها ، والصلاة وهي الملة ، والطاعة وهي

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٥٥) ومسلم في القدر (٢٢ ، ٢٣) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٦/٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٥/٣) .
(٣) أخرجه مسلم في القدر (٢٣ - ٢٦) والإمام أحمد في مسنده (٣٢٨/١ ، ٢٤٤) .
(٤) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .

العصمة ، فقال عمر : صدقت . وقوله تعالى : ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرأ بعضهم (فارقوا دينهم) أي تركوا ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة . وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء . وهذه الأمة أيضًا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة . وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره . وقوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ هي : لام العاقبة ولام التعليل عند آخرين ، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك ثم توعدهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال بعضهم : والله لو توعدني حارس درب لخفت منه ، فكيف والمتوعد ها هنا هو الذي يقول للشيء كن فيكون . ثم قال تعالى منكرًا على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ أي : حجة ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ أي : ينطق ﴿ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا استفهام إنكار ، أي لم يكن لهم شيء من ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه . فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال : ﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أي : يفرح في نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي : صبروا في الضراء ، وعملوا الصالحات في الرخاء . كما ثبت في الصحيح : « عَجَبًا للمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَه ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » [1] . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٤) وذكره الألباني في الصحيحة (١٤٨) .

يقول تعالى آمرًا بإعطاء كل ذي القربى حقه أي : من البر والصلة ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفايته ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ أي : النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى ﴿ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي : من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله . بهذا فسره ابن عباس ، وهذا الصنيع مباح – وإن كان لا ثواب فيه – إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي : لا تعط العطاء تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح – يعني : ربا البيع – وربا لا بأس به – وهو هدية الرجل يريد فضلها أضعافها – ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ أي : الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء . كما جاء في الصحيح « وَمَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمنُ بِيَمِينِهِ ، فَيُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُم فَلُوَّهُ (١) أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى تَصِيرَ التَّمْرَةُ أَعْظَمَ مِنْ أُحُدٍ » (٢) . وقوله ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أي : هو الخالق الرازق ، يخرج الإنسان من بطن أمه عريانًا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب . وعن حبةَ وسواء ابني خالد قالا : دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئًا فأعناه فقال : « لَا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزْهَزَتْ رُءُوسكُما ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرَةٌ ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّه ﷻ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أي : بعد هذه الحياة ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أي : يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم ﴾ أي : الذين تعبدونهم من دون الله ﴿ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ ؟ أي : لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله ﷻ هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ؛ ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : تعالى وتنزه عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ .

قال ابن عباس وغيره : المراد بالبر هاهنا الفيافي ، وبالبحر الأمصار والقرى . وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر . وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر هو البحر المعروف . وقال زيد بن رفيع : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ ﴾ يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر يعني دوابه . وعن مجاهد قال : فساد البر قتل ابن آدم ، وفساد البحر أخذ السفينة غصبًا ، وقال عطاء الخراساني : المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى ، وبالبحر جزائره .

(١) الفلُو : الجحش أو المُهر يفطم أو يبلغ السنة . والجمع أفلاء ، المعجم الوسيط ص ٧٢٨ .
(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠) ومسلم في الزكاة (٦٤) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٣١ ، ٤١٩) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٤٦٩) وابن ماجه في سننه (٤١٦٥) .

والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون ، ويؤيده ما قاله محمد بن إسحاق في السيرة : أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة وكتب إليه ببحره يعني ببلده . ومعنى قوله تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ ، أي : بان النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي . وقال أبو العالية : من عصى الله في الأرض ، فقد أفسد في الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة . ولهذا جاء في الحديث « لَحَدٌ يُقَامُ فِي الأَرْضِ أَحَبُّ إِلَى أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا »[1] . والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا تركت المعاصي كان سببًا في حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا ثبت في الصحيحين : أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب[2] . وعن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ها هنا الشرك وفيه نظر . وقوله تعالى : ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ الآية . أي : يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارًا منه لهم ومجازاة على صنيعهم . ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي : عن المعاصي كما قال تعالى : ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلكم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي : فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي : يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي : يتفرقون ؛ ففريق في الجنة وفريق في السعير ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي : يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور .

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها . ولهذا قال تعالى : ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي : المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي : في البحر وإنما سيرها بالريح ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي : في التجارات والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم وقطر إلى قطر ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى . ثم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٢/٢) .

(٢) انظر صحيح البخاري في الرقاق (٦٥١٢) ومسلم في الجنائز (٦١) .

بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كُذبت الرسلُ المتقدمون مع ما جاءوا أممهم به من الدلائل الواضحات . ولكن انتقم الله ممن كذبهم ، وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكريمًا وتفضيلًا . كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ . وعن أبي الدرداء ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَرُدُّ عن عِرْضِ أَخِيهِ ؛ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(١)] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۝ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ .

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء . فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ إما من البحر كما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله ﷻ ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أي : يمده فيكثره وينميه ، ويجعل من القليل كثيرًا . ينشىء سحابة ترى في رأي العين مثل الترس ، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالًا مملوءة . كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وكذلك قال ها هنا : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ﴾ قال مجاهد وغيره : يعني ، قطعًا . وقال غيره : متراكمًا ، وقال غيره : أسود من كثرة الماء تراه مدلهمًا ثقيلًا قريبًا من الأرض . وقوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أي : فترى المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك . فلما جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعًا عظيمًا . وقد اختلف النحاة في قوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ فقال ابن جرير : هو تأكيد ، وقال آخرون : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ المطر ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي الإنزال ﴿ لمبلسين ﴾ ، ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس . ويكون معنى الكلام أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ومن قبله أيضًا قد فات عندهم نزوله وقتًا بعد وقت ، فترقبوه في إبانه فتأخر ، ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ يعني : المطر ؛ ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها . فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أي : إن الذي فعل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر (١٥٧/٥) .

ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ يابسة على الزرع الذي زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي : قد اصفر وشرع في الفساد ﴿ لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : يجحدون ما تقدم إليهم من النعم . كقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ قال عبيد الله بن عمرو : الرياح ثمانية : أربعة منها رحمة ، وأربعة منها عذاب ؛ فأما الرحمة : فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، وأما العذاب . فالعقيم والصرصر وهما في البر ، والعاصف والقاصف وهما في البحر ، فإذا شاء ﷻ حركه بحركة الرحمة ، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ، ولاقحًا للسحاب تلقحه بحمله الماء ، كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيمًا وأودعه عذابًا أليمًا وجعله نقمة على من يشاء من عباده ، فيجعله صرصرًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه . والرياح مختلفة في مهابها ، صبا ودبور وجنوب وشمال ، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه ، وأخرى تهلكه وتعطبه ، وأخرى تسيره وتصلبه ، وأخرى توهنه وتضعفه .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله ؛ فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدى من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال : « وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلكِنْ لَا يُجِيبُونَ » . وتأولته عائشة على أنه قال : « إِنَّهُم الآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ » [1] . وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعًا وتوبيخًا ونقمة . والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة . من أشهر ذلك ما روي عن ابن عباس مرفوعًا : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ أَخِيهِ المُسْلِمِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ ؛ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ حَتَّى يَرُدَّ عليه السلام » [2] . وثبت عنه ﷺ لأمته إذا سلموا على

---

(١) أخرجه مسلم في (الحج) (٧٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٧/٣) .

(٢) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣٦٥/١٠) والسيوطي في الحاوى للفتاوى (٣٠٢/٢) .

أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ، ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علَّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : « سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء اللَّه بكم لاحقون ، يرحم اللَّه المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل اللَّه لنا ولكم العافية »(١) . فهذا سلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد ، واللَّه أعلم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالًا بعد حال ؛ فأصله من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يصير عظامًا ثم تكسى العظام لحمًا ، وينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفًا نحيفًا واهن القوى ، ثم يشب قليلًا قليلًا حتى يكون صغيرًا ، ثم حدثًا ثم مراهقًا ثم شابًا ، وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع في النقص ، فيكتهل ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ قال عطية العوفي : قرأت على ابن عمر ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ﴾ فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعف ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضُعف قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعفا ﴾ . ثم قال : قرأت على رسول اللَّه ﷺ كما قرأت علي فأخذ علي كما أخذت عليك(٢) .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضًا . فمنه إقسامهم باللَّه أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . قال اللَّه تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أي : فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة . كما أقاموا عليهم حجة اللَّه في الدنيا فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة ، ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي : في كتاب الأعمال ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أي : من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال اللَّه تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي : يوم القيامة

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥٨/٢) وأبو داود في سننه (٣٢/٤) ، وقرأ عاصم وحمزة ﴿ من ضَعف ﴾ بفتح الضاد ، والباقون ﴿ من ضعف ﴾ بالرفع (حجة القراءات ص ٥٦٢) .

﴿ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي : اعتذارهم عما فعلوا ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : ولا هم يرجعون إلى الدنيا .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي : قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ، ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أي : لو رأوا أيّ آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل . كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن اللّٰه تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم ، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي : بل اثبت على ما بعثك اللّٰه به ، فإنه الحق الذي لا مرية فيه ولا تعدل عنه ، وليس فيما سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه ، قال قتادة : نادى رجل من الخوارج عليًّا ﷺ ، وهو في صلاة الغداة فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ فأنصت له علي حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو في الصلاة : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ، وهو أنه ﷺ جعل هذا القرآن هدى ، وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك ، ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورًا ، فمن فعل ذلك كذلك ، فهو من الذين قال الله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ، وينتفعون بسماعه عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب . كما قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ . قال : هو والله الغناء . وقال الحسن البصري : نزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ في الغناء والمزامير . وقال قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالًا ، ولكن شراؤه استحبابه بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع . وقيل : أراد بقوله : ﴿ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ اشتراء المغنيات من الجواري ، وقال الضحاك : يعني الشرك . واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله ، واتباع سبيله . وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي : إنما يضع هذا للتخالف للإسلام وأهله . وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلًا للأمر القدري أي : قيضوا لذلك ليكونوا كذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوًا يستهزئ بها . وقال قتادة : يعني ويتخذ آيات الله هزوًا ، وقول مجاهد أولى ، وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أي : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولّى عنها وأعرض ؛ إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرب له فيها ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي يوم القيامة ، يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وعملوا

الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله . ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء والنضرة ، والسماع الذي لم يخطر ببال أحد وهم في ذلك مقيمون دائمًا ، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولًا . وقوله تعالى : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ أي : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد الله والله لا يخلف الميعاد . ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء . ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ الآية .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السماوات والأرض ، وما فيهما وما بينهما فقال تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ . قال الحسن : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . وقال ابن عباس : لها عمد لا ترونها . ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ يعني : الجبال أرست الأرض وثقّلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء . ولهذا قال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي : لئلا تميد بكم . وقوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ أي : وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها ، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : من كل زوج من النبات ﴿ كَرِيمٍ ﴾ أي : حسن المنظر وقال الشعبي : والناس أيضًا من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم ، وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ أي : صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره وحده لا شريك له في ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يعني : المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي : جهل وعمى ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أي : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

اختلف السلف في لقمان ، هل كان نبيًا أو عبدًا صالحًا من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثاني . قال ابن عباس : كان لقمان عبدًا حبشيًا نجارًا . وقال قتادة : عن عبد الله بن الزبير : قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيرًا أفطس الأنف من النوبة ، وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ، ومنعه النبوة . وقال خالد الربعي : كان لقمان عبدًا حبشيًا نجارًا فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة فذبحها ، قال : أخرج أطيب مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء الله . ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها فقال : أخرج أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما ، فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا [1] . وقال مجاهد : كان لقمان عبدًا صالحًا ولم يكن نبيًا . وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبدًا

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٨٢/٢١) .

أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين . وعن سعيد الزبيدي : كان لقمان الحكيم عبدًا حبشيًا غليظ الشفتين ، مصفح القدمين ، قاضيًا على بني إسرائيل . وذكر غيره أنه كان قاضيًا على بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام . وقال عمرو بن قيس : كان لقمان عبدًا أسود غليظ الشفتين ، مصفح القدمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس ناس يحدثهم فقال له : ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا ؟ قال : نعم ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني[1] . فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبيًا ؛ ومنها ما هو مشعر بذلك ؛ لأن كونه عبدًا قد مسه الرق ينافي كونه نبيًا ؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها ؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيًا . وإنما ينقل كونه نبيًا عن عكرمة إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال : كان لقمان نبيًا . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي ، وهو ضعيف والله أعلم . وعن قتادة في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي : الفقه في الإسلام . ولم يكن نبيًا ولم يوح إليه . وقوله : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي : الفهم والعلم والتعبير ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه الله ، ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ثم قال تعالى : ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى : ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ وقوله : ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي : غني عن العباد لا يتضرر بذلك . ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعًا ، فإنه الغني عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه .

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن وصية لقمان لولده ، الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ، ولهذا أوصاه أولًا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا ، ثم قال محذرًا له : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي : هو أعظم الظلم . وعن عبد الله قال : لما نزلت : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ ، أَلَا تسمع إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ ؟ ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ »[2] . ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين ، كما قال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وكثيرًا ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن ؛ وقال ها هنا : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ قال مجاهد : مشقة وهن الولد ؛ وقال قتادة : جهدًا على جهد ؛ وقال عطاء الخرساني : ضعفًا على ضعف . وقوله : ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي : تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين . كما قال تعالى : ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٨٢/٢١) . (٢) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٧٧٦) .

كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ الآية . ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أي : فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء .

وعن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل ، وكان بعثه النبي ﷺ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إني رسول رسول الله ﷺ إليكم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تطيعوني لا آلوكم خيرًا ، وإن المصير إلى الله ، وإلى الجنة أو إلى النار إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت . وقوله : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أي : إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفًا أي : محسنًا إليهما . ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يعني : المؤمنين ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ عن سعد بن مالك قال : أنزلت فيّ هذه الآية ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية قال : كنت رجلًا برًا بأمي ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعَيَّر بي فيقال : يا قاتل أمه . فقلت : لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء . فمكثت يومًا وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يومًا وليلة أخرى لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي . فأكلت .

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ .

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم . ليمتثلها الناس ويقتدوا بها فقال : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي إن المظلمة أو الخطيئة إن كانت مثقال حبة خردل . وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله : ﴿ إِنَّهَآ ﴾ ضمير الشأن والقصة ، وجوز على هذا رفع مثقال والأول أولى . وقوله ﷻ : ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أي : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ . ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء ، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات والأرض ، فإن الله يأتي بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أي : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت . ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم ، وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله : ﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ ﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع ، والظاهر - والله أعلم - أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة ، فإن الله

سيبديها ويظهرها بلطيف علمه . كما قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ لَخَرَجَ عمله لِلنَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ » (١) .

ثم قال : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي : بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ أي : بحسب طاقتك وجهدك ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ ، اعلم أن الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر . وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور . وقوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ . يقول : لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم ، أو كلموك احتقارًا منك لهم واستكبارًا عليهم ، ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء في الحديث : « وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ المخيلَةِ ، والمخيلة لا يُحِبهَا اللَّه » (٢) . قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تتكبر ، فتحتقر عباد الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك ، وقال زيد بن أسلم : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تتكلم وأنت معرض . وقال إبراهيم النخعي : يعني بذلك التشدق في الكلام ، والصواب القول الأول . قال ابن جرير : وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها ، حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي : خيلاء متكبرًا جبارًا عنيدًا ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي : مختال معجب في نفسه ﴿ فَخُورٍ ﴾ أي : على غيره ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ وقال ثابت ابن قيس بن شماس : ذُكر الكبر عند رسول الله ﷺ ، فشدد فيه فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله ، إني لأغسل ثيابي ، فيعجبني بياضها ويعجبني شراك نعلي وعلاقة سوطي ، فقال : « لَيْسَ ذَلِكَ الكِبْرَ إِنَّمَا الكِبْرَ أَنْ تَسفَهُ الحَقَّ وتَغْمِطَ النَّاسَ » (٣) . وقوله : ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي : امش مقتصدًا مشيًا ليس بالبطيء المتبط ولا بالسريع المفرط ، بل عدلًا وسطًا بين بين . وقوله : ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أي : لا تبالغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى ، وهذا التشبيه في هذا بالحمير ، يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوءِ العَائِدُ فِي هِبتَهِ كَالكَلْبِ يقِيء ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ » (٤) . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّه مِنْ فَضْلِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الحَمِيرِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا » (٥) . وفي بعض الألفاظ : بالليل ، فالله أعلم . فهذه وصايا نافعة جدًا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٥/١٠) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦٥/٤) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٨٢/٣) والحاكم في المستدرك (١٨٦/٤) والطبراني في الكبير (٦٠/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في الهبات (١ ، ٢ ، ٧ ، ٨) والإمام أحمد في مسنده (٢١٧/١) .
(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣٠٣) ومسلم في الذكر والدعاء (٨٢) وأبو داود في سننه (٥١٠٢) .

وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها نموذجًا ودستورًا إلى ذلك .

عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لُقْمَانَ الحكِيمَ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ اللَّهِ إِذَا اسْتُوْدِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ » (١) . وعنه ﷺ قال : « قَالَ لُقْمَانُ الحكِيمِ لابِنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَالتَقنع فَإِنَّهُ مَخُوفَةٌ بِاللَّيلِ مَذَمَّةٌ بِالنَّهَارِ » (٢) . وعن الثري بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك . وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام - يعني السلام - ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

فصل في الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان ﷺ لابنه ، عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رُبَّ أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ يُصْفَحُ عَنْ أَبْوَابِ النَّاسِ إِذَا أَقْسَمَ عَلَى اللَّه لأَبَرَّهُ » . وفي رواية : « مِنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ » (٣) . وعن عمر ﷺ : أنه دخل المسجد ، فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال له : ما يبكيك يا معاذ ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ : سمعته يقول : « إِنَّ اليَسِيرَ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ وَإِنَّ اللَّه يُحِبُّ الأَتْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ الأَثْرِيَاءَ الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا ، وَإِذَا حضروا لَمْ يُعْرَفُوا ، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الهُدَى يَنْجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ » (٤) . وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

باب ما جاء في الشهرة

عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَإِنَّ اللَّه لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ ، وَلَكِنْ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » (٥) وروي عن الحسن مرسلًا نحوه ، فقيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ، فقال : إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق . وعن علي ﷺ قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم ﷺ : ما صدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب : ما صدق اللهَ عبدٌ إلا سره أن لا يشعر بمكانه . وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس . وقال سماك بن سلمة : إياك وكثرة الأخلاء . وقال أبان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم إليك دينك ، فأقل من المعارف . كان أبو العالية

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٧/٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٢/٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤١١/٢) السيوطي في الدر المنثور (١٦٢/٤) .

(٣) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (١٤٥/٣) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/١) .

(٥) أخرجه بنحوه الترمذي في السنن (٢٤٥٣) .

إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . وعن أبي رجاء قال : رأى طلحة قومًا يمشون معه ، فقال : ذباب طمع وفراش النار . وقال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ولا ما يزدريك السفهاء . وقال الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجياد التي يشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ويستذل دينه ، وقال الحسن رحمه الله : إن قومًا جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه ما لهم تفاقدوا .

فصل في حسن الخلق

قال أنس رضي الله عنه ، كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا [١] . وابن عمر قيل : يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » [٢] .

وقال ميمون بن مهران عن رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ سُوءِ الخُلُقِ » [٣] . وعن أبي هريرة مرفوعًا « إِنَّكُمْ لا تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ وجُوهٍ وَحُسْنُ خُلُقٍ » [٤] وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل في ذم الكبر

قال ابن مسعود رفعه : « لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » [٥] . وعن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا ، فيذكر بدء خلق الإنسان حتى إن أحدنا ليقذر نفسه يقول : خرج من مجرى البول مرتين . وقال الحسن : عجبًا لابن آدم يغسل الخرء بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السماوات .

فصل في الاختيال

عن ابن بريدة عن أبيه مرفوعًا : « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظر اللَّهُ إِلَيْهِ » [٦] وعن أبي هريرة مرفوعًا : « لا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ ، وَبَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَيهِ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ الأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » [٧] .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٥٤) وأحمد في مسنده (٣٧٠/٣) والترمذي في سننه (٢٠١٥) .

(٢) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٠٤/٣) . (٣) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٣/٣) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٢٤/١) والسيوطي في الدر المنثور (٧٣/٢) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩) .

(٦) له روايات كثيرة منها ما أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٣) ومسلم في اللباس (٤٥) وأحمد في مسنده (٤٢/٢) .

(٧) أخرجه البخاري في (اللباس) (٥٧٨٨) .

يقول تعالى منبهًا خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة ، بأنه سخر لهم ما في السماوات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفًا محفوظًا . وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار ، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل . ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أي في توحيده وإرساله الرسلَ ومجادلته في ذلك بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي : مبين مضيء ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أي : لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي : على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ أي : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ أي : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عمن أسلم وجهه لله ، أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ، ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي : في عمله باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أي : فقد أخذ موثقًا من الله متينًا أنه لا يعذبه . ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ أي : لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله ، وبما جئت به ، فإن قدر الله نافذ فيهم ، وإلى الله مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا أي : فيجزيهم عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فلا تخفى عليه خافية . ثم قال تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أي : نلجئهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي : فظيع صعب مشق على النفوس .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السماوات والأرض وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : هو خلقه وملكه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أي : الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه ، الحميد في جميع ما خلق له الحمد في السماوات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود في الأمور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ أي : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلامًا وجعل البحر مدادًا وأمده سبعة أبحر معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مددًا . وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم ؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته . قال الحسن البصري : لو جعل شجر الأرض أقلامًا ، وجعل البحر مدادًا ، وقال الله : إن من أمري كذا ومن أمري كذا ، لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام . وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ أي : لو كان شجر الأرض أقلامًا ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه . وقوله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أي : ما خلق جميع الناس ، وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هين عليه ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أي : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ الآية .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ يعني : يأخذ منه في النهار ، فيطول ذاك ويقصر هذا ، وهذا يكون زمن الصيف ، يطول النهار إلى الغاية ، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون في الشتاء .. ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يَا أَبَا ذَر أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا ارجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ »[1] . وقال ابن عباس : الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فلكها ، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها قال : وكذلك القمر ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أي : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، وأن كل ما سواه باطل . فإنه الغني عما سواه

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٨٠٢) ومسلم في (الإيمان) (٢٥٠) .

وكل شيء فقير إليه ؛ لأن كل ما في السماوات والأرض الجميع خلقه وعبيده لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابًا لعجزوا عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي : العلي الذي لا أعلى منه الكبير الذي هو أكبر من كل شيء ، فكل خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ .

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت . ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي : من قدرته ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ . أي صبار في الضراء شكور في الرخاء . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ ﴾ أي : كالجبال والغمام . ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أي كافر كأنه فسر المقتصد ها هنا بالجاحد . كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وقال ابن زيد : هو المتوسط في العمل ، وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ الآية . فالمقتصد ها هنا هو المتوسط في العمل ، ويحتمل أن يكون مرادًا هنا أيضًا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات في البحر . ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص . كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام والدؤوب في العبادة والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرًا والحالة هذه والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ . فالختار هو الغدار . قاله مجاهد والحسن وقتادة ، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده . والختر أتم الغدر وأبلغه . وقوله : ﴿ كَفُورٍ ﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ .

يقول تعالى منذرًا للناس يوم المعاد ، وآمرًا لهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ أي : لو أراد أن يفدية بنفسه لما قبل منه . كذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه ، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها على الدار الآخرة . ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ يعني الشيطان . فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه وليس من ذلك شيء ، بل كان كما قال تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ .

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛

وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرًا أو أنثى أو شقيًّا أو سعيدًا علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غدًا في دنياها وأخراها ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك ، وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّه ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ » (١) .

وعن عبد الله بن سلمة قال : قال عبد الله : أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ (٢) .

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ كان يومًا بارزًا للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّه وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ ، وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ الآخِرِ » . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : « الإِسْلَامُ ، أَنْ تَعْبُدَ اللَّه وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ » . قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : « الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : « مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ » . ثم انصرف الرجل فقال : « رُدُّوهُ عَلَيَّ » فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئًا فقال : « هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ » (٣) .

وعن ربعي بن حراش عن رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « اخْرُجْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يُحْسِنُ الاسْتِئْذَانَ فَقُلْ لَهُ : فَلْيَقُلْ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أأدخل ؟ » قال : فسمعته يقول ذلك فقلت : السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن لي فدخلت فقلت : بم أتيتنا ؟ قال : « لَمْ آتِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ ، أَتَيْتُكُمْ بِأَنْ تَعْبُدُوا اللَّه وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ تَدَعُوا اللاتَ وَالعُزَّى ، وَأَنْ تُصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ خَمْسَ صَلَوَات ؛ وَأَنْ تَصُومُوا مِنَ السَّنَةِ شَهْرًا ، وَأَنْ تَحُجُّوا البَيْتَ ، وَأَنْ تَأْخُذُوا الزَّكَاةَ مِنْ مَالِ أَغْنِيَائِكُمْ فَتَرُدُّوهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ » . فقال : فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : « قَدْ عَلَّمَنِي اللَّه ﷻ خَيْرًا وَإِنَّ مِنَ العِلْمِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّه ﷻ : الخمس : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٧٨) وأحمد في مسنده (١٢٢/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٥/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في (الإيمان) (٤٧٧٧) ومسلم في (الإيمان) (٥) .

وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾ الآية» [١] . وقال مجاهد : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتي حبلى ، فأخبرني ما تلد ؟ وبلادنا مجدبة ، فأخبرني متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت ، فأخبرني متى أموت ؟ فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ - إلى قوله - عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ قال مجاهد : وهي مفاتيح الغيب التي قال تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ . قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن فلم يطلع عليهن ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة ، في أي سنة ، أو أي شهر أو ليل أو نهار . ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلًا أو نهارًا . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾ . فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وما هو . ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ أخير أم شر ، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غدًا ، لعلك المصاب غدًا ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أي : ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض ، أفي بحر أم بر أو سهل أو جبل . وقد جاء في الحديث « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ بأرضٍ جَعَلَ لَهُ فِيها - أَو قَالَ بِهَا - حاجةً » [٢]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٨/٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٢/١) .

سورة السجدة

عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ﴾ السجدة و ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ [1] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ها هنا . وقوله : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي : لا شك فيه ولا مرية أنه منزَّل ﴿ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم قال تعالى مخبرًا عن المشركين : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أي : اختلقه من تلقاء نفسه . ﴿ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي يتبعون الحق .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق للأشياء ، فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك . ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أي : بل هو المالك لأزمة الأمور ، القادر على كل شيء ، فلا ولي لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني . أيها العابدون غيره المتوكلون على من عداه تعالى ، وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك ، وقوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أي : يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة . كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ الآية . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة . وقال مجاهد : النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام . ولكنه يقطعها في طرفة عين . ولهذا قال تعالى : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي : المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها ، وهو عزيز في رحمته رحيم في عزته ، وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة فهو رحيم بلا ذل .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها . وقال زيد بن أسلم : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ قال : أحسن خلق كل شيء ، كأنه جعله من المقدم والمؤخر . ثم لما ذكر تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في سجود القرآن (١٠٦٨) .

خلق السماوات والأرض ، شرع في ذكر خلق الإنسان ، فقال تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ يعني : خلق أبا البشر آدم من طين . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ . أي : يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب خلقه سويًّا مستقيمًا ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ ﴾ يعني العقول ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي : بهذه القوى التي رزقكموها الله ﷻ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه ﷻ.

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في استبعادهم المعاد ، حيث قالوا : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : أئنا لنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم ، الذي إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ الظاهر من هذه الآية : أن ملك الموت شخص معين من الملائكة ، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور . قاله قتادة وغير واحد وله أعوان ، وورد في الحديث أن أعوانه ينزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت ، قال مجاهد : حويت له الأرض ، فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء . وعن جعفر بن محمد ، قال : سمعت أبي يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ : « يَا مَلَكَ الْمَوْتِ ارْفِقْ بِصَاحِبِي فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ » فقال ملك الموت : يا محمد ، طب نفسًا وقر عينًا ، فإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ، ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها (١) . قال جعفر : بلغني أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت ، فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ، ولقنه الملك لا إله إلا الله محمد رسول الله في تلك الحال العظيمة . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدي الله ﷻ حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم أي : من الحياء والخجل يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ . وهكذا هؤلاء يقولون :

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢/٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٧٣/٥) .

﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا ﴾ أي : إلى دار الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أي : قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارًا ، يكذبون بأيات الله ويخالفون رسله . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ الآية . وقال هاهنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ . ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : من الصنفين فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك . ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ﴾ أي : يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ أي : سنعاملكم معاملة الناسي ؛ لأنه تعالى لا ينسي شيئًا ، ولا يضل عنه شيء . بل من باب المقابلة كما قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بسبب كفركم وتكذيبكم .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي : إنما يصدق بها ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا ﴾ أي : استمعوا لها وأطاعوها قولًا وفعلًا . ﴿ وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : عن اتباعها والانقياد لها كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ يعني بذلك قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة ، قال مجاهد والحسن في قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ يعني بذلك قيام الليل ، وعن أنس وعكرمة وقتادة : هو الصلاة بين العشاءين ، وعن أنس أيضًا : هو انتظار صلاة العتمة . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء في جماعة وصلاة الغداة في جماعة . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي : خوفًا من وبال عقابه وطمعًا في جزيل ثوابه . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ : رَجُلٍ ثَارَ مِنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي ، وَرَجُل غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّه تَعَالَى فَانْهَزَمُوا فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الفِرَارِ وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِلمَلَائِكَةِ : انْظُرُوا إِلَى عَبْدِيَ رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عندي وَرَهْبَةً مما عندي حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ » [1] .

وعن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير فقلت :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٦/١) والبيهقي في السنن (١٦٤/٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٥/٢) .

يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال : « لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرهُ اللَّه عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللَّه وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ البَيْتَ » ثُمَّ قال : « أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، والصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيلِ - ثم قرأ - ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ » ، ثم قال : « أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله فقال : « رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه » ، ثم قال : « أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهُ ؟ » فقلت : بلى يا نبي الله ، فأخذ بلسانه ثم قال : « كُفَّ عَلَيْكَ هذَا » . فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أو قال : عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟ » [١] .

وعن معاذ أيضًا عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ قال : « قِيَامُ العَبْدِ مِنَ اللَّيلِ » [٢] . وعن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال : « إِنْ شِئْتَ نَبَّأْتُكَ بِأَبْوابِ الخَيْرِ : الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ ، وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيلِ » . ثم تلا رسول الله ﷺ : « ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ » [٣] الآية .

عن أبي هريرة ﷺ قال حماد : أحسبه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ يَنْعَم لا يَيْأَس لَا تُبْلَى ثِيَابُهُ ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ ، فِي الجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » [٤] .

وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى . ثم قال في آخر حديثه : « فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » . ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ [٥] .

وعن الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر يرفعه إلى النبي ﷺ قال : سأل موسى عليه السلام ربه ﷻ ، ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أي رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة : رضيت ربي فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله معه ، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . قال : ومصداقه من كتاب

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣١/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥١٧/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٠/٧) .
(٣) أخرجه مسلم في الصيام (١٦١) وأحمد في مسنده (٢٥٧/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في (الجنة) (٢١) أحمد في مسنده (٣٦٩/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٤/٥) .

الله ﷻ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية [(١)] . وعن ابن عباس عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال : « يُؤْتَى بِحَسَنَاتِ العَبْدِ وسَيِّئَاتِهِ يُنْقِصُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ بَقِيَتْ حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ وَسَّعَ اللهُ لَهُ فِي الجَنَّةِ » قال : فدخلت على بزداد فحدث بمثل هذا الحديث . قال : فقلت فأين ذهبت الحسنة قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ الآية . قلت : قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ قال العبد يعمل سرًّا أسره إلى الله لم يعلم به الناس ، فأسر الله له يوم القيامة قرة أعين [(٢)] .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمنًا بآياته متبعًا لرسله بمن كان فاسقًا أي خارجًا عن طاعة ربه مكذبًا لرسل الله إليه . كما قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ . ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ . أي : عند الله يوم القيامة ، وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط ، ولهذا فصل حكمهم فقال : ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي : صدقت قلوبهم بآيات الله ، وعملوا بمقتضاها وهي : الصالحات ﴿ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أي : التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نُزُلًۢا ﴾ أي : ضيافة وكرامة ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ ﴾ أي : خرجوا عن الطاعة ﴿ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ كقوله : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ الآية . قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا . وقوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ . قال ابن عباس : يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به من عباده ليتوبوا إليه ، وقال في رواية عنه : يعني به إقامة الحدود عليهم . وقال البراء بن عازب : يعني به عذاب القبر ، وعن عبد الله ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ قال : سنون أصابتهم . وقال أبي بن كعب في هذه الآية : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ . قال : القمر والدخان قد مضيا والبطشة واللزام [(٣)] . وقال عبد الله بن مسعود في رواية عنه : العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر ، قال السدي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرموا ومنهم من جمع له الأمران . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ

---

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٣١٢) .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢٧/٢١) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٨/٥) .

عَنْهَآ ﴾ أي : لا أظلم ممن ذكَّره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها . قال قتادة : إياكم والإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبرالغرة ، وأعوز أشد العوز وعظم من أعظم الذنوب . ولهذا قال تعالى متهددًا لمن فعل ذلك : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أي : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب ؛ وهو التوراة . وقوله تعالى ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ قال قتادة : يعني به ليلة الإسراء . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أُرِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى بنَ عِمْرَانَ رَجُلًا آدَمَ طُوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعَ الخَلْقِ إِلَى الحُمْرَةِ والبَيَاضِ سَبطَ الرَّأْسِ ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ والدَّجَّالَ » (١) ؟ في آيات أراهُنَّ الله إياه ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به .

وعن أبي العالية عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل . وفي قوله : ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ قال : من لقاء موسى ربه عز وجل . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أي : الكتاب الذي آتيناه ﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ كما قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أي : لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجره وتصديق رسله كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ثم لما بدلوا وحرفوا وأوّلوا سلبوا ذلك المقام وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحًا ولا اعتقادًا صحيحًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا ، وكذلك قال الحسن بن صالح قال سفيان : هكذا كان هؤلاء ، ولا ينبغي للرجل أن يكون إمامًا يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا ، قال وكيع قال سفيان : لابد للدين من العلم ، كما لابد للجسد من الخبز . وسئل سفيان عن قول علي رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾ . قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوسًا . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ الآية . كما قال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : من الاعتقادات والأعمال .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣٥/٢١) .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ولهذا قال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ أي : وهؤلاء المكذبين يمشون في مساكن أولئك المكذبين ، فلا يرون فيها أحدًا ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ كما قال : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ وقال : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ - إلى قوله - وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي : إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم لآيات وعبرًا ومواعظ ودلائل متناظرة . ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : أخبار من تقدم كيف كان أمرهم . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء ، إما من السماء ، أو من السيح وهو ما تحمله الأنهار ويتحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ وهي : التي لا نبات فيها . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أي : يبسًا لا تنبت شيئًا ، وليس المراد من قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط ، بل هي بعض المقصود . وإن مثل بها كثير من المفسرين ، فليست هي المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعًا من هذه الآية ، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء مالو نزل عليها مطرًا لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر ، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء وذلك الطين أيضًا لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبدًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ الآية . ولهذا قال ها هنا : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال : هي التي لا تمطر إلا مطرًا لا يغني عنها شيئًا إلا ما يأتيها من السيول ، وعن ابن عباس ومجاهد : هي أرض باليمن ، وقال الحسن رحمه الله : هي قرى فيما بين اليمن والشام . وقال عكرمة وابن زيد : الأرض الجرز التي لا نبات فيها وهي مغبرة ، قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ الآيتين .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن استعجال الكفار ، ووقوع بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم استبعادًا وتكذيبًا وعنادًا : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ ﴾ أي : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتًا تدال علينا وينتقم لك منا فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين

ذليلين . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ ﴾ أي : إذا حل بكم بأس الله ، وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة ﴿ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة ، فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش . فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريبًا من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل كقوله : ﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ الآية . وكقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ . أي : أعرض عن هؤلاء المشركين ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد . وقوله : ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي : أنت منتظر وهم منتظرون ويتربصون بكم الدوائر ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم ، وسيجدون غبَّ ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

سورة الأحزاب

عن زر قال : قال لي أبي بن كعب : كأين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كأين تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثًا وسبعين آية ، فقال : قط ، لقد رأيتها وأنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى . وقد قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أي : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي : من قرآن وسنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ . أي : فلا تخفى عليه خافية ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : في جميع أمورك وأحوالك ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي : وكفى به وكيلًا لمن توكل عليه وأناب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى موطئًا قبل المقصود المعنوي أمرًا معروفًا حسيًا ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله : أنت عليَّ كظهر أمي أمًّا له ، كذلك لا يصير الدعيُّ ولدًا للرجل إذا تبناه فدعاه ابنًا له فقال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ هذا هو المقصود بالنفي ، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة ﷺ مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال : له زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ يعني : تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنًا حقيقيًا ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر . فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان . ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٥) .

وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ . قال سعيد بن جبير : ﴿ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ أي : العدل ، وقال قتادة : ﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي : الصراط المستقيم ، وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له : ذو القلبين ، وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ردًّا عليه . هكذا روى العوفي عن ابن عباس ، وعن قابوس بن أبي ظبيان قال : إن أباه حدثه قال : قلت لابن عباس : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ ما عنى بذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يومًا يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين ؛ قلبًا معكم وقلبًا معهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [١] . وعن معمر الزهري في قوله : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضرب له مثل : يقول ليس ابن رجل آخر ابنك .

وقوله ﷻ : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط والبر .

وعن عبد الله بن عمر قال : إن زيد بن حارثة ﷺ مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [٢] . وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك . ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة ﷺ : يا رسول الله كنا ندعو سالمًا ابنًا ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل عليَّ ، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئًا ، فقال ﷺ : « أَرْضِعِيهِ تحرمي عَلَيْهِ » [٣] ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش ، مطلقة زيد بن حارثة ﷺ ، وقال ﷻ : ﴿ لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ . وقال تبارك وتعالى في آية التحريم : ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ احترازًا عن زوجة الدعي ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة فمنزَّل منزلة ابن الصلب شرعًا بقوله ﷺ في الصحيحين : « حَرِّمُوا مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ » [٤] . فأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتحبب فليس مما نهي عنه في هذه الآية بدليل ما رواه ابن عباس ﷺ قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب على جمرات لنا من جمع ، فجعل يلطخ أفخاذنا ويقول : « أُبَيْنِيَّ لَا تَرْمُوا الجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ » [٥] . قال أبو عبيدة وغيره : أُبَيْنِيَّ تصغير ابني وهذا ظاهر الدلالة . فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر .

وقوله : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ في شأن زيد بن حارثة ﷺ ، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٧/١) والترمذي في سننه (٣١٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٦٢) والترمذي في سننه (٣٢٠٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع (٢٧ ، ٢٨) والإمام أحمد في مسنده (٢٠١/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥١١١) ومسلم في الرضاع (٥) والإمام أحمد في مسنده (٧٢/٦) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٣/١) وابن ماجه في سننه (٣٠٢٥) .

وأيضًا عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يَا بُنَيَّ » [1] ، وقوله ﷻ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أي عوضًا عما فاتهم من النسب ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء ، وتبعتهم ابنة حمزة ﵄ تنادي : يا عم ، يا عم ، فأخذها علي ﷺ وقال لفاطمة ﵄ : دونك ابنة عمك ، فاحتمليها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر ﷺ في أيهم يكفلها فكل أدلى بحجة . فقال علي ﷺ : أنا أحق بها وهي ابنة عمي ، وقال زيد : ابنة أخي ، وقال جعفر بن أبي طالب : ابنة عمي وخالتها تحتي ، يعني أسماء بنت عميس ، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها ، وقال : « الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ » وقال لعلي ﷺ : « أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ » ، وقال لجعفر ﷺ : « أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي » . وقال لزيد ﷺ : « أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا » [2] . ففي هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها أنه ﷺ ، حكم بالحق وأرضى كلًّا من المتنازعين وقال لزيد ﷺ : « أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا » كما قال تعالى : ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ . وقد جاء في الحديث « لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يُعلمُهُ إِلَّا كَفَرَ » [3] . ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ . إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع . فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه ، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى آمرًا عباده أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ . وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللهُ ﷻ : قَدْ فَعَلْتُ » [4] وعن عمرو بن العاص ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ » [5] وفي الحديث الآخر : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي : الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَالأَمْرَ الذي يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ » [6] . وقال تبارك وتعالى ها هنا : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي : وإنما الإثم على من تعمد الباطل ، وفي القرآن المنسوخ : فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم . وفي الحديث : « ثَلَاثٌ في النَّاسِ كُفْرٌ : الطَّعْنُ في النَّسَبِ ، والنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ » [7] .

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ .

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ،

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب (٣١) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٩٨/١ ، ١٠٨ ، ١١٥) والترمذي في سننه (٣٧١٦ ، ٣٧٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٠٨) ومسلم في الإيمان (١١٢) والإمام أحمد في مسنده (١٦٦/٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٠) .

(٥) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم في الأقضية (١٥) .

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٦) والبيهقي في السنن (٣٥٦/٧) والحاكم في المستدرك (١٩٨/٢) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٢/٥) .

وحكمه فيهم كان مقدمًا على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . وفي الصحيح : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » [١] . وفي الصحيح أيضًا : أن عمر ﷺ قال : يا رسول اللَّه واللَّه لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال ﷺ : « لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » فقال : يا رسول اللَّه واللَّه لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي ، فقال ﷺ : « الآنَ يَا عُمَرُ » [٢] . ولهذا قال تعالى في هذه الآية : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا ، وَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ » [٣] ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أي : في الحرمة والاحترام ، والتوقير والإكرام والإعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين . كما هو منصوص الشافعي ﷺ في المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم ، وهل يقال لمعاوية وأمثاله خال المؤمنين ؟ فيه قولان للعلماء ﷺ ونص الشافعي ﷺ على أنه لا يقال ذلك ، وهل لهن أمهات المؤمنات ، وهل يقال له ﷺ : أبو المؤمنين ، فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليبًا ؟ فيه قولان ، صح عن عائشة ﷺ أنها قالت : لا يقال ذلك ، وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي ﷺ . وقد روي عن أبي بن كعب وابن عباس ﷺ أنهما قرآ (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) . وروي نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن ، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي ﷺ . واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد ، أعلمكم ، فإذا أتي أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه ، وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمة [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي : في حكم اللَّه ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ أي : القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم . كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجريُّ يرث الأنصاريَّ دون قراباته وذوي رحمه للأخوَّةِ التي آخى بينهما رسول اللَّه ﷺ . وقد ورد عن الزبير بن العوام ﷺ قال : أنزل اللَّه ﷻ فينا خاصة معشر قريش والأنصار : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ، ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ومسلم في (الإيمان) (٦٩) .
(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/٣٥٣ .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨١) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٣٤) .
(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٨) .

الإخوان فواخيناهم ووارثناهم فآخى أبو بكر ﷺ خارجة بن زيد ، وآخى عمر ﷺ فلانًا ، وآخى عثمان ﷺ رجلًا من بني زريق ابن سعد الزرقي ، ويقول بعض الناس غيره ، قال الزبير ﷺ : وواخيت أنا كعب بن مالك فجئته فابتعلته ، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى ، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري . حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى مواريثنا . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ أي : ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية . وقوله تعالى : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ أي : هذا الحكم ، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض ، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير . قاله مجاهد وغير واحد ، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي ، والله أعلم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن أولي العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى ، وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والإنفاق كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم وكذلك هذا ، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم . وهو من باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم أيضًا في هذه الآية وفي قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ . فذكر الطرفين والوسط الفاتح والخاتم ومن بينهما على الترتيب ، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم . وقال ابن عباس : الميثاق الغليظ العهد .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ قال مجاهد : المبلغين المؤدين عن الرسل ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : من أممهم ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي : موجعًا ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ونصحوا الأمم ، وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلي الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال . كما يقول أهل الجنة : ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم ، وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور ، وقال موسى بن عقبة وغيره : كان في سنة أربع وكان سبب قدوم الأحزاب : أن نفرًا من أشراف يهود بني النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر ، ومنهم سلام ابن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع خرجوا إلى مكة ، فاجتمعوا بأشراف قريش ، وألبوهم على حرب النبي ﷺ ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان ، فدعوهم فاستجابوا لهم أيضًا ، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي ﷺ ، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر ، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات . وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريبًا من أحد ، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ . وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين نحو ثلاثة آلاف وقيل : سبعمائة ، فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة ، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة ، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل ، فذهب إليهم حيي ابن أخطب النضري فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال ، ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريبًا من شهر إلا أنهم لا يصلون إليهم ، ولم يقع بينهم قتال ، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامري وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق ، وخلصوا إلى ناحية المسلمين ، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه فيقال : إنه لم يبرز إليه أحد ، فأمر عليًا ﷺ فخرج إليه ، فتجاولا ساعة ثم قتله علي ﷺ ، فكان علامة على النصر .

ثم أرسل الله ﷻ على الأحزاب ريحًا شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين . كما قال الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا ﴾ قال مجاهد : وهي الصبا ، ويؤيده الحديث الآخر : « نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ » [(١)] . وعن عكرمة قال : قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب : انطلقي ننصر رسول الله ﷺ فقالت الشمال : إن الحرة لا تسري بالليل قال : فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا . وعن عبد الله بن عمر ﵄ قال : أرسلني خالي عثمان بن مظعون ﷺ ليلة الخندق في برد شديد وريح إلي المدينة فقال : ائتنا بطعام ولحاف قال : فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال : « مَنْ أَتَيْتَ مِنْ أَصْحَابِي فَمُرْهُمْ يَرْجِعُوا » . قال : فذهبت

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٥) ومسلم في صلاة الإستسقاء (١٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٢٨/١) .

والريح تسفي كل شيء ، فجعلت لا ألقى أحدًا إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ قال : فما يلوي أحد منهم عنقه ، قال : وكان معي ترس لي ، فكانت الريح تضربه علي ، وكان فيه حديد قال : فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي ، فأبعدها إلى الأرض (١) .

وقوله : ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف . فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان إلي ، فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء ، لما ألقى الله ﷻ في قلوبهم من الرعب .

وقال محمد بن كعب القرظي : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان ﷺ : يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخي قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد ، قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة ﷺ : يا ابن أخي والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل ثم التفت فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ؟ - يشترط له النبي ﷺ أن يرجع - أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . قال : فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال : « مَنْ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ ، - يشترط له رسول الله الرجعة - أسأل الله تَعَالَى أَنْ يَكُونُ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ » ، فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال ﷺ : « يَا حُذَيْفَةُ اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فانظر مَا يفعلُونَ وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِينَا » قال : فذهبت فدخلت في القوم ، والريح وجنود الله ﷻ تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قرارًا ولا نارًا ولا بناء فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جليسه . قال حذيفة ﷺ : فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان ابن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي أن لا تحدث شيئًا حتى تأتيني لو شئت لقتلته بسهم ، قال حذيفة ﷺ : فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحل ، فلما رآني أدخلني بين رجليه وطرح علي طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإني لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم (٢) .

وعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان ﷺ فقال له رجل : لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت ، فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥٣/٢١) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢٤٢/٣ - ٢٤٤) .

الأحزاب ، في ليلة ذات ريح شديدة وقر ، فقال رسول الله ﷺ : « أَلا رَجُلٌ يَأْتِي بِخَبَرِ القَوْمِ يَكُونُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله ثم قال ﷺ : « يَا حُذَيْفَةُ قُمْ فَأْتِنَا بِخَبَرٍ مِنَ القَوْمِ » فلم أجد بدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال : « ائتِنِي بِخَبَرِ القَوْمِ وَلَا تُذْعِرْهُمْ عَلَيَّ » . قال : فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار ، فوضعت سهمًا في كبد قوسي وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا تُذْعِرْهُمْ عَلَيَّ » ولو رميته لأصبته قال : فرجعت كأنما أمشي في حمام فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت ، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها ، فلم أزل نائمًا حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قُمْ يَا نَوْمَانُ » [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أي : الأحزاب ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ تقدم عن حذيفة رضي الله عنه أنهم بنو قريظة ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ . أي : من شدة الخوف والفزع ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين وأن الله سيفعل ذلك . وقال محمد بن إسحاق : ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط ، وقال الحسن في قوله ﷻ : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدًا ﷺ وأصحابه يستأصلون . وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله : هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر . قال ﷺ : « نَعَمْ ، قُولُوا : اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا ، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا » . قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح [(٢)] .

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالًا شديدًا . فحينئذ ظهر النفاق وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أما المنافق فنجم نفاقه ، والذي في قلبه شبهة أو حسكة ضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعني : المدينة كما جاء في الصحيح : « أُرِيتُ فِي المَنَامِ دَارَ هِجْرَتِكُمْ أَرْضٌ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ ، فَذَهَبَ وَهَلِي أَنَّها هَجَرُ فَإِذَا هِيَ يَثْرِبُ » [(٣)] . وفي لفظ : المدينة ، ويقال : إنما كان أصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد (٩٩) والبيهقي في سننه (١٤٨/٩) . (٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٥٤) والإمام أحمد في مسنده (١٩٨/٦) .

يقال له يثرب بن عبيد بن مهلاييل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ، قاله السهيلي . قال : وروي عن بعضهم أنه قال : إن لها في التوراة أحد عشر اسمًا : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة . قوله : ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ أي : ها هنا يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ أي : إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾ قال ابن عباس ﵄ : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق ، وكذا قال غير واحد ، وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو أوس بن قيظي يعني : اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة أي : ليس دونها ما يحجبها من العدو فهم يخشون عليها منهم قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي : هربًا من الزحف .

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ⑭ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ⑮ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ⑯ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعًا ، وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . هكذا فسرها قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير ، وهذا ذم لهم في غاية الذم . ثم قال تعالى يذكّرهم بما كانوا عاهدوا اللَّه من قبل هذا الخوف أن لا يولوا الأدبار ، ولا يفروا من الزحف . ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أي : وإن اللَّه سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك ، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم بل ربما كان ذلك سببًا في تعجيل أخذهم غرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : بعد هربكم وفراركم ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي : يمنعكم ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون اللَّه مجير ولا مغيث .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ⑱ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب والقائلين لإخوانهم أي : أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم : ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أي : إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار ، وهم مع ذلك : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ⑱ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي بخلاء بالمودة والشفقة عليكم ، وقال السدي : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي : في الغنائم ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أي : من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أي : فإذا كان الأمن تكلموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا ، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة وهم يكذبون في ذلك . وقال ابن عباس ﵄ : ﴿ سَلَقُوكُم ﴾

أي : استقبلوكم ، وقال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأه مقاسمة أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق ، وهم مع ذلك أشحة على الخير أي : ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر :

أَفِي السِّلْمِ أَعْيَارٌ جفاءً وغِلْظَةً وَفِي الحَرْبِ أَمْثَالُ النِّسَاءِ العَوَارِكِ

أي في حال المسالمة كأنهم الحمر ، والأعيار جمع عير وهو الحمار ، وفي الحرب كأنهم النساء الحيض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أي سهلاً هينًا عنده .

﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وهذا أيضًا من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ ﴾ بل هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم ﴿ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ ﴾ أي : ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة ، بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلًا لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله ﷻ العالم بهم .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربه ﷻ ، ولهذا قال تعالى للذين تقلقلوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ثم قال تعالى مخبرًا عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة . فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ . قال ابن عباس ﷺ وقتادة : يعنون قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ أي : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم كما قال جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص ، ومعنى قوله جلت عظمته : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أي : ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إِلَّا إِيمَانًا ﴾ بالله ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ أي انقيادًا لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ .

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

لما ذكر ﷻ عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف

المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ قال بعضهم : أجله وقال البخاري : عهده وهو يرجع إلى الأول ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أي : وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه [١] ، وروي عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى رضي الله عنه الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [٢] . وقال أنس بن مالك رضي الله عنه نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ الآية [٣] .

قال أنس : عمي أنس بن النضر رضي الله عنه سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أراني الله تعالى مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ﷻ ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد . فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال له أنس رضي الله عنه : يا أبا عمرو أين واهًا لريح الجنة إني أجده دون أحد قال : فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه . قال : فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا ببنانه . قال فنزلت هذه الآية : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه ، وفي أصحابه رضي الله عنهم [٤] . قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ : يعني : عهده ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ قال : يومًا فيه القتال فيصدق في اللقاء . وقال الحسن ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ يعني موته على الصدق والوفاء ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تبديلًا . وقال بعضهم : نحبه نذره .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أي : وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم . كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ . فهذا علم بالشيء بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلًا به قبل وجوده ؛ ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أي : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظتهم عليه ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم ، بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه (تفسير القرآن) في تفسير سورة الأحزاب باب ٣ ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٤) والترمذي في سننه (٣١٠٤) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٤٨) والإمام أحمد في مسنده (٤/١٩٣) .

الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن اللَّه جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد ، ولكن قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ فسلط عليهم هواء فرق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلاط من قبائل شتى أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم ، ولم ينالوا خيرًا لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعدواة وهمهم بقتله واستئصال جيشه ، ومن همَّ بشيء وصدَّقَ همه بفعله ، فهو في الحقيقة كفاعله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أي : لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ؛ بل كفى اللَّه وحده ونصر عبده وأعز جنده . ولهذا كان رسول اللَّه ﷺ يقول : « لَا إله إلا اللَّه وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، فَلَا شَيءَ بَعْدَهُ » (١) وعن عبد اللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : دعا رسول اللَّه ﷺ على الأحزاب فقال : « اللَّهُمَّ مُنزلَ الكِتَابِ ، سَرِيعَ الحِسَابِ ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ » (٢) . وفي قوله عز وجل : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها لم يغزهم المشركون . بل غزاهم المسلمون في بلادهم . عن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ يوم الأحزاب : « الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أي : بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيرًا ، وأعز اللَّه الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة نقضوا ما كان بينهم وبين رسول اللَّه ﷺ من العهد ، وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النضري - لعنه اللَّه - دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وقال له فيما قال : ويحك قد جئتك بعز الدهر ، أتيتك بقريش وأحابيشها وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمدًا وأصحابه . فقال له كعب : بل واللَّه أتيتني بذل الدهر . ويحك يا حيي إنك مشؤوم فلم يزل يفتل في الذّروة والغارب حتى أجابه ، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن فيكون له أسوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ ساءه

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١١٤) ومسلم في الذكر والدعاء (٧٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/٢ ، ٣٤١ ، ٤٩٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٣٣) ومسلم في الجهاد (٢٠ - ٢٢) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٣/٤ ، ٣٥٥) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١١٠) والإمام أحمد في مسنده (٢٦٢/٤) .

وشق عليه وعلى المسلمين جدًا ، فلما أيده الله تعالى ونصره وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيدًا منصورًا ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة ﵂ إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجرًا بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم » قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعي من طلب القوم . ثم قال : إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة .

وفي رواية فقال له : عذيرك من مقاتل أوضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » قال : لكنا لم نضع أسلحتنا بعد ، انهض إلى هؤلاء . قال ﷺ : « أَيْنَ ؟ » قال : بني قريظة ، فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم ، فنهض رسول الله ﷺ من فوره وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة ، وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر . وقال ﷺ : « لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ »[(١)] . فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا في بني قريظة فلم يعنف واحدًا من الفريقين ، وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ﵁ وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب ﵁ . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ﵁ ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسب إليهم في ذلك كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في مواليه بني قينقاع حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعدًا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك . ولم يعلموا أن سعدًا ﵁ كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق ، فكواه رسول الله ﷺ في أكحله وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد ﵁ فيما دعا به : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلبًا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم ويرققونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم . فلما أكثروا عليه قال ﵁ : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ » فقام إليه المسلمون فأنزلوه إعظامًا وإكرامًا واحترامًا له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : « إِنَّ هؤلَاءِ - وأشار إليهم - قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ فَاحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ » . فقال ﵁ : وحكمي نافذ عليهم ؟ قال ﷺ : « نعم » قال : وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » قال : وعلى من ها هنا وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ ، وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالًا وإكرامًا وإعظامًا ، فقال له رسول الله ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه في المغازي(٤١١٧) ،(٤/١٩) .

« نَعَمْ » فقال ﷺ : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : « لَقَد حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّه تعالى مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخدت في الأرض . وجيء بهم مكتفين فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ، وسبى من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم [١] . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾ أي عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني بني قريظة من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل ، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديمًا طمعًا في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ فعليهم لعنة الله .

وقوله تعالى : ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعني حصونهم . ومنه سمي صياصي البقر ، وهي قرونها ، لأنها أعلى شيء فيها ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ وهو : الخوف لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب النبي ﷺ ، وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوهم في الدنيا فانعكس عليهم الحال ، وانقلب إليهم القتال ، انشمر المشركون ، ففازوا بصفقة المغبون ، فكما راموا العز ذلوا وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء ، عن عطية القرظي قال : عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة فشكوا فيَّ فأمر النبي ﷺ أن ينظروا هل أنبت بعد فنظروني فلم يجدوني أنبت ، فخلى عني وألحقني بالسبي [٢] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾ أي : جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ قيل : خيبر ، وقيل مكة . وقيل : فارس والروم ، وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مرادًا ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : إن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت : فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال : « إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ » وقد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ » إلى تمام الآيتين فقلت له : ففي أي هذا أستأمر أبويّ ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة [٣] . وعن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها فذكره

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير (٣/٢٢٣ - ٢٤٣) وسيرة ابن هشام (٢٤٤ - ٢٥٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٨٣) ، (٥/٣١١) وأخرج أبو داود نحوه في سننه (٤٤٠٥) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٥) .

وزاد قالت : ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت [١] .

وعن جابر ﷺ قال : أقبل أبو بكر ﷺ يستأذن رسول الله ﷺ ، والناس ببابه جلوس والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر ﷺ ، فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر ﷺ فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكت فقال عمر ﷺ : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك فقال عمر ﷺ : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة آنفًا فوجأت عنقها . فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : « هُنَّ حَوْلِي يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ » فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ﷺ إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ، فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده قال : وأنزل الله ﷻ الخيار ، فبدأ بعائشة ﷺ فقال : « إِنِّي أَذْكُرُ لَكِ أَمْرًا مَا أُحِبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ » قالت : وما هو ؟ قال فتلا عليها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ الآية . قالت عائشة ﷺ : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّفًا وَلَكِن بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ عَمَّا اخْتَرْتِ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا » [٢] .

﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ أي : أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن ، وقد اختلف العلماء في جواز تزوج غيره لهن لو طلقهن على قولين ؛ أصحهما : نعم لو وقع ليحصل المقصود من السراح والله أعلم . قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نسوة خمس من قريش عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النضرية وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ .

يقول تعالى واعظًا نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء ، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة قال ابن عباس ﷺ : وهي النشوز وسوء الخلق ، وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ . فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظًا صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع . ولهذا قال تعالى : ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ عن زيد بن أسلم ﴿ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ قال : في الدنيا والآخرة ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أي : سهلًا هينًا ، ثم ذكر عدله وفضله في قوله : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي : يطع الله ورسوله ويستجب ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أي : في الجنة فإنهن في

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٦) .

(٢) أخرجه مسلم في (الطلاق) (٢٩) وأحمد في مسنده (٣٢٨/٣) .

منازل رسول اللَّه ﷺ في أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ۝٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ .

هذه آداب أمر تعالى بها نساء النبي ﷺ ونساء الأمة تبع لهن في ذلك فقال تعالى مخاطبًا لنساء النبي ﷺ ، بأنهن إذا اتقين اللَّه ﷻ كما أمرهن فإنه لا يشبههن أحد من النساء . ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة . ثم قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾ قال السدي وغيره : يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ ﴾ أي : دغل ﴿ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ قال ابن زيد : قولًا حسنًا جميلًا معروفًا في الخير ، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم أي : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها . وقوله تعالى : ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أي : الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه كما قال رسول اللَّه ﷺ : « لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّه مَسَاجِدَ اللَّه ، وَلِيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلَاتٌ » (١) . وفي رواية : « وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ » (٢) . وعن أنس ﷺ قال : جئن النساء إلى رسول اللَّه ﷺ فقلن : يا رسول اللَّه ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل اللَّه تعالى ، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل اللَّه تعالى ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ قَعَدَتْ - أو كلمة نحوها - مِنْكُنَّ فِي بَيْتِهَا فَإِنَّهَا تُدْرِكُ عَمَلَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّه تَعَالَى » (٣) .

وعن عبد اللَّه ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الْمَرْأَةَ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ بروحة رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا » (٤) وعن النبي ﷺ : « صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا وَصَلَاتُهَا فِي بَيْتِهَا ، أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا » (٥) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة : ﴿ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ يقول إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى اللَّه تعالى عن ذلك ، وقال مقاتل بن حيان : ﴿ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج ، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج . وعن ابن عباس ﵄ قال : تلا هذه الآية : ﴿ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ قال : كانت فيما بين نوح وإدريس

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٠) ومسلم في الصلاة (١٣٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٣) وأبو داود في سننه (١٥٥/١) .
(٣) أورده السيوطي في الدر (١٩٧/٥) .
(٤) أخرجه الترمذي في سننه (١١٧٣) وابن خزيمة في صحيحه (١٦٨٥) .
(٥) أخرجه أبو داود في سننه (١٥٦/١) والترمذي في سننه (١٦٩٠) .

وكانت ألف سنة . وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل ، وكان رجال الجبل صباحًا وفي النساء دمامة . وكان نساء السهل صباحًا وفي الرجال دمامة ، وإن إبليس لعنه الله أتى رجلًا من أهل السهل في صورة غلام فآجر نفسه منه فكان يخدمه . فاتخذ إبليس شيئًا من مثل الذي يزمر فيه الرعاء فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حوله فانتابوهم يسمعون إليه ، واتخذوا عيدًا يجتمعون إليه في السنة فيتبرج النساء للرجال . قال : ويتزين الرجال لهن وإن رجلًا من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك ، فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهن فنزلوا معهن ، وظهرت الفاحشة فيهن فهو قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ نهاهن أولًا عن الشر ، ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة ، وهي الإحسان إلى المخلوقين ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ها هنا ؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية . وسبب النزول داخل فيه قولًا واحدًا إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح . وروي عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة (٢) . فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر ، فإنه وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : « الصَّلَاةَ يَا أَهْلَ البَيْتِ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » (٣) .

وعن عطاء بن أبي رباح ، حدثني من سمع أم سلمة رضي الله عنها تذكر أن النبي ﷺ ، كان في بيتها فأتته فاطمة رضي الله عنها ببرمة فيها خزيرة فدخلت عليه بها . فقال ﷺ لها : «ادْعِي زَوْجَكِ وَابْنَيْكِ» قالت : فجاء علي وحسن وحسين رضي الله عنهم فدخلوا عليه ، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له ، وكان تحته ﷺ كساء خيبري قالت : وأنا في الحجرة أصلي فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . قالت رضي الله عنها : فأخذ ﷺ فضل الكساء فغطاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال : «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا» قالت : فأدخلت رأسي البيت فقلت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ ، إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ » (٤) .

وعن يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن سلمة إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه فلما

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢/٧) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢/١٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٥٩ ، ٢٨٥) والترمذي في سننه (٣٢٠٦) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/١٩٨) .

جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا رأيت رسول اللَّه ﷺ ، وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا . حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول اللَّه ﷺ قال : « يا ابن أخي واللَّه لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول اللَّه ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا ومالا فلا تكلفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول اللَّه ﷺ يومًا خطيبًا بماء يدعى خمًّا بين مكة والمدينة فحمد اللَّه تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّه تَعَالَى فِيهِ الهُدَى والنُّورُ ، فَخذُوا بِكِتَابِ اللَّه واسْتَمْسِكُوا بِهِ » . فحث على كتاب اللَّه ﷻ ورغب فيه ثم قال : « وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللَّه فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أُذَكِّرُكُمُ اللَّه فِي أَهْلِ بَيْتِي » ثلاثًا فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ﷺ قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال : نعم [1] .

وروي عن زيد بن أرقم بنحو ما تقدم وفيه فقلت له : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا وايم اللَّه إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده . هكذا وقع في هذه الرواية والأولى أولى والأخذ بها أحرى . وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه ، وإنما المراد بهم آله الذين حرموا الصدقة أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط ، بل هم مع آله ، وهذا الاحتمال أرجح جمعًا بينها وبين الرواية التي قبلها ، وجمعًا أيضًا بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت ، فإن في بعض أسانيدها نظرًا واللَّه أعلم . ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي : واعملن بما ينزل اللَّه تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة . قاله قتادة وغير واحد . واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة الصديقة بنت الصديق ﵄ أولاهن بهذه النعمة وأحظاهن بهذه الغنيمة وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول اللَّه ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها . كما نص على ذلك صلوات اللَّه وسلامه عليه . قال بعض العلماء ﵀ : لأنه لم يتزوج بكرًا سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ و ﵂ فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية ، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته فقرابته أحق بهذه التسمية . كما تقدم في الحديث : « وأَهْلُ بَيْتِي أَحَقُّ » وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول اللَّه ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال : « هُوَ مَسْجِدِي هَذَا » [2] . فهذا من هذا

---

(١) أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة) (٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٥١٤) وأحمد في مسنده (٨/٣) والترمذي في سننه (٣٠٩٩) .

القبيل . فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء كما ورد في الأحاديث الأخر . ولكن إذا كان ذاك أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : واذكروا نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة ، فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه [١] . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أي ذا لطف بكن إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة وهي السنة ، خبيرًا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجًا . وقال قتادة : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ قال : يمتن عليهن بذلك . وقال عطية العوفي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يعني : لطيفًا باستخراجها خبيرًا بموضعها .

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

قال عبد الرحمن بن شيبة : سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ : ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعري فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرتي حجرة بيتي ، فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : « يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّه تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ » إلى آخر الآية [٢] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النساء للنبي ﷺ : ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ الآية . وعن قتادة قال : دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن : قد ذكركن الله تعالى في القرآن ولم نذكر بشيء أما فينا ما يذكر ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ الآية [٣] . فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام وهو أخص منه لقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ وفي الصحيحين : « لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » [٤] فيسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين فدل على أنه أخص منه . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾ القنوت : هو الطاعة في سكون ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها ، وهو الإيمان ، ثم القنوت ناشئ عنهما . ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ هذا في الأقوال فإن الصدق خصلة محمودة ؛ ولهذا كان بعض الصحابة رضي الله عنهم لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام وهو علامة على الإيمان كما أن الكذب أمارة على النفاق ، ومن صدق نجا « عَلَيْكُم بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/١٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٠١) .
(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/١٤) .
(٤) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٥٧٨) والحدود (٦٧٨٢) ومسلم في الإيمان (١٠٠ ، ١٠٥) .

الجنَّةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ ، وَإِنَّ الفُجور يَهْدِي إِلَى النَّارِ . وَلَا يَزَالُ الرجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّه صِدِّيقًا ، وَلَا يَزَالُ الرجلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّه كَذَّابًا »[١] والأحاديث فيه كثيرة جدًّا . ﴿ وَالصَّٰبِرِينَ وَالصَّٰبِرَٰتِ ﴾ هذه سجية الأثبات وهي الصبر على المصائب والعلم بأن المقدر كائن لا محالة ، وتلقي ذلك بالصبر والثبات ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى . أي : أصعبه في أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها . ﴿ وَالْخَٰشِعِينَ وَالْخَٰشِعَٰتِ ﴾ الخشوع : السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع ، والحامل عليه الخوف من اللَّه تعالى ومراقبته . كما في الحديث : « اعْبُدِ اللَّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[٢] . ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ الصدقة ، هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب يعطون من فضول الأموال طاعة للَّه وإحسانًا إلى خلقه . وقد ثبت في الصحيحين : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّه فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ - فذكر منهم - ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ »[٣] . وفي الحديث الآخر : « والصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ »[٤] . والأحاديث في الحث عليها كثيرة جدًّا ﴿ وَالصَّٰٓئِمِينَ وَالصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾ وفي الحديث « والصَّومُ زَكَاةُ البَدنِ » أي : يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعًا وشرعًا . كما قال سعيد بن جبير: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى : ﴿ وَالصَّٰٓئِمِينَ وَالصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾ ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة كما قال رسول اللَّه ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكم البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ للبَصَرِ وَأَحْصَنُ للفَرْجِ ، وَمَنْ لَم يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ »[٥] ناسب أن يذكر بعده ﴿ وَالْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَٰفِظَٰتِ ﴾ أي : عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كما قال ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ ﴾ عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : إن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ كَانَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ »[٦] . وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أيضًا أنه قال : قلت : يا رسول اللَّه أي العباد أفضل درجة عند اللَّه تعالى يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « الذَّاكِرُونَ اللَّه كَثِيرًا والذَّاكِرَاتُ » قال : قلت : يا رسول اللَّه ومن الغازي في سبيل اللَّه تعالى ؟ قال : « لَوْ ضَرَبَ بِسَيفِهِ فِي الكُفَّارِ والمُشْرِكِينَ حَتَّى

---

(١) أخرجه مسلم في (البر والصلة) (١٠٥) وأحمد في مسنده (٣٨٤/١ ، ٤٣٢) والترمذي في سننه (١٩٧١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٠/٢) ، (٢١٨/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في (الأذان) (٦٦٠) ومسلم في الزكاة (٩١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢١/٣) ، (٢٣١/٥) .
(٥) أخرجه البخاري في (النكاح) (٥٠٦٥) ومسلم في النكاح (١ ، ٢) .
(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤١٦/٢) وأبو داود بنحوه (١٣٠٩) .

يَنْكَسِرَ ويَخْتَضِبَ دَمًا لكَانَ الذَّاكِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى أَفْضَلَ مِنْهُ » (١) .

وعن أبي هريرة ﷺقال : كان رسول اللَّه ﷺ يسير في طريق مكة فأتى على جمدان فقال : « هَذَا جَمْدَانُ سِيرُوا فَقَدْ سَبَقَ المُفْرِدُونَ » قالوا : وما المفردون ؟ قال ﷺ : « الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتُ » . ثم قال ﷺ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ للمُحَلِّقِينَ » قالوا : والمقصرين ؟ قال ﷺ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ للمُحَلِّقِينَ » قالوا : والمقصرين قال : « والمُقَصِّرِينَ » (٢) . وعن معاذ بن جبل ﷺأنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا قط أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ » (٣) . وعن سهل ابن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ﷺعن رسول اللَّه ﷺ قال : إن رجلًا سأله فقال : أي المجاهدين أعظم أجرًا يا رسول اللَّه ؟ قال ﷺ : « أَكْثَرُهُمْ للَّه تَعَالَى ذِكْرًا » قال : فأي الصائمين أكثر أجرًا ؟ قال ﷺ: « أَكْثَرُهُمْ للَّه ﷻ ذِكْرًا » ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة . كل ذلك يقول رسول اللَّه ﷺ : « أَكْثَرُهُمْ للَّه ذِكْرًا » فقال أبو بكر لعمر ﭫ : ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَجَل » (٤) . وقوله تعالى : ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أي : أن اللَّه تعالى قد أعد لهم ؛ أي هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجرًا عظيمًا وهو الجنة .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ .

قال ابن عباس ﭫ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية : وذلك أن رسول اللَّه ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ﷺ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ﭫ فخطبها فقالت : لست بناكحته . فقال رسول اللَّه ﷺ : « بَلْ فانْكَحِيهِ » قالت : يا رسول اللَّه أؤامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل اللَّه هذه الآية على رسول اللَّه ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ﴾ الآية . قالت : قد رضيته لي يا رسول اللَّه منكحًا ؟ قال رسول اللَّه ﷺ : « نَعَمْ » قالت : إذًا لا أعصي رسول اللَّه ﷺ قد أنكحته نفسي (٥) . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ﭫ وكانت أول من هاجر من النساء - يعني بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال : قد قبلت فزوجها زيد بن حارثة ﷺ يعني - واللَّه أعلم - بعد فراقه زينب فسخطت هي وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول اللَّه ﷺ فزوجنا عبده قال : فنزل القرآن ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية . قال : وجاء أمر أجمع من هذا ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ قال : فذاك خاص وهذا أجمع .

وقال أبو برزة الأسلمي : إن جليبيبًا كان امرأً يدخل على النساء يمرنهن ويلاعبهن ، فقلت

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) .

(٢) أخرجه مسلم بنحوه في (الذكر والدعاء) (٤) وأحمد في مسنده (٤١١/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧٤/١٠) .

(٥) أورده ابن الجوزي في زاد المسير (٣٨٥/٦) .

لامرأتي : لا تدخلن عليكن جليبيبًا فإنه إن دخل عليكن لأفعلن ولأفعلن . قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا ، فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار : « زَوِّجْنِي ابنتَكَ » قال : نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين ، فقال ﷺ : « إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي » قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لجليبيب » فقال : يا رسول الله أشاور أمها ، فأتى أمها ، فقال : رسول الله ﷺ يخطب ابنتك ، فقالت : نعم ونعمة عين . فقال : إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجليبيب فقالت : أجليبيب ابنه ، أجليبيب ابنه ؟ لا لعمر الله لا نزوجه ، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها . قالت الجارية : من خطبني إليكم ؟ فأخبرتها أمها ، قالت : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ ادفعوني إليه فإنه لن يضيعني . فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : شأنك بها فزوجها جليبيبًا قال : فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له ، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه ﷺ : « هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ » قالوا : نفقد فلانًا ونفقد فلانًا ، قال ﷺ : « انْظُرُوا هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ » قالوا : لا ، قال ﷺ : « لَكِنَّنِي أَفْقِدُ جُلَيبِيبًا » قال ﷺ : فاطْلُبُوهُ فِي القَتْلَى » فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ، ثم قتلوه . فقالوا : يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه فقال : « قَتَلَ سَبْعَةً وَقَتَلُوهُ ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ » مرتين أو ثلاثًا ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له ، ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ ثم وضعه في قبره ولم يذكر أنه غسله ﷺ . قال ثابت ﷺ : فما كان في الأنصار أيم أنفق منها . وحدث إسحاق بن عبد الله ابن أبي طلحة ثابتًا ، هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ ؟ فقال : « اللَّهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا الخيرَ صبًّا ، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا » . وكذا كان فما كان في الأنصار أيم أنفق منها [١] .

وقال طاووس : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه . وقرأ ابن عباس ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ها هنا ولا رأي ولا قول كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ وفي الحديث : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ » ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة ﷺ ، وهو الذي أنعم الله عليه ، أي بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ : ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أي : بالعتق من الرق وكان سيدًا كبير الشأن جليل القدر حبيبًا إلى النبي ﷺ يقال له : الحب ، ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب . قالت عائشة ﵂ :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٢/٤) .

ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمّره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه [(١)] . وقال عمر بن أبي سلمة عن أبيه قال : حدثني أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : كنت في المسجد فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقالا : يا أسامة استأذن لنا على رسول الله ﷺ ، قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت : علي والعباس يستأذنان ، فقال ﷺ : « أَتَدْرِي مَا حَاجَتُهُمَا ؟ » قلت : لا يا رسول الله . قال ﷺ : « لَكِنِّي أَدْرِي » ، قال : فأذن لهما ، قالا : يا رسول الله جئناك لتخبرنا أي أهلك أحب إليك ؟ قال ﷺ : « أَحَبُّ أَهْلِي إِلَيَّ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمدٍ » . قالا : يا رسول الله ما نسألك عن فاطمة ، قال ﷺ : « فَأُسَامَةُ بنُ زَيدِ بن حَارِثَةَ الذِي أَنْعَمَ الله عَلَيهِ وَأَنْعَمْتُ عَلَيْهِ » . وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها وأمها أميمة بنت عبد المطلب ، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهمًا وخمارًا وملحفة ودرعًا وخمسين مدًّا من طعام وعشرة أمداد من تمر . قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريبًا من سنة أو فوقها ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ الله » . قال الله تعالى : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضي الله عنهما [(٢)] . وروي عن السدي قال فيها : قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه .

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [(٣)] . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ الوطر : هو الحاجة والأرب أي : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله ﷻ . بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر . فعن أنس رضي الله عنه قال : لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « اذْهَبْ فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ » فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، وأقول : إن رسول ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت : يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي ﷻ ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ وأطعمنا عليها الخبز واللحم فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل ﷺ يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن : يا رسول الله كيف وجدت أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ الآية كلها [(٤)] . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجني

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/٦) . (٢) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٨٧) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٨/٢٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٥/٣) والسيوطي في الدر المنثور (٢٠١/٥) .

الله تعالى من فوق سبع سموات [١] ، وعن عبد الله بن جحش قال : فتفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما فقالت زينب رضي الله عنها : أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة رضي الله عنها : أنا التي نزل عذري من السماء فاعترفت لها زينب رضي الله عنها . وقال الشعبي : كانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ : إني لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدي وجدك واحد ، وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء ، وإن السفير جبريل عليه الصلاة والسلام [٢] . وقوله تعالى : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أي : إنما أبحنا لك تزويجها ، فعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء . وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبني زيد بن حارثة رضي الله عنه فكان يقال له : زيد بن محمد ، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۞ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ثم زاد بيانًا وتأكيدًا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولهذا قال تعالى في آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ ليحترز من الابن الدعي ، فإن ذلك كان كثيرًا فيهم . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أي : كان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أي : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج . وهذا رد عن من توهم من المنافقين نقصًا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي قد تبناه ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أي : وكان أمره الذي يقدره كائنًا لا محالة وواقعًا لا محيد عنه . ولا معدل ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ۞ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

يمدح تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ أي : يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أي : وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ، وسيد الناس في المقام ، بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة ، وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ، إلى جميع أنواع بني آدم . وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جمع الخلق عربهم وعجمهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم بلغوا عنه كما أمرهم به ، ففي جميع أقواله وأفعاله وأحواله في ليله ونهاره وحضره وسفره وسره

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٠) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٩/٢٢) .

وعلانيته ، فرضي الله عنهم وأرضاهم . ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدي المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال ﷺ : « لَا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أمرًا لله فِيهِ مقَالٌ ، ثُمَّ لَا يَقُولُهُ فَيَقُولُ اللَّه : مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَقُول مِنْهُ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ ، فَيَقُولُ : فَأَنا أَحَقُّ أَنْ يُخْشَى »[١] . وقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ نهى أن يقال بعد هذا : زيد بن محمد ، أي : لم يكن أباه – وإن كان قد تبناه – فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ، فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة ﷺ فماتوا صغارًا ، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية فمات أيضًا رضيعًا ، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ﷺ أجمعين فمات في حياته ﷺ ثلاث ، وتأخرت فاطمة ﷺ حتى أصيبت به ﷺ ، ثم ماتت بعده لستة أشهر . وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فهذه الآية نص في أنه لا نبيَّ بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولاينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة ﷺ ، قال أبي ابن كعب عن أبيه ﷺ عن النبي ﷺ قال : « مَثَلِي فِي النَّبِيِّينَ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ لَمْ يَضَعْهَا ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِالبُنْيَانِ ويعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ : لَوْ تَمَّ مَوْضِعُ هَذِهِ اللَبِنَةِ ؟ فَأَنَا فِي النَّبِيينَ مَوْضِعُ تلكَ اللَّبِنَةِ »[٢] .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ الرِّسَالَةَ والنُّبُوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ » . قال : فشق ذلك على الناس . فقال : « وَلَكِن المُبَشِّرَاتِ » قالوا : يا رسول اللَّه وما المبشرات ؟ قال : « رُؤْيَا الرجُلِ المسلمِ وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ »[٣] .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ ، ونُصِرْتُ بِالرعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطهُورًا ، وَأُرْسِلتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ »[٤] .

وعن جبير بن مطعم ﷺ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ لِي أَسْمَاءَ : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَد ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّه تَعَالَى بِي الكُفْرَ ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَاسُ عَلَى قَدَمِي ، وَأَنَا العَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِي »[٥] . وقال عبد اللَّه بن عمرو : خرج علينا رسول اللَّه ﷺ يومًا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/٣) وابن ماجه في سننه (٤٠٠٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٨/٥) والترمذي في سننه (٣٦١٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٣) والترمذي في سننه (٢٢٧٢) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في الكبرى (٢١٣/١) .

(٥) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (١٢٤) .

كالمودّع فقال : « أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيّ الأُمِّي - ثلاثًا - وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي ، أوتِيتُ فَوَاتِحَ الكَلِمِ وَجَوَامِعَهُ وَخَوَاتِمَهُ ، وعلمت كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ العَرْشِ ، وَتُجُوِّزَ بِي ، وَعُوفِيتُ وَعُوفِيَتْ أُمَّتِي ، فَاسْمَعُوا وأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللّه تَعَالَى أَحِلُّوا حَلَالَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ » (١) .

والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة اللّه تعالى بالعباد ، إرسال محمد ﷺ إليهم ، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر اللّه تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه : لا نبي بعده ؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات فكلها محال وضلال عند أولي الألباب . كما أجرى اللّه ﷻ على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما اللّه . وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق اللّه معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف اللّه تعالى بخلقه . فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن المنكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره . ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الآية . وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ، ويأمرون به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات . فصلوات اللّه وسلامه عليهم دائمًا مستمرًا ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن لما لهم في ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب . فعن أبي الدرداء ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعِهَا في دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ ، وَخَيْرٍ لكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوا عَدُوَّكُم فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ ويَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ »؟ قالوا : وما هو يا رسول اللّه ؟ قال ﷺ : « ذِكْرُ اللّه ﷻ » (٢) .

وعن عبد اللّه بن بشر قال : جاء أعرابيان إلى رسول اللّه ﷺ فقال أحدهما : يا رسول اللّه أي الناس خير؟ قال ﷺ : « مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ » . وقال الآخر : يا رسول اللّه إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا فمرني بأمر أتشبث به قال ﷺ : « لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللّه تعالى » (٣) . وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : إن رسول اللّه ﷺ قال : « أَكْثِرُوا ذِكْرَ اللّه تَعَالَى حَتَّى يَقُولُوا مَجْنُونٌ » (٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٥/٥) والترمذي في سننه (٣٣٧٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠/٤) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٣ ، ٧١) .

ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك ، كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النووي رحمه الله . وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي : عند الصباح والمساء كقوله ﷻ : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ هذا تهييج إلى الذكر أي : سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم . كقوله تعالى ﷻ : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ وقال النبي ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذكرته في نفسي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُ » (١) . والصلاة من اللَّه تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة ، قيل : الصلاة من اللَّه ﷻ الرحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين واللَّه أعلم . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار كقوله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي : بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أي : في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا ، فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة ، وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم .

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيًا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَتُرَوْنَ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ؟ » قالوا : لا ، قال رسول اللَّه ﷺ : فَوَاللَّهِ للَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ الظاهر أن المراد واللَّه أعلم تحيتهم أي : من اللَّه تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم كما قال ﷻ : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضًا بالسلام يوم يلقون اللَّه في الدار الآخرة ، واختاره ابن جرير . قلت : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يعني : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٠٥) وأحمد في مسنده (٢/٢٥١) .
(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٢) .

عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحرزًا للأميين أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله فيفتح بها أعينًا عميًا ، وآذانًا صمًّا ، وقلوبًا غلفًا (١) .

وعن ابن عباس ﵄ قال : لما نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وقد كان أمر عليًّا ومعاذًا ﵄ أن يسيرا إلى اليمن فقال : « انْطَلِقَا فَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا ، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا ، إِنَّهُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ » (٢) . وفي رواية قال في آخره : « فَإِنَّهُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِكَ وَمُبَشِّرًا بِالجَنَّةِ ونَذِيرًا مِنَ النَّارِ وَدَاعِيًا إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِله إِلَّا اللَّه بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا بالقُرْآنِ » (٣) . فقوله تعالى : ﴿ شَاهِدًا ﴾ أي لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا كقوله : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، وقوله ﷻ : ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : بشيرًا للمؤمنين بجزيل الثواب ونذيرًا للكافرين من وبيل العقاب . وقوله جلت عظمته : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أي : داعيًا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ أي : وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند . وقوله جل وعلا : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ أي : لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ أي : اصفح وتجاوز عنهم وكل أمرهم إلى الله تعالى ، فإن فيه كفاية لهم ، ولهذا قال جل جلاله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ .

هذه الآية فيها أحكام كثيرة ، منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اختلفوا في النكاح هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطء أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال : واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها . وقوله تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ خرج مخرج الغالب ؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس ﵄ وسعيد بن المسيب وغيرهما بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ فعقب النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله ، وهذا مذهب

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٤/٢) . (٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٠١/١٤) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١٢/١١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٢/٧) .

الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى ، وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق ، فعندهما متى تزوجها طلقت منه ، واختلفا فيما إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة رحمه الله : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه . فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق قال : ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ الآية . وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا طَلَاقَ لابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ »[1] وعن علي والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَا طَلَاقَ قَبْلَ النِّكَاحِ »[2] . وقوله عز وجل : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت . ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا . وقوله تعالى : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ المتعة ها هنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة ، إن لم يكن قد سمى لها . قال الله تعالى : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . وعن سهل بن سعد قال : إن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين[3] . قال علي بن أبي طلحة رضي الله عنهما : إن كان سمى لها صداقًا ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقًا أمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهي : الأجور ها هنا . كما قاله مجاهد وغير واحد . وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشز وهو نصف أوقية فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيي ، فإنه اصطفاها من سبي خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها – رضي الله عنهن أجمعين – وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٩/٢) وابن ماجه في سننه (٢٠٤٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٨ ، ٢٠٤٩) .

(٣) أخرجه البخاري في (الطلاق) (٥٢٥٦) أحمد في مسنده (٤٩٨/٣) .

وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام وكانتا من السراري ﷺ. وقوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾ الآية . هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدًا ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع . وإنما قال : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾ . فوحد لفظ الذكر لشرفه وجمع الإناث لنقصهن كقوله : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ عن أم هانىء قالت : خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني ، ثم أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ قالت : فلم أكن أحل له ولم أكن ممن هاجر معه كنت من الطلقاء (١) . وهكذا قال أبو رزين وقتادة : إن المراد من هاجر معه إلى المدينة . وفي رواية عن قتادة : ﴿ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ أي : أسلمن ، وقال الضحاك : قرأ ابن مسعود (واللائي هاجرن معك) .

﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ ﴾ الآية . أي : ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان كقوله تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ ﴾ الآية . عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك فقامت قيامًا طويلًا ، فقام رجل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ، فقال رسول الله ﷺ : « هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيءٍ تُصْدِقُهَا إِيَّاهُ ؟ » فقال : ما عندي إلا إزاري هذا ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَعْطَيْتَهَا إِزَارَكَ جَلَسْتَ لَا إِزَارَ لَكَ فَالْتَمِسْ شَيْئًا » فقال : لا أجد شيئًا ، فقال : « الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ » فالتمس فلم يجد شيئًا ، فقال له النبي ﷺ : « هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ ؟ » قال نعم سورة كذا وسورة كذا - السور يسميها - فقال له النبي ﷺ : « زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ » (٢) .

وقال أنس : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله هل لك فيَّ حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياءها ، فقال : « هِيَ خَيْرٌ مِنْكِ رَغِبَتْ فِي النبي فَعَرَضَتْ عليه نَفْسَهَا » (٣) . وعن أنس بن مالك أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ابنة لي كذا وكذا فذكرت من حسنها وجمالها فآثرتك بها فقال : « قَدْ قَبِلْتُهَا » فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشك شيئًا قط

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٢٠/٢) ، (٥٣/٤) والطبري في تفسيره (٢٧/٢٢) .

(٢) أخرجه البخاري في (فضائل القرآن) (٥١٢٦) ومسلم في النكاح (٧٦) .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٢٠) وأحمد في مسنده (٢٦٨/٣) .

فقال : « لَا حَاجَةَ لِي فِي ابْنَتِكِ » [(١)] . وعن عائشة قالت : التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم . وقال هشام بن عروة عن أبيه : إن خولة بنت حكيم بن الأوقص من بني سليم كانت من اللاتي وهبت أنفسهن لرسول الله ﷺ . وفي رواية عن هشام عن أبيه كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت لرسول الله ﷺ وكانت امرأة صالحة . فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم أو هي امرأة أخرى . وقال محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد الله بن عبيدة : تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ؛ ستًّا من قريش : خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة ، وثلاثًا من بني عامر بن صعصعة ، وامرأتين من بني هلال بن عامر : ميمونة بنت الحارث وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وزينب أم المساكين ، وامرأة من بني بكر بن كلاب من القرظيات وهي التي اختارت الدنيا ، وامرأة من بني الجون وهي التي استعاذت منه ، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتين صفية بنت حيي بن أخطب وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية ، وقال ابن عباس ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ قال : هي ميمونة بنت الحارث فيه انقطاع هذا مرسل والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي : زينب بنت خزيمة الأنصاري ، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته فالله أعلم . والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير ، كما ورد عن عائشة قالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك [(٢)] . وقد قال سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له [(٣)] أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن ذلك مباحًا له ومخصوصًا ؛ لأنه مردود إلى مشيئته كما قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ أي : إن اختار ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال عكرمة : أي لا تحل الموهوبة لغيرك ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئًا . وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل ، فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها . كما حكم به رسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت ، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها . والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ ، وأما هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء لو دخل بها ؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها . ولهذا قال قتادة في قوله : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ قال أبي بن كعب أي : من حصرهم في أربع نسوة حرائر وما شاءوا من الإماء واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم وهم الأمة . وقد رخصنا لك في ذلك نوجب عليك شيئًا منه ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٥٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٨) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/٢٩) (٢١٧٨٩) .

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ .

قال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت تغير من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ قالت : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأنزل الله ﷻ : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ الآية . قالت : إني أرى ربك يسارع لك في هواك [(١)] . فدل هذا على أن المراد بقوله : ﴿ تُرْجِي ﴾ أي : تؤخر ﴿ مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أي : من الواهبات ﴿ وَتُئْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ أي : من شئت قبلتها ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضًا بالخيار بعد ذلك إن شئت عدت فيها فآويتها ولهذا قال : ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قال عامر الشعبي في قوله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ الآية . كن نساءًا وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ، فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم ينكحن بعده ، منهن أم شريك . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ الآية . أي من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجامع من شئت ، وتترك من شئت . هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن ، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجبًا عليه ﷺ واحتجوا بهذه الآية الكريمة . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ : كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلي ، فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدًا [(٢)] . فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجود القسم . وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات . ومن ها هنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي وفيه جمع بين الأحاديث : ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أي : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت ، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختيارًا منك ، لا أنه على سبيل الوجوب فرحن بذلك ، واستبشرن به ، وحملن جميلك في ذلك ، واعترفن بمنتك عليهن في قسمتك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه . كما في الحديث عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيما أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلا أملك » [(٣)] . ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أي بضمائر السرائر ﴿ حَلِيمًا ﴾ أي يحلم ويغفر .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٨/٣) . (٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٨٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٤/٦) والترمذي في سننه (١١٤٠) وابن ماجه في سننه (١٩٧١) .

ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ .

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضًا عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ . كما تقدم في الآية ، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجًا غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإماء والسراري فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن . فعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء [1] . وعن أم سلمة إنها قالت : لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم . وذلك قول الله تعالى : ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ الآية . فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة ، الأولى ناسخة للتي بعدها والله أعلم ، وقال آخرون : بل معنى الآية : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي : من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي أتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك ، وهذا ما روي عن أبي بن كعب ومجاهد في رواية عنه وعكرمة والضحاك في رواية . وعن زياد عن رجل من الأنصار قال : قلت لأبي بن كعب : أرأيت لو أن أزواج النبي ﷺ توفين أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قلت : قول الله تعالى : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ فقال : إنما أحل الله له ضربًا من النساء . فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ – إلى قوله – إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ ﴾ . ثم قيل له : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ وعن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله تعالى : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ فأحل الله فتياتكم المؤمنات ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي . وحرم كل ذات دين غير الإسلام ، ثم قال : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ – إلى قوله – خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء . وقال مجاهد : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي : من بعد ما سمى لك لا مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة . وقال أبو صالح : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أمر أن لا يتزوج أعرابية ولا عربية ويتزوج بعد من نساء تهامة وما شاء من بنات العم والعمة والخال والخالة إن شاء ثلاثمائة . وقال عكرمة : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي : التي سمى الله ، واختار ابن جرير أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعًا ، وهذا الذي قاله جيد . ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف ، فإن كثيرًا منهم روي عنه هذا وهذا ، ولا منافاة والله أعلم . ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها ، وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة ، ثم

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٢١٦) والبيهقي في سننه (٧/٥٤) .

أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله تعالى : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ الآية . وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح . ولكن لا يحتاج إلى ذلك ، فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته ، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال فالله أعلم . فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وهي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ الآية [(١)] . وأما قضية حفصة فروي عن ابن عباس وعن عمر : أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ، ثم راجعها [(٢)] . وعن ابن عمر قال : دخل عمر على حفصة وهي تبكي فقال : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ، وإنه كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي ، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدًا [(٣)] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ فنهاه عن الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب ﷺ كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ فنزلت كذلك [(٤)] . عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه [(٥)] . وكان ذلك في ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما ، وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث فالله أعلم . وعن أنس ابن مالك ﷺ قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم ، فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ، قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠١) .
(٢) أخرجه أبو داود في سنن (٢٢٨٣) .
(٣) ذكره أبو يعلى الموصلي في مسنده (١٧٢/١) .
(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠٢) .
(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩٠) .

إنهم قاموا فانطلقوا فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل . فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ ﴾ الآية [1] . وعن أنس بن مالك قال : بنى النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيًا فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون . ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعوه فقلت : يا رسول الله ما أجد أحدًا أدعوه قال : « ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ » وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » قالت : وعليك السلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك يا رسول الله بارك الله لك ؟ فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة . ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون وكان النبي ﷺ شديد الحياء فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخله والأخرى خارجه أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت آية الحجاب [2] .

وعن عروة عن عائشة قالت : إن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع - وهو صعيد أفيح - وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ : احجب نساءك ، فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ وكانت امرأة طويلة فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة حرصًا على أن ينزل الحجاب ، قالت : فأنزل الله الحجاب [3] . وهكذا وقع في الرواية ، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت سودة بعد ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين . قالت : فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق . فدخلت فقالت : يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت : فأوحى الله إليه ، ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال : « إِنَّهُ قَدْ أَذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنْ » [4] . فقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن . كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك . وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ والدخولُ عَلَى النِّسَاءِ » الحديث [5] . ثم استثنى من ذلك فقال تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي غير متحينين نضجه واستواءه أي : لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩١) ومسلم في النكاح (٨٧ ، ٩٢) .
(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٩٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤٦) ومسلم في السلام (١٨) وصعيد أفيح أي مكان متسع .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩٥) ومسلم في السلام (١٧) واللفظ للبخاري .
(٥) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٢) أحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه وهذا دليل على تحريم التطفيل . وهو الذي تسميه العرب الضيفن .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ ﴾ . عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْ ، عُرْسًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ »[1] وفي الصحيح أيضًا عن رسول الله ﷺ : « لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ لأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ ، فَإِذَا فَرَغْتُمْ مِنَ الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيهِ فَخَفِّفُوا عَنْ أَهْلِ المَنْزِلِ وانْتَشِرُوا في الأَرْضِ »[2] . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ أي : كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به . ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه عليه السلام حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ أي : وكما نهيتكم عن الدخول عليهن ، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب .

﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ عن ابن عباس قال : نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده ، قال رجل لسفيان : أهي عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك ، وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبد الله رضي الله عنه حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده ؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله : ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فما نعلم في حلها لغيره ، والحالة هذه ، نزاعًا ، والله أعلم .

وعن عامر أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قيلة بنت الأشعث - يعني ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة فقال له عمر : يا خليفة رسول الله ، إنها ليست من نسائه إنها لم يخيرها رسول الله ﷺ ولم يحجبها وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها ، قال : فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه وسكن[3] . وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٠٠) وأحمد في مسنده (٣/١٤٦) وأبو داود في سننه (٣٧٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري في (الهبة وفضلها) (٢٥٦٨) وأحمد في مسنده (٢/٤٧٩) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/٥٠) (٢١٨٤١) .

فيه ، وتوعد عليه بقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي : مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم ، فإن الله يعلمه فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب بيّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ . وفيها زيادات على هذه وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ها هنا . وقد سأل بعض السلف فقال : لم لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما [١] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَآئِهِنَّ ﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ يعني به أرقاءهن من الذكور والإناث . كما تقدم التنبيه عليه ، وإيراد الحديث فيه ، قال سعيد بن المسيب : إنما يعني به الإماء فقط . وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ أي : واخشينه في الخلوة والعلانية فإنه شهيد على كل شيء لا تخفى عليه خافية فراقبن الرقيب .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ .

قال أبو العالية : صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء ، وقال ابن عباس : يصلون يبركون [٢] ؛ وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار . وعن عطاء بن أبي رباح ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ قال : صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي . والمقصود من هذه الآية أن الله ﷺ ، أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلي عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا ، وعن ابن عباس : أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام : هل يصلي ربك ؟ فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوك هل يصلي ربك فقل : نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي ، فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ وقد أخبر ﷺ بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ الآية . وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَيَامِنِ الصُّفُوفِ » [٣] .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٢/٢٢) (٢١٨٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ، تفسير سورة الأحزاب ، قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ ﴾ الآية .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٦٧٦) وابن ماجه في سننه (١٠٠٥) .

وفي الحديث الآخر : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى »[١] . وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسر والله المستعان . فعن كعب بن عجرة قال : قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة ؟ قال : « قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ »[٢] .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قلنا : يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلي عليك ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ » قال أبو صالح عن الليث : على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم[٣] .

وعن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرو بن سليم أنه قال : أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ قال : « قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ »[٤] .

وعن أبي مسعود الأنصاري قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلى عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي العَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ »[٥] .

وعن محمد بن إبراهيم التيمي ومحمد بن عبد الله أبي مسعود البدري أنهم قالوا : يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا ؟ فقال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ »[٦] . ومن ها هنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير فإن تركه لم تصح صلاته . وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يشنع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة ، ويزعم أنه تفرد بذلك . وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم فيما نقله القاضي عياض عنهم ، وقد تعسف هذا القائل في رده على الشافعي وتكلف في دعواه الإجماع في ذلك ، وقال ما لم يحط به علمًا .

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٢) ومسلم في (الزكاة) (١٧٦) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٠) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩٨) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٤/٥) وأبو داود في سننه (٩٧٩ ، ٩٨٠) .
(٥) أخرجه مسلم في الصلاة (٦٥) وأحمد في مسنده (٢٧٤/٥) والترمذي في سننه (٤٨٣) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤) .

فإنا قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة ، كما هو ظاهر الآية ، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو مسعود البدري وجابر ابن عبد الله ، ومن التابعين : الشعبي وأبو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان وإليه ذهب الشافعي لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضًا ، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيرًا فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي به ، وبه قال إسحاق بن راهويه والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي رحمهم الله . حتى أن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ ، كما علمهم أن يقولوا لما سألوه وحتى أن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على آله فيما حكاه البندنيجي وسليم الرازي وصاحبه نصر ابن إبراهيم المقدسي ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولًا عن الشافعي . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه وحكوا الإجماع على خلافه وللقول بوجوبه ظواهر الحديث والله أعلم . والغرض أن الشافعي رحمه الله يقول بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة سلفًا وخلفًا ، كما تقدم ولله الحمد والمنة ، فلا إجماع على خلافه في المسألة لا قديمًا ولا حديثًا والله أعلم . ومما يؤيد ذلك الحديث الآخر الذي رواه فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : سمع رسول الله ﷺ رجلًا يدعو في صلاته لم يمجد الله ولم يصل على النبي ، فقال رسول الله ﷺ : « عجل هذا » ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ اللَّهِ عز وجل وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النبي ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ » (١) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه قال : فقالوا له : علِّمنا ، قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابعثه مقامًا محمودًا يغبطه به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد (٢) .

وقال أبو إسرائيل عن يونس بن خباب : خطبنا بفارس فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ فقال : أنبأني من سمع ابن عباس يقول : هكذا أنزل ، فقلنا أو قالوا : يا رسول الله علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبراهيمَ وعلى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ كَمَا رَحِمْتَ آلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ كما هو قول الجمهور ويعضده حديث الأعرابي الذي قال : اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا » (٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨/٦) والترمذي في سننه (٣٤٧٧) وأبو داود في سننه (١٤٨١) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٩٠٦) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٥٤/٢٢) .

وعن عامر بن ربيعة : سمعت النبي ﷺ يقول : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا صَلَّى عليَّ فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ » [١] .

وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً » [٢] .

عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ اذْكُرُوا اللَّهَ ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه » . قال أبي : قلت : يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « مَا شِئْتَ » قلت : الربع ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قلت : فالنصف ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قلت : فالثلثين ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » . قلت : أجعل لك صلاتي كلها قال : « إِذَنْ تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ » [٣] .

وعن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه : أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يُرى في وجهه فقالوا : يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك ؟ فقال : « إِنَّهُ أَتَانِي الْمَلَكُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَمَا يُرْضِيكَ أَنَّ رَبَّكَ ﷻ يَقُولُ : إِنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ أحدٌ من أمتك إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا ، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا ؟ قُلْتُ : بَلَى » [٤] .

وعن أبي طلحة الأنصاري قال : أصبح رسول الله ﷺ يومًا طيب النفس يُرى في وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر. قال : « أَجَلْ آتاني آتٍ مِنْ رَبِّي ﷻ فَقَالَ : مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا » [٥] .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهَا زَكَاةٌ لَكُمْ وَسَلُوا اللَّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ وَلَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ » [٦] .

وعن على بن الحسين عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصلِّ علي » [٧] وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكرت عندهُ فلمْ يصلِّ عليَّ ، ورغمَ أنفُ رجلٍ دخلَ عليه شهرُ رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغمَ أنفُ رجلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الجَنَّةَ » [٨] . وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٥/٣) وابن ماجه في سننه (٩٠٧/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤٨٤) .

(٣) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٠/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٤) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٢/١) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١/١) .

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٤/٢) ، والحاكم في المستدرك (٥٤٩/١) .

كما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَسِيَ الصَّلاةَ عَلَيَّ أَخْطَأَ طَرِيقَ الجَنَّةِ » (١) . وذهب آخرون إلى وجوب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة ويتأيد ذلك بحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّه فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِم تِرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ » (٢) . وحكي عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - في العمر مرة واحدة امتثالاً لأمر الآية . ثم هي مستحبة في كل حال ، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة . قال : وقد حكى الطبري أن محمل الآية على الندب وادعى فيه الإجماع ، قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب فيه مرة كالشهادة له بالنبوة وما زاد على ذلك فمندوب ومرغب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله .

قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه. فمنه بعد النداء للصلاة : لحديث : « إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَى عَلَيَّ صَلَى اللَّه عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا اللَّه لِي الوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّه ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ » (٣) .

وفي الحديث : « مَنْ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَقَالَ « : اللَّهُمَّ أَنْزِلْهُ المَقْعَدَ المُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي » (٤) .

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه ؛ للحديث الذي روي عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ » وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ » (٥) . وقال علي بن أبي طالب ﷺ : إذا مررتم بالمساجد فصلوا على النبي ﷺ .

وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة . فقد قدمنا الكلام عليها في التشهد الأخير ، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء : منهم الشافعي رحمه الله وأكرمه ، وأحمد ، وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولاً واحدًا وهل تستحب ؟ على قولين للشافعي ، ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفي الثانية : أن يصلي على النبي ﷺ ، وفي الثالثة : يدعو

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٩٠٨) والبيهقي في سننه (٩/٢٨٦) .
(٢) أخرجه الترمذي في سنه (٣٣٨٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥) وأحمد في مسنده (٢/١٦٨) وأبو داود في سننه (٥٢٣) والترمذي في سننه (٣٦١٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٠٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٦٣) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٨٢) وابن ماجه في سنه (٧٧١) .

للميت ، وفي الرابعة : يقول اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده . قال الشافعي رحمه الله : حدثنا مطرف ابن مازن عن معمر عن الزهري أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرًا في نفسه ، ثم يصلي على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنازة ، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها ثم يسلم سرًا في نفسه . وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عمر والشعبي ، ومن ذلك في صلاة العيد عن علقمة أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يومًا قبل العيد فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تركع ، فقال حذيفة وأبو موسى صدق : أبو عبد الرحمن . ومن ذلك أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ ، وعن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك [١] . وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ » [٢] ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة .

وعن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ قُبِضَ ، وَفِيهِ النفخة وفيه الصَّعْقَةُ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فيه ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ » قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ؟ - يعني وقد بليت - قال : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ » [٣] .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلي على النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها عبادة ، وذكر الله شرط فيها فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعي وأحمد رحمهما الله . ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إلا رد الله عليّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عليه السلام » [٤] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَلَا تجعلوا قَبْرِي عِيدًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ إِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُما كُنْتُمْ » [٥] . وعن

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤٨٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/١) والحاكم في المستدرك (١٧٢/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٤) وابن ماجه في سننه (١٠٨٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢٠٤١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٢) وأبو داود في سننه (٢٠٤٢) .

الحسن بن الحسين بن علي قال : رأى قومًا عند قومًا عند القبر فنهاهم وقال : إن النبي ﷺ قال : « لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي » (١) . فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجةُ فنهاهم . وقد روي أنه رأى رجلًا ينتاب القبر فقال : يا هذا ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء . أي : الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين .

وعن عبد الله بن مسعود أن رسول ﷺ قال : « إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ » (٢) . وقد قيل : إنه ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ ؛ لما روي عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال : كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال ، وعن وهب بن الأجدع قال : سمعت عمر الخطاب ﷺ يقول : إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعًا وصلوا عند المقام ركعتين ، ثم ائتوا الصفا ، فقوموا عليه من حيث ترون البيت فكبروا سبع مرات تكبيرًا بين حمد الله وثناء عليه وصلاة على النبي ﷺ ومسألة لنفسك ، وعلى المروة مثل ذلك .

قالوا : ويستحب الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح ، واستأنسوا بقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى : لا أُذكر إلا ذكرت معي . وخالفهم في ذلك الجمهور ، وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى . كما عند الأكل والدخول والوقاع وغير ذلك . مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي ﷺ .

مسألة : وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه ، وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه [الجامع لآداب الراوي والسامع] قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيرًا ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة قال : وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظًا .

فصل : وأما الصلاة على غير الأنبياء ، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث : اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته فهذا جائز بالإجماع . وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم فقال قائلون : يجوز ذلك واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ . وبقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية . وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله ﷺ : إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ » . فأتاه أبي بصدقته فقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » (٣) . قال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعارًا للأنبياء إذا ذكروا فلا يلحق بهم غيرهم فلا يقال : قال أبو بكر صلى الله عليه ، أو : قال علي صلى الله عليه ، وإن كان المعنى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤١/١ ، ٤٥٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٢) ومسلم في الزكاة (١٧٦) .

صحيحًا . كما لا يقال : قال محمد ﷿ ، وإن كان عزيزًا جليلًا ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ﷿ ، وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعارًا لآل أبي أوفى ولا لغيره ، وهذا مسلك حسن . وقال آخرون : لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم في ذلك والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك هل هو من باب التحريم أو الكراهة التنزيهية أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال حكاه الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهي مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في لسان السلف بالأنبياء ، كما أن قولنا ﷿ مخصوص بالله تعالى ، فكما لا يقال محمد ﷿ وإن كان عزيزًا جليلًا لا يقال أبو بكر أو علي صلى الله عليه ، هذا لفظ بحروفه ، قال : وأما السلام فقال الشخ أبو محمد الجويني من أصحابنا : هو في معني الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غيرالأنبياء ، فلا يقال علي عليه السلام وسواء في هذا الأحياء والأموات . وأما الحاضر فيخاطب به فيقال : سلام عليك وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره .

قلت : وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علي رضي الله عنه بأن يقال عليه السلام من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه ، وهذا وإن كان معناه صحيحًا لكن ينبغي أن يسوى بين الصحابة في ذلك ، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضي الله عنهم أجمعين . قال ابن عباس : لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة . وقال جعفر بن برقان : كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد فإن ناسًا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناسًا من القصَّاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي ﷺ . فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ، ودعاؤهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك .

فرع : قال النووي : إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما ، فلا يقول صلى الله عليه فقط ولا عليه السلام فقط ، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ فالأولى أن يقال ﷺ تسليمًا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ .

يقول تعالى متهددًا ومتوعدًا من آذنه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص - عياذًا بالله من ذلك - قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ نزلت في المصورين . وفي الصحيحين عنه ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ ﷿ : يُؤْذِينِي ابنُ آدَم ، يَسِبُّ

الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ » [(١)] . ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا ، فيسندون أفعال الله إلى الدهر ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء رحمهم الله . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ : نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب . والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد آذى الله . كما أن من أطاعه فقد أطاع الله . كما قال عبد الله بن المغفل المزني : قال رسول الله ﷺ : « اللَّه اللَّه في أَصْحَابِي ، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّه ، وَمَنْ آذَى اللَّه يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ » [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ أي : ينسبون إليهم ما هم براء منه ولم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ وهذا هو البهت الكبير أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم . ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ، فإن الله ﷻ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدًا ، فهم في الحقيقة منكسو القلوب يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين . وعن أبي هريرة أنه قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ » [(٣)] . وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أَيُّ الرِّبَا أَرْبَى عِنْدَ اللَّه ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أَرْبَى الرِّبَا عِنْدَ اللَّه اسْتِحْلَالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ » ثم قرأ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [(٤)] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء ، والجلباب هو الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة وغير واحد ، وهو بمنزلة الإزار اليوم . قال الجوهري :

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٢٦) ومسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها (٢ ، ٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٥٤ ، ٥٧) والترمذي في سننه (٣٨٦٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/٣٨٤ ، ٣٨٦) وأبو داود في سننه (٤٨٧٤) والترمذي في سننه (١٩٣٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٩٠) .

الجلباب : الملحفة ، قال ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عينًا واحدة . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن قول الله ﷻ : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى . وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها . وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها . وقال يونس بن يزيد : وسألناه - يعني الزهري - هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة وتنهى عن الجلباب ؛ لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ ، وروي عن سفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة . وإنما نهى عن ذلك لخوف الفتنة لا لحرمتهن واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ أي : إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر . قال السدي في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة فيعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة فكفوا عنها ، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها . وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهنَّ حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي : لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك ، ثم قال تعالى متوعدًا للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره : هم الزناة ها هنا ﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ يعني : الذين يقولون : جاء الأعداء وجاءت الحروب وهو كذب وافتراء لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أي لنسلطنك عليهم . وقال قتادة : لنحرشنك بهم ، وقال السدي : لنعلمنك بهم . ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ ﴾ أي : في المدينة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ﴾ حال منهم في إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ أي : وجدوا ﴿ أُخِذُواْ ﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ أي : هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي : وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها إلى الله ﷻ . كما قال تعالى في سورة الأعراف وهي مكية وهذه مدنية فاستمر الحال في رد علمها إلى الذي يقيمها ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أي : في الدار الآخرة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي : ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ﴿ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه ثم قال : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ . أي : يسحبون في النار على وجوهم وتلوى وجوههم على جهنم يقولون ، وهم كذلك يتمنون لو أن كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول . كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ . وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ . وقال طاوس : سادتنا يعني : الأشراف ، وكبراءنا يعني العلماء ، أي : اتبعنا السادة – وهم الأمراء والكبراء من المشيخة – وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئًا وأنهم على شيء ، فإذا هم ليسوا على شيء . ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي : بكفرهم وإغوائهم إيانا . ﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ قرأ بعض القراء بالباء الموحدة ، وقرأ آخرون بالثاء المثلثة [(١)] وهما قريبا المعنى كما في حديث عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال : يا رسول الله : علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال : « قُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » [(٢)] . يروى كثيرًا وكبيرًا وكلاهما بمعنى صحيح واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه ، وفي ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة وهذا تارة . كما أن القارئ مخير بين القراءة أيتهما قرأ أحسن وليس له الجمع بينهما والله أعلم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ مُوسَى ﵇ كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ . فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا : مَا يَتَسَتَّرُ هذا التستر إِلَّا مِنْ عَيْبٍ فِي جِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ . وَإِنَّ اللهَ ﷻ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى ﵇ فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ ، أَقْبَلَ عَلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ ، فأخذ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ : ثَوْبِي حَجَرُ ، ثَوْبِي حَجَرُ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي

(١) قرأ عاصم ﴿ كبيرًا ﴾ بالباء وقرأ الباقون ﴿ كثيرًا ﴾ بالثاء انظر حجة القراءات ص ٥٨٠ .
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٨) .

إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله عز وجل وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا - قال - فذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ »[(١)] .

وعن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله : ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون عليه السلام فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته كان ألين لنا منك وأشد حياء فآذوه من ذلك ، فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم . قال ابن جرير : وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى . وجائز أن يكون الأول هو المراد . فلا قول أولى من قول الله عز وجل . قلت : يحتمل أن يكون الكل مرادًا وأن يكون معه غيره . والله أعلم[(٢)] .

وعن شقيق عن عبد الله قال : قسم رسول الله ﷺ ذات يومٍ قسمًا فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله قال : فقلت : يا عدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال : « رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ »[(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أي له وجاهة وجاه عند ربه عز وجل . قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئًا إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء عز وجل . وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله معه فأجاب الله سؤاله فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا قولًا سديدًا أي مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وذلك أنه يجار من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم .

عن أبو موسى الأشعري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ آمُرَكُمْ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ وَتَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا » ثم أتى النساء فقال : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ آمُرَكُنَّ أَنْ تَتَّقِينَ اللَّهَ وَتَقُلْنَ قَوْلًا سَدِيدًا »[(٤)] . وعن ابن عباس موقوفًا قال : من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله ، قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله . وقال غيره : السديد الصدق ، وقال مجاهد : هو السداد ، وقال غيره : هو الثواب ، والكل حق .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٠٤) والنَّدَب كالأثر وزنًا ومعنىً .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٦٥/٢٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٩) ومسلم في الزكاة (١٤٠ ، ١٤١) .

(٤) أخرجه البخاري في (المغازي) (٤٣٣٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٠/١) .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

قال العوفي عن ابن عباس : يعني بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا عليه من غير معصية ولكن تعظيمًا لدين الله أن لا يقوموا بها . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يعني غرًّا بأمر الله . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال : قبلت ، فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة . قال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد : إن الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون : هي الطاعة . وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن المرأة أؤتمنت على فرجها . وقال قتادة : الأمانة الدين والفرائض والحدود ، وقال بعضهم : الغسل من الجنابة ، وقال زيد بن أسلم : الأمانة ثلاثة : الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة ، وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو : أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله وبالله المستعان .

قال عون بن معمر يحدث عن الحسن - يعني البصري - أنه تلا هذه الآية ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ قال : عرضها على السبع الطباق الطرائق التي زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت قالت : لا . ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التي شدت بالأوتاد ، وذللت بالمهاد ، قال : فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، قالت : لا . ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب قال : قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، قالت : لا .

وقال مقاتل بن حيان : إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسماوات والأرض والجبال ، فبدأ بالسماوات فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة ؟ فقلن : يا رب إنا لا نستطيع هذا الأمر وليس بنا قوة ولكنا لك مطيعين ، ثم عرض الأمانة على الأرضين فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها مني وأعطيكن الفضل والكرامة في الدنيا ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطيق ، ولكنا لك سامعين مطيعين

لا نعصيك في شيء أمرتنا به . ثم قرب آدم فقال له : أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم : ما لي عندك ؟ قال : يا آدم إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة ، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار . قال : رضيت يا رب وحملها . فقال اللّه ﷻ عند ذلك : قد حملتكها . فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ . وعن مجاهد أنه قال: عرضها على السماوات ، فقالت : يا رب حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر وما أريد ثوابًا ولا أحمل فريضة . قال : وعرضها على الأرض ، فقالت : يا رب غرست فيّ الأشجار وأجريت فيّ الأنهار وسكان الأرض وما ذكر وما أريد ثوابًا ولا أحمل فريضة ، وقالت الجبال مثل ذلك ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ في عاقبة أمره . وهكذا قال ابن جريج . وعن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم في هذه الآية ، قال الإنسان : بين أذني وعاتقي فقال اللّه ﷻ : إني معينك عليها ، إني معينك على عينيك بطبقتين ، فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق ، ومعينك على لسانك بطبقتين ، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق . ومعينك على فرجك بلباس فلا تكشفه إلى ما أكره .

وعن أبي الدرداء ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « خَمْسٌ مَنْ جاء بِهِنَّ يَوْمَ القِيامَةِ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ الجَنَّةَ ؛ مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيتِهِنَّ ، وَأَعْطَى الزَّكَاةَ مَنْ مَالِهِ طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا - وكان يقول - وَايْمُ اللّه لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَأَدَّى الأَمَانَةَ » . قالوا : يا أبا الدرداء وما أداء الأمانة ؟ قال ﷺ : الغسل من الجنابة ، فإن اللّه تعالى لم يأمن من ابن آدم على شيء من دينه غيره [١] . وعن زاذان عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « القَتْلُ في سَبِيلِ اللّه يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا - أو قال - يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الأَمَانَةَ ، يُؤْتَى بِصَاحِبِ الأَمَانَةِ فَيُقَالُ لَهُ : أَدِّ أَمَانَتَكَ ، فَيَقُولُ : أَنَّى يَا رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا ؟ فَيُقَالُ لَهُ : أَدِّ أَمَانَتَكَ فَيَقُولُ : أَنَّى يَا رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا ؟ فَيُقَالُ لَهُ : أَدِّ أَمَانَتَكَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَّى يَا رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى أُمِّهِ الهَاوِيَةِ فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى الهَاوِيَةِ فيهوي فِيهَا حَتَّى ينتهي إِلَى قَعْرِهَا فَيَجِدُهَا هُنَالِكَ كَهَيْئَتِهَا فَيَحْمِلُهَا فَيَضَعُهَا عَلَى عَاتِقِهِ فَيَصْعَدُ بِهَا إِلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ زَلَّتْ قَدَمُهُ فَهَوَى فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الآبِدِينَ » . قال : والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الوضوء والأمانة في الحديث ، وأشد ذلك الودائع . فلقيت البراء فقلت : ألا تسمع ما يقول أخوك عبد اللّه ؟ فقال : صدق [٢] .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي روي عن حذيفة ﷺ قال : حدثنا رسول اللّه ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة . ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك تراه منتبرًا وليس فيه شيء -

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦٨/٢٢) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٦٩/٢٢) .

قال : ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله قال - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال : إن في بني فلان رجلًا أمينًا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من إيمان ، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت إن كان مسلمًا ليردنه علي دينه ، وإن كان نصرانيًا أو يهوديًا ليردنه علي ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا [(١)] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا : حِفْظُ أَمَانَةٍ وَصِدْقُ حَدِيثٍ وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ وَعِفَّةُ طُعْمَةٍ » [(٢)] . وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة فعن أبي إسحاق الشيباني عن خناس بن سحيم أو قال جبلة بن سحيم : قال : أقبلت مع زياد بن حدير من الجابية ، فقلت في كلامي : لا والأمانة ، فجعل زياد يبكي ويبكي فظننت أني أوتيت أمرًا عظيمًا فقلت له : أكان يكره هذا ؟ قال : نعم ، كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي . وقد ورد في ذلك حديث مرفوع عن ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا » [(٣)] . وقوله تعالى : ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ أي : إنما حمل بني آدم الأمانة ، وهي التكاليف ؛ ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفًا من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ وهم : الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي : وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في (الفتن) (٧٠٨٦) ومسلم في الإيمان (٢٣٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٣/٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسده (١٧٧/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٢/٥) وأبو داود في سننه (٣٢٥٣) .

سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ .

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ فهو المعبود أبدًا ، المحمود على طول المدى وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أي : في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء ، وقال الزهري : خبير بخلقه حكيم بأمره ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أي : يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : من قطر ورزق ، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أي : الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة ، الغفور عن الذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ۝ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر اللَّه تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن في سورة يونس ﵇ وهي قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ والثانية هذه ، والثالثة في سورة التغابن وهي قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . فقال تعالى : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ . قال مجاهد وقتادة : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ : لا يغيب عنه ، أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء ، فالعظام ، وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم . ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أي : سعوا في الصد عن سبيل اللَّه تعالى وتكذيب رسله . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ أي : لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب

الأشقياء من الكافرين . كما قال ﷻ : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها ، وهي : أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا ، رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضًا : ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ . ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ العزيز هو المنيع الجناب الذي لا يغالب ولا يمانع ، بل قد قهر كل شيء وغلبه ، الحميد في جميع أقواله وشرعه وقدره ، وهو المحمود في ذلك كله جل وعلا .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة ، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أي : بعد هذا الحال ﴿ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك . وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون ولهذا قالوا : ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ قال الله ﷻ رادًّا عليهم : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ أي : ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما ذهبوا إليه ، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ أي : الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ من الحق في الدنيا ، ثم قال تعالى منبهًا لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ . أي : حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مطلة عليهم والأرض تحتهم ، كما قال ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ . وعن قتادة قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك أو من بين يديك أو من خلفك رأيت السماء والأرض . وقوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ عن قتادة : المنيب المقبل إلى الله تعالى أي : إن في النظر إلى خلق السماوات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجاع إلى الله على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ، ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وهذه الأرضين في انخفاضها ، وأطوالها وأعراضها إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، وكما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوي العُدة والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري ﷺ يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ : « لَقَدْ أُوتِيَ هذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ »[(١)] . وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صنج ولا وتر بربط ولا أحسن من صوت أبي موسى الأشعري ﷺ ومعنى قوله تعالى : ﴿ أَوِّبِى ﴾ أي : سبحي قاله ابن عباس ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ قال الحسن البصري وقتادة والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يدخله نارًا ولا يضربه بمطرقة بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ ﴾ وهي الدروع . قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح ، وعن ابن شوذب قال : كان داود ﷺ يرفع في كل يوم درعًا فيبيعها بستة آلاف درهم ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود ﷺ في تعليمه صنعة الدروع ، قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة ولا تغلظه فيقضمها واجعله بقدر ، وقال الحكم بن عيينة : لا تغلظه فيقصم ولا تدقه فيقلق ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ﴾ أي : في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى عليَّ من ذلك شيء .

﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر . وقوله تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ قال ابن عباس ﷺ ومجاهد وعكرمة وعطاء الخرساني وغير واحد : القطر النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ﷺ ، قال السدي : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ أي : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه ، أي : بقدره وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ أي : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وهو : الحريق . وقال ابن أنعم : الجن ثلاثة أصناف ، صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب . قال بكر : ولا أعلم إلا أنه حدثني ، أن الإنس ثلاثة أصناف ،

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨) ومسلم في صلاة المسافرين (٣٦) .

صنف يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة ، وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلًا ، وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين . عن الحسن قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ، ومن هؤلاء مؤمنون وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنًا فهو ولي الله تعالى ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرًا فهو شيطان . وقوله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ أما المحاريب فهي البناء الحسن ، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره . وقال مجاهد : المحاريب بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هي المساجد . وقال قتادة : هي القصور والمساجد . وقال ابن زيد : هي المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفي : التماثيل الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله تعالى : ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ الجواب : جمع جابية ، وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء . وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ كَٱلْجَوَابِ ﴾ أي كالجوبة من الأرض وقال العوفي عنه : كالحياض ، والقدور الراسيات أي : الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد والضحاك وغيرهما : وقال عكرمة : أثافيها منها . وقوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ أي : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا ، وشكرًا مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : الصلاة شكر والصيام شكر وكل خير تعمله لله عز وجل شكر ، وأفضل الشكر الحمد . وعن محمد بن كعب القرظي قال : الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح . وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل . وقد كان آل داود عليه السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولًا وعملًا . وعن ثابت البناني قال : كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة ، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فغمرتهم هذه الآية : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ أَحبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَه ، وينامُ سُدُسَهُ ، وَأَحبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا ، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى » (١) . عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عليهما السلام لِسُلَيْمَانَ : يَا بُنَيّ لَا تُكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ ، فإِنَّ كثرة النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَتْرُكُ الرَّجُلَ فَقِيرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) . وقال فضيل في قوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ قال داود : يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك ؟ قال : الآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ النِّعْمَةَ مِنِّي . وقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له في

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٣٣٢) .

الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئًا على عصاه وهي منسأته . كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد : مدة طويلة نحوًا من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض - وهي الأرضة - ضعفت وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ، وتبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ .

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر . عن عبد الرحمن بن وعلة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال ﷺ : « بَلْ هُوَ رَجُلٌ وُلِدَ لَهُ عَشَرَةٌ ، فسكَنَ اليَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ والشَّامَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ ، فَأَمَّا اليَمَانِيُّونَ فَمَذْحِجُ وَكِنْدَةُ والأَزْدُ والأَشْعَرِيُّونَ وَأَنْمَارُ وَحِمْيَرُ ، وَأَمَّا الشَّامِيَّةُ فَلَخْمٌ وَجُذَامٌ وَعَامِلَةُ وغَسَّانُ » [١] .

قال علماء النسب - منهم محمد بن إسحاق - اسم سبأ عبد الشمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وإنما سمي سبأ ؛ لأنه أول من سبأ في العرب وكان يقال له : الرائش لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه فسمي الرائش ، والعرب تسمي المال ريشًا ورياشًا . وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم وقال في ذلك شعرًا :

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظِيمًا ... نَبِيٌّ لَا يُرَخِّصُ فِي الحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ ... يُدِينُونَ القِيَادَ بِكُلِّ دَامِي
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُمْ مِنَّا مُلُوكٌ ... يَصِيرُ المُلْكُ فِينَا بِاقْتِسَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانَ نَبِيٌّ ... تَقِيٌّ مُخْبِتٌ خَيْرُ الأَنَامِ
يُسَمَّى أَحْمَدًا يَا لَيْتَ أَنِّي ... أُعَمَّرُ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بِعَامِ
فَأَعْضُدُهُ وَأَحْبُوهُ بِنَصْرِي ... بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وَبِكُلِّ رَامِ
مَتَى يَظْهَرْ فَكُونُوا نَاصِرِيهِ ... وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغْهُ سَلَامِي

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال : أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح . واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاثة طرائق . والثاني : أنه من سلالة عابر ، وهو هود عليه الصلاة والسلام واختلفوا أيضًا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا . والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣١٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٩٣) .

إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمري رحمه الله في كتابه المسمى - الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه - ومعنى قوله ﷺ : « كَانَ رَجُلًا مِنَ العَرَبِ » يعني : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح ، وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم والله أعلم .ولكن في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ مر بنفر من أسلم ينتضلون فقال : « ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا » (١) . فأسلمُ قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد حين بعث الله عز وجل عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم : غسان بماء نزلوا عليه باليمن ، وقيل : إنه قريب من المشلل كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

إِمَّا سَأَلْتَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ ... الأَزْدُ نِسْبَتُنَا وَالمَاءُ غَسَّانُ

ومعنى قوله ﷺ : « وُلِدَ لَهُ عَشَرَةٌ مِنَ العَرَبِ » أي : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة ، والأقل والأكثر . كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب . ومعنى قوله ﷺ : « فَتَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَتَشَاءَمَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ » . أي : بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها . وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سدًّا عظيمًا محكمًا حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين . فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن . كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل - وهو الذي تخترف فيه الثمار - فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه . وكان هذا السد بمأرب ، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب ، وذكر آخرون : أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ ثم فسرها بقوله عز وجل : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أي : من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أي : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد . وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾ أي : عن توحيد الله وعبادته الله وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ المراد بالعرم المياه ، وقيل : الوادي . وقيل : الجرذ . وقيل : الماء الغزير . فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع وسعيد كرز ، حكى ذلك السهيلي . وذكر غير واحد منهم ابن عباس أن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها : الجرذ نقبته . قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون في كتبهم أن

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٠٧) والحاكم في المستدرك (٢/٩٤) .

سبب خراب هذا السد هو الجرذ ، فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير وولجت إلى السد فنقبته فانهار عليهم . وقال قتادة وغيره : الجرذ : هو الخلد نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهى ، وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال ، فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم : وهو الأراك وأكلة البربر ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : هو الطرفاء وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء وقيل : هو السمر واللَّه أعلم . وقوله : ﴿ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر ﴿ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم وشركهم باللَّه وتكذيبهم الحقَّ ، وعدولهم عنه إلى الباطل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ أي : عاقبناهم بكفرهم . قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور . وقال الحسن البصري : صدق اللَّه العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور . وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور . وقال ابن خيره وكان من أصحاب علي ﷺ : جزاء المعصية الوهن في العبادة والضيق في المعيشة والتعسر في اللذة قيل : وما التعسر في اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

يذكر ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا ، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ قال وهب ابن منبه : هي قرى بصنعاء ، وقال مجاهد والحسن وسعيد بن جبير وغيرهم : يعني : قرى الشام ، يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة . وقال ابن عباس : القرى التي باركنا فيها بيت المقدس ، وقال العوفي عنه أيضًا : هي قرى عربية بين المدينة والشام ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ أي : بينة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرين إليه ﴿ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ أي : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلًا ونهارًا ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ وقرأ آخرون (بَعِّدْ بين أسفارنا) [1] وذلك أنهم بطروا هذه النعمة . كما قال ابن عباس وغير واحد . وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (بَعِّدْ) بالتشديد والباقون بالألف (باعد) (حجة القراءات ص ٥٨٨) .

من موسى ، أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في منٍّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة . ولهذا قال لهم : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ . وقال ﷻ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ . وقال تعالى في حق هؤلاء : ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : بكفرهم ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : جعلناها حديثًا للناس وسمرًا يتحدثون به من خبرهم . وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء ، تفرقوا في البلاد ها هنا وها هنا . ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ ، وتفرقوا شذر مذر .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن بسبب استشعاره بإرسال العرم عليهم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدثني به أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرذًا يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم ، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن ، وكاد قومه ، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهي فيها أصغرُ ولدي وعرض أمواله . فقال أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله ، وانتقل هو في ولده وولد ولده ، وقالت الأسد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك وكانت حربهم سجالًا ، ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمي ﷺ :

وَعَكّ بْنُ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَلَعَّبُوا ... بِغَسَّانَ حَتَّى طُرِّدُوا كُلَّ مَطْرَدِ

وهذا البيت من قصيدة له . قال : ثم ارتحلوا عنهم ، فتفرقوا في البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو ابن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج بيثرب ، ونزلت خزاعة مرًّا . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عمان عمان ، ثم أرسل الله على السد السيل ، فهدمه . وفي ذلك أنزل الله ﷻ هذه الآيات . وقد ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق إلا أنه قال : فأمر ابن أخيه مكان ابنه - إلى قوله - فباع ماله وارتحل بأهله فتفرقوا . وقال ابن جرير : عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو بن عامر - وهو عم القوم - كان كاهنًا فرأى في كهانته أن قومه سيمزقون ويباعد بين أسفارهم . فقال لهم : إني قد علمت أنكم ستمزقون فمن كان منكم ذا هم بعيد وحمل شديد ، ومزاد حديد ، فليلحق بكاس أو كرود . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا هم مدن ، وأمر دعن ، فليلحق بأرض شن ، فكانت عوف بن عمرو وهم الذين يقال لهم : بارق ، ومن كان منكم يريد عيشًا آنيًا ، وحرمًا آمنًا فليلحق بالأرزين فكانت خزاعة ، ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، والمطعمات في المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار ، ومن كان منكم يريد خمرًا وخميرًا وذهبًا وحريرًا ، وملكًا وتأميرًا ، فليلحق بكوثى وبصرى ، فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشام ومن كان منهم بالعراق . قال ابن

إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر ، وكانت كاهنة فرأت في كهانتها ذلك ، فالله أعلم أي ذلك كان [(١)]. وقال سعيد عن قتادة عن الشعبي : أما غسان فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان ، فمزقهم الله كل ممزق .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي : إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة ، وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ، لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم . قال سعد بن أبي وقاص ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ . يُؤْجَرُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِهِ » [(٢)] .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ . قال ابن عباس ﵄ وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام . ثم قال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وقال الحسن البصري : لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء هبط إبليس فرحًا بما أصاب منهما وقال : إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ، وكان ذلك ظنًّا من إبليس فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقال عند ذلك إبليس : لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح أعده وأمنيه وأخدعه ، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما لم يغرغر بالموت ، ولا يدعوني إلا أجبته ، ولا يسألني إلا أعطيته ، ولا يستغفرني إلا غفرت له ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ قال ابن عباس ﵄ : أي من حجة . وقال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شيء . وما كان إلا غرورًا وأماني دعاهم إليها فأجابوه . وقوله ﷻ : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أي : إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة ربه ﷻ في الدنيا ممن هو منها في شك .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي : ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠٥/٢٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٣/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٩/٧) .

قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

يبين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض . فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : الآلهة التي عبدت من دونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ . أي : لا يملكون شيئًا استقلالًا ولا على سبيل الشركة . ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أي : وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه ، قال قتادة في قوله ﷿ : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ من عون يعينه بشيء . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أي : لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة ، كما قال ﷿ : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ولهذا ثبت عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله تعالى - أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء قال : « فَأَسْجُدُ للَّه تَعَالَى فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يَدَعَنِي ، وَيَفْتَحُ عَلَيَّ بِمَحَامِد لا أُحْصِيهَا الآنَ ، ثم يقال : يا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ تُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشفعْ » (١) . الحديث بتمامه .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ وهذا أيضًا مقام رفيع في العظمة وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي . قاله ابن مسعود ﷺ ومسروق وغيرهما . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : زال الفزع عنها . قال ابن عباس وابن عمر ﷺ وقتادة : في قوله ﷿ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ يقول : خلى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ، وجاء مرفوعًا (إذا فرغ) بالغين المعجمة ويرجع إلى الأول ، فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضًا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ أي : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ . وقال آخرون : بل معنى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا ، قال مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة ، وقال الحسن : يعني : ما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني : ما فيها من الشك قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم . ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا في بني آدم هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار . وقد اختار ابن جرير القول الأول ، وأن الضمير عائد على الملائكة ، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار ولنذكر منها طرفًا يدل على غيره .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٢) .

عن سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة قال : سمعت أبا هريرة ﷺ قال : إن نبي الله ﷺ قال : « إِذَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خضعانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : ماذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ : الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ . فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء »(١) .

وعن ابن عباس ﵄ ، وعن قتادة أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله تعالى إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

قال تعالى مقررًا تفرده بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضًا . فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض أي : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ هذا من باب اللف والنشر ، أي : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد . فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ . قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين ، والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد . وقال عكرمة : معناها إنا نحن لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين . وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ معناه : التبري منهم أي : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا . كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أي : يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : يحكم بيننا بالعدل . فيجزي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية . كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ .

ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي : الحاكم العالم بحقائق الأمور . وقوله تبارك

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٠) والترمذي في سننه (٣٢٢٣) وابن ماجه في سننه (١٩٤) .

وتعالى : ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ أي : أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أندادًا وصيرتموها له عدلًا ﴿ كَلَّا ﴾ أي : ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عديل . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ أي : الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي : ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء وغلبت كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علوًّا كبيرًا ، والله أعلم .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليمًا . ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين ؛ كقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . كقوله ﷻ : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . قال محمد بن كعب في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ : يعني : إلى الناس عامة . وقال قتادة في هذه الآية : أرسل الله تعالى محمدًا ﷺ إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله ﷻ . وعن عكرمة قال : سمعت ابن عباس ﵄ يقول : إن الله تعالى فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء ؟ قال ﵁ : إن الله تعالى قال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ . فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس . وهذا الذي قاله ابن عباس ﵄ قد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر ﵁ : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (١) . وفي الصحيح أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « بُعِثْتُ إِلَى الأَسْوَدِ وَالأَحْمَرِ » (٢) . قال مجاهد : يعني الجن والإنس . وقال غيره : يعني العرب والعجم والكل صحيح . ثم قال ﷻ مخبرًا عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وهذه الآية كقوله ﷻ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ الآية . ثم قال تعالى : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر لا يزاد ولا ينقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) ومسلم في المساجد (٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١١٦/٤) ، (١٤٥/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٥/٦) .

رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم ، وبما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ . قال الله ﷻ متهددًا لهم ومتوعدًا ومخبرًا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ﴾ وهم الأتباع . ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم ، ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به ، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾ ؟ أي : نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي : بل كنتم تمكرون بنا ليلًا ونهارًا وتغرونا وتمنونا وتخبرونا أنا على هدى ، وأنا على شيء ، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين . قال قتادة وابن زيد : ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكركم بالليل والنهار ، وكذا قال زيد بن أسلم . ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ أي نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شبهًا وأشياء من المحال تضلونا بها ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي : الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وهي : السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه للقادة عذاب بحسبهم وللأتباع بحسبهم . ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَّا سِيقَ إِلَيْهَا أَهْلُهَا تَلَقَّاهُمْ لَهَبُهَا ثُمَّ لفحتهم لَفْحَةً فَلَمْ يَبْقَ لحم إِلَّا سَقَطَ عَلَى العُرْقُوبِ** » [١] .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه ﷺ وآمرًا له بالتأسي بمن قبله من الرسل ومخبره بأنه ما بعث نبيًا في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ . وقال جل

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٤٨٨) .

وعلا ها هنا : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ أي : نبي أو رسول ﴿ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة . قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر . ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ أي : لا نؤمن به ولا نتبعه . عن أبي رزين قال : كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر ، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل . فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلني عليه قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب . قال : فأتى النبي ﷺ فقال : إلامَ تدعو ؟ قال : « أَدْعُو إِلَى كَذَا وَكَذَا » قال : أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ : « وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ ؟ » قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ الآية . قال : فأرسل إليه النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَنْزَلَ تَصْدِيقَ مَا قُلْتَ » وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم ؟ فزعمت بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل . وقال تبارك وتعالى إخبارًا عن المترفين المكذبين : ﴿ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أي : افتخروا بكثرة الأموال والأولاد واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ .

وقد أخبر الله ﷻ عن صاحب تينك الجنتين أنه : كان ذا مال وثمر وولد ثم لم يغن عنه شيئًا . بل سلب ذلك في الدنيا قبل الآخرة ، ولهذا قال ﷻ ها هنا : ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾ أي : يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ ﴾ أي : ليست هذه دليلًا على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم . وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » (١) . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ أي : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح . ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي : تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . ﴿ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ أي : في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شيء يحذر منه . وعن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا » فقال أعرابي : لمن هي ؟ قال ﷺ : « لِمَنْ طَيَّبَ الْكَلَامَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » (٢) . ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ أي : يسعون في الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴾ أي : جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه في سننه (٤١٤٣) والإمام مسلم في البر والصلة (٣٤) من حديث كثير بن هشام عن جعفر بن برقان به .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٢٥٢٧) والإمام أحمد في مسنده (١/١٥٦) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾ أي : بحسب ماله في ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال كثيرًا ، ويضيق على هذا ، ويقتّر على هذا رزقه جدًّا . وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أي : كما هم متفاوتون في الدنيا . هذا فقير مدقع ، وهذا غني موسع عليه . فكذلك هم في الآخرة ، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات ، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات ؛ وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » [(١)] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ ﴾ أي : مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت في الحديث : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ » [(٢)] . وفي الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : اللهم أعط ممسكًا تلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقًا خلفًا [(٣)] . وقال رسول الله ﷺ : « أَنْفِقْ بِلَالًا وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا » [(٤)] . وقال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه ، فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى فيقول للملائكة : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ أي : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم . كما قال تعالى لعيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ ﴾ وهكذا تقول الملائكة ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي : تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ ﴾ أي : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ ﴾ يعنون : الشياطين ؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ . قال الله ﷻ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أي : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعًا ولا ضرًّا ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ وهم المشركون ﴿ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/٢ ، ١٧٣) .
(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٤) ومسلم في الزكاة (٣٦ ، ٣٧) .
(٣) أخرجه البخاري في (الزكاة) (١٤٤٢) ومسلم في الزكاة (٥٧) .
(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/٣ ، ٢٤١/١٠) .

إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسول الله ﷺ ﴿ قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ، عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى . ﴿ وَقَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعنون : القرآن ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أي : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيًّا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا ، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من الأمم ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ قال ابن عباس ﷺ : أي : من القوة في الدنيا . كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ أي : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾ أي : إنما آمركم بواحدة وهي : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي : تقوموا قيامًا خالصًا لله ﷻ من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضًا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضًا ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أي : ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ هذا معنى ما ذكره مجاهد والسدي وقتادة وغيرهم . وهذا هو المراد من الآية .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ عن ابن عباس ﷺ أنه قال : صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال : « يَا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أَرَأَيْتُم لَوْ أَخبرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ أَما كُنتُمْ تُصَدِّقُونِي » قالوا : بلى ؟ قال ﷺ : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذَابٍ شَدِيدٍ » . فقال أبو لهب : تبًا لك ألهذا جمعتنا . فأنزل الله ﷻ : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [1] . وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه ﷺ قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يومًا فنادى ثلاث مرات فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ تَدْرُونَ مَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ ؟ » قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم ، قال ﷺ : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ مَثَلُ قَوْمٍ خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ فَبَعَثُوا رَجُلًا يَتَرَاءَى لَهُمْ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ أَبْصَرَ العَدُوَّ فَأَقْبَلَ لِيُنْذِرَهُمْ وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَهُ العَدُوُّ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ فَأَهْوَى بِثَوْبِهِ ،

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٠١) ومسلم في الإيمان (٣٥٥٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٨١/١) .

أَيُّهَا النَّاسُ أُوتِيتُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ أُوتِيتُمْ » ثلاث مرات ، قال رسول اللَّه ﷺ : « بُعِثْتُ أَنَّا والسَّاعَةَ جَمِيعًا إِنْ كَادَتْ لَتَسْبِقُنِي »[1] .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أي : لا أريد منكم جعلًا ولا عطاء على أداء رسالة اللَّه ﷻ إليكم ، ونصحي إياكم وأمركم بعبادة اللَّه . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : إنما أطلب ثواب ذلك من عند اللَّه ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي : عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه . وقوله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . أي : جاء الحق من اللَّه والشرع العظيم وذهب الباطل ، وزهق واضمحل ، كقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ . ولهذا لما دخل رسول اللَّه ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقرأ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[2] . ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . أي : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة ، وزعم قتادة والسدي : أن المراد بالباطل ها هنا إبليس أي : أنه لا يخلق أحدًا ولا يعيده ولا يقدر على ذلك ، وهذا وإن كان حقًّا ولكن ليس هو المراد ها هنا واللَّه أعلم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أي : الخير كله من عند اللَّه وفيما أنزل اللَّه ﷻ من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه . كما قال عبد اللَّه بن مسعود ﵁ لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة : أقول فيها برأيي ، فإن يكن صوابًا فمن اللَّه ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، واللَّه ورسوله بريئان منه ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . وفي الصحيحين : « إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا مُجِيبًا »[3] .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٨/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٧٨) ومسلم في الجهاد (٨٤ ، ٨٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٧٧/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٤) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٤ ، ٤٥) .

يقول تبارك وتعالى ولو ترى يا محمد إذا فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ أي : فلا مفر لهم ولا وزر لهم ولا ملجأ . ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أي : لم يمكنوا أن يمنعوا في الهرب ، بل أخذوا من أول وهلة . والمراد بذلك يوم القيامة وهو الطامة العظمى ، ﴿ وَقَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ أي : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي : وكيف لهم تعاطي الإيمان ، وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهي دار الجزاء ، لا دار الابتلاء فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان . كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد . قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ ﴾ قال : التناول لذلك . وقال الزهري : التناوش تناولهم الإيمان وهم في الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا ، وقال الحسن البصري : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة . وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ أي : كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة ؟ وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ قال : بالظن ، قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾ فتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : كاهن ، وتارة يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : مجنون ، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ قال قتادة ومجاهد : يرجمون بالظن لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما : يعني : الإيمان . وقال السدي : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ وهي : التوبة ، وقال مجاهد ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أي : كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (١) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾ أي : كانوا في الدنيا في شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب : قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإن من مات على شك بعث عليه ،ومن مات على يقين بعث عليه .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٢٤٢) .

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتها أي : بدأتها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا : ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : بديع السماوات والأرض . وقال الضحاك : كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض ، فهو خالق السماوات والأرض . وقوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ أي : بينه وبين أنبيائه ﴿ أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ أي : يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعًا . ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ أي : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك . كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء ، وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال السدي : يزيد في الأجنحة وخلقه ما يشاء . وقال الزهري وابن جريج في قوله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ يعني : حسن الصوت .

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلءَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيءٍ بَعْدُ ، اللَّهُمَّ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمجدِ ، أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ . اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجدِّ مِنْكَ الجد » (١) وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾ . ولها نظائر كثيرة . وقال الإمام مالك رحمة الله عليه : كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مطروا يقول : مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ هذه الآية : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له . كما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك فليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : فكيف تؤفكون بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٩٤) .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : وإن يكذبوك يا محمد هؤلاء المشركين بالله ، ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ، فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي : وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء . ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : المعاد كائن لا محالة . ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي : العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم ، فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية . ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ وهو الشيطان ؛ قاله ابن عباس رضي الله عنهما أي : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته ، فإنه غرار كذاب أفاك ، وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان . ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ . وقال زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ . ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أي : هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به . ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يرزقنا اتباع كتاب الله ، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ . أي : لما كان منهم من ذنب ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ على ما عملوه من خير . ثم قال تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ يعني : كالكفار والفجار يعملون أعمالًا سيئة ، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، أي : أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أي : بقدره كان ذلك ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ أي : لا تأسف على ذلك ، فإن الله الحكيم في قدره إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي ؛ لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وعن عبد الله بن الديلمي قال : أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وهو في حائط بالطائف يقال له : الوهط قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ مِنْهُ ضَلَّ ؛ فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى مَا عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » (١) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/١٧٦ ، ١٩٧) والحاكم في المستدرك (١/٣٠) .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

كثيرًا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، كما في أول سورة الحج ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء ، وأنزله عليها ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ . كذلك الأجساد إذا أراد اللَّه تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطرًا يعم الأرض جميعًا ، ونبتت الأجساد في قبورها ، كما تنبت الحبة في الأرض . ولهذا جاء في الصحيح : « كُلُّ ابنِ آدمَ يَبْلَى إلا عجبَ الذَّنَبِ ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ » [(١)] . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ وتقدم في الحج حديث أبي رزين قلت : يا رسول اللَّه كيف يحيي اللَّه الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال ﷺ : « يَا أَبَا رُزَيْنُ أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قَوْمِكَ مُمْحِلًا ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا ؟ » قلت : بلى ، قال ﷺ : « فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى » [(٢)] . وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ . أي : من كان يحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة اللَّه تعالى ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن اللَّه تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعًا . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ . قال مجاهد : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ بعبادة الأوثان ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ وقال قتادة : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أي : فليتعزز بطاعة اللَّه ﷻ . وقيل : من كان يريد علم العزة لمن هي ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ يعني : الذكر والتلاوة والدعاء ؛ قاله غير واحد من السلف ، وعن المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد اللَّه هو ابن مسعود ﷺ : إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب اللَّه تعالى ، إن العبد المسلم إذا قال : سبحان اللَّه وبحمده والحمد للَّه ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر تبارك اللَّه . أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه اللَّه ﷻ . ثم قرأ عبد اللَّه ﷺ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [(٣)] وعن النعمان بن بشير ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْ جَلالِ اللَّهِ مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَهْلِيلِهِ يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ يُذَكِّرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ ، أَلا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَزَالَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ شَيْءٌ يُذَكِّرُ بِهِ » [(٤)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ : الكلم الطيب ذكر اللَّه تعالى يُصعد به إلى اللَّه ﷻ ، والعمل الصالح أداء الفريضة . فمن ذكر اللَّه تعالى في أداء فرائضه حمل عمله ذكر اللَّه تعالى يصعد به إلى اللَّه ﷻ . ومن ذكر اللَّه تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به . وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وقال إياس

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٨/٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢/٤) .
(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٤/٢٢) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٨/٤) .

ابن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب : هم المراؤون بأعمالهم ، يعني : يمكرون بالناس يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله ﷻ يراؤون بأعمالهم ﴿ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد : هم المشركون ، والصحيح أنها عامة والمشركون داخلون بطريق الأولى . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ أي : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى ، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف لهم عن قريب وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ أي : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ ﴾ أي : ذكرًا وأنثى لطفًا منه ورحمة أن جعل لكم أزواجًا من جنسكم لتسكنوا إليها . وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ ﴾ أي : هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل ﴿ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ ﴾ أي : ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول . ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين ؛ لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير على الجنس . قال ابن جرير : وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه أي ونصف ثوب آخر . عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ يقول : ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ . يقول : كل ذلك في كتاب عنده . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام ، وقال عبد الرحمن في تفسيرها : ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا . وقال قتادة : والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة . وقال مجاهد : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ ﴾ أي : في بطن أمه يكتب له ذلك . لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ . وقال بعضهم : بل معناه ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ ﴾ أي : ما يكتب من الأجل . ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ ﴾ وهو ذهابه قليلًا قليلًا ، الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة وشهرًا بعد شهر ، وجمعه بعد جمعة ، ويومًا بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه [1] . واختار ابن جرير

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٤٦/٢٢ ، ١٤٧) .

الأول ، وهو كما قال ، وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة : عن أنس بن مالك ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ في أَثَرِهِ فَلْيصِلْ رَحِمَهُ » (١) .

وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي : سهل عليه يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، والعمران والبراري والقفار ، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك . ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي : مر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار ،وإنما تكون مالحة زعاقًا مرة ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يعني : السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وقوله جل وعلا : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ أي : تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره . وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام . وقوله جل وعلا : ﴿ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي : بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ، من فضله ورحمته .

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ .

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا . ثم يتقارضان صيفًا وشتاء ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أي : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السماوات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديرًا من عزيز عليم . ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : إلى يوم القيامة ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي : الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره . ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين . ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ قال ابن عباس ﷺ ومجاهد وعكرمة وغيرهم : القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة أي : لا يملكون من السماوات والأرض شيئًا ولا بمقدار هذا القطمير . ثم قال تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾ يعني : الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها . ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٦٧) ومسلم في البر والصلة (٢٠) .

ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ﴾ أي : لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها . ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أي : يتبرؤون منكم . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أي : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

يخبر تعالى بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي : هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، وهو تعالى الغني عنهم بالذات ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أي : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه ، وقوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ، ولا ممتنع ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ أي : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ أي : وإن كان قريبًا إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ الآية : هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني ، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول : يا مؤمن إن لي عندك يدًا ، قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم ، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو في النار ، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ فيثني خيرًا فيقول له : يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى . فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة ، أو يا هذه أي زوج كنت لك ؟ فتثني خيرًا فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو بها مما ترين ، قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئًا إني أتخوف مثل الذي تتخوف ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ الآية . ويقول تبارك وتعالى : ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي : إنما يتغط بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به . ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي : ومن عمل صالحًا ، فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي : وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب . وسيجزي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا

ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

يقول تعالى كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين - وهم الأحياء - وللكافرين - وهم الأموات - كقوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ . فالمؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها ، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي له ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها . ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ أي : كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم . ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي : إنما عليك البلاغ والإنذار والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء . ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين . ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أي : وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ الآية . وقوله تبارك تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وهي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات . ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ وهي : الكتب ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ أي : الواضح البين ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي : ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به فأخذتهم أي : بالعقاب والنكال . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيمًا شديدًا بليغًا والله أعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد وهو الماء الذي نزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها . كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ

﴿ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ أي : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضًا من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضًا . قال ابن عباس : الجدد الطرائق ، وكذا قال أبو مالك والحسن وقتادة والسدي . ومنها ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود . وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود قالوا : أسود غربيب . ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ أي : سود غربيب وفيما قاله نظر . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ﴾ أي : كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب وهو كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام ، كذلك هي مختلفة أيضًا ، فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم في غاية السواد ، وصقالبة وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ، ولهذا قال تعالى في الآية الآخرى : ﴿ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أيصبغ ربك ، قال ﷺ : « نَعَمْ صَبْغًا لَا يُنْفَضُ ، أَحْمَر وَأَصْفَر وَأَبْيَض » [1] . ولهذا قال تعالى بعد هذا : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ قال ابن عباس : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير . وقال عكرمة عن ابن عباس : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك شيئًا ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله . وقال سعيد بن جبير : الخشية : هي التي تحول بينك وبين معصية الله ﷻ . وقال الحسن البصري : العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه . ثم تلا الحسن : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ . وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية . وعن ابن وهب عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب . قال أحمد بن صالح المصري : معناه أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وإنما العلم الذي فرض الله ﷻ أن يتبع ؛ فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين . فهذا لا يدرك إلا بالرواية ، ويكون تأويل قوله : نور يريد به فهم العلم ومعرفة معانيه . وقال أبو حيان التيمي عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة ؛ عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ، ويعلم الحدود والفرائض ، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذي يخشي الله ولا يعلم الحدود والفرائض ، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله ﷻ .

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٨/٥) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلًا ونهارًا سرًّا وعلانية ، ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ أي : يرجون ثوابًا عند الله لا بد من حصوله ، كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : إن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي : ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ ﴾ أي : لذنوبهم ﴿ شَكُورٌ ﴾ للقليل من أعمالهم . قال قتادة : كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا رَضِيَ عَنِ العَبْدِ أَثْنَى عَلَيْهِ بِسَبْعَةِ أَصْنَافٍ مِنَ الخَيْرِ لَمْ يَعْمَلْهُ ، وَإِذَا سَخِطَ عَلَى العَبْدِ أَثْنَى عَلَيهِ بِسَبْعَةِ أَصْنَافٍ مِنَ الشَّرِّ لَمْ يَعْمَلْهُ » (١) .

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد من الكتاب ؛ وهو القرآن ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي : من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت هي له بالتنويه وأنه منزل من رب العالمين . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أي : هو خبير بهم بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه ؛ ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات . وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع ، فقال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات . ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قال : هم أمة محمد ﷺ ورّثهم الله تعالى كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : « شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي » (٢) . قال ابن عباس رضي الله عنهما : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ . وكذا روي عن غير

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨/٣) وقال عنه ابن كثير : غريب جدًا .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٣) وأبو داود في سننه (٤٧٣٩) والترمذي في سننه (٢٤٣٦) والطبراني في الكبير (٢٣٢/١) .

واحد من السلف ، أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير . وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين للكتاب .

قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ ﴾ قال : هو الكافر . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة . وقال مالك عن زيد بن أسلم والحسن وقتادة : هو المنافق . ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها ، والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير . كما هو ظاهر الآية . وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضًا .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ . فأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ، وَأَمَّا الَّذِينَ اقْتَصَدُوا فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحْبَسُونَ فِي طُولِ المحشر ثُمَّ هُمُ الَّذِينَ تلافاهُمُ اللَّه بِرَحْمَتِهِ فَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ »(١) .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الآية . قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ »(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن هذه الأمة ثلاث أثلاث يوم القيامة ، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابًا يسيرًا ، وثلث يجيؤون بذنوب عظام حتى يقول الله عز وجل : ما هؤلاء ؟ وهو أعلم تبارك وتعالى فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئًا ، فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي . وتلا عبد الله رضي الله عنه هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ ﴾ الآية .

وعن عقبة بن صهبان الهنائي قال : سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ ﴾ الآية . فقالت لي : يا بني هؤلاء في الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم قال : فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ ﴾ قال : هي لأهل بدونا ومقتصدنا أهل حضرنا وسابقنا أهل الجهاد .

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا ، فإن الآية عامة في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٨/٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣١/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٦/٧) .

جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة ، وعن قيس ابن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء ﷺ وهو بدمشق فقال : ما أقدمك أي أخي ؟ قال حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ ، قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لحاجة ، قال : لا ؟ ، قال : أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال ﷺ : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهَا عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ العِلمِ وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ للعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ ، وفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِب . إِنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وإن الأنبياء لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » (١) .

وعن ثعلبة بن الحكم ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ لِلعُلَمَاءِ : إِنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي وَحِكْمَتِي فِيكُمْ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ وَلَا أُبَالِي » (٢) .

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ .

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ، مأواهم جنات عدن ، أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله ﷻ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ . كما ثبت عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ » (٣) . ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ولهذا كان محظورًا عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ : « مَنْ لَبِسَ الحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ » (٤) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : إن أبا أمامة ﷺ حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر حلي أهل الجنة فقال : « مُسَوَّرُونَ بِالذَّهَبِ والفِضَّةِ مُكَلَّلَةٌ بِالدُّرِّ أَكَالِيلُ مِن دُرٍّ وَيَاقُوتٍ مُتَوَاصِلَةٌ ، وَعَلَيْهِمْ تَاجٌ كَتَاجِ المُلُوكِ ، شَبَابٌ جُرْدٌ مردٌ مُكْحُولونَ » (٥) . ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ . وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

قال ابن عباس ﭭ وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات . ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ . يقولون الذي أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته لم تكن أعمالنا تساوي ذلك كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لَنْ يُدْخِلَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٦/٥) وأبو داود في سننه (٣٦٤١) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر (٣٥٠/١) والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٨٦٧) .
(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٧١/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٤) ومسلم في اللباس (٢١ ، ٢٢) .
(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢/١٠ ، ٣٣٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/٢) .

أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « وَلَا أَنَا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّه تَعَالَى بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » [١] . ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أي : لا يمسنا فيها عناء . والنصب واللغوب كل منها يستعمل في التعب ، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم في العبادة في الدنيا . فسقط عنهم التكليف بدخولها وصاروا في راحة دائمة مستمرة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ .

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ . ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أهلها فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحيونَ » [٢] . وقال ﷻ : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك . قال الله تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ . كما قال ﷻ : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ . أي : هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق . وقوله جلت عظمته : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أي : ينادون فيها يجأرون إلى الله ﷻ بأصواتهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي : يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ أي : أو ما عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا . فروي عن علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهما أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة . وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر . قد نزلت هذه الآية ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة . وقال وهب بن منبه في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ قال : عشرين سنة . وقال الحسن : أربعين سنة ، وقال مسروق : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله ﷻ ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ : أربعون سنة [٣] ؟ . وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ستون سنة . فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضي الله عنهما وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضًا . لما ثبت في ذلك من الحديث . كما سنورده لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح في ذلك ؛ لأن في

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣) ومسلم في (صفات المنافقين) (٧٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٠٦) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢/١٦٩) .

إسناده من يجب التثبت في أمره .

وقد روى أصبغ بن نباته عن علي ﷺ أنه قال : ستون سنة .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَعْذَرَ اللَّهُ ﷻ إِلَى امْرِئٍ أُخرَ عُمْرُهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً » (١) .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم كما قال الشاعر :

إِذَا بَلَغَ الفَتَى سِتِّينَ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ المَسَرَّةُ والفَتَاءُ

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به ويزيح به عنهم العلل . كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة . كما ورد بذلك الحديث . فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ » (٢) .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثًا وستين سنة (٣) ، وقيل : ستين . وقيل : خمسًا وستين . والمشهور الأول والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ روي عن ابن عباس ﷺ وعكرمة وأبي جعفر الباقر ﷺ وقتادة وسفيان بن عيينة أنهم قالوا : يعني الشيب . وقال السدي : يعني به رسول الله ﷺ ، وقرأ ابن زيد ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ وهذا الصحيح عن قتادة فيما رواه شيبان عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسل ، وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر . لقوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ أي : لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم . وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أي : فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم . فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر ، وما تنطوي عليه الضمائر . وسيجازي كل عامل بعمله . ثم قال ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم . كما قال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ . ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ أي : فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره . ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أي : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين ، فإنهم كلما طال عمر أحدهم ، وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة ، وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٥٠) وابن ماجه في سننه (٤٢٣٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (١١٤ ، ١١٥) .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ . أي : من الأصنام والأنداد ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي : ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير . وقوله : ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ﴾ أي : أم أنزلنا عليهم كتابًا بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي : بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور ، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ أي : أن تضطربا عن أماكنهما . كما قال ﷻ : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ . ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ . أي : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور أي : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يُخْفِض القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلَ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ أَوِ النَّار ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سَبحاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » (١) .

وعن أبي وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله هو ابن مسعود ﷺ فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبًا قال : ما حدثك ؟ قال : حدثني أن السماوات تدور على منكب ملك ، قال : أفصدقته أو كذبته ؟ قال : ما صدقته ولا كذبته ، قال : لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحتك ورحلها كذب كعب . إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (٢) .

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم ﴿ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ أي : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل ، قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤ ، ٢٩٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٤) وابن ماجه في سننه (١٩٥ ، ١٩٦) .
(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٣/٢٢) .

مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أي : ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم ثم بين ذلك بقوله : ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ أي : ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ أي : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . وقال محمد بن كعب القرظي : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به مكر أو بغي أو نكث وتصديقها في كتاب الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ ، ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ وقوله ﷻ : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعني : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره . ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي : لا تغير ولا تبدل ، بل هي جارية كذلك في كل مكان مكذب ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أي : ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد والله أعلم .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ، كيف دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها فخلت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة ، وكثرة الأموال والأولاد فما أغنى ذلك شيئًا ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ؛ لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السماوات والأرض . ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أي : عليم بجميع الكائنات قدير على مجموعها . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي : لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السماوات والأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق . وعن أبي الأحوص عن عبد الله قال : كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ . وقال سعيد ابن جبير والسدي : أي : لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب . ﴿ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ، ويوفي كل عامل بعمله فيجازي بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية . ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ .

سورة يس

روي عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ يس في لَيْلَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ ، وَمَنْ قَرَأَ حم التي يُذْكَرُ فِيهَا الدُّخَانُ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ » [١] .

وعن معقل بن يسار ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « البَقَرَةُ سَنَامُ القُرْآنِ وَذِرْوَتُهُ نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا ، واستخرجت ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة - ويس قَلْبُ القُرْآنِ لَا يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّهَ تَعَالَى وَالدَّارَ الآخِرَةَ إِلَّا غَفَرَ لَهُ ، وَاقْرَؤُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ » [٢] . ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى ، وكأن قراءتها عند الميت لتتنزل الرحمة والبركة وليسهل عليه خروج الروح ، والله تعالى أعلم . وعن صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت - يعني يس - عند الميت خفف الله عنه بها [٣] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة . وروي عن ابن عباس ﷺ وعكرمة والضحاك : أن يس بمعنى يا إنسان ، وقال سعيد بن جبير : وهو كذلك في لغة الحبشة ، وقال زيد ابن أسلم : هو اسم من أسماء الله تعالى ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي : المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ﴿ إِنَّكَ ﴾ أي : يا محمد ﴿ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : على منهج ودين قويم وشرع مستقيم ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي : هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يعني بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ . قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله ولا يصدقون رسله [٤] .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٤٨/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣١١/٦) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٠٥/٤) .

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٠/٢٢) .

ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ .

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل ، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسه فصار مقمحًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴾ والمقمح هو الرافع رأسه ، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين كما قال الشاعر :

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
أَأَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمِ الشَّرُّ الَّذِي لَا يَأْتَلِينِي

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لما دل الكلام والسياق عليه . وهكذا هذا لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق اكتفى بذكر العنق عن اليدين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴾ قال : هو كقوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ يعني : بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير . وقال مجاهد : ﴿ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴾ قال : رافعي رؤوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا ﴾ قال مجاهد : عن الحق . ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا ﴾ قال مجاهد : عن الحق فهم يترددون . وقال قتادة : في الضلالات .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ ﴾ أي : أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ أي : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه ، قال ابن جرير : وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ (فأعشيناهم) بالعين المهملة من العشا وهو داء في العين ، وقال عبد الرحمن بن زيد : جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه . وقرأ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ ثم قال : من منعه الله تعالى لا يستطيع (١) . وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدًا لأفعلن ولأفعلن . فأنزلت : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ . قال : وكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو أين هو ؟ لا يبصره (٢) . وعن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكًا ، فإذا متم بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جنات خير من جنات الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها ، وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه فجعل يذرها على رؤوسهم ويقرأ : ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ . وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار فقال : ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمدًا ، قال : قد خرج عليكم فما بقي منكم من رجل إلا

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٢/٢٢) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٣/٢٢) .

وضع على رأسه ترابًا ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبيَّ ﷺ قولُ أبي جهل فقال : « وأنا أَقُولُ ذَلِكَ إِنَّ لَهُمْ مِنِّي لَذَبْحًا وَإِنَّهُ لآخِذُهُمْ » [1] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به . ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ﴿ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي : حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أي : لذنوبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : كثير واسع حسن جميل . ثم قال ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ . أي يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ أي : من الأعمال : وفي قوله تعالى : ﴿ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم وآثارهم التي أثروها من بعدهم فنجزيهم على ذلك أيضًا إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، كقوله ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حسنةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » [2] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَا مِنْ ثَلاثٍ : مِنْ عِلْم يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ » [3] . وقال سفيان الثوري : عن أبي سعيد ﷺ قال : سمعت مجاهدًا يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ : ما أورثوا من الضلالة . وقال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ : يعني : ما أثروا ، يقول : ما سنوا من سنة فعمل بها قوم من بعد موتهم ، فإن كانت خيرًا فلهم مثل أجورهم لا ينقص من أجر من عمل به شيئًا ، وإن كانت شرًا فعليهم مثل أوزارهم ولا ينقص من أوزار من عمل بها شيئًا .

والقول الثاني : إن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية ، قال مجاهد : ﴿ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ : أعمالهم ﴿ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقتادة : ﴿ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ يعني : خطاهم . وقال قتادة : لو كان الله ﷻ مغفلًا شيئًا من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى ، أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل . وقد وردت في هذا المعنى أحاديث :

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ

---

(١) ذكره بنحوه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٨/٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٧/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٣) والترمذي في سننه (١٣٧٦) .

المَسْجِدِ » ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ، فقال ﷺ : يا بني سلمة : « ديارَكم تُكْتَبْ آثارُكم ، ديارَكم تُكْتَبْ آثارُكم » [١] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : توفي رجل بالمدينة فصلى عليه النبي ﷺ وقال : « يَا لَيْتَهُ مَاتَ فِي غَيرِ مَوْلِدِهِ » فقال رجل من الناس : ولم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرَجلَ إِذَا تُوفِّي فِي غَيرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ فِي الجَنَّةِ » [٢] . وعن ثابت قال : مشيت مع أنس رضي الله عنه فأسرعت المشي فأخذ بيدي فمشينا رويدًا ، فلما قضينا الصلاة قال أنس : مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي فقال : يا أنس أما شعرت أن الآثار تكتب ؟ [٣] . وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول . بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى . فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب قاله مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وكذا في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ أي : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر . كما قال عز وجل : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

يقول تعالى : واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿ مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : إنها مدينة أنطاكية . وهكذا روي عن بريدة بن الخصيب وعكرمة وقتادة والزهري وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة إن شاء الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أي : بادروهما بالتكذيب ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي : قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث . ﴿ فَقَالُوٓاْ ﴾ أي : لأهل تلك القرية ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ أي : من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له ، قاله أبو العالية وزعم قتادة بن دعامة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية ، ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي : فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر فلم لا أوحي إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلًا لكنتم ملائكة وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله عز وجل : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي : استعجبوا من ذلك وأنكروه ، ولهذا قال هؤلاء : ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٢٨٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٣٢/٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٢/٢) والهندي في كنز العمال (١٦٦٩٢) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٨٥/٢٢) .

وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار . كقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ . يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والأخرى ، وإن لم تجيبوا فستعملون غب ذلك ، والله أعلم .

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ .

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي : لم نر على وجوهكم خيرًا في عيشنا . وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم . وقال مجاهد : يقولون لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قال قتادة : بالحجارة ، وقال مجاهد : بالشتم . ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : عقوبة شديدة ، فقالت لهم رسلهم : ﴿ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أي : مردود عليكم ، كقوله تعالى في قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ . وقال قتادة : أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم منا بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ .

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم ، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى أي لينصرهم من قومه . قالوا : وهو حبيب وكان يعمل الحرير وهو الحباك ، وكان رجلًا سقيمًا قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة ، وقال السدي : كان قصارًا . وقال عمر بن الحكم : كان إسكافًا . وقال قتادة : كان يتعبد في غار هناك ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أي : على إبلاغ الرسالة ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي : وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر . ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ أي : هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئًا . فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ولا ينقذونني مما فيه ﴿ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : إن اتخذتها آلهة من دون الله ، وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب ووهب يقول لقومه : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذي كفرتم به

﴿ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ أي : فاسمعوا قولي ، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله : ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ أي الذي أرسلكم ﴿ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ أي : فاشهدوا لي بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل وقال لهم : اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي : إني آمنت بربكم واتبعتكم وهذا القول الذي حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنى والله أعلم .

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ .

قال ابن مسعود ﷺ : إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصه من دبره ، وقال الله له : ﴿ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها . وقال مجاهد : قيل لحبيب النجار ، ادخل الجنة ، وذلك أنه قتل فوجبت له فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحًا لا تلقاه غاشًا . لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه . وقال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ وبعد مماته في قوله : ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ قال عاصم الأحوال عن أبي مجلز ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ : بإيماني بربي وتصديقي المرسلين ، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضي عنه ، فلقد كان حريصًا على هداية قومه . قال عروة بن مسعود الثقفي ﷺ للنبي ﷺ : ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْتُلُوكَ » فقال : لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني ، فقال له رسول الله ﷺ : « انْطَلِق » فانطلق فمر على اللات والعزى فقال : لأصبحنك غدًا بما يسوؤك فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف إن اللات لا لات ، وإن العزى لا عزى أسلموا تسلموا ، يا معشر الأحلاف إن العزى لا عزى ، وإن اللات لا لات أسلموا تسلموا ، قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال : « هَذَا مَثَلُهُ كَمَثَلِ صَاحِبِ يس » ، ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ (١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضبًا منه تبارك وتعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه ، ويذكر ﷻ أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قال ابن مسعود أي : ما كاثرناهم بالجموع ، والأمر كان أيسر علينا من ذلك .

﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ قال : فأهلك الله تعالى ذلك الملك الجبار ، وأهلك أهل أنطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية . وقيل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أي : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذابًا يدمرهم . وقيل : المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقتادة ، قال

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦١٥/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٨٦/٩) .

قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله . ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ . قال ابن جرير : والأول أصح ؛ لأن الرسالة لا تسمى جندًا [١] . قال المفسرون : بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام ، فأخذ بعضادتي باب بلدهم ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد . وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلًا من عند المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام . كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره . وفي ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا كذبوا رسل الله ﷻ ، لا من جهة المسيح ﵇ كما قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ - إلى أن قالوا - ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ . ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ﵇ والله تعالى أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ .

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتاركة ، وهنَّ : القدس ؛ لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية ؛ لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية ؛ لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين . ثم رومية ؛ لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده ، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها . كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم ، كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم ، والله أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري ﷺ وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوارة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . ذكروه عند قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية . كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضًا . أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظًا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك . والله ﷻ أعلم .

﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ أي : يا ويل العباد . وقال قتادة : أي : يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله ، وفي بعض القراءات - يا حسرة العباد على أنفسها - ومعنى هذا يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب كيف كذبوا

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٤/٢٣) .

رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي يكذبونه ويستهزئون به ويجحدون ما أرسل به من الحق . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي : ألم يتعظوا بمن أهلك قبلهم من المكذبين للرسل ، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ . وهم القائلون بالدور من الدهرية وهم الذين يعتقدون جهلًا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا ، كما كانوا فيها ، فرد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم فقال تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، ومعنى هذا كقوله جل وعلا : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف فمنهم من قرأ ﴿ وَإِن كُلٌّ لَمَا ﴾ بالتخفيف فعنده أنَّ ﴿وَإِن ﴾ للإثبات ومنهم من شدد ﴿ لَّمَّا ﴾ وجعل إن نافية و ﴿ لَّمَّا ﴾ بمعني إلا ، تقديره : وما كل إلا جميع لدينا محضرون ، ومعنى القراءتين واحد ، والله ﷻ أعلم .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ أي : دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة ، وإحيائه الموتى ﴿ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ أي : إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أي : جعلناه رزقًا لهم ولأنعامهم ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ أي جعلنا فيها أنهارًا سارحة في أمكنة يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره : لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها . وقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس رضي الله عنهما : ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى ، واختار ابن جرير - بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالًا - أن ما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى الذي تقديره : ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أي : غرسوه ونصبوه ، قال : وهي كذلك في قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ . أي من زروع وثمار ونبات ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فجعلهم ذكرًا وأنثى ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : من مخلوقات شتى لا يعرفونها كما قال جلت عظمته : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ

سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

يقول تعالى ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه ، وهذا بضيائه ، وجعلهما يتعاقبان يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجيء هذا ، كما قال تعالى : ﴿ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ ولهذا قال ﷻ ها هنا : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ أي : نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ . كما جاء في الحديث : « إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا ، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا ، وَغَرَبَتْ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ »[(١)] . هذا هو الظاهر من الآية ، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ وقد ضعف ابن جرير قول قتادة ها هنا ، وقال : إنما معنى الإيلاج الأخذ من هذا في هذا وليس هذا مرادًا في هذه الآية[(٢)] ، وهذا الذي قاله ابن جرير حق . وقوله ﷻ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ في معنى قوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ﴾ قولان أحدهما : أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات ؛ لأنه سقفها وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ما تكون إلى العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع . كما جاءت بذلك الأحاديث . فعن أبي ذر ﷺ قال : كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال ﷺ : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : « فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ »[(٣)] . وعن أبي ذر ﷺ ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ﴾ قال ﷺ : « مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ »[(٤)] .

القول الثاني : إن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة يبطل سيرها ، وتسكن حركتها وتكور ، وينتهي هذا العالم إلى غايته وهذا هو مستقرها الزماني . قال قتادة : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ﴾ لوقتها ولأجل لا تعدوه ، وقيل : المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها . ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو ﷺ . وقرأ ابن مسعود وابن عباس ﷺ : (والشمس تجري لا مستقر لها) أي : لا قرار لها ولا سكون ، بل هي سائرة ليلًا ونهارًا لا تفتر ولا تقف . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ ﴾ . أي : لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أي : الذي لا يخالف ولا يمانع ﴿ ٱلْعَلِيمِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات ، وقد قدّر ذلك ووقّته ذلك على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس .

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٠/٤) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٧/٢٣ ، ٨) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٢) والترمذي في سننه (٢١٨٦) .
(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٣) ومسلم في الإيمان (٢٥١) .

ثم قال جل وعلا : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ أي : جعلناه يسير سيرًا آخر يستدل به على مضي الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار . كما قال ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ الآية . وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ فجعل الشمس لها ضوء يخصها والقمر له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاء يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار فهي كوكب نهاري ، وأما القمر فقدَّره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلًا قليل النور ، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة ثم كلما ارتفع ازداد ضياء وإن كان مقتبسًا من الشمس حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم . قال ابن عباس ﵄ : وهو أصل العذق . وقال مجاهد : العرجون القديم أي : العذق اليابس . يعني ابن عباس ﵄ ، أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى .

وكذا قال غيرهما ، ثم بعد هذا يبديه اللَّه تعالى جديدًا في أول الشهر الآخر ، والعرب تسمي كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول : غرر ، واللواتي بعدها : نقل واللواتي بعدها : تسع ؛ لأن آخرهن التاسعة فاللواتي بعدها : عشر ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتي بعدها : البيض ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتي بعدهن : درع جمع درعاء ؛ لأن أولهن أسود لتأخر القمر في أولهن منه . ومنه الشاة الدرعاء وهي التي رأسها أسود ، وبعدهن ثلاث ظلم ، ثم ثلاث حنادس ، وثلاث دأدي ، وثلاث محاق لانمحاق القمر أول الشهر فيهن ، وكان أبو عبيدة ﵁ ينكر التسع والعشر . وكذا قال : في كتاب غريب المصنف .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ . قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ،وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ، وعن الحسن في قوله تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ قال : ذلك ليلة الهلال . وقال أبو صالح : لا يدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا . وقال عكرمة : يعني أن لكل منهما سلطانًا فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ يقول : لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل . وقال الضحاك : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من ها هنا وأومأ بيده إلى المشرق . وقال مجاهد : ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ يطلبان حثيثين يسلخ أحدهما من الآخر . والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطلبان طلبًا حثيثًا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعني : الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون أي : يدورون في فلك السماء . وقال ابن عباس ﵄ وغير واحد من السلف : في فلكة كفلكة المغزل ، وقال مجاهد : الفلك كحديدة الرحى ، أو كفلكة المغزل لا تدور المغزل إلا بها ولا تدور إلا به .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ودلالة لهم أيضًا على قدرته تبارك وتعالى ، تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي : آباءهم ﴿ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ أي في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التي أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، قال ابن عباس ﵄ : المشحون الموقر ، وقال الضحاك وقتادة وابن زيد : وهي سفينة نوح عليه الصلاة والسلام . وقوله جل وعلا : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قال ابن عباس ﵄ : يعني بذلك الإبل فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها . قال السدي في رواية : هي الأنعام . وعن ابن عباس ﵄ قال : أتدرون ما قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ؟ قلنا : لا ، قال : هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على مثلها [1] . ويقوي هذا المذهب في المعني قوله جل وعلا : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يعني الذين في السفن ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي : فلا مغيث لهم هم فيه ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أي : مما أصابهم ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ وهذا استثناء منقطع تقديره ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر ، ونسلمكم إلى أجل مسمى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي : إلى وقت معلوم عند الله ﷻ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها ، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال مجاهد : من الذنوب . وقال غيره : بالعكس ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي : لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه . وتقديرالكلام أنهم لا يجيبون إلى ذلك بل يعرضون عنه ، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : على التوحيد وصدق الرسل ﴿ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أي : لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها . وقوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي : وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء ، والمحاويج من المسلمين ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي عن الذين آمنوا من الفقراء أي : قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ ؟ أي : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم . ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : في أمركم لنا بذلك .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣/٢٣) .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ قال الله ﷻ : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي : ما ينتظرون إلا صيحة واحدة . وهذه والله أعلم نفخة الفزع . ينفخ في الصور نفخة الفزع والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله ﷻ إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتًا ورفع ليتًا ، وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أي : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقد وردت ها هنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر ، ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

هذه هي النفخة الثالثة ، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ والنسلان هو المشي السريع . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ، ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد . وقال أبي بن كعب ﷺ ومجاهد والحسن وقتادة : ينامون نومة قبل البعث . قال قتادة : وذلك بين النفختين ، فلذلك يقولون : من بعثنا من مرقدنا . فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة ، ولا منافاة إذا الجمع ممكن والله ﷻ أعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار . ﴿ يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ . نقله ابن جرير واختار الأول وهو أصح .

وقوله تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ . كقوله ﷻ : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ . وقال جل جلاله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : إنما نأمركم أمرًا واحدًا ، فإذا الجميع محضرون . ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أي : من عملها ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة . أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في روضات الجنات

أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم . قال الحسن البصري وإسماعيل ابن أبي خالد : في شغل عما فيه أهل النار من العذاب . وقال مجاهد : ﴿ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ أي : في نعيم معجبون أي به ، وكذا قال قتادة : وقال ابن عباس ﵄ : ﴿ فَٰكِهُونَ ﴾ أي فرحون ، قال عبد الله بن مسعود وابن عباس ﵄ وسعيد بن المسيب وغيرهم : شغلهم افتضاض الأبكار وقوله ﷻ : ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ ﴾ قال مجاهد : حلائلهم ﴿ فِى ظِلَٰلٍ ﴾ أي في ظلال الأشجار ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والسدي وخصيف : ﴿ ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ هي : السرر تحت الحجال قلت : نظيره في الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين والله ﷻ أعلم .

وقوله ﷻ : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ أي : من جميع أنواعها ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

عن أسامة بن زيد ﵄ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا هَلْ مُشَمِّرٌ إِلَى الجَنَّةِ ! فَإِنَّ الجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا ، هِيَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ نُورٌ كُلُّها يَتَلأْلأُ ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارِ سَلَامَةٍ ، وَفَاكِهَةٌ خَضِرَةٌ ، وَخَيْرٌ وَنِعْمَةٌ فِي مَحلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ » . قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال ﷺ : « قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » فقال القوم : إن شاء الله (١) . وقوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ قال ابن عباس ﵄ في قوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة . وهذا الذي قاله ابن عباس ﵄ كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ .

﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى : يتميزون عن المؤمنين في موقفهم كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أي : يصيرون صدعين فرقتين ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان ، وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي : قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي . وهذا هو الصراط المستقيم فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به . ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ يقال : جبلًا بكسر الجيم وتشديد اللام ، ويقال : جُبْلًا بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، ومنهم من يسكن الباء والمراد بذلك الخلق الكثير (٢) . قاله مجاهد وقتادة والسدي . وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٣٣٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٦/١) ، (١٨٧/٢) .

(٢) قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿ جُبْلًا ﴾ بضم الجيم وسكون الباء ، وابن كثير وحمزة والكسائي ﴿ جُبُلًا ﴾ بضمتين ، والباقون ﴿ جِبِلًّا ﴾ (انظر : حجة القراءات ص ٦٠٢) .

تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له وعدولكم إلى اتباع الشيطان . وعن أبي هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى جَهَنَّمَ فَيَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ سَاطِعٌ مُظْلِمٌ يقول : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ . ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [(١)] فيتميز الناس ويجثون ، وهي التي يقول الله ﷻ : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة وقد برزت الجحيم لهم تقريعًا وتوبيخًا : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي : هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم ﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت .

فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل قال فيه : « ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ : مَا أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَبْدُكَ آمَنْتُ بِكَ وَبِنَبِيِّكَ وَبِكِتَابِكَ ، وَصُمْتُ وَصَلَّيْتُ وَتَصَدَّقْتُ ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ » قال - فَيُقَالُ لَهُ : أَلَا نَبْعَثُ عَلَيْكَ شَاهِدَنَا ؟ - قَالَ : فَيُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ مَنِ الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيْهِ ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ : انْطِقِي » قال : « فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ . وَذَلِكَ المُنَافِقُ ، وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ » [(٢)] .

وعن عقبة بن عامر ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ أَوَّلَ عَظْمٍ مِنَ الإِنْسَانِ يَتَكَلَّمُ يَوْمَ يُخْتَمُ عَلَى الأَفْوَاهِ فَخِذُهُ مِنَ الرِّجْلِ اليُسْرَى » [(٣)] . وقال أبو موسى الأشعري ﷺ : يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف فيقول : نعم أي رب عملت عملت عملت قال : فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها ، قال : فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئًا وتبدو حسناته فودَّ أن الناس كلهم يرونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض عليه ربه عمله فيجحد ويقول : أي رب : وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول له الملك : أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول : لا وعزتك أي رب ما عملته ، فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه . قال أبو موسى الأشعري ﷺ : فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى . ثم تلا : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [(٤)] .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٨/٢٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٤) .
(٤) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٠/٢٣) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى فكيف يهتدون ؟ وقال مرة : أعميناهم . وقال الحسن البصري : لو شاء الله لطمس على أعينهم فجعلهم عميًا يترددون . وقال السدي : يقول : ولو نشاء أعمينا أبصارهم . وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والسدي : ﴿ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ يعني الطريق . وقال ابن زيد : يعني : الحق ، فأنى يبصرون وقد طمسنا على أعينهم ؟ . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : فأني يبصرون ، لا يبصرون الحق . وقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أهلكناهم . وقال السدي : لغيرنا خلقهم . وقال أبو صالح : لجعلناهم حجارة ، وقال الحسن البصري وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا ﴾ أي : إلى أمام ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلى وراء بل يلزمون حالًا واحدًا لا يتقدمون ولا يتأخرون .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رد إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ والمراد من هذا والله أعلم الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال لا دار دوام واستقرار ؛ ولهذا قال عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي : يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ولا انتقال منها ولا محيد عنها . وهي الدار الآخرة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ يقول عز وجل مخبرًا عن نبيه محمد ﷺ ، أنه ما علمه الشعر ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ أي : ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته . ولهذا أورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتًا على وزن منتظم ، بل إن أنشده زحّفه أو لم يتمه . وعن الشعبي أنه قال : ما ولد عبد المطلب ذكرًا ولا أنثى إلا يقول الشعر إلا رسول الله ﷺ . وعن الحسن هو البصري قال : إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت :

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

قال أبو بكر أو عمر رضي الله عنهما : أشهد أنك رسول الله يقول تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾[1] .

وعن قتادة : قيل لعائشة رضي الله عنها : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت رضي الله عنها : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه ﷺ كان يتمثل ببيت أخي بني قيس فيجعل أوله آخره وأخره أوله فقال أبو بكر رضي الله عنه : ليس هذا هكذا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا بِشَاعِرٍ وَمَا يَنْبَغِي لِيَ »[2] . وثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٦/٦) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣٤/٢٣) والسيوطي في الدر (٧١/٧) .

ولكن تبعًا لقول أصحابه ﷺ فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون :

لا هُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الأُولَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ويرفع ﷺ صوته بقوله : أبينا ويمدها (١) . وقد روي هذا بزحاف أيضًا ، وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو :

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ (٢)

لكن قالوا : هذا وقع اتفاقًا من غير قصد لوزن شعر بل جرى على اللسان من غير قصد إليه . وكذلك ما ثبت عن جندب بن عبد الله ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غار فنكبت أصبعه فقال ﷺ :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وفِي سَبِيلِ اللّٰه مَا لَقِيتِ (٣)

وسيأتي عند قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ ﴾ إنشاد :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا (٤)

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعرًا وما ينبغي له ، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال . وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعًا وشرعًا ، كما رواه عبد الله بن عمرو ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا أُبَالِي مَا أُوتِيتُ إِنْ أَنَا شَرِبْتُ تِرْيَاقًا ، أَوْ تَعَلَّقْتُ تَمِيمَةً ، أَوْ قُلْتُ الشِّعرَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِي » (٥) .

على أن الشعر فيه ما هو مشروع وهو هجاء المشركين الذين كان يتعاطاه شعراء الإسلام كحسان ابن ثابت ﷺ . وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم ﷺ أجمعين . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب . كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية . ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ » (٦) . وقد أنشد بعض الصحابة ﷺ للنبي ﷺ مائة بيت يقول ﷺ عقب كل بيت : « هيه » (٧) . يعني : يستطعمه فيزيده من ذلك . وقد روى أبو

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣١٥ ، ٤٣١٦) ومسلم في الجهاد والسير (٧٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٢) ومسلم في الجهاد (١١٢) والترمذي في سننه (٣٣٤٥) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٦٩/٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٦٩) والبيهقي في السنن (٣٥٥/٩) .

(٦) ذكره الهندي في كنز العمال (١٥٢٤١) .

(٧) أخرجه مسلم في الشعر (١) وابن ماجه في سننه (٣٧٥٨) والبيهقي في الكبرى (٢٢٧/١٠) .

داود من حديث أبي بن كعب وبريدة بن الحصيب وعبد الله بن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرًا ، وَإِنَّ مِنَ الشِّعرِ حكمًا » [1] . ولهذا قال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ ﴾ يعني محمدًا ﷺ ما علمه الشعر ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ أي : وما يصلح له ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : ما هذا الذي علمناه ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي : لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض . وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة . كما قال قتادة : حي القلب حي البصر . وقال الضحاك : يعني : عاقلًا ﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ قال قتادة : مطيقون أي : جعلهم يقهرونها . وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه . وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير . وقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي : منها ما يركبون في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ إذا شاءوا نحروا واجتزروا ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أي : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ أي : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي : أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره ؟

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أي : لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ قال مجاهد : يعني عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم . وقال قتادة : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعني : الآلهة ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ والمشركون يغضبون الآلهة في الدنيا ، وهي لا تسوق إليهم خيرًا ولا تدفع عنهم شرًا ، وإنما هي أصنام ، وهكذا قال الحسن البصري ، وهذا القول : حسن وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى . وقوله تعالى ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي : نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزيهم وصفهم ، ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلًا ولا حقيرًا ولا صغيرًا ولا كبيرًا ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديمًا وحديثًا .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٩/١) وأبو داود في سننه (٥٠١١ ، ٥٠١٢) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ .

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة : جاء أبي بن خلف - لعنه الله - إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم ، وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : « نَعَمْ يُمِيتُكَ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ يَبْعَثُكَ ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ » [1] . ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى آخرهن .

والألف واللام في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث ﴿ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة . فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين ، كما قال ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أي : من نطفة من أخلاط متفرقة فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما قال بشر بن جحاش : إن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها إصبعه . ثم قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَّلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بلغت التَّرَاقِي قُلْتَ : أَتَصَدَّقُ ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟ » [2] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ . أي : استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السماوات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده . ولهذا قال ﷻ : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت . فعن عبد الملك ابن عمير عن ربعي قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضي الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فقال : سمعته ﷺ يقول : « إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ الْمَوْتُ ، فَلَمَّا أَيِسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ إِذَا أَنَا مُتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا جَزْلًا ، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا ، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي وَخَلَصَتْ إِلَى عَظْمِي فَامْتُحِشْتُ ، فَخُذُوهَا فَدُقُّوهَا فَذَرُّوهَا في الْيَمِّ ، فَفَعَلُوا ، فَجَمَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قال : مِنْ خَشْيَتِكَ ، فَغَفَرَ اللَّهُ ﷻ لَهُ » . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك . وكان نباشًا [3] .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ أي : الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرًا نضرًا ذا ثمر وينع ثم أعاده إلى أن صار يابسًا توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد لا يمنعه شيء . قال قتادة في قوله : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤٠/٧) . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٠/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٥٢) ومسلم في الإمارة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٥) .

﴿ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ يقول : الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه . وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز ، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء . وروي هذا عن ابن عباس ﵄ ، وفي المثل : لكل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، وقال الحكماء : في كل شجر نار إلا العناب .

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا منبهًا على قدرته العظيمة على خلق السماوات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك . ومرشدًا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة . كقوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وقال ﷻ ها هنا : ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي : مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ، قاله ابن جرير ، وهذه الآية الكريمة كقوله ﷻ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ . وقال تبارك وتعالى ها هنا : ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي : إنما يأمر بالشيء أمرًا واحدًا لا يحتاج إلى تكرر وتأكيد .

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّـه أَمْرًا فَإِنَّمَا ‏ ‏ يَقُولُ لَهُ كُنْ قَوْلَةً فَيَكُونُ

وعن أبي ذر ﵁ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُ ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُ ، إِنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ وَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ ، عَطَائِي كَلَامٌ ، وَعَذَابِي كَلَامٌ ، إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (١) . وقوله تعالى : ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السماوات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل . ومعنى قوله ﷻ : ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كقوله ﷻ : ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح . والصحيح الأول ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

وعن حذيفة ﵁ ، أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي من الليل وكان يقول : « اللَّهُ أَكْبَرُ - ثلاثًا - ذِي الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ » . ثم استفتح فقرأ البقرة ثم ركع فكان ركوعه نحوًا من قيامه ، وكان يقول في ركوعه : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ » ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحوًا من ركوعه ، وكان يقول في قيامه : « لِرَبِّيَ الْحَمْدُ » ثم سجد فكان سجوده نحوًا من قيامه ، وكان

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٧/٥) .

يقول في سجوده : « سُبْحَانَ رَبِّي الأَعْلَى » ثم رفع رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحوًا من سجوده وكان يقول : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، رَبِّ اغْفِرْ لي » فصلى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران والنساء ، والمائدة أو الأنعام - شك شعبة [1] .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٩٨/٥) وأبو داود في سننه (٨٧٤) والنسائي في سننه (٢٣١/٢) .

سورة الصافات

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات [١] .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾ .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴾ هي الملائكة ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴾ هي الملائكة ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾ هي الملائكة ، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومسروق وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد ، وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فُضِّلنا عَلَى النَّاسِ بثلاثٍ : جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الملائكةِ ، وجُعِلَتْ لَنَا الأرضُ كُلُّها مَسْجِدًا ، وجُعِلَ لَنَا تُرابُها طَهورًا إذا لم نجد الماءَ » [٢] وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا تصفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الملائكةُ عِنْدَ رَبِّهم ؟ » قلنا : وكيف تصفُّ الملائكةُ عندَ ربِّهم؟ قال ﷺ : « يتمُّون الصفوفَ المتقدمةَ ، ويتراصُّونَ في الصفِّ » [٣] ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴾ قال السدي : أنها تزجر السحاب ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾ قال السدي : الملائكة يجيؤون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض ﴿ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ أي من المخلوقات ﴿ وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾ أي هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتغرب من المغرب . واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه وقد صرح بذلك في قوله ﷻ : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴾ .

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿ بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾ ، قرئ بالإضافة وبالبدل وكلاهما بمعنى واحد [٤] ؛ فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرم السماء الشفاف فتضيء لأهل الأرض ﴿ وَحِفۡظٗا ﴾ تقديره وحفظناها حفظًا ﴿ مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾ يعني المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب ، فأحرقه ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ أي لئلا

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٢/٩٥) بلفظ : « يأمر بالتخفيف » .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في السنن (١/٢١٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢/٢٩) وابن ماجه في السنن (٩٩٢) .

(٤) قرأ حفص وحمزة : « بزينةٍ » منون ، « الكواكبِ » جر ، وقرأ أبو بكر عن عاصم « بزينةٍ » بالتنوين ، « الكواكبَ » نصب مفعول بها ، وقرأ الباقون « بزينةِ الكواكبِ » مضافًا (انظر : حجة القراءات ص : ٦٠٤) .

يصلوا إلى الملأ الأعلى وهي السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ أي يرمون ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أي من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿ دُحُورًا ﴾ أي رجمًا يدحرون به ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ويرجمون ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر كما قال جلت عظمته : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الكلمة التي يسمعها من السماء ، فيلقيها إلى الذي تحته ، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكاهن ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أي مستنير . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان للشياطين مقاعد في السماء قال : فكانوا يستمعون الوحي قال : وكانت النجوم لا تجري وكانت الشياطين لا ترمى ، قال : فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض فزادوا في الكلمة تسعًا ، قال : فلما بعث رسول الله ﷺ جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه ، قال : فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله ، فقال : ما هو إلا من أمر حدث ، قال : فبعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة . قال وكيع : يعني بطن نخلة ، قال : فرجعوا إلى إبليس فأخبروه فقال : هذا الذي حدث (١) .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

يقول تعالى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيهما أشد خلقًا ، هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة ؟ وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : « أم من عددنا » فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقًا منهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم ينكرون البعث ؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا ثم بين أنهم خلقوا من شيء ضعيف فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ قال مجاهد وسعيد ابن جبير والضحاك : هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة : هو اللزج الجيد ، وقوله عز وجل : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب وهو إعادة الأجسام بعد فنائها ، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم ، يسخرون مما تقول لهم من ذلك .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يستهزئون ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي قل لهم يا محمد : نعم تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون ترابًا وعظامًا ﴿ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي حقيرون تحت القدرة العظيمة . ثم قال جلت عظمته : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي فإنما هو أمر واحد من الله عز وجل ، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض ، فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/١) .

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا ، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ فتقول لهم الملائكة والمؤمنون : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ قال النعمان بن بشير ﷺ : يعني بأزواجهم : أشباههم وأمثالهم ، وعن ابن عمر والسدي قال : يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . وقوله تعالى : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أي أرشدوهم إلى طريقِ جهنم ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ أي قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا قال ابن عباس : يعني احبسوهم إنهم محاسبون . وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أيمًا داعٍ دعَا إلى شيْءٍ ؛ كان موقوفًا معَهُ إلى يومِ القيامةِ لا يُغادِرُهُ ولا يُفارِقُهُ ، وإن دعَا رجلٌ رجلًا » ثم قرأ ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [1] ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ أي كما زعمتم أنكم جميع منتصر ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يحيدون عنه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۝ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ۝ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ۝ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ۝ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال ابن عباس : يقولون : كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا ؛ لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء ، وقال مجاهد : يعني عن الحق ، والكفار تقوله للشياطين . وقال السدي : تأتوننا من قبل الحق وتزينوا لنا الباطل وتصدونا عن الحق ، وقال ابن زيد : معناه تحولون بيننا وبين الخير ، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به . وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع : ما الأمر كما تزعمون ، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للكفر والعصيان ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ أي بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به فخالفتموهم ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ۝ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين : حقت علينا كلمة الله إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أي دعوناكم إلى الضلالة ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ أي فدعوناكم إلى ما نحن

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٢٨) .

فيه فاستجبتم لنا ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي الجميع في النار كل بحسبه ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله ؛ فقد عصم مني ماله ونفسه ، إلا بحقه ، وحسابه على الله ﷻ »(١) ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون ؛ يعنون رسول الله ، قال الله تعالى تكذيبًا لهم وردًّا عليهم : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له من الأخبار والطلب ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة ، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره كما أخبروا ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ الآية .

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝ فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا للناس : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين . ولهذا قال جلا وعلا ههنا ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم ولا يناقشون في الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما شاء الله تعالى من التضعيف ، . وقوله جل وعلا : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال قتادة والسدي : يعني الجنة ، ثم فسره بقوله : ﴿ فَوَاكِهُ ﴾ أي متنوعة ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ أي يخدمون ويرفهون وينعمون ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ قال مجاهد : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض . وقوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ نزه الله ﷻ خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ، ووجع البطن ، وهو الغول ، وذهابها بالعقل جملة ، فقال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أي بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها ، قال زيد بن أسلم : خمر جارية بيضاء ، أي لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء من حمرة أوسواد أو اصفرار أو كدورة إلى غيرذلك مما ينفر الطبع السليم .

وقوله ﷻ ﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ أي طعمها طيب كلونها ، وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك . وقوله تعالى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ يعني لا تؤثر فيهم غولًا وهو وجع البطن . قال مجاهد : كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه لكثرة مائيتها ، وقيل : المراد بالغول ههنا صداع الرأس ، وقال قتادة : هو صداع الرأس ووجع البطن . وعن السدي : لاتغتال عقولهم كما قال الشاعر :

فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول الأول (٢)

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٤) وأبو داود في السنن (٢٦٠٦) .

(٢) البيت من شواهد أبي عبيد في مجاز القرآن (١٦٩/٢) ، وهو منسوب لمطيع بن إياس بن أبي قزعة كما في الأغاني (٧٠/١٣) .

وقال سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى ، والصحيح قول مجاهد ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ قال مجاهد : لا تذهب عقولهم ، وقال ابن عباس : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال . وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ عِينٌ ﴾ أي حسان الأعين وهي النجلاء العيناء ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي اللؤلؤ المكنون .

وقال الحسن : يعني محصون لم تمسه الأيدي ، وقال السدي : بياض البيض حين نزع قشرته ، واختاره ابن جرير قال : والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتنالها الأيدي بخلاف داخلها ، والله أعلم . وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﷻ : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قال : « العين : الضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﷻ ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ قال : « رقتهن كرقة الجلدة التي رأسها في داخل البيضة التي تلي القشر وهي الغِرْقِئُ » [1] .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، أي عن أحوالهم ، وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خيرعظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ قال مجاهد : يعني شيطانًا . وعن ابن عباس : هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا ، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما ؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس ويكون من الإنس فيقول كلامًا تسمعه الأذنان وكلاهما يتعاونان ، وكل منهما يوسوس ، ولهذا ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ أي : آأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ، والكفر والعناد ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ قال مجاهد والسدي : لمحاسبون . وقال ابن عباس : لمجزيون بأعمالنا ، وكلاهما صحيح . قال تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ أي مشرفون ، ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والسدي : يعني في وسط الجحيم ، وقال الحسن

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦٨/٢٣) .

البصري : في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد ، وقال قتادة : ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي ، ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ يقول المؤمن مخاطبًا للكافر : والله إن كدت لتهلكني لوأطعتك ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أي ولولا فضل الله عليَّ لكنتُ مثلك في سواء الجحيم حيث أنت محضر معك في العذاب ولكنه تفضل عليَّ ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ هذا من كلام المؤمن مغبطًا نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة بلا موت فيها ولا عذاب ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . وقال الحسن البصري : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فقالوا : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ قيل : لا ، قالوا : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وقوله ﷻ : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة ، وقال ابن جرير : هو من كلام الله تعالى ومعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ، ليصيروا إليه في الآخرة وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة ، قال أبو جعفر بن جرير في تفسيره : إن رجلين كانا شريكين فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار ، وكان أحدهما له حرفة والآخر ليس له حرفة ، فقال الذي له حرفة للآخر : ليس عندك حرفة ما أراني إلا مفارقك ومقاسمك ، فقاسمه ، وفارقه ثم إن الرجل اشترى دارًا بألف دينار كانت لملك مات ، فدعا صاحبه فأراه فقال : كيف ترى هذه الدار ابتعتها بألف دينار ؟ قال : ما أحسنها ، فلما خرج قال : اللهم إن صاحبي هذا ابتاع هذه الدار بألف دينار ، وإني أسألك دارًا من دور الجنة ، فتصدق بألفِ دينار ، ثم مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث ، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار فدعاه وصنع له طعامًا ، فلما أتاه قال : إني تزوجت هذه المرأة بألف دينار ، قال : ما أحسن هذا ، فلما انصرف قال : يارب إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار ، وإني أسألك امرأة من الحور العين ، فتصدق بألف دينار ، ثم إنه مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث ، ثم اشترى بستانين بألفي دينار ثم دعاه فأراه فقال : إني ابتعت هذين البستانين بألفي دينار . فقال : ما أحسن هذا ، فلما خرج قال : يا رب إن صاحبي قد اشترى بستاتين بألفي دينار وأنا أسألك بستانين في الجنة ، فتصدق بألفي دينار ، ثم أن الملك أتاهما فتوفاهما ، ثم انطلق بهذا المتصدق فأدخله دارًا تعجبه ، وإذا بامرأةٍ تطلع يضيء ما تحتها من حسنها ، ثم أدخله بستانين وشيئًا الله به عليم ، فقال عند ذلك : ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا ، قال : فإنه ذاك ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة ، قال : فإنه كان لي صاحب يقول : ﴿ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ قيل له : فإنه في الجحيم ، ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ فقال عند ذلك : ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ الآيات [١] قال ابن جرير : وهذا يقوي قراءة من قرأ ﴿ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ ﴾ بالتشديد [٢] .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝ ثُمَّ إِنَّ

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣/٧٠) ، والسيوطي في الدر المنثور (٧/٩) وعزاه لسعيد بن منصور .
(٢) وهي قراءة حمزة (انظر : الدر المنثور ٦/٥٩) والقرطبي (١٥/٨٢) .

مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿ أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ التي في جهنم ، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة ، كما قال بعضهم : إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم ، كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن ، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له الزقوم . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا : صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ غذيت من النار ومنها خلقت .

قلت : ومعنى الآية : إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارًا نختبر به الناس من يصدق منهم ممن يكذب . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي أصل منبتها في قرار النار ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها . قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قائمة إلى السماء ، وإنما شبهها برؤوس الشياطين - وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين - لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر ، وقيل : المراد بذلك ضرب من الحيات رؤوسها بشعة المنظر .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع ؛ فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها ؛ لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها ، كما قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ وعن ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : « اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ »(١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ قال ابن عباس ﵄ : يعني شرب الحميم على الزقوم ، وقال غيره : يمزج لهم الحميم بصديد وغساق مما يسيل من فروجهم وعيونهم . وعن سعيد بن جبير قال : إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم ، فلو أن مارًا مر بهم يعرفهم ، لعرفهم بوجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذي قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد ، فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالثبور . وقوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج وجحيم تتوقد وسعير تتوهج ، فتارة في هذا ، وتارة في هذا .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ أي إنما جازيناهم بذلك ؛ لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال : ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ قال مجاهد : شبيهة بالهرولة ، وقال سعيد بن جبير : يسفهون .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢/٣٧) ، والترمذي في السنن (٢٥٨٥) .

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرونهم بأس الله ، ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به وعبد غيره ، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم ، فأهلك الله المكذبين ودمرهم ، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يبين ذلك مفصلًا فذكر نوحًا - عليه الصلاة والسلام - وما لقي من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ فغضب الله تعالى لغضبه عليهم ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ له ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو التكذيب والأذى ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام [(١)] . وعن سمرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال : « سام ، وحام ، ويافث » [(٢)] . وعنه أيضًا أن نبي الله ﷺ قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » [(٣)] والمراد بالروم هھنا هم الروم الأول ، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يذكر بخير ، وقال مجاهد : يعني لسان صدق للأنبياء كلهم ، وقال قتادة والسدي : أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين . وقوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ مفسر لما أبقى عليه الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى ونجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي أهلكناهم فلم يبق منهم عين تطرف ، ولا ذكر ولا عين ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة .

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ أي من أهل دينه ، وقال مجاهد : على منهاجه وسنته ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : يعني شهادة أن لا إله إلا الله . سأل عوفٌ محمدَ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٩/٧) ونسبه إلى ابن المنذر وابن جرير .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٣٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٣١) وأحمد في مسنده (٩/٥) والطبراني في الكبير (٢٥٤/٧) .

ابن سيرين : ما القلب السليم ؟ قال : يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وقال الحسن : سليم من الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ؛ ولهذا قال ﷺ : ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال قتادة : يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره .

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ .

إنما قال إبراهيم لقومه ذلك ؛ ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلامًا هو حق في نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر في النجوم ، يعني قتادة : أنه نظر إلى السماء متفكرًا فيما يلهيهم به ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي ضعيف . وقال سفيان : يعني طعين ، وكانوا يفرون من المطعون ، فأراد أن يخلو بآلهتهم . وقيل : أراد ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى ولهذا قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء ، ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديهم طعامًا قربانًا لتبرك لهم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ قال الفراء : معناه مال عليهم ضربًا باليمين . وقال قتادة والجوهري : فأقبل عليهم ضربًا باليمين . وإنما ضربهم باليمين ؛ لأنها أشد وأنكى ؛ ولهذا تركهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون . وقوله ﴿ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ قال مجاهد وغيره : أي يسرعون ؛ فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة مَنْ فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا ، فعرفوا أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - هو الذي فعل ذلك . فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم فقال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يحتمل أن تكون ما مصدرية فيكون تقدير الكلام : خلقكم وعملكم ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي تقديره : والله خلقكم والذي تعملونه ، وكلا القولين متلازم ، والأول أظهر لما رواه حذيفة ﷺ مرفوعًا قال : « إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته » [1] فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا : ﴿ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ فنجاه الله من النار وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا

---

(١) ذكره الألباني في الصحيحة (١٦٧٣) .

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه بعد ما نصره اللَّه تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة ، هاجر من بين أظهرهم وقال : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يعني أولادًا مطيعين عوضًا من قومه وعشيرته الذين فارقهم ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، فإنه أول ولد بشّر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ؛ بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة ، وعندهم أن اللَّه تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفي نسخة أخرى : بكْره فأقحموا ههنا كذبًا وبهتانًا إسحاق ، ولا يجوز هذا ؛ لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا إسحاق ؛ لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب ، فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وَحِيدَك بمعنى الذي ليس عندك غيره ، فإن إسماعيل كان قد ذهب به وبأمه إلى مكة ، وهو تأويل وتحريف باطل ؛ فإنه لا يقال : وحيدك إلا لمن ليس له غيره ، وأيضًا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار . وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضًا ، وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تُلُقِّيَ إلا عن أحبار أهل الكتاب ، وأُخذ ذلك مسلَّمًا من غير حجة ، وهذا كتاب اللَّه شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ؛ فإنه ذكر البشارة بغلام حليم وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ولمّا بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل ، وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير ؛ لأن اللَّه تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرًا ؟ وإسماعيل وصف ههنا بالحليم ؛ لأنه مناسب لهذا المقام .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه . ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم : « رؤيا الأنبياء في المنام وحي » [(١)] . وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه ، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة اللَّه تعالى وطاعة أبيه ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ ﴾ أي امض لما أمرك اللَّه من ذبحي ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند اللَّه عز وجل ، وصدق صلوات اللَّه وسلامه عليه فيما وعد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أي فلما تشهدا وذكرا اللَّه تعالى ، إبراهيم على الذبح والولد شهادة الموت ، وقيل : ﴿ أَسْلَمَا ﴾ يعني استسلما وانقادا ، إبراهيم امتثل أمر اللَّه تعالى ، وإسماعيل طاعةً للَّه ولأبيه ، ومعنى ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه . قال ابن عباس ومجاهد

---

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١/٢٣٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٧٦) وعزاه للطبراني في الكبير ، وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه .

والضحاك : ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أكبّه على وجهه . وقال : لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي ، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم ذهب به جبريل عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، ثم تله للجبين وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض ، فقال له : يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنني فيه فعالجه ليخلعه فنودي من خلفه ﴿ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش [١] ، وروي أن أبا هريرة وكعب اجتمعا فجعل أبو هريرة ﷺ يحدث عن النبي ﷺ فجعل كعب يحدث عن الكتب ، فقال أبو هريرة ﷺ قال النبي ﷺ : « إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني قد خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » [٢] ، فقال له كعب : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : فداك أبي وأمي - أو فداه أبي وأمي - أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؟ إنه لما أُرِيَ ذَبْحَ ابنهِ إسحاق قال الشيطان : إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبدًا ، فخرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام بابنه ليذبحه ، فذهب الشيطان فدخل على سارة فقال : أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : غدا به لبعض حاجته ، قال : فإنه لم يغد به لحاجة ، إنما ذهب به ليذبحه ، قالت : ولم يذبحه ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك ، قالت : فقد أحسن أن يطيع ربه ، فذهب الشيطان في أثرهما فقال للغلام : أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لبعض حاجته ، قال : فإنه لا يذهب بك لحاجة ولكنه يذهب بك ليذبحك ، قال : ولم يذبحني ؟ قال : يزعم أن ربه أمره بذلك ، قال : فو الله لئن كان الله تعالى أمره بذلك ليفعلن ، قال : فيئس منه فتركه ولحق بإبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال : أين غدوت بابنك ؟ قال : لحاجة ، قال : فإنك لم تغد به لحاجة وإنما غدوت به لتذبحه ، قال : ولم أذبحه ؟ قال : تزعم أن ربك أمرك بذلك ، قال : فوالله لئن كان الله تعالى أمرني بذلك لأفعلن ، قال : فتركه ويئس أن يطاع [٣] . وقوله تعالى : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح ، وذكر السدي وغيره أنه أمرَّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئًا ، بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل خلافًا لطائفة من المعتزلة . والدلالة من هذه ظاهرة ؛ لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولًا : إثابة الخليل على الصبر على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٩٧) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٢٦) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/١٠٨) وعزاه إلى عبد الرزاق في مصنفه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي .

ذبح ولده وعزمه على ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي الاختبار الواضح الجلي ؛ حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلمًا لأمر الله تعالى منقادًا لطاعته ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة ، عن ابن عباس ﵄ قال : كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا . وعن صفية بنت شيبه قالت : أخبرتني امرأة من بني سليم ولَّدت عامة أهل دارنا ، أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ﵁ ، وقالت مرة : إنها سألت عثمان لم دعاك النبي ﷺ ؟ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما ، فخمرهما ؛ فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي » (١) قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا ، وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ؛ فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفًا عن سلف وجيلًا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله ﷺ ، والله أعلم .

فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو :

ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام : قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة ﵀ قال : قال يوسف عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه : ترغب أن تأكل معي وأنا - والله - يوسف بن يعقوب ، نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله (٢) .

ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به : عن ابن عباس ﵄ أنه قال : المفدي إسماعيل ﵇ وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود ، وعن ابن عمر ﵄ قال : الذبيح إسماعيل ، وقال الشعبي : هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة . عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك ، أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل ﵇ ، قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول : إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل ، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى ، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ويقول الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ يقول : بابن وابن ابن ، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل . وذكر محمد بن كعب القرظي ذلك لعمر بن عبد العزيز ﵁ وهو خليفة فقال : إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديًا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم ، فسأله عمر بن عبد العزيز ﵁ عن ذلك ، قال محمد بن كعب : وأنا عند عمر بن عبد العزيز ، فقال له عمر : أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن يهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكونَ أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبرهِ لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق ؛ لأن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٤) .

(٢) ذكرت روايات عديدة أن الذبيح هو إسحاق ﵇ ، ولكن جميع هذه الأقوال لا يرقى إلى درجة الحديث الصحيح ، وكلها مأخوذة عن كعب الأحبار ؛ لذا آثرنا عدم ذكرها نظرًا لما فيها من الإسرائيليات .

إسحاق أبوهم ، والله أعلم أيهما كان ، وكل قد كان طاهرًا طيبًا مطيعًا لله ﷻ .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال : إسماعيل وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ وأجاب عن البشارة بيعقوب ؛ بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ، ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضًا قال : وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة ؛ فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان ، قال : وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك ، هذا ما اعتمد عليه في تفسيره ، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم ، بل هو بعيد جدًا ، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه اسماعيل أثبت وأصح وأقوى ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق . وعن ابن عباس ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ قال : بشر به حين ولد وحين نبئ ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ كقوله تعالى ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه ، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النساء ، واستعمالهم في أخس الأشياء - ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقر أعينهم منهم فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم ، ثم أنزل الله ﷻ على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين وهو التوراة كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً ﴾ وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي في الأقوال والأفعال ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أي أبقينا لها من بعدهما ذكرًا جميلًا وثناء حسنًا ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقال : إلياس هو إدريس ، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إلياس هو إدريس ، ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون الله ﷻ في عبادتكم غيره ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي : بعلًا يعني ربًا . وهي لغة أهل اليمن ، وقال ابن

إسحاق : أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل . وقال زيد بن أسلم : هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها : بعلبكّ غربي دمشق ، وقوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي أتعبدون صنمًا ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، قال اللّه تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي للعذاب يوم الحساب ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الموحدين منهم وهذا استثناء منقطع من مثبت . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي ثناء جميلًا ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ كما يقال في إسماعيل إسماعين وهي لغة بني أسد .

وقرأ آخرون ﴿ سلام على إدراسين ﴾ وهي قراءة ابن مسعود ﷺ ، وقرأ آخرون ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ [(١)] يعني آل محمد ﷺ .

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۝ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۝ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه فنجاه اللّه تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها ؛ فإن اللّه تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارًا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تعتبرون بهم كيف دمر اللّه عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها .

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ونسبه إلى أمه [(٢)] . وفي رواية « إلى أبيه » وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الموقر أي المملوء بالأمتعة ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أي قارع ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أي المغلوبين ؛ وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الغرق ، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر لتخف بهم السفينة ، فوقعت القرعة على نبي اللّه يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات ، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر اللّه تعالى حوتًا من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام ، فلا يهشم له لحمًا ولايكسر له عظمًا ، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه ، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها . ولما استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات ، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي ، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت فقيل : ثلاثة أيام ، وقيل : سبعة ، وقيل : أربعين يوما ، واللّه تعالى أعلم بمقدار ذلك .

---

(١) قرأ نافع وابن عامر ﴿ سلامٌ على آلِ ياسين ﴾ بفتح الألف وكسر اللام ، وقرأ الباقون ﴿ الياسين ﴾ بكسر الألف ساكنة اللام (انظر : حجة القراءات ص ٦١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٣) وأبو داود في السنن (٤٦٦٩) وأحمد في مسنده (٢/٤٠٥) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قيل : لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء ، واختاره ابن جرير وفي حديث ابن عباس « تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » [(١)] . وقيل : المراد ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ هو قوله ﷻ ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

عن أنس بن مالك ﷺ - ولا أعلم أنسًا إلا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ : إن يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت ، فقال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش ، قالت الملائكة : يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة ، فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال ﷻ : عبدي يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ، قالوا : يا رب أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء ، قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه بالعراء » [(٢)] .

قال تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ ﴾ أي ألقيناه ﴿ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ قال ابن عباس ﷺ وغيره : وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء ، قيل : على جانب دجلة وقيل : بأرض اليمن فالله أعلم ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي ضعيف البدن ، ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس ﷺ وغيرهما : اليقطين هو القرع . وقال سعيد بن جبير : كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين ، وفي رواية عنه : كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين ، وذكر بعضهم في القرع فوائد منها : سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وأنه يؤكل نيئًا ومطبوخاً بلبه وقشره أيضًا ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء ويتتبعه من نواحي الصحفة [(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ عن ابن عباس ﷺ أنه قال : إنما كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعدها نبذه الحوت عن مجاهد : أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت . (قلت) ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولًا أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت فصدقوه كلهم وآمنوا به ، وحكى البغوي : أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال ابن عباس ﷺ : بل يزيدون .

وقال مكحول : كانوا مائة ألف وعشرة آلاف . عن أبي بن كعب ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال : « يزيدون عشرين ألفًا ؟ » [(٤)] قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك : معناه إلى المائة الألف أو كانوا يزيدون عندكم ، يقول : كذلك كانوا عندكم . وقوله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنُوا۟ ﴾ أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس ﵇ جميعهم ﴿ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى وقت آجالهم ، كقوله جلت عظمته : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٠/١) .
(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٥٥٧٦) والسيوطي في الدر المنثور (٣٣٤/٤) والطبري في تفسيره (٦٤/٢٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٣٣) ومسلم في الأطعمة (٢١) والدارمي في الأطعمة (١٩) .
(٤) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٢٩) .

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات - سبحانه - ولهم ما يشتهون أي من الذكور ، أي يودون لأنفسهم الجيد ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي يسوؤه ذلك ولا يختار لنفسه إلا البنين ، يقول ﷻ فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ كقوله جل وعلا : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ أي يسألون عن ذلك يوم القيامة . وقوله جلت عظمته ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ أي من كذبهم ﴿ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ أي صدر منه الولد ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب ، فأولًا : جعلوهم بنات الله فجعلوا لله ولدًا تعالى وتقدس ، وجعلوا ذلك الولد أنثى ، ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس . وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم . ثم قال تعالى منكرًا عليهم ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ أي أيُّ شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين كقوله ﷻ : ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي مالكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ أي حجة على ما تقولونه ، ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي هاتوا برهانًا على ذلك يكون مستندًا إلى كتاب منزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه ، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يجوزه العقل بالكلية . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ ﴾ قال مجاهد : قال المشركون : الملائكة بنات الله تعالى ، فقال أبو بكر ؓ : فمن أمهاتهن ، قالوا : بنات سروات الجن [1] ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ ﴾ أي الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافترائهم وقولهم الباطل بلا علم ، وقوله جلت عظمته : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوًّا كبيرًا . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع وهو من مثبت إلا أن يكون الضمير في قوله تعالى : ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عائد إلى الناس جميعهم ، ثم استثنى منهم المخلصين ، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل .

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا المشركين : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٢٩/٢٣) .

أي إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذرئ للنار فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل ، ثم قال تبارك وتعالى منزهًا للملائكة مما نسبوا اليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أي له موضع مخصوص في السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه فعن العلاء بن سعد - وكان ممن بايع يوم الفتح - أن رسول الله ﷺ قال يومًا لجلسائها : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد » ثم ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ أي نقف صفوفًا في الطاعة ، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال : كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ فصفوا : وقال أبو نضرة : كان عمر ﷺ إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استووا قيامًا ، يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة ثم يقول : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم يتقدم فيكبر (٢) . وعن حذيفة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجدًا ، وتربتها طهورًا » (٣) ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ أي نصطف ، فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه . وقال ابن عباس ﷺ ومجاهد : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ الملائكة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ الملائكة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ الملائكة تسبح الله ﷻ . وقوله جل وعلا : ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۝ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله وما كان من أمر القرون الأولى ويأتيهم بكتاب الله كما قال ﷻ : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم ﷻ وتكذيبهم رسوله ﷺ .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ولهذا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٥) ، والترمذي في الزهد (٢٣١٢) وابن ماجه في السنن (٤٩٠) والأطيط : صوت الأقتاب ؛ أي أن كثرة الملائكة في السماء قد أثقلها حتى أطت ، وهذا كناية عن كثرة الملائكة ، أريد بها تقرير عظمة الله تعالى .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٣٥/٧) ، وعزاه لمحمد بن نصر المروزي وابن جرير وابن جرير وابن مردويه وابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في السنن (٢١٣/١) ، وابن خزيمة في صحيحه (٢٦٤) .

قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم ، كيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ أي تكون لهم العاقبة . وقوله جل وعلا : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي اصبر على أذاهم لك ، وانتظر إلى وقت مؤجل فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر ، ولهذا قال بعضهم : نسأ ذلك إلى يوم بدر وما بعدها أيضًا في معناها ، وقوله جلت عظمته : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ثم قال ﷻ : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك ؛ فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويعجل لهم العقوبة ، ومع هذا أيضًا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم ، عن أنس ﷺ قال : صبح رسول ﷺ خيبر ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون : محمد والله ، محمد والخميس ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك .

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدسها ويبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون ، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علوًّا كبيرًا ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة ؛ لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال ، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع ؛ وفي مواضع كثيرة من القرآن ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، عن قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سلَّمتُم عليَّ فسلِّموا على المرسَلِين ؛ فإنما أنا رَسُولٌ من المرسَلِين » (٢) .

عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال دبر كل صلاة : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثلاث مرات ؛ فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر » (٣) وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : سبحانك اللَّهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (٩٤٧) ومسلم في الجهاد والسير (١٢٠) والنسائي في السنن (١٣٢/٦) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣٩/٢٣) ، والسيوطي في الدر المنثور (١٤٠/٧) ، وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منذر .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٩٢٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٥٤/٢) والهيثمي (١٠٢/١٠) .
(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٥٨) والنسائي في السنن (٢٢٣/٢) .

سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ أي والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد ، قال الضحاك في قوله تعالى : ﴿ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ أي تذكيرهم ، وقال ابن عباس وغيره : ذي الشرف أي ذي الشأن والمكانة ، ولا منافاة بين القولين ؛ فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار ، واختلفوا في جواب هذا القسم فقال بعضهم : هو قوله تعالى : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ وقيل : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ وهذا الثاني فيه بعد كبير وضعفه ابن جرير ، وقال قتادة : جوابه ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ أي إن في هذا القرآن لذكرى لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر ، وإنما لم ينتفع به الكافرون ؛ لأنهم ﴿ فِى عِزَّةٍ ﴾ أي استكبار عنه وحمية ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أي ومخالفة له ومعاندة ومفارقة ، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء ، فقال تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي من أمة مكذبة ﴿ فَنَادَوا۟ ﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئًا كما قال ﷻ : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي يهربون ﴿ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ . قال : ليس بحين نداء ولا نزو ولا فرار .

وقال محمد بن كعب في قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ يقول : نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم ، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم ، وقال قتادة : لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء ، وقال مجاهد ﴿ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة وقد روي نحو هذا عن عكرمة وسعيد بن جبير ، وهذه الكلمة وهي لات : هي لا التي للنفي زيدت معها التاء كما تزاد في ثم فيقولون : ثمت ، ورب فيقولون : ربت وهي مفصولة والوقف عليها ، ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين ولا تحين مناص والمشهور الأول ، ثم قرأ الجمهور بنصب حين تقديره ، وليس الحين حين مناص ، ومنهم من جوز النصب بها ، وأنشد :

تذكر حب ليلى لات حينًا ... وأضحى الشيب قد قطع القرينا [(١)]

ومنهم من جوز الجر بها وأنشد :

ولات ساعة مندم [(٢)]

---

(١) البيت لعمرو بن شاس (انظر : معاني القرآن للفراء ص : ٢٧٦ ، وهمع الهوامع ١/١٢٦) .

(٢) هو جزء من بيت للمهلهل بن مالك الكناني ، وقيل : لمحمد بن عيسى بن طلحة (انظر : خزانة الأدب ٤/١٧٥ ، وشرح شذور الذهب ص : ٢٦٠) .

بخفض الساعة ، وأهل اللغة يقولون : النوص التأخر والبوص التقدم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي ليس الحين حين فرار ولا ذهاب .

﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيرًا ونذيرًا : ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي بشر مثلهم ، ﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أي أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى ، وتعجبوا من ترك الشرك بالله ؛ فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين ﴿ أَنِ ٱمْشُوا۟ ﴾ أي استمروا على دينكم ﴿ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ قال ابن جرير : إن هذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه .

ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات : قال السدي : إن ناسًا من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذي يعبده ؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء ، فتعيرنا به العرب يقولون : تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه ؟ فبعثوا رجلًا منهم يقال له : المطلب ، فاستأذن لهم على أبي طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك ، قال : أدخلهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه ، قال : فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ، ويدعوك وإلهك قال ﷺ : « ياعم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ » ، قال : وإلام تدعوهم ؟ قال ﷺ : « أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم : ما هي وأبيك لنعطينكها وعشرًا أمثالها ، قال ﷺ : « تقولون لا إله إلا الله » فنفروا وقالوا : سلنا غيرها : قال ﷺ : « لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها » فقاموا من عنده غضابًا وقالوا : والله لنشتمنك ، وإلهك الذي أمرك بهذا ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قول لا إله إلا الله فأبى وقال : بل على دين الأشياخ ونزلت ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [1] .

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٣٢) وأحمد في مسنده (٣٦٢/١) كلاهما بنحوه ، والطبري في تفسيره (١٥٢/٢٣) بلفظه .

وقولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة .

قال مجاهد وقتادة وأبو زيد : يعنون دين قريش ، وقال ابن عباس ﷺ : ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة يعني النصرانية قالوا : لو كان هذا القرآن حقًّا لأخبرتنا به النصارى ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ قال مجاهد وقتادة : كذب وقال ابن عباس : تخرص . وقولهم : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم ، ولهذا لما قالوا هذا الذي دلّ على جهلهم وقلة عقلهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم . قال الله تعالى : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أي إنما يقولون هذا ؛ لأنهم ماذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله تعالى ونقمته ، سيعلمون غب ماقالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نارجهنم دعًا . ثم قال تعالى مبينًا أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ما يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ، ويختم على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئًا من الأمر ، وليس إليهم من التصرف في الملك ولامثقال ذرة وما يملكون من قطمير . ولهذا قال تعالى منكرًا عليهم ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ أي العزيز الذي لا يرام جنابه الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب . قال ابن عباس ﷺ ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم : يعني طرق السماء ، وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة .

ثم قال ﷻ : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أي هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أي كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالًا وأولادًا ، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : أي ليس لها مثنوية ، أي ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ، أي فقد اقتربت ودنت وأزفت ، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع ، إلا من استثنى الله ﷻ . وقوله ﷻ : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ هذا

إنكار من اللّٰه تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب ؛ فإن القط هو الكتاب ، وقيل : هو الحظ والنصيب . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وغير واحد : سألوا تعجيل العذاب ، وقيل : سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة إن كانت موجودة ليلقوا ذاك في الدنيا وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب . وقال ابن جرير : سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخيرأو الشر في الدنيا ، وهذا الذي قاله جيد . ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد . قال اللّٰه تعالى لرسوله ﷺ آمرًا له بالصبر على أذاهم ومبشرًا له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر .

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد ، والأيد القوة في العلم والعمل . وقال قتادة : أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقهًا في الإسلام ، وقد ذكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر ، وهذا ثابت عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال : « أحب الصلاة إلى اللّٰه تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى اللّٰه ﷻ صيام داود ؛ كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا ، ولا يفر إذا لاقى ، وأنه كان أوابًا » [1] وهو الرجاع إلى اللّٰه ﷻ في جميع أموره وشؤونه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ أي أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال ﷻ : ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور ، لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعًا له . وعن عبد اللّٰه بن الحارث بن نوفل أن ابن عباس رضي الله عنهما كان لا يصلي الضحى ، قال : فأدخلته على أم هانئ رضي الله عنها فقلت : أخبري هذا ما أخبرتني ، فقالت : دخل علي رسول اللّٰه ﷺ يوم الفتح في بيتي ، ثم أمر بماء صب في قصعة ، ثم أمر بثوب فأخذ بيني وبينه فاغتسل ، ثم رش ناحية البيت فصلى ثمان ركعات وذلك من الضحى قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء ، قريب بعضهن من بعض ، فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول : لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن ﴿ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ وكنت أقول : أين صلاة الإشراق وكان بعد يقول : صلاة الإشراق [2] . ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي مطيع يسبح تبعًا له .

وقوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ أي جعلنا له ملكًا كاملًا من جميع ما يحتاج إليه الملوك وقوله ﷻ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ قال مجاهد : يعني الفهم والعقل والفطنة ، وقال مرة : الحكمة والعدل ، وقال مرة : الصواب ، وقوله ﷻ : ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ قال شريح القاضي والشعبي : فصل الخطاب الشهود والأيمان وقال قتادة : شاهدان على المدعي أو يمين المدعى عليه هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩) والنسائي في السنن (٢١٤/٣) وابن ماجه في السنن (١٧١٢) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٣/٤) وقال : صحيح على شرط الشيخين .

والرسل ، أو قال : المؤمنون والصالحون ، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد أيضًا : هو الفصل في الكلام وفي الحكم وهذا يشمل هذا كله وهو المراد واختاره ابن جرير ، وعن أبي موسى ﷺ قال : أول من قال : أما بعد داودُ عليه السلام ، وهو فصل الخطاب (١) .

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه ، وهو أشرف مكان في داره وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب ، أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما . وقوله ﷻ : ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ أي غلبني . وقوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي اختبرناه . وقوله تعالى ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أي ساجدًا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ويحتمل أنه ركع أولًا ثم سجد بعد ذلك ، ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما كان منه مما يقال : فيه إن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وقد اختلف الأئمة في سجدة ﴿ صٓ ﴾ هل هي من عزائم السجود؟ على قولين : الجديد من مذهب الشافعي ﷺ أنها ليست من عزائم السجود بل هي سجدة شكر ، والدليل على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : السجدة في ﴿ صٓ ﴾ ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها (٢) . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن النبي ﷺ سجد في ﴿ صٓ ﴾ وقال : « سجدها داود علية الصلاة والسلام توبة ، ونسجدها شكرا » (٣) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت ، فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتها تقول وهي ساجدة : اللّهم اكتب لي بها عندك أجرًا ، واجعلها لي عندك ذخرًا ، وضع بها عني وزرًا ، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس رضي الله عنهما : فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد ، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة (٤) . عن العوام قال : سألت مجاهدًا عن سجدة ﴿ صٓ ﴾ فقال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما : من أين سجدت ؟ فقال : أو ما تقرأ ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ ، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله ﷺ (٥)

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٢/١٦٧) .

(٢) أخرجه البخاري في سجود القرآن (١٠٦٩) والترمذي في الصلاة (٥٧٧) وأبو داود في الصلاة (١٤٠٩) . وقال الحافظ في الفتح (٢/٤٥٦) والمراد بالعزائم ما وردت العزيمة على فعله كصيغة الأمر مثلًا .

(٣) أخرجه النسائي في السنن (٢/١٥٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة (٥٧٩) والحاكم في المستدرك (١/٢١٩) وابن خزيمة في صحيحه (٥٦٢) .

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢١) .

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ﴿ صٓ ﴾ ، فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود فقال ﷺ : « إنما هي توبة نبي ، ولكني رأيتكم تشرفتم » فنزل وسجد [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله ﷻ بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ؛ الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا » [٢] وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا : إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا إمام جائر » [٣] .

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . وعن أبي زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة ؟ فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ، فقلت : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان الله ، قلت : يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ، ثم توعده في كتابه فقال تعالى : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وقال عكرمة ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ هذا من المقدم والمؤخر ، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا ، وقال السدي : لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب وهذا القول أمشى على ظاهر الآية والله ﷻ الموفق للصواب .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثًا وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر ؛ ولذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي الذين لا يرون بعثًا ولا معادًا وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم ، ثم بين تعالى أنه ﷻ من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٤١٠) وابن ماجه في السنن (١٩٩٨) والحاكم في المستدرك (٢٨٤/١) وابن خزيمة في صحيحه (١٤٥٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) ومسلم في الإمارة (١٨) والنسائي في السنن (٢٢١/٨) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٢٩) وأحمد في مسنده ٢٢/٣ ، والبيهقي في السنن (٨٨/١٠) .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ أي لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر ، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء ، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلابد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فتعين أن هناك دارًا أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي ذوو العقول ، قال الحسن البصري : والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى أن أحدهم ليقول : قرأت القرآن كله مايرى له القرآن في خلق ولا عمل ؟ .

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا أنه وهب لداود سليمان أي نبيًّا كما قال ﷻ : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ ﴾ ، أي في النبوة . وقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ أي إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات ، قال مجاهد : وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، والجياد السراع وكذا قال غير واحد من السلف . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر ، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة رضي الله عنها ، لعب ، فقال ﷺ : « ما هذا يا عائشة ؟ » قالت رضي الله عنها : بناتي ، ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رقاع فقال ﷺ : « ما هذا الذي أرى وسطهن ؟ » قالت رضي الله عنها : فرس ، قال رسول الله ﷺ : « ما هذا الذي عليه ؟ » قالت رضي الله عنها : جناحان . قال رسول الله ﷺ : « فرس له جناحان ؟ » قالت رضي الله عنها : أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحة ؟ قالت رضي الله عنها : فضحك ﷺ حتى رأيت نواجذه (١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمدًا بل نسيانًا كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، عن جابر رضي الله عنه قال : جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعدما غربت الشمس ، فجعل يسب كفار قريش ويقول : يا رسول الله والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ، فقال رسول الله ﷺ : « والله ما صليتها » فقال : فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب (٢) ويحتمل أنه كان سائغًا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٣٢) « وسهوتها » البيت الصغير المنحدر قليلًا في الأرض .

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت (٥٩٦) والترمذي في السنن (١٨٠) وبطحان : واد بالمدينة وهو أحد أوديتها الثلاث وهي : العقيق ، وبطحان ، وقناة .

والقتال ، والخيل تراد للقتال وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعًا فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة حيث لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تستر [١] والأول أقرب ؛ لأنه قال بعده ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ ، قال الحسن البصري : لا ، قال : والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ماعليك ، ثم أمر بها فعقرت ، وقال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها ، وهذا القول اختاره ابن جرير قال : لأنه لم يكن ليعذب حيوانًا بالعرقبة ويهلك مالًا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها ، وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ولا سيما إذا كان غضبًا لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر ، فهذا أسرع وخير من الخيل ، عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت - قالا : أتينا على رجل من أهل البادية فقال لنا البدوي : أخذ بيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل وقال : « إنك لا تدع شيئًا اتقاء الله تعالى إلا أعطاك الله عز وجل خيرًا منه » [٢] .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ ، أي اختبرناه بأن سلبناه الملك ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم : يعني شيطانًا ﴿ أَنَابَ ﴾ أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته . ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ ، قال بعضهم : لا ينبغي لأحد من بعدي ، أي لا يصلح لأحد أن يسلبنيه بعدى ، كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه لا أنه يحجر على من بعده من الناس ، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكًا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله وهذا هو ظاهر السياق من الآية وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن عفريتًا من الجن تفلت عليّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة فأمكنني اللة تبارك وتعالى منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ ، قال روح : فرده خاسئًا [٣] . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ثم قال : « ألعنك بلعنة الله » ثلاثًا وبسط يده كأنه يتناول

(١) « تستر » أعظم مدن خوزستان قديمًا من بلاد فارس (انظر : معجم البلدان ٢/٢٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٧٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٦١) وأحمد في مسنده (٢/٢٩٨) وأبو عوانة في مسنده (٢/١٤٤) .

شيئًا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول اللَّه سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك قال ﷺ : « إن عدو اللَّه إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي ، فقلت : أعوذ باللَّه منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة اللَّه التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت أن آخذه ، واللَّه لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به صبيان أهل المدينة »[١] . وعن ربيعة بن يزيد بن عبد اللَّه الديلمي قال : دخلت على عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط له بالطائف يقال له : الوهط وهو محاصرٌ فتى من قريش يزني ويشرب الخمر ، فقلت : بلغني عنك حديث أنه من شرب شربة من الخمر لم يقبل اللَّه عز وجل له توبة أربعين صباحًا ، وأن الشقي من شقي في بطن أمه ، وأنه من أتى بيت المقدس لا تنهزه إلا الصلاة فيه ، خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه ، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ثم انطلق ، فقال عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما : إني لا أحل لأحد أن يقول عليَّ ما لم أقل ، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « من شرب من الخمر شربة لا تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب اللَّه عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب اللَّه عليه » قال : فلا أدري في الثالثة أو الرابعة قال : « فإن عاد كان حقًا على اللَّه تعالى أن يسقيه من طينة الخبال يوم القيامة » قال : وسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إن اللَّه عز وجل خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل ؛ فلذلك أقول : جف القلم على علم اللَّه عز وجل »[٢] وسمعت رسول اللَّه يقول : « إن سليمان عليه السلام سأل اللَّه تعالى ثلاثًا فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة ، سأله حكمًا يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون اللَّه عز وجل قد أعطانا إياها »[٣] .

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : ما سمعت رسول اللَّه ﷺ دعا إلا استفتحه : « سبحان اللَّه ربي العلي الأعلى الوهاب »[٤] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ قال الحسن البصري رحمه الله : لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضبًا للَّه عز وجل عوضه اللَّه تعالى ما هو خير منها وأسرع ، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر .

وقوله جل وعلا : ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث أراد من البلاد . وقوله جل جلاله : ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ أي موثقون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى .

وقوله عز وجل : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أي مهما فعلت فهو جائز

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٣/٣) ومسلم في المساجد (٤٠) والبيهقي في السنن (٢٦٤/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٢ ، ١٩٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٢) والنسائي في السنن (٤٣/٢) وابن ماجه في السنن (١٤٠٨) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٤) .

لك ، احكم بما شئت فهو صواب . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خُير بين أن يكون عبدًا رسولًا - وهو الذي يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبيًا ملكًا يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقال له : تواضع فاختار المنزلة الأولى ؛ لأنها أرفع قدرًا عند الله ﷻ وأعلى منزلة في المعاد ، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضًا في الدنيا والأخرة ، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضًا فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أي في الدار الآخرة .

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ .

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق في جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه ، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هوفيه غيرأن زوجته حفظت وده ؛ لإيمانها بالله تعالى ورسوله ؛ فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحوًا من ثماني عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة في الدنيا ، فسلب جميع ذلك ، عن أنس بن مالك ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام : لا أدري ما تقول غير أن الله ﷻ يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق ، قال : وكان يخرج إلى حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ثم فاستبطأته فالتفتت تنظر فأقبل عليها وقد أذهب الله مابه من البلاء وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ، فوالله القدير على ذلك مارأيت رجلًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا ، قال : فإني أنا هو ، قال : وكان له أندران [١] أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله تعالى سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض [٢] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه فناداه ربه ﷻ : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال عليه الصلاة والسلام : بلى يارب ولكن لا غنى بي عن بركتك » [٣] ، ولهذا قال

---

(١) الأندر : البيدر من القمح خاصة . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣/١٩٩) .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩١) وأحمد في مسنده (٢/٣١٤) والبيهقي في السنن (١/١٩٨) .

تبارك وتعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ قال الحسن وقتادة : أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم .

وقوله ﷻ : ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة . وقوله جلت عظمته : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة ، فلما شفاه الله عز وجلِ وعافاه ماكان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب ، فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضغثا وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي رجاع منيب .

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى ﴾ أولي القوة ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يقول : الفقه في الدين . وقال مجاهد : ﴿ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى ﴾ يعني القوة في طاعة الله تعالى ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يعني البصر في الحق .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ قال مجاهد : أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم همٌّ غيرها . وقال مالك بن دينار : نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ أي لمن المختارين المجتبين الأخيار فهم أخيار مختارون .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته ههنا .

وقوله ﷻ : ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر ، قال السدي : يعني القرآن العظيم .

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب وهو المرجع والمنقلب ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ أي جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب أي إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة قصرًا يقال له : عدن حوله البروج والمروج ، له خمسة آلاف باب عند كل باب ، خمسة آلاف حبرة ، لا يدخله - أو لا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل »[1] .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٧/٤) .

وقوله ﷻ : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ قيل : متربعين على سرر تحت الحجال ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا وأحضر كما أرادوا ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أي من أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي عن غير أزواجهن ، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي متساويات في السن والعمر ، هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة هي التي وعدها لعباده المتقين التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار . ثم أخبرتبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ .

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ .

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال ﷻ : ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ ﴾ ، وهم الخارجون عن طاعة الله ﷻ المخالفون لرسول الله ﷺ ﴿ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ أي لسوء منقلب ومرجع . ثم فسره بقوله جل وعلا : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أما الحميم : فهو الحار الذي قد انتهى حره ، وأما الغساق : فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم .

ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ أي وأشياء من هذا القبيل : الشيء وضده يعاقبون بها . عن أبي سعيد ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن دلوًا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا »(١) . وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ ألوان من العذاب ، وقال غيره : كالزمهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوي إلى غيرذلك من الأشياء المختلفة المتضادة والجميع مما يعذبون به ، ويهانون بسببه .

وقوله ﷻ : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون . ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض ، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ ﴾ أي داخل ﴿ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم ﴿ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ﴾ أي فيقول لهم الداخلون ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ أي فبئس المنزل والمستقر والمصير ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ أي لكل منكم عذاب بحسبه ﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ . هذا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٣) والترمذي في السنن (٢٥٨٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٨/٤) .

إخبار عن الكفار في النار أنهم يفتقدون رجالًا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون في زعمهم ، قالوا : مالنا لا نراهم معنا في النار ؟ قال مجاهد : هذا قول أبي جهل يقول : مالي لا أرى بلالا وعمارًا وصهيبًا وفلانا وفلانا ، وهذا ضرب مثل ، وإلا فكل الكفار هذا حالهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار ، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم ، فقالوا : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ يسلُّون أنفسهم بالمحال ، يقولون : أو لعلهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم ، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يامحمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله : إنما أنا منذر ولست كما تزعمون ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ أي غفار مع عظمته وعزته ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴾ أي خبرعظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أي غافلون ، قال مجاهد وشريح القاضي والسدي في قوله ﷻ : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴾ يعني القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه . فأما الحديث الذي رواه معاذ ﷺ قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس ، فخرج ﷺ فثوب بالصلاة ، فصلى وتجوز في صلاته ، فلما سلم قال ﷺ : « كما أنتم » ثم أقبل إلينا فقال : « إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي ﷻ في أحسن صورة ، فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ، قلت : لا أدري يارب - أعادها ثلاثًا - فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري ، فتجلى لي كل شيء وعرفت فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام في الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سل ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك - وقال رسول الله عليه ﷺ : « إنها حق فادرسوها وتعلموها » [1] فهو حديث المنام المشهور ، ومن جعله يقظة فقد غلط .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٣/٥) والترمذي في السنن (٣٢٣٥) والألباني في إرواء الغليل (١٤٨/٣) .

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

هذه القصة ذكرها اللَّه تبارك وتعالى في سورة البقرة وهي أن اللَّه ﷻ أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشرًا من صلصال من حمأٍ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكرامًا وإعظاما واحترامًا وامتثالًا لأمر اللَّه ﷻ فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنسًا . كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ماكان إليه فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه ﷻ فيه وادعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين ، والنار خير من الطين في زعمه ، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر اللَّه تعالى وكفر بذلك فأبعده اللَّه ﷻ وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه إبليس إعلامًا له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذمومًا مدحورًا إلى الأرض ، فسأل اللَّه النظرة إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذي لايعجل على من عصاه . فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأول وفسره مجاهد بأن معناه : أنا الحق والحق أقول ، وفي رواية عنه : الحق مني وأقول الحق ، وقرأ آخرون بنصبهما ، قال السدي هو قسم أقسم اللَّه به [(١)] (قلت) وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرًا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أي وما أريد على ما أرسلني اللَّه تعالى به ولا أبتغي زيادة عليه ؛ بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغي بذلك وجه اللَّه ﷻ والدار الآخرة ، قال مسروق : أتينا عبد اللَّه بن مسعود ﷺ فقال : يا أيها الناس من علم شيئًا فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : اللَّه أعلم ؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : اللَّه أعلم ؟ فإن اللَّه ﷻ قال لنبيكم ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [(٢)] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين به من الإنس والجن ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ ﴾ أي خبره وصدقه ﴿ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ أي عن قريب ، قال قتادة : بعد الموت ، وقال عكرمة : يعني يوم القيامة ؟ ولا منافاة بين القولين ؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة .

---

(١) قرأ عاصم وحمزة ﴿ قال فالحقُّ ﴾ بالضم ﴿ والحقَّ ﴾ بالنصب وقرأ الباقون بالنصب فيهما . انظر حجة القراءات ص ٦١٨ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٩) .

سورة الزمر

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك كما قال ﷻ : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وقال جل وعلا هاهنا ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أي المنيع الجناب ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ أي فاعبد الله وحده لاشريك له وادع الخلق إلى ذلك ، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له .

ثم أخبر ﷻ عن عبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلًا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا ، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به . قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد : ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ؛ ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك . وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وإن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به ؛ بل أبغضه ونهى عنه وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزي كل عامل بعمله ، وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي لا يرشد

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٥٠/٤) وأحمد في مسنده (٦٨/٦٥) والحاكم في المستدرك (٤٣٢/٢) .

إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه ، ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى ؛ فقال تبارك وتعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ؛ بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه .

وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أي تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت ، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء ، وبأنه مالك الملك المتصرف فيه يقلب ليله ونهاره ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين لايفتران كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا . وقوله ﷻ : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، أي إلى مدة معلومة عند الله تعالى ؛ ثم ينقضي يوم القيامة ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ ، أي مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثمَّ تاب وأناب إليه .

وقوله جلت عظمته ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ، أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة وهو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهي حواء عليها السلام ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أي خلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهي المذكورة في سورة الأنعام ، ثمانية أزواج : من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين . وقوله ﷻ : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ أي قدركم في بطون أمهاتكم ﴿ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ ، يكون أحدكم أولًا نطفة ثم يكون علقة ثم يكون مضغة ثم يخلق فيكون لحمًا وعظمًا وعصبًا وعروقًا وينفخ فيه الروح فيصير خلقًا آخر ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

وقوله جل وعلا : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ يعني في ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن . وقوله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم ، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أي فكيف تعبدون معه غيره ؟ وأين يذهب بعقولكم ؟ .

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ

مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن نفسه : أنه الغني عما سواه من المخلوقات كما قال موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ وفي صحيح مسلم : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئًا » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ أي لا يحبه ولا يأمر به ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أي يحبه لكم ويزدكم من فضله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئًا بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية .

وقوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع كما قال ﷻ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ أي في حال العافية يشرك بالله ويجعل له أندادًا ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ أي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه تمتع بكفرك قليلًا وهو تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

يقول ﷻ : أمَّنْ هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادًا ، لا يستوون عند الله كما قال تعالى : ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ وقال تبارك وتعالى ههنا ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ أي في حال سجوده وفي حال قيامه ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة ، ليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون . وعن ابن مسعود ﷺ أنه قال : القانت المطيع لله ﷻ ولرسوله ﷺ . وقال ابن عباس ﷺ والحسن والسدي : ﴿ آناء الليل ﴾ جوف الليل . وقوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ أي في حال عبادته خائف راج ، ولابد في العبادة من هذا وهذا ، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه . وعن أنس ﷺ قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له : « كيف تجدك ؟ » فقال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ﷻ الذي يرجو وأمنه الذي يخافه » (٢) . وسمع ابن

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٩٨٣) وابن ماجه في السنن (٤٢٦١) .

عمر رضي الله عنهما يقرأ ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ قال ابن عمر : ذاك عثمان بن عفان رضي الله عنه وإنما قال ابن عمر رضي الله عنهما ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالليل وقراءته حتى أنه ربما قرأ القرآن في ركعة ، وعن تميم الداري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ بمائة آية في ليلة ؛ كتب له قنوت ليلة [1] » . قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل أندادًا ليضل عن سبيله ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل ، والله أعلم .

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم ، وقوله ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ قال مجاهد : فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان ، وقال عطاء في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ : إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا ثم قرأ ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال الأوزاعي : ليس يوزن لهم ولا يكال لهم إنما يغرف لهم غرفًا ، وقال ابن جريج : بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط ، ولكن يزادون على ذلك . وقوله ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قال السدي : يعني من أمته ﷺ .

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ .

يقول تعالى : قل يامحمد وأنت رسول الله ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة ، وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ وهذا أيضًا تهديد وتبرؤ منهم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي إنما الخاسرون كل الخسران ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم أبدًا وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح ثم وصف حالهم في النار فقال : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ كما قال عز وجل : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وقوله جل جلاله : ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ أي إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمآثم . وقوله تعالى : ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٣/٤) .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم ، والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرى ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم قال ﷻ : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أي يفهمونه ويعملون بما فيه ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ۝ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ .

يقول تعالى : أفمن كتب الله أنه شقي ، أتقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أي لايهديه أحد من بعد الله ؛ لأنه من يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهده فلا مضل له . ثم أخبر ﷻ عن عباده السعداء أن لهم غرفًا في الجنة وهي القصور أي الشاهقة ﴿ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات . عن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لغرفًا يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها » فقال أعرابي : لمن هي يارسول الله ؟ قال ﷺ : « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام »[1] .

عن أبي المدله مولى أم المؤمنين رضي الله عنها أنه سمع أبا هريرة ﷺ يقول : قلنا : يا رسول الله إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد ، قال ﷺ : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا ، لجاء الله ﷻ بقوم يذنبون كي يغفر لهم » قلنا : يارسول الله حدثنا عن الجنة وما بناؤها ؟ قال ﷺ : « لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السموات ويقول الرب تبارك وتعالى : وعزتي لأنصرنك ، ولو بعد حين»[2] ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما يشاءوا وأين أرادوا ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ أي هذا الذي ذكرناه وعده الله عباده المؤمنين ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال ﷻ : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيونا ما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٥٥) والترمذي في السنن (٢٥٢٧) والحاكم في المستدرك (١/٨٠) والبيهقي في السنن (٤/٣٠١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٠٥) والترمذي في السنن (٢٥٢٦) والطبراني في الكبير (٤/١٣) والألباني في الصحيحة (٩٦٩) .

بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعًا مختلفًا ألوانه أي أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفرًا قد خالطه اليبس ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ﴾ أي ثم يعود يابسًا يتحطم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ، ثم تعود عجوزًا شوهاء ، والشاب يعود شيخًا هرمًا كبيرًا ضعيفًا وبعد ذلك كله الموت ، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيرًا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء وينبت به زروعًا وثمارًا ثم يكون بعد ذلك حطامًا كما قال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ ﴾ أي هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

هذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم . قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : القرآن يشبه بعضه بعضًا ويرد بعضه على بعض ، وقال بعض العلماء : معنى قوله تعالى : ﴿ مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذا من المتشابه ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا ، فهذا من المثاني كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ وكقوله عز وجل : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ - إلى أن قال - كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ - إلى أن قال - هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني أي في معنيين اثنين ، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضًا ؛ فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ ﴾ ذاك معنى آخر . وقوله تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي هذه صفة الأبرار ، عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه ، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه : أحدها : أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات ، الثاني : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيًا بأدب وخشية

ورجاء ومحبة وفهم وعلم . قال تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم .

الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة ﷺ عند سماعهم كلامَ اللَّه تعالى من تلاوة رسول اللَّه ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر اللَّه . لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم ، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك ؛ ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة . قال معمر : تلا قتادة رحمه اللَّه ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ قال : هذا نعت أولياء اللَّه ، نعتهم اللَّه ﷻ بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر اللَّه ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان .

وقال السدي : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي إلى وعد اللَّه ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي هذه صفة من هداه اللَّه ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله اللَّه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ويقرع فيقال له ولأمثاله من الظالمين : ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ كمن يأتي آمنًا يوم القيامة كما قال ﷻ : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقوله جلت عظمته : ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعني القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكهم اللَّه بذنوبهم وما كان لهم من اللَّه من واق ، وقوله جل وعلا : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين منهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك ؛ فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ والذي أعده اللَّه ﷻ لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ .

يقولى تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي تعلمونه من أنفسكم ، وقال ﷻ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لباس بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله اللَّه تعالى كذلك ، وأنزله بذلك

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يحذرون مافيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد . ثم قال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا ﴾ أي سالمًا ﴿ لِّرَجُلٍ ﴾ أي خالصًا لا يملكه أحد غيره ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ؟ أي لا يستوي هذا وهذا . كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع اللَّه والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا اللَّه وحده لا شريك له . فأين هذا من هذا ؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد : هذه الآية ضربت مثلًا للمشرك والمخلص ، ولما كان هذا المثل ظاهرًا بينًا جليًا قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا يشركون باللَّه . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته ، ومعنى هذه الآية : أنكم ستنقلون من هذه الدار لامحالة ، وستجتمعون عند اللَّه تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي اللَّه عز وجل فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم ، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين . ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين . ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة ؛ فإنها شاملة لكل المتنازعين في الدنيا ؛ فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة .

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه السورة على رسول اللَّه ﷺ ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال الزبير رضي الله عنه : أي رسول اللَّه أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال ﷺ : « نعم ، ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه » قال الزبير رضي الله عنه : واللَّه إن الأمر لشديد [(١)] . وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أول الخصمين يوم القيامة جاران » [(٢)] وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : رأى رسول اللَّه ﷺ شاتين ينتطحان فقال : « أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر ؟ » قلت : لا ، قال ﷺ : « لكن اللَّه يدري وسيحكم بينهما » [(٣)] وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدي الضال ، والضعيف المستكبر ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال : قلنا : من نخاصم ؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة ، فمن نخاصم ؟ حتي وقعت الفتنة ، فقال ابن عمر رضي الله عنهما : هذا الذي وعدنا ربنا عز وجل نختصم فيه .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۝٣٢ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول عز وجل مخاطبًا للمشركين الذين افتروا على اللَّه وجعلوا معه آلهة أخرى وادعوا أن الملائكة بنات اللَّه ، وجعلوا لله ولدًا تعالى اللَّه عن قولهم علوًا كبيرًا ، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٥) .

ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ أي لا أحد أظلم من هذا ؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله وكذب رسول الله ، قالوا الباطل وردوا الحق ولهذا قال جلت عظمته متوعدًا لهم : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ وهم الجاحدون المكذبون . ثم قال جل وعلا : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد : الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ . وقال السدي : هو جبريل عليه السلام ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ يعني محمدًا ﷺ . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ من جاء بلا إله إلا الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ يعني رسول الله ﷺ . قال مجاهد أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون : هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا. وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين ؛ فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به ، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير ؛ فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وآمن بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : اتقوا الشرك ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يعني في الجنة مهما طلبوا وجدوا ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ عبادة ﴾ [1] يعني أنه تعالى يكفي مَنْ عبده وتوكل عليه . وعن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع به » [2] ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ يعني المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلًا منهم وضلالًا ؛ ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ أي منيع الجناب لايضام من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه ، فإنه العزيز الذي لا أعز منه ولا أشد انتقامًا منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها ، ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ أي لاتستطيع شيئًا من الأمر ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك

---

(١) قرأ حمزة والكسائي ﴿ عباده ﴾ بالألف ، وقرأ الباقون ﴿ عبده ﴾ . (انظر حجة القراءات ٦٢٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٢٢/٤) والطبراني في الكبير (٣٠٥/١٨) .

في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ورفعت الأقلام ، واعمل لله بالشكر في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ماتكره خيرًا كثيرًا . وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا »[1] ﴿ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ أي الله كافيّ ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : « من أحب أن يكون أقوى الناس ؛ فليتوكل على الله تعالى ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس ؛ فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس ؛ فليتق الله عز وجل »[2] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي على طريقتكم وهذا تهديد ووعيد ﴿ إِنِّى عَـٰمِلٌ ﴾ أي على طريقتي ومنهجي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ستعلمون غبَّ ذلك ووباله ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي دائم مستمر لامحيد له عنه وذلك يوم القيامة ، أعاذنا الله منها .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ يعني القرآن ﴿ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ أي فانما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي بموكل أن يهتدوا ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ . ثم قال تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى كما ورد بذلك الحديث المرفوع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره ؛ فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »[3] . وقال بعض السلف : تقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ التي قد ماتت ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال السدي : إلى بقية أجلها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء ولا يغلط ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٦) وأحمد في مسنده (١/٢٩٣) والحاكم في المستدرك (٣/٥٤١) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٢٧٠) بنحوه وابن عدي في الضعفاء (٥/١٨٢) .
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦٤) وأبو داود في السنن (٥٠٥٠) وأحمد في مسنده (٢/٤٣٢) .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك ، وهي لا تملك شيئًا من الأمر ، بل وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به ؛ بل هي جمادات أسوأ من الحيوان بكثير ، ثم قال : ﴿ قُل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى ، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلًّا بعمله ، ثم قال تعالى ذامًّا للمشركين أيضًا ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ أي إذا قيل : لا إله إلا الله وحده ﴿ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ قال مجاهد : اشمأزت : انقبضت ، وقال السدي : نفرت ، وقال قتادة : كفرت واستكبرت ، قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي يفرحون ويسرون .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهم الشرك ونفرتهم عن التوحيد ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ أي ادع أنت الله وحده لا شريك له الذي خلق السموات والأرض وفطرها ، أي جعلها على غير مثال سبق ﴿ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ أي السر والعلانية ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي في دنياهم ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم . عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة رضي الله عنها : بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللّٰهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم »(١) . وعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « من قال اللّٰهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ؛ إني أعهد اليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأن محمدًا عبدك ورسولك ، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهدًا توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، إلا قال عز وجل لملائكته يوم القيامة : إن عبدي قد عهد إليّ عهدًا فأوفوه إياه فيدخله الله الجنة »(٢) .

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٠) والنسائي في السنن (٢١٣/٣) والترمذي في السنن (٣٤٢٠) والحاكم في المستدرك (٦٢٢/٣) وأحمد في المسند (٦١/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩/١) والترمذي في السنن (٣٥٢٩) وأبو داود في السنن (٥٠٨٣) .

عن أبي راشد الحبراني قال : أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فقلت له : حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فألقى بين يدي صحيفة فقال : هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ فنظرت فيها ، فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا رسول الله علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر قل : اللَّهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشركه ، أن اقترف على نفسي سوءًا أو أجره إلى مسلم »(١) . وقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة ، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولوكان ملء الأرض ذهبًا كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل وينيب إليه ويدعوه ، وإذا خوله نعمة منه بغى وطغى وقال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له ، ولولا أني عند الله خصيص لما خولني هذا ، ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي مع علمنا المتقدم بذلك ؛ فهي فتنة أي اختبار ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ أي من المخاطبين ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي كما أصاب أولئك ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لعبرًا وحججًا .

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ۝ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٢٩) وأحمد في مسنده (١٩٦/٢) .

فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة ؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه . عن ابن عباس ﭫ أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ونزل ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [1] وعن عمرو بن عنبسة ﷺ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدعم على عصا له فقال : يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات ، فهل يغفر لي ؟ فقال ﷺ : « ألست تشهد أن لا إله إلا الله » قال : بلى ، وأشهد أنك رسول الله ، فقال ﷺ : « قد غفر لك كدراتك وفجراتك » [2] .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد ﷺ عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا ثم ندم وسأل عابدًا من عباد بني إسرائيل هل له من توبة ، فقال : لا ، فقتله وأكمل به مائة ، ثم سأل عالمًا من علمائهم هل له من توبة ، فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها ، فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأمر الله ﷻ أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر ، فقبضته ملائكة الرحمة ، وذكر أنه نأى بصدره عند الموت ، وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيرة أن تقترب وأمر تلك البلدة أن تتباعد [3] ، وعن سنيد بن شكل أنه قال : سمعت ابن مسعود يقول أن أعظم آية في كتاب الله ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ وأن أجمع آية في القرآن بخير وشر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ وإن أكثر آية في القرآن فرحًا في سورة الزمر ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ وأن أشد آية في كتاب الله تفويضًا ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ فقال له مسروق : صدقت .

[ذكر أحاديث فيها نفي القنوط]

عن حسن السدوسي قال : دخلت على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم ، والذي نفس محمد ﷺ بيده لو لم تخطئوا ؛ لجاء الله ﷻ بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم » [4] .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٥/٤) وقد ورد في هذا المعنى الكثير من الآيات التي تؤدي إلى نفس المعنى .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٢/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٣) وذكره الألباني في الصحيحة (١٩٥١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « كفارة الذنب الندامة » [(١)] وقال رسول الله ﷺ : « لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيغفر لهم » [(٢)] .

ثم استحث تبارك وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة فقال : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ الآية ، أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون ثم قال ﷻ : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ أي يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله ﷻ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أخبر الله ﷻ ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعملهم قبل أن يعملوه وقال تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبر الله ﷻ أن لو ردوا لما قدروا على الهدى فقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى مقعده من الجنة ، فيقول : لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة » قال : « وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هداني ، قال : فيكون له الشكر » [(٣)] . ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله ، قال الله ﷻ : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه - آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها .

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، قال تعالى ههنا ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي في دعواهم له شريكا وولدًا ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أي بكذبهم وافترائهم ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي أليست جهنم كافية لهم سجنًا وموئلًا ، لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : « إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا من النار في واد يقال له : بولس من نار الأنيار ، ويسقون من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٩/١) والطبراني في الكبير (١٧٢/١٢) والعجلوني في كشف الخفاء (١٦٣/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٤/٥) والترمذي في السنن (٢٥٢٦) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٣٥/٢) وأحمد في مسنده (٥١٢/٢) .

عصارة أهل النار ومن طينة الخبال »[١] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ ، أي يوم القيامة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فزع مزحزحون عن كل شر نائلون كل خير .

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلِّها وربُّها ومليكُها والمتصرفُ فيها ، وكلٌّ تحت تدبيره وقهره وكلاءته ، وقوله ﷻ : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : المقاليد هي المفاتيح بالفارسية ، وقال السدي : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خزائن السموات والأرض ، والمعنى على كلا القولين أن أزمَّةَ الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي حججه وبراهينه ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ ذكروا في سبب نزولها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه فنزلت ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته ، قال مجاهد : نزلت في قريش ، وقال السدي : ما عظموه حق تعظيمه ، وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوا ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم . فمن آمن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك ؛ فلم يقدر الله حق قدره وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غيرتكييف ولا تحريف . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله ﷻ يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله عنه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية[٢] وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٠/٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٤) ومسلم في المنافقين (١٩) والترمذي في السنن (٣٢٣٨) وأحمد في مسنده (١/٤٢٩) .

« يقبض اللَّه تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ » [(١)] .

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هذه النفخة هي الثانية وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء اللَّه كما جاء مصرحًا به مفسرًا في حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولًا وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء ويقول : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ أنا الذي كنت وحدي ، وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء ، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور مرة أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث ، قال اللَّه ﷻ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أي أحياء بعدما كانوا عظامًا ورفاتًا صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ . ورد أن رجلًا قال لعبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما : إنك تقول : الساعة تقوم إلى كذا وكذا ، قال : لقد هممت أن لا أحدثكم شيئًا ، إنما قلت : سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا ، ثم قال عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما : قال رسول اللَّه ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين لا أدري أربعين يومًا ، أو أربعين شهرًا ، أو أربعين عاما ، أو أربعين ليلة ؛ فيبعث اللَّه تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي ، فيظهر فيهلكه اللَّه تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعًا ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل اللَّه تعالى ريحًا باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى أن لو كان أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عيه » قال : سمعتها من رسول اللَّه ﷺ : « ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا ، قال : فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها ؛ وهم في ذلك دارَّةٌ أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتًا ، ورفع ليتًا ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صُعق ، ثم يرسل اللَّه تعالى أو ينزل اللَّه ﷻ مطرًا كأنه الطَّلُّ - أو الظل شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ قال : ثم يقال : أخرجوا بعث النار قال : فيقال : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فيومئذ تُبعث الولدان شيبًا ، ويومئذ يُكشف عن ساق » [(٢)] .

عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه يحدث عن النبي ﷺ قال : « ما بين النفختين أربعون » قالوا : يا

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المؤمنين (٢٣) وابن ماجه في السنن (١٩٢) والدارمي في السنن (٣٢٥/٢) وأحمد في مسنده (٣٧٤/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١١٦) وأحمد في مسنده (١٦٦/٢) والحاكم في المستدرك (٥٥٠/٤) .

أبا هريرة أربعون يومًا ؟ قال رضي الله تعالى عنه : أبيت ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهرًا ؟ قال : أبيت ، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه ، فيه يركب الخلق [(١)] .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « سألت جبريل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ من الذين لم يشأ الله تعالى أن يصعقهم؟ قال : هم الشهداء ، يتقلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم ملائكة يوم القيامة الى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير ، مد خطاها مد أبصار الرجال يسيرون في الجنة يقولون عند طول النزهة : انطلقوا بنا الى ربنا لننظر كيف يقضي بين خلقه ، يضحك إليهم إلهي ، وإذا ضحك الى عبد في موطن فلا حساب عليه » [(٢)] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أي أضاءت يوم القيامة اذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ قال قتادة : كتاب الأعمال ﴿ وَجِاْيءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي من خيرأو شر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ٧١ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون الى النار وإنما يساقون سوقًا عنيفًا بزجر وتهديد ووعيد وهم عطاش ظماء وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي ، منهم من يمشي على وجهه ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعًا لتعجل لهم العقوبة ، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم : ﴿ بَلَى ﴾ أي قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين ؛ بل أطلقه ليدل

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٥) ومسلم في الفتن (١٤١) .

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (١١١١١) والطبري في تفسيره (١٤/٢٠) .

على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ماهم فيه بما حكم العدل الخبيرعليهم به ؛ ولهذا قال جل وعلا : ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها لا خروج لكم منها ولازوال لكم عنها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي فبئس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم في الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق ؛ فهو الذي صيركم الى ما أنتم فيه ، فبئس الحال وبئس المآل .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۝ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ .

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدًا الى الجنة زمرًا ، أي جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضًا ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولايتغوطون ولا يتفلون ، ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء » [1] . وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول ﷺ قال : « ويدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفًا تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » فقام عكّاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال ﷺ : اللّهم اجعله منهم . ثم قام رجل من الأنصار فقال يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلني منهم . فقال ﷺ : « سبقك بها عكّاشة » [2] .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره : حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكرامًا وتعظيمًا وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب ، فتقديره : إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم ، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل ، ومن زعم أن الواو في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ واو الثمانية واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع ، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة ، وللجنة أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٦) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٥) والترمذي في السنن (٢٥٢٢) وأحمد في مسنده (٥٠٤/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨١١) ومسلم في الإيمان (٣٦٧) .

من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان » فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : يارسول الله ما على أحد من ضرورة دعي من أيها دعي ، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[(١)] عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمى الريان لايدخله إلا الصائمون »[(٢)] عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ، أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ؛ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء »[(٣)] .

ذكر سعة أبواب الجنة – نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها

عن أبي هريرة ﷺ في حديث الشفاعة الطويل : « ... فيقول الله تعالى : يا محمد أدخل من لاحساب عليه من أمتك من الباب الأيمن وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر ، والذي نفس محمد بيده إن مابين المصراعين من مصاريع الجنة مابين عضادتي الباب لكما من مكة وهجر – أوهجر ومكة – وفي رواية – مكة وبصرى[(٤)] عن أبي سعيد ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « إن ما بين مصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة[(٥)] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أي طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم ، وقوله : ﴿ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا لايبغون عنها حولًا ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم والنعيم المقيم والملك الكبيريقولون عند ذلك : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ وقولهم : ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد : أي أرض الجنة ، و ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ أي أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا .

عن أبي سعيد ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة فقال : در مكة بيضاء مسك خالص ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق »[(٦)] .

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار وأنه نزّل كلًّا في المحل الذي يليق به ويصلح له ، وهو العادل في ذلك الذي لايجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد يسبحون

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٦) ومسلم في الزكاة (٨٥) والترمذي في السنن (٣٦٧٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٨٩٦) ومسلم في الصوم (١٦٦) والبيهقي في السنن (٣٠٥/٤) جميعهم بنحوه .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٧) وأحمد في مسنده (١٥٣/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٢) ومسلم في الإيمان (٣٢٧) وأحمد في مسنده (٤٣٦/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) .

(٦) أخرجه مسلم في الفتن (٩٣) .

بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضي الأمر ، وحكم بالعدل ولهذا ، قال ﷻ : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم ﴾ أي بين الخلائق ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي نطق الكون أجمعه ، ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله ؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل ، بل أطلقه ؛ فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

سورة غافر

قال عبد الله بن مسعود ﷺ آل حم ديباج القرآن . وقال ابن عباس ﷺ : إن لكل شيء لبابًا ، ولباب القرآن آل حم أو قال : الحواميم . وقال مسعر بن كدام : كان يقال لهن العرائس ، وروي أن رجلًا رأى أبا الدرداء ﷺ يبني مسجدًا فقال له : ما هذا ؟ فقال : أبنيه من أجل آل حم ، وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء ﷺ هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق ، وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ماوضع له ، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات « إن بيتم الليلة فقولوا : حم ، لاينصرون - وفي رواية - لا تنصرون » [١] وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن ؛ عصم ذلك اليوم من كل سوء » [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ۞ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ۞ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا وقد قيل إن ﴿ حم ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ وأنشدوا في ذلك بيتًا :

يذكرني حم والرمح شاجر فهلا تلا حم قبل التقدم [٣]

وقوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جنابه ولايخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه . وقوله ﷻ ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه . وقوله جل وعلا : ﴿ شديد العقاب ﴾ أي لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى . وقوله تعالى ﴿ ذي الطول ﴾ ، قال ابن عباس ﷺ : يعني السعة والغنى ، وقال يزيد بن الأصم : ذي الطول يعني الخير الكثير . وقال عكرمة : ﴿ ذي الطول ﴾ ذي المن . وقال قتادة : ذي النعم والفواضل ، والمعنى أنه المتفضل على عباده المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها . وقوله جلت عظمته : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿ إليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب فيجازي كل عامل بعمله .

عن يزيد بن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب ﷺ ففقده عمر فقال : ما فعل فلان ابن فلان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب . قال فدعا عمر كاتبه فقال : اكتب : من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٥٩٧) والترمذي في سننه (١٦٨٢) وأحمد في مسنده (٦٥/٤) .

(٢) ذكره النووي في الأذكار (١٠٢) .

(٣) البيت لشريح بن أوفى العبسي وهو من شواهد أبي عبيد في مجاز القرآن (١٩٣/٢) وشواهد الكشاف ص : ٢٦١ .

إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير . ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه ، فلما بلغ الرجلَ كتابُ عمر ﷺ جعل يقرؤه ويردده ويقول : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ ، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي . وزاد : فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ، ثم نزع فأحسن النزع ، فلما بلغ عمرَ خبرُه قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخًا لكم زل زلة فسددوه ووثقوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه .

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۞ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ .

يقول تعالى ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ أي في أموالها ونعيمها وزهرتها ، ثم قال تعالى مسليًا لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوةٌ فيمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم منهم إلا قليل فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ أي من كل أمة ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ أي ماحلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي . عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال : « من أعان باطلًا ليدحض به حقًا ؛ فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ »[1] وقوله جلت عظمته ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي أهلكتهم على ماصنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم قد كان شديدًا موجعًا مؤلمًا . قال قتادة كان شديدًا والله . وقوله ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أي كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يامحمد بطريق الأولى والأحرى ؛ لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك ، والله أعلم .

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة الكروبيين بأنهم يسبحون بحمد ربهم أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي من أهل الأرض ممن آمنوا بالغيب فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ، ولما

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/١٠٠) والطبراني في الكبير (١١/٢١٦) .

كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب . كما ثبت في صحيح مسلم : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك : آمين ولك بمثله » [١] .
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « صدق أمية بن أبي الصلت في شيء من شعره فقال :

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله ﷺ : « صدق » فقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد
تأبى فما تطلع لنا في رسلها إلا معذبة وإلا تجلد

فقال رسول الله ﷺ : « صدق » [٢] ، وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية كما قال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ وهنا سؤال وهو أن يقال : ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية ودلالة هذا الحديث ؟ وبين الحديث الذي رواه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ ، فمرت بهم سحابة ، فنظر إليها فقال : « ما تسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب ، قال : « والمزن ؟ » قالوا : والمزن قال : « والعنان ؟ » قالوا : والعنان ، قال : « هل تدرون بُعد ما بين السماء والأرض ؟ » قالوا : لا ندري ، قال : بُعد ما بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السماء السابعة بحر ما بين أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك » [٣] ، وهذا يقتضي أن حملة العرش ثمانية . ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ﴾ أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة . وقال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه : أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل فيقول : إني إنما عملت لي ولهم ، فيلحقون به في الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ثم تلا هذه الآية : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ ﴾ ، الآية وأغش عباده للمؤمنين الشياطين . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، أي الذي لا يمانع ولا يغالب وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ ، أي فعلها أو

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٥٣٤) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٥٦) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٢٣) وابن ماجه في السنن (١٩٣٠) .

وبالها ممن وقعت منه ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ﴾ أي لطفت به ونجيته من العقوبة ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون ، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سببَ دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارًا عاليًا ، نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذَّبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة . قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ يقول لمقت الله أهلَ الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة . وقوله : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ عن ابن مسعود ﷺ : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية . والمقصود من هذا أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله ﷻ في عرصات القيامة كما قال ﷻ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ . فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة فلا يجابون ، فإذا دخلوا النار وذاقوا مسَّها وحسيسها ومقامعها وأغلالها ؛ كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم وتلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة وهي قولهم : ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ أي قدرتك عظيمة ؛ فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتًا ثم أمتَّنا ثم أحييتنا ، فأنت قادر على ما تشاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي فهل أنت مجيبنا الى أن تعيدنا الى الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل ، فإن عدنا الى ماكنا فيه فإنا ظالمون ، فأجيبوا أن لاسبيل إلى عودكم ومرجعكم الى الدار الدنيا ، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لاتقبل الحق ولاتقتضيه بل تمجه وتنفيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي أنتم هكذا تكونون وإن رُددتم إلى الدار الدنيا : ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، لا إله إلا هو .

وقوله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

رِزْقًا﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ماهو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه ، وهو ماء واحد فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أي يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ أي من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى : وقوله ﷻ : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم .

وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لاحول ولاقوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولانعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » (١) . وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « ادعوا الله تباركَ وتعالى وأنتمْ موقنونَ بالإجابة ، واعلَموا أنَّ الله تعالى لايستجيب دعاءً من قلْبِ غافلٍ لاهٍ » (٢) .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف ، وقد ذكر غيرواحد أن العرش من ياقوتة حمراء ، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة ، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة (٣) . وقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ كقوله جلت عظمته : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ ولهذا قال ﷻ : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ عن ابن عباس : يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده ، وعنه أيضًا : يلتقي فيه آدم وآخر ولده . وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة : يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق . وقال ميمون بن مهران : يلتقي الظالم والمظلوم وقد يقال : إن يوم التلاق يشمل هذا كله ، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون .

وقوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ أي ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم ؛ ولهذا قال ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ أي الجميع في علمه على السواء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ أي الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ينادي مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات ، قال : وينزل الله ﷻ إلى السماء الدنيا ويقول : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ . وقوله جلت عظمته : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يخبر تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٣٧٣) ومسلم في الحج (١٤٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٤٣٧٩) .

(٣) ذكره الهندي في كنتزل العمال (١٥/٩٥) والسيوطي في الدر المنثور (٢٩٧/٣) .

عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر ، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر ﷺ عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا - إلى أن قال - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله تبارك وتعالى ، ومن وجد غيرذلك فلا يلومن إلا نفسه »(١) وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسًا واحدة .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

﴿ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ، وقال ابن جريج : ﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ أي باكين . وقوله ﷻ : ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ يخبر ﷻ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ؛ فإنه ﷻ يعلم العينَ الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غض بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض . وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . وقال الضحاك : ﴿ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ هو الغمز . وقول الرجل : رأيت ولم ير . أو : لم أر وقد رأى . وقال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي : ﴿ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ أي من الوسوسة .

وقوله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ أي يحكم بالعدل . وقال ابن عباس : قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس ﷺ هذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ أي لا يملكون شيئًا ولا يحكمون بشيء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم ، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) وأحمد في المسند (١٦٠/٥) .

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حل بهم من العذاب والنكال مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿ وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه ، أي مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسلهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق ، ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ تعالى أي أهلكهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد وهو ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي عقابه أليم شديد وجيع ، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ومبشرًا له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات . والدلائل الواضحات . ولهذا قال تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿ وَهَامَانَ ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿ وَقَارُونَ ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ أي كذبوه وجعلوه ساحرًا مجنونًا مموهًا كذابًا في أن الله أرسله ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله ﷻ أرسله إليهم ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل . أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ؟ وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية ولإهانة هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ وهذا عزم من فرعون - لعنه الله تعالى - على قتل موسى عليه الصلاة والسلام أي قال لقومه : دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أي لا أبالي منه . وهذا في غاية الجحد والتجهرم والعناد .

وقوله قبحه الله ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ يعني موسى ، وهذا كما يقال في المثل : صار فرعون مذكرًا ؛ يعني واعظًا يشفق على الناس من موسى عليه السلام . وقرأ الأكثرون (أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد) وقرأ الآخرون (أن يبدل دينكم أو أن

يظهر في الأرض الفساد) وقرأ بعضهم (يظهر في الأرض الفساد) بالضم [١] ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ قال موسى عليه السلام : استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ أيها المخاطبون ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي عن الحق مجرمًا ﴿ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال : « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك في نحورهم » [٢] .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝٢٨ يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطيًا من آل فرعون ويقال : إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام . واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيليًا ؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيليًا لأوشك أن يعاجل بالعقوبة ؛ لأنه منهم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون . والذي قال : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون ﴿ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ فأخذت الرجلَ غضبةٌ لله عز وجل . وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ . وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [٣] وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي كيف تقتلون رجلًا لكونه يقول : ربي الله وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق . ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال : ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ؛ فإن يك كاذبا فإن الله جل جلاله سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقًا وقد آذيتموه يصبكم بعضُ الذي يعدكم ؛ فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقًا ؛ فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤١٤) والطبراني في الصغير (٩/٨٤) .

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ أو أن يُظهِرَ ﴾ وقرأ الباقون ﴿ وأن يظهر ﴾ . وقرأ نافع وأبو عمر وحفص ﴿ يُظهِرَ - الفسادَ ﴾ وقرأ الباقون ﴿ يَظْهَر - الفسادُ ﴾ انظر (حجة القراءات ص ٩٢٩ ، ٩٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٥) .

يدعوهم ويتبعونه . وهكذا أخبر الله ﷻ عن موسى ﷺ أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله ولا يمسوه بسوء ، ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته ، قال الله ﷻ : ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أي أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة ، فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس . وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحًا مبينا . وقوله جل وعلا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أي لو كان هذا الذي يزعم أن اللّٰه تعالى أرسله إليكم كاذبًا كما تزعمون لكان أمره بينًا يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب ، وهذا نرى أمره سديدًا ومنهجه مستقيمًا ، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه اللّٰه وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله ؟ ثم قال المؤمن محذرًا قومه زوال نعمة اللّٰه عنهم وحلول نقمة اللّٰه بهم : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي قد أنعم اللّٰه عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض فراعوا هذه النعمة بشكر اللّٰه تعالى وتصديق رسوله ﷺ ، واحذروا نقمة اللّٰه إن كذبتم رسوله ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ﴾ أي لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئًا من بأس اللّٰه إن أرادنا بسوء ، قال فرعون لقومه رادًا على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ﴾ أي ما أقول لكم وأشيرعليكم إلا ما أراه لنفسي وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى ﷺ فيما جاء به من الرسالة ، فقوله ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ﴾ كذب فيه وافترى وخان اللّٰه تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعيته فغشهم وما نصحهم ، وكذا قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد ، وقد كذب أيضًا في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال اللّٰه تبارك وتعالى : ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ وفي الحديث « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته ؛ إلا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام »[(١)] .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس اللّٰه تعالى في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ أي الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس اللّٰه وما رده عنهم راد ولا

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٥١) ومسلم في الإيمان (٢٢٧) .

صده عنهم صاد ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره ثم قال : ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ يعني يوم القيامة ، وقيل : سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهلَ النار ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ﴾ ومناداة أهل النار أهلَ الجنة ﴿ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ولمناداة أصحابِ الأعراف أهلَ الجنة وأهلَ النار كما هو مذكور في سورة الأعراف . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي ذاهبين هاربين ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ أي من أضله الله فلا هادي له غيره . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ يعني أهل مصر وقد بعث الله فيهم رسولًا من قبل موسى عليه الصلاة والسلام وهو يوسف عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر وكان رسولًا يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ أي يئستم فقلتم طامعين ﴿ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه ، ثم قال ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون بالحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى فإن الله ﷻ يمقت على ذلك أشد المقت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي والمؤمنون أيضًا يبغضون من تكون هذه صفته فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفًا ولا ينكر منكرًا ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي على اتباع الحق ﴿ جَبَّارٍ ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحًا وهو القصر العالي المنيف الشاهق ، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي ، وقوله : ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ إلخ قال سعيد بن جبيروأبو صالح : أبواب السموات وقيل : طرق السموات ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله ﷻ أرسله إليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي بصنعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئًا يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : يعني إلا في خسار .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله : ﴿ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ ﴾ أي قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل ﴿ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ أي الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ولهذا قال جلت عظمته : ﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ ﴾ أي واحدة مثلها ﴿ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ أي لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله ﷻ ثوابًا كثيرًا لا انقضاء له ولا نفاد .

﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ .

يقول لهم المؤمن : ما بالي أدعوكم إلى النجاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله ﷺ الذي بعثه ﴿ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ أي على جهل بلا دليل ﴿ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ أي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ﴾ قال السدي وابن جرير : معنى قوله ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ حقًّا ، وقال الضحاك : لا كذب ، ﴿ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ قال السدي : لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة وقوله : ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي في الدار الآخرة فيجازي كلًّا بعمله ولهذا قال : ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله ﷻ : ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ ﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ أي هو بصير بهم تعالى وتقدس فيهدي من يستحق الهداية ويضل من يستحق الإضلال وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام وأما في الآخرة فبالجنة ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال : ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ أي أشده ألمًا وأعظمه نكالًا ، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور وهي قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ ﴾ .

ولكن هنا سؤال وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية وقد استدلوا بها على عذاب القبرفي البرزخ

فعن عائشة ﵂ أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة ﵂ إليها شيئًا من المعروف إلا قالت لها اليهودية وقاك الله عذاب القبر قالت عائشة ﵂ : فدخل رسول الله ﷺ عليَّ فقلت : يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « لا ، من زعم ذلك ؟ » قالت : هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئًا من المعروف إلا قالت : وقاك الله عذاب القبر ، قال ﷺ : « كذبت يهود وهم على الله أكذب لا عذاب دون يوم القيامة » ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملًا بثوبه محمرة عيناه وهو ينادي بأعلى صوته : « القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس لوتعلمون ما أعلم بكيتم كثيرًا وضحكتم قليلًا ، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق » [١] . فيقال : فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ ؟ والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدوًّا وعشيًّا في البرزخ وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور ؛ إذ قد يكون ذلك مختصًّا بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها . وقد يقال إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب .

وقد يقال أن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها فلما أوحي إلى النبي ﷺ في ذلك بخصوصه استعاذ منه ، وعن عائشة ﵂ أن يهودية دخلت عليها فقالت : نعوذ بالله من عذاب القبر ، فسألت عائشة ﵂ رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة ﵂ : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر [٢] . فهذا يدل على أنه بادر ﷺ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر وقرر عليه . وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ صباحًا ومساء ما بقيت الدنيا ، يقال لهم : يا آل فرعون هذه منازلكم ، توبيخًا ونقمة وصغارا لهم ، وقال ابن زيد : هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة . وعن ابن مسعود ﵁ عن النبي ﷺ قال : « ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى » قال : قلنا : يا رسول الله ما إثابة الله الكافر ؟ فقال : « إن كان قد وصل رحمًا أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك » قلنا : فما إثابته في الآخرة ؟ قال ﷺ عذابا دون العذاب » وقرأ ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [٣] .

وعن ابن عمر ﵄ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله ﷻ إليه يوم القيامة » [٤] .

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٨١) .
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٢) والنسائي في السنن (١٣٠٨) وأحمد في مسنده (٦/١٧٤) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٢٥٣) .
(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٥) وأحمد في مسنده (٢/١١٣) .

ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم ، وفرعون وقومه من جملتهم ، فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي قسطًا تتحملونه عنا ، ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ أي لا نتحمل عنكم شيئًا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ أي قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ لما علموا أن الله ﷻ لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ سألوا الخزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب ، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي أوما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ﴾ أي أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم برآء ، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ، ولا يخفف عنكم ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

أورد ابن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ سؤالًا فقال : قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعياء ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرًا كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة في الدنيا ، ثم أجاب عن ذلك بجوابين : أحدهما : أن يكون الخبر خرج عامًّا والمراد به البعض ، قال : وهذا سائغ في اللغة : الثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعياء ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم ، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود ؛ فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا ؛ فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام ، وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر

وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم [(١)] . وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى : من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب » [(٢)] ولهذا أهلك الله ﷻ قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق . وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين ، فلم يهلك منهم أحدًا ، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحدًا ، قال السدي : لم يبعث الله ﷻ رسولًا قط إلى قوم فيقتلونه أو قومًا من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم ، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها . وهكذا نصر الله نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه ؛ فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ، ثم منَّ عليهم بأخذه الفداءَ منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم ، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك ، وفتح له اليمن ، ودانت له جزيرة العرب بكاملها ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله ﷻ ، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا ، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام الساعة ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴾ أي يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل ، قال مجاهد : الأشهاد الملائكة . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ بدل من قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴾ وقرأ آخرون يوم بالرفع كأنه فسره به ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ ﴾ وهم المشركون ﴿ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أي الإبعاد والطرد من الرحمة ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾ وهي النار. وعن ابن عباس ﵄ : ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾ أي سوء العاقبة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ ﴾ وهو ما بعثه الله ﷻ به من الهدى والنور ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴾ ، أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة . وقوله ﷻ ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أي يا محمد ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ، أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك والله لا يخلف الميعاد ، وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ ﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿ وَالْإِبْكَٰرِ ﴾

---

(١) تفسير الطبري (٩٣/٢٤ ، ٩٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) .

وهي أوائل النهار وأواخر الليل . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ أي يدفعون الحق بالباطل ، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به ، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم ؛ بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي من حال مثل هؤلاء ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان [1] .

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض ، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة ، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرون المعاد استبعادًا وكفرًا وعنادًا وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئًا والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره ؛ بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ﴾ أي لكائنة وواقعة ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري يقول : يا من أَحَبُّ عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويا من أَبْغَضُ عباده إليه من لم يسأله وليس أحد كذلك غيرك يا رب . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

اللَّه يغضب إن تركت سؤاله وبُنَيُّ آدم حين يُسأل يغضبُ

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال : « أربع خصال واحدة منهن لي ، وواحدة لك وواحدة فيما بيني وبينك ، وواحدة فيما بينك وبين عبادي ، فأما التي لي : فتعبدني لا تشرك بي شيئًا ، وأما التي لك علي : فما عملت من خير جزيتك به ، وأما التي بيني وبينك ، فمنك الدعاء وعلي الإجابة ، وأما التي بينك وبين عبادي : فارض لهم ما ترضى لنفسك» [2] . وعن النعمان ابن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير الطبري (٩٧/٢٤) .

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٧٥٧/٥) والمجروحين لابن حبان (٣٧٢/١) والحديث إسناده ضعيف .

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [١] وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يَدْعُ اللَّه ﷻ غضب عليه » [٢] وعن محمد بن سعيد قال : لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري وجدنا في ذؤابة سيفه كتابًا : باسم اللَّه الرحمن الرحيم سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إن لربكم في بقية أيام دهركم نفحات ، فتعرضوا له ، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبدًا » [٣] . وقوله ﷻ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ أي عن دعائي وتوحيدي ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين حقيرين ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس ، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا في جهنم يقال له : بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » [٤] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ، ويستريحون فيه من حركات ترددهم في المعايش بالنهار وجعل ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي مضيئًا ليتصرفوا فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي لا يقومون بشكر نعم اللَّه عليهم ، ثم قال ﷻ : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء هو اللَّه الواحد الأحد خالقُ الأشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئًا بل هي مخلوقة منحوتة .

وقوله ﷻ : ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير اللَّه كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى . وجحدوا حجج اللَّه وآياته وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي جعلها لكم مستقرًا بساطًا مهادًا تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون في مناكبها وأرساها بالجبال لئلَّا تميد بكم ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ أي سقفًا للعالم محفوظًا ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي فخلقكم في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي من المآكل والمشارب في الدنيا ؛ فذكر أنه خالق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرزاق ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو الحي أزلًا وأبدًا لم يزل ولا يزال ؛ وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٤) وابن ماجه في السنن (٣٨٢٧) والحاكم في المستدرك (٤٩٠/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٧/٢) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣٤/١٩) والألباني في الصحيحة (١٨٩٠) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٢) وأحمد في مسنده (١٧٩/٢) والحميدي في مسنده (٥٩٨) .

نظير له ولا عديل له ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال : لا إله إلا اللّٰه أن يتبعها بالحمد للّٰه رب العالمين عملًا بهذه الآية .

وعن ابن عباس قال : من قال : لا إله إلا اللّٰه فليقل على أثرها : الحمد للّٰه رب العالمين (١) .

عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن بدر المكي قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لاحول ولا قوة إلا باللّٰه ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا اللّٰه مخلصين له الدين ولوكره الكافرون . قال : وكان رسول اللّٰه ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة (٢) .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إن الله ﷻ ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان ، وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ أي هو الذي يقلبكم في هذه الأطواركلها وحده لا شريك له ، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه أمه سقطًا ، ومنهم من يتوفى صغيرًا وشابًّا وكهلًا قبل الشيخوخة كقوله تعالى : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، قال ابن جريج : تتذكرون البعث ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي لايخالَف ولا يمانَع بل ماشاء كان لا محالة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ۝ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ۝ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل كيف

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤/١٠٢) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (١٣٩) وقوله : يهل به : أي يرفع صوته بتلك الكلمات .

تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ ، أي من الهدى والبيان ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، من الرب ﷻ لهؤلاء ، وقوله ﷻ ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ ﴾ ، أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم ، وتارة إلى الجحيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقومَ وشربهم الحميمَ ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ عن يعلى بن منبه رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : « ينشئ الله ﷻ سحابة لأهل النار سوداء مظلمة ويقال : يا أهل النار أي شيء تطلبون ؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون : نسأل بارد الشراب فتمطرهم أغلالًا تزيد في أغلالهم ، وسلاسل تزيد في سلاسلهم ، وجمرًا يلهب النار عليهم »(١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، أي قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ؛ هل ينصرونكم اليوم ؛ ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ أي جحدوا عبادتهم كقوله جلت عظمته : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير حق ومرحكم وأشركم وبطركم ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه ، والله أعلم .

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ، فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ أي في الدنيا ، وكذلك وقع ؛ فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم ؛ أبيدوا في يوم بدر ، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ . وقوله ﷻ : ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة ، ثم قال تعالى مسليًا له ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم ، مع قومهم كيف كذبوهم ، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدله ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فينجي المؤمنين ، ويهلك الكافرين ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٣/٤) والسيوطي في الدر المنثور (٣٥٧/٥) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًّا على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها ؛ فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة ؛ ولذا قال ﷻ ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ أي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال ، فما أغنى عنهم ذلك شيئًا ، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله ؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدامغات ، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم ، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل . قال مجاهد : قالوا : نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب ، وقال السدي : فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم ، فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أي عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أي وحدوا الله ﷻ وكفروا بالطاغوت ، ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة ، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي فلم يقبل الله منه ؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه حين قال : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وهكذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ ﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل ، ولهذا جاء في الحديث : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (١) أي فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاين الملك فلا توبة حينئذ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٣٧) وأحمد في مسنده (٤٢٥/٣) والحاكم في المستدرك (٢٥٧/٤) .

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ أي بينت معانيه وأحكمت أحكامه ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي في حال كونه قرآنًا عربيًّا بينًا واضحًا فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشكلة أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذرالكافرين ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ، أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئًا مع بيانه ووضوحه ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ ﴾ أي في غلف مغطاة ﴿ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أي صمم عما جئتنا به ﴿ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول ﴿ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ .

عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدًا - قال يومًا وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ﷺ ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » قال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا ، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاسمع مني » قال : أفعل . قال ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك » فقام

عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولًا والله ماسمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب ؛ فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ؛ فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم [1] .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين إنما الله إله واحد ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ أي أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أي لسالف الذنوب ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي دمار لهم وهلاك عليهم ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ عن ابن عباس : يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، والمراد بالزكاة ههنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ، وزكاة المال إنما سميت زكاة ؛ لأنها تطهره من الحرام وتكون سببًا لزيادته وبركته وكثرة نفعه وتوفيقًا إلى استعماله في الطاعات ، وقال السدي : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي لا يؤدون الزكاة ، وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم وهذا هو الظاهر عند كثيرمن المفسرين واختاره ابن جرير وفيه نظر ؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة الى المدينة على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة وكان مأمورًا به في ابتداء البعثة كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ فأما الزكاة ذات النصب والمقادير ؛ فإنما بين أمرها بالمدينة ويكون هذا جمعًا بين القولين كما أن أصل الصلاة كان واجبًا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة ، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئًا فشيئًا . ثم قال ﷺ بعد ذلك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال مجاهد وغيره : غير مقطوع ولا مجبوب كقوله تعالى : ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ .

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء القاهر لكل شيء ، المقتدر على كل شيء فقال : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٧٥) والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٥٨) .

أَندَادًاۚ ﴾ أي نظراء وأمثالا تعبدونها معه ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم . وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء فذكر أنه خلق الأرض أولًا لأنها كالأساس ، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف . عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما : إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي ، قال : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ، ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فقد كتموا في هذه الآية ، وقال تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴾ إلى قوله ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ إلى قوله : ﴿ طَآئِعِينَ ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ، ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ، ﴿ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ فكأنه كان ثم مضى فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ في النفخة الأولى ، ثم ينفخ في الصور ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الأخرى ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ وأما قوله : ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فإن اللَّه تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون : تعالوا نقول : لم نكن مشركين ، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم ؛ فعند ذلك يعرف أن اللَّه تعالى لا يكتم حديثا ، وعنده ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية ، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ، ثم دحى الأرض ، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ وقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السموات في يومين ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ سمي نفسه بذلك وذلك قوله ؛ أي لم يزل كذلك فإن اللَّه تعالى لم يرد شيئًا إلا أصاب به الذي أراد ، فلا يختلفن عليك القرآن ؛ فإن كلا من عند اللَّه عز وجل(١) . وقوله ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ يعني يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا ﴾ أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال : ﴿ فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه . وقال عكرمة ومجاهد في قوله عز وجل : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها ومنه العصب باليمن ، والسابوري بسابور ، والطيالسة بالري ، وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى : ﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أي استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعًا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (تفسير سورة حم السجدة).

مطيعين لك ، حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية قال : وقيل تنزيلًا لهن معاملة من يعقل بكلامهما ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ أي ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين أي آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي ورتب مقررًا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أي حرسًا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أي العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره ، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم ، عن أبي هريرة ﷺ قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيما بين العصر إلى الليل »(١) .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى ؛ فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ أي في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله اليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنذرين ، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم ، وما ألبس أولياءه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا وقالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أي لو أرسل الله رسلًا لكانوا ملائكة من عنده ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ أي أيها البشر ﴿ كَٰفِرُونَ ﴾ أي لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بغوا وعتوا وعصوا ﴿ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أي مَنُّوا بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها وأن بطشه شديد فبارزوا الجبار بالعداوة ؛ وجحدوا بآياته وعصوا رسله فلهذا قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ قال بعضهم : وهي شديدة الهبوب ، وقيل : الباردة . وقيل : هي التي لها صوت ، والحق أنها متصفة بجميع ذلك . وقوله تعالى : ﴿ فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ أي متتابعات أي ابتدأوا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٢) والحاكم في المستدرك (٤٥٠/٢) .

وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ حتى أبادهم عن آخرهم واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة ولهذا قال : ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ أي أشد خزيًا لهم ﴿ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أي في الآخرة كما لم ينصروا في الدنيا ، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال ، وقوله ﷻ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي وغيرهم : بينا لهم ، وقال الثوري : دعوناهم ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي بصرناهم وبينا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ أي بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلًّا وهوانًا وعذابًا ونكالًا ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي من التكذيب والجحود ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر ؛ بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم بتقواهم الله ﷻ .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار يوزعون أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم . وقوله ﷻ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ أي وقفوا عليها ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتم منه حرف ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون .

عن أنس بن مالك ﷺ قال : ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم فقال ﷺ : « ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت ؟ » قالوا : يا رسول الله عن أي شيء ضحكت ؟ قال ﷺ : « عجبت من مجادلة العبد ربَّه يوم القيامة يقول : أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني ؟ قال : بلى ، فيقول : فإني لا أقبل علي شاهدًا إلا من نفسي ، فيقول الله تبارك وتعالى : أو ليس كفى بي شهيدًا وبالملائكة الكرام الكاتبين - قال : فيردد هذا الكلام مرارًا - قال : فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول : بعدًا لكن وسحقًا ، عنكن كنت أجادل »(١) . وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال : « ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟ » فقال فتية منهم : بلى يا رسول الله ، بينما نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ، ثم دفعها فخرت

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٨/١) والحاكم في المستدرك (٦٠١/٤) والطبراني في الكبير (٤٧/٨) .

على ركبتيها فانكسرت قلتها ، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت : سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين ، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدًا ؟ قال : يقول رسول الله ﷺ : « صدقت صدقت ؛ كيف يقدس الله قومًا لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم ؟ » (١) وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه ؛ بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم ؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ أي هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرًا مما تعملون هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم . عن عبد الله ﷺ قال : كنت مستترًا بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقفيان - أوثقفي وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئًا سمعه كله . قال : فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله ﷻ ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٢) ، وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ قال : « إنكم تدعون يوم القيامة مفدمًا على أفواهكم بالفدام ، فأول شيء يبين عن أحدكم فخذه وكفه » (٣) وعن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن ؛ فإن قومًا قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ » (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارًا ، فما لهم أعذار ولا تقال لهم عثرات .

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته ، وهو الحكيم في أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي حسنوا

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٠١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/١) والترمذي في السنن (٣٢٤٩) والختن : الصهر ، أو كل قريب من قبل المرأة والأب والأخ .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٠٨/١٩) والألباني في الضعيفة (٤٣٣) .
(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨١) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٤) والبيهقي في السنن (٣٧٨/٣) .

لهم أعمالهم في الماضي والمستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي كلمة العذاب ، كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ أي استووا هم وإياهم في الخسار والدمار . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقران ولا ينقادوا لأوامره ﴿ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ أي إذا تلي لا تسمعوا له كما قال مجاهد ﴿ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله إذا قرأ القرآن ، ثم قال ﷻ منتصرًا للقرآن ومنتقمًا ممن عاداه من أهل الكفران : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعه ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بشر أعمالهم وسيئ أفعالهم ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ عن علي ؓ في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾ قال : إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه . وقال السدي : عن علي ؓ : فإبليس يدعو به كل صاحب شرك ، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة ، فإبليس : الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه ، وابن آدم الأول كما ثبت في الحديث : « ما قتلت نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل »[1] . وقولهم : ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أي أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابًا منا ، ولهذا قالوا : ﴿ لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ أي في الدرك الأسفل من النار .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ أي أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم ، وعن أنس بن مالك ؓ قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم ، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها[2] ، وعن سعيد بن عمران قال : قرأت عند أبي بكر الصديق ؓ هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ قال : هم الذين لم يشركوا بالله شيئًا[3] . وعن عكرمة قال : سئل ابن عباس ؓ : أي آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله .

وعن ابن عباس ؓ : ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ على أداء فرائضه ، وكذا قال قتادة . قال : وكان الحسن يقول : اللّهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ، وقال أبو العالية : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ أخلصوا له الدين والعمل .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥) ومسلم في القسامة (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٨٣/١) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٥٠) . (٣) أورده الطبري في تفسيره (١٤٣/٢٤) .

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به ، قال ﷺ : « قل ربي الله ثم استقم » قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي ؟ فأخذ رسول الله ﷺ : بطرف لسان نفسه ثم قال : « هذا » [(١)] . وقوله تعالى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم : وابنه : يعني عند الموت قائلين ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ ﴾ أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين ؛ فإنا نخلفكم فيه ﴿ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير . وهذا كما جاء في حديث البراء ﷺ قال : « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان » [(٢)] وقيل : إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم . وقال زيد بن أسلم : يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث ، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جدًّا وهو الواقع .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياءكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوز بكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ ﴾ أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ أي ضيافة وعطاء وإنعامًا من غفور لذنوبكم رحيم بكم رءوف ؛ حيث غفر وستر ورحم ولطف . عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة ﷺ فقال أبو هريرة ﷺ : أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أوفيها سوق ؟ فقال : نعم ، أخبرنا رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها ونزلوا بفضل أعمالهم ، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله ﷻ ، ويبرز لهم عرشه ، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة ، ويوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم وما فيهم دنيء على كثبان المسك والكافور ما يرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسًا . قال أبو هريرة ﷺ : قلت : يا رسول الله وهل نرى ربنا ؟ قال ﷺ : « نعم ، هل تتمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ » قلنا : لا . قال ﷺ : « فكذلك لا تتمارون في رؤية ربكم تعالى ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة ، حتى إنه ليقول للرجل منهم : يا فلان ابن فلان أتذكر يوم عملت كذا وكذا ؟ - يذكره ببعض غدراته في الدنيا - فيقول : أي رب أفلم تغفر لي ؟ فيقول : بلى ، فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه» قال : « فبينما هم على ذلك ؛ غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيبًا لم يجدوا مثل ريحه شيئًا قط» قال : « ثم يقول ربنا ﷻ : قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة وخذوا ما اشتهيتم» قال : « فنأتي سوقًا قد حفت به الملائكة ، فيها ما لم تنظر

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٢) وأحمد في مسنده (٤١٣/٣) .
(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢٥٥/٧) .

العيون إلى مثله ، ولم تسمع الآذان ، ولم يخطر على القلوب ، قال : فيحمل لنا ما اشتهينا ليس يباع فيه شيء ولا يشترى ، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضًا . قال : فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة فيلقى من هو دونه وما فيهم دنيء ، فيروعه ما يرى عليه من اللباس ، فما ينقضي آخرحديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه ؛ وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها ، ثم ننصرف إلى منازلنا ، فيتلقانا أزواجنا فيقلن : مرحبًا وأهلًا بحبيبنا ، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه ، فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار تبارك وتعالى ، وبحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا به » [(١)] .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

يقول ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي هو في نفسه مهتد بما يقوله فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه ؛ بل يأتمر بالخير ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى ، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك ، وقيل : المراد بها المؤذنون الصلحاء كما ثبت في صحيح مسلم : « المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة » [(٢)] وفي السنن مرفوعًا : « الإمام ضامن ، والمؤذن مؤتمن ، فأرشد الله الأئمة ، وغفر للمؤذنين » [(٣)] . وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه قال : سهام المؤذنين عند الله تعالى يوم القيامة كسهام المجاهدين وهو بين الأذان والاقامة كالمتشحط في سبيل الله تعالى في دمه . قال : وقال ابن مسعود ﷺ: لوكنت مؤذنًا ما باليت أن لا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد ، قال : وقال عمر بن الخطاب ﷺ : لوكنت مؤذنًا لكمل أمري ، وما باليت أن لا أنتصب لقيام الليل ، ولا لصيام النهار ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم اغفر للمؤذنين » ثلاثًا ، قال : فقلت : يا رسول الله تركتنا ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف ، قال ﷺ : « كلا يا عمر ، إنه سيأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم ، وتلك لحوم حرمها الله ﷻ على النار لحوم المؤذنين » [(٤)] قال : وقالت عائشة ﵂ : ولهم هذه الآية ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، قالت : فهو المؤذن إذا قال : حي على الصلاة ؛ فقد دعا الى الله . وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ أنه قال في قوله ﷻ : ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ يعني صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة [(٥)] . وعن أنس بن مالك قال : - قال الثوري : لا أراه إلا قد رفعه إلى النبي ﷺ - : « الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة » [(٦)] . والصحيح أن الآية عامة

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٣٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٤) وابن ماجه في السنن (٧٢٥) والبيهقي في السنن (٤٣٣/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/٢) .

(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٣١٥٨) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٧٦٨) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٩٤) وأحمد في مسنده (١١٩/٣) .

(٦) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٩٤ ، ٣٥٩٥) والإمام أحمد في مسنده (١١٩/٣) .

في المؤذنين وفي غيرهم فأما حال نزول هذه الآية : فإنه لم يكن الأذان مشروعًا بالكلية ؛ لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أريه عبد الله بن عبد ربه الأنصاري ﷺ في منامه فقصه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقيه على بلال ﷺ فإنه أندى صوتًا كما هو مقرر في موضعه ؛ فالصحيح إذن أنها عامة ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ أي فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه كما قال عمر ﷺ : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وقوله ﷻ : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ وهو الصديق إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك ، فإنه يشق على النفوس ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة ، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك ؛ عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه ؛ كفه عنك ورد كيده ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » [١] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا خلقه على قدرته وأنه الذي لا نظيره له على ما يشاء قادر ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ أي أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه وهما متعاقبان لا يفتران ، والشمس ونورها وإشراقها ، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه واختلاف سيره في سمائه ؛ ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار ، والجمع والشهور والأعوام ، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات . ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي ، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال : ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ؛ فإنه لا يغفر أن يشرك به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ أي عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ يعني الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥٠) والبيهقي في السنن (٢/٣٤) .

تسبوا الليل ولا النهار ، ولا الشمس ولا القمر ، ولا الرياح ؛ فإنها ترسل رحمة لقوم وعذابًا لقوم »[(١)] .

قوله ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى ﴿ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ أي هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ قال ابن عباس : الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه . وقال قتادة وغيره : هو الكفر والعناد . وقوله ﷻ : ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد ، أي إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي أيستوي هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال ﷻ تهديدًا للكفرة : ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ أي من خير أو شر إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ثم قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ قال الضحاك والسدي وقتادة : وهو القرآن ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ أي منيع الجناب لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل ؛ لأنه منزل من رب العالمين ، ولهذا قال : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله حميد بمعنى محمود أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته . ثم قال ﷻ : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ قال قتادة والسدي وغيرهما : ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك ، فكما كذبت كذبوا ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم ، فاصبر أنت على أذى قومك لك . وهذا اختيار ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أي لمن تاب إليه ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون ، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ أي لقالوا هلا أنزل مفصلًا بلغة العرب ولأنكروا ذلك فقالوا : أأعجمي وعربي ، أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه ؟ وقيل : المراد بقولهم : ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ أي هل أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها بالعربي ؟ هذا قول الحسن البصري وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله أعجمي وهو رواية عن سعيد بن جبير[(٢)] ، وهو في

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢١٩٢) بلفظه ، والترمذي في السنن (٢٢٥٣) بنحوه .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿ أأعجمي ﴾ بهمزتين ، وقرأ القواس ﴿ أعجمي ﴾ بهمزة واحدة على وجه الخبر لا على معنى الاستفهام ، وقرأ الباقون ﴿ آعجمي ﴾ بهمزة واحدة ومد . انظر حجة القراءات ص ٦٣٧ .

التعنت والعناد أبلغ ، ثم قال ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أي قل يا محمد : هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أي لا يفهمون ما فيه ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يعني بعيد من قلوبهم . قال ابن جرير : معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول .

قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وقال الضحاك : ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أي كُذب وأوذي ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ۝ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي لا يعاقب أحدًا إلا بذنبه ولا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه . ثم قال جل وعلا : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي لا يعلم ذلك أحد سواه كما قال محمد ﷺ - وهو سيد البشر - لجبريل عليه الصلاة والسلام - وهو من سادات الملائكة - حين سأله عن الساعة فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أي الجميع بعلمه ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وقد قال ﷺ : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق ، أين شركائي الذين عبدتموهم معي ؟ ﴿ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ ﴾ أي أعلمناك ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ أي ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي وظن المشركون يوم القيامة وهذا بمعنى اليقين ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي لا محيد لهم عن عذاب الله .

﴿ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (١ ، ٥ ، ٧) .

يقول تعالى : لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك ؛ فإن مسه الشر وهو البلاء أو الفقر ﴿ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ أي إذا أصابه خيرورزق بعد ما كان في شدة ليقولن هذا لي إني كنت أستحقه عند ربي ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي يكفر بقيام الساعة أي لأجل أنه خول نعمة يبطر ويفخر ويكفر ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أي ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار ، يتمنى على الله ﷻ مع إساءته العمل وعدم اليقين ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ أي أعرض عن الطاعة واستكبرعن الانقياد لأوامر الله ﷻ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ أي الشدة ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ أي يطيل المسألة في الشيء الواحد ؛ فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز عكسه وهو ما قل ودل .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ أي كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال ﷻ : ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي في كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى ثم قال ﷻ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقًّا منزلًا من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ فِى ٱلْـَٔافَاقِ ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان ، قال مجاهد والحسن والسدي : ودلائل في أنفسهم قالوا : وقعة بدروفتح مكة ونحوذلك من الوقائع التي حلت بهم نصر الله فيها محمدًا ﷺ وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي كفى بالله شهيدًا على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد أن محمدًا ﷺ صادق فيما أخبر به عنه كما قال : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ ﴾ أي في شك من قيام الساعة ، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له ولا يحذرون منه ؛ بل هو عندهم هدر لا يعبأون به وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه . عن سعيد الأنصاري قال : إن عمر بن عبد العزيز ﷺ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد : أيها الناس فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون ، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق والمكذب به هالك ، ثم نزل . ومعنى قوله ﷺ : إن المصدق به أحمق : أي لأنه لا يعمل له عمل مثله ، ولا يحذر منه ، ولا يخاف من هوله ، وهو مع ذلك مصدق به موقن

بوقوعه ، وهو مع ذلك يتمادى في لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه ، فهو أحمق بهذا الاعتبار ، والأحمق في اللغة ضعيف العقل ، وقوله : والمكذب به هالك ، هذا واضح ، والله أعلم . ثم قال تعالى مقررًا أنه على كل شيء قدير وبكل شيء محيط ، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طي علمه ، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن لا إله إلا هو .

سورة الشورى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وقوله ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي كما أنزل اليك هذا القرآن ، كذلك أنزل الكتب والصحف ، على الأنبياء قبلك . وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ أي في انتقامه ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن الحارث بن هشام سأل رسول الله فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحيانًا يأتيني الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها : فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا [1] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ ﴾ أي فرقا من العظمة ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ كقوله جل وعلا ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ وقوله ﷻ : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إعلام بذلك وتنويه به ، وقوله ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ يعني المشركين ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عدًا ، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ أي واضحًا جليًا بينًا ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ وهي مكة ﴿ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ أي من سائر البلاد شرقًا وغربًا ، وسميت مكة أم القرى ؛ لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها ، ومن أوجز ذلك وأدله ما قال عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » [2] . وقوله ﷻ : ﴿ وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ ﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد . قوله تعالى : ﴿ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾ أي لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة ، وقوله جل

---

١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٢) .

٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٤) والترمذي في السنن (٣٩٢٥) والحاكم في المستدرك (٧/٣) والدارمي في السنن (٢٣٩/٢) .

وعلا : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ أي يغبن أهل الجنة أهل النار ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ » قلنا : لا ، إلا أن تخبرنا يا رسول الله . قال ﷺ للذي في يمينه : « هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم - ثم أجمل على آخرهم - لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا » - ثم قال ﷺ للذى في يساره : « هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه ؟ قال رسول الله ﷺ : سددوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أي عمل » ثم قال ﷺ بيده فقبضها ثم قال : « فرغ ربكم ﷻ من العباد » - ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال - « فريق في الجنة - ونبذ باليسرى وقال - فريق في السعير »[1] وعن أبي نضرة قال : إن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ يقال له : أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعني يزورونه فوجدوه يبكي ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ : « خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني ؟ » ، قال : بلى ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى قبض بيمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى قال : هذه لهذه ، وهذه لهذه ولا أبالي » فلا أدري في أي القبضتين أنا[2] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي إما على الهداية أو على الضلالة ، ولكنه تعالى فاوت بينهم ، فهدى من يشاء إلى الحق ، وأضل من يشاء عنه ، وله الحكمة والحجة البالغة ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

عن ابن حجيرة أنه بلغه أن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا رب خلقك ، الذين خلقتهم جعلت منهم فريقًا في الجنة وفريقًا في النار ، لوما أدخلتهم كلهم الجنة ؟ فقال : يا موسى ارفع درعك ، فرفع ، قال : قد رفعت ، قال : ارفع ، فرفع ، فلم يترك شيئا ، قال : يا رب قد رفعت ، قال : ارفع ، قال : قد رفعت إلا ما لا خير فيه ، قال : كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه[3] .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ومخبرًا أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده ، فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير . ثم قال ﷻ : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور وهذا عامٌّ في جميع الأشياء ﴿ فَحُكْمُهُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/٢) والترمذي في السنن (٢١٤١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٤) والألباني في الصحيحة (٤٧) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٢٥) .

إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ أي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أي الحاكم في كل شيء ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع في جميع الأمور . وقوله ﷻ : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ أي خالقهما وما بينهما ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي من جنسكم وشكلكم منة عليكم وتفضلًا جعل من جنسكم ذكرًا وأنثى ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج . وقوله تبارك وتعالى ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ ﴾ أي يخلقكم فيه أي في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكورًا وإناثًا خلقا من بعد خلق وجيلًا بعد جيل ، ونسلًا بعد نسل من الناس والأنعام ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ ﴾ أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء ؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ المتصرف الحاكم فيهما ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ ﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، وله الحكمة والعدل التام ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ .

يقول تعالى لهذه الأمة أن أول الرسل بعد آدم ﵇ وهو نوح ﵇ وآخرهم وهو محمد ﷺ . ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم : وهم إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم . وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة والدين والذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال ﷻ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وفي الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد »[1] أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ ﴾ أي وصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة . ونهاهم عن الافتراق والاختلاف . وقوله ﷻ : ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ﴾ أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد . ثم قال ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أي هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أي إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه اليهم وقيام الحجة عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة . ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة في الدنيا سريعًا . وقوله جلت عظمتها : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان ، وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب وشقاق بعيد .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ

---

(١) سبق تخريجه .

بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها ، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فإنها أيضًا عشرة فصول كهذه .

وقوله : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾ أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك ، أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه . وقوله ﷻ : ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ أي واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله ﷻ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ يعني المشركين فيما اختلقوه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم . وقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي في الحكم كما أمرني الله ، وقوله جلت عظمته : ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أي هو المعبود لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختيارًا وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارًا ؛ فله يسجد من في العالمين طوعًا واجبارًا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ أي نحن برآء منكم ، وقوله تعالى : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ قال مجاهد : أي لا خصومة : وقوله ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي يوم القيامة ، وقوله جل وعلا : ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي باطلة عند الله ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ أي منه ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي يوم القيامة ، وقال قتادة : هم اليهود والنصارى ، قالوا لهم : ديننا خيرمن دينكم ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خيرمنكم وأولى بالله منكم ، وقد كذبوا في ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعنى الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ وهو العدل والإنصاف ، قاله مجاهد وقتادة ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ فيه ترغيب فيها وترهيب منها وتزهيد في الدنيا .

وقوله ﷻ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أي : يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وإنما يقولون ذلك تكذيبًا واستبعادًا وكفرًا وعنادًا ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أي خائفون وجلون من وقوعها ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ أي كائنة لا محالة ؛ فهم مستعدون لها عاملون من أجلها . وقد روي أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره ، فناداه فقال : يا محمد ، فقال له رسول الله ﷺ نحوًا من صوته « هاؤم » ، فقال له : متى الساعة ؟ فقال رسول الله ﷺ ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ؟ » فقال : حب الله ورسوله . فقال ﷺ : « أنت مع من

أحببت »[1] ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها . وقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ ﴾ أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ أي في جهل بين ؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى ؟ كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحدا منهم ، سواء في رزقه البروالفاجر ، وقوله جل وعلا : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي لا يعجزه شيء ثم قال ﷻ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي عمل الآخرة ﴿ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ أي نقويه ونعينه على ما هو بصدده ونكثر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ أي ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية ؛ حرمه الله الآخرة ؛ والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه ، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ، والدليل على هذا أن هذه الآية ههنا مقيدة بالآية التي في سبحان وهي قوله تبارك وتعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

عن أبي بن كعب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة من نصيب »[2] .

وقوله جل وعلا : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ أي هم لايتبعون ماشرع الله لك من الدين القويم ، بل يتبعون ماشرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ماحرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال : «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر قصبه في النار » ؛ لأنه أول من سيب السوائب[3] . وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة ، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٦٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٥) والحاكم في المستدرك (٤٤٤/٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٢/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .

الذي حمل قريشًا على عبادة الأصنام ، لعنه اللّه وقبحه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ماتقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير . ثم قال تعالى : ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ أي الذي يخافون منه واقع بهم لامحالة هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الخوف والوجل ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فأين هذا من هذا ؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لامحالة ببشارة اللّه تعالى لهم به . وقوله ﷻ : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي قل يامحمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني وتذروني أبلغ رسالات ربي إن لم تنصروني ، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة . عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد ، فقال ابن عباس : عجلت ، إن النبي ﷺ : لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : « إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة »(١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرًا إلا أن تودوا اللّه تعالى ، وأن تقربوا إليه بطاعته »(٢) .

وعن أبي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله عنه أسيرًا فأقيم على درج دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد للّه الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة ، فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم ، قال : أقرأت آل حم ؟ قال : قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم ؟ قال : ماقرأت ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ قال : وإنكم لأنتم هم ؟ قال : نعم . عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا ، وكأنهم فخروا ، فقال ابن عباس أو العباس رضي الله عنهما - شك عبد السلام - : لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول اللّه ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال : « يا معشر الأنصار ، ألم تكونوا أذلة فأعزكم اللّه بي ؟ » قالوا : بلى يارسول اللّه ، قال ﷺ : ألم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٨/٤٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٦٨) والحاكم في المستدرك (٢/٤٤٤) والطبراني في الكبير (١١/٩١) .

تكونوا ضلالًا فهداكم الله بي ؟ » قالوا : بلى يارسول الله ، قال ﷺ : « أفلا تجيبوني ؟! » قالوا : ما نقول يارسول الله ؟ قال : « ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك ، أولم يكذبوك فصدقناك ؟ أولم يخذلوك فنصرناك ؟ » قال : فمازال ﷺ يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا : أموالنا في أيدينا لله ولرسوله ، قال : فنزلت ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (١) .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض » (٢) . وعن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ، إن قريشًا إذا لقي بعضهم بعضًا لقوهم ببشر حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ، قال : فغضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا وقال : « والذي نفسي بيده لايدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله » (٣) .

عن ابن عمر ﵄ عن أبي بكر - هو الصديق - ﷺ قال : ارقبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته (٤) . وفي الصحيح : أن الصديق ﷺ قال لعلي ﷺ : والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي (٥) . وقال عمر بن الخطاب للعباس ﵄ : والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ لأن اسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب . فحال الشيخين ﵄ هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك ، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين ﵄ وعن سائر الصحابة أجمعين .

وعن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ﷺ ، فلما جلسنا إليه قال حصين : لقد لقيت يازيد خيرًا كثيرًا ، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت معه ، لقد رأيت يا زيد خيرًا كثيرًا ، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ ، فقال : يا ابن اخي لقد كبرسني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوه ، وما لا فلا تكلفونيه ، ثم قال ﷺ : قام رسول الله ﷺ يومًا خطيبًا فينا بماء يدعى خمًا بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ ، ثم قال ﷺ : « أما بعد ، أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه ، وقال ﷺ : « وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي فقال له حصين : ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : إن نساءه لسن من أهل بيته » ، ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس ﷺ ، قال : أكلُّ هؤلاء حرم عليه الصدقة ؟ قال : نعم (٦) .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥/٣٣) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٣٦) وأحمد في مسنده (٣/١٧) والحاكم في المستدرك (٣/١٤٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٠٧) والترمذي في السنن (٣٧٥٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٠٨) .

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٣٦) وأحمد في مسنده (٤/٣٦٧) والبيهقي في السنن (٢/١٤٨) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٦٦) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أي ومن يعمل حسنة نزد له فيها حسنًا أي أجرًا وثوابًا ، وقال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أي يغفر الكثير من السيئات ، ويكثر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر ، وقوله جل وعلا : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ ﴾ أي لو افتريت عليه كذبًا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ ﴾ أي يطبع على قلبك ، وسلبك ماكان آتاك من القرآن .

وقوله جلت عظمته : ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ ليس معطوفًا على قوله ﴿ يَخْتِمْ ﴾ فيكون مجزومًا بل هو مرفوع على الابتداء ، قاله ابن جرير ، قال : وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام ، كما حذفت في قوله : ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ معطوف على ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ ﴾ أي يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته ، أي بحججه وبراهينه ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه : أنه من كرمه وحلمه أن يعفو ويصفح ويستر ويغفر ، وقد ثبت عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه ﷺ : « للّه تعالى أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللّهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[1] .

وقوله ﷻ : ﴿ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل ، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ومع هذا يتوب على من تاب إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ قال ابن جرير : معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم ، وحكاه عن بعض النحاة ، عن سلمة بن سبرة قال : خطبنا معاذ ﷺ بالشام ، فقال : أنتم المؤمنون وأنتم أهل الجنة ، واللّه إني لأرجو أن يدخل اللّه تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة ؛ وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدهم عملًا - قال : أحسنت رحمك اللّه ، أحسنت بارك اللّه فيك ، ثم قرأ ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لما ذكر المؤمنين ومالهم من الثواب الجزيل ، ذكر الكافرين ومالهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشرًا وبطرًا . وقال قتادة : كان يقال خير

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢) وأحمد في مسنده (٣١٦/٢) والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) .

العيش مالا يلهيك ولايطغيك . وقوله ﷻ : ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق مايختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك ، فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر ، كما جاء في الحديث المروي : « إن من عبادي من لايصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لايصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ أي من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه . وقوله ﷻ : ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ ﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية . قال قتادة : ذكر لنا أن رجلًا قال لعمر بن الخطاب ﷺ : يا أمير المؤمنين قحط المطر وقنط الناس . فقال عمر ﷺ : مطرتم ، ثم قرأ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أي هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، وهو المحمود العاقبة في جميع مايقدره ويفعله .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا ﴾ أي ذرأ فيهما أي في السموات والأرض ﴿ مِن دَآبَّةٖۚ ﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض ﴿ وَهُوَ ﴾ ، مع هذا كله ﴿ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴾ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ أي من السيئات ، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٖ ﴾ وفي الحديث الصحيح : « والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ؛ إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها » (٢) .

وعن عائشة ﵂ قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له مايكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها » (٣) .

وعن الضحاك قال : ما نعلم أحدًا حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب ، ثم قرأ الضحاك ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ ثم يقول الضحاك : وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن .

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في علل الحديث ٣٢/١ .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤١) ومسلم في البر (٥٢) وأحمد في مسنده (٣٠٣/٢) والوصب الوجع اللازم الثابت ، والنصب : التعب .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧/٦) .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ .

يقول تعالى ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره كالجبال في البر ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ أي التي تسيرفي البحر بالسفن لوشاء لسكنها حتى لا تحرك السفن بل تبقى راكدة لا تجيء . ولا تذهب ، بل واقفة على ظهره ، أي على وجه الماء ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أي في الشدائد ﴿ شَكُورٍ ﴾ أي إن في تسخيره البحر وإجرائه في الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أي في الشدائد ﴿ شَكُورٍ ﴾ في الرخاء .

وقوله ﷻ ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ أي من ذنوبهم ، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر .

وقال بعض علماء التفسير : معنى قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أي لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد ، وهذا القول يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول ، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت ، أو لقوّاه فشردت وأبقت وهلكت ، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية ، ولو أنزله كثيرًا جدًّا لهدم البنيان ، أو قليلًا لما أنبت الزرع والثمار حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحًا من أرض أخرى غيرها ؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم . وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا فإنهم مقهورون بقدرتنا .

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى محقرًا لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أي وثواب اللّٰه تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدي ، فلا تقدموا الفاني على الباقي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ليس سجيتهم الانتقام من الناس . وقد ثبت في الصحيح أن رسول اللّٰه ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات اللّٰه [١] .

وقوله ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ ﴾ أي اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وهي أعظم العبادات للّٰه ﷻ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه

(١) أخرجه البخاري في المحاربين (٦٨٣٥) .

ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ، ليطيب بذلك قلوبهم ، وهكذا لما حضرت عمرَ بن الخطاب ﷺ الوفاةُ حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر وهم : عثمان وعلي وطلحة والزبيروسعد وعبد الرحمن بن عوف ﷺ فاجتمع رأي الصحابة كلهم ﷺ على تقديم عثمان عليهم ﷺ ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق اللّه الأقرب إليهم منهم فالأقرب .

وقوله ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم ، فإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه ، وكما عفا رسول اللّه ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم ، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام ، وكذلك عفوه ﷺ عن غورث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم فاستيقظ ﷺ وهو في يده مصلتًا فانتهره ، فوضعه من يده وأخذ رسول اللّه ﷺ السيف في يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه (١) ، وكذلك عفا ﷺ عن لبيد ابن الأعصم الذي سحره ﷺ ، مع قدرته عليه ، وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن سلمة - التي سمت الذراع يوم خيبر- فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت فقال ﷺ : « ما حملك على ذلك ؟ » قالت : أردت إن كنت نبيًّا لم يضرك ، وإن لم تكن نبيًّا استرحنا منك ، فأطلقها عليه الصلاة والسلام ولكن لما مات منه بشر بن البراء ﷺ قتلها به (٢) ، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جدًّا .

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ .

قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي لا يضيع ذلك عند اللّه كما صح ذلك في الحديث : « وما زاد اللّه تعالى عبدًا بعفو إلا عزًّا » (٣) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة .

ثم قال جل وعلا : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم . عن عروة ، قال : قالت عائشة ﷺ : ما علمت حتى دخلت علي زينب بغير إذن وهي غضبى ، ثم قالت لرسول اللّه ﷺ : حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر درعها ، ثم أقبلت

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣١١) والبيهقي في السنن (٦/٣١٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٠٥) والحاكم في المستدرك (١/٤٨٣) وابن ماجه في السنن (٢٠٦٥) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٢٩) ومالك في الموطأ (١٢) وأحمد في مسنده (٢/٣٨٦) .

علي فأعرضت عنها ، حتى قال النبي ﷺ : « دونك فانتصري » فأقبلت عليها حتى رأيت ريقها قد يبس في فمها ماترد علي شيئًا ، فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه [(١)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » [(٢)] . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ ﴾ أي إنما الحرج والعنت ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي يبدءون الناس بالظلم ، كما جاء في الحديث الصحيح : « المستبان ما قالا ، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم » [(٣)] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي شديد موجع .

ثم إن الله تعالى ، لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص ، قال نادبًا إلى العفو والصفح : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أي صبر على الأذى ، وستر السيئة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني لمن حق الأمور التي أمر الله تعالى بها ، أي لمن الأمور المشكورة ، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل ، وثناء جميل .

قال الفضيل بن عياض : إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلًا ، فقل : يا أخي اعف عنه ؛ فإن العفو أقرب للتقوى ، فإن قال : لا يحتمل قلبي العفو ، ولكن أنتصر كما أمرني الله ﷻ ، فقل له : إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو ؛ فإنه باب واسع ؛ فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله ، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رجلًا شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس ، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم ، فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي وقام ، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، إنه كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، قال : « إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان - ثم قال : « يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق : ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله ؛ إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة ؛ إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ؛ إلا زاده الله ﷻ بها قلة » [(٤)] .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ولاراد له ، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، ثم قال ﷻ مخبرًا عن الظالمين وهم المشركون بالله ﴿ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٣/٦) وابن ماجه في السنن (١٩٨١) والألباني في الصحيحة (١٨٦٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٥٢) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٨) وأبو داود في السنن (٤٨٩٤) وأحمد في مسنده (٢٣٥/٢) والترمذي في السنن (١٩٨١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٦/٢) وأبو داود في السنن (٤٨٩٦) .

سَبِيلٍ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ أي الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ قال مجاهد : يعني ذليل ، أي ينظرون إليها مسارقة خوفًا منها ، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة ، وما هو أعظم مما في نفوسهم ، أجارنا الله من ذلك ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي يقولون يوم القيامة ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي الخسار الأكبر ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد وخسروا أنفسهم ، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم فخسروهم ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي دائم سرمدي أبدي لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ أي ليس له خلاص .

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة ، حذر منه وأمر بالاستعداد له ، فقال ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون ، وليس له دافع ولامانع . وقوله ﷻ : ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى ، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته ، فلا ملجأ منه إلا إليه . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ يعني المشركين ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي لست عليهم بمسيطر ، وقال جل وعلا : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ ﴾ يعني الناس ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ أي جدب ونقمة وبلاء وشدة ﴿ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ أي يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن أصابته محنة يئس وقنط ، فالمؤمن كما قال ﷺ : « إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »[1] .

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾ أي يرزقه البنات فقط . قال البغوي : ومنهم لوط عليه الصلاة والسلام . ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ أي يرزقه البنين فقط ، قال البغوي : كإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٦٤) وأحمد في مسنده (٣٣٢/٤) .

لم يولد له أنثى ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ أي ويعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى أي من هذا وهذا ، قال البغوي : كمحمد ﷺ ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أي لا يولد له . قال البغوي : كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، فجعل الناس أربعة أقسام : منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورًا وإناثًا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيما لا نسل له ولا ولد له ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿ قَدِيرٌ ﴾ أي على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك ، وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أي دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس حيث خلق الخلق على أربعة أقسام : فآدم عليه الصلاة والسلام مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى ، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى ، وعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر ، فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ فهذا المقام في الآباء والمقام الأول في الأبناء وكل منهما أربعة أقسام ، فسبحان العليم القدير .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ .

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئًا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل ، كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام ؛ فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما : « ما كلم الله أحدًا إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحًا » (٢) ، وكان قد قتل يوم أحد ، ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا . وقوله عز وجل : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ كما ينزل جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ فهو علي عليم خبير حكيم .

وقوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ يعني القرآن ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ ﴾ أي القرآن ﴿ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو الخلق القويم ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ أي وشرعه الذي أمر به الله ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ، ويحكم فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا .

(١) ذكره البغوي في شرح السنة (١٤/٣٠٤) والمراد بروح القدس : جبريل عليه السلام .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠١٠) وابن ماجه في السنن (١٩٠) بنحوه .

سورة الزخرف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ أي البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ ﴾ أي أنزلناه ﴿ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ أي بلغة العرب فصيحًا واضحًا ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ بين شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي القرآن ﴿ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيۡنَا ﴾ أي عندنا ، ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ ، أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيغ . وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴾ ولهذا استنبط العلماء ﷺ من هاتين الآيتين ان المحدث لايمس المصحف كما ورد به الحديث إن صح ، لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى ، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى ؛ لأنه نزل عليهم ، وخطابه متوجه إليهم ، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم ، والانقياد له بالقبول والتسليم ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴾ اختلف المفسرون في معناها ، فقيل : معناها أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به ، قاله ابن عباس ومجاهد والسدي واختاره ابن جرير ، وقال قتادة : والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة أو ماشاء الله من ذلك ، وقول قتادة لطيف المعنى جدًا ، وحاصله أنه يقول في معناه : أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لايترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن ، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل أمر به ليهتدي به من قدر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته .

ثم قال جل وعلا مسليًا لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه وآمرًا له بالصبر عليهم ﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي في شيع الأولين ﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ أي يكذبونه ويسخرون به . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا ﴾ أي فأهلكنا المكذبين بالرسل ، وقد كانوا أشد بطشًا من هؤلاء المكذبين لك يا محمد .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ قال مجاهد : سنتهم . وقال قتادة : عقوبتهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ولئن سألت يامحمد هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لاشريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد . ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي فراشًا قرارًا ثابتة تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتنصرفون ، مع أنها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولاهكذا ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي طرقًا بين الجبال والأودية ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي في سيركم من بلد الى بلد ، وقطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي أرضًا ميتة ، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها ، فقال : ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ثم قال ﷻ : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك . ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ ﴾ أي السفن ﴿ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ أي لتستووا متمكنين مرتفعين ﴿ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ أي على ظهور هذا الجنس ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ ﴾ أي فيما سخر لكم ﴿ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مقاومين ، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه . قال ابن عباس وقتادة والسدي : مقرنين ، أي مطيقين ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي لصائرون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى : ﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ .

ذكر الاحاديث الواردة عند ركوب الدابة : عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال : إن رسول الله ﷺ أردفه على دابته ، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثًا ، وحمد ثلاثًا ، وسبح ثلاثا ، وهلل واحدة . ، ثم استلقى عليه وضحك ، ثم أقبل عليه فقال : « ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت ؛ إلا أقبل الله ﷻ عليه ، فضحك إليه كما ضحكت اليك » (١) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثًا ثم قال : « ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ثم يقول : « اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتعوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا السفر واطو لنا البعيد ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٣٠) .

اللَّهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللَّهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا » .
وكان ﷺ إذا رجع الى أهله قال : « آيبون تائبون إن شاء اللَّه عابدون لربنا حامدون [١] » .

عن أبي لاس الخزاعي قال : حملنا رسول اللَّه ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج ، فقلنا : يا رسول اللَّه ما نرى أن تحملنا هذه ، فقال له ﷺ : « ما من بعير إلا في ذروته شيطان ، فاذكروا اسم اللَّه عليها إذا ركبتموها كما آمركم ، ثم امتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل اللَّه ﷻ » [٢] .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها للَّه تعالى ، وكذلك جعلوا له في قسمي البنات والبنين أخسهما وأردأهما وهو البنات ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ وقال جل وعلا ههنا ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ ثم قال جل وعلا : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار . ثم ذكر تمام الإنكار ، فقال جلت عظمته : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه للَّه من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة ، وتعلوه كآبة من سوء مابشر به ، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك ، يقول تبارك وتعالى : فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى اللَّه ﷻ . ثم قال ﷻ : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة ، وإذا خاصمت فلا عبارة لها ، بل هي عاجزة عيية ، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب اللَّه العظيم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك ، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال : ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أي شاهدوه وقد خلقهم اللَّه إناثًا ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ﴾ أي بذلك ﴿ وَيُسْأَلُونَ ﴾ عن ذلك يوم القيامة ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾ أي لو أراد اللَّه لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات اللَّه ؛ فإنه عالم بذلك ، وهو يقررنا عليه ، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ :

أحدها : جعلهم للَّه تعالى ولدًا ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًّا كبيرًا .

الثاني : دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا .

الثالث : عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من اللَّه ﷻ ، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء والخبط في الجاهلية الجهلاء .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٤٧) وأبو داود في السنن (٢٥٩٩) والدارمي في السنن (٢/٢٨٧) وأحمد في مسنده (٢/١٤٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٢١) والحاكم في المستدرك (١/٤٤٤) وابن خزيمة في صحيحه (٢٥٤٣) .

الرابع : احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرًا ، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلًا كبيرًا ؛ فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار ؛ فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه قال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يكذبون ويتقولون ، وقال مجاهد يعني مايعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك .

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل شركهم ﴿ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ أي فيما هم فيه أي ليس الأمر كذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة ، والمراد بها الدين ههنا . وقولهم ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم ﴾ أي وراءهم ﴿ مُّهْتَدُونَ ﴾ دعوى منهم بلا دليل . ثم بين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل ، تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ ثم قال ﷺ : ﴿ قَٰلَ ﴾ أي يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ أي ولو علموا وتيقنوا صحة ماجئتهم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله . قال الله تعالى : ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها ، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان ، فقال : ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ

مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ ﴾ أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان ، وهي لا إله إلا الله ، أي جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ أي إليها .

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم في قوله ﷻ : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ ﴾ يعني لا إله إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها ، ثم قال جل وعلا : ﴿ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني المشركين ﴿ وَءَابَآءَهُمۡ ﴾ أي : فتطاول عليهم العمر في ضلالهم ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴾ أي بين الرسالة والنذارة ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ أي كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والراح كفرًا وحسدًا وبغيًا ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس ﴿ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ أي هل كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف ، قال ابن عباس وغير واحد : إنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي . وعن مجاهد : يعنون عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي . وعن ابن عباس : جبارًا من جبابرة قريش ، وعنه أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، وعن مجاهد : يعنون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف ، والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان . قال الله تبارك وتعالى رادًا عليهم في هذا الاعتراض : ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ ﴾ أي ليس الأمر مردودًا إليهم . بل إلى الله ﷻ ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته ؛ فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبًا ونفسًا . وأشرفهم بيتًا ، وأطهرهم أصلًا .

ثم قال ﷻ مبينًا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة ، فقال : ﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ الآية . وقوله جلت عظمته ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ ﴾ قيل : معناه ليسخر بعضهم بعضًا في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا . ثم قال ﷻ : ﴿ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ أي رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ أي لولا أن يعتقد كثيرمن الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ﴿ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ ﴾ أي سلالم ودرجًا من فضة ﴿ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴾ أي يصعدون ﴿ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا ﴾ أي أغلاقا على أبوابهم ﴿ وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾ أي جميع ذلك يكون فضة ﴿ وَزُخۡرُفٗاۚ ﴾ أي وذهبًا .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ أي إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى ، أي يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ليُوافوا الآخرة ، وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها . ثم قال ﷻ : ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب ﷺ لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى ﷺ من نسائه فرآه على رمال حصيرقد أثر بجنبه ، فابتدرت عيناه بالبكاء وقال : يا رسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت صفوة

الله من خلقه ، وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس وقال : « أوفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ » ثم قال ﷺ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا [(١)] » . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لوكانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ؛ ما سقى منها كافرًا شربة ماء أبدا [(٢)] » .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ أي يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ والعشا في العين ضعف بصرها ، والمراد ههنا عشا البصيرة ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الآية ، ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله ويهديه إلى صراط الجحيم . فإذا وافى الله ﷻ يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به ، فقال : ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَانَا ﴾ يعني القرين والمقارن . والمراد بالمشرقين ها هنا هو ما بين المشرق والمغرب ، وإنما استعمل ها هنا تغليبًا كما يقال : القمران والعمران والأبوان .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم . وقوله جلت عظمته ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ أي لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا ، ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم ، وملكه ماتضمنته صياهم .

وفي الحديث : « والنجوم أمنة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون » [(٣)] ثم قال ﷻ : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم .

ثم قال ﷻ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قيل : معناه لشرف لك ولقومك ، قاله ابن عباس ومجاهد ،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٣) وأحمد في مسنده (١٤٠/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٢٠) والألباني في الصحيحة (٦٨٦) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٩٩/٤) والحاكم في المستدرك (٤٥٧/٣) ومعنى الحديث : أن النجوم مادامت باقية في السماء فإن السماء باقية ، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في السماء وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت .

واختاره ابن جرير ولم يحك سواه . وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين »(١) ومعناه أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم ؛ فهم أفهم الناس له ، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه ، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم ، وقيل : معناه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ ﴾ أي لتذكير لك ولقومك ، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم ﴿ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ أي عن هذا القرآن ، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له .

وقوله ﷺ : ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾ أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد .

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ۝ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ۝ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبني إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظامًا كيده وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع ، والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاءهم بها ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ ﴾ ومع هذا مارجعوا عن غيهم وضلالهم ، وجهلهم وخبالهم ، وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ويتلطفون له في العبارة بقولهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ أي العالم ، قاله ابن جرير ، وكان علماء زمانهم هم السحرة . ولم يكن السحر في زمانهم مذمومًا عندهم ؛ فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم ؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لاتناسب ذلك ، وإنما هو تعظيم في زعمهم ، ففي كل مرة يعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل ، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه .

﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ۝ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده : أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها ﴿ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ ﴾ قال قتادة : قد كانت لهم جنات وأنهار ماء ﴿ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك ، يعني موسى وأتباعه فقراء ضعفاء .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/٤) والبيهقي في السنن (١٤٣/٨) والطبراني في الكبير (٣٣٨/١٩) .

وقوله : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ قال السدي : يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين ، وهكذا قال بعض نحاة البصرة : أن أم ههنا بمعنى بل ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها (أما أنا خير من هذا الذي هو مهين) قال ابن جرير : ولو صحت هذه القراءة لكان معناها واضحًا ولكنها خلاف قراءة الأمصار فإنهم قرأوا ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ على الاستفهام . قلت : وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام ، وقد كذب في قوله هذا كذبًا بينًا ، واضحًا فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ويعني بقوله مهين كما قال سفيان : حقير ، وقال قتادة والسدي : يعني ضعيف . وقال ابن جرير : يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عيي حصر . قال السدي : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي لا يكاد يفهم . وقال قتادة والسدي وابن جرير : يعني عيي اللسان ، وقال سفيان : يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير ، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب .

وقوله : ﴿ مَهِينٌ ﴾ كذب ، بل هوالمهين الحقيرخلقة وخلقًا ودينًا ، وموسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد . وقوله : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ افتراء أيضا فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل الله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته ، كما قاله الحسن البصري ، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام ، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها ، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل ، فهو يدري هذا ، وإنما أراد الترويج على رعيته ؛ فإنهم كانوا جهلة أغبياء ، وهكذا قوله : ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ وهي مايجعل في الأيدي من الحلي ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أي يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه ، نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ عن ابن عباس : ﴿ آسَفُونَا ﴾ أسخطونا .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد مايشاء وهو مقيم على معاصيه ؛ فإنما ذلك استدراج منه له » ثم تلا ﷺ ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [1] . وقوله ﷻ : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ قال أبو مجلز : سلفًا لمثل من عمل بعملهم . وقال مجاهد : ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أي عبرة لمن بعدهم .

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٤) والألباني في الصحيحة (٤/٣) .

مَلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك : يضحكون أي أعجبوا بذلك ، وقال قتادة : يجزعون ويضحكون . وقال إبراهيم النخعي : يعرضون ، وكأن السبب في ذلك ماذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال : وجلس رسول الله ﷺ ، فيما بلغني ، يومًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ﷺ ، فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليه ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ الآيات . ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعرى التميمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبد الله الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته ، سلوا محمدًا أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرًا ، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ؛ فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته » فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ ، أي عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان ، الذين مضوا على طاعة الله ﷻ ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ الآيات . ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصومته ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ أي يصدون عن أمرك بذلك من قوله . ثم ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أي ماوضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلًا على علم الساعة يقول : ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

وقوله ﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ قال قتادة : يقولون آلهتنا خير منه .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ﴾ أي مراء ، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية ، لأنها لما لا يعقل ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ثم هي خطاب لقريش ، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه ،

فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلًا منهم ليسوا يعتقدون صحتها ، عن أبي أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل » ثم تلا رسول الله له هذه الآية ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام . ماهو إلا عبد من عباد الله ﷻ أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء . وقوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً ﴾ أي بدلكما ﴿ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ قال السدي : يخلفونكم فيها ، وقال ابن عباس ﷺ وقتادة : يخلف بعضهم بعضا كما يخلف بعضكم بعضًا ، وهذا القول يستلزم الأول .

وقوله ﷺ : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ أي أمارة ودليل على وقوع الساعة . قال مجاهد : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ أي آية للساعة خروج عيسى ابن مريم ﷺ قبل يوم القيامة ، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وغيرهم ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى ﷺ قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أي لا تشكوا فيها أنها واقعة وكائنة لا محالة ﴿ وَاتَّبِعُونِ ﴾ أي فيما أخبركم به ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ولايصدنكم الشيطان ! أي عن اتباع الحق ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾ أي بالنبوة ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ قال ابن جرير : يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية . وقوله ﷻ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما جئتكم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي أنا وأنتم عبيد له فقراء إليه مشتركون في عبادته وحده لا شريك له ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم وِ هو عبادة الرب جل وعلا وحده . وقوله ﷺ : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أي اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعي أنه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله . تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي فإنها كائنة لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غيرمستعدين فاذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولايدفع عنهم ، وقوله تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ أي كل صداقة وصحابة لغير الله فانها تنقلب يوم القيامة عداوة ، إلا ما كان لله ﷻ فإنه دائم بدوامه . عن علي ﷺ : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦/٢) والترمذي في السنن (٣٢٥٣) والحاكم في المستدرك (٤٤٧/٢) .

لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة ، فذكر خليله فقال : اللَّهم إن فلانًا خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، وينبئني أني ملاقيك ، اللَّهم فلا تضله بعدي حتى تريه مثل ما أريتني ، وترضى عنه كما رضيت عني ، فيقال له : اذهب فلو تعلم ماله عندي لضحكت كثيرًا وبكيت قليلًا ، قال : ثم يموت الآخر فتجتمع أرواحهما فيقال : ليثنِ أحدكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل . وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول : اللَّهم إن خليلي فلانًا كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك . ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، ويخبرني أني غيرملاقيك . اللَّهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني ، وتسخط عليه كما سخطت علي قال : فيموت الكافر الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : ليثنِ كل واحد منكما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بئس الأخ وبئس الصاحب وبئس الخليل .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ثم بشرهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ أي آمنت قلوبهم وبواطنهم ، وانقادت لشرع اللَّه جوارحهم وظواهرهم ، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال : فيتبعها ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ قال : فييأس الناس منها غير المؤمنين . ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أي يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾ أي نظراؤكم ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أي تتنعمون وتسعدون ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ أي زبادي آنية الطعام ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ وهي آنية الشراب أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿ وَفِيهَا مَا تشتهي ٱلْأَنفُسُ ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ تشتهيه الأنفس ﴾ [1] . ﴿ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ أي طيب الطعام والريح وحسن المنظر .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة من له سبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة ، وإن له ثلثمائة خادم ، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلثمائة صحفة – ولا أعلمه إلا قال : من ذهب ، في كل صحفة لون ليس في الأخرى ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، ومن الأشربة ثلثمائة إناء في كل إناء لون ليس في الآخر ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، وإنه ليقول : يارب ، لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم ، لم ينقص مما عندي شيء ، وإن له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا ، وإن الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض » [2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ ، أي لاتخرجون منها ولاتبغون عنها حولًا .

ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، أي أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة اللَّه إياكم ؛ فإنه لا يدخل أحدًا عمله الجنة ، ولكن برحمة اللَّه وفضله ، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات ، عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿ وفيها ما تشتهيه ﴾ بإثبات الهاء بعد الياء وقرأ الباقون بحذف الهاء (حجة القراءات ص ٦٥٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣١١) والترمذي في السنن (٢٥٥٣) وأحمد في مسنده ٢٧/٣ .

ﷺ : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة ، فيكون له فيقول : ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ فيكون له شكرًا »[1] قال : وقال رسول الله ﷺ : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار . والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة »[2] . وذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ أي من جميع الأنواع ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي مهما اخترتم وأردتم . ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ لَا يُفَتَّرُ ﴾ أي ساعة واحدة ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي آيسون من كل خير ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم . وإرسال الرسل إليهم ، فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاء وفاقًا وماربك بظلام للعبيد ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ ﴾ وهو خازن النار . عن صفوان ابن يعلى عن أبيه ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[3] ، أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه فإنهم كما قال تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ ﴾ فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالكا ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها ، ثم ذكر سبب شقوتهم ، وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله ، فعودوا على أنفسكم بالملامة . واندموا حيث لا تنفعكم الندامة ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ قال مجاهد : أرادوا كيد شر ، فكدناهم ؛ وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه ، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم ، ولهذا قال : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ ﴾ أي سرهم وعلانيتهم ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه والملائكة أيضًا يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥١٢/٢ ، والحاكم في المستدرك ٤٣٥/٢ بتقديم أهل النار على أهل الجنة .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٩) .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ ، أي لو فرض هذا لعبدته على ذلك ؛ لأني عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى ، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ أي الآنفين ، ويقال : ﴿ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ الجاحدين من عبد يعبد[1] . وقال قتادة : هي كلمة من كلام العرب ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي ، وقال أبو صخر : أي فأنا أول من عبده بأن لا ولد له ، وأول من وحده ، وقال مجاهد : أي أول من عبده ووحده وكذبكم ، وقال البخاري : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ الآنفين وهما لغتان رجل عابد وعبد . والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع ، وقال السدي : لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولد ولكن لا ولد له ، وهو اختيار ابن جرير ، ورد قول من زعم أن إن نافية . ولهذا قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ؛ فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفء له فلا ولد له .

وقوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ﴾ أي في جهلهم وضلالهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في دنياهم ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة ، أي فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض يعبده أهلهما وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي هو خالقهما ومالكهما ، والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة ، فسبحانه وتعالى عن الولد وتبارك ، أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص ؛ لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمة الأمور نقضًا وإبرامًا ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي فيجازي كلًا بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي من الأصنام والأوثان ﴿ الشَّفَاعَةَ ﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا استثناء منقطع ؛ أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له . ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لاشريك له في ذلك ، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئًا ولا يقدر على شيء ؛ فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي وقال محمد ﷺ : قيله أي شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه ، فقال : يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، قال البخاري : وقرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - ﷺ(وقال الرسول يارب ، وقال مجاهد : في قوله : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال : يؤثر الله ﷻ قول محمد ﷺ . ثم حكى ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ ﴾ ، قراءتين إحداهما النصب ، ولها توجيهان : أحدهما أنه معطوف على قوله تبارك

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٩) .

وتعالى : ﴿ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ﴾ والثاني : أن يقدر فعل وقال : قيله ، والثانية : الخفض[1] وقيله عطفًا على قوله : ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ وتقديره وعلم قيله . وقوله تعالى : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ ، أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلًا وقولًا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديد من اللّٰه تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين اللّٰه أفواجًا ، وانتشر الاسلام في المشارق والمغارب واللّٰه اعلم .

(١) قرأ عاصم وحمزة ﴿ وقيله يا ربِّ ﴾ بكسر اللام ، والباقون بالنصب (حجة القراءات ص : ٦٥٥) .

سورة الدخان

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حم الدخان في ليلة ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » [١] .

وعن زيد بن حارثة أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد : « إني قد خبأت خبأ فما هو ؟ » وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان ، فقال : هو الدخ . فقال : « اخسأ ماشاء الله » ثم انصرف [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة ، وهي ليلة القدر وكان ذلك في شهر رمضان ، ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة فقد أبعد النجعة ، فإن نص القرآن أنها في رمضان : وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أي معلمين الناس ماينفعهم ويضرهم شرعًا لتقوم حجة الله على عباده .

وقوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أي في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها . وهكذا روي عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف . وقوله جل رعلا : ﴿ حَكِيمٍ ﴾ ، أي محكم لا يبدل ولا يغير ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ ، أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبينات ، فإن الحاجة كانت ماسة إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم متحققين . ثم قال تعالى : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ الآية .

﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون ، أي : قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به ، ثم قال ﷻ متوعدًا لهم ومهددًا : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ عن

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٨٨) بنحوه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٥) والطبراني في الكبير (١٦٢/١٢) .

مسروق قال : دخلنا المسجد ، يعني مسجد الكوفة عند أبواب كندة ، فإذا رجل يقص على أصحابه ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام ، قال : فأتينا ابن مسعود ﷺ ، فذكرنا له ذلك وكان مضطجعًا ، ففزع فقعد وقال : إن الله ﷻ قال لنبيكم ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم الله أعلم ، سأحدثكم عن ذلك ، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ، قال الله تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل : يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى ﷺ لهم فسقوا فنزلت ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ قال ابن مسعود ﷺ : فيكشف عنهم العذاب يوم القيامة ، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ قال : يعني يوم بدر ، قال ابن مسعود ﷺ : فقد مضى خمسة : الدخان ، والروم والقمر ، والبطشة ، واللزام [١] .

وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة عن أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ ، قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » [٢] . عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم أنذركم ثلاثا : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال » [٣] .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بين واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسر به ابن مسعود ﷺ إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ أي يتغشاهم ويعمهم ، ولو كان أمرًا خياليًا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا كقوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أو يقول بعضهم لبعض ذلك . وقول الله ﷻ : ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله جلت عظمته ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهكذا قال جل وعلا ههنا : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٥٤) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٧) والترمذي في السنن (٢١٨٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٤) ومسلم في الزكاة (١٢٩) .

﴿ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ . يقول : كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولًا بين الرسالة والنذارة ، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه بل كذبوه وقالوا : معلم مجنون .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ يحتمل معنيين : (أحدهما) أنه بقوله تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . و (الثاني) : أن يكون المراد إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلًا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم . وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه عليهم ، ولا يلزم أيضًا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه .

وقوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ فسر ذلك ابن مسعود ﷺ بيوم بدر ، والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضًا .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى : ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني موسى الكليم عليه الصلاة والسلام ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي مأمون على ما أبلغكموه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي لا تستكبروا عن اتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه ﴿ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله اللّه تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعات ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ قال ابن عباس ﵄ وأبو صالح : هو الرجم باللسان وهو الشتم . وقال قتادة : الرجم بالحجارة ؛ أي أعوذ باللّه الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أي فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي اللّه بيننا . فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم وأقام حجج اللّه تعالى عليهم . كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا ، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ فعند ذلك أمره اللّه تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ولهذا قال ﷻ : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ .

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر ، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم ، فأمره اللّه تعالى أن يتركه على حاله ساكنًا وبشره بأنهم جند مغرقون فيه ، وأنه لا

يخاف دركًا ولا يخشى ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ كهيئته وامضه ، وقال مجاهد : ﴿ رَهْوًا ﴾ طريقًا يبسًا كهيئته . يقول : لا تأمره يرجع ، اتركه حتى يرجع آخرهم ، ثم قال تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ ﴾ وهي البساتين ﴿ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ المنابر ، وقال في قول الله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ قال : كانت الجنان بحافتي نهر النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعًا ، ما بين أسوان إلى رشيد ، وكان له تسع خلج : خليج الأسكندرية ، وخليج دمياط ، وخليج سردوس ، وخليج منف ، وخليج الفيوم ، وخليج المنتهى ، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، وزرع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء ، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعًا لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها .

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ أي عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل كما قال تبارك وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

وقال عز وجل ههنا : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ وهم بنو إسرائيل كما تقدم . وقوله جل جلاله : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم ، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم إجرامهم وعتوهم وعنادهم . عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » وتلا هذه الآية ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ (١) . وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملًا صالحًا يبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح ، فتفقدهم فتبكي عليهم .

وعن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل عليًا رضي الله عنه : هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء ، ثم قرأ علي رضي الله عنه ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ . وقال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحًا ، قال : فقلت له : أتبكي الأرض ؟ فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل ؟

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون والإذلاله لهم ،

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤١٣٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٥/٧) .

وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة ، وقوله تعالى : ﴿ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا ﴾ أي مستكبرًا جبارًا عنيدًا ﴿ مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مسرف في أمره سخيف الرأي على نفسه . وقوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ قال مجاهد : على من هم بين ظهريه . وقال قتادة : اختيروا على أهل زمانهم ذلك ، وكان يقال : إن لكل زمان عالمًا ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي أهل زمانه ذلك . وقوله ﷻ : ﴿ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ ﴾ أي الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾ أي اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به .

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد ، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور ، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا ، فإن كان البعث حقًّا ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقًا جديدًا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا ، يوم تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا ، ثم قال تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا ومنذرًا لهم بأسه الذي لا يرد كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع ، وهم سبأ ، حيث أهلكهم الله ﷻ وخرب بلادهم وشردهم في البلاد وفرقهم شذر مذر ، كما تقدم ذلك في سورة سبأ وهي مصدرة بإنكار المشركين للمعاد ، وكذلك ههنا شبههم بأولئك وقد كانوا عربًا من قحطان ، كما أن هؤلاء عرب من عدنان ، وقد كانت حمير وهم سبأ كلما ملك فيهم رجل سموه تبعًا ، كما يقال : كسرى لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم ، وفرعون لمن ملك مصر كافرا ، والنجاشي لمن ملك الحبشة وغير ذلك من أعلام الأجناس .

ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه ، واتسعت مملكته وكثرت رعاياه وهو الذي مصر الحيرة ، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار ، وجعلوا يقرونه بالليل فاستحيا منهم وكف عنهم ، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة ، فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان ، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن ، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه عن ذلك أيضًا وأخبراه بعظمة هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان ، فعظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحبر ، ثم كر راجعًا إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه ، وكان إذا ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام فيه من يكون من الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فتهود معه عامة أهل اليمن ، وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة [1] ، وقال سعيد بن جبير : كسا تبع الكعبة وكان سعيد ينهى عن سبه ، وتبع هذا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٠/١ - ٢٧ .

هو تبع الأوسط ، واسمه أسعد أبو كريب بن مليكرب اليماني ، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستًا وعشرين سنة ، ولم يكن في حمير أطول مدة منه ، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة سنة . وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجر نبي في آخر الزمان اسمه أحمد ، قال في ذلك شعرًا واستودعه عند أهل المدينة ، فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفًا عن سلف ، وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن يزيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره وهو :

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره ... لكنت وزيرًا له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه ... وفرجت عن صدره كل غم

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حفر قبر بصنعاء في الإسلام فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين ، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب : هذا قبر حيي وتميس ، وروي أن حيي وتماضر ابنتي تبع ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئًا ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : لا تسبوا تبعًا فإنه قد كان رجلًا صالحًا . وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا تبعًا ؛ فإنه قد كان أسلم » (١) .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل كقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق ، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين . وقوله عز وجل ﴿ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، أي يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا ﴾ أي لا ينفع قريب قريبا . وقوله جل وعلا ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من خارج ، ثم قال : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ أي لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي هو عزيز ذو رحمة واسعة .

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ الأثيم أي في قوله وفعله ، وهو الكافر ، وذكر غير واحد أنه أبو جهل ، ولا شك في دخوله في هذه الآية ، ولكن ليست خاصة به . وقوله : ﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾ قالوا : كعكر الزيت ﴿ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٠/٥) والطبراني في الكبير (٢٩٦/١١) .

﴿ ٱلْحَمِيمِ ﴾ أي من حرارتها ورداءتها ، وقوله : ﴿ خُذُوهُ ﴾ أي الكافر ، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية خذوه ابتدره سبعون ألفاً منهم . وقوله : ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أي سوقوه سحبًا ودفعًا في ظهره ، قال مجاهد : أي خذوه فادفعوه ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي وسطها ﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ وقد تقدم أن الملك يضربه بمقمعة من حديد ، فتفتح دماغه ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه ، فيسلت ما في بطنه من أمعائه حتى تمرق من كعبيه ، أعاذنا الله تعالى من ذلك . وقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : أي لست بعزيز ولا كريم . عن عكرمة قال : لقي رسول الله ﷺ أبا جهل لعنه الله فقال : « إن الله تعالى أمرني أن أقول لك : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » قال : فنزع ثوبه من يده وقال : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، ولقد علمت أني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم ، قال : فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا سمي القرآن مثاني ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي لله في الدنيا ﴿ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أي في الآخرة وهو الجنة ، قد أمنوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ومن الشيطان وكيده وسائر الآفات والمصائب ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم . وقوله تعالى : ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ ﴾ وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ أي على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره . وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ عن أنس رضي الله عنه رفعه قال : لو أن حوراء بزقت في بحر لجي لعذُب ذلك الماء لعذوبة ريقها[1] .

وقوله ﷻ : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم ، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ؛ بل يحضر إليهم كلما أرادوا . وقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ هذا استثناء يؤكد النفي فإنه استثناء منقطع ، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدًا كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت »[2] وعن

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٥٣٥/٤ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٣٠) وأحمد في مسنده (٢٦١/٢) والحاكم في المستدرك (٨٣/١) .

أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول ﷺ : « يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً » [١] وعن جابر رضي الله عنه قال : سئل نبي الله ﷺ : أينام أهل الجنة ؟ فقال ﷺ : «النوم أخو الموت ، وأهل الجنة لا ينامون » [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم ، فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المرهوب ، ولهذا قال عَجَلَ : ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحدًا لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ﷺ : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » [٣] . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلًا واضحًا بينا جليًا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأعلاها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتفهمون ويعلمون .

ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسليًا له وواعدًا له بالنصر ، ومتوعدًا لمن كذبه بالعطب والهلاك : ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ أي انتظر ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ أي فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة ، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ الآية .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٢) والترمذي في التفسير (٣٣٤٦) وأحمد في مسنده (٣٨/٣) .
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٢٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤١٥/١٠) والألباني في الصحيحة (١٠٨٧) .
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤) ومسلم في صفات المنافقين (٧١) وأحمد في مسنده (٢٣٥/٢) جميعهم بنحوه .

سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه ، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض ، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس ، والأنواع من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات ، وما في البحر من الأصناف المتنوعة واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران ، هذا بظلامه وهذا بضيائه ، وما أنزل اللَّه تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه ، وسماه رزقًا ؛ لأن به يحصل الرزق ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء . وقوله ﷻ : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ أي جنوبًا وشمالًا ودبورًا وصبا ، برية وبحرية ، ليلية ونهارية . ومنها ما هو للمطر ، ومنها ما هو للقاح ، ومنها ما هو غذاء للأرواح ، ومنها ما هو عقيم لا ينتج ، وقال ﷻ : أولًا : ﴿ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم يوقنون ، ثم يعقلون ، وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي متضمنة الحق من الحق ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي أفاك في قوله كذاب حلاف مهين أثيم في فعله وقلبه كافر بآيات اللَّه ولهذا قال : ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أي على كفره وجحوده استكبارًا وعنادًا ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كأنه ما سمعها ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأخبره أن له عند اللَّه تعالى يوم القيامة عذابًا أليمًا موجعًا ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أي إذا حفظ شيئًا من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزوًا ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به ، ولهذا روي عن ابن عمر ﷺ قال : نهى رسول اللَّه ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو [1] . ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال : ﴿ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا ﴾ أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون اللَّه شيئًا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٩٠) ومسلم في الإمارة (٩٢) وأبو دواد في السنن (٢٦١٠) وأحمد في مسنده (٦/٢) .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ يعني القرآن ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ وهو المؤلم الموجع .

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى ، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أي في المتاجر والمكاسب ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة من الأقاليم النائية والآفاق القاصية ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي من الكواكب والجبال والبحار والأنهار ، وجميع ما تنتفعون به أي الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ولهذا قال ﴿ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ أي من عنده وحده لا شريك له في ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ أي ليصفحوا عنهم ويتحملون الأذى منهم ، وكان هذا في ابتداء الإسلام ، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ؛ ليكون ذلك كالتأليف لهم ، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد . هكذا روي عن ابن عباس ﵄ وقتادة ، وقال مجاهد : لا ينالون نعم الله تعالى ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله ﷻ مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم وجعله الملك فيهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي من المآكل والمشارب ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي في زمانهم ﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ أي حججًا وبراهين وأدلة قاطعات ، فقامت عليهم الحجج ، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة ، وإنما كان ذلك بغيًا منهم على بعضهم بعضًا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي سيفصل بينهم بحكمه العدل ، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد منهجهم ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ أي اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ، وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي وماذا تغني عنهم ولا يتهم لبعضهم

بعضًا ؛ فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارًا ودمارًا وهلاكًا ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، ثم قال ﷻ : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : لا يستوي المؤمنون والكافرون وقال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي عملوها وكسبوها ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ أي نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة وفي هذه الدار . عن أبي ذر ﷺ قال : إن اللّٰه تعالى بنى دينه على أربعة أركان ، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقي اللّٰه من الفاسقين ، قيل : وما هن يا أبا ذر ؟ قال : يسلم حلال اللّٰه للّٰه ، وحرام اللّٰه للّٰه ، وأمر اللّٰه للّٰه ، ونهي اللّٰه للّٰه ، لا يؤتمن عليهن إلا اللّٰه ، قال أبو القاسم ﷺ : « كما أنه لا يجتنى من الشوك العنب كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار »(١) . وقال ﷻ : ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال جل وعلا : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أي إنما يأتمر بهواه ، فما رآه حسنًا فعله وما رآه قبيحًا تركه ، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين ، وعن مالك فيما روي عنه من التفسير لا يهوى شيئًا إلا عبده . وقوله : ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ يحتمل قولين : أحدهما : وأضله اللّٰه لعلمه أنه يستحق ذلك ، والآخر : وأضله اللّٰه بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه . والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئًا يهتدي به ولا يرى حجة يستضيء بها . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي ما ثمّ إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثمّ معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد ، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البداءة والرجعة ، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع ، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا العقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا . ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أي يتوهمون ويتخيلون . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « يقول تعالى : يؤذيني ابن آدم ،

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٠٨) .

يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب ليله ونهاره »[١] وفي رواية : « لا تسبوا الدهر فان الله تعالى هو الدهر»[٢] . وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : استقرضت عبدي فلم يعطني وسبني عبدي ، يقول : وادهراه ، وأنا الدهر »[٣] قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله ﷻ ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال ، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد ، والله أعلم ، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذًا من هذا الحديث .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي إذا استدل عليهم وبين لهم الحق ، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقًا . قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أي كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود أي فالذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي إنما يجمعكم إلى يوم القيامة لايعيدكم في الدنيا حتى تقولوا ﴿ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شك فيه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ أي يرون وقوعه بعيدًا والمؤمنون يرون ذلك سهلًا قريبًا .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة ، ويقال إن هذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة ، لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه ، حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ويقول : نفسي نفسي ! لا أسألك اليوم إلا نفسي . وحتى إن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول : لا أسألك اليوم إلا نفسي ، لا أسألك مريم التي ولدتني . وعن عبد الله بن باباه أن رسول الله ﷺ قال : « كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم »[٤] .

وقوله ﷻ : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ يعني كتاب أعمالها ولهذا قال ﷺ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩١) وأحمد في مسنده (٢/٢٧٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الأدب (٥) وأحمد في مسنده (٢/٣٩٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٠٠) والحاكم في المستدرك (٢/٤٩١) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٢٧٢) .

تَعْمَلُونَ ﴾ أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها ولهذا قال جلت عظمته ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص . وقوله ﷻ ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم . قال ابن عباس ﵄ وغيره : تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة ، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر ، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفًا ولا ينقص حرفًا ثم قرأ ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي : آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ وهي الجنة كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء [(١)] ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي البين الواضح . ثم قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا : أما قرئت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم عن اتباعها ، وأعرضتم عن سماعها ، وكنتم قومًا مجرمين في أفعالكم مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب ؟ ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ ، أي إذ قال لكم المؤمنون ذلك ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي لانعرفها ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أي إن نتوهم وقوعها إلا توهمًا أي مرجوحًا ولهذا قال : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أي بمتحققين . قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ أي وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي من العذاب والنكال ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ ﴾ أي نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أي فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ . وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة «ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب . فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني » [(٢)] .

قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا تسخرون وتستهزئون بها ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي خدعتكم فاطمأننتم

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٤) وأحمد في مسنده (٢/٢٧٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٥) .

إليها فأصبحتم من الخاسرين ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أي من النار ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي لا يطلب منهم العتبى بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين ، قال ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي المالك لهما وما فيهما ، ولهذا قال : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم قال جل وعلا ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : يعني السلطان أي هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه . وقد ورد في الحديث الصحيح « يقول اللّٰه تعالى : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي فمن ، نازعني واحدًا منهما أسكنته ناري »[1] . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٢/٢) والحاكم في المستدرك (١٦/١) .

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ ، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام ، الحكمة في الأقوال والأفعال ، ثم قال تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي لا على وجه العبث والباطل ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ أي لاهون عما يراد بهم ، وقد أنزل اللّه تعالى إليهم كتابًا وأرسل إليهم رسولًا ، وهم معرضون عن ذلك كله أي وسيعلمون غبَّ ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي لهؤلاء المشركين العابدين مع اللّه غيره ﴿ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي ولاشرك لهم في السموات ولافي الأرض وما يملكون من قطمير ، إن الملك والتصرف كله إلا للّه ﷻ ، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به ؟ من أرشدكم إلى هذا ؟ من دعاكم إليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم ؟ ولهذا قال : ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ ﴾ أي هاتوا كتابًا من كتب اللّه المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يأمركم بعبادة هذه الأصنام ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أي دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي لا دليل لكم لا نقليًا ولا عقليًا على ذلك ، ولهذا قرأ آخرون : أو ﴿ أو أَثَرة من علم ﴾ أي : أو علم صحيح تؤثرونه عن أحد ممن قبلكم ، كما قال مجاهد في : ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ : أو أحد يأثر علما ، وقال العوفي عن ابن عباس : أو بنية من الأحقاف .

وعن ابن عباس ﵄ ، قال أو أثرة من علم ، قال : الخط [١] . وقال أبو بكر بن عياش : أو بقية من علم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ أي لا أضل ممن يدعو من دون اللّه أصنامًا ، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة ، وهي غافلة عما يقول لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش ، لأنها جماد وحجارة صم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي سيخونونهم أحوج مايكونون إليهم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ قُلْ مَا كُنتُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٦/١) .

بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول ﷻ مخبرًا عن المشركين في كفرهم وعنادهم : إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات ، أي في حال بيانها ووضوحها وجلائها ، يقولون : ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي سحر واضح وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ ﴾ يعنون محمد ﷺ قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ ﴾ أي لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم ، أن يجيرني منه ، ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ ﴾ هذا تهديد لهم ووعيد أكيد وترهيب شديد .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة ، أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم وغفر ورحم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلي ، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكرون وتستبعدون بعثتي إليكم ؛ فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ما أنا بأول رسول .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ ﴾ قال ابن عباس ﵄ في هذه الآية : نزل بعدها ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، وهكذا قال عكرمة والحسن وقتادة : والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا : هنيئًا لك يا رسول الله فما لنا ؟ فأنزل الله ﷻ هذه الآية . وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ ﴾ قال : أما في الآخرة فمعاذ الله وقد علم أنه في الجنة ، ولكن قال : لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير وأنه لايجوز غيره ، ولاشك أن هذا هو اللائق به ﷺ ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما في الدنيا ؛ فلم يدر ماكان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا ، أيؤمنون أم يكفرون ، فيعذبون فيستأصلون بكفرهم .

روي عن أم العلاء وكانت بايعت رسول الله ﷺ قالت : طار لهم في السكني حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون ﵁ فاشتكى عثمان ﵁ عندنا فمرضناه ، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، شهادتي عليك لقد أكرمك الله ﷻ ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟ » فقلت : لا أدري بأبي أنت وأمي ، فقال رسول الله ﷺ « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي » . قالت : والله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا وأحزنني ذلك فنمت فرأيت لعثمان ﵁ عينًا تجري ، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « ذاك عمله » (١) .

وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسراقة ، وعبد الله بن عمرو ابن حرام والد جابر ، والقراء السبعين

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٣) .

الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة وجعفر بن رواحة وما أشبه هؤلاء ﷺ . وقوله ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ . أي إنما اتبع ما ينزله الله علي من الوحي ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بين النذارة أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل ، والله أعلم .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ أي ماظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جمعكم به قد أنزل علي لأبلغكموه ، وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي ، بشرت به واخبرت بمثل ما اخبر هذا القرآن به . وقوله ﷻ ﴿ فَـَٔامَنَ ﴾ أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن اتباعه ، وقال مسروق : فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام ﷺ وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام ﷺ ، عن عامر ابن سعد عن أبيه قال : ماسمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام ﷺ ، قال : وفيه نزلت ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن لوكان القرآن : خيرًا ماسبقنا هؤلاء إليه ، يعنون بلالًا وعمارًا وصهيبًا وخبابًا ﷺ ، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وماذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية ، وقد غلطوا في ذلك غلطًا فاحشًا وأخطأوا خطأ بينًا ولهذا قالوا : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ وأما أهل السنة والجماعة ، فيقولون : في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة ﷺ هو بدعة ؛ لأنه لوكان خيرًا لسبقونا إليه ؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي بالقرآن ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ : أي كذب قديم ، أي مأثور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ : « بطر الحق ، وغمط الناس » (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ مُّصَدِّقٌ ﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي فصيحًا بينًا واضحًا ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين ، وقوله

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨١٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٩٣) وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) .

تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلون ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ماخلفوا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم ، والله أعلم .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله ﷻ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ . وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما عن سعد ﷺ قال : قالت أم سعد لسعد : أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين ؟ فلا آكل طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى تكفر بالله تعالى ، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا ونزلت هذه الآية ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ الآية [1] . ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبًا من وحم وغشيان وثقل وكرب ، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أي بمشقة أيضا من الطلق وشدته ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ وقد استدل علي ﷺ بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوي صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة ﷺ .

وعن ابن عباس قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرًا ، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أي قوي وشب وارتجل . ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه .. ويقال : إنه لا يتغير غالبًا عما يكون عليه ابن الأربعين ، عن القاسم بن عبد الرحمن قال : قلت لمسروق : متى يؤخذ الرجل بذنوبه ؟ قال : إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك .

عن عثمان ﷺ عن النبي ﷺ قال : « العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة ، خفف الله تعالى حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله تعالى حسناته ومحا سيئاته ، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه الله تعالى في أهل بيته ، وكتب في السماء أسير الله في أرضه » [2] وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق ، تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس ، ثم تركتها حياء من الله ﷻ :

﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ ﴾ أي ألهمني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٣) .

أي في المستقبل ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾ أي نسلي وعقبي ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ ويعزم عليها ، عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد : « اللّهم ألف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، وجنبنا الفواحش ماظهر منها ومابطن ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا شاكرين نعمتك ، مثنين بها عليك قابليها ، وأتممها علينا (١) » .

قال الله ﷻ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا ، التائبون إلى الله المنيبون إليه ، المستدركون مافات بالتوبة والاستغفار ، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم ؛ فنغفر لهم الكثير من الزلل ، ونتقبل منهم اليسير من العمل .

﴿ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي هم في جملة أصحاب الجنة ؟ وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله ﷻ من تاب إليه وأناب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ ، عن الروح الأمين عليه الصلاة والسلام قال : « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ، فيقتص بعضها ببعض ، فإن بقيت حسنة وسع الله تعالى له في الجنة » قال : فدخلت على يزداد ، فحدث بمثل هذا ، قال : قلت : فإن ذهبت الحسنة ؟ قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ (٢) .

عن محمد بن حاطب قال : ونزل في داري حيث ظهر علي ﷺ على أهل البصرة فقال لي يومًا : لقد شهدت أمير المؤمنين عليًا ﷺ ، وعنده عمار وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر ﷺ ، فذكروا عثمان ﷺ فنالوا منه ، فكان علي ﷺ على السرير ومعه عود في يده ، فقال قائل منهم : إن عندكم من يفصل بينكم ، فسألوه ، فقال علي ﷺ : كان عثمان ﷺ من الذين قال الله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ قال : والله عثمان وأصحاب عثمان ﷺ ، قالها ثلاثًا . قال يوسف : فقلت لمحمد بن حاطب : آلله لسمعت هذا من علي ﷺ ؟ قال : آلله لسمعت هذا من علي ﷺ .

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز ، والنجاة ، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال : ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ وهذا عام في كل من قال هذا ، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ فقوله ضعيف ؛ لأن عبد الرحمن بن أبي

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٩٦٥) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦/٢٤) .

بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه . عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما شيئًا ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا الذي أنزل فيه : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب : ما أنزل الله عز وجل فينا شيئًا من القرآن إلا أن الله تعالى أنزل عذري [1] .

وقوله : ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أي أبعث ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم مختبر ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم ، من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . وقوله ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ بعد قوله ﴿ وَالَّذِي قَالَ ﴾ دليل على ماذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك . وقال الحسن وقتادة : هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أي لكل عذاب بحسب عمله ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا يظلمهم ، من مثقال ذرة فما دونها . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات النار تذهب سفالًا ، ودرجات الجنة تذهب علوًّا . وقوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخًا ، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثيرمن طيبات المآكل والمشارب . وتنزه عنها ويقول : إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم ووبخهم وقرعهم . ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ . وقال أبو مجلز : ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا فيقال لهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ فجوزوا من جنس عملهم ، فكما متعوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق وتعاطوا الفسق والمعاصي ، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون ، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة والحسرات المتتابعة والمنازل في الدركات المفظعة ، أجارنا الله جل جلاله من ذلك كله .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه صلى الله عليه وسلم في تكذيب من كذبه من قومه ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام ، بعثه الله عز وجل إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف ، جمع حقف وهو الجبل

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٢٧) .

من الرمل ، قال ابن زيد ، وقال عكرمة : الأحقاف الجبل والغار ، وقال علي بن أبي طالب ﷺ : الأحقاف واد بحضرموت يدعى برهوت تلقى فيه أرواح الكفار ، عن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحمنا الله وأخا عاد »[(١)] . وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين كقوله ﷻ : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي قال لهم هود ذلك ، فأجابه قومه قائلين ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي لتصدنا عن آلهتنا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادًا منهم وقوعه ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم ، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ أي لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر ، ففرحوا واستبشروا به وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر . قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي هو العذاب الذي قلتم : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿ تُدَمِّرُ ﴾ أي تخرب ﴿ كُلَّ شَىْءٍۭ ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي بإذن الله لها في ذلك . ولهذا قال ﷻ : ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ أي قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا . عن الحارث البكري قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ ، فمررت بالربذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : ياعبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة ، فهل أنت مبلغي إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت بها المدينة ، فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال ﷺ ، متقلدًا السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص ﷺ وجهًا قال : فجلست فدخل منزله - أو قال : رحله - فاستأذنت عليه ، فإذن لي ، فدخلت فسلمت ، فقال ﷺ : « هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ » قلت : نعم وكانت لنا الدائرة عليهم ، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فسألتني أن أحملها اليك فهاهي بالباب ، فأذن لها فدخلت فقلت : يارسول الله ان رأيت إن تجعل بيننا وبين تميم حاجزًا فاجعل الدهناء ، فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال : قلت : إن مثلي ماقال الأول معزى حملت حتفها ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ، قال لي وما وافد عاد ؟ ، - وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه - قلت : إن عادًا قحطوا فبعثوا وفدًا لهم يقال له قيل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما : الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة ، فقال : اللّهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللّهم اسق عادًا ماكنت تسقيه ، فمرت به سحابات سود فنودي منها : اختر . فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودي منها ، خذها رمادا رمددًا ، لاتبقي

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٨٥٢) .

من عاد أحدًا ، قال : فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا قدر مايجري في خاتمي هذا حتى هلكوا ، قال أبو وائل : وصدق وكانت المرأة والرجل اذا بعثوا وافدا لهم قالوا : لاتكن كوافد عاد [(١)] . وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم . وقالت : كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه . قالت : يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب وقالوا : هذا عارض ممطرنا » [(٢)] . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت عليهم في البدو إلى الحضر ، فلما رآها أهل الحضر قالوا : هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا ، وكان أهل البوادي فيها ، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا - قال - : عتت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب » [(٣)] .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبًا منه ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه ، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ يعني أهل مكة ، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد ، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضا . وقوله ﷻ : ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ ﴾ أي بيناها وأوضحناها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ﴾ أي فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم ؟ ﴿ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ﴾ أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أي : كذبهم ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها ، والله أعلم .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٣/٣) والطبراني في الكبير (٢٨٨/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٢٨ ، ٤٨٢٩) ومسلم في صلاة الاستسقاء (١٦) وأحمد في مسنده ٦٦/٦ ، ولهواته : جمع لهاة وهي اللحمة الحمراء المعلقة في أعلى الحنك .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢/١٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٣/٧) .

أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

عن الزبير ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ قال : بنخلة ، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة [(١)] ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال سفيان : اللبد بعضهم على بعض كاللبد بعضه على بعض ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين ، إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلَّا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامدًا إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن [(٢)] .

وذكر محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبي ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله ﷻ وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها وأورد ذلك الدعاء الحسن : « اللَّهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى عدو بعيد يتجهمني ، أم إلى صديق قريب ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك ، أو يحل بي سخطك ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » [(٣)] .

قال : فلما انصرف عنهم بات بنخلة فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين ، وهذا صحيح ، ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر ؛ فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور ، وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ قال : صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ إلى : ﴿ ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/١) والحاكم في المستدرك (٥٠٣/٢) والترمذي في السنن (٣٣٢٣) .
(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥/٦) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٧٤٣) .

بعد ذلك وفدوا إليه أرسالًا قومًا بعد قوم ، وفوجًا بعد فوج .

عن معن بن عبد الرحمن ، قال : سمعت أبي يقول : سألت مسروقًا من آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني . أبوك - يعني ابن مسعود ﷺ - أنه آذنته بهم شجرة [١] ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ويكون إثباتًا مقدمًا على نفي ابن عباس ﷺ ، ويحتمل أن يكون في الأولى ، ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة أي أعلمته باجتماعهم ، والله أعلم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات ، والله أعلم .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس ﷺ إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ﷺ كما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ .

ذكر الرواية عنه بذلك : عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود ﷺ : هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحدًا فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة ، فقلنا : اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان في وجه الصبح - أو قال في السحر - : إذ نحن به يجيء من قبل حراء ، فقلنا : يارسول الله ، فذكروا له الذي كانوا فيه فقال : « إنه أتاني داعي الجن ، فأتيتهم فقرأت عليهم » قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، قال : قال الشعبي : سألوه الزاد ، قال عامر : سألوه بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم » - قال - : « فلا تستنجوا بهما ، فإنهما زاد إخوانكم من الجن » [٢] .

عن ابن عباس عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : إنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن فقال رسول الله ﷺ : « يا عبد الله أمعك ماء ؟ » قال : معي نبيذ في إداوة . قال ﷺ : « اصبب عليَّ فتوضأ . فقال النبي ﷺ : « يا عبد الله شراب وطهور » [٣] . وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ خط حوله ، فكان أحدهم مثل سواد النحل ، وقال : « لا تبرح مكانك فأقرئهم كتاب الله » فلما رأى المرعى قال : كأنهم هؤلاء وقال النبي ﷺ : « أمعك ماء ؟ » قلت : لا . قال : « أمعك نبيذ ؟ » قلت : نعم ، فتوضأ به [٤] .

وعن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ قال : ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى وأن نبي الله ﷺ قال : « إني أمرت أن أقرأ على الجن فأيكم يتبعني ؟ » فاطرقوا ثم استتبعهم ، فأطرقوا ثم استتبعهم الثالثة ، فقال رجل : يارسول الله إن ذاك لذو ندبة ، فأتبعه ابن مسعود ﷺ أخو هذيل ، قال : فدخل النبي ﷺ شعبا يقال له : شعب الحجون وخط عليه ، وخط على ابن مسعود ﷺ خطا ليثبته بذلك ، قال : فجعلت أهال وأرى أمثال النسور تمشي في دفونها ، وسمعت لغطًا شديدًا حتى خفت على نبي الله ﷺ ، ثم تلا القرآن فلما رجع رسول الله ﷺ قلت : يا رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٥٩) ومسلم في الصلاة (١٥٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥٢) والترمذي في السنن (٣٢٥٨) وأحمد في مسنده (٤٣٦/١) والبيهقي في السنن (١١/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٥/١) .

ما اللغط الذي سمعت ؟ قال ﷺ : « اختصموا في قتيل ، فقضي بينهم بالحق »[١] .

فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدًا ، فتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ﷻ وشرع الله تعالى لهم على لسانه ماهم محتاجون إليه في ذلك الوقت ، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما . ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه ، وأما ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيدًا منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة ، هذه طريقة البيهقي ، وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود رضي الله عنه ولا غيره ، عن سعيد بن عمرو قال : كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ بإدواة لوضوئه وحاجته ، فأدركه يومًا فقال : « من هذا ؟ » قال : أنا أبو هريرة . قال ﷺ : « ائتني بأحجار استنج بها ، ولا تأتني بعظم ولاروثة » فأتيته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته ، فقلت : يا رسول الله ما بال العظم والروثة ؟ قال ﷺ : « أتاني وفد جن نصيبين فسألوني الزاد ، فدعوت الله تعالى لهم أن لايمروا بروثة ولا عظم إلا وجدوه طعامًا »[٢] فهذا يدل على ماتقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك .

وقد روي عن ابن عباس غير ما روي عنه أولًا من وجه جيد ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ الآية . قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله رسلًا إلى قومهم . فهذا يدل على أنه قد روى القصتين .

عن ابن مسعود رضي الله عنه : كانوا تسعة أحدهم زوبعة ، أتوه من أصل نخلة ، وتقدم عنهم أنهم كانوا خمسة عشر ، وفي رواية : أنهم كانوا على ستين راحلة ، وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان ، وقيل : كانوا ثلثمائة ، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفًا ، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه ﷺ ، ومما يدل على ذلك قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط إني لأظنه هكذا إلا كان كما يظن ، بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس ؛ إذ مر به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظني - أو أن هذا على دينه في الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم - علي بالرجل ، فدعي له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم ، قال : فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني قال : كنت كاهنهم في الجاهلية قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ، قال : بينما أنا يومًا في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع فقالت :

ألم تر الجن وإبلاسها ... ويأسها من بعد انكاسها

ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر رضي الله عنه : صدق ، بينما أنا نائم عند آلهتهم ؛ إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخًا قط أشد صوتًا منه يقول : ياجليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إله إلا الله قال : فوثب القوم فقلت : لا أبرح حتى أعلم ماوراء هذا ، ثم نادى : ياجليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله ، فقمت فما نشبنا أن قيل : هذا نبي[٣] .

---

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٤١/٢٦) .

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٦٠) .

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٦٦) .

وعن البراء ﷺ قال : بينما عمر بن الخطاب ﷺ يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس أفيكم سواد بن قارب ؟ قال : فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس أفيكم سواد بن قارب ؟ قال : فقلت : يا أمير المؤمنين وماسواد بن قارب ؟ قال : فقال له عمر ﷺ : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئًا عجيبًا ، قال : فبينما نحن كذلك ؛ إذ طلع سواد ابن قارب قال : فقال له عمر ﷺ يا سواد حدثنا ببدء إسلامك كيف كان ؟ قال سواد ﷺ : فإني كنت نازلًا بالهند وكان لي رئي من الجن ، قال : فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ جاءني في منامي ذلك ، قال : قم فافهم واعقل إن كنت تعقل ، قد بعث رسول من لؤي بن غالب ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحساسها ... وشدها العيس بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما خير الجن كأنجاسها
فانهض إلى الصفوة من هاشم ... واسم بعينك إلى رأسها

قال : ثم أنبهني فأفزعني وقال : يا سواد بن قارب ، إن الله ﷻ بعث نبيًا فانهض إليه تهتد وترشد ، فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبهني ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلابها ... وشدها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ليس قداماها كأذنابها
فانهض إلى الصفوة من هاشم ... واسم بعينك إلى قابها

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني ثم قال :

عجبت للجن وتخبارها ... وشدها العيس بأكوارها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ليس ذوو الشر كأخيارها
فانهض إلى الصفوة من هاشم ... ما مؤمنو الجن ككفارها

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله ، قال : فانطلقت إلى رحلي فشددته على راحلتي ، فما حللت تسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ فإذا هو بالمدينة يعني مكة ، والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رآني النبي ﷺ قال : « مرحبًا بك يا سواد بن قارب قد علمنا ماجاء بك » ، قال : قلت : يا رسول الله قد قلت شعرًا فاسمعه مني قال ﷺ : « قل ياسواد » فقلت :

اتاني رئيي بعد ليل وهجعة ... ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك رسول من لؤي بن غالب
فشمرت عن ساقي الإزار ووسطت ... بي الدِّعْلِبُ الوجناء بين السَّبَاسِبِ
فأشهد أن اللّه لا رب غيره ... وأنَّك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة ... إلى اللّه يا ابن الأكرمين الأطايب

فمرنا بما ياتيك يا خير مرسل … وإن كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لي شفيعًا يوم لاذو شفاعة … سواك بمغن عن سواد بن قارب

قال : فضحك ، النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال لي : « أفلحت ياسواد » فقال له عمر رضي الله عنه : هل يأتيك رئيك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتني ، ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن [1] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أي طائفة من الجن ﴿ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾ أي استمعوا وهذا أدب منهم .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : « ما لي أراكم سكوتا ؟ للجن كانوا أحسن منكم ردًا ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلا قالوا : ولابشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » [2] . وقوله عز وجل ﴿ فَلَمَّا قُضِىَ ﴾ أي فرغ كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ ﴿ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر وليس فيهم رسل ، ولاشك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولًا لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ . وقال عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ فكل نبي بعثه الله تعالى بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته .

فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ فالمراد هنا مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ أي أحدهما ، ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبرا عنهم : ﴿ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ ولم يذكروا عيسى لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالوا : أنزل من بعد موسى ، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه الصلاة والسلام أول مرة فقال : بخ بخ ! هذا الناموس الذي كان يأتي موسى ، ياليتني أكون فيه جذعًا . ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله . وقوله ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ أي في الاعتقاد والإخبار ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ في الأعمال ؛ فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب ، فخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ .

وهكذا قالت الجن ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ في الاعتقادات ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي في العمليات ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدًا ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس ، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم وهي سورة الرحمن ولهذا قال : ﴿ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ قيل : إن من ههنا زائدة ، وفيه نظر ؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل ، وقيل : إنها

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٥١/٢) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٧٣/٢) والبيهقي في دلائل النبوة (١٧/٢) .

على بابها للتبعيض ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي ويقيكم من عذابه الأليم ، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لايدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة ، ولهذا قالوا هذا في هذا المقام وهو مقام تبجح ومبالغة ، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه . عن ابن عباس ﵄ قال : لايدخل مؤمنو الجن الجنة ؛ لأنهم من ذرية إبليس ، ولاتدخل ذرية إبليس الجنة ، والحق أن مؤمنيهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف ، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله ﷻ : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد ، فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لايحصل لهم ، وأيضًا فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار وهو مقام عدل ؛ فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة وهو مقام فضل بطريق الأولى والأحرى .

وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة ولله الحمد والمنة ، وهذه الجنة لايزال فيها فضل حتى ينشئ الله تعالى لها خلقًا ، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحًا ؟ وماذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار ، فمن أجيرمن النار دخل الجنة لامحالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولاظاهر عن الشرع أن مؤمني الجن لايدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم ، ثم قال مخبرًا عنهم ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ أي لايجيرهم منه أحد ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ، ولهذا نجع في كثير منهم . وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودًا .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أولم يرَ هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أي ولم يكرثه خلقهم ، بل قال لها : كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة بل طائعة مجيبة خائفة وجلة ، فليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ثم قال ﷻ مهددا ومتوعدًا لمن كفر به ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي يقال لهم : أما هذا حق أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون ؟ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أي لايسعهم إلا الاعتراف ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ثم قال تبارك وتعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي على تكذيب قومهم لهم . وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال وأشهرها أنهم : نوح وإبراهيم

وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ ، وقد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى ، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون ﴿ مِنَ ﴾ في قوله ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ لبيان الجنس ، والله أعلم .

وعن مسروق قال : قالت لي عائشة رضي الله عنها : ظل رسول الله ﷺ صائمًا ثم طواه ، ثم ظل صائمًا ، ثم طواه ، ثم ظل صائما ثم قال : « يا عائشة إن الدنيا لاتنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر على محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ماكلفهم فقال : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولاقوة إلا بالله (١) ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم . وقوله جل وعلا ﴿ بَلَاغٌ ﴾ . قال ابن جرير : يحتمل معنيين : أحدهما : أن يكون تقديره : وذلك لبث بلاغ ، والآخر : أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ . وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي لايهلك على الله إلا هالك ، وهذا من عدله عز وجل أنه لايعذب إلا من يستحق العذاب ، والله أعلم .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٤٥) .

سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي بآيات الله ﴿ وَصَدُّوا ﴾ غيرهم ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثوابا ولاجزاء . ثم قال جل وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ جملة معترضة حسنة ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي أمرهم . وقال مجاهد : شأنهم . وقال قتادة وابن زيد : حالهم ، والكل متقارب . وقد جاء في حديث تشميت العاطس « يهديكم الله ويصلح بالكم » [1] ثم قال ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار . وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شؤونهم ؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أي اختاروا الباطل على الحق ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم ، ومايصيرون إليه في معادهم .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

يقول تعالى مرشدًا للمؤمنين إلى مايعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسيوف ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي أهلكتموهم قتلا ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ الأسارى الذين تأسرونهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم ، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أسراهم مجانًا ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه ، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله ﷻ عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ، ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذ فقال : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ الآية ، وقال الآخرون وهو الأكثرون : ليست بمنسوخة ، ثم قال بعضهم : إنما الإمام مخير بين المن على

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن(٥٠٣٣) والترمذي في السنن(٢٧٤١) وأحمد في مسنده(٤١٩/٥) والحاكم في المستدرك(٢٦٦/٤) .

الأسيرومفاداته فقط ، ولا يجوز له قتله . وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر . وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له : « ماعندك يا ثمامة ؟ » فقال إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تمنن تمنن على شاكر ، وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما شئت [(١)] . وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال : الإمام مخير بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضًا .

وقوله ﷻ : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وكأنه أخذه من قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال » [(٢)] . عن جبير بن نفير قال : إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : « إني سيبت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت : لا قتال ، فقال له النبي ﷺ : « الآن جاء القتال ، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس ، يزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم ، ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام ، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » [(٣)] .

وقال قتادة : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ حتى لا يبقى شرك ، . ثم قال بعضهم : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أي أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله ﷻ ، وقيل : أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى . وقوله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أي ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ، ويبلو أخباركم ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها . ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه .

فعن المقدام بن معد يكرب الكندي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه » [(٤)] . وعن أبي قتادة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين » [(٥)] . وقال أبو الدرداء ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » [(٦)] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ أي إلى الجنة ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أي أمرهم وحالهم ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٧٢) ومسلم في الجهاد (٥٩) وأحمد في مسنده (٤٥٢/٢) وابن خزيمة في صحيحه (٢٥٣) .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٢٤٨٤) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٩٢) وابن ماجه في السنن (٦) وأحمد في مسنده (٩٧/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٣/٥) .
(٥) أخرجه مسلم في الإمارة (١١٩) وأحمد في مسنده (٢٢٠/٢) والحاكم في المستدرك (١١٩/٢) .
(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٢٥٢٢) والبيهقي في السنن (١٦٥/٩) .

﴿ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي عرفهم بها وهداهم إليها . قال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها لايخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لايستدلون عليها أحد ، وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له ، فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة ، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه . وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار : يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ؛ أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا » (١) .

ثم قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى : ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ كما جاء في الحديث « من بلغ ذا سلطان حاجة من لايستطيع إبلاغها ؛ ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة » (٢) ثم قال تبارك وتعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش (٣) » أي فلا شفاه الله ﷻ . وقوله ﷻ : ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أحبطها وأبطلها ، ولهذا قال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي لايريدونه ولا يحبونه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ .

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ .

يقول تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم ، أي ونجى المؤمنين من بين أظهرهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ ثم قال : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ لهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد ، حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر ﵄ فلم يجب ، وقال : أما هؤلاء فقد هلكوا ، وأجابه عمر بن الخطاب ﵁ فقال : كذبت يا عدو الله بل أبقى الله تعالى لك ما يسوءك ، وإن الذين عددت لأحياء ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مثلة لم آمر بها ، ولم أنه عنها ، ثم ذهب يرتجز ويقول : أعل هبل ، أعل هبل . فقال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبوه ؟ » فقالوا : يارسول الله ومانقول ، قال : « قولوا : الله أعلى وأجل » ثم قال أبو سفيان : لنا العزى ولاعزى لكم ، فقال ﷺ : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » .

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٠) ومسلم في الإيمان (٣٠٢) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤١٣٥) والبيهقي في السنن (١٥٩/٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٤٧/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/٤) .

ثم قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ ﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام خضمًا وقضمًا ، وليس لهم همة إلا في ذلك ، ولهذا ثبت في الصحيح « المؤمن يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء »[(١)] ثم قال تعالى : ﴿ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ أي يوم جزائهم ، وقوله ﷻ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ ﴾ يعني مكة ﴿ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله ﷻ قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء ، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى ؟

فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة ، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم .

وقوله تعالى : ﴿ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ ﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم . عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار ، وأتاه فالتفت إلى مكة وقال : « أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلي ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك »[(٢)] .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزل في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ، ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴾ أي ليس هذا كهذا ، ثم قال ﷻ : ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ ﴾ قال عكرمة : أي نعتها ﴿ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة : يعني غير متغير . وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني : غير منتن ، والعرب تقول : أسن الماء إذا تغير ريحه ، قال عبد الله رضي الله عنه : أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ ﴾ أي بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة ، ﴿ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ ﴾ أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح .

عن حكيم بن معاوية عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد »[(٣)] . وعن عبد الله بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : « هذه الأنهار تشخب من جنة عدن في جوبة ، ثم تصدع بعد أنهارا »[(٤)] وفي الصحيح « إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٩٢٥) والحاكم في المستدرك (٣/٧) وأحمد في مسنده (٣٠٥/٤) جميعهم بنحوه ، والطبري في تفسيره (٣١/٢٦) بلفظه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٥) والترمذي في السنن (٢٥٧١) .

(٤) أخرجه أبو عوانة في مسنده (١٥٧/١) .

وفوقه عرش الرحمن [١] .

وعن عاصم بن لقيط قال : إن لقيط بن عامر خرج وافدًا إلى رسول الله ﷺ قلت : يارسول الله فعلى ما نطلع من الجنة ؟ قال ﷺ على أنهار من عسل مصفى ، وأنهار من خمر مابها من صداع ولاندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غيرآسن ، وفاكهة ، لعمر إلهك ما تعلمون ، وخير من مثله ، وأزواج مطهرة » قلت : يا رسول الله أولنا فيها أزواج مصلحات ؟ قال الصالحات للصالحين ، تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ، ويلذونكم غير أن لا توالد [٢] » .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ كقوله ﷻ ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ وقوله ﷻ : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي مع ذلك كله . وقوله ﷻ : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أي هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا ﴾ أي حارًا شديد الحر لايستطاع ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ أي قطع مافي بطونهم من الأمعاء والأحشاء .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئًا فإذا خرجوا من عنده ﴿ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ من الصحابة ﷺ ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ أي الساعة . لايعقلون ماقال ولايكترثون له . قال الله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح . ثم قال ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿ وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ أي ألهمهم رشدهم . وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي وهم غافلون عنها ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي أمارات اقترابها كقوله تبارك وتعالى : ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴾ فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين .

وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله ، كما هو مبسوط في موضعه . وقال الحسن البصري : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة وهوكما قال ، ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبي التوبة ونبي الملحمة ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذي ليسى بعده نبي [٣] .

وعن سهل بن سعد ﷺ قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٢٥) والبيهقي في السنن (٩/١٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٤) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (١٢٤ ، ١٢٥) .

« بعثت أنا والساعة كهاتين » [١] ثم ثم قال تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لاينفعهم ذلك . وقوله ﷻ : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ولا يتأتى كونه آمرًا بعلم ذلك ، ولهذا عطف عليه قوله ﷻ : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللَّهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به في ، اللَّهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي » [٢] . وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة : « اللَّهم اغفر لي ماقدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت إلهي لا إله إلا أنت » [٣] وفي الصحيح أنه قال : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني استغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » [٤] .

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما ؛ فإن إبليس قال : إنما أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون » [٥] وفي الأثر المروي : فقال إبليس وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله ﷻ : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني [٦] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم وهذا القول ذهب إليه ابن جريج وهو اختيار ابن جرير ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما متقلبكم في الدنيا ، ومثواكم في الآخرة ، وقال السدي : متقلبكم في الدنيا ومثواكم في قبوركم ، والأول أولى وأظهر ، والله أعلم .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد ، فلما فرضه الله ﷻ وأمر به نكل عنه كثير من الناس وقال ﷻ : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي مشتملة على حكم القتال ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء ، ثم قال مشجعا لهم ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا أي في الحالة الراهنة ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أي جد الحال ، وحضر القتال ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا ﴾ أي أخلصوا له النية ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٤) ومسلم في الفتن (١٣٥) والترمذي في السنن (٢٢١٤) وابن ماجه في السنن (٤٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٩٩) ومسلم في الذكر والدعاء (٧٠) وأحمد في مسنده (٥٥/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨) ومسلم في الذكر والدعاء (٧٠) وأحمد في مسنده (٩٥/١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١١/٤) .
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٧/٢) ، (٦٢/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٧/١٠) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٣) وأبو يعلي في مسنده (١٢٣/١) .

وقوله ﷺ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ، أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا ، وعن قطع الأرحام خصوصًا ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال ، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة ، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « خلق الله تعالى الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن ﷻ فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذاك لك » قال أبو هريرة ﷺ : اقرأوا إن شئتم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [(١)] .

وعن أبي بكر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم [(٢)] » . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله : إن لي ذوي أرحام ، أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسيئون ، أفأكافئهم ؟ قال ﷺ : « لا ، إذن تتركون جميعًا ، ولكن جد بالفضل وصلهم ؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله ﷻ ما كنت على ذلك » [(٣)] .

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال : « قال رسول الله ﷺ : « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها [(٤)] » .

وعن إبراهيم بن عبد الله بن فارض ، أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف ﷺ وهو مريض ، فقال له عبد الرحمن ﷺ : وصلتك رحم ، إن رسول الله ﷺ قال : قال الله ﷻ : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمي ، فمن يصلها أصله ، ومن يقطعها أقطعه فأبته » أو قال : « من بتها أبته » [(٥)] .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا بتدبر القرآن وتفهمه وناهيًا عن الإعراض عنه فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أي بل على قلوب أقفالها ، فهي مطبقة لايخلص إليها شيء من معانيه ، عن هشام بن

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٠٢) ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٤) ومعنى : « فأخذت بحقوي الرحمن » : أي استجارت واعتصمت بالله تعالى .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/٥) والترمذي في السنن (٢٥١١) والدارمي في السنن (٢٥٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٩) وأحمد في مسنده (١٦٣/٢) والبيهقي في السنن (٢٧٠/٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٩١/١) .

عروة عن أبيه ﷺ قال : تلا رسول ﷺ يوما ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها ، فما زال الشاب في نفس عمر ﷺ حتى ولي فاستعان به [١] . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أي زين لهم ذلك وحسنه ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أي غرهم وخدعهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل ، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أي ما يسرون ومايخفون ، الله مطلع عليه وعالم به كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعاصت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال ﷺ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ الآية . ولهذا قال ههنا : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فبين فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة . والأضغان : جمع ضغن وهو مافي النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ يقول ﷻ : ولو نشاء يامحمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانًا ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه ، وحملًا للأمور على ظاهر السلامة ، وردًا للسرائر إلى عالمها ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه .

وفي الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر [٢] عن أبي مسعود عقبة بن عمرو ﷺ قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « إن منكم منافقين فمن سميت فليقم » - ثم قال : « قم يا فلان ، قم يافلان ، قم يافلان » حتى سمى ستة وثلاثين رجلًا ثم قال : « إن فيكم - أو منكم - منافقين فاتقوا الله » قال فمر عمر ﷺ برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه فقال : مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ فقال : بعدًا لك

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦/٧٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/١٨٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٢٥) .

سائر اليوم (١) . وقوله ﷻ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ، ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ، وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب ، فالمراد حتى نعلم وقوعه ، ولهذا يقول ابن عباس ﵄ في مثل هذا : إلا لنعلم أي لنرى .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۝ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ .

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه ، وارتد عن الإيمان من بعد ماتبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئًا ، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها ، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية كما أن الحسنات يذهبن السيئات ، وعن أبي العالية : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع « لا إلا الله » ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . وعن ابن عمر ﵄ قال : كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ ، فقلنا : ماهذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها .

ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ أي بالردة ، ولهذا قال بعدها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ . ثم قال جلا وعلا لعباده المؤمنين ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ ﴾ أي لا تضعفوا عن الأعداء ﴿ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم ، .. ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ أي في حال علوكم على عدوكم . . فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة ، والمعاهدة مصلحة ؛ فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك . وقوله جلت عظمته ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ أي ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها بل يوفيكم ثوابها ولاينقصكم منها شيئًا ، والله أعلم .

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٣/٥) والبخاري في التاريخ الكبير (٢٢/٧) .

يقول تعالى تحقيرًا لأمر الدنيا وتهوينًا لشأنها ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي حاصلها ذلك إلا ماكان منها لله ﷻ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ أي هو غني عنكم لايطلب منكم شيئًا وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم ، ثم قال ﷻ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ ﴾ أي يحرجكم تبخلوا ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ قال قتادة : قد علم الله تعالى إن في إخراج الأموال إخراج الأضغان . وصدق قتادة ؛ فإن المال محبوب ولايصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه . وقوله تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ أي لايجيب إلى ذلك ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ﴾ أي عن كل ماسواه وكل شيء فقير إليه دائمًا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ أي بالذات إليه ، فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لاينفكون عنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ ﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره . عن أبي هريرة ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ قالوا : يارسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لايكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي ﷺ ثم قال : « هذا وقومه ، ولوكان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس » [١] .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٦٠) والألباني في الصحيحة (١٠١٧) .

سورة الفتح

عن عبد الله بن مغفل يقول : قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيرة سورة الفتح على راحلته ، فرجع فيها . قال معاوية : لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۞ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة ، منهم عمربن الخطاب ﷺ ، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله ﷻ هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحا باعتبار ما فيه المصلحة وما آل الأمر إليه ، وعن البراء ﷺ قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحًا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر فنزحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ، ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ، ثم أنها أصدرتنا ماشئنا نحن وركائبنا [٢] .

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال : فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي ، قال : فقلت في نفسي : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألححت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ؟ قال : فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء ، قال : فإذا أنا بمناد يا عمر ، قال : فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء ، قال : فقال النبي ﷺ » نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ « [٣] ، وعن مجمع بن حارثة الأنصاري ﷺ ، وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحي إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : أي رسول الله أو فتح هو ؟ قال ﷺ : « إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » قسمت خيبر على أهل الحديبية ، لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهما . وكان الجيش ألفًا وخمسمائة منهم ثلثمائة

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٥) وأحمد في مسنده (٥/٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٥٠) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٣) والترمذي في السنن (٣٢٦٢) كلاهما بنحوه ، وأحمد في مسنده (١/٣١) بلفظه .

فارس ، فأعطي الفارس سهمين ، وأعطي الراجل سهمًا [(١)] .

وعن المغيرة بن شعبة يقول : كان النبي ﷺ يصلّي حتى ترم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر اللَّه لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » [(٢)] فقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ أي بينًا وظاهرًا ، والمراد به صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لايشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، وهذا فيه تشريف لرسول اللَّه ﷺ ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة ، ولما كان أطوع خلق اللَّه تعالى وأشدهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه قال : حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الفيل » ثم قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئًا يعظمون به حرمات اللَّه إلا أجبتهم إليها » [(٣)] فلما أطاع اللَّه في ذلك وأجاب إلى الصلح قال اللَّه تعالى له : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أي بسبب خضوعك لأمر اللَّه ﷻ يرفعك اللَّه وينصرك على أعدائك كما جاء في الحديث الصحيح « ومازاد اللَّه عبدا بعفو إلا عزًّا ، وما تواضع أحد للّه ﷻ إلا رفعه اللَّه تعالى » [(٤)] .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ أي جعل الطمأنينة ، قال ابن عباس ، الرحمة ، وقال قتادة : الوقار في قلوب المؤمنين ، وهم الصحابة يوم الحديبية الذين استجابوا للّه ولرسوله وانقادوا لحكم اللَّه ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيمانًا مع إيمانهم ، وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب ، ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال ﷻ : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ولو أرسل عليهم ملكًا واحدًا لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدامغة ، ولهذا قال جلت عظمته ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

ثم قال ﷻ : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ قد تقدم حديث أنس رضي الله عنه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (٤٨٣٦) ومسلم في صفات المنافقين (٧٩) وابن ماجه في السنن (١٤١٩) وأحمد في مسنده (١١٥/٦) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢١٩/٩) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) والدارمي في السنن (٣٥) ومالك في الموطأ (١٢) .

حين قالوا : هنيئًا لك يارسول الله ، هذا لك فما لنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ ! أي خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها ، بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ويشكر ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه ﷺ أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ، ثم قال ﷻ مؤكدًا لقدرته على الانتقام من الأعداء ، أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ أي على الخلق ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ أي للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أي للكافرين ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ قال ابن عباس ﷺ وغير واحد : تعظموه ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي تسبحون الله ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي أول النهار وآخره . ثم قال ﷻ لرسوله ﷺ تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ؛ فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله » (١) وعن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ في الحجر « والله ليبعثنه الله ﷻ يوم القيامة له عينان ينظر بهما ، ولسان ينطق به ، ويشهد على من استلمه بالحق ، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٢) . ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث والله غني عنه ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثوابًا جزيلًا . وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية ، وكان الصحابة ﷺ الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل ألفًا وثلثمائة ، وقيل وأربعمائة ، وقيل وخمسمائة ، والأوسط أصح .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك : عن جابر ﷺ قال : كنا يومئذ ألفًا وأربعمائة ، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى رووا كلهم ، وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهمًا من كنانته فوضعوه في بئر الحديبية ، فجاشت بالماء حتى كفتهم فقيل لجابر ﷺ : كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفًا وأربعمائة ولو كنا مائة ألف لكفانا (٣) ، وعنه أنهم كانوا خمس عشرة مائة (٤) .

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (١٠٤٨٩) وعزاه لابن مردويه .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٩٦١) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٠) .
(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٧٧) .

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ ليبعثه إلى مكة ، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها ، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان ﷺ ، نبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت ومعظما لحرمته . فخرج عثمان ﷺ إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان ﷺ حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان ﷺ حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان ﷺ قد قتل . قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله ابن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : « لانبرح حتى نناجز القوم » [(١)] .

ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله ﷺ يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ، ولكن بايعنا على أن لا نفر ، فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة ، فكان جابر ﷺ يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته قد صبأ إليها يستتر بها من الناس ، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان ﷺ باطل ، وذكر عن عروة بن الزبير قريبًا من هذا السياق ، وزاد في سياقه أن قريشًا بعثوا - وعندهم عثمان ﷺ - سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ فبينما هم عندهم ؛ إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين ، وتراموا بالنبل والحجارة وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل ، ونادى منادي رسول الله ﷺ : ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ وأمر بالبيعة ، فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوا ، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على أن لا يفروا أبدًا . فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ودعوا إلى الموادعة والصلح .

وعن نافع ﷺ قال : إن الناس يتحدثون أن ابن عمر ﷺ أسلم قبل عمر وليس كذلك ، ولكن عمر ﷺ يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار ، أن يأتي به ، ليقاتل عليه ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة ، وعمر ﷺ لا يدري بذلك ، فبايعه عبد الله ﷺ ، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر ﷺ ، وعمر ﷺ يستلئم للقتال ، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة ، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ وهي التي يتحدث عنها . الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر ﷺ [(٢)] .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٨٦) .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤٢٢/٧) .

وعن معقل بن يسار ﷺ قال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس ، وأنا رافع غصنًا من أغصانها على رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفر [١] . وعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة . قال يزيد : قلت : يا أبا مسلمة على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت [٢] .

وعن سلمة بن الأكوع ﷺ أيضًا قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لا ترويها ، فقعد رسول الله ﷺ على جباها ، يعني الركي ، فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت فسقينا واستقينا . قال : ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة ، فبايعته أول الناس ثم بايع وبايع حتى إذا كان في وسط الناس قال ﷺ : « بايعني يا سلمة » قال : قلت : يا رسول الله : قد بايعتك في أول الناس قال ﷺ : « وأيضًا » قال ورآني رسول الله ﷺ عزلًا فأعطاني حجفة أو درقة ، ثم بايع ، حتى إذا كان في آخر الناس ، قال ﷺ : « ألا تبايع يا سلمة ؟ » قال : قلت : يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم ، قال ﷺ : « وأيضًا » فبايعته الثالثة ، فقال رسول الله ﷺ : « يا سلمة أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك ؟ » قال : قلت : يا رسول الله لقيني عامر عزلًا فأعطيتها إياه فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « إنك كالذي قال الأول اللهم ابغني حبيبًا هو أحب إلي من نفسي » قال : ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا . قال : وكنت خادمًا لطلحة بن عبيد الله ﷺ أسقي فرسه وأجنبه وآكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مهاجرًا إلى الله ورسوله ، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا في بعض أتيت شجرة فكشحت شوكها ، ثم اضطجعت في أصلها - في ظلها - فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة ، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك ؛ إذ نادى مناد من أسفل الوادي : ياللمهاجرين قتل ابن زنيم ، فاخترطت سيفي فشددت على أولئك الأربعة ، وهم رقود ، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثًا في يدي ثم قلت : والذي كرم وجه محمد ﷺ لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ، قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال : وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له : مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال : « دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناؤه » فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله ﷻ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [٣] .

وعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « من يصعد الثنية ثنية المرار ؛ فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل » فكان أول من صعد خيل بني الخزرج ثم تبادر الناس بعد ، فقال النبي ﷺ : « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » فقلنا : تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم ، فإذا هو رجل ينشد ضالة [٤] .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٠) . (٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٩) .
(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (١٣٢) وأحمد في مسنده (٤/٥٤) .
(٤) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (١٢) والحاكم في المستدرك (٤/٨٣) .

وعن أبي الزبير أنه سمع جابرًا ﷺ يقول : أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة ﵂ : « لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد » قالت : بلى يا رسول الله ، فانتهرها ، فقالت حفصة ﵂ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فقال النبي ﷺ : قد قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (١) .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم تعالى وتقدس ، وهو العليم بسرائركم وضمائركم وإن صانعتمونا ونافقتمونا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص بل تخلف نفاق ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أى اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم ، وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أي هلكى . قاله ابن عباس ﵄ ومجاهد وغير واحد ، وقال قتادة : فاسدين ، وقيل هي لغة عمان . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير ، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر . ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه .

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية ، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه ﵃ إلى خيبر يفتحونها إنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم ، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم ، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم ، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعًا ولا قدرًا ولهذا قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ قال مجاهد وقتادة وجويبر وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة(١٦٣) وأحمد في مسنده(٦/٤٢٠) وأبو داود في السنن(٤٦٥٣)

واختاره ابن جرير . وقال ابن جرير ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ يعني بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أي أن نشرككم في المغانم ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لافهم لهم .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال أحدها ، أنهم هوازن ؟ الثاني : ثقيف . الثالث : بنو حنيفة . الرابع : هم أهل فارس وقال كعب الأحبار : هم الروم ، وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقتادة : هم فارس والروم ، وعن مجاهد : هم أهل الأوثان ، وعنه أيضًا : هم رجال أولو بأس شديد ، ولم يعين فرقة ، وبه يقول ابن جريج وهو اختيار ابن جرير . وعن الزهري في قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال : لم يأت أولئك بعد .

عن أبي هريرة ﷺ في قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال : هم البارزون . وعنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا صغار الأعين ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة »[1] قال سفيان : هم الترك ، وقوله تعالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم ، فلا يزال ذلك مستمرًا عليهم ، ولكم النصرة عليهم أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار .

ثم قال ﷻ : ﴿ فَإِن تُطِيعُوا ﴾ أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿ يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر ، وعارض كالمرض الذي يطرأ أيامًا ثم يزول ، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ . ثم قال تبارك وتعالى مرغبًا في الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ، في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار ، والله تعالى أعلم .

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، عن طارق أن عبد الرحمن ﷺ قال : انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال : فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٦٤) والترمذي في السنن (٢٢١٥) وابن ماجه في السنن (٤٠٩٦) وأحمد في مسنده (٣١/٣) .

عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم ، فأنتم أعلم [١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ وهي الطمأنينة ﴿ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وهو ما أجرى الله ﷻ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يعني فتح خيبر ، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يعني صلح الحديبية ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يعتبرون بذلك ، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور ، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر كما قال ﷻ : ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ أي وغنيمة أخرى وفتحًا آخر معينًا لم تكونوا تقدرون عليها ، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون ، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي خيبر ، وهذا على قوله في قوله ﷻ ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ إنها صلح الحديبية ، وقال قتادة : هي مكة واختاره ابن جرير ، وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري : هي فارس والروم ، وقال مجاهد : هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة . عن ابن عباس قال : هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يقول ﷻ مبشرًا لعباده المؤمنين ، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولانهزم جيش الكفر فارًّا مدبرًا لا يجدون وليًّا ولا نصيرًا ؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٣) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلًا من الفريقين وأوجد بينهم صلحًا فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة ، وعن أنس بن مالك ﷺ قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة بالسلاح ، من قبل جبل التنعيم ، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا . قال عفان : فعفا عنهم ونزلت هذه الآية ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وعن عبد الله بن مغفل المزني ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال تعالى في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ﷺ ، وسهيل بن عمرو بين يديه فقال رسول الله ﷺ لعلي ﷺ : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فأخذ سهيل بيده وقال : ما نعرف الرحمن الرحيم ، اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال : « اكتبْ باسمِكَ اللَّهمَّ » - وكتب - هذا ما صَالحَ عليهِ محمدٌ رسولُ اللهِ أهلَ مكةَ » فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، اكتب في قضيتنا ما نعرف ، فقال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمدُ بن عبد الله » فبينا نحن كذلك ؛ إذ خرج علينا ثلاثون شابًا عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله تعالى بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ : « هل جئتم في عهدِ أَحدٍ ؟ أو هل - جعل لكم أحدٌ أمانًا ؟ » فقالوا : لا ، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) الآية .

وعن ابن أبزى قال : لما خرج النبي ﷺ بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة قال له عمر ﷺ : يا نبي الله ، تدخل على قوم لك حرب بغيرسلاح ولا كراع ؟ قال : فبعث ﷺ إلى المدينة فلم يدع فيها كراعًا ولا سلاحًا إلا حمله ، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى ، فنزل بمنى فأتاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة ، فقال لخالد بن الوليد ﷺ : « يا خالدُ هذا ابنُ عمِّكَ قد أتاكَ في الخيلِ » فقال خالد ﷺ : أنا سيف الله وسيف رسوله ، فيومئذ سمي سيف الله ، فقال : يارسول الله ابعثني أين شئت ، فبعثه على خيل فلقي عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ - إلى قوله تعالى - عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ قال فكف الله ﷻ النبي ﷺ عنهم من بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا أبقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل (٣) .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٢٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٦٨) والبيهقي في السنن (٩/٢٢٠) .
(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٦/١٢٣) .

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش ، ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي أنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله ، وهذا من بغيهم وعنادهم ، وكان الهدي سبعين بدنة ، وقوله ﷻ : ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم ، لملنا سلطانكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال تعالى : ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي إثم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثيرمنهم إلى الإسلام ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لسلطانكم عليهم لقتلتموهم وهم قتلًا ذريعًا .

وعن عبد الله بن عمرو قال : سمعت جنيد بن سبيع يقول : قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرًا ، وقاتلت معه آخر النهار مسلمًا ، وفينا نزلت ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ قال : كنا تسعة نفر ، سبعة رجال وأمرأتين .

وقوله ﷻ : ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وأبوا أن يكتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي قول : لا إله إلا الله فعن أبي بن كعب ؓ ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ، قال « لا إله إلا الله » (١) .

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ﷻ » (٢) وأنزل الله ﷻ في كتابه وذكر قوما فقال : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وقال الله جل ثناؤه ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ﴾ ، وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فاستكبروا عنها ، واستكبرعنها المشركون يوم الحديبية فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة وقال مجاهد : كلمة التقوى الإخلاص ، وقال عطاء بن أبي رباح : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وعن عروة بن المسور : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وعن علي ؓ : لا إله إلا الله والله أكبر ، وعن سعيد بن جبير : لا إله إلا الله والجهاد في سبيله . ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ﴾ ، كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر ، عن أبي بن كعب ؓ أنه كان يقرأ ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٦٥) وذكره الطبري في تفسيره (١٣٥/٢٦) والإمام أحمد بنحوه في مسنده (١٣٨/٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٣) وأبو داود في السنن (١٥٥٦) والترمذي في السنن (٢٦٠٦) .

﴿ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ ولو حميتم كما حَمَوا لفسد المسجد الحرام ، فبلغ ذلك عمر ﷺ فأغلظ له فقال : إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما علمه الله تعالى ، فقال عمر ﷺ : بل أنت رجل عندك علم وقرآن ، فاقرأ وعلم مما علمك الله تعالى ورسوله .

وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، يصدر كل واحد منهما حديث صاحبه ، قالا : خرج رسول الله ﷺ من الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة ، وبعث عينًا من خزاعة ، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال : إن قريشًا قد جمعوا لك جموعًا وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك . فقال ﷺ : « أشيروا أيها الناس علي ، أترون أن نميل على عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ؟ » في لفظ : « فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزونين ، وإن نجوا يكن عنقًا قطعها الله ﷻ . أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه » .

فقال أبو بكر ﷺ : يا رسول الله خرجت عامدًا لهذا البيت ، لا تريد قتل أحد ولا حربًا ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ، فقال النبيّ ﷺ « فَرُوحوا إذن » : حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ : « إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين » فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش ، فانطلق يركض نذيرًا لقريش ، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته ، فقال الناس : حل حل فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء . فقال النبي ﷺ « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ، ثم قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظّمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم أياها » . ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرُّضًا ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشُكي إلى رسول الله العطش ، فانتزع ﷺ من كنانته سهمًا ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه .

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ ، من أهل تهامة . فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عند مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . فقال النبي ﷺ : « إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب ، فأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد حموا ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره » . قال بديل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشًا فقال : إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولًا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا ، فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء . وقال ذوو الرأي منهم : هاتِ ما سمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ فقام عروة بن مسعود فقال : أي قوم ، ألستم بالوالد ؟ قالوا : بلى ، قال : أولست بالولد ؟

قالوا : بلى ، قال : فهل تتهموني ؟ قالوا : لا ، قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى . قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته . قالوا : ائته . فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحوًا من قوله لبديل بن ورقاء ، فقال عروة عند ذلك : أي محمد ، أرأيت إن استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوهًا ، وإني لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر ﷺ : امصص بظر اللات ، أنحن نفر وندعه ؟ قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك . قال : وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ ، والمغيرة بن شعبة ﷺ قائم على رأس النبي ﷺ ، ومعه السيف وعليه المغفر ، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ . فرفع عروة رأسه وقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . قال : أي غدر ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة بن شعبة ﷺ صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي ﷺ : « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء » .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال : فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، فإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيما له ﷺ ، فرجع عروة إلى أصحابه . فقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

فقال رجل منهم من بني كنانة : دعوني آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه ﷺ ، قال النبي ﷺ : « هذا فلان ، وهومن قوم يعظمون البدن فابعثوها له » . فبعثت له واستقبله الناس يلبون . فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت ، فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، فما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص ، فقال : دعوني آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : « هذا مكرز ، وهو رجل فاجر » فجعل يكلم النبي ﷺ ، فبينما هو يكلم ؛ إذ جاء سهيل بن عمرو ، وقال معمر : أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال : لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ : « قد سُهِّلَ لكم من أمركم » . فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينك كتابا . فدعا النبي ﷺ بعلي ﷺ وقال : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل بن عمرو : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب باسمك اللَّهم كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ اكتب باسمك اللَّهم- ثم قال - هذا ما قاضى عليه

محمد رسول الله فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . فقال له النبي ﷺ : « والله إني لرسول الله وإن كذبتموني ، اكتب محمد بن عبد الله » قال الزهري : وذلكِ لقوله « والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها » فقال له النبي ﷺ : » على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به . فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال المسلمون : سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا ؟ .

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ . فقال النبي ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » قال : فوالله إذًا لا أصالحك على شيء أبدًا ، فقال النبي ﷺ : « فأجِزْهُ لي » قال : ما أنا بمجيز ذلك لك قال ﷺ : « بلى فافعل » قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد آجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا ، ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله ﷻ . قال عمر ﷺ : فأتيت نبي الله ﷺ فقلت ألست نبي الله حقًّا ؟ قال ﷺ : « بلى » قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال ﷺ : « بلى » قلت فلم نعطى الدنية في ديننا إذًا ؟ قال ﷺ : « إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري » قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال ﷺ : « بلى أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ » . قلت : لا . قال ﷺ : « فإنك آتيه ومطوِّف به » قال : فأتيت فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًّا ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فِلَم نعطى الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه ، وهو ناصره فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق . قلت : أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به .

قال الزهري : قال عمر ﷺ : فعملت لذلك أعمالًا . قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة ﵂ ، فذكر لها ما لقي من الناس ، قالت له أم سلمة ﵂ : يا نبي الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج رسول الله ﷺ ، فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غمًّا ، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ - حتى بلغ - ﴿ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ فطلق عمر ﷺ يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم ، فأرسلوا في طلبه رجلين

فقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا ، فاستله الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت منه ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه « لقد رأى هذا ذعرًا » فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول . فجاء أبو بصير فقال : يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم . فقال النبي ﷺ : « ويل أمه مُسْعِر حرب لو كان معه أحد » .

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، قال : وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم وأنزل الله ﷻ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ - حتى بلغ- حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا رسول الله ، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت [1] . وعن حبيب بن أبي ثابت قال : أتيت أبا وائل أسأله ، فقال : كنا بصفين ، فقال رجل : ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله ، فقال علي بن أبي طالب ﷺ : نعم ، فقال سهل بن حنيف : اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين ، ولو نرى قتالًا لقاتلنا ، فجاء عمر ﷺ فقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ فقال : « بلى » . قال : ففيم نعطى الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا ؟ فقال ﷺ : « يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدًا» فرجع متغيظًا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر ﷺ فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدًا ، فنزلت سورة الفتح [2] .

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة ﷺ من ذلك شيء ، حتى سأل عمر بن الخطاب ﷺ في ذلك فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ » قال : لا ، قال النبي ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٤) ومسلم في الجهاد (٦٤) وأحمد في مسنده (٤٨٦/٣) .

« فإنك آتيه ومطوف به » وبهذا أجاب الصديق ﷺ أيضًا حذو القذة بالقذة ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء في شيء . وقوله ﷻ : ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أي في حال دخولكم ، وقوله : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ حال مقدرة ؛ لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين وإنما كان هذا في ثاني الحال . كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره ، وثبت أن رسول الله ﷺ قال « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « والمقصرين » في الثالثة أو الرابعة [(١)] . وقوله ﷻ : ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ حال مؤكدة في المعنى فأثبت لهم الأمن حال الدخول ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد ، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة ، فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحًا ، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه ﷺ ، ولم يغب منهم أحد ، قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة .

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمرًا هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدي ، قيل : كان ستين بدنة ، فلبي وسار أصحابه يلبون . فلما كان ﷺ قريبًا من مر الظهران بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رعبوا رعبًا شديدًا ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ما عرفناك تنقض العهد ، فقال ﷺ : « وما ذاك ؟ » قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح . فقال : ﷺ : « لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج » . فقال : بهذا عرفناك بالبر والوفاء ، وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه ﷺ غيظًا وحنقًا . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان ، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله يقودها وهو يقول :

باسم الذي لادين إلا دينه ... باسم الذي محمدٌ رسولُه
خلُّوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تأويله

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (٣١٦) والترمذي في السنن (٩١٣) وابن ماجه في السنن (٣٠٤٤) وأحمد في مسنده (١١٩/٢) .

كما ضربناكم على تنزيله ضربا يُزِيل الهامَ عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تُتْلَى على رسوله بأن خير القتل فى سبيله
يارب إني مؤمن بقيله [(١)]

عن البراء رضي الله عنه قال : اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة ، حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، قالوا : لا نقر بهذا ، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئًا ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . قال ﷺ : « أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله » ثم قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : « امح رسول الله » قال رضي الله عنه : لا والله لا أمحوك أبدًا ، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله أن لا يدخل مكة بالسلاح إلا بالسيف في القراب ، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه ، وأن لايمنع من أصحابه أحدًا إن أراد أن يقيم بها » . فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليًا فقالوا : قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل ، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة رضي الله عنه تنادي يا عم يا عم ، فتناولها علي رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها : دونك ابنة عمك فحملتها ، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنه فقال علي رضي الله عنه : أنا أخذتها وهي ابنة عمي . وقال جعفر رضي الله عنه : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد رضي الله عنه : ابنة أخي ، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال : « الخالة بمنزلة الأم » وقال لعلي رضي الله عنه : « أنت مني وأنا منك » وقال لجعفر رضي الله عنه « أشبهت خَلْقي وخُلُقي » وقال ﷺ لزيد رضي الله عنه : « أنت أخونا ومولانا » قال عليّ رضي الله عنه : ألا تتزوج ابنة حمزة رضي الله عنه ؟ قال ﷺ : « إنها ابنة أخي من الرضاعة » [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أي فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين ، ثم قال تبارك وتعالى مبشرًا للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه ، وعلى سائر أهل الأرض ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي بالعلم النافع والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومسلمين ومشركين ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره ، والله سبحانه أعلم .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/١) .
(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٩) والبيهقي في السنن (٢٣٦/١٠) والطبراني في الكبير (٧٤/٧) .

سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ .

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقًّا بلا شك ولا ريب فقال : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل ، ثم ثنى بالثناء على أصحابه ﷺ فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار ، رحيما برًّا بالأخيار ، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن وقال النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » (١) . وقال ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا . وشبك ﷺ بين أصابعه (٢) .

وقوله ﷻ : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ والاحتساب عند الله تعالى بجزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ﷻ وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم ، وهو أكثر من الأول وقوله ﷻ : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ عن ابن عباس : يعني السمت الحسن . وقال مجاهد وغير واحد : يعني الخشوع والتواضع . عن مجاهد قال : الخشوع . قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه . فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلبًا من فرعون . وقال السدي : الصلاة تحسن وجوههم ، وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » (٣) . وقال بعضهم : إن للحسنة نورًا في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس .

وقال أمير المؤمنين عثمان ﷺ : ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله ﷻ ظاهره للناس ، وعن أبي سعيد ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنًا ما كان » (٤) .

وعن ابن عباس ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : « إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة » (٥) ، فالصحابة ﷺ خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم ، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم . وقال مالك ﷺ : بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة ﷺ الذين فتحوا الشام يقولون : والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا ، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ، ولهذا قال ﷻ ههنا : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ أي فراخه ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ أي شده

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٦) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) والبيهقي في السنن (٣٥٣/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥) والترمذي في السنن (١٩٢٨) وأحمد في مسنده (٤٠٤/٤) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٢/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٣) والطبراني في الكبير (١٨٤/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/١) .

﴿ فَٱسۡتَغۡلَظَ ﴾ أي شب وطال ﴿ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾ .

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه ، في رواية عنه ، بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة ﷺ قال : لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة ﷺ فهو كافر لهذه الآية ، ووافقه طائفة من العلماء ﷺ على ذلك ، والأحاديث في فضل الصحابة ﷺ والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة ، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم ﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿ مَّغۡفِرَةً ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ أي ثوابًا . جزيلًا ورزقًا كريمًا . ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل ، وكل من اقتفى أثر الصحابة ﷺ فهو في حكمهم ، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ، ﷺ وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم ، وقد فعل . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » [١] .

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٢) وأحمد في مسنده (٣/٥٤) والبيهقي في السنن (١٠/٢٠٣) .

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين ، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه أي قبله ، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمورحتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن « بم تحكم ؟ » قال : بكتاب الله تعالى ، قال ﷺ : « فإن لم تجد ؟ » قال : بسنة رسول الله ﷺ ، قال ﷺ : « فإن لم تجد ؟ » قال رضي الله عنه : أجتهد رأيي ، فضرب في صدره وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ »[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وقال العوفي عنه : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ، وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه ، وقال الضحاك : لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، وقال سفيان الثوري : بقول ولا فعل ، وقال الحسن البصري : لا تدعوا قبل الإمام ، وقال قتادة : ذكر لنا أن ناسًا كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا ، لو صح كذا ، فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتكم .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته ، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . وعن ابن أبي مليكة ، قال : كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ، قال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما : ما أردت إلا خلافي ، قال : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل اله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن الزبير رضي الله عنهما فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه[2] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٢٧) وأحمد في مسنده (٥/٢٣٦) والدارمي في السنن (١/٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٥) .

صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكن من أهل الجنة » (١) .

وعنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ - إلى قوله - وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ ، أنا من أهل النار حبط عملي ، وجلس في أهله حزينًا ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول الله ﷺ ما لك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول ، حبط عملي أنا من أهل النار ، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال ، فقال النبي ﷺ : « بل هو من أهل الجنة » قال أنس رضي الله عنه : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس ، وقد تحنط ولبس كفنه فقال : بئسما تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه (٢) .

كذلك فقد نهى الله عز وجل عن رفع الأصوات بحضرة رسول ﷺ ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف ، فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا . وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه محترم حيًا وفي قبره ﷺ دائمًا ، ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبة ممن عداه ، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أو أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده ، خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه ، فيحبط عمل من أغضبه ، وهو لا يدري كما جاء في الصحيح : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض » (٣) ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك ، وأرشد إليه ، ورغب فيه فقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي أخلصها لها وجعلها أهلًا ومحلًا ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ عن مجاهد قال : كتب إلي عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهي المعصية ، ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ، فكتب عمر رضي الله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٣٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٦٩) والحاكم في المستدرك (١/٤٦) والألباني في الصحيحة (٨٨٨) .

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه ، كما يصنع أجلاف الأعراب فقال : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ثم أرشد تعالى الى الأدب في ذلك فقال ﷻ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة . ثم قال جل ثناؤه داعيًا لهم إلى التوبة والإنابة ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي ﷺ فيما أورده غير واحد . عن الأقرع بن حابس ﷺ ، أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد يا محمد ، وفي رواية : يا رسول الله ، فلم يجبه فقال : يا رسول الله إن حمدي لزين ، وإن ذمي لشين ، فقال ﷺ : « ذاك الله ﷻ » [١] وعن زيد بن أرقم ﷺ قال : اجتمع أناس من العرب فقالوا : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يك نبيًا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا نعش بجناحه . قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرة النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته : يا محمد يا محمد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ قال : فأخذ رسول الله ﷺ بأذني ، فمدها فجعل يقول : « لقد صدّق الله تعالى قولك يا زيد ، لقد صدّق الله قولك يا زيد » [٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله ، فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا ، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه ، وقد نهى الله ﷻ عن اتباع سبيل المفسدين ، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون ؛ لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ؛ لأنه مجهول الحال ، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق [٣] . وعن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي ﷺ قال : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الاسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله أرجع إليهم فأدعوهم إلى الاسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته . وترسل إلي يارسول الله رسولًا إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه . فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتًا يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٨/٣) والترمذي في السنن (٣٢٦٨) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٠/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٨/٧) .
(٣) أسباب النزول للنيسابوري (ص ٢١٧) .

الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أي خاف ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث ﷺ وأقبل الحارث بأصحابه حتى اذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولمَ ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله . قال ﷺ : لا والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني .

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : « منعتَ الزكاة وأردتَ قتلَ رسولي ؟ » قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت الا حين احتبس عليَّ رسول رسول الله ﷺ ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله . قال فنزلت الحجرات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ إلى قوله ﴿ حَكِيمٌ ﴾ [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ثم بيَّن أن رأيهم سخيف بالنسبة الى مراعاة مصالحهم فقال : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم ، وقوله ﷻ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم .

وعن أنس ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يقولُ : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » قال ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول : « التقوى ههنا ، التقوى ههنا » [(٢)] ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ أي وبغض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار ﴿ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ ، وهي جميع المعاصي وهذا تدريج لكمال النعمة ، وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم .

عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال : لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ : « استووا حتى أثني على ربي ﷻ » فصاروا خلفه صفوفًا ، فقال ﷺ : « اللَّهم لك الحمد كله ، اللَّهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لمن قربت . اللَّهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللَّهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللَّهم إني أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، اللَّهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا . اللَّهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين . اللَّهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٩/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥٢/١) .

ولا مفتونين ، اللَّهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللَّهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق » [١] . ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أي هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا بالاصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ فسماهم مؤمنين مع الاقتتال ، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم ، وهكذا ثبت عن أبي بكرة ﷺ قال : إن رسول اللَّه ﷺ خطب يومًا ، ومعه على المنبر الحسن بن علي ﷺ ، فجعل ينظر اليه مرة ، وإلى الناس أخرى ويقول : « إن ابني هذا سيد ولعل اللَّه تعالى أن يصلح به بين فتين عظيمتين من المسلمين » [٢] . فكان كما قال ﷺ ، أصلح اللَّه تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة ، والواقعات المهولة . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي حتى ترجع إلى أمر اللَّه ورسوله ، وتسمع للحق وتطيعه ، عن أنس ﷺ ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » قلت : يا رسول اللَّه ، هذا نصرته مظلومًا ، فكيف أنصره ظالمًا ؟ قال ﷺ : « تمنعه من الظلم ؛ فذاك نصرك إياه » [٣] .

وروي أن أنسًا ﷺ قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد اللَّه بن أبي ، فانطلق إليه النبي ﷺ ، وركب حمارًا وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة ، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال : إليك عني ، فواللَّه لقد آذاني ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : واللَّه لحمار رسول اللَّه ﷺ أطيب ريحًا منك . قال : فغضب لعبد اللَّه رجال من قومه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، قال : فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ [٤] .

وذكر سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال ، فأنزل اللَّه تعالى هذه الأية فأمر بالصلح بينهما . وقوله ﷻ : ﴿ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط وهو العدل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ .

عن عبد اللَّه بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ قال : « المقسطون عند اللَّه تعالى يوم القيامة على منابر من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٤/٣) والحاكم في المستدرك (٥٠٦/١) والطبراني في الكبير (٤٠/٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٣٨/٥) .
(٣) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٣) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٣) والترمذي في السنن (٢٢٥٥) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧/٣) .

نور على يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وماوُلُّوا »[١] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي الجميع أخوة في الدين ، كما قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »[٢] وفي الصحيح « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »[٣] وفي الصحيح أيضًا « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ولك مثله »[٤] ، وفي الصحيح « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرُ الجسد بالحمى والسهر »[٥] .

وقوله تعالى ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يعني الفئتين المقتتلتين ، ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم ، كما ثبت في الصحيح عن رسول ﷺ أنه قال : « الكبر بطر الحق وغمص الناس » ويروى « وغمط الناس »[٦] والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم ، وهذا حرام فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا عند الله تعالى ، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ فنص على نهي الرجال ، وعطف بنهي النساء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا تلمزوا الناس . والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون والهمز بالفعل واللمز بالقول .

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل بن حيان ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا يطعن بعضكم على بعض ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ أي لا تداعوا بالألقاب ، وهي التي يسوء الشخص سماعها . عن أبي جبيرة بن الضحاك ، قال : فينا نزلت في بني سلمة ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا أحدًا منهم باسم من تلك الأسماء ، قالوا : يا رسول الله إنه يغضب من هذا ، فنزلت ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾[٧] . وقوله جل وعلا : ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أي بئس الصفة والاسم الفسوق ، وهو التنابز بالألقاب ، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ أيَ من هذا ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والحاكم في المستدرك (٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٨٧/١٠) .
(٢) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٢) ومسلم في البر والصلة (٥٨) وأحمد في مسنده (٣١١/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/٢) . (٤) أخرجه أبو داود في السنن (١٥٣٤) .
(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥) وأحمد في مسنده (٤٠٤/٤) .
(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) والترمذي في السنن (١٩٩٩) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٦٩/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١١/٧) .

في غير محله ؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا ، فليجتنب كثيرًا منه احتياطًا . وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا ، وأنت تجد لها في الخيرمحملًا . وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال : رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ، ماله ودمه وأن يظن به الا خيرًا » [١] وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والظن ؛ فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانًا » [٢] .

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانًا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » [٣] . وعن حارثة بن النعمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن » فقال الرجل : وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال ﷺ : « إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض » [٤] . وعن دجين كاتب عقبة قال : قلت لعقبة : إن لنا جيرانًا يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم . قال : لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم ، قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم ، فقال له عقبة : ويحك لا تفعل ؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها » [٥] وعن معاوية ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » فقال أبو الدرداء ﷺ : كلمة سمعها معاوية ﷺ من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها [٦] .

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ أي على بعضكم بعضًا والتجسس غالبًا يطلق في الشر ومنه الجاسوس . وأما التحسس : فيكون غالبًا في الخير كما قال ﷻ إخبارًا عن يعقوب أنه قال : ﴿ يَٰبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشركما ثبت في الصحيح ان رسول الله ﷺ قال « لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانًا » [٧] وقال الأوزاعي : التجسس البحث عن الشيء . والتحسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم ، والتدابر : الصرم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ فيه نهي عن الغيبة ، وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال ﷺ : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال ﷺ : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » [٨] عن عائشة ﷺ قالت : قلت للنبي ﷺ حسبك من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٩٣٢) والطبراني في الكبير (٣٧/١١) والمنذري في الترغيب الترهيب (٢٩٤/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في السنن (١٩٨٨) ومالك في الموطأ (٩٠٨) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٠) والترمذي في السنن (١٩٣٥) وأحمد في مسنده (١٦٥/٣) .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٨/٣) والهندي في كنز العمال (٤٣٩١٩) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٤) . (٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٨٨) والطبراني في الكبير (٣٧٩/١٩) .

(٧) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٩) .

(٨) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٣٤) وأبو داود في السنن (٤٨٧٤) والبيهقي في السنن (٤٧/١٠) .

صفية كذا وكذا . تعني قصيرة ، فقال ﷺ : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » قالت : وحكيت له إنسانًا فقال : « ما أحب أني حكيت إنسانًا وإن لي كذا وكذا » (١) والغيبة محرمة بالاجماع ، ولا يستثنى من ذلك إلا من رجحت مصلحته ، كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها ، وقد خطبها معاوية وأبو الجهم : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » (٢) وكذا ما جرى مجرى ذلك ، ثم بقيتها على التحريم الشديد ، وقد ورد فيها الزجر الأكيد ، ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال عز وجل : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ أي كما تكرهون هذا طبعا فاكرهوا ذاك شرعًا ، فإن عقوبته أشد من هذا ، وهذا من التنفيرعنها والتحذير منها كما قال ﷺ : « العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه » (٣) وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » (٤) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » (٥) وعن أبي بردة البلوي قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته » (٦) وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، قلت : من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » (٧) .

عن عبيد مولى رسول ﷺ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ ، وأن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ان ههنا امرأتين صامتا وإنهما كادتا تموتان من العطش ، أراه قال : بالهاجرة ، فأعرض عنه أو سكت عنه ، فقال : يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا أو كادتا تموتان ، فقال : ادعهما . فجاءتا قال : فجيء بقدح أو عس ، فقال لإحداهما : قيئي . فقاءت من قيح ودم وصديد حتى قاءت نصف القدح ، ثم قال للأخرى : قيئي ، فقاءت قيحًا ودمًا وصديدًا ولحمًا ودمًا عبيطًا وغيره حتى ملأت القدح ، ثم قال : « إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس » (٨) .

وعن ابن عمر لأبي هريرة أن ماعزًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد زنيت ، فأعرض عنه حتى قالها أربعًا ، فلما كان في الخامسة قال : « زنيت ؟ » قال : نعم . قال : « وتدري ما الزنا ؟ » قال : نعم أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا . قال : « ما تريد إلى هذا القول ؟ »

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٧٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٥/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٢/٦) . (٣) أخرجه البخاري بنحوه في الهبة (٢٦٢٢) .
(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) وأحمد في مسنده (٣٢٠/١) .
(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٢) والترمذي في السنن (١٩٢٧) وابن ماجه في السنن (٣٩٣٣) وأبو داود في السنن (٤٨٨٢) .
(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٨٠) والبيهقي في السنن (٢٤٧/١٠) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٤/٣) .
(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣١/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧١/٣) .

قال : أريد أن تطهرني . قال : فقال رسول الله ﷺ : «أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والرشا في البئر ؟ قال : نعم يا رسول الله قال : فأمر برجمه ، فرجم ؟ فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه ، فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب؟ ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال : «أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار » . قالا : غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : «ما نلتما من أخيكما آنفًا أشد أكلًا منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها » (١) .

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة . فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس » (٢) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ أي تواب على من تاب إليه رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه . قال الجمهور من العلماء : طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لايعود ، وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع ، وأن يتحلل من الذي اغتابه . وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلله ؛ فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه ، فطريقه إذًا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها ، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته ، لتكون تلك بتلك ، وعن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ﷺ عن النبي ﷺ قال : «من حمى مؤمنًا من منافق يغتابه ، بعث الله تعالى إليه ملكًا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمنًا بشيء يريد سبه ؛ حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » (٣) وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري ﷺ قالا : قال رسول الله ﷺ : «ما من امرئ يخذل امرأ مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه ، إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته ، وما من امرئ ينصر امرأ مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله ﷻ في مواطن يحب فيها نصرته » (٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوبًا وهي أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب أخر ، كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك ، وقيل : المراد بالشعوب بطون العجم ، وبالقبائل بطون العرب ، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل ، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء ﷺ سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضًا ، منبهًا على تساويهم في البشرية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢٧/٨) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥١/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤١/٣) .
(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٨٤) وأحمد في مسنده (٣٠/٤) والدارمي في السنن (٢٤٣/١) .

وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ أي ليحصل التعارف بينهم ، كل يرجع إلى قبيلته ، وقال مجاهد في قوله ﷻ : ﴿ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ كما يقال : فلان بن فلان من كذا وكذا ، أي قبيلة كذا وكذا ، وقال سفيان الثوري : كانت حمير ينتسبون إلى مخاليفها ، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب ، وعن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله » قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم . قال : « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » (١)

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (٢) وعن أبي ذر ﷺ قال : إن النبي ﷺ قال له : « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله » (٣) .

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد ، كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملؤوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى ، وكفى بالرجل أن يكون بذيًا بخيلًا فاحشًا » (٤) .

وعن درة بنت أبي لهب ﷺ قالت : قام رجل إلى النبي ﷺ هو على المنبر فقال : يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال ﷺ : « خير الناس أقرأهم وأتقاهم لله ﷻ ، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم » (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أي عليم بكم خبير بأموركم ، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، ويفضل من يشاء على من يشاء ، وهو الحكيم العليم الخبيرفي ذلك كله ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لاتشترط ولايشترط سوى الدين لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه .

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٨٣) وأحمد في مسنده (٩٦/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٤) وابن ماجه في السنن (٤١٤٣) وأحمد في السنن (٢٨٥/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٥) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٥/٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٢/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٣/٧) .

يقول تعالى منكرًا على الأعراب الذين أول مادخلوا في الإسلام ، ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه . وعن سعد بن أبي وقاص ﵁ قال : أعطى رسول الله ﷺ رجالًا ولم يعط رجلًا منهم شيئًا ، فقال سعد رضي الله تعالى عنه : يارسول الله أعطيت فلانًا وفلانًا ولم تعط فلانًا شيئًا ، وهو مؤمن ، فقال النبي ﷺ : « أو مسلم ؟ » حتى أعادها سعد ﵁ ثلاثًا والنبي ﷺ يقول : « أو مسلم ؟ » ثم قال النبي ﷺ : « إني لأعطي رجالًا وأدع من هو أحب إليَّ منهم ، فلم أعطه شيئًا مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم » [١] . ودل ذلك على أن ذاك الرَّجل كان مسلمًا ليس منافقًا لأنه تركه من العطاء ، ووكله إلى ماهو فيه من الإسلام ، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك ، وهذا معنى قول ابن عباس ﵄ وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير . وإنما قلنا هذا لأن البخاري ﵀ ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك .

وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ أي استسلمنا ، خوف القتل والسبي . قال مجاهد : نزلت في بني أسد بن خزيمة . وقال قتادة : نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ ، والصحيح الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعد ، فأدِّبوا ، وأعلمهم أن ذلك لم يصلوا إليه بعد . ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة ، وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ ﴾ أي لاينقصكم من أجوركم شيئًا . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي إنما المؤمنون الكمل ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ أي لم يشكوا ولاتزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحض ﴿ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ أي في قولهم إذا قالوا أنهم مؤمنون ، لاكبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

وعن أبي سعيد ﵁ قال : إن النبي ﷺ قال : « المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله ﷻ » [٢] وقوله ﷺ : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي أتخبرونه بما في ضمائركم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي لايخفى عليه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/١) والنسائي في السنن (٤٩٩٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٣) .

مثقال ذرة في الأرض ولافي السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ﴾ يعني الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله تعالى ردًّا عليهم ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ولله المنة عليكم فيه ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي في دعواكم ذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين « يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ » كلما قال شيئًا قالوا : الله ورسوله أمنُّ [1] .

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) ومسلم في الزكاة (١٣٩) وأحمد في مسنده (٥٧/٣) .

سورة ق

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح وقيل : من الحجرات . وأما مايقوله العوام إنه من (عم) فلا أصل له ولم يقله أحد من العلماء ﷺ المعتبرين فيما نعلم . والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل مارواه أوس بن حذيفة قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة ﷺ ، وأنزل الرسول ﷺ بني مالك في قبة له ، قال مسدد : وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف ، قال : كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا – قال أبو سعيد : قائمًا على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ، فأكثرمايحدثنا ﷺ مالقي من قومه قريش ثم يقول ﷺ « لا أساء ، وكنا مستضعفين مستذلين » – قال مسدد : « بمكة – فلما خرجنا الى المدينة كانت الحرب سجالًا بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا » فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت علينا الليلة ، قال ﷺ « إنه طرأ على حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه » قال أوس : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده (١) .

إذا علم هذا فإذا عددت ثمانيًا وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة ق . بيانه : ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء . وخمس : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة . وسبع : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل . وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان . وإحدى عشرة : الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان وآلم السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس . وثلاث عشرة : الصافات وص والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات . ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله االصحابة ﷺ . فتعين أن أوله سورة ق وهو الذي قلنا ولله الحمد والمنة . عن عبد الله بن عبيد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ماكان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد ؟ قال : بقاف واقتربت (٢) .

وعن أم هشام بنت حارثة قالت : لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحدًا سنتين أو سنة وبعض سنة ، وما أخذت ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ ، وكان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس (٣) .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق ، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٣٤٥) وأحمد في مسنده (٩/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٥/٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ .

﴿ قٓ ﴾ : حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور ، وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا : ق جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف ، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لايصدق ولايكذب ، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افترى في هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم وشربهم الخمور ، وتحريف علماءهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته ، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : « وحدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج » [1] فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه ؛ فليس من هذا القبيل ، والله أعلم .

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﷻ ﴿ قٓ ﴾ هو اسم من أسماء الله ﷻ . والذي ثبت عن مجاهد أنه حرف من حروف الهجاء كقوله تعالى : (ص - ن - حم - طس- الم) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ أي الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد واختلفوا في جواب القسم ما هو ؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ وفي هذا نظر بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه ، وإن لم يكن القسم يلتقى لفظًا ، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر .

ثم قال ﷻ مخبرًا عنهم في تعجبهم أيضًا من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ أي يقولون أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا ترابا ، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ أي بعيد الوقوع . والمعنى : أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه . قال الله تعالى رادًا عليهم : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى ، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ أي حافظ لذلك ؛ فالعلم شامل ، والكتاب أيضًا فيه كل الأشياء مضبوطة .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) وأحمد في مسنده (٤٦/٣) .

ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل ، والمريج : المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعها ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا ﴾ أي بالمصابيح ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ قال مجاهد : يعني من شقوق ، وقال غيره : فتوق ، وقال غيره : صدوع ، والمعنى متقارب . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ أي وسعناها وفرشناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب ، فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع . وقوله ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي حسن المنظر ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب أي خاضع خائف وجل رجاع إلى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾ أي نافعا ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ ﴾ أي حدائق من بساتين ونحوها ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ أي طوالا شاهقات ، قال ابن عباس ﷺ ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وغيرهم : الباسقات الطوال ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ أي منضود ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أى للخلق ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك ، مما يحار الطرف في حسنها ، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيي الله الموتى وهذه المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

يقول تعالى مهددا لكفار قريش ، بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم ، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح وما عذبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض وأصحاب الرس ﴿ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور ، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض ، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ وهو اليماني .

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ أي كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسولهم ، ومن كذب رسولًا فكأنما كذب جميع الرسل ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من

العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك . وقوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ أي أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة ؟ ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه كما قال ﷻ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره ، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخيروالشر . وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » [1] وقوله ﷻ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ كما قال في المحتضر ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ يعني ملائكته ، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بأقدار الله جل وعلا لهم على ذلك . فللملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لمة ، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق [2] ، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ يعني الملكين الذين يكتبان عمل الإنسان .

﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أي مترصد ﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ أي ابن آدم ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ أي ما يتكلم بكلمة ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لايترك كلمة ولاحركة . وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام ؟ . وهو قول الحسن وقتادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب ؟ كما هو قول ابن عباس رضي الله عنهما . فعلى قولين وظاهر الآية الأول لعموم قوله تبارك وتعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه الى يوم يلقاه ، فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث [3] .

وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة قال له : أمسك ، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) ومسلم في الإيمان (٢٠١) والنسائي في السنن (١٥٧/٦) وابن ماجه في السنن (٢٠٤٠) .

(٢) انظر أحمد في مسنده (١٥٦/٣) وابن ماجه في السنن (٥٦٥/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٩/٣) والحاكم في المستدرك (٥٩٧/٤) والطبراني في الكبير (٣٥٤/١) .

شر حتى أنه ليكتب قوله : أكلت شربت ذهبت جئت رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴾ وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال يكتب الملك كل شيء حتى الأنين ؛ فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يقول عز وجل : ﴿ وَجَاءَتْ ﴾ أيها الإنسان ﴿ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا محيد ولامناص ولافكاك ولاخلاص .

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو ، وقيل : الكافر ، وقيل : غير ذلك . عن عائشة رضي الله عنها قالت : حضرت أبي رضي الله عنه وهو يموت ، وأنا جالسة عند رأسه فأخذته غشية ، فتمثلت ببيت من الشعر :

من لايزال دمعه مقنعًا   فإنه لابد مرة مدفوق

قالت : فرفع رضي الله عنه رأسه فقال : يا بنية ليس كذلك ، ولكن كما قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول « سبحان الله إن للموت لسكرت »[(١)] . وفي قوله : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ قولان : أحدهما : أن ما ههنا موصولة أي الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتتناءى وتفر ، قد حل بك ونزل بساحتك . والقول الثاني : أن ما نافية بمعنى ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه ، ولا الحيد عنه . عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب تطلبه الأرض بدين ، فجاء يسعى حتى إذا أعيي وأسهد دخل جحره ، وقالت له الأرض : يا ثعلب ديني ، فخرج وله حصاص ، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات »[(٢)] ومضمون هذا المثل كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض ، كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له ؟ » قالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال ﷺ : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل[(٣)] ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله . هذا هو الظاهر من الآية الكريمة . وهو اختيار ابن جرير . وعن يحيى بن رافع - مولى لثقيف - قال : سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يخطب فقرأ هذه الآية ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ فقال : سائق يسوقها إلى الله تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : السائق ، الملك والشهيد العمل ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : السائق من الملائكة والشهيد الإنسان نفسه ، يشهد على نفسه .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٦٨/٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٠/٢) والحصاص : شدة العدو .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٣١) والحاكم في المستدرك (٥٥٩/٤) وأحمد في مسنده (٧/٣) .

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أحدها : أن المراد بذلك الكافر . والثاني : أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر ؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة ، والدنيا كالمنام ، وهذا اختيار ابن جرير . والثالثة : أن المخاطب بذلك النبي ﷺ وبه يقول زيد بن أسلم وابنه ، والمعنى على قولهما : لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك فبصرك اليوم حديد ، والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو ، والمراد بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ يعني من هذا اليوم ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي قوي ؛ لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصرًا حتى الكفار في الدنيا ، يكونون يوم القيامة على الاستقامة ، لكن لا ينفعهم ذلك . قال اللّٰه تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ۝ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الملك الموكل بعمل ابن آدم إنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول : ﴿ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان . وقال مجاهد : هذا كلام الملك السائق ، يقول هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته ، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد ، وله اتجاه وقوة ، فعند ذلك يحكم اللّٰه تعالى في الخليقة بالعدل فيقول : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وقد اختلف النحاة في قوله : ﴿ أَلْقِيَا ﴾ فقال بعضهم : هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية كما روي عن الحجاج أنه كان يقول : يا حرسي اضربا عنقه ، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد ، فالسائق أحضره الى عرصة الحساب ، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما اللّٰه تعالى بإلقائه في نار جهنم ، وبئس المصير ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي كثير الكفر والتكذيب بالحق عنيد معاند للحق ، معارض له بالباطل مع علمه بذلك ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد . وقال قتادة : معتد في منطقه وسيره وأمره ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ أي شاك في أمره مريب لمن نظر في أمره ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي أشرك باللّٰه فعبد معه غيره ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يخرج عنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع اللّٰه إلهًا آخرًا ، ومن قتل نفسًا بغير نفس ، فتنطوي عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم » [(١)] .

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وغيرهم : هو الشيطان الذي وكل به ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافرًا يتبرأ منه شيطانه فيقول : ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أي ما أضللته ﴿ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالًا قابلًا للباطل معاندًا للحق ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٩٧/٣) والألباني في الصحيحة (٥١٣) . والعنق : دابة وحشية أكبر من السنور وأصغر من الكلب .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ يقول الرب ﷻ للإنسي وقرينه من الجن ، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى ، فيقول الإنسي : يارب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، ويقول الشيطان : ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي عن منهج الحق ، فيقول الرب ﷻ لهما : ﴿ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ أي عندي ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ أي قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل ، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ قال مجاهد : يعني قد قضيت ما أنا قاض ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي لست أعذب أحدًا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة : ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ ؟ وذلك لأنه تبارك وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين ، فهو ﷻ يأمر بمن يأمر به إليها ويلقى وهي تقول : هل من مزيد أي هل بقي شيء تزيدوني ؟ هذا هو الظاهر في سياق الآية وعليه تدل الأحاديث . عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : « يلقى في النار وتقول : هل من مزيد ؟ » حتى يضع قدمه فتقول : قط قط [(١)] . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ قال الله ﷻ للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فيها فتقول : قط قط ، فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله ﷻ من خلقه أحدًا ، وأما الجنة : فإن الله ﷻ ينشئ لها خلقًا آخر » [(٢)] .

عن أبي بن كعب ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « يعرفني الله تعالى نفسه يوم القيامة ، فأسجد سجدة يرضى بها عني ، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي في الكلام ، ثم تمر أمتي على الصراط مضروب بين ظهراني جهنم ، فيمرون أسرع من الطرف والسهم وأسرع من أجود الخيل ، حتى يخرج الرجل منها يحبو وهي الأعمال ، وجهنم تسأل المزيد حتى يضع فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط وأنا على الحوض » قيل : وما الحوض يارسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده إن شرابه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج وأطيب ريحًا من المسك ، وآنيته أكثر من عدد النجوم ، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبدًا ، ولا يصرف فيروى أبدًا » [(٣)] وهذا القول هو اختيار ابن جرير .

وعن مجاهد يقول : لا يزال يقذف فيها حتى تقول : قد امتلأت فتقول : هل في مزيد فعند هؤلاء أن قوله تعالى ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ إنما هو بعدما يضع عليها قدمه فتنزوي وتقول حينئذ : هل بقي في مزيد يسع شيئًا ؟ قال ابن عباس : وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة وقوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٨) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٧) وأحمد في مسنده (٢٣٤/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٥) وأحمد في مسنده (٢١٤/٢) .
(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٩١٩٦) وابن حجر في فتح الباري (٤٣٧/١١) والسيوطي في الدر المنثور (١٠٧/٦) .

بَعِيدٍ ﴾ قال قتادة وأبو مالك والسدي : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ أدنيت وقربت من المتقين ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ وذلك يوم القيامة ، وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي رجاع تائب مقلع ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه ، وقال عبيد بن عمير : الأواب الحفيظ الذي لا يجلس مجلسًا فيقوم حتى يستغفر الله ﷻ ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله ﷻ كقوله ﷺ : « ورجل ذكر الله تعالى خاليا ، ففاضت عيناه » [(١)] ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي ولقي الله ﷻ يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه ﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ أي الجنة ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ قال قتادة : سلموا من عذاب الله ﷻ ، وسلم عليهم ملائكة الله . وقوله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبدًا ، ولا يظعنون أبدًا ولا يبغون عنها حولًا ، وقوله جلت عظمته : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ أي مهما اختاروا وجدوا من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم . عن كثير بن مرة قال : من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ماذا تريدون « فأمطره لكم ؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم ، قال كثير : لئن أشهدني الله تعالى ذلك لأقولن : أمطرينا جواري مزينات .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة » [(٢)] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ هو كقوله ﷻ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ عن صهيب بن سنان الرومي : أنها النظر الى وجه الله الكريم . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله ﷻ : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ قال : يظهر لهم الرب ﷻ في كل جمعة . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أتى جبرائيل عليه الصلاة والسلام بمرآة بيضاء فيها نكتة إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ . « ما هذه » فقال : هذه الجمعة فضلت بها أنت وأمتك ، فالناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، ولكم فيها ساعة لايوافقها مؤمن يدعو الله تعالى فيها بخير إلا استجيب له وهو عندنا يوم المزيد . قال النبي ﷺ : « يا جبريل وما يوم المزيد ؟ » قال عليه السلام : إن ربك تبارك وتعالى اتخذ في الفردوس واديًا أفيح فيه كثب المسك ، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله تعالى ما شاء من ملائكته ، وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين ، وحفت تلك المنابر من ذهب ، مكللة بالياقوت والزبرجد عليها الشهداء والصديقون ، فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب ، فيقول الله ﷻ : أنا ربكم قد صدقتكم وعدي ، فسلوني أعطكم ، فيقولون : ربنا نسألك رضوانك ، فيقول : قد رضيت عنكم ولكم علي ما تمنيتم ولدي مزيد . فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم تبارك وتعالى من الخير ، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش ، وفيه خلق آدم ، وفيه تقوم الساعة » [(٣)] . وعن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل في الجنة ليتكئ في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ، ثم تأتيه امرأة تضرب على منكبه فينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة ، وإن أدق لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب ، فتسلم عليه فيرد السلام فيسألها من أنت فتقول : أنا من المزيد ، وإنه ليكون عليها سبعون حلة أدناها مثل النعمان من طوبى ، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ، وإن عليها من التيجان ، إن أدني لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب » [(٤)] .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٩) .
(٣) أخرجه الشافعي في مسنده (٦/١٠٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٧٥) والسيوطي في جمع الجوامع (٥٥٢٧) .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم ﴾ قبل هؤلاء المكذبين ﴿ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أثروا فيها . وقال مجاهد : ضربوا في الأرض ، وقال قتادة : فساروا في البلاد أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم بها ، ويقال لمن طوف في البلاد نقب فيها .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي هل مِن مفر كان لهم من قضاء الله وقدره ، وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل ، فأنتم أيضًا لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص . وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أي لعبرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي لب يعي به . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ فيه تقرير للمعاد ؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى ، وقال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله - : خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب .

وقوله عز وجل : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ يعني المكذبين اصبرعليهم واهجرهم هجرًا جميلًا ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر ، وقيام الليل كان واجبًا على النبي ﷺ وعلى أمته حولًا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه ، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات ، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لاتضامون فيه ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أي فصل له ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما : هو التسبيح بعد الصلاة . يؤيد هذا ما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يارسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال النبي ﷺ : « وذاك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق . قال ﷺ : « أفلا أعلمكم شيئًا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين » قال : فقالوا : يا رسول

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٤) ومسلم في المساجد (٢١٢) والطبراني في الكبير (٣٣٢/٢) .

اللَّه سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله . فقال ﷺ : « ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء » [١] .

والقول الثاني : أن المراد بقول تعالى : ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ هما الركعتان بعد المغرب . عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول اللَّه ﷺ يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر . وقال عبد الرحمن : دبر كل صلاة [٢] .

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قال قتادة : قال كعب الأحبار : يأمر اللَّه تعالى ملكًا أن ينادي على صخرة بيت المقدس أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة ، إن اللَّه تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ أي من الأجداث ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلائق كلهم ، فيجازي كلًّا بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ وذلك إن اللَّه عز وجل ينزل مطرًا من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها ، كما ينبت الحب في الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر اللَّه تعالى إسرافيل فينفخ في الصور ، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور ، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض ، فيقول اللَّه عز وجل : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ ، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعًا مبادرين إلى أمر اللَّه عز وجل ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول اللَّه ﷺ : « أنا أول من تنشق عنه الأرض » [٣] . وقوله عز وجل : ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا ، يسيرة لدينا .

وقوله جل وعلا : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولنك ذلك ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى ، وليس ذلك مما كلفت به . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أي لا تتجبر عليهم ، والقول الأول أولى ، ولو أراد ما قالوه لقال : ولا تكن جبارًا عليهم ، وإنما قال : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ بمعنى وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ ، قال الفراء : سمعت العرب تقول : جبر فلان فلانا على كذا بمعنى أجبره ، ثم قال عز وجل : ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي بلغ أنت رسالة ربك فإنما يتذكر من يخاف اللَّه ووعيده ويرجو وعده ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣) ومسلم في الإيمان (١٧٩) والترمذي في السنن (٧٣١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٤/١) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٤٨) وابن ماجه في السنن (٤٣٠٨) وأحمد في مسنده (٢٨١/١) والحاكم في المستدرك (٤٦٥/٢) .

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، أنه صعد منبر الكوفة فقال : لاتسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ، ولا عن سنة عن رسول الله إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكواء ، فقال : يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ قال علي ﷺ : الريح ، قال : ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ قال ﷺ : السحاب ، قال : ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ قال ﷺ : السفن ، قال : ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ قال ﷺ : الملائكة .

وقال بعضهم : هي النجوم تجري يسرًا في أفلاكها ليكون ذلك ترقيًا من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه ، فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوقه كذلك ، والمقسمات أمرًا : الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية ، وهذا قسم من الله ﷻ على وقوع المعاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أي لخبر صدق ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ وهو الحساب ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ أي لكائن لا محالة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ قال ابن عباس ﵄ : ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال الضحاك والمنهال بن عمرو وغيرهما : مثل تجعد الماء والرمل والزرع ، إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضًا طرائق طرائق ، فذلك الحبك . عن أبي قلابة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن من ورائكم الكذاب المضل ، وإن رأسه من ورائه حُبُكًا حُبُكًا »[1] يعني بالحبك الجعودة . وعن أبي صالح : ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ الشدة . وعن عبد الله بن عمرو ﵄ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ يعني السماء السابعة ، وكأنه والله أعلم أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة ، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع ، والله أعلم . وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء كما قال ابن عباس ﵄ ، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة شديدة البناء متسعة الأرجاء أنيقة البهاء ، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات ، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب لايلتئم ولايجتمع ، وقال قتادة : إنكم لفي قول مختلف مابين مصدق بالقرآن ومكذب به . ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه ؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ، ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمر لا فهم له قال ابن عباس ﵄ والسدي : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ يضل عنه من ضل . وقال مجاهد : يؤفن عنه من أفن ، وقال الحسن البصري : يصرف عن هذا القرآن من كذب به . وقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ قال مجاهد : الكذابون ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٠/٥) وذكره الطبرى في تفسيره (٢٤٥/٢٦) .

قال : وهي مثل التي في عبس ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾ والخراصون الذين يقولون لانبعث ولايوقنون . قال ابن عباس : أي لعن المرتابون . وهكذا كان معاذ ﷺ يقول في خطبته . هلك المرتابون . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴾ قال ابن عباس ﷺ وغير واحد : في الكفر والشك غافلون لاهون ﴿ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ وإنما يقولون هذا تكذيبًا وعنادًا وشكًا واستبعادًا ، قال الله تعالى : ﴿ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد : ﴿ يُفۡتَنُونَ ﴾ يعذبون . قال مجاهد : كما يفتن الذهب على النار ، وقال جماعة آخرون : يحرقون ﴿ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ ﴾ قال مجاهد : حريقكم ، وقال غيره : عذابكم ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المتقين لله ﷻ أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال . وقوله تعالى : ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ ﴾ قال ابن جرير : أي عاملين بما أتاهم الله من الفرائض ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴾ أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضًا .

وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ مُحۡسِنِينَ ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴾ ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جل وعلا ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾ اختلف المفسرون في ذلك على قولين : أحدهما ، أن ما نافية تقديره : كانوا قليلا من الليل لايهجعونه ، قال ابن عباس ﷺ : لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئًا ، وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله : قل ليلة تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله ﷻ ، إما من أولها وإما من أوسطها . وقال أنس بن مالك وأبو العالية : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . القول الثاني : أن ما مصدرية تقديره كانوا قليلًا من الليل هجوعهم ونومهم ، واختاره ابن جرير .

وقال الحسن البصري : ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾ كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر . وقال الحسن البصري : كان الأحنف بن قيس يقول : عرضت عملي على عمل أهل الجنة ، فإذا قوم قد باينونا بونًا بعيدًا ، إذا قوم لانبلغ أعمالهم كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون ، وعرضت عملي على عمل أهل النار ، فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب الله وبرسل الله ، مكذبون بالبعث بعد الموت ، فقد وجدت من خيرنا منزلة قومًا خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بني تميم لأبي : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا ، ذكر الله تعالى قوما فقال : ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾ ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم ، فقال له أبي ﷺ : طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ . وقال عبد الله ابن سلام ﷺ : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيت

وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، فكان أول ماسمعته ﷺ يقول : « يا أيها الناس أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وأفشوا السلام ، وصلوا بالليل والناس نيام ؛ تدخلوا الجنة بسلام » (١) .

وعن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول اللّه ﷺ قال : « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : لمن هي يارسول اللّه ؟ قال ﷺ : « لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات للّه قائما والناس نيام » (٢) .

وقوله عز وجل : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : يصلون . وقال آخرون : قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن . وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « إن اللّه تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر » (٣) وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارًا عن يعقوب أنه قال لبنيه : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ : قالوا : أخرهم إلى وقت السحر .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم . أما السائل فمعروف وهو الذي يبتدئ بالسؤال ، وله حق ، عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال : قال رسول اللّه ﷺ : « للسائل حق وإن جاء على فرس » (٤) وأما المحروم : فقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد : هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم ؛ يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها ، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : هو المحارف الذي لايكاد يتيسر له مكسبه ، وقال الضحاك : هو الذي لايكون له مال إلا ذهب ، قضى اللّه تعالى له ذلك . وقال قتادة والزهري : المحروم الذي لايسأل الناس شيئا .

قال الزهري : وقد قال رسول اللّه ﷺ : « ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ؛ ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه » (٥) ، وقوله عز وجل : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة ، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قال قتادة :

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٢٤٨٥) والحاكم في المستدرك(١٣١/٣) وأحمد في مسنده(٤٥١/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٣٤٣/٥) والحاكم في المستدرك(٣٧١/١) والبيهقي في السنن(٣٠١/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٣٨٨/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده(٢٠١/١) وأبو داود في السنن(١٦٦٦) والبيهقي في السنن(٢٣/٧) .

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة(١٤٧٦) ومسلم في الزكاة(١٠٢) وأبو داود في السنن(١٦٣٢) وأحمد في مسنده(٣٩٥/٢) .

من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾ يعني المطر ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني الجنة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد . وقال سفيان الثوري : قرأ واصل الأحدب هذه الآية ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ فقال : ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، فدخل خربة فمكث ثلاثًا لا يصيب شيئًا ، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدوخلة من رطب ، وكان له أخ أحسن نية منه ، دخل معه فصارتا دوخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة ، وهوحق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون ، وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه : إن هذا لحق كما أنك ههنا .

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ .

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ أي الذين أرصد لهم الكرامة ، وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل ، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل . وقوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ ﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب ، فرده أفضل من التسليم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ ﴾ فالخليل اختار الأفضل ، وقوله تعالى : ﴿ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾ وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا قال : ﴿ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾ أي انسل خفية في سرعة ﴿ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴾ أي من خيار ماله ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ أي أدناه منهم ﴿ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ تلطف في العبارة وعرض حسن ، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرن بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولًا فقال : نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهوعجل فتي سمين مشوي ، فقربه إليهم لم يضعه وقال : اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال : ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل : اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ ﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ ﴾ أي استبشرت بهلاكهم لتمردهم وعتوهم على الله تعالى ، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ ولهذا قال الله تعالى ههنا ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ فالبشارة له هي بشارة لها . لأن الولد منهما فكل منهما بشر به . وقوله تعالى : ﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنة ، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم

وهي قولها : يا ويلتاه ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أي ضربت بيدها على جبينها ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيما لا أحبل ، ﴿ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أي عليم بما تستحقون من الكرامة ، حكيم في أقواله وأفعاله .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۝ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ .

قال الله تعالى مخبرًا عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي ما شأنكم وفيما جئتم ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ يعنون قوم لوط ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۝ مُسَوَّمَةً ﴾ أي معلمة ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مكتتبة عنده بأسمائهم كل حجر عليه اسم صاحبه ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ احتج بهذه من ذهب إلى رأي المعتزلة ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين ، وهذا الاستدلال ضعيف ؛ لأن هؤلاء كانوا قومًا مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك في كل حال . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل ، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة ، ففي ذلك عبرة للمؤمنين .

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۝ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾ أي فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكبارًا وعنادًا . وقال مجاهد : تعزز بأصحابه ، وقال قتادة : غلب عدو الله على قومه ، وقال ابن زيد : ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾ أي بجموعه التي معه ثم قرأ ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ والمعنى الأول قوي ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحرًا أو مجنوناً ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ أي ألقيناهم ﴿ فِي الْيَمِّ ﴾ وهو البحر ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند .

ثم قال ﷻ : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ أي المفسدة التي لا تنتج شيئًا ، قاله الضحاك وقتادة وغيرهما ولهذا قال تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ أي مما تفسده الريح . وإلا جعلته كالرميم أي كالشيء الهالك البالي ، قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ قالوا : هي الجنوب . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدَّبور »[1] . ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ قال ابن جرير : يعني إلى وقت فناء آجالكم .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٥) ومسلم في صلاة الاستسقاء (١٧) وأحمد في مسنده (١/٣٥٥) والحاكم في المستدرك (٢/٤٥٦) .

والظاهر ان هذه كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ ﴾ أي من هرب ولا نهوض ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ أي لا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه . وقوله ﷻ : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة في أماكن كثيرة من سور متعددة ، والله تعالى أعلم .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على خلق العالم العلوي والسفلي ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ أي جعلناها سقفًا محفوظا رفيعًا ﴿ بِأَيْي۟دٍ ﴾ أي بقوة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أي قد وسعنا أرجاءها فرفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا ﴾ أي جعلناها فراشًا للمخلوقات ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ أي وجعلناها مهدًا لأهلها ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أي جميع المخلوقات أزواج سماء وأرض ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ، وبر وبحر ، وضياء وظلام ، وإيمان وكفر ، وموت وحياة ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، حتى الحيوانات والنباتات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي الجأوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي لاتشركوا به شيئا ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه ﷺ وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذبون الأولون لرسلهم : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ قال الله ﷻ : ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ﴾ أي أوصى بعضهم بعضًا بهذه المقالة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم ، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم . قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ يعني فما نلومك على ذلك ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم . وقال ابن عباس ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي إلا ليقروا بعبادتي طوعًا أو كرهًا . وهذا اختيار ابن جرير . وقال ابن جريج : إلا ليعرفون ، وقال الربيع بن أنس : أي إلا للعبادة ، وقال السدي : من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك ، وقال الضحاك : المراد بذلك المؤمنون .

وقوله تعالى : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ عن

عبد الله بن مسعود ﷺ قال : أقرأني رسول الله (إني أنا الرزاق ذو القوة المتين)[1] . ومعنى الآية : أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم . فهو خالقهم ورازقهم . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ؛ ملأت صدرك شغلًا ، ولم أسد فقرك »[2] . وقد ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدني ، فان وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا ﴾ أي نصيبًا من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي فلا يستعجلون ذلك فإنه واقع لا محالة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ يعني يوم القيامة .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٤/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٨/٢) .

سورة الطور

عن جبير بن مطعم : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحدًا أحسن صوتا أو قراءة منه [١] . عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي فقال : « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة » فطفت ورسول الله يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة ، أن عذابه واقع بأعدائه ، وأنه لا دافع عنهم ، فالطور هو الجبل الذي يكون فيها أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى ، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا إنما يقال له جبل ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهارًا ، ولهذا قال : ﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يعودونُ إليه آخر ما عليهم » يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مسندًا ظهره إلى البيت المعمور ؛ لأنه باني الكعبة الأرضية ، والجزاء من جنس العمل ، وهو بحيال الكعبة ، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة .

وقال قتاده والربيع بن أنس والسدي : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه : « هل تدرون ما البيت المعمور ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لوخر لخر عليها ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم » [٣] وزعم الضحاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الجن من قبيلة إبليس ، فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ عن علي ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ يعني السماء . وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وابن جريج وابن زيد واختاره ابن جرير . وقال الربيع بن أنس : هو العرش ، يعني أنه سقف لجميع المخلوقات ، وله اتجاه وهو مراد مع غيره كما قاله الجمهور .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ قال الربيع بن أنس : هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٤) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٣) ومسلم في الحج (٢٥٨) وأبو داود في السنن (١٨٨٢) وأحمد في مسنده (٦/٢٩٠) .
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/١١٨) والقرطبي في تفسيره (٧/٤٠٤) .

منه المطر ، الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها ، وقال الجمهور : هو هذا البحر ، واختلف في معنى قوله : ﴿ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ ، فقال بعضهم : المراد أنه يوقد يوم القيامة نارًا كقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أي أضرمت فتصير نارًا تتأجج محيطة بأهل الموقف . وقال العلاء بن بدر : إنما سمي البحر المسجور لأنه لايشرب منه ماء ولايسقى به زرع وكذلك البحار يوم القيامة . وقال قتادة : المسجور المملوء ، واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا فهو مملؤ . وقيل : المراد به الفارغ . وقيل : المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها ، قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره ، وعليه يدل الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا البحر يشرف فيها ثلاث مرات ، يستأذن الله تعالى أن ينفضح عليهم ، فيكفه الله ﷻ »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه أي لواقع بالكافرين كما قال في الآية الأخرى ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك . عن جعفر بن زيد العبدي قال : خرج عمر يعس في المدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائمًا يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾ حتى إذا بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ قال : قسم - ورب الكعبة - حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث مليًا ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ قال ابن عباس وقتادة : تتحرك تحريكا . وقال مجاهد : تدور دورًا ، وقال الضحاك : استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض . وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تذهب فتصير هباء منبثًا وتنسف نسفًا ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هزوًا ولعبا ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ أي يدفعون ويساقون ﴿ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ قال مجاهد والشعبي وغيرهما : يدفعون فيها دفعًا ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريعا وتوبيخًا ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا ﴾ أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿ فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي ولا يظلم الله أحدا بل يجازي كلًّا بعمله .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ .

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم أي وقد نجاهم من عذاب النار ، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف اليها من دخول الجنة التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣/١) .

على قلب بشر . وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ أي هذا بذاك تفضلًا منه واحسانًا .. وقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ عن ابن عباس : السرر في الحجال ، عن الهيثم بن مالك الطائي يقول : إن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله ، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه »(١) ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات وزوجات حسانًا من الحور العين ، وقال مجاهد : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم ﴾ أنكحناهم بحور عين .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه ، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة ، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك ، ولذا قال : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ، ثم قرأ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال : هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان ، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئًا . وعن ابن عباس ، أظنه عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك ، فيقول : يارب قد عملت لي ولهم ، فيؤمر بالحاقهم به وقرأ ابن عباس ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾(٢) الآية .

عن علي قال : سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : « هما في النار » فلما رأى الكراهية في وجهها قال : « لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » قالت : يا رسول الله فولدي منك ؟ قال : « في الجنة » قال : ثم قال رسول ﷺ : « إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار » ثم قرأ رسول الله ﷺ : « ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾ »(٣) الآية ، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول : يا رب أنى لي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك »(٤) . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) بنحوه والسيوطي في الدر المنثور (٢٢٢/٤) بلفظه .
(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٢٩/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٤/٧) .
(٣) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١٢٣/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٧/٧) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠٩/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٠/١٠) .

انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[١] .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ لما أخبرعن مقام الفضل وهورفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك ، أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤاخذ أحدًا بذنب أحد ، فقال تعالى : ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أبًا أو ابنًا وقوله ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى . وقوله ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أي يتعاطون فيها كأسًا أي من الخمر ، قاله الضحاك ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ أي هذيان ولا إثم أي فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا ، قال ابن عباس : اللغو الباطل والتأثيم الكذب ، وقال مجاهد : لا يستبون ولا يؤثمون . وقال قتادة : كان ذلك في الدنيا مع الشيطان فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها ، كما تقدم ، فنفى عنها صداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل بالكلية ، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانًا وفحشًا ، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخبرها . وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة ، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا فيتحدثان ، فيتكئ هذا ويتكئ هذا ، فيتحدثان بما كان في الدنيا ، فيقول أحدهما لصاحبه : يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعونا الله ﷻ فغفر لنا »[٢] وعن عائشة أنها قرأت هذه الآية ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فقالت : اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم . قيل للأعمش : في الصلاة ؟ قال : نعم .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده ، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ أي لست

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٧٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (١/٩٩) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٤٢١) والبزار في مسنده (٣٥٥٣) .

بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش ، والكاهن الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس . ثم قال تعالى منكرا عليهم في قولهم في الرسول ﷺ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ أي قوارع الدهر ، والمنون الموت ، يقولون : ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي انتظروا فاني منتظر معكم ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة . عن ابن عباس رضي الله عنهما : إن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم : احتبسوه في وثاق وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم ، فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي ولكن هم قوم طاغون ضلال معاندون ، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ أي اختلقه وافتراه من عند نفسه ، يعنون القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم : تقوّله وافتراه ، فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ماجاءوا بمثله ، ولا بعشر سور من مثله ، ولا بسورة من مثله .

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أي أوجدوا من غيره موجد ، أم هم أوجدوا أنفسهم ، أي لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا . عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴾ كاد قلبي أن يطير [(١)] . وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركًا ، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أي أهم خلقوا السموات والأرض ، وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله ، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له ، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴾ أي هم يتصرفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴾ أي المحاسبون للخلائق ، ليس الأمر كذلك بل الله عز وجل هو المالك المتصرف الفعال لما يريد .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (١٨٥٣) وأحمد في مسنده (٢٩٠/٦) .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أي مرقاة إلى الملأ الأعلى ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال ، أي وليس لهم سبيل إلى ذلك فليسوا على شيء ولا لهم دليل ، ثم قال منكرًا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات وجعلهم الملائكةَ إناثًا ، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث ، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهوكظيم ، هذا وقد جعلوا الملائكة بنات اللّٰه وعبدوهم مع اللّٰه فقال : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أي أجرة على إبلاغك إياهم رسالة اللّٰه ، أي لست تسألهم على ذلك شيئًا ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ أي فهم من أدنى شيء يتبرمون منه ويثقلهم ويشق عليهم ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا اللّٰه ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ يقول تعالى : أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۝ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنامَ والأنداد مع اللّٰه ، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ ، أي عليهم يعذبون به لما صدقوا ، ولما أيقنوا بل يقولون : هذا سحاب مركوم ، أي متراكم وقال اللّٰه تعالى ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أي دعهم يا محمد ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ، لا يجزي عنهم يوم القيامة شيئا ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي نعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون فلا يفهمون ما يراد بهم ، بل إذا جلي عنهم مما كانوا فيه ، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه كما جاء في بعض الأحاديث : « إن المنافق إذا مرض وعوفي مثله في ذلك كمثل البعير ، لا يدري فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه » (١) وفي الأثر الإلهي : كم أعصيك ولا تعاقبني ؟ قال اللّٰه تعالى : يا عبدي كم أعافيك وأنت لا تدري ، وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا واللّٰه يعصمك من الناس . وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قال الضحاك : أي إلى الصلاة . سبحانك اللّٰهم وبحمدك وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . وعن أبي سعيد وغيره ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك (٢) . وقال أبو الجوزاء

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٠٨٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٩٤/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٣) والنسائي في السنن (١٣٢/٢) .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي من نومك من فراشك ، واختاره ابن جرير ويتأيد هذا القول بما روي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال : « من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : رب اغفر لي - أو قال ثم دعا - استجيب له فإن عزم ، فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته » [(١)] .

وقد وردت أحاديث مسندة من طرق يقوي بعضها بعضًا بذلك ، فمن ذلك حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك » [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ قد تقدم في حديث ابن عباس ، أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ؛ فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جنوحها للغيبوبة . وقد روي عن أبي هريرة مرفوعا : « لا تدعوهما وإن طردتكم الخيل » يعني ركعتي الفجر [(٣)] . ومن هذا الحديث حكي عن بعض أصحاب أحمد القول بوجوبهما ، وهو ضعيف لحديث « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل علي غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » [(٤)] . وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لم يكن رسول الله ﷺ : على شيء من النوافل أشد تعاهدا منه على ركعتي الفجر » [(٥)] .

---

(١) أخرجه البخاري فى التهجد (١١٥٤) وأحمد في مسنده (٣١٣/٥) والترمذي في السنن (٣٤١٤) وابن ماجه في السنن (٣٨٧٨) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٣٣) وأحمد في مسنده (٤٩٤/٢) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٥٨) والبيهقي في السنن (٤٧١/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٨) ومسلم في الإيمان (٨) وأبو داود في السنن (٣٩١) والنسائي في السنن (١١٨/٨) .
(٥) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٩) .

سورة النجم

عن عبد اللَّه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة « والنجم » قال : فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه ، إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا وهو أمية بن خلف (١) .

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ .

قال الشعبي وغيره : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق واختلف المفسرون في معنى قوله ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ فقال مجاهد : يعني بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر ، وكذا روي عن ابن عباس وسفيان الثوري واختاره ابن جرير ، وزعم السدي أنها الزهرة وعن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ يعني القرآن إذا نزل ، وقوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ هذا هو المقسم عليه ، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ، وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم ، والغاوي هو العالم بالحق ، العادل عنه قصدًا إلى غيره ، فنزه اللَّه رسوله ﷺ عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود . وهي علم الشيء وكتمانه ، والعمل بخلافه ، بل هو صلاة اللَّه وسلامه عليه وما بعثه اللَّه به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ أي ما يقول قولًا عن هوى وغرض ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ أي إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملًا موفورًا من غير زيادة ولا نقصان . عن أبي أمامة أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول : « ليدخل الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين - أو مثل أحد الحيين - ربيعة ومضر » فقال رجل : يا رسول اللَّه أو ما ربيعة من مضر ؟ قال : « إنما أقول ما أقول » (٢) .

وعن عبد اللَّه بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول اللَّه ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول اللَّه ﷺ ، ورسول اللَّه ﷺ بشر يتكلم في الغضب ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول اللَّه ﷺ فقال : « اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق » (٣) وعن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « لا أقول إلا حقًّا » قال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يا رسول اللَّه ، قال : « إني لا أقول إلا حقًّا » (٤) .

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٣) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٠/٢) والترمذي في السنن (١٩٩٠) والبيهقي في السنن (٢٤٨/١٠) .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علمه الذي جاء به إلى الناس ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ وهو جبريل عليه الصلاة والسلام ، ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي ذو قوة ، قاله مجاهد والحسن وابن زيد . وقال ابن عباس : ذو منظر حسن وقال قتادة : ذو خلق قوي حسن ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة . وقوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ يعني جبريل عليه السلام ، ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى ، قال عكرمة : والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح . وقال مجاهد : هو مطلع الشمس . وقال قتادة : هو الذي يأتي منه النهار ، وكذا قال ابن زيد وغيرهم .

وعن عبد الله بن مسعود ، أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين : أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق . وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله : ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وقد قال ابن جرير ههنا قولًا لم أره لغيره ، ولا حكاه هو عن أحد ؛ وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى أي هذا الشديد القوي ذو المرة هو ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى ، أي استويا جميعًا بالأفق الأعلى وذلك ليلة الإسراء ، كذا قال ، ولم يوافقه أحد على ذلك ، ثم شرع يوجه ما قاله من حيث العربية فقال وهو كقوله ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ ﴾ فعطف بالآباء على المكنى في ﴿ كُنَّا ﴾ من غير إظهار نحن فكذلك قوله : ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ وهو ، قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

ألم تر أن النبع يصلب عوده ... ولا يستوي والخروع المتقصف

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها ، ورسول الله ﷺ في الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلى إليه فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى يعني ليلة الإسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعدما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ ، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها مرارًا ليتردى من رؤوس الجبال ، فكلما همّ بذلك ناداه جبريل من الهواء ، يا محمد أنت رسول الله حقًّا وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه ، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل ورسول الله ﷺ بالأبطح في صورته التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق ، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة وجلالة قدره وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه .

عن عبد الله أنه قال : « رأى رسول الله ﷺ : جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم »[1] . وعن ابن عباس قال : سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال : ادع ربك ، فدعا الله عز وجل فطلع عليه سواد من قبل المشرق فجعل يرتفع وينتشر ، فلما رآه النبي ﷺ صعق فأتاه فنعشه ومسح البزاق عن شدقه[2] .

وعن هناد بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إلى محمد ولأذينه في ربه ﷻ ، فانطلق حتي أتى النبي ﷺ فقال :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٩٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٢٢) .

يا محمد هو يكفر بالذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فقال النبي ﷺ : « اللّهم سلط عليه كلبا من كلابك » ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال : يا بني ما قلت له ، فذكر له ما قاله ، فقال : فما قال لك ، قال : قال : « اللّهم سلط عليه كلبًا من كلابك » قال : يا بني واللّه ما آمن عليك دعاءه ، فسرنا حتى نزلنا أبواء وهي في سدة ، ونزلنا إلى صومعة راهب فقال الراهب : يامعشر العرب ، ما أنزلكم هذه البلاد فإنها يسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم . فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي ، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة ، واللّه ما آمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها ، ففعلنا فجاء الأسد فشم وجوهنا فلما لم يجد ما يريد تقبض فوثب وثبة فإذا هو فوق المتاع ، فشم وجهه ثم هزمه ، ففسخ رأسه ، فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا يتفلت عن دعوة محمد [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ أي فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين ، أي بقدرهما إذا مدا ، قاله مجاهد وقتادة ، وقد قيل إن المراد بذلك بُعْد ما بين وتر القوس إلى كبدها . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ : قال عبد اللّه بن مسعود في هذه الآية ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ قال : قال رسول ﷺ : « رأيت جبريل له ستمائة جناح » [(٢)] .

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : كان أول شأن رسول اللّه ﷺ أنه رأى في منامه جبريل بأجياد ، ثم إنه خرج ليقضي حاجته فصرخ به جبريل : يا محمد يا محمد ، فنظر رسول اللّه ﷺ يمينًا وشمالاً فلم ير أحدًا ثلاثا ، ثم رفع بصره فإذا هو ثاني إحدى رجليه مع الأخرى على أفق السماء ، فقال : يا محمد جبريل جبريل يسكنه . فهرب النبي ﷺ حتى دخل في الناس ، فنظر فلم ير شيئا ، ثم خرج من الناس ثم نظر فرآه فدخل في الناس فلم ير شيئًا ، ثم خرج فنظر فرآه ، فذلك قول اللّه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ - إلى قوله - ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [(٣)] يعني جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ ويقولون : القاب نصف إصبع ، وقال بعضهم : ذراعين كان بينهما .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ عن ابن عباس قال : رآه بفؤاده مرتين ، وقد خالفه ابن مسعود وغيره ، وفي رواية عنه : أنه أطلق الرؤية وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد ، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم .

عن أبي ذر قال : سألت رسول اللّه ﷺ : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » وفي رواية « رأيت نورا » [(٤)] وعن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ قال : « أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال : يا محمد أتدري فيمَ يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت لا ، فوضع يده على كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي - أو قال : نحري - فعلمت ما في السموات وما في الأرض . ثم قال : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت : نعم ، يختصمون

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٣) وابن حجر في فتح الباري (٣٩/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/١) والطبراني في الكبير (٢٣٤/١٠) .
(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٢٣/٦) والطبري في تفسيره (٦١/٢٦) .
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩١) والترمذي في السنن (٣٢٨٣) وأحمد في مسنده (١٧٥/٥) .

في الكفارات والدرجات ، قال : وما الكفارات ؟ قال : قلت : المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره ، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللّهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون ، وقال : والدرجات : بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول اللّه ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه اللّه عليها وكانت ليلة الإسراء . وعن ابن مسعود في هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل من الدر والياقوت » [٢] .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ : « رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح » [٣] سألت عاصما عن الأجنحة فأبى أن يخبرني ، قال : فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب ، وعن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أتاني جبريل عليه السلام في حصر معلق به الدر » [٤] .

وعن مسروق قال : كنت عند عائشة فقلت : أليس اللّه يقول ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، فقالت : أنا أول هذه الأمة سألت رسول اللّه ﷺ عنها فقال : « إنما ذاك جبريل » لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين ، رآه منهبطًا من السماء إلى الأرض سادًّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض [٥] .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان ، وغشيها نور الرب ، وغشيها ألوان ما أدري ما هي . عن عبد اللّه هو ابن مسعود قال : لما أسري برسول اللّه ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض ، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قال : فراش من ذهب . قال : وأعطي رسول اللّه ﷺ ثلاثًا : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك باللّه شيئًا من أمته المقحمات [٦] .

وقوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما ذهب يمينًا ولا شمالًا ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ما جاوز ما أمر به ، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة ، فإنه ما فعل إلا ما أمر به ، ولا سأل فوق ما أعطي ، وما أحسن ما قال الناظم :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتاها

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ كقوله : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ؛ لأنه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٦٦) والترمذي في السنن (٣٢٣٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٦٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٠٧) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٠٧) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٦١) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٢٢) .

قال : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس ، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة سبحان .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۞ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۞ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۞ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۞ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۞ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ .

يقول تعالى مقرعًا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان ، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ ﴾ وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف ، له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف من تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ، قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا : اللات ، يعنون مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا ، وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا ﴿ اللاتّ ﴾ بتشديد التاء [1] وفسروه بأنه كان رجلا يلتّ للحجيج في الجاهلية السويق ، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ قال : كان اللات رجلًا يلت السويق سويق الحجاج [2] ، قال ابن جرير : وكذا العزى من العزيز ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » [3] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله ، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك فليتصدق » [4] فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك ، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته من زمن الجاهلية ، وعن سعد بن أبي وقاص قال : حلفت باللات والعزى ، فقال لي أصحابي : بئس ما قلت ! قلت هجرًا . فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال : « قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وانفث عن شمالك ثلاثًا ، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم لا تعد » [5] .

وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة . وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام

---

(١) قرأ رويس ﴿ اللاتّ ﴾ بتشديد التاء والباقون بتخفيفها (تقريب النشر ص : ١٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٩) . (٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٣٩) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٠) . (٥) أخرجه النسائي في السنن (٨/٧) .

ومسجده : فكانت لقريش ولبني كنانة العزى بنخلة ، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم ، حلفاء بني هاشم ، قال : بعث إليها رسول ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

يا عزى كفرانك لاسبحانك ... إني رأيت اللّه قد أهانك

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بني معتب . قلت : وقد بعث إليها رسول اللّه ﷺ ، المغيرة بن شعبة ، وأبا سفيان صخر بن حرب ، فهدماها وجعلا مكانها مسجدًا بالطائف . قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، فبعث رسول اللّه ﷺ إليها أبا سفيان صخر بن حرب فهدمها ، ويقال علي بن أبي طالب قال : وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة . قلت : وكان يقال لها الكعبة اليمانية ، وللكعبة التي بمكة الكعبة الشامية ، فبعث إليه رسول اللّه ﷺ جرير بن عبد اللّه البجلي فهدمه ، قال : وكانت قيس لطي ومن يليها بجبل طي بين سلمى وأجأ ، قال ابن هشام : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول اللّه ﷺ بعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه ، واصطفى منه سيفين : الرسوب والمخزم ، فنفله إياهما رسول اللّه ﷺ فهما سيفا علي . قال ابن إسحاق : وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له ريام ، وذكر أنه كان به كلب أسود وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدما البيت . قال ابن إسحاق : وكانت رضاء بيتًا لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة ... فتركتها قفرًا بقاع أسحما

قال ابن إسحاق : وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد ، وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

بين الخورنق والسدير وبارق ... والبيت ذو الكعبات من سنداد [(١)]

ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي أتجعلون له ولدًا وتجعلون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكور ، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ أي جورا باطلة ، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورًا وسفهًا ، ثم قال تعالى منكرًا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أي من تلقاء أنفسكم ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي من حجة ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ أي ليس له مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين . ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أي ولقد أرسل اللّه إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به ولا انقادوا له .

---

(١) راجع السيرة لابن هشام (١/٨٧ - ٩١

ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ أي ليس كل من تمنى خيرًا حصل له ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا كل من ود شيئًا يحصل له . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى ، فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته » [١] وقوله : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ أي إنما الأمر كله لله مالك الدنيا والآخرة والمتصرف في الدنيا والآخرة ، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله ، وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى ، وجعلهم لها أنها بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي ليس لهم علم صحيح بصدق ما قالوه ، بل هو كذب وزور وافتراء وكفر شنيع . ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ أي لا يجدي شيئًا ولا يقوم أبدًا مقام الحق ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول ﷺ قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أي أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره . وقوله : ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا ، فذاك هو غاية مالا خير فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه . وقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » [٣] وفي الدعاء المأثور : « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » [٤] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العادل الذي لا يجور أبدًا في شرعه ولا في قدره .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغني عما سواه ، الحاكم في خلقه بالعدل وخلق

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٥٧) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٦) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في السنن (١٩٨٨) وأحمد في مسنده (٢/٢٤٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٧١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/١٧٨) .
(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢) .

الخلق بالحق ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ أي يجازي كلا بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر ، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم كما قال في الآية الأخرى ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ وقال ههنا ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ وهذا استثناء منقطع ، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال . عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن اللّٰه تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » (١)

وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي قال : سألت أبا هريرة عن قول اللّٰه ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ قال : القبلة والغمزة والنظرة والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وعن مجاهد أنه قال : الذي يلم بالذنب ثم يدعه ، قال الشاعر :

إن تغفر اللّٰهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما

عن الحسن في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ قال : اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ثم لايعود إليه .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ كل شيء بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة ، تكفره الصلوات فهو اللمم ، وهو دون كل موجب ، فأما حد الدنيا : فكل حد فرض اللّٰه عقوبته في الدنيا ، وأما حد الآخرة : فكل شيء ختمه اللّٰه بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة . وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أي رحمته وسعت كل شيء ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ أي هو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر عنكم ، وتقع منكم حين أنشأ أباكم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ، ثم قسمهم فريقين : فريقًا للجنة وفريقًا للسعير . وكذا قوله ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ قد كتب الملك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ، قال مكحول : كنا أجنة في بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط ، وكنا فيمن بقي ، ثم كنا مراضيع فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا يفعة فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا شبانا فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ثم صرنا شيوخًا لا أبا لك فماذا بعد هذا ننتظر ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سميت ابنتي برة ، فقالت لي زينب بنت أبي سلمى : إن رسول اللّٰه ﷺ نهى عن هذا الاسم ، وسميت برة ، فقال رسول اللّٰه ﷺ : « ولا تزكوا أنفسكم ، إن اللّٰه أعلم بأهل البر منكم » فقالوا : بمَ نسميها ، قال : « سموها زينب » (٢) وعن أبي بكرة قال :

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان(٦٢٤٣) ومسلم في القدر(٢٠) وأحمد في مسنده(٢/٢٧٦) وأبو داود في السنن(٢١٥٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الأدب(١٩) وأبو داود في السنن(٤٩٥٣) .

مدح رجل رجلًا عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « ويلك قطعت عنق صاحبك - مرارًا - إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلانًا والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدًا ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك » (١)

وعن همام بن الحارث قال : جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه قال : فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول : أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب (٢) .

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا لمن تولى عن طاعة الله ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ قال ابن عباس : أطاع قليلًا ثم قطعه ، وكذا قال مجاهد وغير واحد . قال عكرمة وسعيد : كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرًا ، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون أكدينا ، ويتركون العمل . وقوله تعالى : ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ أي أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معروفه ، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى قد أمسك عن معروفه فهو يرى ذلك عيانًا ، أي ليس الأمر كذلك . وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلًا وشحًّا وهلعًا ، ولهذا جاء في الحديث : « أنفق بلالًا ولا تخش من ذي العرش إقلالًا » (٣) وقد قال الله تعالى ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ قال سعيد بن جبير والثوري : أي بلغ جميع ما أمر به ، وقال ابن عباس : ﴿ وَفَّىٰٓ ﴾ لله بالبلاغ ، وقال سعيد بن جبير ﴿ وَفَّىٰٓ ﴾ ما أمر به ، وقال قتادة : ﴿ وَفَّىٰٓ ﴾ طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، وهو يشمل الذي قبله ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ فقام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي وبلغ الرسالة على التمام والكمال ، فاستحق بهذا أن يكون للناس إمامًا يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله .

عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفى ؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ » حتى ختم الآية (٤) .

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦٢) وأحمد في مسنده (٤٦/٥) والبيهقي في السنن (٢٤٢/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٦) ومسلم في الزهد (٦٨) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩٢/١٠) والسيوطي في جمع الجوامع (٤٥٨٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٩/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٧/١٠) .

هو لنفسه ، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه ، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به »(١) فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله ، كماجاء في الحديث : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه »(٢) والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ الآية . والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضًا من سعيه وعمله ، وثبت في الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا »(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أي الأوفر .

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أي المعاد يوم القيامة . عن عمرو بن ميمون الأودي قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بني أود إني رسول رسول الله ﷺ إليكم ، تعلمون أن المعاد إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار . وعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ قال : لا فكرة في الرب . قال البغوي : وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعا : « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ؛ فإنه لا تحيط به الفكرة »(٤) وكذا أورده وليس بمحفوظ بهذا اللفظ ، وإنما الذي في الصحيح « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولينته »(٥) وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ أي خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ كقوله ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ كقوله ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة وهي النشأة

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) وأبو داود في السنن (٢٨٨٠) والترمذي في السنن (١٣٧٦) والنسائي في السنن (٦/٢٥١) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٧/٢٤١) وابن ماجه في السنن (٢١٣٧) وأحمد في مسنده (٦/٢٣١) والبيهقي في السنن (٧/٤٨٠) .
(٣) أخرجه مسلم في العلم (١٦) والترمذي في السنن (٢٦٧٤) وابن ماجه في السنن (٢٠٦) وأحمد في مسنده (٢/٣٩٧) .
(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٥٧٠٦) والسيوطي في الدر المنثور (٢/١١٠) والألباني في الصحيحة (١٧٨٨) بنحوه .
(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٦) .

الآخرة يوم القيامة ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ أي ملك عباده المال وجعله لهم قنية مقيمًا عندهم لا يحتاجون إلى بيعه ، فهذا تمام النعمة عليهم ، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين ، منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما ، وعن مجاهد ﴿ أَغْنَىٰ ﴾ موّل ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أخدم ، وكذا قال قتادة ، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً ﴿ أَغْنَىٰ ﴾ أعطى ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ رضي . وقيل : معناه أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه ، وقوله ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له مرزم الجوزاء كانت طائفة من العرب يعبدونه ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ وهم قوم هود ويقال لهم عاد بن إرم بن سام بن نوح كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله تعالى وعلى رسوله فأهلكهم الله ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أي متتابعة .

وقوله تعالى : ﴿ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾ أي دمرهم فلم يبق منهم أحدًا ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هؤلاء ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ أي أشد تمردًا من الذين من بعدهم ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ يعني مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال : ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ أي ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري ؟ قاله قتادة وقال ابن جريج ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ يا محمد والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير .

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ .

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ أي من جنسهم أرسل كما أرسلوا ﴿ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴾ أي اقتربت القريبة وهي القيامة ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي لا يدفعها إذًا من دون الله أحد ولا يطلع على علمها سواه ، ثم قال تعالى منكرًا على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ من أن يكون صحيحًا ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ أي كما يفعل الموقنون به .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ . عن ابن عباس قال : الغناء هي يمانية أسمد لنا : غن لنا وقال الحسن : غافلون ، وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ثم قال تعالى آمرًا لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ أي فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوه . عن ابن عباس قال : سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس (١) . وعن المطلب بن أبي وداعة قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من عنده فرفعت رأسي فأبيت أن أسجد ، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب فكان بعد ذلك لا يسمع أحدًا يقرؤها إلا سجد معه (٢) .

ذكر حديث له مناسبة بما تقدم من قوله تعالى ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴾ فإن

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٩/٦) .

النذير هو الحذر لما يعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم كما قال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وفي الحديث « أنا النذير العريان » أي الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئا ، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك فجاءهم عريانًا مسرعًا ، وهو مناسب لقوله : ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴾ أي اقتربت القريبة يعني يوم القيامة . عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا ببطن واد ، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » [١] وقال : قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثل الساعة كهاتين » وفرق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام ثم قال « مثلي ومثل الساعة كمثل فرسي رهان » [٢] ثم قال : « مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة ، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه أتيتم أتيتم » ثم يقول رسول الله ﷺ : « أنا ذلك » [٣] وله شواهد من وجوه أخر من صحاحٍ وحسان .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) والطبراني في الكبير (٢٦١/١٠) والألباني في الصحيحة (٣٨٩) .

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٨٣٣٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣١/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٨/١٠) .

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ .

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها كما قال تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وقد وردت الأحاديث بذلك . فعن أنس أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم ، وقد كادت الشمس أن تغرب ، فلم يبق منها إلا سف يسير فقال : « والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه وما نرى من الشمس إلا يسيرًا » (١) .

وعن ابن عمر قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ والشمس على قعيقعان بعد العصر فقال : « ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى » (٢) وعن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى (٣) .

وعن خالد بن عمير قال : خطب عتبة بن غزوان ، قال بهز : وقال قبل هذه المرة : خطبنا رسول الله ﷺ ، قال : فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفيرجهنم فيهوي فيها سبعين عامًا ما يدرك لها قعرًا ، والله لتملؤنه ، أفعجبتم والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عامًا ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام » (٤) .

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة ، فحضر أبي وحضرت معه ، فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق ، فقلت لأبي : أيستبق الناس غدًا ؟ فقال : يا بني إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال ، ثم جاءت الجمعة الأخرى ، فحضرنا فخطب حذيفة فقال : ألا إن الله ﷻ يقول ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدًا السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة . وقوله تعالى : ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . عن ابن مسعود أنه قال : « خمس قد مضين : الروم ، والدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر » (٥) وهذا أمر متفق

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١١/١٠) والهندي في كنز العمال (٣٨٣٥٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٥/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٣) ومسلم في الفتن (١٣٥) وأحمد في مسنده (٢٣٧/٣) والترمذي في السنن (٢٢١٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٤/٤) .
(٥) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٢٠) وأحمد في مسنده ١٢٨/٥ .

عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فقال : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [(١)] وعن جبير بن مطعم قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد . فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم [(٢)] .

وعن ابن عباس قال : انشق القمر في زمان النبي ﷺ [(٣)] . وعن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين ، حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا » [(٤)] .

وقوله تعالى ، ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً ﴾ أي دليلًا وحجة وبرهانًا ﴿ يُعْرِضُوا۟ ﴾ أي لا ينقادوا له بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ﴿ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج سحر سحرنا به ومعنى ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أي ذاهب ، وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي باطل مضمحل لا دوام له ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم .

وقوله : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ قال قتادة : معناه أن الخير واقع بأهل الخير والشر واقع بأهل الشر ، وقال ابن جريج : مستقر بأهله ، وقال مجاهد : أي يوم القيامة ، وقال السدي : أي واقع ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب . وقوله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ يعني أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه فمن الذي يهديه من بعد الله .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ .

يقول تعالى : فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر ، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أي إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء بل والزلازل والأهوال ، ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ وهي القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق ، ولهذا قال ﴿ مُّهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين ﴿ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ لا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٤) وأحمد في مسنده (٨١/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٦) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٤) وأحمد في مسنده (٣٧٧/١) .

يخالفون ولا يتأخرون ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ أي يوم شديد الهول عبوس قمطير .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ أي صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون ﴿ وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ قال مجاهد : وازدجر . أي استطير جنونًا ، وقيل : وازدجر أي انتهروه وزجروه وتواعدوه لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ، قاله ابن زيد ، وهذا متوجه حسن ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك . قال اللَّه تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ قال السدي : وهو الكثير ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيونا ، ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ ، أي من السماء والأرض ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي أمر مقدر .

وعن ابن عباس ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب ، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماءان على أمر قد قدر ، ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ ، قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرظي وقتادة وابن زيد : هي المسامير ، واختاره ابن جرير ، قال : وواحدها دسار . وقال مجاهد : الدسر أضلاع السفينة . وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذي يضرب به الموج . وقال الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها ، وقوله : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم باللَّه وانتصارًا لنوح ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً ﴾ قال قتادة : أبقى اللَّه سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة ، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن ، كقوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ، ولهذا قال ههنا ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ . وعن أبي إسحاق أنه سمع رجلًا يسأل الأسود : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أو مذكر ؟ قال : سمعت عبد اللَّه يقرأ ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ وقال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقرؤها ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ دالًا [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ، ولم يتعظ بما جاءت به نذري ، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس ، وعن ابن عباس : لولا أن اللَّه يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام اللَّه ﷻ ، قلت : ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » [(٢)] وقوله ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر اللَّه حفظه ومعناه ؟ ، وقال محمد ابن كعب القرظي : فهل من منزجر عن المعاصي .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧١) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٩٢) .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عاد قوم هود ، أنهم كذبوا رسولهم أيضًا ، كما صنع قوم نوح وأنه تعالى أرسل عليهم ﴿ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ وهي الباردة الشديدة البرد ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أي عليهم ، ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ عليهم نحسه ودماره ؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي . بقوله تعالى : ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ، ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض ، فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأسه ، ولهذا قال : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحًا ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ يقولون : لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا . ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم ثم رموه بالكذب فقالوا : ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي متجاوز في حد الكذب ، قال الله تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي اختبارًا لهم ، أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء ، من صخرة صماء طبق ما سألوا ، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به ، ثم قال تعالى آمرًا لعبده ورسوله صالح : ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾ أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم ، واصبر عليهم فإن العاقبة لك ، والنصر في الدنيا والآخرة ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ قال مجاهد : إذا غابت حضروا الماء . وإذا جاءت حضروا اللبن ، ثم قال تعالى : ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ قال المفسرون : هو عاقر الناقة واسمه قدار بن سالف وكان أشقى قومه . ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ أي حسر ﴿ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي فعاقبتهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ أي فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات والمحتظر هو المرعى بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح ، وقال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظارا على الإبل والمواشي .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ولهذا أهلكهم الله هلاكًا لم يهلكه أمة

من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبعت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال ههنا ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ وهي الحجارة ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالمًا لم يمسسه سوء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ﴾ أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة في صور شباب مرد حسان محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وقومه : إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا ، والنذارة إن كفروا ، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة فكذبوا بها كلها ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر أي فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ولا عين ولا أثر . ثم قال تعالى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ أي أيها المشركون من كفار قريش ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل وكفرهم بالكتب ، أأنتم خير من أولئكم ، ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي أم معكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ، ثم قال تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أي يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضًا ، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء . قال الله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ أي سيتفرق شملهم ويغلبون .

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللّهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبدا » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (١) وعن يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة أم المؤمنين فقالت : نزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعب ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٧) والبيهقي في السنن (٩/٤٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٤٤) .

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ .

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق ، وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق ، ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ أي كما كانوا في سعر وشك وتردد ، أورثهم ذلك النار ، وكما كانوا ضلالًا يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقريعًا وتوبيخًا ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ كقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ ، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها ، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية ، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة .

عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [(١)] .

عن ابن زرارة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ قال : « نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله » [(٢)] . وعن عبد الله بن عباس قال : قيل له أن رجلًا قدم علينا يكذب بالقدر ، فقال : دلوني عليه وهو أعمى ، قالوا : وما تصنع به يا أبا عباس ، قال : والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه ، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج تصطفق ألياتهن مشركات ، هذا أول شرك هذه الأمة ، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيرا ، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرًّا » [(٣)] .

وعن نافع قال : كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه . فكتب إليه عبد الله بن عمر أنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر ، فإياك أن تكتب إلي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر » [(٤)] وعن طاوس اليماني قال : سمعت ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » [(٥)] . وفي الحديث الصحيح : « استعن بالله ولاتعجز ، فإن أصابك أمر فقل ، قدر الله وما شاء فعل ، ولا تقل ، لو أني فعلت لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان » [(٦)] وفي حديث ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال له : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك جفت الأقلام وطويت الصحف » [(٧)] وعن عبد الله بن عمرو قال :

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (١٩) والترمذي في السنن (٣٢٩٠) وأحمد في مسنده (٢/٤٤٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/٣١٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١١٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٣٠) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٩٠) .

(٥) أخرجه مسلم في القدر (٨) وأحمد في مسنده (٢/١١٠) .

(٦) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) وابن ماجه في السنن (٧٩) والبيهقي في السنن (١/١٤٨) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٩٣) .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » زاد ابن وهب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه ، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ ﴾ أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجودًا كلمح البصر ، لايتأخر طرفة عين ، وما أحسن ماقال بعض الشعراء :

إذا ما أراد الله أمراً ... فإنما يقول له كن قولةً فيكونُ

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ أي من أعمالهم ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أي مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم ، لايغادر صغيرة ولا كبيرة ألا أحصاها ، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر والسحب في النار على وجوههم ، مع التوبيخ والتقريع والتهديد . وقوله تعالى : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ أي عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها . وهو مقتدر على مايشاء مما يطلبون ويريدون . عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال : « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » (٣) .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٦٠/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٠/٦) والدارمي في السنن (٣٠٣/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١٢/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والحاكم في المستدرك (٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٨٧/١٠) .

سورة الرحمن

عن زر أن رجلًا قال : كيف تعرف هذا الحرف من ماء غير آسن أو أسن ، فقال : كل القرآن قد قرأت . قال : إني لأقرأ المفصل في ركعة واحدة ، فقال : أهذًا كهذ الشعر لا أبالك ، قد علمت قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل ، وكان أول مفصل ابن مسعود ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [1] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه أنه أنزل على عباده القرآن ، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه فقال تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ قال الحسن : يعني النطق ، وقال الضحاك وقتادة وغيرهما : يعني الخير والشر ، وقول الحسن ههنا أحسن وأقوى ؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن ، وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق ، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها . وقوله تعالى : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب .

وعن عكرمة أنه قال : لو جعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطير في عيني عبد ، ثم كشف حجابًا واحدًا من سبعين حجابًا دون الشمس ، لما استطاع أن ينظر إليها . ونور الشمس جزء من سبعين جزءًا من نور الكرسي ، ونور الكرسي جزء من سبعين جزءًا من نور العرش ، ونور العرش جزء من سبعين جزءًا من نور الستر . فانظر ماذا أعطى اللَّه عبده من النور في عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عيانًا . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ قال ابن جرير : اختلف المفسرون في معنى قوله ﴿ وَٱلنَّجْمُ ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : النجم ما انبسط على وجه الأرض يعني من النبات وقد اختاره ابن جرير رحمه الله تعالى . وقال مجاهد : النجم الذي في السماء . وهذا القول هو الأظهر واللَّه أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ يعني العدل ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ أي لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ أي كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات ، لتستقر بما على وجهها من الأنام وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم في سائر أقطارها وأرجائها .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/١) .

﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾ أفرده بالذكر لشرفه ونفعه رطبًا ويابسًا ، ﴿ ٱلْأَكْمَامِ ﴾ : هي أوعية الطلع ، وهو الذي يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود ، فيكون بسرًا ثم رطبًا ثم ينضج ويتناهى يفعه واستواؤه . ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ قال ابن عباس : يعني التبن . وقال : العصف ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه ، فهو يسمى العصف إذا يبس ، وقال : والريحان يعني الورق . وقال الحسن : هو ريحانكم هذا ، وقال ابن عباس : والريحان خضر الزرع ، ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف ، وهو ما على السنبلة ، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها .

وقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي فبأي الألاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان ؟ قاله مجاهد وغير واحد ، ويدل عليه السياق بعده ، أي النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها ، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به : اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . عن أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يستمعون ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [1] .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلقه الجان من مارج من نار وهو طرف لهبها ، وعن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » [2] . وقوله تعالى : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ يعني مشرقي الصيف والشتاء ومغربي الصيف والشتاء ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال ابن عباس : أي أرسلهما . وقوله ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال ابن زيد : أي منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما ، والمراد بقوله ﴿ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ الملح والحلو ، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس وقد اختار ابن جرير ههنا أن المراد بالبحرين : بحر السماء وبحر الأرض قال ابن جرير : لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء وأصداف بحر الأرض ، وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه ، فإنه لا يساعده اللفظ ؛ فإنه تعالى قد قال : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ أي وجعل بينهما برزخًا ، وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه ، وما بين السماء والأرض لايسمى برزخًا وحجرًا محجورًا .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ أي من مجموعهما ، فإذا وجد ذلك من أحدهما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٤٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٠) والبيهقي في السنن (٩/٣) وأحمد في مسنده (٦/١٥٣) .

كفى . واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان فقيل : هو صغار اللؤلؤ ، وقيل : كباره وجيده ، وقيل : هو نوع من الجواهر أحمر اللون عن عبد الله قال : المرجان الخرز الأحمر . وعن ابن عباس قال : إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها فما وقع فيها ، يعنى من قطر فهو اللؤلؤ ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض ، امتن بها عليهم فقال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ ﴾ يعني السفن التي تجري ﴿ فِي الْبَحْرِ ﴾ قال مجاهد : ما رفع قلعه من السفن فهي منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت ، وقال قتادة : المنشآت يعني المخلوقات ، وقال غيره : المنشئات بكسر الشين يعني البادئات ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أي كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح الناس في جلب مايحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، ولهذا قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ عن عمرة بن سويد قال : كنت مع علي بن أبي طالب ﷺ على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها ، فبسط علي يديه ثم قال : يقول الله ﷻ : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا ، قال قتادة : أنبأ بما خلق ثم أنبأ أن ذلك كله فان . وفي الدعاء المأثور : يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك . وقال الشعبي : إذا قرأت ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية بأنه ذو الجلال والإكرام أي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يطاع فلا يخالف قال ابن عباس : ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ذو العظمة والكبرياء ، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة ، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم ، وأنه كل يوم هو في شأن ، فمن شأنه أن يجيب داعيًا أويعطي سائلًا ، أويفك عانيًا أو يشفي سقيمًا . وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « قال الله ﷻ ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قال - من شأنه أن يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا ، ويرفع قومًا ، ويضع آخرين »(١) .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٧٣/١) .

تَنتَصِرَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ وعيد من الله تعالى للعباد وليس بالله شغل وهو فارغ ، وقال ابن جريج : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ أي سنقضي لكم ، وقال البخاري : سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء ، وهومعروف في كلام العرب ، يقال لأتفرغن لك وما به شغل ، يقول : لآخذنك على غرتك [١] . وقوله تعالى : ﴿ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ الثقلان : الإنس والجن كما جاء في الصحيح « يسمعه كل شيء إلا الثقلين » [٢] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ أي لا تستطيعون هربًا من أمر الله وقدره ؛ بل هو محيط بكم ، لا تقدرون على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم ، وهذا في مقام الحشر ، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ أي إلا بأمر الله . ولهذا قال تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ قال ابن عباس الشواظ : هو لهب النار ، وقال الدخان ، وقال مجاهد : هو اللهب الأخضر المنقطع ، وقال أبو صالح : هو اللهب الذي فوق النار ودون الدخان . وقال الضحاك سيل من نار . وقوله تعالى : ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قال ابن عباس دخان النار ، وروي مثله عن أبي صالح وسعيد ابن جبير وأبي سنان . وقال ابن جرير : والعرب تسمي الدخان نحاسا ، بضم النون وكسرها ، والقراء مجمعة على الضم [٣] . وقال مجاهد : النحاس الصفر يذاب فيصب على رؤوسهم ، وكذا قال قتادة ، وقال الضحاك : ونحاس سيل من نحاس ، والمعنى على كل قول : لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار ، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ يوم القيامة ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ أي تذوب كما يذوب الدردي والفضة في السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم » [٤] قال الجوهري : الطش المطر الضعيف ، وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ قال مجاهد : لاتسأل الملائكة عن المجرمين بل يعرفون بسيماهم ، وكأن هذا بعدما يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت لايسألون عن ذنوبهم بل يقادون إليها ويلقون فيها كما قال تعالى : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ أي بعلامات تظهر

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (تفسير سورة الرحمن باب ٥٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣) .

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح ﴿ ونحاسٍ ﴾ بالخفض ، والباقون بالرفع وانفرد ابن مهران عن روح (انظر : تقريب النشر ص : ١٧٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٤/١٠) .

عليهم . وقال الحسن وقتادة : يعرفون باسوداد الوجوه وزرقة العيون . قلت : وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء . وقوله تعالى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك ، وقال ابن عباس : يؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب في التنور ، وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة وراء ظهره ، وقال السدي : يجمع بين ناصية الكافر وقدميه فتربط ناصيته بقدمه ويفتل ظهره .

وقوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، هاهي حاضرة تشاهدونها عيانًا ، يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتصغيرًا وتحقيرًا . وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أي تارة يعذبون في الجحيم وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء ، وقوله تعالى : ﴿ ءَانٍ ﴾ أي حار قد بلغ الغاية في الحرارة لايستطاع من شدة ذلك ، قال ابن عباس في قوله ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ أي قد انتهى غليه واشتد حره ، وقال قتادة : قد آن طبخه منذ خلق الله السموات والأرض ، وقال محمد ابن كعب القرظي : يؤخذ العبد فيحرك بناصيته في ذلك الحميم حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس وهي كالتي يقول الله تعالى : ﴿ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ والحميم الآن يعني الحار ، فقوله ﴿ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ حميم حار جدًّا . ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم عن عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك قال ممتنًا بذلك على بريته ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

قال ابن شوذب وعطاء الخراساني : نزلت هذه الآية ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ في أبي بكر الصديق ، وقال عطية بن قيس نزلت في الذي قال : أحرقوني بالنار لعلي أضل الله ، قال : تاب يومًا وليلة ، بعد أن تكلم بهذا ، فقبل الله منه وأدخله الجنة ، والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره. ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ ولم يطع ولا آثر الحياة الدنيا ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله واجتنب محارمه ، فله يوم القيامة عند ربه جنتان ، عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ، ومابين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »(١) .

وعن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قرأ يومًا هذه الآية ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ، فقال « وإن رغم أنف أبي الدرداء »(٢) .

وهذه الآية عامة في الإنس والجن ، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٦٠١) .

ثم نعت هاتين الجنتين فقال : ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾ أي أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال عطاء الخراساني وجماعة : أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضًا ، وعن ابن عباس : ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾ ذواتا ألوان ، ومعنى هذا القول أن فيهما فنونًا من الملاذ ، واختاره ابن جرير . وقال عطاء : كل غصن يجمع فنونًا من الفاكهة ، وقال الربيع بن أنس واسعتا الفناء وكل هذه الأقوال صحيحة ولامنافات بينها ، وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت رسول اللّه ﷺ وذكر سدرة المنتهى ، فقال : « يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة » أو قال : « يستظل في ظل الفنن منها مائة راكب ؛ فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال » [1] .

﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴾ أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال الحسن البصري : إحداهما يقال لها : تسنيم ، والأخرى : السلسبيل وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى : من خمر لذة للشاربين ، ولهذا قال بعد هذا ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴾ : أي من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ عن ابن عباس ، مافي الدنيا ثمرة حلوة ولامرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل .

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ يعني أهل الجنة ، والمراد بالاتكاء ههنا الاضطجاع ويقال : الجلوس على صفة التربيع ﴿ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ ﴾ وهو ما غلظ من الديباج ، وقال أبو عمران الجوني : هو الديباج المزين بالذهب ، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة ، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى . عن عبد الله بن مسعود قال : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر . وقال مالك بن دينار : بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور ، وقال سفيان الثوري أو شريك : بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور جامد ﴿ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴾ أي ثمرهما قريب إليهم متى شاءوا تناولوه على أي صفة كانوا ، أي لاتمتنع ممن تناولها بل تنحط إليه من أغصانها ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أي في الفرش ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ أي غضيضات عن غير أزواجهن فلا يرين شيئًا في الجنة أحسن من أزواجهن ، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها : واللّه ما أرى في الجنة شيئًا أحسن منك ، ولافي الجنة شيئًا أحب إلي منك فالحمد للّه الذي جعلك لي وجعلني لك .

﴿ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴾ أي بل هن أبكار عرب أتراب لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، وهذه أيضًا من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة ، قال أرطأه بن المنذر : سئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجن الجنة ، قال : نعم وينكحون ، للجن جنيات وللإنس إنسيات ، وذلك قوله : ﴿ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٤١) .

ثم قال : ينعتهم للخطاب ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها » وذلك قول الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ فأما الياقوت ؛ فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه[1] .

وعن محمد بن سيرين قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال أكثر في الجنة أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : أو لم يقل أبو القاسم ﷺ : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يري مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب »[2] وعن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خيرمن الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدِّهِ - يعني سوطه - من الجنة خير من الدنيا ومافيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا ولطاب ما بينهما ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها »[3] .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ أي لا لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة ، ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك كله : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ومما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة »[4] .

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ .

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ وقد تقدم في الحديث : جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، فالأوليان للمقربين والأخريان لأصحاب اليمين ، وقال أبو موسى : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين ، وقال ابن عباس : من دونهما في الدرج ، وقال ابن زيد : من دونهما في الفضل . والدليل على شرف الأولين على الأخرين وجوه : أحدها : أنه نعت الأولين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني ، وقال هناك ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ ، وقال ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ ، أي سوداوان من شدة الري من الماء قال ابن عباس في قوله : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ قد اسودتا من الخضرة من شدة

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٢٥٣٣) والمنذري في الترغيب والترهيب(٥٣٣/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها(١٤) وأحمد في مسنده(٢٣٠/٢) والترمذي في السنن(٢٥٥) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير(٢٧٩٢) ومسلم في الإمارة(١١٢) والترمذي في السنن(١٦٥١) وأحمد في مسنده(٢٦٦/٥) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن(٢٤٥٠) والحاكم في المستدرك(٣١٨/٤) .

الري من الماء ، وقال محمد بن كعب : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ ممتلئتان من الخضرة ، وقال قتادة : خضروان من الري ناعمتان ولاشك في نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض .

وقال هناك : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ وقال ههنا ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ قال ابن عباس ، أي فياضتان والجري أقوى من النضخ ، وقال الضحاك أي ممتلئتان ولا تنقطعان وقال هناك : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ وقال ههنا ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ ولاشك أن الأولى أعم وأكثر في الإفراد والتنويع على فاكهة ، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم ، ولهذا ليس قوله ﴿ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ من باب عطف الخاص على العام لما قرره البخاري وغيره ، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كالبعير المقتب »[١] .

ثم قال ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ قيل : المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة وقيل : خيرات جمع خيرة وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه ، وروي مرفوعًا عن أم سلمة ، وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله تعالى أن الحور العين يغنين : نحن الخيرات الحسان خلقنا لأزواج كرام ، ولهذا قرأ بعضهم ﴿ فِيهِنَّ خَيِّرَاتٌ ﴾ بالتشديد[٢] ﴿ حِسَانٌ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ثم قال : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾ وهناك قال ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ ولاشك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت وإن كان الجميع مخدرات ، وقوله تعالى : ﴿ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾ عن بن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلًا ، في كل زاوية منها أهل مايرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون »[٣] .

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم ، واثنتان وسبعون زوجة ، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء »[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ قد تقدم مثله سواء ، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ قال ابن عباس : الرفرف المحابس ، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وغيرهم ، وقال عاصم الجحدري : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ يعني الوسائد ، وهو قول الحسن البصري في رواية عنه ، وقال سعيد بن جبير : الرفرف رياض الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ قال ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي : العبقري الزرابي ، وقال سعيد بن جبير : هي عتاق الزرابي يعني جيادها ، وقال مجاهد : العبقري الديباج ، وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ فقال : هي بسط أهل الجنة لا أبالكم فاطلبوها ، وقال الخليل بن أحمد : كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقريًا ، ومنه قول النبي ﷺ في عمر : « فلم أرَ عبقريًا يفري فريه »[٥] وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٥٠/٦) .
(٢) قرأ معاذ القارئ وعاصم الجحدري وأبو نهيك ﴿ خيِّرات ﴾ بتشديد الراء . انظر زاد المسير (١٢٥/٨) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٩) . (٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٦٢) بنحوه .
(٥) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٤) ومسلم في فضائل الصحابة (١٧) .

الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة فإنه قد قال هناك ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ ﴾ فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى . وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ فوصف أهلها بالإحسان ، وهو أعلى المراتب والنهايات كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان ، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأولين على هاتين الأخريين ، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من الأولين .

ثم قال : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ أي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وقال ابن عباس : ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ذي العظمة والكبرياء . عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أَجِلُّوا الله يغفر لكم » (١) وفي الحديث الآخر : « إِن من إِجلال الله إِكرام ذي الشيبة المسلم ، وذي السلطان ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه » (٢) وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام » (٣) .

وقال الجوهري : ألظ فلان بفلان إذا لزمه ، وقول ابن مسعود ألظوا بياذا الجلال والإكرام أي الزموا ، يقال : الإلظاظ هو الإلحاح . قلت ، وكلاهما قريب من الآخر ، والله أعلم ، وهو المداومة واللزوم والإلحاح . فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد ؛ يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإِكرام » (٤) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٤٣) والبيهقي في السنن (١٦٣/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٤) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (١٣٦) والنسائي في السنن (٦٩/٣) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٥) والبيهقي في السنن (١٨٣/٢) .

سورة الواقعة

عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يارسول الله قد شبت ، قال : « شيبتني هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت »[(١)] عن أبي ظبية قال : مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه ، فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لاحاجة لي فيه . قال : يكون لبناتك من بعدك . قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا »[(٢)] . وعن سماك بن حرب أنه سمع جابر بن سمرة يقول : كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم ، وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور[(٣)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ .

الواقعة من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها كما قال تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أي ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها ولا دافع يدفعها . ومعنى ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ كما قال محمد بن كعب : لابد أن تكون ، وقال قتادة : ليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولارجعة وقوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أي تخفض أقوامًا إلى أسفل سافلين إلى الجحيم ، وإن كانوا في الدنيا أعزاء ، وترفع آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم ، وإن كانوا في الدنيا وضعاء وعن ابن عباس قال : تخفض أقوامًا وترفع آخرين وقال عكرمة : خفضت فأسمعت الأدنى ، ورفعت فأسمعت الأقصى ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أي حركت تحريكًا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها ، ولهذا قال ابن عباس وغير واحد : أي زلزلت زلزالًا ، وقال الربيع بن أنس : ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي فتتت فتًّا ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ عن علي ﷺ : هباء منبثًا كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء ، وقال ابن عباس : الهباء الذي يطيرمن النار إذا اضطرمت يطير منه الشرر فإذا وقع لم يكن شيئًا ، وقال عكرمة : المنبث الذي قد ذرته الريح وبثته . وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة وذهابها وتسييرها ونسفها أي قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٩٧) والحاكم في المستدرك (٣٤٣/٢) .

(٢) أورده الهندي في كنز العمال (٢٦٤٠) والسيوطي في الدر المنثور (١٥٣/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٤/٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش . وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين ، وقال السدي : وهم جمهور أهل الجنة ، وآخرون عن يسار العرش وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويؤتون كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار وطائفة سابقون بين يديه ﷻ ، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم ، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء ، وهم أقل عددًا من أصحاب اليمين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ قال : هي التي في سورة الملائكة ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ وقال مجاهد ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ يعني فرقًا ثلاثة . وقال ميمون بن مهران : أفواجًا ثلاثة .

عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ فقبض بيده قبضتين فقال : « هذه للجنة ولا أبالي ، وهذه للنار ولا أبالي » (١) وعن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » (٢) وقال محمد بن كعب وأبو حرزة يعقوب بن مجاهد ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ هم الأنبياء عليهم السلام ، وقال السدي : هم أهل عليين ، وقال عن ابن عباس : يوشع بن نون ، سبق إلى موسى ، ومؤمن آل يس سبق إلى عيسى ، وعلي بن أبي طالب سبق إلى محمد رسول الله ﷺ ، عن ابن سيرين الذين صلوا إلى القبلتين . وقال الحسن وقتادة أي من كل أمة ، وهذه الأقوال كلها صحيحة فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ أي جماعة من الأولين ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ من الآخرين ، وقد اختلفوا في المراد بقوله الأولين والآخرين فقيل : المراد بالأولين الأمم الماضية ، وبالآخرين هذه الأمة ، هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري وهو اختيار ابن جرير واستأنس بقوله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » (٣) ولم يحك غيره ولا عزاه إلى أحد ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٦) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩٥) وأحمد في مسنده (٣٤١/٢) والبيهقي في السنن (٢٩٨/١) .

ومما يستأنس به لهذا القول مارواه أبو هريرة قال : لما نزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فنزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ فقال النبي ﷺ : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة ، أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثاني » [(١)] .

وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر بل هو قول ضعيف ؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم والله أعلم . فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي من صدر هذه الأمة ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ أي من هذه الأمة .

وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ قال : كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة ، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » [(٢)] الحديث بتمامه . فأما الحديث الذي رواه عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر لايدرى أوله خير أم آخره » [(٣)] فهذا الحديث ، بعد الحكم بصحة إسناده ، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم ، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم ، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول واحتياج الزرع إليه آكد ، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ولا تعلق أساسه فيها ولهذا قال ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة » وفي لفظ : « حتى يأتي أمر الله تعالى وهم كذلك » [(٤)] والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم ، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها ، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب وفي لفظ « مع كل ألف سبعون ألفًا » [(٥)] - وفي آخر - « مع كل واحد سبعون ألفًا » .

وعن أبي زمل الجهني ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح يقول وهو ثان رجليه : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله إن الله كان توابًا » سبعين مرة ثم يقول : « سبعين بسبعمائة لا خير لمن كانت ذنوبه في يوم واحد أكثر من سبعمائة » ثم يقول ذلك مرتين ثم يستقبل الناس بوجهه [(٦)] .

وكان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا ثم يقول : « هل رأى أحد منكم شيئًا » قال أبو زمل : فقلت

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٦٨) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٤) ومسلم في الإيمان (٣٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٩) والترمذي في السنن (٢٣٠٢) وأحمد في مسنده (٧٨/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٩/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٤٠) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٧١ ، ٣٧٢) وأحمد في مسنده ٤٠٠/٢ ، والطبري في الكبير ١٨٢/٨ .

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٣) ومسلم في الإيمان (٣٦٧) .

أنا يا رسول اللّه ، فقال : « خير تلقاه ، وشر توقاه ، وخير لنا ، وشر على أعدائنا الحمد للّه رب العالمين اقصص رؤياك » فقلت : رأيت جميع الناس على طريق رحب سهل لاحب والناس على الجادة منطلقين ، فبينما هم كذلك ، إذ أشفى ذلك الطريق على مرج لم تر عيني مثله ، يرف رفيفًا يقطر ماؤه فيه من أنواع الكلأ ، قال : وكانوا بالرعلة الأولى حين أشفوا على المرج كبروا ثم أكبوا رواحلهم في الطريق ، فلم يظلموه يمينًا ولاشمالاً ، قال فكأني أنظر إليهم منطلقين ، ثم جاءت الرعلة الثانية ، وهم أكثر منهم أضعافًا فلما أشفوا على المرج كبروا ثم أكبوا رواحلهم في الطريق ، فمنهم المرتع ، ومنهم الآخذ الضغث ، ومضوا على ذلك ، قال : ثم قدم عظم الناس ، فلما أشفوا على المرج كبروا وقالوا : هذا خير المنزل ، كأني أنظر إليهم يميلون يمينًا وشمالاً ، فلما رأيت ذلك لزمت الطريق حتى آتي أقصى المرج ، فإذا أنا بك يا رسول اللّه على منبر فيه سبع درجات وأنت في أعلاها درجة ، وإذا عن يمينك رجل آدم شثل أقنى إذا هو تكلم يسمو فيقرع الرجال طولًا ، وإذا عن يسارك رجل ربعة باز كثير خيلان الوجه ، كأنما حمم شعره بالماء إذا هو تكلم أصغيتم إكراما له ، وإذا أمام ذلك رجل شيخ أشبه الناس بك خلقًا ووجهًا ، كلكم تأمونه تريدونه ، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف ، وإذا أنت يا رسول اللّه كأنك تبعثها . قال : فامتقع لون رسول اللّه ﷺ ساعة ثم سري عنه ، وقال رسول اللّه ﷺ : « أما مارأيت من الطريق السهل الرحب اللاحب : فذاك ماحملتكم عليه من الهدى وأنتم عليه ، وأما المرج الذي رأيت : فالدنيا وغدارة عيشها ، مضيت أنا وأصحابي لم نتعلق منها بشيء ولم تتعلق منا ، ولم نردها ولم تردنا ، ثم جاءت الرعلة الثانية من بعدنا وهم أكثر منا أضعافًا ، فمنهم المرتع ومنهم الآخذ الضغث ونجوا على ذلك ، ثم جاء عظم الناس فمالوا في المرج يمينًا وشمالاً ، فإنا للّه وإنا إليه راجعون . وأما أنت : فمضيت على طريقة صالحة ، فلن تزال عليها حتى تلقاني ، وأما المنبر الذي رأيت فيه سبع درجات وأنا في أعلاها درجة : فالدنيا سبعة آلاف سنة ، أنا في آخرها ألفًا ، وأما الرجل الذي رأيت على يمين الأدم الشثل : فذلك موسى عليه السلام ، إذا تكلم يعلو الرجال بفضل كلام اللّه إياه ، والذي رأيت عن يساري الباز الربعة الكثير خيلان الوجه كأنما حمم شعره بالماء ، فذلك عيسى ابن مريم نكرمه لإكرام اللّه إياه ، وأما الشيخ الذي رأيت أشبه الناس بي خلقًا ووجهًا فذاك أبونا إبراهيم كلنا نؤمه ونقتدي به ، وأما الناقة التي رأيت ورأيتني أبعثها : فهي الساعة علينا تقوم ، لا نبي بعدي ولا أمة بعد أمتي » قال : فما سأل رسول ﷺ عن رؤيا بعد هذا إلا أن يجيء الرجل فيحدثه بها متبرعًا [1] .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ قال ابن عباس : أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به ، وكذا قال مجاهد وغيره ، وقال ابن جرير : ومنه يسمى وضين الناقة الذي تحت بطنها ، وهو فعيل بمعنى مفعول ؛ لأنه مضفور ، وكذلك السرر في الجنة مضفورة بالذهب واللآلى .

وقوله تعالى : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي مخلدون على صفة واحدة لا يتكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٦١/١٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٣/٧) والرعل : القطعة من الفرسان .

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أما الأكواب : فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق التي جمعت الوصفين ، والكؤوس الهنابات ، والجميع من خمر من عين جارية معين ، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة . وقوله تعالى : ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أي لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم ، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة عن ابن عباس أنه قال : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال وقالوا في قوله : ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أي لاتذهب بعقولهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها ، ويدل على ذلك حديث عكراش بن ذؤيب قال : بعثني مرة في صدقات أموالهم إلى رسول الله ﷺ ، فقدمت المدينة فإذا هو جالس بين المهاجرين والأنصار ، وقدمت عليه بإبل كأنها عروق الأرطى قال : « من الرجل ؟ » قلت : عكراش بن ذؤيب ، قال : « ارفع في النسب » فانتسبت له إلى مرة بن عبيد ، وهذه صدقة مرة بن عبيد ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « هذه إبل قومي ، هذه صدقات قومي » ثم أمر بها أن توسم بميسم إبل الصدقة وتضم إليها ، ثم أخذ بيدي فانطلقنا إلى منزل أم سلمة فقال : « هل من طعام ؟ » فأتينا بجفنة كالقصعة كثيرة الثريد والوذر ، فجعل يأكل منها ، فأقبلت أخبط بيدي في جوانبها ، فقبض رسول الله ﷺ بيده اليسرى على يدي اليمنى ، فقال : « يا عكراش ، كل من موضع واحد ؛ فإنه طعام واحد . ثم أتينا بطبق فيه تمر أو رطب شك عبيد الله رطبًا كان أو تمرًا ، فجعلت آكل من بين يدي ، وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق وقال : « يا عكراش ، كل من حيث شئت ، فإنه غير لون واحد » . ثم أتينا بماء فغسل رسول الله ﷺ يده ومسح ببلل كفيه وجهه وذراعيه ورأسه ثلاثا ثم قال : « يا عكراش هذا الوضوء مما غيرت النار » (١) .

قال أنس كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا ، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه ، فإذا أثني عليه معروف كان أعجب لرؤياه إليه ، فأتته امرأة فقالت : يارسول الله رأيت كأني أتيت فأخرجت من المدينة فأدخلَت الجنة ، فسمعت وجبة انتحبت لها الجنة ، فنظرت فإذا فلان ابن فلان وفلان ابن فلان فسمت اثني عشر رجلًا ، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم ، فقيل : اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ أو البيذخ ، قال : فغمسوا فيه ، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر ، فأتوا بصفحة من ذهب فيها بسر ، فأكلوا من بسره ما شاءوا فما يقلبونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا ، وأكلت معهم ، فجاء البشير من تلك السرية ، فقال ، ماكان من رؤيا كذا وكذا ، فأصيب فلان وفلان حتى عد اثني عشر رجلًا ، فدعا رسول الله ﷺ المرأة ، فقال : قصي رؤياك . فقصتها وجعلت تقول : فجيء بفلان وفلان (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة » . فقال أبو بكر : يارسول الله إن هذه لطير ناعمة ، فقال :

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٢٧٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٥/٣) .

« آكلها أنعم منها - قالها ثلاثًا - وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها » [١] وعن ابن عمر قال ذكرت عند النبي ﷺ طوبى فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر هل بلغك ماطوبى ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال : « طوبى شجرة في الجنة ما يعلم طولها إلا الله ، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفًا ورقها الحلل ، يقع عليها الطير كأمثال البخت » فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هناك لطيرًا ناعمًا ، قال : « أنعم منه من يأكله ، وأنت منهم إن شاء الله تعالى » [٢] .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال : « نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة أشد بياضًا من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها يعني كأعناق الجزر » فقال عمر : إنها لناعمة ، قال رسول الله ﷺ : « آكلها أنعم منها » [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ قرأ بعضهم بالرفع [٤] وتقديره ، ولهم فيها ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴾ وقراءة الجر تحتمل معنيين : أحدهما : أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله كقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ والاحتمال الثاني : أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين ، ولكن يكون ذلك في القصور لابين بعضهم بعضًا ، بل في الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العين ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ أي كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه كما تقدم في سورة الصافات ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ ولهذا قال : ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل .

ثم قال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلامًا لاغيأ أي عبثًا خاليًا من المعنى أو مشتملًا على معنى حقير أو ضعيف ﴿ وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ أي ولا كلامًا فيه قبح ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ أي إلا التسليم منهم بعضهم على بعضا وكلامهم أيضًا سالم من اللغو والإثم .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقربون ، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار ، كما قال ميمون بن مهران : أصحاب اليمين منزلتهم دون المقربين فقال : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي أيُّ شيء أصحاب اليمين وما حالهم وكيف مآلهم . ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو الأحوص وغيرهم : هو الذي لا شوك فيه ، وعن ابن عباس : هو الموقر بالثمر ، والظاهر أن المراد هذا وهذا ، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٢١) . (٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/٦٢) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٩) والحاكم في المستدرك (٢/٥٣٧) .
(٤) قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي ﴿ وَحُورٍ عِينٍ ﴾ بخفض الاثنين والباقون بالرفع (انظر : تقريب النشر ص : ١٧٨) .

وفي الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله ، عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابي يومًا فقال : يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ : « وما هي ؟ » قال : السدر ؛ فإن له شوكًا مؤذيًا ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله تعالى يقول : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمرًا تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونًا من طعام ، مافيها من لون يشبه الآخر » [١] .

وقوله : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ الطلح شجر عظام يكون بأرض الحجاز من شجر العضاه واحدته طلحة ، وهو شجر كثير الشوك وقال مجاهد ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أي متراكم الثمر يذكر بذلك قريشًا ؛ لأنهم كانوا يعجبون من وج وظلاله من طلح وسدر . وقال السدي : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ مصفود . قال ابن عباس : يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل ، قال الجوهري : والطلح لغة في الطلع قلت : وقد روي من حديث الحسن بن سعد عن شيخ من همدان قال : سمعت عليًّا يقول : هذا الحرف في طلح منضود ، قال : طلع منضود ، فعلى هذا يكون من صفة السدر ، فكأنه وصفه بأنه مخضود ، وهو الذي لا شوك له ، وأن طلعه منضود وهو كثرة ثمره ، والله أعلم . قال مجاهد وابن زيد أهل اليمن يسمون الموز الطلح ، ولم يحك ابن جرير غير هذا القول .

وقوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ عن أبي هريرة ، يبلغ به النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرءوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ » [٢] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب » [٣] ، وقال الضحاك والسدي وأبو حزرة في قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر ، وقال ابن مسعود : الجنة سجسج كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ قال الثوري : يجري في غير أخدود ، وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ الآية . بما أغنى عن إعادته ههنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وفي ذكر سدرة المنتهى : « فإذا ورقها كآذان الفيلة ، ونبقها مثل قلال هجر » [٤] وعن ابن عباس قال : خسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة ، وفيه قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت ، قال : « إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقودًا ، ولو أخذته ؛ لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » [٥] وعن عتبة بن عبد السلمي يقول : « جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن الحوض وذكر الجنة ، ثم قال الأعرابي : فيها فاكهة ؟ قال : « نعم ، وفيها شجرة تدعى طوبى » قال : فذكر

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٥٦/٦) .
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٢) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٢٥) .
(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم في الإيمان (٢٥٩) وأحمد في مسنده (١٦٤/٣) .
(٥) أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٩) ومسلم في الكسوف (١٧) وأحمد في مسنده (٣٥٨/١) والنسائي في السنن (١٤٧/٣) .

شيئًا لا أدري ما هو ، قال : أي شجرة أرضنا تشبه ؟ قال : ليست تشبه شيئًا من شجر أرضك ، فقال النبي ﷺ : « أتيت الشام ؟ » قال : لا . قال : « تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة تنبت على ساق واحد وينفرش أعلاها » . قال : ما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع لا يفتر » . قال : وعظم أصلها ؟ قال : « لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرمًا » . قال : فيها عنب ؟ قال : « نعم » قال : فما عظم الحبة ؟ قال « هل ذبح أبوك تيسًا من غنمه قط عظيمًا ؟ » قال : نعم ، قال : « فسلخ إهابه فأعطاه أمك : فقال اتخذي لنا منه دلوًا ؟ » قال : نعم . قال الأعرابي : فإن تلك الحبة لتشبعني وأهل بيتي ، قال : « نعم ، وعامة عشيرتك » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي لا تنقطع شتاء ولا صيفًا بل أكلها دائم مستمر أبدًا ، مهما طلبوا وجدوا لا يمتنع عليهم بقدرة اللَّه شيء . وقال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد ، وقوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي عالية وطيئة ناعمة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ جرى الضمير على غير مذكور . لكن لما دل السياق وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجعن فيها اكتفى بذلك عن ذكرهن وعاد الضمير عليهن ، وقال الأخفش في قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ أضمرهن ولم يذكرن قبل ذلك ، وقال أبو عبيدة : ذكرن في قوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ فقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ أي أعدناهن في النشأة الأخرى بعد ما كن عجائز رمصًا ، صرن أبكارًا عربًا أي بعد الثيوبة عدن أبكارًا عربًا متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة . وقال بعضهم : ﴿ عُرُبًا ﴾ أي غنجات ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللَّه ﷺ ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ قال : « نساء عجائز كن في الدنيا عمشًا رمصا » [٣] . وعن الحسن قال : أتت عجوز فقالت : يا رسول اللَّه ادع اللَّه تعالى أن يدخلني الجنة فقال : « يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز » قال : فولت تبكي . قال : « أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن اللَّه تعالى يقول : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ [٤] .

وعن أم سلمة قالت : قلت يا رسول اللَّه أخبرني عن قول اللَّه تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قال : « حور بيض ضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ قال : « صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي » قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ قال : « خيرات الأخلاق حسان الوجوه » قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ قال : « رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقيء » قلت : يا رسول اللَّه أخبرني عن قوله : ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ قال : « هن اللواتي قبضن في الدار الدنيا عجائز رمصًا شمطًا ، خلقهن اللَّه بعد الكبر فجعلهن عذارى عربًا متعشقات محببات أترابًا على ميلاد واحد » قلت : يا رسول اللَّه نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : « بل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٨٤) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٩٤) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٣٦) .
(٤) ذكره البغوي في تفسيره (٧/١٩) .

نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة » قلت : يارسول الله وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ﷻ ، ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير . بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب ، يقلن : نحن الخالدات فلا نموت أبدًا ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبدًا ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدًا ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدًا ، طوبى لمن كنا له وكان لنا » قلت : يارسول الله المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجها ؟ قال : « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقًا ، فتقول : يارب إن هذا كان أحسن خلقًا معي فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » (١) . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء ، قلت : يا رسول الله ويطيق ذلك ؟ قال : يعطى قوة مائة » (٢) .

وقوله ﴿ عُرُبًا ﴾ قال ابن عباس : يعني متحببات إلى أزواجهن ، ألم تر إلى الناقة الضبعة هي كذلك ، وسأل ابن عباس عن قوله ﴿ عُرُبًا ﴾ قال : هي الملقة لزوجها . وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ عُرُبًا ﴾ قال : « كلامهن عربي » . وقوله ﴿ أَتْرَابًا ﴾ قال ابن عباس : في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة ، وقال مجاهد : الأتراب المستويات ، وفي رواية عنه الأمثال ، وقال عطية : الأقران وقال السدي : أي في الأخلاق المتواخيات بينهن ، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعني لا كما كن ضرائر متعاديات . وعن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لمجتمعًا للحور العين يرفعن أصواتًا لم تسمع الخلائق بمثلها - قال - يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » (٣) . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الحور العين ليغنين في الجنة يقلن : نحن خيرات حسان خبئنا لأزواج كرام » (٤) وقوله تعالى : ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي خلقن لأصحاب اليمين أو ادخرن لأصحاب اليمين أو زوجن لأصحاب اليمين . والأظهر أنه متعلق بقوله ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ فتقديره : أنشأناهن لأصحاب اليمين ، وهذا توجيه ابن جرير .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ متعلقًا بما قبله وهو قوله ﴿ أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي في أسنانهم ، كما جاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب ، وريحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء » (٥) وعن بن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٦/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤١٧/١٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٣٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٦٤) وأحمد في مسنده (١٥٦/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٧/٤) .

(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٨/٤) والسيوطي في جمع الجوامع (٥٤٥٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤١٩/١٠) .

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٤) والترمذي في السنن (٢٥٣٧) والحاكم في المستدرك (٢٢٨/٣) وأحمد في مسنده (٢٥٧/٢) .

أهل الجنة الجنة جُرْدًا مُرْدًا مكحَّلين بَني ثلاثٍ وثلاثين سنة »[١] .

وعن عبد الله بن مسعود قال : وكان بعضهم يأخذ عن بعض قال : أكربنا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه فقال : « عرضت عليّ الأنبياء وأتباعها بأممها ، فيمر عليَّ النبي ، والنبي في العصابة ، والنبي في الثلاثة والنبي وليس معه أحد - وتلا قتادة هذه الآية ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ قال : حتى مر علي موسى بن عمران في كبكبة من بني إسرائيل قال : قلت : ربي من هذا ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران ومن تبعه من بني إسرائيل ! قال : قلت : رب فأين أمتي ؟ قال : انظر عن يمينك في الضراب قال : فإذا وجوه الرجال ، قال : قال : أرضيت ؟ قال : قلت : قد رضيت رب . قال : انظر إلى الأفق عن يسارك ، فإذا وجوه الرجال ، قال : أرضيت ؟ قلت : قد رضيت رب . قال : فإن مع هؤلاء سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب » . قال : وأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد - قال سعيد : وكان بدريا - قال : يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : فقال : « اللهم اجعله منهم » قال : أنشأ رجل آخر قال : يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال : « سبقك بها عكاشة » قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإن استطعتم فداكم أبي وأمي أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا ، وإلا فكونوا من أصحاب الضراب ، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق ، فإني قد رأيت ناسًا كثيرًا قد ناشبوا أحوالهم » ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبرنا ، ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » قال : فكبرنا قال : « إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » قال : فكبرنا ، قال : ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ قال : فقلنا بيننا : من هؤلاء السبعون ألفًا ، فقلنا : هم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا . قال : فبلغه ذلك فقال : « بل هم الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون »[٢] .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي أيّ شيء هم فيه أصحاب الشمال ، ثم فسر ذلك فقال ﴿ فِى سَمُومٍ ﴾ وهو الهواء الحار ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وهو الماء الحار ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ قال ابن عباس : ظل الدخان ، ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أي ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر ، وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم .

وقال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة في النفي فيقولون : هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم . وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة . ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أي كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٥/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٠/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/٢) والحاكم في المستدرك (٥٧٧/٤) والطبراني في الكبير (٦/١٠) .

لذات أنفسهم لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ ﴾ أي يقيمون ولا ينوون توبة ﴿ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وهو الكفر بالله وجعل الأوثان والأنداد أربابًا من دون الله . قال ابن عباس : الحنث العظيم : الشرك . وقال الشعبي : هو اليمين الغموس ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة لا يغادر منهم أحد ، ولهذا قال : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي هو موقت بوقت محدود ، لايتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم حتى يملأوا منها بطونهم ، ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ وهي الإبل العطاش ، وعن عكرمة أنه قال : الهيم الإبل المراض تمص الماء مصًّا ولا تروى . وقال السدي : الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبدًا حتى تموت ، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبدًا . ثم قال تعالى : ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أي هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مقررًا للمعاد ، ورادًّا على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد ، من الذين قالوا ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد . فقال تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ أي نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا ، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى ! ولهذا قال ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أي فهلا تصدقون بالبعث ! ثم قال تعالى مستدلًا عليهم بقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أي أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها أم الله الخالق لذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي صرفناه بينكم ، وقال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ أي نغير خلقكم يوم القيامة .

﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي من الصفات والأحوال . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداءة ، قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ ﴾ أي تنبتونه في الأرض ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ أي بل نحن الذي نقره قراره ونبته في الأرض . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقولن زرعت ، ولكن قل : حرثت » قال أبو هريرة : ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم ولو نشاء لجعلناه حطامًا أي لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي لو جعلناه حطامًا لظللتم تفكهون في المقالة تنوعون كلامكم فتقولون تارة ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي لملقون ، وقال مجاهد وعكرمة : إنا لموقع بنا . وقال قتادة : معذبون ، وتارة تقولون ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ . قال مجاهد أيضا : ملقون للشر أي بل نحن محارفون أي لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح ، وقال مجاهد : مجدودون يعني لا حظ لنا ، وقال ابن عباس ومجاهد ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تعجبون . وقال مجاهد أيضا : تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم ، وهذا يرجع إلى الأول ، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم ، وهذا اختيار ابن جرير . وقال عكرمة ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ : تلاومون ، وقال الحسن وقتادة والسدي : تندمون ، ومعناه إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب ، قال الكسائي : تفكه من الأضداد ، تقول العرب تفكهت بمعنى تنعمت ، وتفكهت بمعنى حزنت .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ يعني السحاب ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ يقول : بل نحن المنزلون ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ أي زعاقًا مرًّا لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذبًا زلالًا . وعن أبي جعفر عن النبي ﷺ أنه كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذي سقانا عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا » (٢) ثم قال : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ أي تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها . وللعرب شجرتان إحداهما : المرخ ، والأخرى : العفار ، إذا أخذ منها غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار . وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ قال مجاهد وقتادة : أي تذكر النار الكبرى ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم » فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : « فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءا » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والنضر بن عربي : يعني بالمقوين المسافرين ، واختاره ابن جرير وقال : ومنه قولهم : أقوت الدار إذا رحل أهلها ، وقال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/٨) وعزاه إلى البزار وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦١/٦) والهندي في كنز العمال (١٨٢٢٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) والحاكم في المستدرك (٥٩٣/٤) وبنحوه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥) والترمذي في السنن (٢٥٩٠) .

غيره : القي والقواء القفر الخالي البعيد من العمران . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقوي ههنا الجائع . وقال مجاهد : للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار ، وقال أيضًا : يعني للمستمتعين من الناس أجمعين ، وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع ، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناره فاطبخ بها واصطلى بها واشتوى ، واستأنس بها وانتفع بها سائر الانتفاعات ، فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عامًّا في حق الناس كلهم ! وقد يستدل له بحديث أبي خداش حبان بن زيد الشرعبي الشامي عن رجل من المهاجرين من قرن أن رسول الله ﷺ قال : « المسلمون شركاء في ثلاثة : النار والكلأ والماء » [1] وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يمنعن : الماء والكلأ والنار » [2] .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة : الماء الزلال العذب البارد ولو شاء لجعله ملحًا أجاجًا كالبحار المغرقة ، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد ، وجعل هذا منفعة لهم في معاش دنياهم وزجرًا لهم في المعاد .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

الذي عليه الجمهور أنه قسم من الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه ، وهو دليل على عظمته ، ثم قال بعض المفسرين : لا ههنا زائدة وتقديره : أقسم بمواقع النجوم ويكون جوابه ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ وقال آخرون : ليست لا زائدة لا معنى لها بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسمًا به على منفي كقول عائشة رضي الله عنها : لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط [3] . وهكذا ههنا تقدير الكلام : لا أقسم بمواقع النجوم ، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة بل هو قرآن كريم . وقال ابن جرير : وقال بعض أهل العربية : معنى قوله ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ فليس الأمر كما تقولون ثم استأنف القسم بعد ذلك فقيل : أقسم ، واختلفوا في معنى قوله ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ فعن ابن عباس : يعني نجوم القرآن فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقًا في السنين بعد . ثم قرأ ابن عباس هذه الآية ، وقال الضحاك عن ابن عباس : نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ، فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة فهو قوله ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ نجوم القرآن ، وقال مجاهد أيضًا : مواقع النجوم في السماء ويقال : مطالعها ومشارقها .

وكذا قال الحسن وقتادة وهو اختيار ابن جرير ، وعن قتادة : مواقعها : منازلها . وعن الحسن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٤/٥) وأبو داود في السنن (٣٤٧٧) وابن ماجه في السنن (٢٤٧٢) والبيهقي في السنن (١٥٠/٦) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٤٧٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠٦) والألباني في الصحيحة (٥٢٩) .

أيضًا : أن المراد بذلك انتثارها يوم القيامة . وقوله ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي معظم ، في كتاب معظم محفوظ موقر . وعن ابن عباس ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : الكتاب الذي في السماء . وقال ﴿ ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ : يعني الملائكة ، وكذا قال أنس ومجاهد وعكرمة وغيرهم .

وقال قتادة : لا يمسه عند الله إلا المطهرون ، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس ، والمنافق الرجس ، وقال أبو العالية : ليس أنتم أصحاب الذنوب ، وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون ، وهذا القول قول جيد ، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله . وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به . وقال آخرون ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ أي من الجنابة والحدث ، قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب ، قالوا : والمراد بالقرآن ههنا المصحف ، كما روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو [١] . واحتجوا في ذلك بما ورد في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس هو كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذي لا مرية فيه وليس وراءه حق نافع . وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ قال ابن عباس : أي مكذبون غير مصدقين ، وقال مجاهد : أي تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال بعضهم : معنى ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ بمعنى شكركم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : تكذبون بدل الشكر ، وقد روي عن علي وابن عباس أنهما قرأها (وَتَجْعَلُونَ شكركم أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) .

وعن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ يقول : شكركم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا بنجم كذا وكذا » [٣] وعن زيد بن خالد الجهني أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب » [٤] وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزل الغيث فيقولون : بكوكب كذا وكذا » [٥] . وقال مجاهد ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال : قولهم في

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٨٧٩) وأحمد في مسنده (١٦٣/٢) والبيهقي في السنن (١٠٨/٩) .

(٢) أخرجه الدارمي في السنن (١٦١/٢) والبيهقي في السنن (٨٨/١) والدارقطني في السنن (١٢١/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/١) .

(٤) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٣٨) ومسلم في الإيمان (١٢٥)وأحمد في مسنده (١١٧/٤) وأبو داود في السنن (٣٩٠٦) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦) .

الأنواء : مطرنا بنوء كذا ، وبنوء كذا ، يقول : قولوا : هو من عند الله وهو رزقه .

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أي الروح ﴿ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ أي الحلق وذلك حين الاحتضار ، ولهذا قال : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أي إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أي بملائكتنا ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ أي ولكن لا ترونهم . وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ معناه فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدينين . قال ابن عباس : يعني محاسبين ، وقال سعيد بن جبير والحسن البصري ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس ، وعن مجاهد غير موقنين . وقال ميمون بن مهران : غير معذبين مقهورين .

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم ، إما أن يكون من المقربين ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين ، وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى الجاهلين بأمر الله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ أي المحتضر ﴿ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ أي فلهم روح وريحان وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت كما تقدم في حديث البراء « أن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان » . قال ابن عباس ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة ، وكذا قال مجاهد : إن الروح الاستراحة ، وقال أبو حزرة : الراحة من الدنيا ، وعن مجاهد ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ جنة ورخاء وقال قتادة : ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ فرحمة ، وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ ورزق ، وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقربًا حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور والرزق الحسن ، ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ قال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيقبض روحه فيه . وقال محمد بن كعب : لا يموت أحد من الناس حتى يعلم أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار ، وعن تميم الداري عن النبي ﷺ يقول : « يقول الله تعالى لملك الموت : انطلق إلى فلان فائتني به فإنه قد جربته بالسراء والضراء فوجدته حيث أُحِبُّ ، ائتني فلأريحه قال : فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من الجنة ، ومعهم ضبائر الريحان - أصل الريحانة واحد - وفي رأسها عشرون لونًا لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك »[1] .

وعن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ فرُوح وَرَيْحَانٌ ﴾ برفع الراء[2] ، وهذه القراءة هي

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/١٦٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٢٦) .

قراءة يعقوب وحده وخالفه الباقون فقرءوا ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ بفتح الراء [١] . وعن أم هانئ ، أنها سألت رسول الله ﷺ : أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضًا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يكون النسم طيرًا يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها » [٢]. هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى يعلق يأكل ، وعن عطاء بن السائب قال : كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى رأيت شيخًا أبيض الرأس واللحية على حمار ، وهو يتبع جنازة فسمعته يقول : حدثني فلان ابن فلان سمع رسول الله ﷺ يقول : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » قال : فأكب القوم يبكون ، فقال : « ما يبكيكم ؟ » فقالوا : إنا نكره الموت ، قال : « ليس ذاك ، ولكنه إذا احتضر ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله ﷻ ، والله ﷻ للقائه أحب ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله والله تعالى للقائه أكره » [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي وأما إذا كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم : سلام لك أي لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين . وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله وسلمت عليه ملائكة الله ، وقال البخاري ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ ﴾ أي مسلم لك أنك من أصحاب اليمين ، وألغيت إن وبقي معناها كما تقول : أنت مصدق مسافر عن قليل إذا كان قد قال : إني مسافر عن قليل ، وقد يكون كالدعاء له كقولك : سقيًا لك من الرجال إن رفعت السلام ، فهو من الدعاء [٤] . وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية ومال إليه والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ أي فضيافة ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي وتقرير له في النار التي تغمره منْ جميع جهاته . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . عن عقبة بن عامر الجهني قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قال : « اجعلوها في ركوعكم » ولما نزلت ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قال رسول الله ﷺ : « اجعلوها في سجودكم » [٥] وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غرست له نخلة في الجنة » [٦] وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » [٧] .

---

(١) روى رويس ﴿ فرَوْحٌ ﴾ بضم الراء وانفرد به ابن مهران عن روح ، والباقون بالفتح (انظر : تقريب النشر ص : ١٧٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٥/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٧) ومسلم في الذكر والدعاء (١٤) والترمذي في السنن (١٠٦٦) وأحمد في مسنده (٣٤٦/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (تفسير سورة الواقعة) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٥/٤) .
(٦) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٦٤) والحاكم في المستدرك (٥٠١/١) والألباني في الصحيحة (٦٤) .
(٧) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٣١) والترمذي في السنن (٣٤٦٧) وابن ماجه في السنن (٣٨٠٦) .

سورة الحديد

عن عرباض بن سارية أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض أي من الحيوانات والنباتات ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي الذي قد خضع له كل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه فيحيي ويميت ويعطي من يشاء ما يشاء ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرباض بن سارية أنها أفضل من ألف آية ، عن أبي زميل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده في صدري ، قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال : فقال لي : أشيء من شك ؟ قال وضحك ، قال : ما نجا من ذلك أحد ، قال : حتى أنزل الله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية ، قال : وقال لي : إذا وجدت في نفسك شيئًا فقل ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولا .

قال البخاري : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علمًا والباطن على كل شيء علمًا . وعن سهيل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر (٣) .

وعن أبي هريرة قال : بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال نبي الله ﷺ : « هل تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا العنان ، هذه روايا الأرض تسوقه إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال : « هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « بينكم وبينها خمسمائة سنة » ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن فوق ذلك سماء بُعْدُ ما بينهما مسيرةُ ستمائة سنة – حتى عدَّ سبع

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٨/٤) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥١١٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦١) وابن ماجه في السنن (٣٨٧٣) وأحمد في مسنده (٥٣٦/٢) .

سموات - ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض » ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : اللَّه ورسوله أعلم ، قال : « فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء مثل بُعْدِ ما بين السماءين » ثم قال : « هل تدرون ما الذي تحتكم ؟ » قالوا : اللَّه ورسوله أعلم . قال : « فإنها الأرض » ثم قال : « هل تدرون ما الذي تحت ذلك ؟ » قالوا : اللَّه ورسوله أعلم . قال : « فإن تحتها أرضًا أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عد سبع أرضين - بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة » ثم قال : « والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم حبلًا إلى الأرض السفلى لهبط على الله ثم قرأ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ » (١) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هٰهنا . وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وزرع وثمار ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي من الأمطار . والثلوج والبرد والأقدار . والأحكام مع الملائكة الكرام ، ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يقررها في المكان الذي يأمر اللَّه به حيث يشاء اللَّه تعالى . وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي : من الملائكة والأعمال ، كما جاء في الصحيح : « يُرْفَع إليْهِ عملُ اللَّيْلِ قبْلَ النهارِ ، وعملُ النَّهارِ قبلَ اللَّيلِ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم .

فلا إله غيره ولا رب سواه ، وقد ثبت أن رسول اللَّه ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٣) وعن عبد اللَّه بن معاوية الغاضري مرفوعًا : « ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان ، إن عَبدَ اللَّه وحده وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام ، ولم يُعْطِ الهَرِمَةَ ولا الرذية ولا الشرِطَةَ اللئيمة ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم وزكى نفسه » وقال رجل : يا رسول الله ما تزكية المرءِ نفسه ، فقال : « يعلم أن اللَّه معه حيث كان » (٤) وكان الإمام أحمد رحمه اللَّه تعالى ينشد هذين البيتين :

إِذَا مَا خَلوت الدَّهرَ يومًا فلا تَقُلْ خلوتُ ولكن قُلْ عَليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللَّه يغفلُ ساعةً ولا أنَّ ما تُخْفِي عليه يغيبُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٩٨) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣ ، ٢٩٥) .
(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٧) ومسلم في الإيمان (١) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .
(٤) أخرجه أبو داود في السنن (١٥٨٢) والبيهقي في السنن (٩/٤) والألباني في الصحيحة (١٠٤٦) .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي هو المالك للدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ وهو المحمود على ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فجميع ما في السموات والأرض ملك له ، وأهلهما عبيد أرقاء أذلاء بين يديه ولهذا قال : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي إليه المرجع يوم القيامة فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن عمل أحدهم حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ أي هو المتصرف في الخلق يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعًا ثم قيظاً ثم خريفًا ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي يعلم السرائر وإن دقت أو خفيت .

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ .

أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ؛ أي مما هو معكم على سبيل العارية ؛ فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ، ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته ، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه ، وقوله تعالى : ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفًا عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان . عن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ألهاكم التكاثر » ، يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به . وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ويعني بذلك بيعة الرسول ﷺ ، وزعم ابن جرير أن المراد بذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم وهو مذهب مجاهد ، فالله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي حججًا واضحات ودلائل باهرات وبراهين قاطعات ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤) .

أي في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس وإزاحة العلل وإزالة الشبه ، ولما أمرهم أولًا بالإيمان والإنفاق ثم حثهم على الإيمان وبين أنه قد أزال عنهم موانعه حثهم أيضًا على الإنفاق فقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي أنفقوا ولا تخشوا فقرا وإقلالًا ؛ فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض وبيده مقاليدهما وعنده خزائنهما ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

فمن توكل على الله أنفق ولم يخش من ذي العرش إقلالًا ، وعلم أن الله سيخلفه عليه . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أنه قبل فتح مكة كان الحال شديدًا فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهورًا عظيمًا ودخل الناس في دين الله أفواجًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا فتح مكة ، وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح ههنا صلح الحديبية ، وقد يستدل لهذا القول بما روي عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال : « دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم » (١) ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح ، فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما ، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك ، والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » (٢) .

وعن عطاء بن يسار عن أبي سعيد ذكر الخوارج : « تَحْقِرُونَ صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية .. » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ يعني المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء ، وفي الصحيح : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خير » (٤) وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه مع تفضيل الأول عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق ، وفي الحديث « سَبَقَ درهمٌ مائةَ ألفٍ » (٥) ولا شك عند أهل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢١) والترمذي في السنن (٣٨٦١) وابن ماجه في السنن (١٦١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٣) .

(٤) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) وابن ماجه في السنن (٧٩) وأحمد في مسنده (٣٧٠/٢) والبيهقي في السنن (٨٩/١٠) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن (٥٩/٥) .

الإيمان أن الصديق أبا بكر ﷺ ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ؛ فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ﷻ ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قال عمر بن الخطاب : هو الإنفاق في سبيل الله ، وقيل : هو النفقة على العيال ، والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة ، وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ أي جزاء جميل ورزق باهر ، وهو الجنة يوم القيامة .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ، قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده . قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي - وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها - قال : فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح . قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي ﷻ » وفي رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وإن رسول ﷺ قال : « كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح » وفي لفظ : « رب نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة » (١) .

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة ، بحسب أعمالهم كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نورًا من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة ، وعن جنادة بن أبي أمية قال : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماكم وحلاكم ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة ، قيل : يا فلان هذا نورك ، يا فلان لا نور لك ، وقرأ ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

وعن أبي الدرداء وأبي ذر يخبران عن النبي ﷺ قال : « أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن الله برفع رأسه ، فأنظر من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، فأعرف أمتي من بين الأمم » فقال له رجل : يا نبي الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك ؟ فقال : « أعرفهم محجلون من أثر الوضوء ، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم ، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم » (٢) .

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٤/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٥) والحاكم في المستدرك (٤٧٨/٢) والبيهقي في السنن (١٧٢/٦) .

وقوله : ﴿ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ قال الضحاك : أي وبأيمانهم كتبهم وقوله : ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي يقال لهم : بشراكم اليوم جنات أي لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وقوله ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه زجر . وعن سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها قال أبو أمامة : أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود وبيت الضيق إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نورًا ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئًا ، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير ، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئًا ، فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ الآية .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترًا منه على عباده ، وأما عند الصراط : فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نورًا وكل منافق نورًا ، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقال المؤمنون : ربنا أتمم لنا نورنا ، فلا يذكر عند ذلك أحد أحدًا » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذي قال الله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ وهكذا روي عن مجاهد رحمه الله وغير واحد وهو الصحيح ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ ﴾ أي الجنة وما فيها ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي النار . قال ابن جرير : وقد قيل إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادي جهنم ، وعن أبي العوام مؤذن بيت المقدس قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : إن السور الذي ذكره الله في القرآن ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ وهو السور الشرقي باطنه المسجد وما يليه وظاهره وادي جهنم . وروي عن عبادة بن الصامت وغيره مثل ذلك ، وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالًا لذلك ، لا أن هذا هو الذي

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٢٤٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥٩/١٠) .

أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد ، وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنم ، فإن الجنة في السموات في أعلى عليين والنار في الدركات أسفل سافلين ، وقول كعب الأحبار : إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد فهذا من إسرائيلياته وترهاته ، وإنما المراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ونصلي معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ونؤدي معكم سائر الواجبات ، ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى قد كنتم معنا ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ قال بعض السلف : أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ أي أخرتم التوبة من وقت إلى وقت . وقال قتادة ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالحق وأهله ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أي قلتم سيغفر لنا وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أي الشيطان ، قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا أي بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك ، فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلًا ، قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتًا ويعطون النور جميعًا يوم القيامة ، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ويماز بينهم حينئذ .

وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله تعالى به عنهم حيث يقول ، وهوأصدق القائلين ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ . فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ . ثم قال تعالى ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ كما قال ههنا ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهبا ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه . وقوله تعالى : ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي هي مصيركم وإليها منقلبكم ، وقوله تعالى : ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي : هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ؟ أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه . عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين

فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية وعن ابن مسعود ﷺ قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية ، إلا أربع سنين (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنًا قليلًا ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية .

عن إبراهيم قال : جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود فقال : يا عبد الله هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر ، فقال عبد الله : هلك من لم يعرف قلبه معروفًا ولم ينكر قلبه منكرًا . إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم اخترعوا كتابًا من بين أيديهم وأرجلهم استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم ، وقالوا نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب ، فمن آمن به تركناه ، ومن كفر به قتلناه ، قال : فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن ثم جعل القرن بين ثندوتيه ، فلما قيل له : أتؤمن بهذا ، قال : آمنت به ويومئ إلى القرن بين ثندوتيه ، وما لي لا أؤمن بهذا الكتاب ، فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذي هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكورا ، ولهذا قال : ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمْ ﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف ، وفوق ذلك ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي ثواب جزيل حسن ومرجع صالح ومآب

---

(١) أخرجه مسلم في التفسير (٢٤) وابن ماجه في السنن (٤٢٩٢) .

(٢) ذكره الطبرى في تفسيره (٢٧/٢٩٧) .

كريم . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون ، عن ابن عباس : قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ هذه مفصولة ، ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ وعن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم ثلاثة أصناف : يعني المصدقين والصديقين والشهداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ففرق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان ولا شك أن الصديق أعلى مقامًا من الشهيد ، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ : قال « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » قال : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » [1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في جنات النعيم كما جاء في الحديث : « إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تريدون ؟ ! فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك كما قتلنا أول مرة ، فقال : إني قد قضيت أنهم إليها لا يرجعون » [2] . وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أي لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال ، وعن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله فقتل فذاك الذي ينظر الناس إليه هكذا ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ وقلنسوة عمر ، والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاءه سهم غرب فقتله فذاك في الدرجة الثانية ، والثالث : رجل مؤمن خلط عملا صالحًا وآخر سيئًا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة ، والرابع : رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافًا كثيرًا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة » [3] وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

يقول تعالى موهنًا أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ أي إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس كما قال

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٥) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١١) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٤١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١٦/٢) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٤٤) وأحمد في مسنده (٢٣/١) .

تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ أي يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًّا بعد ما كان خضرًا نضرًا ، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا أي يصير يبسًا متحطمًا ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولًا شابة ثم تكتهل ثم تكون عجوزًا شوهاء ، والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضًّا طريًّا لين الأعطاف ، بهي المنظر ، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغيرطباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصيرشيخًا كبيرًا ضعيف القوى ، قليل الحركة يعجزه الشيء اليسيركما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ ولما كان هذا المثل دالًّا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال : ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ أي وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ أي هي متاع فانٍ غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى دار الآخرة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرؤوا ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ » (١) وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك » (٢) . ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلهذا حثه الله تعالى على المبادرة إلى الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات وتحصل له الثواب والدرجات فقال تعالى : ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ والمراد جنس السماء والأرض كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال ههنا ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم ، كما قدمنا في الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور : بالدرجات العلى والنعيم المقيم قال : « وما ذاك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق . قال : « أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم . تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين » قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٨) وأحمد في مسنده (١/٣٨٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣) ومسلم في المساجد (١٤٢) والدارمي في السنن (الصلاة ٩٠) وأحمد في مسنده (٥/١٦٧) .

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي في الآفاق وفي نفوسكم ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ أي من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة . وقال بعضهم : من قبل أن نبرأها عائد على النفوس ، وقيل : عائد على المصيبة ، والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليها وقال قتادة : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هي السنون يعني الجدب ﴿ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ يقول : الأوجاع والأمراض ، قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم ولا خلجان عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر .

وهذه الآية الكريمة العظيمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق - قبحهم الله - عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » (١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله ﷻ ؛ لأنه يعلم ماكان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وقوله تعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدر شيء لكان ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي جاءكم ، وتفسير ﴿ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي أعطاكم وكلاهما متلازم ؛ أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشرًا وبطرًا تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي مختال في نفسه متكبر فخور أي على غيره . وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكرًا والحزن صبرًا . ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ أي يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى ﷺ ﴿ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهو النقل الصدق ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ وهو العدل ، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ولهذا قال ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي بالحق والعدل وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذي جاءوا به هو الحق

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٩/٢) والترمذي في السنن (٢١٥٦) .

الذي ليس وراءه حق كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأوامر والنواهي ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله أمرهم بالهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم »[1] ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أي في معايشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والإزميل والمجرفة والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز ، وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك . عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم : السندان والكلبتان والميقعة يعني المطرقة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من نصره ، من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحًا عليه السلام لم يرسل بعده رسولًا ولا نبيًا إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتابًا ولا أرسل رسولًا ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ وهم الحواريون ﴿ رَأْفَةً ﴾ أي رقة وهي الخشية ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالخلق . وقوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أي ابتدعها أمة النصارى ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي ما شرعناها وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ فيه قولان أحدهما : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع في دين

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٢) .

الله ما لم يأمر به الله ، والثاني : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ﷻ .
عن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا ابن مسعود » قلت : لبيك يا رسول الله . قال : « هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، لم ينج منها إلا ثلاث فرق ، قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم عليه السلام ، فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقاتلت الجبابرة فقتلت فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم تكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك والجبابرة فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فقتلت ، وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط ، فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت وهم الذين ذكر الله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وعن سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير ، وهو يصلي صلاة خفيفة كأنها صلاة مسافر أو قريبًا منها ، فلما سلم قال : يرحمك الله أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أم شيء تنفلته ؟ قال : إنها لمكتوبة وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئًا سهوت عنه ، إن رسول الله ﷺ كان يقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشُدد عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » ثم غدوا من الغد فقالوا : نركب فننظر ونعتبر ، قال : نعم فركبوا جميعًا فإذا هم بديار قفر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا خاوية على عروشها ، فقالوا : أتعرف هذه الديار ؟ قال : ما أعرفني بها وبأهلها ، هؤلاء أهل الديار أهلكهم البغي والحسد ، إن الحسد يطفئ نور الحسنات والبغي يصدق ذلك أو يكذبه ، والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه (٢) . وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « لكل نبي رهبانية » ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله ﷻ » (٣) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما في الآية التي في القصص ، وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدب أَمَتَهُ فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » (٤) وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ أي ضعفين ﴿ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ وزادهم

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/٢١٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٠٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٢٥٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٦٦) .
(٤) أخرجه البخاري في العلم (٢٦٧٢) والترمذي في السنن (١١١٦) وأحمد في مسنده (٤/٤٠٥) والدارمي في السنن (٢/١٥٥) .

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ويغفر لكم ، ففضلهم بالنور والمغفرة .

وقال سعيد بن عبد العزيز : سأل عمر بن الخطاب حبرًا من أحبار يهود أفضل ما ضعف لكم حسنة قال : كفل ثلاثمائة وخمسين حسنة ، قال : فحمد اللَّه عمر على أنه أعطانا كفلين ، ثم ذكر سعيد قول اللَّه ﷻ : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ قال سعيد : والكفلان في الجمعة مثل ذلك [(١)] .

ومما يؤيد هذا القول ما روي عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استعمل قومًا يعملون له عملًا يومًا إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصفِ النهار فقالوا : لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملًا ، فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير ، فأبوا . فاستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجرة الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور » [(٢)] ولهذا قال تعالى : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء مامنع الله ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . قال ابن جرير ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي ليعلم وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها (لكي يعلم) وكذا عطاء بن عبد اللَّه وسعيد بن جبير . قال ابن جرير : لأن العرب تجعل لا صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح ، فالسابق كقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ ، و ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، باللّه ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣١٥/٢٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧١) والبيهقي في السنن (١١٩/٦) .

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

عن عائشة قالت الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقوله ، فأنزل الله ﷻ ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى آخر الآية [١] وعن عائشة أنها قالت : تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول : يارسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ . قالت : وزوجها أوس بن الصامت .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

عن خويلة بنت ثعلبة قالت : فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علي يومًا فراجعته بشيء ، فغضب فقال : أنت علي كظهر أمي . قالت : ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي قالت : قلت : كلا ، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إلي ، وقد قلت ماقلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت : فواثبني ، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابًا ، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه ، قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه » . قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ قرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سري عنه فقال لي « يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً - ثم قرأ علي ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ » قالت : فقال لي رسول الله ﷺ : « مُريه فليعتق رقبة » قالت : فقلت يا رسول الله ما عنده ما يعتق ، قال : « فليصم شهرين متتابعين » قالت : فقلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام قال : « فليطعم ستين مسكينًا وسقا من تمر » قالت : فقلت : والله يا رسول الله ما ذاك عنده ، قالت ، فقال رسول الله ﷺ : « فإنا سنعينه بفرق من تمر » قالت : فقلت : يا رسول الله وأنا سأعينه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦/٦) وأخرجه البخاري في (التوحيد) (باب ٩) تعليقًا .

بفرق آخر قال : « قد أصبت وأحسنت ، فاذهبي فتصدقي به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيرًا » قالت : ففعلت [(١)] . فقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها : أنت علي كظهر أمي ، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياسًا على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقًا فأرخص اللّه لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقًا كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم ، هكذا قال غير واحد من السلف .

عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية : أنت علي كظهر أمي حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكان تحته ابنة عم له يقال لها خويلة بنت ثعلبة ، فظاهر منها فأسقط في يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حرمت علي ، وقالت له مثل ذلك ، قال : فانطلقي إلى رسول اللّه ﷺ ، فأتت رسول اللّه ﷺ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فقال : « يا خويلة ما أمرنا في أمرك بشيء » فأنزل اللّه على رسول اللّه ﷺ فقال : « يا خويلة أبشري » قالت : خيرا - فقرأ عليها ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ إلى قوله ﴿ وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ قالت : وأي رقبة لنا ؟ واللّه ما يجد رقبة غيري ، قال : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ قالت : واللّه لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره قال : ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ قالت : من أين ؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها ، قال : فدعا بشطر وسق ثلاثين صاعًا ، والوسق ستون صاعا فقال : « ليطعم ستين مسكينًا وليراجعك » [(٢)] .

وقال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية ، فوقت اللّه الإيلاء أربعة أشهر وجعل في الظهار الكفارة ، وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله منكم فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ولا تدخل في هذا الخطاب .

وقوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا الَّٰٓئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أي لا تصير المرأة بقول الرجل أنت علي كأمي أو مثل أمي أو كظهر أمي وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك إنما أمه التي ولدته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أي كلامًا فاحشًا باطلًا ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي عما كان منكم في حال الجاهلية ، وهكذا أيضًا عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم ، كما روي أن رسول اللّه ﷺ سمع رجلًا يقول لامرأته يا أختي ، فقال : « أختك هي ؟ » [(٣)] فهذا إنكار ، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك ؛ لأنه لم يقصده ولو قصده

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤١٠) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٧/٣٨٣) وذكره الطبري في تفسيره ٢٨/٥ .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢١٠) .

لحرمت عليه ؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل وهو اختيار ابن حزم وقول داود حكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء وفرقة من أهل الكلام ، وقال الشافعي : هو أن يمسكها بعد المظاهرة زمانًا يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق ، وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة ، وقد حكي عن مالك أنه العزم على الجماع أو الإمساك عنه ، وعنه أنه الجماع ، وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريمًا لا يرفعه إلا الكفارة ، وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد . وعن سعيد بن جبير : يعني يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم .

وقال الحسن البصري : يعني الغشيان في الفرج وكان لا يرى بأسًا أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر ، وقال ابن عباس : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ والمس النكاح ، وقال الزهري : ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر . وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رجلًا قال : يا رسول الله ، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على ذلك يرحمك الله» . قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر ، قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله ﷻ » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فههنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق ههنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب وهو عتق الرقبة ، واعتضد في ذلك بما روي عن معاوية ابن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « أعتقها فإنها مؤمنة» [٢] .

وعن ابن عباس ، قال : أتى رسول الله ﷺ رجل فقال : إني ظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال رسول الله ﷺ : « ألم يقل الله تعالى : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ ؟ » قال : أعجبتني ، قال : « أمسك حتى تُكفِّرَ » [٣] وفيه من الفقه أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أي تزجرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي خبير بما يصلحكم عليم بأحوالكم ، وقوله تعالى ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي شرعنا هذا لهذا . وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١١٩٩) والنسائي في السنن (٦/١٦٧) والطبراني في الكبير (١١/٢٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٤/٣٨٨) والبيهقي في السنن (٧/٣٨٨) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٢٠٤) بنحوه والزيلعي في نصب الراية (٣/٢٤٦) والسيوطي في الدر المنثور (٦/١٨٣) .

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي محارمه فلا تنتهكوها . وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة ، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ليس الأمر كما زعموا بل لهم عذاب أليم أي في الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى عمن شاقوا اللّه ورسوله وعاندوا شرعه ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي أهينوا ولعنوا وأخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي واضحات لايعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع اللّه والانقياد له والخضوع لديه .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ وذلك يوم القيامة يجمع اللّه الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أي ضبطه اللّه وحفظه عليهم وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي لا يغيب عنه شيء ولا يخفى ولا ينسى شيئًا ، ثم قال تعالى مخبرًا عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأينما كانوا فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ ﴾ أي من سر ثلاثة ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ أي مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضًا مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم اللّه به وسمعه له ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضًا مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم ؛ فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء ، ثم قال تعالى ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

عن مجاهد ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ قال : اليهود ، وكذا قال مقاتل بن حيان وزاد : كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة ، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن ، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم ، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل اللّه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم ﴿ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ وهو مايتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرون عليها ويتواصون بها وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ عن عائشة قالت : دخل على رسول اللّه ﷺ يهودُ فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة : وعليكم السام قالت : فقال رسول اللّه ﷺ : « يا عائشة إن اللّه لا يحب الفحش ولا التفحش » قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أو سمعت ما أقول وعليكم ؟ » (١) فأنزل اللّه تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ ﴾ أي يفعلون هذا ويقولون مايحرفون من الكلام وإيهام السلام وإنما هو شتم في الباطن ، ومع هذا يقولون في أنفسهم لو كان هذا نبيًا لعذبنا اللّه بما نقول له في الباطن لأن اللّه يعلم ما نسره ، فلوكان هذا نبيًا حقًا لأوشك أن يعاجلنا اللّه بالعقوبة في الدنيا . فقال اللّه تعالى : ﴿ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ ﴾ أي جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ ، ثم قال اللّه تعالى مؤدبا عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي : كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيكم بها ، وعن صفوان بن محرز قال : كنت آخذًا بيد ابن عمر ؛ إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول اللّه ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن اللّه يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة اللّه على الظالمين » (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أي إنما النجوى وهي المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءًا ﴿ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي ليسوءهم وليس ذلك بضارهم شيئًا إلا بإذن اللّه ، ومن أحس من ذلك شيئا فليستعذ باللّه وليتوكل على اللّه فإنه لا يضره شيء بإذن اللّه . وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن ، عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه » (٣) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٤/٦) . (٢) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤١) وأحمد في مسنده (٧٤/٢) .
(٣) أخرجه مسلم في السلام (٣٧) والترمذي في السنن (٢٨٢٥) وأحمد في مسنده (١٨/٢) .

يقول تعالى مؤدبًا عباده المؤمنين وآمرًا لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ ﴾ وقرئ ﴿ فِى المجلس ﴾ (١) ﴿ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل كما جاء في الصحيح : « من بنى للّه مسجدًا بنى اللّه له بيتا في الجنة » (٢) وفي الحديث الآخر : « ومن يسر على معسر يسر اللّه عليه في الدنيا والآخرة واللّه في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه » (٣) ولهذا أشباه كثيرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ قال قتادة : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلًا ضنوا بمجالسهم عند رسول اللّه ﷺ فأمرهم اللّه تعالى أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الجمعة ، وكان رسول اللّه ﷺ يومئذ في الصفة وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول اللّه ﷺ فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة اللّه وبركاته ، فرد النبي ﷺ عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبي ﷺ مايحملهم على القيام فلم يفسح لهم ، فشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : « قم يا فلان وأنت يا فلان » فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم ، فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ واللّه ما رأيناه قبل عدل على هؤلاء إن قومًا أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه ، فبلغنا أن رسول اللّه ﷺ قال : « رحم اللّه رجلًا يفسح لأخيه » فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا فيفسح القوم لإخوانهم ونزلت هذه الآية يوم الجمعة (٤) . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا يقم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن افسحوا يفسح اللّه لكم » (٥) .

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذ جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجًا بحديث : « قوموا إلى سيدكم » (٦) ومنهم من منع من ذلك محتجًا بحديث : « من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار » (٧) ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكمًا في بني قريظة فرآه مقبلا قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه واللّه أعلم . فأما اتخاذه ديدنًا فإنه من شعار العجم ، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أجل إليهم من رسول اللّه ﷺ وكان إذا جاء لايقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك .

---

(١) قرأ عاصم ﴿ ٱلْمَجَٰلِسِ ﴾ بالألف جمعًا ، والباقون بغير ألف إفرادًا . (انظر تقريب النشر ص : ١٧٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٥٠) ومسلم في المساجد (٢٤) وأحمد في مسنده (٦١/١) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٨) وأحمد في مسنده (٩٢/٢) .

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور (٢٦٠/٣) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٦٢٣/٢) .

(٦) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٢١) ومسلم في الجهاد (٦٤) والترمذي في السنن (٨٥٦) .

(٧) أخرجه أبو داود في السنن (٥٢٢٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٣١/٣) .

وفي الحديث المروي في السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، فكان الصحابة ﷺ يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق ﷺ يجلسه عن يمينه وعمر عن يساره ، وبين يديه غالبًا عثمان وعلي لأنهما كانا ممن يكتب الوحي ، وكان يأمرهما بذلك ، وعن أبي مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليليني منكم أولو الأحلام والنُّهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافا (١) . وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء منهم والعلماء فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة .

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فرجات للشياطين ، ومن وصل صفًّا وصله الله ، ومن قطع صفًّا قطعه الله » (٢) ولهذا كان أبي بن كعب سيد القراء إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلًا يكون من أفناد الناس ، ويدخل هو في الصف المقدم ويحتج بهذا الحديث : « ليليني منكم أولو الأحلام والنُّهى » وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه عملًا بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذي أوردناه ، ولنقتصر على هذا المقدار من الأنموذج المتعلق بهذه الآية ، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع . وفي الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة في الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهبا فقال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخبر الثلاثة ؟ أما الأول فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه » (٣) .

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » (٤) وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى : ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يعني في مجالس الحرب ..قالوا : ومعنى قوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ أي انهضوا للقتال . وقال قتادة ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ أي إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا ، وقال مقاتل : إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا إليها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجًا من عنده ، فربما يشق ذلك عليه ، عليه الصلاة والسلام وقد تكون له الحاجة ، فأمروا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا .

وقوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصًا في حقه بل هو رفعة ورتبة عند الله ، والله تعالى لا يضيع ذلك له ، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٥٤٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٦٦٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١٩/١) .
(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٧٤) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٣/٢) .

أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه ، وعن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى - رجل من موالينا - فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض قاض ، فقال عمر ﷺ : أما إن نبيكم ﷺ قد قال « إن الله يرفع بهذا الكتاب قومًا ويضع به آخرين » (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ أي يساره فيما بينه وبينه أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ أي إلا من عجز عن ذلك لفقره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها . ثم قال تعالى : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ أي أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم ، وقد قيل : إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب ﷺ . قال علي ﷺ : آية في كتاب الله ﷻ لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم ، فكنت إذا ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم ، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ الآية . وعن علي ﷺ قال : قال النبي ﷺ : « ما ترى ، دينار ؟ » قال : لايطيقون . قال : « نصف دينار » قال : لا يطيقون . قال « ما ترى ؟ » قال : شعيرة . فقال له النبي ﷺ : « إنك لزهيد » قال : فنزلت ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ قال علي : فبي خفف الله عن هذه الأمة (٢) . عن ابن عباس قوله : ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه عليه الصلاة والسلام ، فلما قال ذلك جبن كثير من المسلمين وكفوا عن المسألة ، فأنزل الله بعد هذا ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٠٠) .

يقول الله تعالى منكرًا على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن ، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ يعني اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن ثم قال تعالى : ﴿ مَا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود ، ثم قال تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني المنافقين يحلفون على الكذب ، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهي اليمين الغموس ، ولاسيما في مثل حالهم اللعين عياذًا بالله منه ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا جاءوا الرسول حلفوا له بالله إنهم مؤمنون ، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه وإن كان في نفس الأمر مطابقًا ، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهي موالاة الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين ، وغشهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة ، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة ، ثم قال تعالى : ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لن يدفع ذلك عنهم بأسا إذا جاءهم ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أي يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحدًا ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي يحلفون بالله ﷻ أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا ؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ولهذا قال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي حلفهم بذلك لربهم ﷻ .

ثم قال تعالى منكرا عليهم حسبانهم ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب . وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه فقال « علام تشتمني أنت وفلان وفلان » نفر دعاهم بأسمائهم ، قال : فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه ، قال : فأنزل الله ﷻ ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (١) .

وحال هؤلاء كما أخبر الله تعالى عن المشركين حيث يقول ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۞ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أي استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ﷻ ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ، ولهذا قال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ؛ فإنما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/١) والحاكم في المستدرك (٤٨٢/٢) .

يأكل الذئب القاصية »[1] قال زائدة : قال السائب : يعني الصلاة في الجماعة . ثم قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ثم قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله ، يعني الذين هم في حد والشرع في حد ، أي مجانبون للحق مشاقون له هم في ناحية والهدى في ناحية ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ أي في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين في الدنيا والآخرة . ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل ، بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه ، وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين . قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ، ولهذا قال عمر بن الخطاب ﷺ حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة ﷺ : ولو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته . وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ في الصديق . همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ في عمر قتل قريبًا له يومئذ أيضًا ، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ .

قلت : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يفادوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم ، وقال عمر : لا أرى ما رأى ، يارسول الله هل تمكنني من فلان قريب لعمر فأقتله ، وتمكن عليا من عقيل وتمكن فلانًا من فلان ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادة للمشركين . . القصة بكمالها . وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ أي من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان أي كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته . قال السدي : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ جعل في قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ أي قواهم .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٥٤٧) والنسائي في السنن (١٠٦/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة ، وفي قوله تعالى : ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ﴾ سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم . وقوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي هؤلاء حزب الله أي عباد الله وأهل كرامته . وقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان ثم قال : ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

وعن الذيال بن عباد قال : كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهري : اعلم أن الجاه جاهان : جاه يجريه الله تعالى على أيدي أوليائه لأوليائه ، وأنهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ﷺ : « إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يدعوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة »(١) فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٩٨٩) والحاكم في المستدرك (٤/١) .

سورة الحشر

عن سعيد بن جبير : قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ، قال : سورة بني النضير [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات والأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلي له ويوحده . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي منيع الجناب ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ أي قدره وشرعه . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني يهود بني النضير . قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد . كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدًا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له ، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد ، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئًا وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم ، وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام ، وهي أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر ، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم .

عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أُبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل رجعة بدر : إنكم أدنيتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لنقاتلنه ، أو لنخرجنكم ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان أجمعوا لقتال النبي ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم ، يريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى الجهود : إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٣) .

وبين خدم نسائكم شيء وهو الخلاخيل ، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أيقنت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثين رجلًا من أصحابك ليخرج منا ثلاثون حبرًا حتى نلتقي بمكان النصف ، وليسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك .

فلما كان الغد غدا عليهم رسول اللّه ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم : « إنكم واللّه لا تؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه » فأبوا أن يعطوه عهدًا فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه ، فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بني النضير لرسول اللّه ﷺ خاصة أعطاه اللّه إياها وخصه بها فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ﴾ يقول : بغير قتال ، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين قسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار ، وكانا ذوي حاجة ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقي منها صدقة رسول اللّه ﷺ التي في أيدي بني فاطمة [1] . ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار وباللّه المستعان .

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول اللّه ﷺ وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري ، فلما كان في أثناء الطريق راجعًا إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر ، وكان معهما عهد من رسول اللّه ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول اللّه ﷺ فقال له رسول اللّه ﷺ : « لقد قتلت رجلين لأدينهما » وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد ، فخرج رسول اللّه ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين ، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

قال ابن إسحاق : ثم خرج رسول اللّه ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول اللّه ﷺ عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان ، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف ، فلما أتاهم رسول اللّه ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول اللّه ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال : أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ، ورسول اللّه ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ﷺ فأتى رسول اللّه ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعًا إلى المدينة .

فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلًا المدينة ، فأقبل أصحاب رسول اللّه ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول اللّه بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ، ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٠٠٤) .

منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها ، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعيبه على من يصنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ، وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، فقذف في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعلوا ، فاحتملوا عن أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبرومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة - سماك بن خرشة - ذكرا فقرًا فأعطاهما رسول الله ﷺ ، قال : ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان : يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش ، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني ؟ » فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلًا على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون . قال ابن إسحاق : ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها فقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ يعني بني النضير ﴿ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض المحشر ههنا يعني الشام - فليقرأ هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » وقوله تعالى : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقدرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال . وقوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ أي الخوف والهلع والجزع وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه . وقوله : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وتحملها على الإبل ، وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال ، وكان اليهود إذا علوا مكانًا أو غلبوا على درب أو دار ؛ نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم ؛ لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم .

عن عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم بناحية من المدينة فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن

لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهي السلاح ، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام ، قال : والجلاء أنه كتب عليهم في آي من التوراة وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله ﷺ وأنزل الله فيهم ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ - إلى قوله - وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ وقال عكرمة : الجلاء القتل ، وفي رواية عنه : الفناء ، وقال قتادة : الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد . وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيرًا وسقاء ، فهذا الجلاء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ أي حتم لازم لابد لهم منه . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ اللين نوع من التمر وهو جيد ، قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرني من التمر ، وقال كثيرون من المفسرين : اللينة ألوان التمر سوى العجوة . قال ابن جرير : هو جميع النخل . عن ابن عباس في قوله ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال : يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم ، فقال المسلمون : قطعنا بعضًا وتركنا بعضًا فلنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر ، وهل علينا فيما تركنا من وزر ، فأنزل الله ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ (١) وعن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرق (٢) . وعن ابن عمر ، قال : حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة ، فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ويهود بني حارثة وكل يهود بالمدينة (٣) . وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير ، وقطع ، وهي البويرة ، فأنزل الله ﷻ فيه ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (٤) . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع وهي البويرية ، ولها يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

وهان على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول :

أدام الله ذلك من صنيع ... وحرق في نواحيها السعير

ستعلم أينا منها بنزه ... وتعلم أي أرضينا نضير (٥)

وقد أورد ابن إسحاق رحمه الله أشعارًا كثيرة فيها آداب ومواعظ وحكم وتفاصيل للقصة ، قال أبو

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٢٨) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٤) والترمذي في السنن (٣٣٠٢) .
(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٣٢) .

إسحاق : كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة . وعن عروة أنه قال : كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر [(١)] .

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى مبينًا ما الفيء وما صفته وماحكمه ، فالفيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ؛ كأموال بني النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله ، ولهذا تصرف فيه كما يشاء ، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآيات فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ ﴾ ، أي من بني النضير ﴿ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يعني الإبل ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ أي هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء .

ثم قال تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ إلى آخرها والتي بعدها فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه . عن عمر ؓ قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ، وقال مرة : قوت سنته وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله ﷻ [(٢)] . وعن مالك بن أوس قال : أرسل إلي عمر بن الخطاب ؓ حين تعالى النّهار فجئته فوجدته جالسًا على سرير مفضيًا إلى رماله فقال حين دخلت عليه : يا مالك إنه قد دف أهل أبيات من قومك ، وقد أمرت فيهم بشيء فاقسم فيهم ، قلت : لو أمرت غيري بذلك ، فقال : خذه ، فجاءه يرفأ ، فقال : يا أمير المؤمنين هل لك في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ؟ قال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفأ فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في العباس وعلي ؟ قال : نعم ، فأذن لهما فدخلا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا يعني عليًا ، فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرحهما ، قال مالك بن أوس : خيل إلي أنهما قدما أولئك النفر لذلك ، فقال عمر ؓ : اتئد ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » قالوا : نعم . ثم أقبل على علي والعباس فقال : أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة ؟ » فقالا : نعم . فقال : إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحدًا من الناس فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (باب حديث بني النضير) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/١) .

﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة ، ويجعل مابقي أسوة المال . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم .

ثم أقبل على علي والعباس فقال : أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان ذلك ، قالا : نعم . فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر : أنا ولي رسول الله ﷺ ، فجئت أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها ، فقال أبو بكر ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ما تركنا صدقة » والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق فوليها أبو بكر ، فلما توفي قلت : أنا ولي رسول الله وولي أبي بكر فوليتها ما شاء الله أن أليها ، فجئت أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتمانيها ، فقلت : « إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تلياها بالذي كان رسول الله له يليها ، فأخذتماها مني على ذلك ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك والله لا أقضي بينكما بغير ذلك ، حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها فرداها إلي (١) .

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : إن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات أو كما شاء الله حتى فتحت عليه قريظة والنضير ، قال فجعل يرد بعد ذلك ، قال : وإن أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله الذي كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن أو كما شاء الله قال : فسألت النبي ﷺ فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وجعلت تقول : كلا والله الذي لا إله إلا هو لا يعطيكهن وقد أعطانيهن ، أو كما قالت فقال نبي الله : « لك كذا وكذا » قال وتقول كلا والله قال ويقول : « لك كذا وكذا » قال : وتقول : كلا والله ، قال : « ويقول لك كذا وكذا » قال : حتى أعطاها - حسبت أنه قال : عشرة أمثاله أو قال قريبًا من عشرة أمثاله ، أو كما قال (٢) . وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية هي المصارف المذكورة في خمس الغنيمة .

وقوله تعالى : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئًا إلى الفقراء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شرٍّ . عن عبد الله هو ابن مسعود قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ﷻ ، قال : فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها : أم يعقوب ، فجاءت إليه فقالت : بلغني أنك قلت كيت وكيت ، قال : ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى ، فقالت إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته ، فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ قالت : بلى . قال : فإن رسول الله ﷺ نهى عنه . قالت : إني لأظن أهلك

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠/١) والبخاري في الاعتصام (٧٣٠٥) وأبو داود في السنن (٢٩٦٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٩/٣) .

يفعلونه ، قال : اذهبي فانظري فذهبت فلم تر من حاجتها شيئًا ، فجاءت فقالت : ما رأيت شيئًا ، قال : لو كان كذا لما تجامعنا [١] . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » [٢] وعن عمر وابن عباس أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت ، ثم تلا رسول الله ﷺ و﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه وارتكب ماعنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مبينًا حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين . ثم قال تعالى مادحًا للأنصار ومبينًا فضلهم وشرفهم وكرمهم ، وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . قال عمر : وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم [٣] .

قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلًا في كثير ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا في المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : « لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم » [٤] . وعن أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين . قالوا : لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثله ، قال : « إما لا فاصبروا حتى تلقوني ؛ فإنه سيصيبكم أثرة » [٥] .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة . قال الحسن البصري : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعني الحسد ﴿ مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ قال قتادة : يعني فيما أعطي إخوانهم ومما يستدل به

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٤٣) ومسلم في اللباس (١٢٠) وأحمد في مسنده (١/٤٣٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨) ومسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٢/٥٠٨) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٨) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٠٠) .
(٥) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٤) .

على هذا المعنى ما رواه أنس قال : كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضًا ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إني لا حيت أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثًا ، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال « نعم » .

قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا ، فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ثلاث مرات « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت الثلاث المرات ، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به ، فلم أرك تعمل كبيرعمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق (١)

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا ﴾ يعني مما أوتي المهاجرون ، قال : وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » فقالوا : أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » فقالوا : نعم يا رسول الله (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يعني حاجة أي يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل » (٣) وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ ، وقوله ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ماتصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ، ومن هذا المقام تصدق الصديق ﷺ بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » فقال ﷺ : أبقيت لهم الله ورسوله (٤) ، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦/٣) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٥٤/٢٨) .
(٣) ذكره الألباني في إرواء الغليل (٤١٤/٣) والصحيحة (٥٦٦) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٣٦٧٥) وأبو داود في السنن (١٦٧٨) والحاكم في المستدرك (٤١٤/١) .

حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ﷺ وأرضاهم .

وعن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا ، فقال النبي ﷺ : « ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ؟ » فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا ، فقالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية . قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال : « لقد عجب الله عز وجل - أو ضحك - من فلان وفلانة » وأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [(١)] وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح . فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم ؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » [(٢)] .

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدًا ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا » [(٣)] وعن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت ، فقال له عبد الله : وما ذاك ، قال : سمعت الله يقول ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئًا ، فقال عبد الله : ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن ، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلمًا ، ولكن ذاك البخل ، وبئس الشيء البخل .

وعن أبي الهياج الأسدي قال : كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلًا يقول : اللّهم قني شح نفسي . لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل ، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة الداعون لهم في السر والعلانية ، ولهذا قال تعالى : في هذه الآية الكريمة ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أي قائلين ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أي بغضا وحسدًا ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب ، لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٩) ومسلم في الأشربة (١٧٣) والحاكم في المستدرك (١٣٠/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/٣) والحاكم في المستدرك (١١/١) والألباني في الصحيحة (٢٣٩/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٣٣) والنسائي في السنن (١٣/٦) وابن ماجه في السنن (٢٧٧٤) والحاكم في المستدرك (٧٢/٢) .

وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ .

وعن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ فسببتموهم سمعت نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » [(١)] قال عمر ﷺ : هذه لرسول الله ﷺ خاصة وقرى عرينة وكذا وكذا مما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل - وللفقراء المهاجرين الذي أخرجوا من ديارهم وأموالهم - والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم - والذين جاءوا من بعدهم ، فاستوعبت هذه الآية الناس فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق . إلا بعض من تملكون من أرقائكم [(٢)] . وعن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ - حتى بلغ - عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ الآية . ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ - حتى بلغ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ - ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا وله فيها حق ، ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه [(٣)] .

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولا ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ ﴾ أي لا يقاتلون معهم ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ ﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها ، ثم قال تعالى : ﴿ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله كقوله تعالى : ﴿ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ ﴾ ولهذا

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٨٣/٢) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢٥/١٥) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١٣٧/٧) .

(٣) أورده الطبراني في تفسيره (٤٨/٢٨) والسيوطي في الدر المنثور (١٠٢/٧) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وغيرهم .

قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾ يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال تعالى : ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أي : عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أي : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف . قال إبراهيم النخعي : يعني أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قيل : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر .

وقال ابن عباس : كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع . وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا . وقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين وقول المنافقين لهم : لئن قوتلتم لننصرنكم ، ثم لما حقت الحقائق وجدَّ بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سوَّل للإنسان – والعياذ بالله – الكفر فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه وتنصل وقال : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . وقد ذكر بعضهم ههنا قصة لبعض عبَّاد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل لا أنها المرادة وحدها بالمثل بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها ، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة إخوة وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب قال : فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مصدَّق يسمع قولك ، فقتلها ثم دفنها . قال : فأتى الشيطان إخواتها في المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا بل قصها علينا قال : فقصها ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر : وأنا والله قد رأيت ذلك ؛ قالوا : فوالله ما هذا إلَّا لشيء ، قال : فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب ، فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به ، فلقيه الشيطان فقال : إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه ، قال فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منهم وأخذ فقتل (١) . وقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ﴾ أي فكان عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي جزاء كل ظالم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

---

(١) أورده الطبري في تفسيره (٦٤/٢٨) والسيوطي في الدر المنثور (١١٣/٧) وعزاه لابن أبي حاتم .

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال : « فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر ، فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة قال : فدخل ثم خرج فأمر بلالًا فأذَّن وأقام الصلاة فصلَّى ثم خطب فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ .. ﴾ إلى آخر الآية وقرأ الآية التي في الحشر ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ » حتى قال : « وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ » قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَنَّ في الإِسْلَامِ سُنة حَسَنَة ؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنة سَيِّئَة كَانَ عَلَيْه وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ تأكيد ثان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ . أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم . عن نعيم بن نمحة قال : كان في خطبة أبي بكر الصديق ﷺ : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله ﷻ فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلّا بالله ﷻ ، إن قومًا جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله ﷻ أن تكونوا أمثالهم ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ لا خير في قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم (٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٢/٤) ومسلم في الزكاة (٦٩) والطبراني في الكبير (٣٧٤/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠/١) .

مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وهناك آيات أخر دالات على أن الله تعالى يكرم الأبرار ويهين الفجار ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ أي الناجون المسلمون من عذاب الله ﷻ .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن ومبينًا علو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ . أي : فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبَّر ما فيه فيه لخشع وتصدَّع من خوف الله ﷻ ، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا ﴾ إلى آخرها يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبيّ ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حنَّ الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكن لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده . ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده : فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع .

وهكذا هذه الآية الكريمة : إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلَّا هو فلا رب غيره ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير حتى الذر في الظلمات . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ﴾ أي المالك لجميع الأشياء المتصرِّف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة . وقوله تعالى : ﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ : أي الطاهر ، وقيل : تقدِّسه الملائكة الكرام ﴿ ٱلسَّلَـٰمُ ﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ أي :أمن خلقه من أن يظلمهم . وقيل : أمن بقوله إنه حق . وقيل : صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به . وقوله تعالى : ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ أي الشاهد على خلقه بأعمالهم ،

بمعنى هو رقيب عليهم . وقوله تعالى : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الذي قد عزَّ كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ أي : الذي لا تليق الجبرية إلَّا له ولا التكبُّر إلَّا لعظمته كما تقدم في الصحيح : « العَظَمَةُ إِزَارِي وَالكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ » [(١)] . وقال قتادة : الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء . وقال ابن جرير : ﴿ ٱلْجَبَّارُ ﴾ المصلح أمور خلقه ، والمتصرِّف فيهم بما فيه صلاحهم . وقال قتادة : ﴿ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ يعني عن كل سوء . ثم قال تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ الخالق : القدير والبرء هو : الفري وهو التنفيذ وإبراز ما قدّره وقرّره إلى الوجود وليس كل من قدَّر شيئًا ورتبه على تنفيذه وإيجاده سوى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ أي الذي إذا أراد شيئًا قال له : كن فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار ، ولهذا قال : ﴿ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها وقوله تعالى : ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ للّٰه تَعَالَى تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ مِائَةٌ اسمًا إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ » [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي فلا يرام جنابه ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في شرعه وقدره . عن معقل بن يسار عن النبيِّ ﷺ قال : « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِاللَّه السَّمِيعِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ؛ وَكَّلَ اللَّه بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِي ، وَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ مَاتَ شَهِيدًا ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بِتِلْكَ المَنْزِلَةِ » [(٣)] .

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٩٠) وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤) وأحمد في مسنده (٣٧٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في السنن (٣٥٠٦) وأحمد في مسنده (٢٥٨/٢) والحاكم في المستدرك (١٦/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/٥) والترمذي في السنن (٢٩٢٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٧/١) .

سورة الممتحنة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ۝ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ .

كان سبب نزول من هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة فعن عبيد اللّه بن أبي رافع أنه سمع عليًا ﷺ يقول : بعثني رسول اللّه ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : « انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينة مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذوهُ مِنْهَا » ، فانطلقنا تعادى بنا خلينا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجي الكتاب ، قالت : ما معي كتاب ، قلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول اللّه ﷺ ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول اللّه ﷺ . فقال رسول اللّه ﷺ : « يَا حَاطِبُ مَا هذَا ؟ » . قال : لا تعجل عليَّ إني كنت امرأ ملصقًا في قريش ولم أكن من أنفسهم . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول اللّه ﷺ : « إِنَّهُ صَدَقَكُمْ » . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول اللّه ﷺ : « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللّه اطَّلَعَ إلى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »(١) . فأنزل اللّه السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ .

وقد ذكر ذلك أصحاب المغازي والسير فقال محمّد بن إسحاق بن يسار فيما يرويه عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول اللّه ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول اللّه ﷺ من الأمر في السير إليهم ثم أعطاه امرأة ، زعم محمّد بن جعفر أنها من مزينة ، وزعم غيره أنها سارة مولاة لبني عبد المطلب ، وجعل لها جعلًا على أن تبلغه لقريش فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به ، وأتى رسول اللّه ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام فقال : « أَدْرِكَا امْرَأَة قَدْ كَتَبَ مَعَهَا حَاطِبٌ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يُحَذِّرُهُمْ مَا قَدْ أَجْمَعْنَا لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ » فخرجا حتى أدركاها بالحليفة حليفة بني أبي أحمد فاستنزلاها بالحليفة فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئًا ، فقال لها علي بن أبي طالب : إني أحلف باللّه ما كذب رسول اللّه وما كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ، فلما رأت الجد منه قالت : أعرض ، فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٠) ومسلم في الفضائل (١٦١) وأحمد في مسنده (٧٩/١) والترمذي في السنن (٣٣٠٥) وروضة خاخ : موضع بين الحرمين بقرب صحراء الأسد من المدينة (انظر معجم البلدان) والعقاص : خيط تشد به المرأة أطراف ذوائبها .

به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا فقال : « يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى هذَا ؟ » . فقال : يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله ﷺ : « وَمَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ ؟! لَعَلَّ اللَّه قَد اطَّلَعَ إِلَى أَصْحَابِ بَدْرٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » . فأنزل الله ﷻ في حاطب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ إلى آخر القصة (١) .

وعن حذيفة يقول : ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالًا واحدًا وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر قال : فضرب لنا منها مثلًا وترك سائرها قال : « إِنَّ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَسْكَنَةٍ قَاتَلَهُمْ أَهْلُ تَجَبُّرٍ وَعِدَاءٍ ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ ، فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَّطُوهُمْ فَأَسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم ؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أي : لم يكن لكم عندهم ذنب إلَّا إيمانكم بالله رب العالمين . وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ﴾ أي : إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقًا عليكم وسخطًا لدينكم . وقوله تعالى : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ أي :تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر . ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ أي : لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : ويحرصون على أن لا تنالوا خيرًا فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضًا . وقوله تعالى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءًا ونفعهم لا يصل إليكم إذا ارضيتموهم بما يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ولو كان قريبًا إلى نبي من الأنبياء . عن أنس أن رجلًا قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال : « فِي النَّارِ » . فلما قفى دعاه فقال : « إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ » (٣) .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/٤٠ - ٤١) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٠٧) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٧) وأحمد في مسنده (٣/١٧٧) وابن ماجه في السنن (١٥٧٣) والبيهقي في السنن (٧/١٩٠) .

ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ أي : وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ ﴾ أي تبرأنا منكم ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي بدينكم وطريقكم ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم ، فنحن أبدًا نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ أي : إلى أن توحدوا اللَّه فتعبدوه وحده لا شريك له تخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ أي : لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلّا في استغفار إبراهيم لأبيه ؛ فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو للّه تبرأ منه ، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل اللَّه ﷻ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ . وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ ﴾ أي ليس لكم في ذلك أسوة أي في الاستغفار للمشركين .

ثم قال تعالى مخبرًا عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرأوا منهم ، فلجأوا إلى اللَّه وتضرعوا إليه : فقالوا ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي : توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي المعاد في الدار الآخرة ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ قال مجاهد : معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ، وقال قتادة : لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك ؛ يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . واختاره ابن جرير ، وقال ابن عبّاس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وقوله تعالى : ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي : واستر ذنوبنا عن غيرك واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الذي لا يضام من لاذ بجنابك ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك . ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَۚ ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضًا ؛ لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا هي الأولى بعينها ، وقوله تعالى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَۚ ﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن باللّه والمعاد . وقوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي : عما أمر اللَّه به ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ عن ابن عبّاس : ﴿ ٱلْغَنِيُّ ﴾ الذي قد كمل في غناه وهو اللَّه هذه صفته لا تنبغي إلّا له ، ليس له كفؤ وليس كمثله شيء ، سبحانه اللَّه الواحد القهار ، و ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴾ المستحمد إلى خلقه أي هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ

لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ ﴾ أي محبة بعد البغضة ومودة بعد النفرة وألفة بعد الفرقة ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ ﴾ أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة فتصبح مجتمعة متفقة ، كما قال تعالى ممتنًا على الأنصار : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ ﴾ الآية . وكذا قال لهم النبيُّ ﷺ : « أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي ؟ » [١] . وفي الحديث : « أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عسى أن يَكونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا ، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا » [٢] . وقال الشاعر :

وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّه الشَّتِيتَيْنِ بَعْدَمَا ... يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أي ذنب كان .

قال مقاتل بن حيان : إن هذه الآية نزلت في أبي سفيان صخر بن حرب ، فإن رسول اللَّه ﷺ تزوج ابنته فكانت هذه مودة ما بينه وبينه ، وفي هذا الذي قاله مقاتل نظر ؛ فإن رسول اللَّه ﷺ تزوج بأم حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف ، وأحسن من هذا ما رواه ابن شهاب أن رسول اللَّه ﷺ استعمل أبا سفيان صخر بن حرب على بعض اليمن فلما قبض رسول اللَّه ﷺ أقبل فلقي ذا الخمار مرتدًا فقاتله ؛ فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين ، قال ابن شهاب : وهو ممن أنزل اللَّه فيه : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ ولم يظاهروا أي : يعانوا على إخراجكم أي : لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ أي : تحسنوا إليهم ﴿ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ ﴾ أي تعدلوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ . عن أسماء بنت أبي بكر ﵄ قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبيَّ ﷺ فقلت : يا رسول اللَّه إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : « نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ » [٣] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ وقد ورد في الحديث الصحيح : « الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عن يَمِينِ الْعَرْشِ ؛ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ وَمَا وُلُّوا » [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ ﴾ أي : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم ينهاكم اللَّه ﷿ عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم . ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال :

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٩٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٤٧) والبخاري في الهبة (٢٦٢٠) ومسلم في الزكاة (٥٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٠٣) والحاكم في المستدرك (٤/٨٨) والبيهقي في السنن (١٠/٨٧) .

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ .

تقدم في سورة الفتح ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش ، فكان فيه : على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلَّا رددته إلينا ، وفي رواية : على أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلَّا رددته إلينا . فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصِّصة للسنة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك وعلى طريقة بعض السلف ناسخة ، فإن اللَّه ﷻ أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهنَّ . وعن عبد اللَّه بن أبي أحمد قال : هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهجرة فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول اللَّه فكلماه فيها أن يردها إليهما فنقض اللَّه العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين وأنزل اللَّه آية الامتحان (١) . وعن أبي نصر الأسدي قال : سئل ابن عبَّاس كيف كان امتحان رسول اللَّه ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحنهن باللَّه ما خرجت من بغض زوج ، وباللَّه ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وباللَّه ما خرجت التماس دنيا ، وباللَّه ما خرجت إلَّا حبًا للَّه ولرسوله . ثم رواه من وجه آخر عن الأغر بن الصباح به . وكذا رواه البزار من طريقه وذكر فيه أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول اللَّه ﷺ له عمر بن الخطاب (٢) .

وقال ابن عباس : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلَّا اللَّه وأن محمَّدًا عبد اللَّه ورسوله ، وقال مجاهد : ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاسألوهن عما جاء بهن فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطة أو غيره ولم يؤمنَّ فأرجعوهنَّ إلى أزواجهنَّ ، وقال عكرمة : يقال لها : ما جاء بك إلَّا حب اللَّه ورسوله ، وما جاء بك عشق رجل منا ولا فرار من زوجك ، فذلك قوله ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ وقال قتادة : كانت محنتهن أن يستحلفن باللَّه ما أخرجكن النشوز وما أخرجكن إلَّا حب الإسلام وأهله وحرص عليه ، فإذا قلن ذلك قبل منهن . وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقينًا . وقوله تعالى : ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين وقد كان جائزًا في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ، ولهذا كان أمر أبي العاص بن الربيع زوج ابنة النبيّ ﷺ زينب رضي الله عنها وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، فلما رآها رسول اللَّه ﷺ رقَّ لها رقة شديدة ، وقال للمسلمين : « إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا فَافْعَلُوا » (٣) ففعلوا ، فأطلقه رسول اللَّه ﷺ على أن يبعث ابنته إليه فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده وبعثها إلى

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢/٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٣/٧) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٨٥/٢٨ ، ٨٦) والسيوطي في الدر المنثور (١٣٧/٧) وعزاه إلى البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦١/١) وابن ماجه في السنن (٦٤٧/١) .

رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ﷺ فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردها إليه بالنكاح الأول ولم يحدث لها صداقًا . ومنهم من يقول بعد سنتين وهو صحيح ؛ لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين .

وأجاب الجمهور عن حديث ابن عبَّاس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه ؛ لأن الذي عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه . وقال آخرون : بل إذا انقضت العدة هي بالخيار إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت ، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت ، وحملوا عليه حديث ابن عبَّاس والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾ يعني أزواج المهاجرات من المشركين ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ ﴾ يعني إذا أعطيتموهن أصدقتهن فأنكحوهن أي تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ ﴾ تحريم من الله ﷻ على عباده المؤمنين نكاح المشركات والاستمرار معهن .

عن المسور ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء من المؤمنات فأنزل الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ ﴾ فطلق عمر بن الخطّاب يومئذ امرأتين تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية [1] . وعن الزهري : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم فلما جاء النساء نزلت هذه الآية وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن وحكم على المشركين مثل ذلك ؛ إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى أزواجهن وقال : ﴿ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ ﴾ . قال الزهري : طلق عمر يومئذ قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية ، وأم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية وهي أم عبد الله فتزوجها أبو جهم ابن حذيفة بن غانم رجل من قومه وهما على شركهما ، وطلّق طلحة بن عبد الله أروى بنت ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب فتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص . .

وقوله تعالى : ﴿ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ﴾ أي وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن ، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ ﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه ، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ أي عليم بما يصلح عباده حكيم في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ ﴾ قال مجاهد وقتادة : هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئًا ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها . وقال الزهري : أقر المؤمنون بحكم الله فأدّوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم وأبى المشركون أن يقرّوا بحكم الله فيما فرض عليه من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله تعالى للمؤمنين به : ﴿ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ

(١) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١) وأحمد في مسنده (٤/٢٣١) .

أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمنَّ وهاجرن ، ثم ردوا إلى المشركين فضلًا إن كان بقي لهم ، والعقب ما كان بقي من صداق نساء الكفار حين آمنَّ وهاجرن . ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ ﴾ يعني مهر مثلها . وهذا لا ينافي الأول ؛ لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى وإلَّا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار ، وهذا أوسع ، وهو اختيار ابن جرير ولله الحمد والمنة .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

عن عائشة زوج النبيِّ ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمتحنِ من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : « قَدْ بَايَعْتُكِ » كلامًا ، ولا والله ما مسَّت يده يد امرأة في المبايعة قط ، ما يبايعهن إلَّا بقوله : « قَدْ بَايَعْتُكِ عَلَى ذلِكَ » [١] . وعن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئًا الآية وقال : « فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ » . قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : « إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ » [٢] .

وعن سلمى بنت قيس - وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ وقد صلت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار - قالت : جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، قال : « وَلَا تَغْشُشْنَ أَزْوَاجَكُنَّ » ، قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن : ارجعي فسلي رسول الله ﷺ : ما غش أزواجنا ؟ قال : فسألته فقال : « تَأْخُذُ مَالَهُ فَتُحَابِي بِهِ غَيْرَهُ » [٣] .

وعن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة : أم سليم وأم العلاء وابنة أبي سبرة امرأة معاذ وامرأتان أو ابنة أبي سبرة وامرأة معاذ وامرأة أخرى[٤] . وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد . وعن ابن عبَّاس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد ، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍۙ ﴾ حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ : « أَنْتُنَّ عَلَى ذَلِكَ ؟ » . فقالت امرأة واحدة ولم يجبه غيرها : نعم يا رسول

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٩/٦) .
(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٦) .

الله - لا يدري حسن من هي - قال : فَتَصَدَّقْنَ قال : وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال [١] . وعن عبادة بن الصامت قال : كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال : « تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ - قرأ الآية التي أخذت على النساء ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ » [٢] .

وعن عائشة قالت : جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتبايعه فنظر إلى يدها فقال : « اذْهَبِي فَغَيِّرِي يَدَكِ » فذهبت فغيرتها بحناء ثم جاءت فقال : « أُبَايِعُكِ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكِي بِاللَّهِ شَيْئًا » فبايعته وفي يدها سواران من ذهب فقالت : ما تقول في هذين السوارين ؟ فقال : « جَمْرَتَانِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » [٣] .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ أي من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها على أن لا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصرًا في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ما جرت به عادة أمثالها وإن كان من غير علمه عملًا بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ﷺ إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيَّ ، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكِ وَيَكْفِي بَنِيكِ » [٤] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول الله ﷺ فأخذ عليها ﴿ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ الآية قال : فوضعت يدها على رأسها حياء فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقري أيتها المرأة فوالله ما بايعنا إلَّا على هذا ، قالت : فنعم إذًا ، فبايعها بالآية [٥] . وعن عامر الشعبي قال : بايع رسول الله ﷺ النساء وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » . فقالت امرأة : تقتل آباءهم وتوصي بأولادهم ؟ قال : وكان بعد ذلك إذا جاءت النساء يبايعنه جمعهن فعرض عليهن فإذا أقررن رجعن ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويعم قتله وهو جنين كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ قال ابن عبَّاس : يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ، وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلَتْ عَلَى قَوْمٍ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ، وَلَنْ يُدْخِلَهَا اللَّهُ الْجَنَّةَ ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَحَدَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ احْتَجَبَ اللَّهُ مِنْهُ وَفَضَحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ » [٦] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ يعني فيما أمرتهن به من معروف ونهيتهن عنه من منكر . عن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٤) ومسلم في الحدود (٤١) والترمذي في السنن (١٤٣٩) وأحمد في مسنده (٣١٤/٥) .

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧/٦) وأبو يعلى في مسنده (٤٧٥٤) .

(٤) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٧٠) ومسلم في الأقضية (٧) والنسائي في السنن (٢٤٧/٨) والدارمي في السنن (١٥٩/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٦) . (٦) أخرجه الدارمي في السنن (١٥٣/٢) .

ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه اللّه للنساء [١] . وقال ميمون بن مهران : لم يجعل اللّه طاعة لنبيه إلّا في المعروف والمعروف طاعة ، وقال ابن زيد : أمر اللّه بطاعة رسوله وهو خيرة اللّه من خلقه في المعروف . وعن ابن عبّاس وأنس بن مالك وسالم بن أبي الجعد وأبي صالح وغير واحد نهاهن يومئذ عن النوح . وعن أم عطية قالت : لما قدم رسول اللّه ﷺ جمع نساء الأنصار في بيت ، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب ﷺ فقام على الباب وسلّم علينا فرددن أو فرددنا عليه السلام ثم قال : أنا رسول رسول اللّه ﷺ إليكن ، فقالت : فقلنا : مرحبًا برسول اللّه وبرسول رسول اللّه ، فقال : تبايعن على أن لا تشركن باللّه شيئًا ولا تسرقن ولا تزنين ، قالت : فقلنا : نعم ، قالت : فمد يده من خارج الباب أو البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال : اللهم اشهد ، قالت : وأمرنا في العيدين أن نخرج فيه الحيض والعواتق ولا جمعة علينا ، ونهانا عن اتباع الجنائز ، قال إسماعيل : فسألت جدتي عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قالت : النياحة .

عن عبد اللّه بن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ » [٢] . وعن أبي موسى أن رسول اللّه ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشاقة [٣] . وعنه ﷺ قال : « أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ : الفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ » وقال : « النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » [٤] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ .

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني اليهود والنصارى ، وسائر الكفّار ممن غضب اللّه عليه ولعنه واستحق من اللّه الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يئسوا من الآخرة ، أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم اللّه ﷻ . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ فيه قولان أحدهما : كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه . قال ابن عبّاس : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر السورة يعني من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم اللّه ﷻ ، وقال الحسن البصري : ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ قال : الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات ، وقال قتادة : كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا ، وكذا قال الضحاك رواهن ابن جرير . والقول الثاني : معناه كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير . وعن ابن مسعود قال : كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٣) .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥١٩) ومسلم في الإيمان (١٦٥) وأحمد في مسنده (١/٣٨٦) والبيهقي في السنن (٤/٦٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (٢٩) والترمذي في السنن (١٠٠١) وأحمد في مسنده (٢/٤٥٥) والبيهقي في السنن (٤/٦٣) .

سورة الصف

عن عبد اللَّه بن سلام قال : قعدنا نفرًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحبُّ إلى اللَّه ﷻ لعملناه فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال عبد اللَّه بن سلام : فقرأها علينا رسول اللَّه ﷺ قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سلام . قال يحيى : فقرأها علينا أبو سلمة ، قال ابن كثير : فقرأها علينا الأوزاعي . قال عبد اللَّه : فقرأها علينا ابن كثير[1] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إنكار على من يعد وعدًا أو يقول قولًا لا يفي به ، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقًا سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا ، واحتجوا أيضًا من السنّة بما ثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثة : إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »[2] . وفي الحديث الآخر : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا »[3] . ولهذا أكد اللَّه تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . عن عبد اللَّه بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول اللَّه ﷺ وأنا صبي فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد اللَّه تعال أعطك ، فقال لها رسول اللَّه ﷺ : « وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ ؟ » فقالت : تمرًا ، فقال : « أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَة »[4] . وذهب الإمام مالك رحمه اللَّه تعالى إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره تزوج ولك علي كل يوم كذا ، فتزوج ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك لأنه تعلق به حق آدمي وهو مبني على المضايقة . وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقًا ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض نكل عنه بعضهم . عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن اللَّه ﷻ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر اللَّه نبيّه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فقال اللَّه ﷻ : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ وهذا اختيار

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٦/ ٢٨٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (١٠٦) وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) والبيهقي في السنن (٢٣٠/٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧/٣) .

ابن جرير . وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به ، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أحُد بذلك فولوا عن النبيّ ﷺ مدبرين فأنزل الله في ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ وقال : أحبكم إلي من قاتل في سبيلي . ومنهم من يقول : أنزلت في شأن القتال يقول الرجل قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ولم يطعن ، وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر . وقال ابن زيد : نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ، ولا يفُون لهم بذلك . وعن أبي الأسود الديلي قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل كلهم قد قرأ القرآن . فقال : أنتم قرّاء أهل البصرة وخيارهم . وقال : كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيناها غير أني قد حفظت منها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ : الرَّجُلُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ ، وَالقَوْمُ إِذَا صَفُّوا لِلصَّلَاةِ ، وَالقَوْمُ إِذَا صَفُّوا لِلْقِتَالِ » (١) . وعن عبد الله بن الشخير قال : قال مطرف : كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته فقلت : يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك ، فقال : لله أبوك فقد لقيت فهات . فقلت : كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدَّثكم أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة . قال : أجل فلا أخالني أكذب على خليلي ﷺ . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله خرج محتسبًا مجاهدًا فلقي العدو وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ثم قرأ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ وذكر الحديث . وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلَّا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ أي ملتصق بعضه في بعض ، من الصف في القتال ، وقال ابن عباس : مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض . وقال قتادة ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه . كذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره ، وإن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم فعليكم بأمر الله فإنه عصمته لمن أخذ به ، وعن أبي بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ قال : وكان أبو بحرية يقول : إذا رأيتموني ألتفت في الصف فجئُوا في لحيي .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۞ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٨٠) .

﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي : لم توصلون الأذى إليَّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفّار من قومه وغيرهم وأمر له الصبر ، ولهذا قال : « رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى : لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هذَا فَصَبَرَ »[(١)] . وفيه نهيٌ للمؤمنين أن ينالوا من النبيّ ﷺ أو يوصلوا إليه إذى . وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ اللَّه قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان . ولهذا قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ يعني التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمّي العربي المكي أحمد ، فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشرًا بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة ، وما أحسن ما قال جبير بن مطعم : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ لِي أَسْمَاءً : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الكُفْرَ ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي ، وَأَنَا العَاقِبُ »[(٢)] .

وعن أبي موسى قال : سمى لنا رسول اللَّه ﷺ نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال : « أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَالحَاشِرُ ، وَالمُقَفِّي ، ونبيُّ الرَّحْمةِ وَالتَّوبَةِ وَالمَلْحَمَةِ »[(٣)] . وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ . قال ابن عبّاس : ما بعث اللَّه نبيًّا إلّا أخذ عليه العهد لئن بعث محمّد وهو حي ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمّد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه . وعن العرباض بن سارية قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنِّي عِنْدَ اللَّه لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ وَسَأُنَبِّئُكُم بِأَوَّلِ ذلِكَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ ، وَكَذلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ »[(٤)] .

وعن أبي أمامة قال : قلت : يا رسول اللَّه ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسى ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّام »[(٥)] . وعن عبد اللَّه بن مسعود قال : بعثنا رسول اللَّه ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلًا منهم عبد اللَّه بن مسعود وجعفر وعبد اللَّه بن رواحة وعثمان بن مظعون وأبو موسى فأتوا النجاشي ، وبعثت قريش

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٩) وأحمد في مسنده (٣٨٠/١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٦) وأحمد في مسنده (٨٠/٤) والطبراني في الكبير (١٢٢/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٦) وأحمد في بسنده (٣٩٥/٤) والحاكم في المستدرك (٦٠٤/٢) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦٠٠/٢) وأبو نعيم في دلائل النبوة (٩/١) والطبراني في الكبير (٢٥٣/١٨) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٥) .

عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له : إن نفرًا من بني عمّنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا . قال : فأين هم ؟ قالا : هم في أرضك فابعث إليهم . فبعث إليهم ، فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعوه فسلّم ولم يسجد ، فقالوا له : ما لك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلّا لله ﷻ . قال : وما ذاك ؟ قال : إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلّا لله ﷻ ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم . قال : ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه ؟ قال : نقول كما قال الله ﷻ هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر ولم يعترضها ولد ، قال : فرفع عودًا من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا ، مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الإنجيل وأنه الذي بَشّر به عيسى ابن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه ، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرًا وزعم أن النبيّ ﷺ استغفر له حين بلغه موته [(١)] . والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها وتأمرهم باتباعه ونصره ومؤازرته إذا بعث ، وكان أول ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده حين دعا لأهل مكّة أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم . ولهذا قالوا : أخبرنا عن بدء أمرك يعني في الأرض . قال : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ » . أي ظهر في أهل مكة أثر ذلك ، والإرهاص فذكره صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ، ويجعل له أندادًا وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذاك ذلك مستحيل . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة ﷺ أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ ليفعلوه فأنزل الله تعالى هذه السورة ومن جملتها هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦١/١) .

أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم فسَّر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور ، التي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال تعالى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي من تجارة الدنيا والكد لها والتصدي لها وحدها ثم قال تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أي : إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم الزلات وأدخلتكم الجنَّات والمساكن الطيبات والدرجات العاليات . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ ﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها وهي ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ ﴾ أي إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه تكفل اللَّه ينصركم ، وقوله تعالى : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ ﴾ أي عاجل فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع اللَّه ورسوله ونصر اللَّه ودينه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار اللَّه في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم وأن يستجيبوا للَّه ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ أي : من معيني في الدعوة إلى اللَّه ﷻ ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ﴾ أي نحن أنصارك على ما أرسلت به ومؤازروك على ذلك ، ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين ، وهكذا كان رسول اللَّه ﷺ يقول في أيام الحج : « مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِيني حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُوني أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي » [1] . حتى قيض اللَّه ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه ووازروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا اللَّه عليه ، ولهذا سمَّاهم اللَّه ورسوله الأنصار ، وصار ذلك علمًا عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ ﴾ أي لما بلَّغ عيسى ابن مريم عليه الصَّلاة والسَّلام رسالة ربه إلى قومه ووازره من وازره من الحواريين اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود عليهم لعائن اللَّه المتتابعة إلى يوم القيامة ، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه اللَّه من النبوة وافترقوا فرقًا وشيعًا ، فمن قائل منهم إنه ابن اللَّه ، وقائل إنه ثالث ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، ومن قائل إنه اللَّه ، وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ أي : نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ أي : عليهم وذلك ببعثة محمَّد ﷺ . عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال : لما أراد اللَّه ﷻ أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلًا ، من عين في البيت ، ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشر مرة بعد أن آمن بي ، قال : ثم قال : أيكم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٢/٣) .

يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنًّا فقال : أنا ، فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا ، فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا ، فقال : نعم أنت ذاك ، قال : فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى عليه السلام من روزنة في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمنوا به فتفرقوا فيه ثلاث فرق فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ بإظهار محمّد ﷺ دينهم على دين الكفار [1] . فأمة محمّد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح .

---

(١) تفسير الطبري (١١٧/٢٨) .

سورة الجمعة

عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يسبِّح له ما في السموات وما في الأرض أي : من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، ثم قال تعالى : ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾ أي : هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه، وهو المقدس أي المنزَّه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال ﴿ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ تقدم تفسيرهما غير مرة ، وقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ الأميون هم العرب كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به ، وهذا لا ينافي قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وقوله تعالى إخبارًا عن القرآن : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات اللَّه وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم .

وهذه الآية هي مصداق إجابة اللَّه لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة أن يبعث اللَّه فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه اللَّه سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل وطموس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه وقد مقت اللَّه أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب أي نزرًا يسيرًا ممن تمسك بما بعث اللَّه به عيسى ابن مريم عليه السلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وذلك أن العرب كانوا قديمًا متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيَّروه وقلبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركًا وباليقين شكًا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها اللَّه . وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيَّروها وأوَّلوها فبعث اللَّه محمَّدًا صلوات اللَّه وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا اللَّه عنهم والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط اللَّه تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما لم يعط أحدًا من الأولين ولا يعطيه أحدًا من الآخرين فصلوات اللَّه وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ، وقوله

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٦٤) .

تعالى : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . عن أبي هريرة ﷺ قال : كنا جلوسًا عند النبيِّ ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثًا وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هؤُلَاءِ » (١) .

ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ؛ لأنه فسَّر قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ بفارس ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله ﷻ وإلى اتباع ما جاء به ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال : هم الأعاجم وكل من صدَّق النبيَّ ﷺ من غير العرب . وعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي أَصلَابِ أَصلَابِ أصلاب رِجَالٍ وَنَسَاءٍ مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ثم قرأ ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ (٢) يعني بقية من بقي من أمة محمَّد ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ يعني ما أعطاه الله محمَّدًا ﷺ من النبوة العظيمة وما خصَّ به أمته من بعثه ﷺ إليهم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا لليهود الذين أعطوه التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا ؛ أي كمثل الحمار إذا حمل كتبًا لا يدري ما فيها فهو يحملها حملًا حسيًّا ولا يدري ما عليه ، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظًا ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه ، بل أوَّلوه وحرَّفوه وبدَّلوه ، فهم أسوأ حالًا من الحمير ؛ لأن الحمار لا فهم له هؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ، وقال تعالى : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . عن ابن عبَّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَكَلَّمَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَهُوَ كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، وَالَّذِي يَقُولُ لَهُ أَنْصِتْ ؛ لَيْسَ لَهُ جُمُعَةٌ » (٣) . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ، وأن محمَّدًا وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين ، أي فيما تزعمونه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ عن ابن عبَّاس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمَّدًا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه قال : فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٧) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣١) وأحمد في مسنده (٤١٧/٢) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٨/٦) والهندي في كنز العمال (٣٤٥٧٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/١) .

« لَوْ فَعَلَ لَأَخَذَتْهُ المَلائِكَةُ عِيَانًا ، وَلَوْ أَنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوُا المَوْتَ لَمَاتُوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّار ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّه ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . عن سمرة مرفوعًا : « مَثَلُ الَّذِي يَفِرُّ مِنَ المَوْتِ كَمَثَلِ الثَّعْلَبِ تَطْلُبُهُ الأَرْضُ بِدَيْنٍ ، فَجَاءَ يَسْعَى حَتَّى إِذَا أَعْيَا وَانْبَهَرَ دَخَلَ جِحْرَهُ فَقَالَتْ لَهُ الأَرْضُ : يَا ثَعْلَبُ دَيْنِي فَخَرَجَ لَهُ حصاصٌ فَلَمْ يَزَلْ كَذلِكَ حَتَّى تَقَطَّعَتْ عُنُقُهُ فَمَاتَ » (٢) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

إنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع ؛ فإن أهل الإسلام يجتمعون في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار وفيه كمل جميع الخلائق فإنه اليوم السادس من السنة التي خلق اللَّه فيها السموات والأرض ، وفيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنَّة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة لايوافقها عبد مؤمن يسأل اللَّه فيها خيرًا إلَّا أعطاه إياه (٣) . وعن سلمان قال : قال أبو القاسم ﷺ : « يَا سَلْمَانُ مَا يَوْمُ الجُمُعَةِ ؟ » . قلت : اللَّه ورسوله أعلم ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « يَوْمُ الجُمُعَةِ يَوْم جَمَّعَ اللَّه فِيهِ أَبَوَاكُمْ - أَوْ أَبُوكُمْ » (٤) . وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة ، وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فضلوا عنه ، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق آدم ، واختار النصاري يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق ، واختار اللَّه لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل اللَّه فيه الخليقة ، وروي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، ثُمَّ إِنَّ هذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّه عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللَّه لَهُ ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، اليَهُودُ غَدًا ، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ » (٥) . وفي لفظ : « أَضَلَّ اللَّه عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّه بِنَا فَهَدَانَا لِيَوْمِ الجُمُعَةِ ، فجعل الجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالأَحَدَ وَكَذلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ القِيَامَةِ نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ المَقْضِي بَيْنَهُمْ قَبْلَ الخَلائِقِ » (٦) . وقد أمر اللَّه المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي اقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها ، وليس المراد بالسعي ههنا المشي وإنما هو الاهتمام بها ، وكان عمر بن

(١) أخرجه البخاري فى تفسير القرآن (٤٩٥٨) والترمذي في السنن (٣٣٤٨) وأحمد في مسنده (٣٦٨/١) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٨/٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٠/٢) .
(٣) راجع الحديث في مسلم في الجمعة (١٧) وأبو داود في السنن (١٠٤٦) والترمذي في السنن (٤٩١) وأحمد في مسنده (٤٠١/٢) والنسائي في السنن (١١٤/٣) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧٧/١) وابن خزيمة في صحيحه (١٧٤/٢) .
(٥) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٦) ومسلم في الجمعة (١٩) وابن ماجه في السنن (٤٢٩٠) وأحمد في مسنده (٢٤٩/٢) .
(٦) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٢) والنسائي في السنن (٨٧/٣) وابن ماجه في السنن (١٠٨٣) .

الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما يقرآنها - فامضوا إلى ذكر الله - فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه لما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوها تَسْعَوْنَ ، وَلَكِنْ ائْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ فَمَا أَدْرَكْتُم فَصَلُّوا ، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا » [١] . قال الحسن : أما والله ما هو بالسعي على الأقدام ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلّا وعليهم السكينة والوقار ولكن بالقلوب والنية والخشوع . وقال قتادة في قوله : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يعني أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها ، وكان يتأول قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي المشي معه .

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها ، فعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ » [٢] . وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « غُسْلُ يَوْمِ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ » [٣] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «حَقُّ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ ، يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ » [٤] . وعن أوس بن أوس الثقفي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَة ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ ، وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةٍ ، صِيَامِهَا ، وَقِيَامِهَا » [٥] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَة ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرة ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَة ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَة ، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ المَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ » [٦] . ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر ، وعن أيوب الأنصاري سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبِ أَهْلِهِ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ ، وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ المَسْجِدَ فَيَرْكَع إِنْ بَدَا لَهُ وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا ، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يُصَلِّي ؛ كَانَتْ كَفَّارة لما بَيْنَهَا وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى » [٧] .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال : «مَا عَلَى أَحدكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَة أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لجُمعَتِهِ سِوَى ثَوْبَي مهْنَتِهِ » [٨] . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ؛ فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه فإنما كان هذا لكثرة الناس ، وعن السائب بن يزيد قال : كان النداء يوم

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٨) ومسلم في المساجد (١٥١) وأبو داود في السنن (٥٧٢) والترمذي في السنن (٣٢٧).
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٠٢) وأحمد في مسنده (٢/١٠٥) والدارمي في السنن (١/٣٦١).
(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٩) ومسلم في الجمعة (٧) والنسائي في السنن (٣/٩٣).
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٤٢).
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٠٩) والحاكم في المستدرك (١/٨٢).
(٦) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨١) ومسلم في الجمعة (١٠) والترمذي في السنن (٤٩٩) والنسائي في السنن (٣/٩٩).
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٢٠).
(٨) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٠٩٦).

الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء[1] يعني يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد. وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان ويعذر المسافر والمريض وقيم المريض وما أشبه ذلك من الأعذار كما هو مقرر في كتب الفروع .

وقوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾ أي : اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة ، ولهذا اتفق العلماء ﷺ على تحريم البيع بعد النداء الثاني ، واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تركك البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم ، أي في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ أي : فرغ منها ﴿ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله كما كان عراك بن مالك ﷺ إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين . وروي عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة ، لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : في حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم اذكروا الله ذكرًا كثيرًا ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة . وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ .

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ ﴾ أي : على المنبر تخطب ، هكذا ذكره غير واحد من التابعين ، وزعم مقاتل بن حيان أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم وكان معها طبل فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر إلا القليل منهم وقد صح بذلك الخبر . فعن جابر قال : قدمت عير مرة المدينة ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلًا فنزلت ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾[2] . وعن جابر بن عبد الله قال : بينما النبيُّ ﷺ يخطب يوم الجمعة فقدمت عير إلى المدينة فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلا . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَتَابَعْتُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْكُمْ أَحَدٌ لَسَالَ بِكُمُ الوَادِي نَارًا » ونزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ ﴾[3] . وقال : كان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وفي قوله تعالى :

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٩) وأحمد في مسنده (٣/٣١٣) .

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٩٧٩) بلفظه ، وبنحوه البخاري في الجمعة (٩٣٦) والترمذي في سننه (٣٣٠٨) والدارقطني في سننه (٥/٢) .

﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ ﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائمًا . فعن جابر بن سمرة قال : كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكّر الناس [(١)] ولكن ههنا شيء ينبغي أن يعلم وهو أن القصة قد قيل إنها كانت لما كان رسول اللّٰه ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة ، وعن أبي معاذ بكير بن معروف أنه سمع مقاتل بن حيان يقول : كان رسول اللّٰه ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين حتى إذا كان يوم والنبيّ ﷺ يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة ، يعني فانفضوا ولم يبق معه إلّا نفر يسير [(٢)] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي الذي عند اللّٰه من الثواب في الدار الآخرة ﴿ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ أي لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣/٢١٠) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٢٢٠) .

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المنافقين أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبيَّ ﷺ فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك بل على الضد من ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ أي : إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون ، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : فيما أخبروا به وإن كان مطابقًا للخارج ؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ، وهذا كذَّبهم بالنسبة إلى اعتقادهم . وقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحلفان الآثمة ليصدَّقوا فيما يقولون فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم فاعتقدوا أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدَّقهم فيما يقولون وهو من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالًا ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ولهذا كان الضحاك بن مزاحم يقرؤها ﴿ اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي تصديقهم الظاهر جنة أي : تقية يتقون به القتل ، والجمهور يقرؤها ﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ جمع يمين . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي إنما قدّر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أي وكانوا أشكالًا حسنة وذوي فصاحة وألسنة ، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن ولهذا قال تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم ، فهم جهامات وصور بلا معاني ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا : تَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةٌ ، وَطَعَامُهُمْ نُهْبَةٌ ، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُولٌ ، وَلَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هجرًا ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبُرًا ، مُسْتَكْبِرِينَ لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ : خُشُبٌ بِاللَّيْلِ ، صُخُبٌ بِالنَّهَارِ » [1] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٩٣) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۞ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۞ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۞ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكبارًا عن ذلك واحتقارًا لما قيل لهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقال سفيان ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ قال ابن أبي عمر : حوَّل سفيان وجهه على يمينه ونظر بعينه شزرًا ثم قال : هو هذا . وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله في عبد الله بن أبي ابن سلول . قال قتادة والسدي : أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وذلك أن غلامًا من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزلوه وأنزل الله فيه ما تسمعون ، وقيل لعدو الله : لو أتيت رسول الله ﷺ فجعل يلوي رأسه ، أي لست فاعلًا [١] .

وعن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار . فقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ ؟ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ » ، وقال عبد الله بن أُبي ابن سلول وقد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : « دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » [٢] .

وعن زيد بن أرقم قال : خرجت مع عمي في غزاة فسمعت عبد الله بن أُبي ابن سلول يقول لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمي ، فذكره عمي لرسول الله ﷺ فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ فحدثته فأرسل إلى عبد الله بن أُبي ابن سلول وأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا ، فكذَّبني رسول الله ﷺ وصدّقه فأصابني همٌّ لا يصبني مثله قط وجلست في البيت فقال عمي : ما أردت إلَّا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك ! قال : حتى أنزل الله : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ قال : فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأها رسول الله ﷺ علي ثم قال : « إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ » [٣] .

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري (ص : ٢٣٧ ، ٢٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٥) ومسلم في البر والصلة (٦٣) والترمذي في السنن (٣٣١٥) وأحمد في مسنده (٣/٣٩٣) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٠) .

وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ قال : كانوا رجالًا أجمل شيء [(١)] .

وعن عروة بن الزبير وعمر بن ثابت الأنصاري أن رسول اللَّه ﷺ غزا غزوة المريسيع وهي التي هدم رسول اللَّه ﷺ فيها مناة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر فبعث رسول اللَّه ﷺ خالد بن الوليد فكسر مناة ، فاقتتل رجلان في غزوة رسول اللَّه ﷺ تلك أحدهما من المهاجرين والآخر من بهز، وهم حلفاء الأنصار فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزى ، فقال البهزي: يا معشر الأنصار ، فنصره رجال من الأنصار . وقال المهاجري : يا معشر المهاجرين فنصره رجال من المهاجرين حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال ، ثم حجز بينهم ، فانكفأ كل منافق أو رجل في قلبه مرض إلى عبد اللَّه بن أبي ابن سلول فقال: قد كنت ترجى وتدفع ، فأصبحت لا تضر ولا تنفع ، قد تناصرت علينا الجلابيب وكانوا يدعون كل حديث الهجرة الجلابيب ، فقال عبد اللَّه بن أبي عدو اللَّه : واللَّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال مالك بن الدخشن - وكان من المنافقين - : ألم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول اللَّه حتى ينفضوا ؟ فسمع بذلك عمر بن الخطاب فأقبل يمشي حتى أتى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه - يريد عمر عبد اللَّه بن أبي - فقال رسول اللَّه ﷺ لعمر : « أَوَ قَاتِلُهُ أَنْتَ إِنْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » . قال عمر : نعم لئن أمرتني بقتله لأضربن عنقه ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « اجْلِسْ » . فأقبل أسيد بن حضير وهو أحد الأنصار ثم أحد بني عبد الأشهل حتى أتى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه . قال رسول اللَّه ﷺ : « أَوَ قَاتِلُهُ أَنْتَ إِنْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » . قال : نعم واللَّه لئن أمرتني بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط أذنيه ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « اجْلِسْ » . ثم قال رسول اللَّه ﷺ : « آذِنُوا بِالرَّحِيلِ » فهجَّر بالناس فسار يومه وليلته والغد حتى متع النهار ، ثم نزل ثم هجَّر بالناس مثلها حتى صبَّح بالمدينة في ثلاثة سارها من قفا المشلل ، فلما قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه فقال له رسول اللَّه ﷺ : « أَيْ عُمَرُ أَكُنْتَ قَاتِلَهُ لَوْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » قال عمر : نعم ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتَهُ يَوْمَئِذٍ لأَرْغَمْتَ أُنُوفَ رِجَالٍ لَوْ أَمَرْتُهُمُ اليَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلُوه ، فَيَتَحدَّثُ النَّاسُ أَنِّي قَدْ وَقَعْتُ عَلَى أَصْحَابِي فَأَقْتُلُهُمْ صَبْرًا » . وأنزل اللَّه ﷻ ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ [(٢)] الآية .

وعن عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن أُبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه إنه بلغني أنك تريد قتل عبد اللَّه بن أُبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلًا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فواللَّه لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني ، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد اللَّه بن أبي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٣/٤) .

(٢) سيرة ابن هشام (٣٠٣/٣ - ٣٠٤) .

يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنًا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : « بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا » . وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه عبد الله بن أُبي قال له ابنه : وراءك ، فقال : ما لك ويلك ؟! فقال : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبد الله بن أُبي ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن [1] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره ، وناهيًا عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ، ومخبرًا لهم بأنه من التهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثَّهم على الإنفاق في طاعته . فقال : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فكل مفرط يندم عند الاحتضار ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات ، كان ما كان أوتي ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، أما الكفار فكما قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : لا ينظر أحدًا بعد حلول أجله . وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقًا في قوله وسؤاله ممن لو رد لعاد إلى شر مما كان عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . عن ابن عبَّاس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت . فقال رجل : يا ابن عبَّاس اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : سأتلوا عليك بذلك قرآنًا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعدًا ، قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والبعير [2] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٠٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٣١٦) .

سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

هذه السورة هي آخر المسبِّحات وقد تقدَّم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ أي هو المتصرف في جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدِّره وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ أي : هو الخالق لكم على هذه الصفة وأراد منكم ذلك فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده وسيجزيهم بها أتم الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالعدل والحكمة ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي أحسن أشكالكم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع والمآب . ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية فقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأمم الماضين وما حلَّ بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ أي : خبرهم وما كان من أمرهم ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي : وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم ، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي . ثم علَّل ذلك فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والدلائل والبراهين ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ﴾ أي : كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ﴿ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أي عنهم ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار والمشركين والملحدين إنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي لتخبرن بجميع أعمالكم جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرٌ ﴾ أي بعثكم ومجازاتكم ، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ﷻ على وقوع المعاد ووجوده ، فالأولى في سورة يونس ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ والثانية في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ الآية ، والثالثة هي هذه ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ يعني القرآن ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي فلا تخفي عليه من أعمالكم خافية . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾ وهو يوم القيامة سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ قال ابن عبّاس : هو اسم من أسماء يوم القيامة وذلك أن أهل الجنّة يغبنون أهل النار . وقال مقاتل بن حيان : لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنّة ويذهب بأولئك إلى النار . قلت : وقد فسّر ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : بأمر الله يعني عن قدره ومشيئته ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه . وعوَّضه عما فاته من الدنيا هدًى في قلبه ويقينًا صادقًا ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرًا منه . وعن ابن عبّاس ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يعني يهدي قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وعن أبي ظبيان قال : كنا عند علقمة فقرئ عنده هذه الآية ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ فسئل عن ذلك فقال : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم . وقال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يعني يسترجع يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ .

وفي الحديث المتفق عليه : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لا يَقْضِي اللّٰه لَهُ قَضَاءً إِلّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شكر فَكَانَ خَيْرًا له ، وَلَيْسَ ذلِكَ لِأَحدٍ إِلّا لِلْمُؤْمِنِ » (١) .

وعن عبادة بن الصامت قال : إن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « إِيمَانٌ بِاللّٰه وَتَصْدِيقٌ بِهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللّٰه » . قال : أريد أهون من هذا يا رسول الله . قال : « لَا تَتَّهِمِ اللّٰه فِي شَيْءٍ قَضَى لَكَ بِهِ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع وفعل ما به أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ثم قال تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي إن نكلتم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٤) والألباني في الصحيحية (١٤٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣١٨) .

عن العمل فإنما عليه ما حمّل من البلاغ وعليكم ما حمّلتم من السمع والطاعة . قال الزهري : من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم .

ثم قال تعالى مخبرًا أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره فقال تعالى : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فالأول خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب أي وحدوا الإلهية له ، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو الزوج والولد بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح ولهذا قال تعالى ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد : يعني على دينكم ، وقال مجاهد : ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال : يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه فلا يستطيع الرجل مع حبه إلَّا أن يطيعه . وسئل ابن عباس عن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فهمّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه . وقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ﴾ أي يوم القيامة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ عن أبي بريدة قال : كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال : « صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا » (٢) . وعن الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة فقال لي : « هَلْ لَكَ مِنْ وَلَدٍ ؟ » قلت : غلام ولد لي في مخرجي إليك من ابنة حمد ، ولوددت أن بمكانه سبع القوم فقال : « لَا تَقُولَنَّ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ قُرَّةَ عَيْنٍ وَأَجْرًا إِذَا قُبِضُوا » ، ثم قال : « وَلَئِنْ قُلْتَ ذَاكَ إِنَّهُمْ لَمَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ » (٣) . وعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « لَيسَ عَدُوُّكَ الَّذِي إِنْ قَتَلْتَهُ كَانَ فوزًا لَكَ ، وَإِنْ قَتَلَكَ دَخَلْتَ الجَنَّةَ ، وَلكن الذي لَعَلَّهُ عَدُوٌّ لَكَ وَلَدُكَ الَّذِي خَرَجَ مِنْ صُلْبِكَ ، ثُمَّ أَعْدَى عَدُوٌّ لك مَالُكَ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينُكَ » (٤) .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣١٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٧٧٤) وابن ماجه في السنن (٣٦٠٠) والحاكم في المستدرك (٢٨٧/١) وأحمد في مسنده (٣٥٤/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٥) .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣٤/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٨٢/٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي جهدكم وطاقتكم . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ » (١) . وقد قال بعض المفسرين : إن هذه الآية ناسخة للتي في آل عمران وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل اللّٰه تعالى هذه الآية تخفيفًا على المسلمين : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فنسخت الآية الأولى . وقوله تعالى ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أي : كونوا منقادين لما يأمركم اللّٰه به ورسوله ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدي اللّٰه ورسوله ولا تتخلفوا عما به أمرتم . ولا ترتكبوا ما عنه زجرتم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ أي وابذلوا مما رزقكم اللّٰه على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات ، وأحسنوا إلى خلق اللّٰه كما أحسن اللّٰه إليكم يكن خيرًا لكم في الدنيا والآخرة ، وإن لا تفعلوا يكن شرًّا لكم في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أي : مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه ، ونزل ذلك منزلة القرض له كما ثبت في الصحيحين : أن اللّٰه تعالى يقول : من يقرض غير ظلوم ولا عديم (٢) . ولهذا قال تعالى يضاعفه لكم ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أي ويكفّر عنكم السيئات . ولهذا قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي يصفح ويغفر ويستر ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم تفسيره غير مرة .

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨) ومسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٥٠٨/٢) والدارقطني في السنن (٢٨١/٢) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢/٣) .

سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ .

خوطب النبيُّ ﷺ أولًا تشريفًا وتكريمًا ، ثم خاطب الأمة تبعًا فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ عن أنس قال : طلّق رسول اللَّه ﷺ حفصة فأتت أهلها ، فأنزل اللَّه تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ فقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة وهي من أزواجك ونساءك في الجنَّة ، وقد ورد من غير وجه أن رسول اللَّه ﷺ طلّق حفصة ثم راجعها .

عن عبد اللَّه بن عمر أنه طلّق امرأة له وهي حائض فذكر عمر لرسول اللَّه ﷺ فتغيظ رسول اللَّه ﷺ ثم قال : « لِيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمْسِكهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ فتطهر فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا ؛ فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا ، فَتِلْكَ العِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّه ﷻ » [(١)] . وروي عن عبد الرَّحمن بن أيمن مولى عزة أنه سأل ابن عمر ، وأبو الزبير يسمع : كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضًا ؟ فقال : طلق ابن عمر امرأته حائضًا على عهد رسول اللَّه ﷺ فقال رسول اللَّه ﷺ : « لِيُرَاجِعْهَا » فردها وقال : « إِذَا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ يُمْسِكْ » . قال ابن عمر : وقرأ النبيُّ ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [(٢)] .

وعن عبد اللَّه في قوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قال : الطهر من غير جماع ، وقال ابن عباس : لا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه ؛ ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة . وقال عكرمة : العدة الطهر ، والقرء : الحيضة أن يطلقها حبلى مستبينًا حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا ، ومن هٰهنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة ، وطلاق بدعي ، فطلاق السنّة : أن يطلقها طاهرة من غير جماع أو حاملًا قد استبان حملها ، والبدعي : هو أن يطلقها في حال الحيض أو في طهر قد جامعها فيه ولا يدري أحملت أم لا ، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها ، وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع ، وقوله تعالى ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ أي احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أي في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أي : في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ؛ فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضًا وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ أي : لا يخرجن من بيوتهن إلّا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٠) ومسلم في الطلاق (١٤) والنسائي في السنن (١٣٩/٦) .
(٢) أخرجه مسلم في الطلاق (١٠) .

والفاحشة المبينة تشمل الزنى ، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال ، وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ ﴾ أي شرائعه ومحارمه ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أي : يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ ﴾ أي بفعل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ أي إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق اللَّه تعالى في قلبه رجعتها فيكون ذلك أيسر وأسهل . عن فاطمة بنت قيس في قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ قالت : هي الرجعة ، ومن ههنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم كالإمام أحمد بن حنبل رحمه اللَّه تعالى إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة أي المقطوعة وكذا المتوفى عنها زوجها ، واعتمدوا أيضًا على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات وكان غائبا عنها باليمن ، فأرسل إليها بذلك ، فأرسل إليها وكيله بشعير يعني نفقة فتسخطته فقال : واللَّه ليس لك علينا نفقة ، فأتت رسول اللَّه ﷺ فقال : « لَيْسَ لَكِ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ » وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ، ثم قال : « تِلْكَ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي ، اعْتَدِّي عِنْدَ ابنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ؛ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ » (١) .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ .

يقول تعالى : فإذا بلغت المعتدات أجلهن أي : شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك ولكن لم تفرغ العدة بالكلية فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي محسنًا إليها في صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف ، أي من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي على الرجعة إذا عزمتم عليها ، وعن عمران بن حصين أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها فقال : طلَّقت لغير سنة ورجعت لغير سنة ، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد ، وكان عطاء يقول : ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ قال : لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلَّا شاهدا عدل كما قال اللَّه ﷻ إلَّا أن يكون من عذر . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة إنما يأتمر به من يؤمن باللَّه واليوم الآخر ، وأنه شرع هذا ومن يخاف عقاب اللَّه في الدار الآخرة ، ومن ههنا ذهب الشافعي في أحد قوليه إلى وجوب الإشهاد في الرجعة كما يجب في ابتداء النكاح ، وقد قال بهذا طائفة من العلماء ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصح إلَّا بالقول ليقع الإشهاد عليها . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ ﴾ أي ومن يتق اللَّه فيما أمره به وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أي من جهة لا تخطر بباله . وعن أبي ذر قال : جعل رسول اللَّه ﷺ يتلو علي

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦) وأحمد في مسنده (٤١٢/٦) وأبو داود في السنن (٢٢٨٤) والبيهقي في السنن (١٧٧/٧) .

هذه الآية ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ لَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَخَذُوا بِهَا كَفَتْهُمْ » قال : فجعل يتلوها ويرددها علي حتى نعست ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْمَدِينَةِ ؟ » قلت : إلى السعة والدعة أنطلق فأكون حمامة من حمام مكة قال : « كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ مَكَّةَ ؟ » قال : قلت : إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة ، قال : « وَكَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا أُخرِجْتَ مِنَ الشَّامِ » قلت : إذًا والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي ، قال : « أَوْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ » قلت : أو خير من ذلك . قال : « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا » (١) .

وعن عبد اللَّه بن عباس قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ ؛ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » (٢) وقال ابن عباس : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ يقول : ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة . وقال الربيع بن خيثم ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ : أي من كل شيء ضاق على الناس . وقال عكرمة : من طلق كما أمره اللَّه يجعل له مخرجًا ، وقال ابن مسعود ومسروق : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ يعلم أن اللَّه إن شاء أعطى وإن شاء منع ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أي من حيث لا يدري . وقال قتادة : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ أي من شبهات الأمور والكرب عند الموت ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ من حيث لا يرجو ولا يأمل ، وقال السدي : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ يطلّق للسنة ، ويراجع للسنة ، وعن ثوبان قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ ، وَلَا يَرُدُّ القَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ ، وَلَا يَزِيدُ فِي العُمُرِ إِلَّا البِرُّ » (٣) وقال محمَّد بن إسحاق : جاء مالك الأشجعي إلى رسول اللَّه ﷺ فقال له : أسر ابني عوف ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « أَرْسِلْ إِلَيْهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَأْمُرُكَ أَنْ تُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد عنه ، فخرج فإذا هو بناقة لهم فركبها وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا قد شدوه ، فصاح بهم فاتبع أولها آخرها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة ، فقالت أمه : واسوأتاه وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد ، فاستبقا الباب والخادم فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلًا ، فقص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى آتي رسول اللَّه ﷺ فأسأله عنها ، فأتى رسول اللَّه ﷺ فأخبره بخير عوف وخبر الإبل ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « اصْنَعْ بِهَا مَا أَحْبَبْتَ وَمَا كُنْتَ صَانِعًا بِمَالِكَ » ونزل ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٤) .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنِ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ إِلَيْهَا » (٥) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ عن عبد اللَّه بن عباس أنه ركب خلف رسول اللَّه ﷺ يومًا فقال له رسول اللَّه ﷺ : « يَا غُلَامُ إِنِّي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٧٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٤٨) والحاكم في المستدرك (٤/٢٦٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٧٧) . (٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٦١٩) .
(٥) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٥٣٧) والطبراني في الصغير (١/١٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٠٣) .

مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللَّه يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّه تَجِدْهُ تِجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّه ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّه ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّه لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّه عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[(١)] .

وعن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ نَزَلَ بِهِ حَاجَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ كَانَ قَمِنًا أَنْ لا تُسَهَّلَ حَاجَتُهُ ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّه تَعَالَى أَتَاهُ اللَّه بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ بِمَوْتٍ آجِلٍ»[(٢)] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ أي منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاءه ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ .

﴿ وَالَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ .

يقول تعالى مبينًا لعدة الآيسة وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها أنها ثلاثة أشهر عوضًا عن ثلاثة قروء في حق من تحيض كما دلَّت على ذلك آية البقرة ، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهري وابن زيد : أي إن رأين دمًا وشككتم في كونه حيضًا أو استحاضة وارتبتم فيه ، والقول الثاني : إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر ، وهذا مروي عن سعيد بن جبير وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى واحتج عليه بما رواه عمرو بن سالم قال : قال أُبي بن كعب : يا رسول اللَّه إن عددًا من عدد النساء لم تذكر في الكتاب الصغار والكبار وأولات الأحمال ، قال : فأنزل اللَّه ﷻ ﴿ وَالَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[(٣)]

وقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ يقول تعالى : ومن كانت حاملًا فعدتها بوضعه ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة في قول جمهور العلماء من السلف والخلف كما هو نص هذه الآية الكريمة وكما وردت به السنَّة النبوية ، وقد روي عن علي وابن عبَّاس رضي الله عنهم أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع والأشهر عملًا بهذه الآية والتي في سورة البقرة . وعن أبي سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عبَّاس وأبو هريرة جالس فقال : أفتني في امراة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة ، فقال ابن عبَّاس : آخر الأجلين ، قلت أنا : ﴿ وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فأرسل ابن عبَّاس غلامه كريم إلى أم سلمة يسألها فقالت : قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي .ى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول اللَّه ﷺ وكان أبو السنابل فيمن خطبها[(٤)] . وعن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبة أن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/١) والترمذي في السنن (٢٥١٦) والحاكم في المستدرك (٥٤١/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٩/١) . (٣) تفسير الطبري (١٨٠/٢٨) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٩) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٤) .

أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته ، فكتب عمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة وكان ممن شهد بدرًا فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلَّت من نفاسها تجملت للخطَّاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك ، فقال لها : مالي أراك متجملة ؟ لعلك ترجين النكاح ؟ إنك والله ما أنت بنكاح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر ،قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي ، وأمرني بالتزويج إن بدا لي [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ أي يسهل أمره وييسره عليه ويجعل له فرجًا قريبًا ومخرجًا عاجلًا ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾ أي حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله ﷺ ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ أي يذهب عنه المحذور ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها فقال : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أي عندكم ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ قال ابن عبَّاس ومجاهد وغير واحد : يعني سعتكم حتى قال قتادة : إن لم تجد إلَّا جنب بيتك فأسكنها فيه ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾ قال مقاتل بن حيان : يعني يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنه ، وقال أبو الضحى : يطلقها فإذا بقي يومان راجعها ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عبَّاس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف : هذه في البائن إن كانت حاملًا أنفق عليها حتى تضع حملها . قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملًا أو حائلًا ، وقال آخرون : بل السياق كله في الرجعيات وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالبًا فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة ، ثم اختلف العلماء ، هل النفقة لها بواسطة الحمل أم للحمل وحده ؟ على قولين منصوصين عن الشافعي وغيره ، ويتفرع عليها مسائل كثيرة مذكورة في علم الفروع .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أي إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بنَّ بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ولها أن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالبًا إلا به ، فإن أرضعت استحقت أجر مثلها ، ولها أن تعاقد أباه أو ليه على ما يتفقان عليه من أجرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (٥٦).

بِمَعْرُوفٍۖ ﴾ أي ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ أي وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيرًا ولم يجبها الرجل إلى ذلك أو بذل الرجل قليلًا ولم توافقه عليه فليسترضع له غيرها فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها . وقوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ ﴾ أي لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴾ . عن أبي سنان ، قال : سأل عمر بن الخطّاب عن أبي عبيدة فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها ؟ فما لبث أن لبس اللين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاءه الرسول فأخبره . فقال : رحمه اللَّه تعالى تأول هذه الآية ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ ﴾(١) .

وعن شِريح بن عبيد بن أبي مالك الأشعري واسمه الحارث قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « ثَلَاثَةُ نَفَرٍ كَانَ لأحدهم عشرة دنانير فتصدق منها بدينار ، وكان لآخر عشر أواق فتصدق منها بأوقية ، وكان لآخر مائة أوقية فتصدق منها بعشر أواق ، فقال رسول اللَّه ﷺ : هم في الأجر سواء ، كل قد تصدق بعشر ماله ، قال اللَّه تعالى ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ ﴾(٢) » وقوله تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ وعد منه تعالى ووعده حق لا يخلفه . قال أبو هريرة : بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي لايقدران على شيء فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعًا قد أصابته مسغبة شديدة ، فقال لامرأته : عندك شيء ؟ قالت : نعم أبشر أتانا رزق اللَّه ، فاستحثها ، فقال : ويحك ابتغي إن كان عندك شيء ، قالت : نعم هنيهة ترجو رحمة اللَّه ، حتى إذا طال عليه الطول ، قال : ويحك قومي فابتغي إن كان عندك شيءٍ فائتيني به فإني قد بلغت وجهدت ، فقالت : نعم ، الآن نفتح التنور فلا تعجل فلما أن سكت عنها ساعة وتحينت أن يقول لها ، قالت من عند نفسها : لو قمت فنظرت إلى تنوري ، فقامت فنظرت إلى تنورها ملآن من جنوب الغنم ورحييها تطحنان ، فقامت إلى الرحى فنفضتها واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم ، قال أبو هريرة فوالذي نفس أبي القاسم بيده هو قول محمَّد ﷺ : « لَوْ أَخَذَتْ مَا في رَحَيَيْهَا وَلَمْ تَنْفُضْهَا لَطَحَنَتَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ »(٣) .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا لمن خالف أمره وكذّب رسله وسلك غير ما شرعه ومخبرًا عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر اللَّه ومتابعة رسله ﴿ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي منكرًا فظيعًا

(١) تفسير الطبري (٢٨/١٩٠) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/٣٣١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/١١١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٢١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٥٧) .

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أي غب مخالفتها وندموا حيث لا ينفعهم الندم ﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ ﴾ أي في الدار الآخرة مع ما محل لهم من العذاب في الدنيا ثم قال تعالى بعد ما قص من خبر هؤلاء : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي : الأفهام المستقيمة لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ ﴾ أي : صدقوا بالله ورسله ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ يعني القرآن . وقوله تعالى : ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ قال بعضهم : ﴿ رَّسُولًا ﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر . وقال ابن جرير : الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر يعني تفسيرًا له ولهذا قال تعالى : ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورًا لما يحصل به من الهدى كما سماه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة بما أغنى عن إعادته هنا .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثًا على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ كقوله تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أي سبعًا أيضًا كما ثبت في الصحيحين : « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » (١) . وقد ذكرت طرقه وألفاظه وعزوه في أول البداية والنهاية عند ذكر خلق الأرض ولله الحمد والمنة ومن حمل على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع وخالف القرآن والحديث بلا مستند . وعن ابن عبَّاس في قوله تعالى : ﴿ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ قال : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم ، وكفركم تكذيبكم بها .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٥) .

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة فقيل نزلت في شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرمها فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ الآية .

عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ . وعن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه فقالت : أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي ؟! فجعلها عليه حرامًا فقالت : أي رسول الله كيف تحرم عليك الحلال ؟! فحلف لها بالله لا يصيبها فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ قال زيد بن أسلم : فقوله أنت علي حرام لغو[١] وعن ابن عبّاس قال : قلت لعمر ابن الخطاب : من المرأتان ؟ قال : عائشة وحفصة وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية أصابها النبيُّ ﷺ في بيت حفصة ، في نوبتها فوجدت حفصة فقالت : يا نبي الله لقد جئت إلي شيئًا ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري وعلى فراشي ، قال : « أَلَا تَرْضِينَ أَنْ أُحَرِّمَهَا فَلَا أَقْرَبُهَا ؟ » . قالت : بلى . فحرمها ، وقال لها : « لَا تَذْكُري ذَلِكَ لأَحَدٍ » ، فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ الآيات كلها ، فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفَّر عن يمينه وأصاب جاريته[٢] .

وعن ابن عبّاس : في الحرام يمين تكفر . وقال ابن عباس ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[٣] . وعن ابن عبّاس : قال : نزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ . وهذا قول غريب ، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل كما ورد عن عائشة قالت : كان النبيُّ ﷺ يشرب عسلًا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير إني أجد منك ريح مغافير . قال : « لَا وَلَكِنِّي أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ وَقَدْ حَلَفْتُ لا تُخْبِرِي بِذلِكَ أَحَدًا »[٤] . ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ والمغافير شبيه بالصمغ يكون في الرمث فيه حلاوة ، أغفر الرمث إذا ظهر فيه ، وأحدها

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٣٩٥٩) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣٩/٦) والهندي في كنز العمال (٤٦٦٨) وابن جرير في تفسيره (٢٠٢/٢٨) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١١) . (٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٢) .

مغفور ، ويقال : مغافير . وهكذا قال الجوهري : وقد يكون المغفور أيضًا للعشر والثمام والسلم والطلح ، قال : والرمث بالكسر مرعى من مراعي الإبل وهو من الحمض ، قال : والعرفط شجر من العضاه ينضج المغفور .

وعن عائشة قالت : كان رسول اللَّه ﷺ يحب الحلوى والعسل وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن ، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس ، فغرت فسألت عن ذلك فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت النبيَّ ﷺ منه شربة . فقلت : أما واللَّه لنحتالن له ، فقلت لسودة ابنة زمعة : إنه سيدنو منك فإذا دنا منك فقولي : أكلت مغافير ؛ فإنه سيقول لك لا ، فقولي له : ما هذه الريح التي أجد ، فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل فقولي : جرست نحله العرفط وسأقول ذلك ، وقولي له أنت يا صفية ذلك ، قالت : تقول سودة : فواللَّه ما هو إلَّا أن قام على الباب فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقًا منك ، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول اللَّه أكلت مغافير ؟ قال : « لَا » . قالت : فما هذه الريح التي أجد منك ؟ قال : « سَقَتْنِي حَفْصَةُ شرْبَةَ عَسَلٍ » ، قالت : جرست نحله العرفط ، فلما دار إلي قلت نحو ذلك فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك ، فلما دار إلى حفصة قالت له : يا رسول اللَّه ألا أسقيك منه ؟ قال : « لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ » ، قالت : تقول سودة : واللَّه لقد حرمناه ، قلت لها : اسكتي [1] . وعن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقته العسل وإن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه . وقد يقال إنهما واقعتان ولا بعد في ذلك إلَّا أن كونهما سببًا لنزول هذه الآية فيه نظر ، ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان أن ابن عبَّاس قال : لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال اللَّه تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة ، فتبرز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبيِّ ﷺ اللتان قال اللَّه تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ؟ فقال عمر : وا عجبًا لك يا ابن عبَّاس - قال الزهري : كره واللَّه ما سأله عنه ولم يكتمه - قال : هي عائشة وحفصة .

قال : ثم أخذ يسوق الحديث قال : كنا معشر قريش قومًا نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، قال : وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي ، قال : فغضبت يومًا على امرأتي فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فواللَّه إن أزواج رسول اللَّه ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، قال : فانطلقت فدخلت على حفصة ، فقلت : أتراجعين رسول اللَّه ﷺ ؟ قالت : نعم ، قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب اللَّه عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ لا تراجعي رسول اللَّه ﷺ ولا تسأليه شيئًا وسليني من مالي ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل -

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٨) ومسلم في الطلاق (٢١) والبيهقي في السنن (٣٥٤/٧) .

وأحب إلى رسول اللَّه ﷺ منك - يريد عائشة - قال : وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول اللَّه ﷺ ينزل يومًا وأنزل يومًا فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك ، قال : وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا ، فنزل صاحبي يومًا ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم ، فقلت : وما ذاك أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم من ذلك وأطول ؛ طلّق رسول اللَّه ﷺ نساءه ، فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ؛ قد كنت أظن هذا كائنًا ، حتى إذا صليت الصبح شددت علي ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي ، فقلت : أطلقكن رسول اللَّه ﷺ ؟ فقالت : لا أدري هو هذا معتزل في هذه المشربة ، فأتيت غلامًا له أسود فقلت : استأذن لعمر ، فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال : ذكرتك له فصمت ، فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم فجلست عنده قليلًا ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرتك له فصمت ، فخرجت فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرتك له ، فصمت ، فوليت مدبرًا فإذا الغلام يدعوني فقال : ادخل قد أذن لك ، فدخلت فسلمت على رسول اللَّه ﷺ فإذا هو متكئ على رمال حصير - وقد أثّر في جنبه فقلت : أطلقت يا رسول اللَّه نساءك ؟ فرفع رأسه إليَّ ، وقال : « لَا » . فقلت : اللَّه أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول اللَّه وكنا معشر قريش قومًا نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتي يومًا فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فواللَّه إن أزواج النبيِّ ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت ، أفتأمن إحداكن أن يغضب اللَّه عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ فتبسم رسول اللَّه ﷺ فقلت : يا رسول اللَّه قد دخلت على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول اللَّه ﷺ فتبسم أخرى ، فقلت : أستأنس يا رسول اللَّه ؟ قال : « نَعَمْ » ، فجلست فرفعت رأسي في البيت فواللَّه ما رأيت في البيت شيئًا يرد البصر إلَّا أهبة مقامه ، فقلت : ادع اللَّه يا رسول اللَّه أن يوسع على أمتك فقد وسَّع على فارس والروم وهم لا يعبدون اللَّه ، فاستوى جالسًا وقال : « أَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، فقلت : استغفر لي يا رسول اللَّه ، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه اللَّه ﷻ [1] .

وعن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبيِّ ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن . فنزلت هذه الآية [2] . وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن منها في نزول الحجاب ، ومنها في أسارى بدر ، ومنها قوله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ومعنى قوله : ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ ﴾ ظاهر . وقوله تعالى : ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ أي صائمات ، قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وعكرمة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٦) .

ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال زيد بن أسلم : ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ أي مهاجرات ، وتلا عبد الرحمن ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ أي المهاجرين والقول الأول أولى والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أي منهن ثيبات ومنهن أبكارًا ليكون ذلك أشهى إلى النفس ؛ فإن التنوع يبسط النفس ولهذا قال : ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ . عن ابن بريدة عن أبيه ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ قال : وعد الله نبيّه ﷺ في الآية أن يزوجه فالثيب آسية امرأة فرعون ، وبالأبكار مريم بنت عمران .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

عن رجل عن علي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ يقول : أدبوهم وعلموهم . وقال ابن عبّاس : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار ، وقال مجاهد : اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله وقال قتادة : تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها وزجرتهم عنها . وهكذا قال الضحاك ومقاتل : حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه . عن عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ ، فَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا » (١) . قال الفقهاء : وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمرينًا له على العبادة لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر ، والله الموفق .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ ﴿ وَقُودُهَا ﴾ أي حطبها الذي يلقى فيها جثث بني آدم ﴿ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ قيل : المراد بها الأصنام التي تعبد ، وقيل : هي حجارة من كبريت ، أنتن من الجيفة ، وعن عبد العزيز بن أبي داود قال : بلغني أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ وعنده بعض أصحابه وفيهم شيخ فقال الشيخ : يا رسول الله حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال النبيُّ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَصَخْرَةٌ مِنْ صَخْرِ جَهَنَّمَ أَعْظَمُ مِنْ جِبَالِ الدُّنْيَا كُلِّهَا » قال : فوقع الشيخ مغشيًا عليه فوضع النبيُّ ﷺ يده على فؤاده فإذا هو حي فناداه قال : « يَا شَيْخُ قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه » فقالها فبشره بالجنّة قال : فقال أصحابه : يا رسول الله أمن بيننا ؟ قال : « نَعَمْ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ » (٢) وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ أي طباعهم غليظة قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿ شِدَادٌ ﴾ أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج . عن عكرمة أنه قال : إذا وصل أول

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٤) والهيثمي في السنن (١١/٢) .
(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٧٣/٤) .

أهل النار إلى النار وجدوا على الباب أربعمائة ألف من خزنة جهنم سود وجوههم ، كالحة أنيابهم ، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة ، ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة ، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر ، ثم يجدون على الباب التسعة عشر ، عرض صدر أحدهم سبعون خريفًا ، ثم يهوون من باب إلى باب خمسمائة سنة ، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول حتى ينتهوا إلى آخرها ، وقوله : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ . أي مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه لا يتأخرون عنه طرفة عين وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه وهؤلاء هم الزبانية - عياذًا بالله منهم - وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ولا تجزون اليوم إلا ما كنتم تعملون ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم ، ثم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ أي توبة صادقة جازمة تمحوا ما قبلها من السيئات ، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات .

وعن النعمان سئل عمر عن التوبة النصوح فقال : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبدًا .

ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر ويندم على ما سلف منه في الماضي ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل ، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه . عن عبد الله بن مغفل قال : دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود فقال : أنت سمعت النبيَّ ﷺ يقول : « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » ؟ قال : نعم . وقال مرة : نعم سمعته يقول : « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » [(١)] . عن أُبيٍّ بن كعب قال : قيل لنا : أشياء تكون في آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة ، منها نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها نكاح الرجل الرجل وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها نكاح المرأة المرأة وذلك ما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحًا ، قال زر : فقلت لأبي بن كعب : فما التوبة النصوح ؟ فقال : سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « هُوَ النَّدَمُ عَلَى الذَّنْبِ حِينَ يَفْرُطُ مِنْكَ فَتَسْتَغْفِرَ اللَّه بِنَدَامَتِكَ مِنْهُ عِنْدَ الحَاضِرِ ثُمَّ لَا تَعُودَ إِلَيْهَ أَبَدًا » [(٢)] وعن الحسن قال : التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته وتستغفر منه إذا ذكرته ، فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجب ما قبلها من الخطيئات كما ثبت في الصحيح : « الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ ، وَالتَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا » [(٣)] . وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات - كما تقدم في الحديث وفي الأثر - ثم لا يعود فيه أبدًا ، أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضارًا في تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه الصلاة والسلام : « التَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا » وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضًا « مَنْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٤٥/٦) والهندي في كنز العمال (١٠٤٢٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٥/٤) .

أَحْسَنَ فِي الإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلَامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ » (١) فإذا كان هذا في الإسلام هو الذي أقوى من التوبة فالتوبة بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ وعسى من الله موجبة ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ أي : ولا يخزيهم معه يعني يوم القيامة ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾ قال مجاهد والضحَّاك والحسن البصري وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفئ . وعن رجل من بني كنانة قال : صلَّيت خلف رسول الله ﷺ عام الفتح فسمعته يقول : « اللَّهُمَّ لا تُخْزِنِي يَوْمَ القِيَامَةِ » (٢) . وعن عبد الرَّحمن بن جبير بن نفير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ فِي السُّجُود يومَ القِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بِرفْع رَأْسِهِ فَأَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيَّ فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ ، وَأَنْظُرُ عَنْ يَمِينِي فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مَنْ بَيْنِ الأُمَمِ ، وَأَنْظُرُ عَنْ شِمَالِي فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ » فقال رجل : يا رسول الله : وكيف تعرف أمتك من بين الأمم ؟ قال : « غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ آثار الطُّهُورِ ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَ الأُمَمِ كَذلِكَ غَيْرهم ، وَأَعْرِفُهُمْ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِم ، وَأَعْرِفُهُم بِسِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، وَأَعْرِفُهُمْ بِنُورِهِمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » (٣) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بجهاد الكفَّار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي في الآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئًا ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم ، ثم ذكر المثل فقال : ﴿ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ ﴾ أي : نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلًا ونهارًا يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أي في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان ولا صدقاهما في الرسالة ، فلم يجد ذلك كله شيئًا ولا دفع عنهما محذورًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي لكفرهما ﴿ وَقِيلَ ﴾ أي للمرأتين ﴿ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ وليس المراد بقوله ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ في فاحشة ، بل في الدين فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة ، لحرمة الأنبياء ؛ فعن ابن عبَّاس في هذه الآية ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال : ما زنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه . وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء على ضعف الحديث

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٠) وأحمد في مسنده (٤٣١/١) وابن ماجه في السنن (٤٢٤٢) والبيهقي في السنن (١٢٣/٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٥) والحاكم في المستدرك (٤٧٨/٢) والبيهقي في السنن (١٧٢/٦) .

الذي يأثره كثير من الناس : من أكل مع مغفور له غفر له . وهذا الحديث لا أصل له وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبيَّ ﷺ في المنام فقال : يا رسول الله أنت قلت : من أكل مع مغفور له غفر له ؟ قال : لا ، ولكني الآن أقوله .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ .

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم . قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم ، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحدًا إلَّا بذنبه . عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أظلَّتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها في الجنة . وعن القاسم بن أبي بزة قال : كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون فتقول : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون ، فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنَّة فمضت على قولها وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح [1] . فقولها ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ، وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾ أي خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله ﴿ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا . عن أبي العالية قال : كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون ، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوقع المشط من يدها . فقالت : تعس من كفر بالله ، فقالت لها بنت فرعون : ولك رب غير أبي ؟ قالت : ربي ورب أبيك ورب كل شيء الله ، فلطمتها بنت فرعون وضربتها وأخبرت أباها ، فأرسل إليها فرعون فقال : تعبدين ربًّا غيري ؟ قالت : نعم ربي وربك رب كل شيء الله وإياه أعبد ، فعذبها فرعون وأوتد لها أوتادًا فشدَّ يديها ورجليها وأرسل عليها الحيات فكانت كذلك فأتى عليها يومًا فقال لها : ما أنت منتهية ؟ فقالت له : ربي وربك ورب كل شيء الله . فقال لها : إني ذابح ابنك في فيك إن لم تفعلي . فقالت له : اقض ما أنت قاض ، فذبح ابنها في فيها ، وإن روح ابنها بشَّرها ، قال لها : أبشري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا ، فصبرت ، ثم أتى عليها فرعون يومًا آخر فقال لها مثل ذلك ، فقالت له مثل ذلك ، فذبح ابنها الآخر في فيها ، فبشَّرها روحه أيضًا ، وقال لها : اصبري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا ، قال : سمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنت امرأة فرعون وقبض الله روح امرأة خازن فرعون وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها في الجنَّة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيمانًا ويقينًا وتصديقًا فأطلع الله فرعون على إيمانها فقال للملأ : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها فقال لهم :

---

(١) تفسير الطبري (٢١٨/٢٨) .

إنها تعبد غيري . فقالوا له : اقتلها ، فأوتد لها أوتادًا فشد يديها ورجليها ، فدعت آسية ربها فقالت : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة . فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها إنا نعذِّبها وهي تضحك ، فقبض اللَّه روحها في الجنَّة رضي الله عنها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي حفظته وصانته ، والإحصان : هو العفاف والحرية ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أي : بواسطة الملك وهو جبريل ، فإن اللَّه بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي وأمره اللَّه تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ولهذا قال تعالى ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ أي بقدره وشرعه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ . عن ابن عبَّاس قال : خطَّ رسول اللَّه ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال : « أَتَدرُونَ مَا هذَا ؟ » قالوا : اللَّه ورسوله أعلم ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ : خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَونَ » (١) . وعن أبي موسى الأشعري عن النبيِّ ﷺ قال : « كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » (٢) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٩٣) والحاكم في المستدرك (٢/٥٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٦٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٧٠) والترمذي في الترمذي (١٨٣٤) وأحمد في مسنده (٤/٣٩٤) .

سورة الملك

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ سُورَةً فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثِينَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ : تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ »[١] . وعن ابن عبَّاس قال : ضرب بعض أصحاب النبيِّ ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتي النبيَّ ﷺ فقال : يا رسول الله ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا إنسان يقرأ سورة الملك : تبارك حتى ختمها ، فقال رسول الله ﷺ : « هِيَ الْمَانِعَةُ ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ »[٢] . وعن جابر أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ : ألم تنزيل وتبارك الذي بيده الملك[٣] ، وقال ليث عن طاوس : يفضلان كل سورة في القرآن بسبعين حسنة .

وعن ابن عبَّاس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ! قال : بلى ، قال : اقرأ تبارك الذي بيده الملك وعلِّمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة ، أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطالب له أن ينجيه من عذاب النار وينجى بها صاحبها من عذاب القبر . قال رسول الله ﷺ : « لَوَدِدْتُ أَنَّهَا فِي قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي »[٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

يمجِّد تعالى نفسه الكريمة ويخبر أنه بيده الملك أي هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ولا يُسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ واستدل بهذه الآية من قال : إن الموت أمر وجودي لأنه مخلوق . ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم أيهم أي يختبرهم أيهم أحسن عملًا فسمى الحال الأول وهو العدم موتًا ، وسمى هذه النشأة حياة ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي خير عملًا ولم يقل أكثر عملًا . ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ أي هو العزيز العظيم المنيع الجناب وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب بعد ما عصاه وخالف أمره وإن كان تعالى عزيزًا هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز . ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ أي طبقة بعد طبقة وهل هن متواصلات بمعنى أنهن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٢١) والترمذي في السنن (٢٨٩١) وابن ماجه في السنن (٣٧٨٦) والحاكم في المستدرك (٢/٤٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٧٧) والألباني في الصحيحة (١١٤٠).

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٢).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/٥٦٥)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٧٧).

علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن خلاء ، فيه قولان أصحهما الثاني كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۢ ﴾ أي بل وهو مصطحب مستو ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أي : انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيبًا أو نقصًا أو خللًا أو فطورًا ؟ ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أي : شقوق وقال السدي : من خروق . وقال ابن عباس : من وهاء . وقال قتادة : هل ترى خللًا يا ابن آدم ؟

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي مرتين ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ قال ابن عباس : ذليلًا . وقال مجاهد : صاغرًا ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ يعني وهو كليل ، وقال مجاهد والسدي : الحسير المنقطع من الإعياء ، ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر مهما كررت لانقلب إليك أي لرجع إليك البصر ﴿ خَاسِئًا ﴾ عن أن يرى عيبًا أو خللًا ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ولا يرى نقصًا ، ولما نفى عنها في خلقها النقص بيَّن كمالها وزينتها فقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ عاد الضمير في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء ؛ بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ، والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي : جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى . قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها الله زينة للسماء ، ورجومًا للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأوَّل فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ أعتدنا ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي بئس المآل والمنقلب ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا ﴾ قال ابن جرير : يعني الصياح ﴿ وَهِىَ تَفُورُ ﴾ قال الثوري : تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير . وقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ أي تكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه وأنه لا يعذب أحدًا إلَّا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم . قال الله تعالى : ﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ . عن أبي البحتري الطائي قال : أخبرني من سمعه

من رسول اللّه ﷺ أنه قال : « لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » [١] وفي حديث آخر : « لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ النَّارَ إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ النَّارَ أَوْلَى بِهِ مِنَ الجَنَّةِ » [٢] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن الناس فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلّا اللّه تعالى بأنه له مغفرة وأجر كبير ؛ أي تكفّر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل كما ثبت في الصحيحين : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللّه تَعَالَى فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » . فذكر منهم « رَجُلًا دَعَتْهُ امرأة ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللّه ، وَرَجُلًا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ » [٣] . وعن أنس قال : قالوا : يا رسول اللّه إنا نكون عندك على حال فإذا فارقناك كنا على غيره ، قال : « كَيْفَ أَنْتُمْ وَرَبُّكُمْ ؟ » . قالوا : اللّه ربنا في السر والعلانية ، قال : « لَيْسَ ذلِكُمُ النِّفَاقُ » [٤] . ثم قال تعالى منبهًا على أنه مطلع على الضمائر والسرائر ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بما يخطر في القلوب ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ أي ألا يعلم الخالق ، وقيل : معناه ألا يعلم اللّه مخلوقه . والأول أولى لقوله ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ، ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب ؛ بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئًا إلّا أن ييسره اللّه لكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل . عن عمر بن الخطاب إنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللّه حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » [٥] . فأثبت لها رواحًا وغدوًّا لطلب الرزق مع توكلها على اللّه ﷻ وهو المسخِّر المسيِّر المسبِّب ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ أي المرجع يوم القيامة . قال ابن عبّاس ومجاهد والسدي وقتادة : مناكبها أطرافها وفجاجها ونواحيها ، وقيل : مناكبها الجبال . عن بشير بن كعب أنه قرأ هذه الآية ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ فقال لأم ولد له : إن علمت ما مناكبها فأنت عتيقة ، فقالت : هي الجبال ، فسأل أبا الدرداء فقال : هي الجبال .

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٣٤٧) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٥) .
(٢) أخرجه الطبرني في الكبير (١٤١/١١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٧/٧) .
(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة (٩١) والترمذي في السنن (٢٣٩١) وأحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .
(٤) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٣٢/٢) والسيوطي في الدر المنثور (٥٤/٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/١) والألباني في الصحيحة (٣١٠) وابن حبان في صحيحه (٢٠٤٨) .

وهذا أيضًا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل وقال ههنا : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أي : تذهب وتجيء وتضطرب ﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ ﴾ أي : ريحًا فيها حصباء تدمغكم ، وهكذا توعدهم ههنا بقوله ﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴾ أي : كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذب به . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ أي من الأمم السالفة والقرون الخالية ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم ، أي عظيمًا شديدًا أليمًا . ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ ﴾ أي تارة يصففن أجنحتهن في الهواء وتارة تجمع جناحًا وتنشر جناحًا ﴿ مَا يُمۡسِكُهُنَّ ﴾ أي في الجو ﴿ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ ﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴾ أي : بما يصلح كل شيء من مخلوقاته .

﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ .

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره يبتغون عندهم نصرًا ورزقًا منكرًا عليهم فيما اعتقدوه ومخبرًا لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه فقال تعالى : ﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ولا ناصر لكم غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ ﴾ أي من هذا الذي إذا قطع اللَّه عنكم رزقه يرزقكم بعده أي لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا اللَّه ﷻ وحده لا شريك له ، أي وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴾ أي في معاندة واستكبار ونفور على إدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه ، ثم قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ وهذا مثل ضربه اللَّه للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبًا على وجهه أي يمشي منحنيًا لا مستويًا على وجهه ، أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب ، بل تائه حائر ضال أهذا أهدى ﴿ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا ﴾ أي منتصب القامة ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أي على طريق واضح بيِّن وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة ، هذا مثلهم في الدنيا وكذلك يكونون في الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ الآيات ، أزواجهم أشباههم . عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول اللَّه كيف يحشر الناس على وجوههم فقال : « أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا على أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ قُلۡ هُوَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٦٧) .

﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي العقول والإدراك ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم اللَّه بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون بعد هذا التفرّق والشتات يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم. ثم قال تعالى مخبرًا عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي: متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلّا اللَّه ﷻ ولكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: وإنما عليَّ البلاغ وقد أديته إليكم.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي لما قامت القيامة وشاهدوا الكفّار ورأوا أن الأمر كان قريبًا؛ لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما لهم هناك من البشر، أي فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر اللَّه ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾. ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي تستعجلون.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين باللَّه الجاحدين لنعمه ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي خلصوا أنفسكم فإنه لا منقذ لكم من اللَّه إلّا التوبة والإنابة والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال فسواء عذبنا اللَّه أو رحمنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم وعليه توكلنا في جميع أُمورنا كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: منا ومنكم ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى إظهارًا للرحمة في خلقه ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي ذاهبًا في الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد، والغائر عكس النابع، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ أي نابع سائح جار على وجه الأرض، أي: لا يقدر على ذلك إلّا اللَّه ﷻ فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فللّه الحمد والمنة.

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .

المراد بقوله ﴿ نٓ ﴾ حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط وهو حامل للأرضين السبع . عن ابن عبَّاس قال : أول ما خلق الله القلم قال : اكتب . قال : وماذا أكتب ، قال : اكتب القدر ، فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى قيام الساعة ، ثم خلق النون ورفع بخار الماء ففتقت منه السماء ، وبسطت الأرض على ظهر النون فاضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال ، فإنها لتفخر على الأرض .

روي عن أنس أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فسأله عن أشياء قال : إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلَّا نبي ، قال ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه ؟ وما بال الولد ينزع إلى أمه ؟ قال : « أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا » . قال ابن سلام : فذاك عدو اليهود من الملائكة قال : « أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ : فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ المشرق إلى المَغْرِبِ ، وَأَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ : زِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ ، وَأَمَّا الوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ المَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ » (١) . وعن ثوبان أن حبرًا سأل رسول الله ﷺ عن مسائل فكان منها أن قال : فما تحفتهم - يعني أهل الجنَّة - حين يدخلون الجنة قال : « زِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ » . قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال : « يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلا » (٢) . وقيل : المراد بقوله ﴿ نٓ ﴾ لوح من نور . وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ ، وَقَلَمٌ مِنْ نُور ، يَجْرِي بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَلَمِ ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به ، فهو قسم منه تعالى وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعني وما يكتبون وقال السدي : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعني الملائكة وما تكتب من أعمال العباد . وقال آخرون : بل المراد ههنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام ، وعن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : دعاني أبي حين حضره الموت فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ . قَالَ : يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبِ القَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ » (٤) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٩/٣) والبخاري في مناقب الأنصار (٣٩٣٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الحيض (٣٤) وأحمد في مسنده (١٨٩/٣) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٥٠/٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٧/٥) وأبو داود في السنن (٤٧٠٠) والبيهقي في السنن (٢٠٤/١٠) والترمذي في السنن (٣٣١٩) .

وعن مجاهد : ﴿ وَٱلْقَلَمِ ﴾ يعني الذي كتب به الذكر . وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي : يكتبون كما تقدم .

وقوله تعالى : ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي : لست ولله الحمد بمجنون كما يقوله الجهلة من قومك المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي : بل إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على أذاهم ، ومعنى غير ممنون ؛ أي غير مقطوع عنهم . وقال مجاهد : أي غير محسوب وهو يرجع إلى ما قلناه . وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن عبَّاس : وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام . وقال عطية : لعلى أدب عظيم . قال قتادة : سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن تقول كما هو في القرآن [١] . وعن رجل من بني سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : قلت : حدثيني عن ذاك . قالت : صنعت له طعامًا وصنعت له حفصة طعامًا ، فقلت لجاريتي : اذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعته قبل فاطرحي الطعام . فجاءت بالطعام . قالت : فألقت الجارية فوقعت القصعة فانكسرت وكان نطع ، قالت : فجمعه رسول الله ﷺ وقال : « اقتصوا - أو اِقْتَصِّي شك أسود - ظَرْفًا مَكَانَ ظَرْفِكِ » . قالت : فما قال شيئًا [٢] .

ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجية له وخلقًا تطبعه وترك طبعه الجبلي ، فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل . عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء فعلتُه لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا ، ولا مسست خزًا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ [٣] ، وعن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسن الناس خلقًا ، ليس بالطويل ولا بالقصير [٤] وعن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شيئًا قط إلَّا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خيِّر بين شيئين قط إلَّا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا ، فإذا كان إثمًا ، كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلَّا أن تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله ﷻ [٥] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ » [٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ أي : فستعلم يا محمَّد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم ، قال ابن عبَّاس في هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/١٦٣) والبيهقي في السنن (٢/٤٩٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/١١١) .
(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٣٨) .
(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٤٩) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٣٢) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٨١) .

وقال ابن عبّاس : ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ أي المجنون . وقال قتادة وغيره : ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ أي أولى بالشيطان . ومعنى المفتون : الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه ، وإنما دخلت الباء في قوله : ﴿ بِأَييِّكُمُ ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ وتقديره فستعلم ويعلمون أي فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون ، والله أعلم . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أي هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي ويعلم الحزب الضال عن الحق .

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ .

يقول تعالى كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : لو ترخص لهم فيرخصون . وقال مجاهد : تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق . ثم قال تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها في كل وقت في غير محلها . قال ابن عبّاس : المهين الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب . قال الحسن : ﴿ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ مكابر ﴿ مَّهِينٍ ﴾ ضعيف . وقوله تعالى : ﴿ هَمَّازٍ ﴾ قال ابن عبّاس وقتادة : يعني الاغتياب ﴿ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾ يعني الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهي الحالقة . عن ابن عبّاس قال : مرّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا : فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ : فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ » (١) . وعن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ » (٢) . وعن أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبيّ ﷺ قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ ؟ » . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ ﷻ » ثم قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ المَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ ، المُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ البَاغُونَ لِلْبُرَآءِ العنت » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أي : يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي : يتناول المحرمات ، وقوله تعالى : ﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ أما العتل : فهو الفظ الغليظ الصحيح الجموع المنوع . عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ ، أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ » (٤) . عون زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « تَبْكِي السَّمَاءُ مِنْ عَبْدٍ أَصَحَّ اللَّهُ جِسْمَهُ ، وَأَرْحَبَ جَوْفَهُ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الدُّنْيَا هَضْمًا ، فَكَانَ لِلنَّاسِ ظَلُومًا . قال :

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦١) والترمذي في السنن (٧٠) والنسائي في السنن (٤/١٠٦) وابن ماجه في السنن (٣٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٦) ومسلم في الإيمان (١٦٩) وأبو داود في السنن (٤٨٧١) والترمذي في السنن (٢٠٢٦) وأحمد في مسنده (٥/٣٩٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٥٩) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٨) وأحمد في مسنده (٤/٣٠٦) .

فذلِكَ العُتُلُّ الزَّنِيمُ » [١] . وأما الزنيم : فقال ابن عبَّاس : رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة ، ومعنى هذا أنه كان مشهورًا بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها ، وإنما الزنيم في لغة العرب هو الدعي في القوم : ومنه قول حسان بن ثابت يذم بعض كفار قريش :

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيط فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نيط خَلْفَ الرَّاكِبِ القدح الفرد

عن ابن عبَّاس في قوله : ﴿ زَنِيمٍ ﴾ قال : الدعي الفاحش اللئيم . ثم قال ابن عبَّاس :

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَة كَمَا زِيدَ فِي عَرْضِ الأَدِيمِ الأَكَارِع

ويقال : الزنيم رجل كانت به زنمة يعرف بها ويقال : هو الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة ، وزعم أناس من بني زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري وليس به ، وعن ابن عبَّاس أنه زعم أن الزنيم الملحق النسب ، وعن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول في هذه الآية ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال سعيد : هو الملصق بالقوم ليس منهم . وسئل عكرمة عن الزنيم قال : هو ولد الزنى ، وقال : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء ، والزنماء من الشياه التي في عنقها هنتان معلقتان في حلقها . وعن سعيد بن جبير قال : الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها ، والزنيم الملصق ، ويقال : هو اللئيم الملصق في النسب ، وقال مجاهد : الذي يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة ، وقال أبو رزين : الزنيم علامة الكفر ، وقال عكرمة : الزنيم الذي يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها . والأقوال في هذا كثيرة. وترجع إلى ما قلناه وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر الذي يعرف به من بين الناس وغالبًا يكون دعيًا ولد زنى ؛ فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره كما جاء في الحديث : « لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ وَلَدُ زِنَى » [٢] . وفي الحديث الآخر : « وَلَدُ الزِّنَى شَرُّ الثَّلَاثَةِ إِذَا عَمِلَ بِعَمَلِ أَبَوَيْهِ » [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يقول تعالى هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله ﷻ وأعرض عنها وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين . وقال تعالى ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ قال ابن جرير : سنبين أمره بيانًا واضحًا حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم ، وهكذا قال قتادة ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه . وفي رواية عنه : سيما على أنفه ، وقال ابن عبَّاس ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال ، وقال آخرون : ﴿ سَنَسِمُهُۥ ﴾ سمة أهل النار يعني نسود وجهه يوم القيامة وعبر عن الوجه بالخرطوم ، حكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة . وهو متجه . وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ العَبْدَ يُكْتَبُ مُؤْمِنًا أَحْقَابًا ثُمَّ يَمُوتُ وَاللَّه عَلَيْهِ سَاخِطٌ ، وَإِنَّ العَبْدَ يُكْتَبُ كَافِرًا

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٢٥٢/٦) والطبري في تفسيره (٣٠/٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٥٨/١٠) والدارمي في السنن (١١٢/٢) والألباني في الصحيحة (٢٨٥/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٩٦٣) وأحمد في مسنده (٣١١/٢) والحاكم في المستدرك (١٠٠/٤) والبيهقي في السنن (٩١/٣) .

أَحْقَابًا ثُمَّ أَحْقَابًا ثُمَّ يَمُوتُ وَاللهُ عَلَيْهِ رَاضٍ ، وَمَنْ مَاتَ هَمَّازًا لَمَّازًا مُلَقَّبًا لِلنَّاسِ ؛ كَانَ عَلَامَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَسِمَهُ اللهُ عَلَى الخرطومِ مِنْ كِلا الشَّفَتَيْنِ » [(١)] .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفَّار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة وهو بعثة محمَّد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ﴾ أي اختبرناهم ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلًا لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي : فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم الله في أيمانهم فقال تعالى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ أي : أصابتها آفة سماوية ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ قال ابن عبَّاس : أي كالليل الأسود . وقال الثوري والسدي : مثل الزرع إذا حصد أي هشيمًا يبسًا . وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالمَعَاصِي ؛ إِنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ الذنب فَيُحْرَمُ بِهِ رِزقًا قَدْ كَانَ هُيِّئَ لَهُ » . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ [(٢)] قد حرموا خير جنتهم بذنبهم ﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴾ أي لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضًا ليذهبوا إلى الجذاذ أي القطع ﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ أي : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عنبًا ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ أي يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحدًا كلامهم .

ثم فسر الله سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي : يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم . قال الله تعالى : ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أي قوة وشدة ، وقال مجاهد : جد ، وقال الشعبي : على المساكين ، وقال السدي : كان اسم قريتهم حرد . فأبعد السدي في قوله هذا ﴿ قَٰدِرِينَ ﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرومون ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أي : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهي على الحالة التي قال الله ﷻ قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها . فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها . قاله ابن عباس وغيره ، ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي بل هي هذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي أعدلهم وخيرهم ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أي لولا تستثنون . قال السدي : وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحًا ، وقال ابن جرير : هو قول القائل إن شاء الله ، وقيل معناه : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٣/٧) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥٣/٦ .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع وندموا واعترفوا حيث لا ينجع .

ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلَّا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أي اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ قيل : رغبوا في بذلها لهم في الدنيا ، وقيل : احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة ، والله أعلم . ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها ضروان على ستة أميال من صنعاء . وقيل : كانوا من أهل الحبشة وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنَّة وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : لقد كان أبونا أحمق ، إذ كان يصرف من هذه شيئًا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية : رأس المال والربح والصدقة فلم يبق لهم شيء ، قال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات وبدَّل نعمة الله كفرًا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله ﷻ وخالفوا أمره ، بيَّن أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها ، ثم قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ، ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي كيف تظنون ذلك ؟ ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ يقول تعالى أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف متضمن حكمًا مؤكدًا كما تدعونه ؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أي أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أي أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أي : قل لهم من هو المتضمن المتكفل بهذا ؟ قال ابن عبَّاس : أيهم لذلك كفيل ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ۝ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ؛ بيَّن متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى : ﴿ يَوْمَ

﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت النبيَّ ﷺ يقول : « يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمعة ، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا »(١) . وعن ابن عبَّاس ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال : هو يوم القيامة يوم كرب وشدة . وعن مجاهد : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال : شدة الأمر ، وقال ابن عباس : هي أشد ساعة تكون في يوم القيامة ، وقال مجاهد ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال : شدة الأمر وجده . وقال ابن عبَّاس : هو الأمر الشديد الفظيع من الهول يوم القيامة ، وقال أيضًا : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال ، وكشفه دخول الآخرة وكشف الأمر عنه . وقوله تعالى : ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي : في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبُّرهم في الدنيا فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه ، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة ، إذا تجلى الرب ﷻ فيسجد له المؤمنون لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا كلما أراد أحدهم أن يسجد خرَّ لقفاه عكس السجود كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ، وهذا تهديد شديد أي دعني وإياه مني منه أنا أعلم به كيف أستدرجه وأمده في غيه وأنظره ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال تعالى : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون بل يعتقدون أن ذلك من اللّٰه كرامة وهو في نفس الأمر إهانة ولهذا قال : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي : وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدي ومكري بهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي عظيم لمن خالف أمري وكذَّب رسلي واجترأ على معصيتي .

وفي الصحيحين عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » .

ثم قرأ : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(٢) . وقوله تعالى : ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ والمعنى في ذلك أنك يا محمَّد تدعوهم إلى اللّٰه ﷻ بلا أجر تأخذه منهم بل ترجو ثواب ذلك عند اللّٰه تعالى وهم يكذبون بما جئتهم به بمجرد الجهل والكفر والعناد .

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ .

يقول تعالى ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمَّد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن اللّٰه سيحكم لك عليهم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسيره (٤٩١٩) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦) والترمذي في السنن (٣١١٠) وابن ماجه في السنن (٤٠١٨) .

ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ يعني ذا النون وهو يونس ابن متى عليه السلام حين ذهب مغاضبًا على قومه فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير ، فحينئذ نادى في الظلمات ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ وهو مغموم ، وقيل : مكروب . عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنا خَيرٌ مِن يُونُسَ بْنَ مَتَّى » [(١)] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ قال ابن عبَّاس ومجاهد وغيرهما ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ لينفذونك ﴿ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ أي يعينونك بأبصارهم بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك وحمايته إيَّاك منهم ، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَينٍ أَوْ حمةٍ أَوْ دَمٍ لا يَرْقَأُ » [(٢)] . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ العَيْنَ لَتُولِعُ الرَّجُلَ بِإِذْنِ اللَّه فَيَتَصَاعَدُ حَالِقًا ثُمَّ يَتَرَدَّى مِنْهُ » [(٣)] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَا بَأْس فِي الهَام ، وَالعَيْنُ حَق ، وَأَصْدَق الطيرَة الفَأْل » [(٤)] .

وعنه ﷺ قال : « العَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقٌ القَدَرَ سَبَقَتِ العَيْنُ وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا » [(٥)] .

وعن ابن عبَّاس قال : كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين يقول : « أُعِيذُكُما بِكَلِمَاتِ اللَّه التَّامَّةِ مِنْ كلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ . وَمِنْ كلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ » . ويقول : « هكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُعَوِّذُ إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام » [(٦)] .

وعن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال : مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل . فقال : لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة . فما لبث أن لبط به فأتي به رسول الله ﷺ فقيل له : أدرك سهلًا صريعًا قال : « مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ ؟ » . قالوا : عامر بن ربيعة ، قال : « عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أخاه ؟ إذا رأى أحدكم مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالبَرَكَةِ » . ثم دعا بماء فأمر عامرًا أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلة إزاره ، وأمره أن يصب عليه [(٧)] . وعن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك [(٨)] . وعن أبي سعيد أن جبريل أتى النبيَّ ﷺ فقال : اشتكيت يا محمَّد ؟ قال :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٠/١) والبخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٦) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٨٩) والترمذي في السنن (٢٠٥٧) وابن ماجه في السنن (٣٥١٣) وأحمد في مسنده (٤٣٨/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/٥) والألباني في الصحيحة (٨٨٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٤) والترمذي في السنن (٢٠٦١) والطبراني في الكبير (١٩٢/٨) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٤/١) ومسلم في السلام (٤١) .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٣٧) والترمذي في السنن (٢٠٦٠) .

(٧) أخرجه النسائي في السنن (القسامة ب ٤) والبيهقي في السنن (٣٦١/٩) .

(٨) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٥٨) .

« نَعَمْ » . قال : باسم اللّٰه أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين تشنيك ، واللّٰه يشفيك ، باسم اللّٰه أرقيك » [(١)] .

وعن عبد اللّٰه بن عمرو قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « لَا عَدْوَى ، وَلَا طِيَرَةَ ، وَلَا هَامَّةَ ، وَلَا حَسَدَ ، وَالعَيْنُ حَقٌّ » [(٢)] وعن علي ﷺ أن جبريل أتى النبي فوافقه مغتمًا فقال : يا محمَّد ما هذا الغم الذي أراه في وجهك ؟ قال : « الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ أَصَابَتْهُمَا عَيْنٌ » قال : صدِّق بالعين ،فإن العين حق ، أفلا عوذتهما بهؤلاء الكلمات ؟ قال : « وَمَا هُنَّ يَا جِبْرِيلُ ؟ » قال : قل : اللّٰهمَّ ذا السلطان العظيم والمن القديم ذا الوجه الكريم ولي الكلمات التامات والدعوات المستجابات عاف الحسن والحسين من أنفس الجن وأعين الإنس . فقالها النبيُّ ﷺ فقاما يلعبان بين يديه فقال النبيُّ ﷺ : « عَوِّذُوا أَنْفُسَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ بِهَذَا التَّعْوِيذِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّذِ المُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِ » [(٣)] . وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم ويقولون إنه لمجنون أي لمجيئه بالقرآن ، قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٢/٢) .

(٣) أورده الهندي في كنز العمال (٢٨٥٤٦) .

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ .

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ من أسماء يوم القيامة لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ، ولهذا عظَّم الله أمرها فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ وهي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكنتهم ، وقال مجاهد : الطاغية الذنوب ، وقال السدي : ﴿ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ قال : يعني عاقر الناقة ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أي باردة ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أي شديدة الهبوب . قال قتادة : عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم . وقال الضحَّاك ﴿ صَرْصَرٍ ﴾ باردة ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة . وقال علي وغيره : عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب . ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي سلَّطها عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أي كوامل متتابعات مشائيم . قال ابن مسعود وابن عبَّاس ومجاهد وغيرهم : حسومًا متتابعات . قال الربيع : وكان أولها الجمعة وقال غيره الأربعاء ويقال : إنها التي تسميها الناس الأعجاز ، وكأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ وقيل : لأنها تكون في عجز الشتاء ويقال : أيام العجوز ؛ لأن عجوزًا من قوم عاد دخلت سربًا فقتلها الريح في اليوم الثامن ، قال ابن عبَّاس : ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ خربة ، وقيل : بالية أي جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتًا على أمِّ رأسه فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرَّت بلا أغصان . وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ »[(١)] . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى عَادٍ مِنَ الرِّيحِ الَّتِي هَلَكُوا بِهَا إِلَّا مِثْلَ مَوْضِعِ الخَاتَمِ ، فَمَرَّتْ بِأَهْلِ البَادِيَةِ فَحَمَلَتْهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَجَعَلَتْهُمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَهْلُ الحَاضِرَةِ مِنْ عَادٍ الرِّيحَ وَمَا فِيهَا ، قَالُوا : هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ، فَأَلْقَتْ أَهْلَ البَادِيَةِ وَمَوَاشِيَهُمْ عَلَى أَهْلِ الحَاضِرَةِ »[(٢)] . وعن مجاهد : الريح لها جناحان وذنب ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفًا ثم قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ قرئ بكسر القاف أي : ومن عنده ممن في زمانه من أتباعه من كفار القبط ، وقرأ آخرون بفتحها[(٣)] أي ومن قبله من الأمم المشبهين له . وقوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسل ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ وهي التكذيب بما أنزل الله .

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٣٥) وأحمد في مسنده (٣٥٥/١) والحاكم في المستدرك (٤٥٦/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢/١٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٣/٧) .

(٣) قرأ البصريان والكسائي ﴿ من قِبَله ﴾ بكسر القاف وفتح الباء والباقون بفتح القاف وإسكان الباء (انظر : تقريب النشر ص ١٨٣) .

قال الربيع : ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أي : بالمعصية . وقال مجاهد : بالخطايا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا جنس أي كلٌّ كذَّب رسول الله إليهم ، ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع ، وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ولهذا قال ههنا : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ أي عظيمة شديدة أليمة ، وقال مجاهد : شديدة . وقال السدي : مهلكة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ أي زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود ، وقال ابن عبَّاس وغيره : طغى الماء كثر . وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام على قومه حين كذبوه وخالفوه فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعمَّ أهل الأرض بالطوفان إلَّا من كان مع نوح في السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته . عن علي بن أبي طالب قال : لم تنزل قطرة من ماء إلَّا بكيل على يدي ملك ، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان فطغى الماء على الخزان فخرج ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ أي زاد على الحد بإذن الله ﴿ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ ولم ينزل شيء من الريح إلَّا بكيل على يدي ملك إلَّا يوم عاد ؛ فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت ، فذلك قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ أي عتت على الخزان [1] . ولهذا قال تعالى ممتنًّا على الناس : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه ، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار . وقال قتادة : أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة ، والأول أظهر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أي وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية ، قال ابن عبَّاس : حافظة سامعة . وقال قتادة ﴿ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله . وقال الضحاك : أي : من له سمع صحيح وعقل رجيح ، وهذا عام في كل من فهم ووعى .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن أهوال يوم القيامة وأول ذلك نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلَّا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهي هذه النفخة وقد أكدها ههنا بأنها واحدة ؛ لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد ، وقال الربيع : هي النفخة الأخيرة ، والظاهر ما قلناه ، ولهذا قال ههنا : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي فمدت مد الأديم العكاظي وتبدلت الأرض غير الأرض ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أي : قامت القيامة ﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ . عن علي قال : تنشق السماء من المجرة . وقال ابن عبَّاس : متخرقة والعرش بحذائها ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ الملك اسم جنس أي الملائكة على أرجاء السماء أي حافاتها وقال الضحاك : أطرافها . وقال الحسن البصري : أبوابها ، وقال الربيع بن أنس : على ما استدق من السماء ينظرون إلى أهل الأرض . وقوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ أي : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ،

---

(١) أورده الطبري في تفسيره (٦٢/٢٨) .

ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش : العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب . وفي حديث العباس بن عبد المطلب في ذكر حملة العرش أنهم ثمانية أوعال ، وقال عبد الله بن عمرو : حملة العرش ثمانية ما بين موق أحدهما إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام . وعن محمّد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ بُعْدُ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعُنُقِهِ مَخْفَقُ الطَّيْرِ سَبْعُمَائَةِ عَامٍ » (١) .

وعن سعيد بن جبير قال : ثمانية صفوف من الملائكة . وعن ابن عبّاس : الكروبيون ثمانية أجزاء كل جزء منهم بعدة الإنس والجن والشياطين والملائكة . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أي تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفي عليه شيء من أموركم بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ قال عمر بن الخطاب ﷺ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أخف عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ . عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ ، فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الأَيْدِي ، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ ، وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ » (٢) .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ .

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ أي خذوا اقرأوا كتابيه لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة ، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات . عن أبي عثمان قال : المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله فيقرأ سيئاته فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع إليه لونه ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات قال : فعند ذلك يقول : هاؤم اقرأوا كتابيه . عن عبد الله بن عبد الله حنظلة ، غسيل الملائكة قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدي أي يظهر سيئاته في ظهر صحيفته فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم أي رب ، فيقول له : إني لم أفضحك به وإني قد غفرت لك ، فيقول عند ذلك : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ حين نجا من فضيحته يوم القيامة . وعن ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله ﷺ : « يُدْنِي اللَّهُ العَبْدَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ كُلِّهَا ، حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ بِيَمِينِهِ . وَأَمَّا الكَافِرُ وَالمُنَافِقُ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ : هؤلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أي قد كنت موقنًا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي مرضية ﴿ فِي جَنَّةٍ

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٢٧) والألباني في الصحيحة (١٥١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٤/٤) والترمذي في السنن (٢٤٢٥) وأبو داود في السنن (٤٢٧٧) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٥) وأحمد في مسنده (١٠٥/٢) .

عَالِيَةٍ ﴾ أي رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها .

وقد ثبت في الصحيح « إِنَّ الجَنَّةَ مِائَةَ دَرَجَةٍ مَا بين كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ قال البراء بن عازب : أي قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره . وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ أي يقال لهم ذلك تفضلًا عليهم وامتنانًا وإنعامًا وإحسانًا وإلَّا فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعْمَلُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يُدخِلَهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّه بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » (٢) .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم ﴿ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ قال الضحَّاك : يعني موتة لا حياة بعدها . وقال قتادة : تمنَّى الموت ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴾ أي لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه بل خلص الأمر إليَّ وحدي فلا معين لي ولا مجير فعندها يقول الله ﷻ : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي : يأمر الزبانية أن تأخذه عنفًا من المحشر فتغله أي تضع الأغلال في عنقه ثم توردِه إلى جهنم فتصليه إيَّاها أي تغمره فيها . عن المنهال بن عمرو قال : إذا قال الله تعالى : خذوه ، ابتدره سبعون ألف ملك ، إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقي سبعين ألفًا في النار . وقال الفضيل بن العياض : إذا قال الرب ﷻ ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغل في عنقه ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي اغمروه فيها ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ قال ابن عبَّاس : ﴿ فَٱسْلُكُوهُ ﴾ تدخل في سته ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى . عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ رُضَاضَةً مِثْلَ هذِهِ - وأشار إلى جمجمة - أُرْسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ وَهِيَ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ لَبَلَغَتِ الأَرْضَ قَبْلَ اللَّيْلِ ، وَلَوْ أَنَّهَا أُرْسِلَتْ مِنْ رَأْسِ السِّلْسِلَةِ لَسَارَتْ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَهَا أَوْ أَصْلَهَا » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ أي لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم ، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى ، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقبض النبيُّ ﷺ وهو يقول : « الصَّلاة وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » (٤) . وقوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٣٠) والبيهقي في السنن (٩/١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣) ومسلم في صفة الجنة (٧٥) وأحمد في مسنده (٢/٢٦٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٨٨) والحاكم في المستدرك (٢/٤٣٨) وأحمد في مسنده (٢/١٩٧) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٦٩٧) وأحمد في مسنده (٣/١١٧) .

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ أي ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى لا حميم، وهو لقريب، ولا شفيع يطاع، ولا طعام له ههنا إلّا من غسلين قال قتادة : وهو شر طعام أهل النار. وقال الضحاك : شجرة في جهنم، وقال ابن عباس : الدم والماء يسيل من لحومهم. وقال علي بن أبي طلحة : صديد أهل النار.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مقسمًا لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني محمّدًا ﷺ، أضافه إليه على معنى التبليغ ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل، ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ .

وهذا جبريل ﷺ، ثم قال تعالى ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ يعني محمّدًا ﷺ ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ يعني أن محمّدًا رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أي بمتهم ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فأضافه الله تارة إلى قول الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري ؛ لأن كلًا منهما مبلغ عن الله ما أستأمنه عليه من وحيه وكلامه، ولهذا قال تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال عمر بن الخطّاب : خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال : فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال : فقرأ ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ قال : فقلت : كاهن، قال : فقرأ ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ إلى آخر السورة، قال : فوقع الإسلام في قلبي كل موقع [1]، هذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب ﷺ.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أي محمّد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريًا علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها أو قال شيئًا من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ قيل : معناه لانتقمنا منه باليمين ؛ لأنها أشد في البطش، وقيل : لأخذنا بيمينه ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : وهو نياط القلب وهو العرق الذي القلب معلق فيه، وقال محمّد بن كعب : هو القلب ومراقه وما يليه. وقوله تعالى : ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ أي فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئًا من ذلك. والمعنى في هذا : بل هو صادق

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧/١).

بار راشد ؛ لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني القرآن ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أي مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قال ابن جرير : وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة . عن أبي مالك ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يقول : لندامة ، ويحتمل عود الضمير على القرآن أي وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين . ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي الخبر الصدق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب ، ثم قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي الذي أنزل هذا القرآن العظيم .

سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ .

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ فيه تضمين دل عليه حرف الباء كأنه مقدر ، استعجل سائل بعذاب واقع ، أي وعذابه واقع لا محالة . عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : ذلك سؤال الكفّار عن عذاب الله وهو واقع بهم ، وعن مجاهد : دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة : وهو قولهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاقِعٍ ۝ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي مرصد معد للكافرين . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَاقِعٍ ﴾ : جاءٍ ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ عن ابن عبّاس قال : ذو الدرجات ، وعنه قال : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ يعني العلو والفواضل . وقال مجاهد : معارج السماء وقوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ عن قتادة : ﴿ تَعْرُجُ ﴾ تصعد . وأما الروح فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا ناسًا ، قلت : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ويكون من باب عطف الخاص على العام ، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم ؛ فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء .

وقوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين وهو قرار الأرض السابعة وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العرش عن المركز الذي في وسط الأرض السابعة ، وكذلك اتساع العرش من قطر إلى قطرة مسيرة خمسين ألف سنة وأنه من ياقوتة حمراء . عن ابن عبّاس قال : غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، فذلك سبعة آلاف عام ، وغلظ كل سماء خمسمائة عام ، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام ، فذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

القول الثاني : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة . عن عكرمة قال : الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة لا يدري أحدكم مضى ولا كم بقي إلَّا الله عزَّ وجلَّ .

القول الثالث : أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة وهو قول غريب جدًّا . عن محمَّد بن كعب قال : هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة .

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة . عن ابن عبّاس قال : هو يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، وقد وردت أحاديث في معنى ذلك ، فعن أبي سعيد قال : قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ما أطول هذا اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا

في الدُّنْيَا »[١] . وعن أبي عمر العداني قال : كنت عند أبي هريرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة فقيل له : هذا أكثر عامري مالًا ، فقال أبو هريرة : ردوه إليَّ ، فردوه فقال : نبئت أنك ذو مال كثير ، فقال العامري : أي والله إن لي لمائة حمرًا ومائة أدمًا ، حتى عد من ألوان الإبل وأفنان الرقيق ورباط الخيل . فقال أبو هريرة : إياك وأخفاف الإبل وأظلاف النعم ، يردد ذلك عليه حتى جعل لون العامري يتغير . فقال : ما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كَانَتْ لَهُ إبلٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرِسْلِهَا » قلنا : يا رسول الله ما نجدتها ورسلها ؟ قال : « فِي عُسْرِهَا وَيُسْرِهَا ؛ فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرِهِ وَأَسْمَنِهِ وَآشَرِهِ ، حَتَّى يُبْطَحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ فَتَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا ، فَإِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُوْلَاها ، فِي يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقضى بَيْنَ النَّاسِ فَيُرَى سَبِيلَهُ ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ بَقَرٌ لَا يعطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرِسْلِهَا فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرِهِ وَأَسْمَنِهِ وَآشَرِهِ ثُمَّ يُبْطَحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ فَتَطَؤُهُ كُلُّ ذَاتِ ظَلَفٍ بِظِلْفِهَا ، وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ ولا عَضْبَاءُ إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيُرَى سَبِيلَهُ ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرِسْلِهَا ؛ فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ وَأَسْمَنِهِ وَآشَرِهِ حَتَّى يُبْطَحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ فَتَطَؤُهُ كُلُّ ذَاتِ ظِلْفٍ بِظِلْفِهَا ، وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا ، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ ولا عَضْبَاءُ إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُوْلَاهَا فِي يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيُرَى سَبِيلَهُ » . فقال العامري : وما حق الإبل يا أبا هريرة ؟ قال : أن تعطي الكريمة ، وتمنح الغزيرة ، وتفقر الظهر ، وتسقي الإبل ، وتطرق الفحلَ[٢] .

والغرض من إيراده ههنا قوله : « حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

وسأل رجل ابن عبّاس عن قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، قال : فاتهمه ، فقال : إنما سألتك لتحدِّثني ، قال : هما يومان ذكرهما الله ، الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم . وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ أي اصبر يا محمّد على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعادًا لوقوعه ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ أي وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع بمعنى مستحيل الوقوع ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ أي المؤمنون يعتقدون كونه قريبًا وإن كان له أمد لا يعلمه إلّا الله ﷻ ، ولكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۝ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ .

يقول تعالى العذاب واقع بالكافرين ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ أي كدردي الزيت ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ أي كالصوف المنفوش . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي لا يسأل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٧٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٩٠) .

القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره . قال ابن عبّاس : يعرف بعضهم بعضًا ويتعارفون بينهم ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك . وقوله تعالى ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ﴾ أي لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض وبأعز ما يجده من المال ولو بملء الأرض ذهبًا أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده ، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به ولا يقبل منه . قال مجاهد والسدي : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ قبيلته وعشيرته ، وقال عكرمة : فخذه الذي هو منهم . وقال أشهب عن مالك : أمه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد : جلدة الرأس وقال العوفي عن ابن عباس : الجلود والهام ؛ وقال مجاهد : ما دون العظم من اللحم ، وقال سعيد بن جبير : للعصب والعقب . وقال أبو صالح : أطراف اليدين والرجلين ، وعنه قال : لحم الساقين . وقال الحسن البصري : مكارم وجهه ، وقال قتادة : نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخلقه وأطرافه . وقال الضحّاك : تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئًا . وقوله تعالى : ﴿ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ أي تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر لها أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب ، وذلك أنهم كما قال الله ﷻ كانوا ممن أدبر وتولى أي كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ أي جمع المال بعضه على بعض فأوعاه أي أوكاه ، ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة . وقد ورد في الحديث : « وَلَا تُوعِي فيوعي اللَّه عَلَيْكِ » (١) . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا .

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ثم فسّره بقوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أي إذا مسه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أي إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ومنع حق الله تعالى فيها . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ : شُحٌّ هَالِعٌ ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ » (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ أي الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلّا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه وهم المصلون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ قيل : معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها ، وقيل : المراد بالدوام ههنا السكون والخشوع ، ومنه الماء الدائم

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٣٣) ومسلم في الزكاة (٨٩) وأحمد في مسنده (٣٤٦/٦) والبيهقي في السنن (١٨٧/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٠/٢) .

وهو الساكن الراكد ، وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة ؛ فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته ؛ لأنه لم يسكن فيها ولم يدم بل ينقرها نقر الغراب فلا يفلح في صلاته ، وقيل : المراد بذلك الذين إذا عملوا عملًا داوموا عليه وأثبتوه . عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أَحَبُّ الأَعْمَالِ إلى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » (١). قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملًا داوم عليه ، وفي لفظ : أثبته (٢) وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ ذكر لنا أن دانيال عليه السلام نعت أمة محمّد ﷺ فقال : يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا ، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم ، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة ، فعليكم بالصلاة . فإنها خلق للمؤمنين حسن .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ أي في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات ، وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أي يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون وجلون ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلّا بأمان من الله تبارك وتعالى وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ أي يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ أي من الإماء ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ، وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين كما ورد في الحديث الصحيح : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » (٣) . وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ أي محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتمونها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا في زمن النبيّ ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى وما أيّده الله به من المعجزات الباهرات ، ثم هم مع هذا كله فارون منه متفرقون عنه ، شاردون يمينًا وشمالًا فرقًا فرقًا ، وشيعًا شيعًا ، ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أي فما لهؤلاء الكفّار الذين عندك يا محمّد ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين نافرين منك وقال الحسن البصري : منطلقين ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢١٨) وأحمد في مسنده (١٦٥/٦) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٤١) وأبو داود في السنن (التطوع ب ٢٨) والبيهقي في السنن (٤٨٥/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٨٨/٦) .

﴿ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ واحدها عزة أي متفرقين ، وهو حال من ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي في حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء فهم مخالفون للكتاب مختلفون في الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . وقال ابن عبّاس : قبلك ينظرون ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ قال : العزين : العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به ، وعن الحسن في قوله : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أي متفرقين يأخذون يمينًا وشمالاً يقولون : ما قال هذا الرجل ؟ وقال قتادة : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ عامدين ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أي فرقًا حول النبيّ ﷺ لا يرغبون في كتاب اللّه ولا في نبيه ﷺ . عن جابر بن سمرة : أن رسول اللّه ﷺ خرج عليهم وهم حلق فقال : « مَا لي أَرَاكُمْ عِزِينَ ؟ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝ كَلَّآ ﴾ أي أيطمع هؤلاء والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم ؟ كلا بل مأواهم جهنم . ثم قال تعالى مقررًا لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه واستبعدوا وجوده مستدلًا عليهم بالبداءة التي الإعادة أهون منها وهو معترفون بها فقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أي من المني الضعيف ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ أي الذي خلق السموات والأرض وجعل مشرقًا ومغربًا وسخّر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها . وتقرير الكلام ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نشور ؛ بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة ، ولهذا أتى بلا في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة اللّه تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة وهو خلق السموات والأرض وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات وسائر صنوف الموجودات . وقال : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، فإن قدرته صالحة لذلك ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي بعاجزين . واختار ابن جرير ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي أمة تطيعنا ولا تعصينا . والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم ، ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أي يا محمّد ﴿ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ أي فسيعلمون غبَّ ذلك ويذوقون وباله ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أي يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب ينهضون سراعًا ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ قال ابن عباس : إلى علم يسعون ، وقال أبو العالية : إلى غاية يسعون إليها ، وقد قرأ الجمهور : إلى نصب ، بفتح النون ، وإسكان الصاد (٢) . وهو مصدر بمعنى المنصوب ، وقرأ الحسن البصري نصب بضم النون وهو الصنم أي كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه ﴿ يُوفِضُونَ ﴾ يبتدرون أيهم يستلمه أول . وقوله تعالى ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي خاضعة ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١١٩) وأحمد في مسنده (١٠١/٥) والبيهقي في السنن (٢٣٤/٣) .

(٢) قرأ ابن عامر وحفص ﴿ نُصُبٍ ﴾ بضم النون والصاد ، والباقون بفتح النون وإسكان الصاد (انظر : تقريب النشر ص ١٨٣) .

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه آمرًا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بيِّن النذارة ظاهر الأمر واضحه ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أي اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي إذا فعلتم ما آمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم ، ومن ههنا قيل : إنها زائدة ، ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل ، ومنه قول بعض العرب : قد كان من مطر ، وقيل : إنها بمعنى عن تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم ، واختاره ابن جرير ، وقيل : إنها للتبعيض أي يغفر لكم الذنوب العظيمة التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم ، وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث : « صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ في العُمُرِ » [(١)] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ؛ فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يردُّ ولا يمانع ؛ فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء . العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وما بيَّن لقومه ووضَّح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالًا لأمرك وابتغاءً لطاعتك ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه ﴿ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : تنكروا له لئلا يعرفهم .

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٣٢/٢) والألباني في الصحيحة (١٩٠٨) .

وقال سعيد بن جبير : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ أي استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أي واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أي جهرة بين الناس ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾ أي كلامًا ظاهرًا بصوت عال ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أي فيما بيني وبينهم ، فنوَّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أي ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب ؛ فإنه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك ، ولهذا قال : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ أي متواصلة الأمطار ، ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية ، وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار ومنها هذه الآية ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر . وقوله تعالى : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدر لكم الضرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أي أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها ، هذا مقام الدعوة بالترغيب ، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أي : عظمة ، وقال ابن عبَّاس : لا تعظمون الله حق عظمته أي لا تخافون من بأسه ونقمته ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قيل : معناه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أي واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس مما علم من التسيير والكسوفات ، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضًا ، فأدناها القمر في السماء الدنيا وهو يكسف ما فوقه ، وعطارد في الثانية ، والزهرة في الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشتري في السادسة ، وزحل في السابعة ، وأما بقية الكواكب وهي الثوابت ففي فلك ثامن يسمونه فلك الثوابت والمتشرعون منهم يقولون : هو الكرسي ، والفلك التاسع وهو الأطلس والأثير عندهم الذي حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك ، وذلك أن حركته مبدأ الحركات وهي من المغرب إلى المشرق ؛ وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب ومعها يدور سائر الكواكب تبعًا ، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها ؛ فإنها تسير من المغرب إلى المشرق ، وكل يقطع فلكه بحسبه ، فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرة ، والشمس في كل سنة مرة ، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة ، وذلك بحسب اتساع أفلاكها وإن كانت حركة الجميع في السرعة متناسبة ، وهذا ملخص ما يقولونه في هذا المقام على اختلاف بينهم في مواضع كثيرة لسنا بصدد بيانها ، وإنما المقصود أن الله سبحانه وتعالى : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ أي فاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلًّا منهما أنموذجًا على حدة ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدَّر للقمر منازل وبروجًا وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ، ثم يشرع في النقص حتى يستسر ليدل على مضي الشهور والأعوام . وقوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ هذا اسم مصدر والإتيان به ههنا أحسن ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أي إذا متم ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ أي بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ أي خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرزّاق ، جعل السماء بناءً والأرض مهادًا وأوسع على خلقه من رزقه فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد ؛ لأنه لا نظير له ولا عديل له ولا ند ولا كفء ولا صاحبة ولا ولد ولا وزير ولا مشير بل هو العلي الكبير .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء ، أنه مع البيان المتقدم ذكره والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى ، أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ، ومتع بمال وأولاد وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار ، لا إكرام ولهذا قال : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ قرئ وولده بالضم وبالفتح [1] . وكلاهما متقارب وقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ قال مجاهد : أي عظيمًا . وقال ابن زيد : كبير والعرب تقول : أمر عجيب وعجاب وعجاب ، ورجل حسان وحسان وجُمّال بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد ، والمعنى في قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أي بأتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى كما يقولون لهم يوم القيامة ، ولهذا قال ههنا : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله . وقال ابن عبّاس : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمُراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع ، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت [2] . عن أبي المطهر قال : ذكروا عند أبي جعفر وهو قائم يصلي يزيد بن المهلب ، قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن مهلب ، أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله ، قال : ثم ذكروا رجلًا مسلمًا وكان محببًا في قومه ، فلما مات اعتكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال : إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه ؟ قالوا : نعم ،

---

(١) قرأ المدنيان وابن عامر وعاصم ﴿ وولده ﴾ بفتح الواو واللام والباقون بضم الواو وإسكان اللام (انظر : تقريب النشر ص ١٨٣) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٢٠) .

فصور لهم مثله قال : ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه ؛ فلما رأى ما بهم من ذكره ، قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل رجل منكم تمثالًا مثله فيكون له في بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم ، قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالًا مثله فأقبلوا ، فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به . قال : وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذه إلهًا يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول عبد من دون الله : الصنم الذي سموه ودًّا .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقًا ، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ : دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ وقرئ خطاياهم [(١)] ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ أي : لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا ولا ديارًا وهذه من صيغ تأكيد النفي ، قال الضحّاك : ديارًا واحدًا . وقال السدي : الديار الذي يسكن الدار ، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه ، وقال : ﴿ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ رَحِمَ اللَّه مِنْ قَوْمِ نُوحٍ أَحَدًا لَرَحِمَ امْرَأَةً لَمَّا رَأَتِ الماءَ حَمَلَتْ وَلَدَهَا ثُمَّ صَعِدَتِ الجَبَلَ ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الماءُ صَعِدَتْ بِهِ مَنْكِبَهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ الماءُ مَنْكِبَهَا وَضَعَتْ وَلَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ الماءُ رَأْسَهَا ، رَفَعَتْ وَلَدَهَا بِيَدِهَا ، فَلَو رحِمَ اللَّه مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَحِمَ هذِهِ المَرْأَةَ » [(٢)] . ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وهم الذين أمره الله بحملهم معه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحدًا أضلوا عبادك أي الذين تخلقهم بعدهم ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أي فاجرًا في الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ثم قال : ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ

(١) قرأ أبو عمرو ﴿ مما خطاياهم ﴾ بفتح والطاء والياء وألف بعدها من غير همز ولا تاء ، والباقون بكسر الطاء وياء ساكنة بعدها وهمزة مفتوحة بعد الياء بعدها ألف وتاء مكسورة (انظر تقريب النشر ص ١٨٣) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٤٢/٢) .

بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ قال الضحّاك : يعني مسجدي ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن . عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لَا تَصْحَبْ إِلا مُؤْمِنًا ، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ » [1] . وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ دعاء لجمع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات ، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ إلّا هلاكًا ، وقال مجاهد : إلّا خسارًا أي الدنيا والآخرة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/٣) والترمذي في السنن (٢٣٩٥) وأبو داود في السنن (٤٨٣٢) .

سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۞ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۞ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۞ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۞ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۞ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له فقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أي إلى السداد والنجاح ﴿ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ عن ابن عبّاس قال : أي فعله وأمره وقدرته . وقال الضحاك : جد اللّٰه آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه ، وقال مجاهد وعكرمة : جلال ربنا . وقال قتادة : تعالى جلاله وعظمته وأمره . وقال أبو الدرداء : تعالى ذكره . وقوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، أي قالت الجن : تنزه الرب جلّ جلاله حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ الصاحبة والولد ، ثم قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ قال قتادة وغيره : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ أي إبليس ﴿ شَطَطًا ﴾ قال السدي : أي جورًا ، وقال ابن زيد : أي ظلمًا كبيرًا ، ويحتمل أن يكون المراد بقولهم : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ اسم جنس لكل من زعم أن للّٰه صاحبة أو ولدًا ، ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أي قبل إسلامه ﴿ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ أي باطلًا وزورًا . ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على اللّٰه تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه ، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على اللّٰه في ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أي كنا نرى أن لنا فضلًا على الإنس ؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البراري وغيرها ، كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقًا ، أي خوفًا وإرهابًا وذعرًا ، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذًا بهم . كما قال قتادة ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أي إثمًا ، وازدادت الجن عليهم بذلك جرأة ، أي ازدادت الجن عليهم جرأة . وعن عكرمة قال : كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد ، فكان الإنس إذا نزلوا واديًا هرب الجن فيقول سيد القوم : نعوذ بسيد أهل هذا الوادي فقال الجن : نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم ، فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون ، فذلك قول اللّٰه ﷻ : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أي إثمًا . وقال زيد بن أسلم : أي خوفًا .

عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال : خرجت مع أبي من المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر

ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملًا من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي جارك ، فنادى مناد لا نراه يقول : يا سرحان أرسله . فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة كان جنيًّا حتى يرهب الإنسي ويخاف منه رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه ، والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ أي لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولًا .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمّدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرسًا شديدًا ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق ، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قال الجن : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أي من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابًا مرصدًا لا يتخطاه ولا يتعداه بل يمحقه ويهلكه ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أي ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء ﴿ لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل والخير أضافوه إلى الله عزّ وجلّ . وقد ورد في الصحيح « وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ » [(١)] . وقد كانت الكواكب يرمي بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان كما في حديث العباس : بينما جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمي بنجم فاستنار فقال : « مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هذَا ؟ » فقلنا : كنا نقول : يولد عظيم ، يموت عظيم فقال : « لَيْسَ كَذلِكَ ؛ وَلكِنَّ اللَّهَ إِذَا قَضَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ » [(٢)] وذكر تمام الحديث . وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء ، فآمن من آمن منهم وتمرد في طغيانه من بقي ، ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها ، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك وظنوا أن ذلك لخراب العالم كما قال السدي ، لم تكن السماء تحرس إلّا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر ، فكانت الشياطين قبل محمّد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا يستمعون ما يحدث في السماء من أمر ، فلما بعث الله محمّدًا ﷺ نبيًّا رجموا ليلة من الليالي ، ففزع لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب ، فجعلوا يعتقون أرقاءهم ، ويسيبون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/١) والبيهقي في السنن (١٣٨/٨) والترمذي في السنن (٣٢٢٤) .

عمرو بن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف ! امسكوا عن أموالكم وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة ، يعني محمَّدًا ﷺ وإن نظرتم فلم تروها ، فقد هلك أهل السماء ، فنظروا فروأها فكفوا عن أموالهم ، ففزعت الشياطين في تلك الليلة ، فأتوا إبليس فحدَّثوه بالذي كان من أمرهم فقال : ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها ، فأتوه فشم فقال : صاحبكم بمكة ، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا مكة فوجدوا نبي اللَّه ﷺ قائمًا يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصًا على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه . ثم أسلموا ، فأنزل اللَّه تعالى أمرهم على رسوله ﷺ .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ ﴾ أي غير ذلك ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة ، قال الأعمش : تروح إلينا جني فقلت له : ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال : الأرز ، قال : فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدًا ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال : نعم ، فقلت : فما الرافضة فيكم ؟ قال : شرنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ أي نعلم أن قدرة اللَّه حاكمة علينا وأنا لا نعجزه في الأرض ولو أمعنا في الهرب ؛ فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ ﴾ يفتخرون بذلك وهو مفخر لهم وشرف رفيع وصفة حسنة ، وقولهم : ﴿ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴾ قال ابن عبَّاس وقتادة وغيرهما : فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ ﴾ أي منا المسلم ومنا القاسط وهو الجائر عن الحق الناكب عنه ، بخلاف المقسط ، فإنه العادل ﴿ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴾ أي طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴾ أي وقودًا تسعر بهم وقوله تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين : أحدهما : وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾ أي كثيرًا ، والمراد بذلك سعة الرزق وعلى هذا يكون معنى قوله : ﴿ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ أي لنختبرهم ، وقيل : لنبتليهم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية . قال بهذا القول ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة كل هؤلاء أو أكثرهم قالوا في قوله : ﴿ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ أي لنبتليهم به . وقال مقاتل : نزلت في الكفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين .

والقول الثاني : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ الضلال ﴿ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾ أي لأوسعنا عليهم الرزق استدراجًا ، وهذا قول أبي مجلز لاحق بن حميد ؛ فإنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ : أي طريقة الضلالة وله اتجاه ويتأيد بقوله : لنفتنهم فيه . وقوله : ﴿ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴾ أي عذابًا مشقًّا شديدًا موجعًا مؤلمًا وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد :

مشقة لا راحة معها ، وعن ابن عبّاس : جبل في جهنم . وعن سعيد بن جبير : بئر فيها .

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده أن يوحدوه في مجال عبادته ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به ، كما قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله نبيّه ﷺ أن يوحّدوه وحده . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلّا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس . وقال الأعمش : قالت الجن : يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ يقول : صلوا لا تخالطوا الناس . وعن سعيد بن جبير قال : قالت الجن لنبي الله ﷺ : كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناءون - أي بعيدون - عنك ؟ وكيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك ؟ فنزلت ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

قال عكرمة : نزلت في المساجد كلها ، وقال سعيد بن جبير : نزلت في أعضاء السجود أي هي لله فلا تسجدوا بها لغيره . وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ : عَلَى الجَبْهَةِ - أشار بيده إلى أنفه - وَاليَدَيْنِ ، وَالرُّكْبَتَيْنِ ، وَأَطْرَافِ القَدَمَيْنِ » [(١)] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ عن ابن عبّاس قال : لما سمعوا النبيّ ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لمّا سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه ، لم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ يستمعون القرآن . وعن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال : لما رأوه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده قال : عجبوا من طواعية أصحابه له قال : فقالوا لقومهم ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلّا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعًا وقال قتادة : تلبّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلّا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه ، وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر ، لقوله بعده ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه كذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى ﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أي إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي وعبد من عباد الله ليس إليّ من الأمر شيء في هدايتكم

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٢) ومسلم في الصلاة (٢٢٨) والنسائي في السنن (٢/٢٠٩) وابن ماجه في السنن (٨٨٣) وأحمد في مسنده (١/٣٠٥) .

ولا غوايتكم بل المرجع في ذلك كله إلي الله ﷻ ، ثم أخبر عن نفسه أيضًا أنه لا يجيره من الله أحد أي لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ قال قتادة : أي لا ملجأ . وقال أيضًا : أي لا نصير ولا ملجأ . وفي رواية : لا ولي ولا موئل .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا ﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿ لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أي لا يجيرني منه ولا يخلصني إلَّا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي أنا أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ ، أي : لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها . وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة ، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرًا وأقل عددًا ، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى ؛ أي بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عددًا من جنود الله ﷻ .

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للناس إنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴾ أي مدة طويلة وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلف تحت الأرض كذب لا أصل له ولم نره في شيء من الكتب وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال : يا محمَّد فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » [1] . ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال : يا محمَّد متى الساعة قال : « وَيْحَكَ إِنَّهَا كَائِنَةٌ فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا ! » . قال : أما إني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ولكني أحب الله ورسوله قال : « فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » . قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث [2] . وعن سعد بن أبي وقاص عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لَا تَعْجَزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا أَنْ يُؤَخِّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ » . قيل لسعد : وكم نصف يوم ؟ قال : خمسمائة عام [3] .

وقوله تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ إنه يعلم الغيب والشهادة وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلَّا مما أطلعه تعالى عليه ولهذا قال ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ أي يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٧) ومسلم في الإيمان (٥) وأحمد في مسنده (٢/٤٢٦) .
(٢) أخرجه البيهقي فى السنن (٣/٢٢١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٧٠) وأبو داود في السنن (٤٣٥٠) والألباني في صحيحة (١٦٤٣) .

أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحي الله ولهذا قال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ إلى من يعود ؟ فقيل : إنه عائد إلى النبيّ ﷺ وعن سعيد بن جبير في قوله ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ محمَّد ﷺ ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ وعن قتادة ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ قال : ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها ، وقيل غير ذلك ، وعن ابن عبَّاس في قوله : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ قال : هي معقبات من الملائكة يحفظون النبيّ ﷺ من الشيطان حتى يتبين الذين أرسل إليهم ، وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وعن مجاهد قال : ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وفي هذا نظر . وقال البغوي قرأ يعقوب ﴿ ليُعلم ﴾ بالضم أي ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا . ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الله ﷻ ، وهو قول حكاه ابن الجوزي في زاد المسير [1] ، ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعًا لا محالة ، ولهذا قال بعد هذا ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ .

---

(١) روى رويس ليُعلم بضم الياء والباقون بفتحها . (تقريب النشر ١٨٤) .

سورة المزمل

عن عبد الله بن محمّد بن عقيل بن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسمًا يصد الناس عنه فقالوا : كاهن قالوا : ليس بكاهن قالوا : مجنون قالوا : ليس بمجنون قالوا : ساحر قالوا : ليس بساحر ، فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فتزمّل في ثيابه وتدثر فيها . فأتاه جبريل عليه السلام فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ .

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل وهو التغطي في الليل وينهض إلى القيام لربه ﷻ وكذلك كان ﷺ ممتثلًا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل وقد كان واجبًا عليه وحده ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ وههنا بيَّن له مقدار ما يقوم فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال السدي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ يعني يا أيها النائم ، قال قتادة : المزمل في ثيابه ، وعن ابن عباس : يا محمّد زملت القرآن . وقوله تعالى : ﴿ نِّصْفَهُۥٓ ﴾ بدل من الليل ﴿ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لا حرج عليك في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ أي اقرأه على تمهل فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره . وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة رضي الله عنها كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها . وعن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت مدًّا ثم قرأ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم [1] وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت : كان يقطع قراءته آية آية ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . وعن عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ قال : « يُقَالُ لِقَارِئِ الْقُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدنيا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عَنْدَ آخرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا » [2] . وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة كما في الحديث و « لَقَدْ أُوتِيَ هذا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آل دَاوُدَ » [3] . يعني أبا موسى فقال أبو موسى كنت أعلم أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرًا ، وعن ابن مسعود أنه قال : لا تنثروه نثر الرمل ولا تهذوه هذّ الشعر قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة . وعن أبي وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٦) وأحمد في مسنده (٣٠٢/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠/٣) وابن ماجه في سننه (٣٧٨٠) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٣٦) والنسائي في السنن (١٨١/٢) وابن ماجه في السنن (١٣٤١) وأحمد في مسنده (٤٥٠/٢) .

فقال : قرأت المفصل الليلة في ركعة . فقال هذًا كهذّ الشعر لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين في ركعة وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ قال الحسن وقتادة : أي العمل به وقيل : ثقيل وقت نزوله من عظمته ، كما قال زيد بن ثابت ﷺ أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فكادت ترض فخذي .

وعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أَحْيَانًا يَأْتِي فِي مِثْلِ صلصلة الجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا [١] وعن هشام بن عروة عن أبيه أن النبيّ ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع أن تحرك حتى يسرّى عنه [٢] وهذا مرسل ، الجران هو باطن العنق ، واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معًا كما قال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ عن ابن عبّاس : نشأ : قام بالحبشية ، وقال عمر وابن عبّاس وابن الزبير : الليل كله ناشئة ، يقال : نشأ إذا قام من الليل وفي رواية عن مجاهد : بعد العشاء والغرض أن : ناشئة الليل هي : ساعاته وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهي الآنات ، والمقصود أن قيام الليل وهو أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش . وعن الأعمش أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية – إن ناشئة الليل هي أشد وطئًا وأصوب قيلًا – فقال له رجل : إنما نقرؤها وأقوم قيلًا ، فقال له : إن أصوب وأقوم وأهيأ وأشباه هذا واحد . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قال عطاء بن أبي مسلم : الفراغ والنوم ، وقال سفيان الثوري : فراغًا طويلًا . وقال السدي : تطوعًا كثيرًا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ لحوائجك فأفرغ لدينك الليل ، قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ثم إن الله تبارك وتعالى منَّ على عباده فخففها ووضعها وقرأ ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إلى آخر الآية وعن سعيد بن هشام : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقارًا له بها ويجعله في الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى يموت ، فلقي رهطًا من قومه فحدثوه أن رهطًا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال : " أَلَيْسَ لَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ؟ » . فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رجعتها ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عبّاس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : ائت عائشة فسلها ثم ارجع إلي فأخبرني بردّها عليك . قال فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها فقال : ما أنا بقاربها إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئًا فأبت فيهما إلّا

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٢) وأحمد في مسنده (٦/٢٥٧) والترمذي في السنن (٣٦٣٤) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٥٠٥) .

مضيًا ، فأقسمت عليه فجاء معي فدخلنا عليها فقالت : حكيم وعرفته قال : نعم قالت : من هذا الذي معك ؟ قال : سعيد بن هشام . قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامرًا . قلت : يا أمّ المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن فهممت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ قالت : ألست تقرأ هذه السوة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولًا حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرًا ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعًا من بعد فريضة . فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ فقلت : يا أم المؤمنين انبئيني عن وتر رسول الله ﷺ . قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن إلّا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض وما يسلم ، ثم يقوم ليصلي التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعوه ثم يسلم تسليمًا يسمعنا ، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني ، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذه اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلّم فتلك تسع يا بني ، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ولا صام شهرًا كاملًا غير رمضان . فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال : صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة [١] .

وعن ابن عباس قال : أول ما نزل أول المزمل كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أي أكثر من ذكره وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك وما تحتاج إليه من أمور دنياك ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ أي فرغت من أشغالك فانصب في طاعته وعبادته لتكون فارغ البال . قال ابن عبّاس ومجاهد وأبو صالح وعطية والضحاك والسدي ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أي : أخلص له العبادة . وقال الحسن : اجتهد وأبتل إليه نفسك . وقال ابن جرير : يقال للعابد متبتل . ومنه الحديث المروي نهي عن التبتل يعني الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج [٢] . وقوله تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلّا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل فاتخذه وكيلًا .

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٦) .
(٢) تفسير الطبري (١٦٤/٢٨) .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذّبه من سفهاء قومه وأن يهجرهم هجرًا جميلًا وهو الذي لا عتاب معه ، ثم قال له ستهددًا لكفّار قومه ومتوعدًا وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ أي دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم ، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ أي رويدًا . ولهذا قال ههنا ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا ﴾ وهي القيود . ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ وهي السعير المضطرمة ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ قال ابن عبّاس : ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أي تزلزل ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ أي تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلّا ذهب حتى تصير الأرض قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا أي واديًا ولا أمتًا أي رابية ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع ثم قال تعالى مخاطبًا لكفار قريش والمراد سائر الناس ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أي بأعمالكم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والسدي والثوري ﴿ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ أي شديدًا أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه اللَّه أخذ عزيز مقتدر وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم رسولكم لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ يحتمل أن يكون يومًا معمولًا لتتقون كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود فكيف تخافون أيها الناس يومًا يجعل الولدان شيبًا إن كفرتم باللَّه ولم تصدقوا به ؟ ويحتمل أن يكون معمولًا لكفرتم فعلى الأول كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ، وعلى الثاني كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ، وكلاهما معنى حسن ولكن الأول أولى واللَّه أعلم ، ومعنى قوله : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله وذلك حين يقول اللَّه لآدم : ابعث بعث النار فيقول : من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنّة . وقوله تعالى : ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ أي بسببه من شدته وهوله ، ومنهم من يعيد الضمير على اللَّه تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ أي كان وعد هذا اليوم مفعولًا أي واقعًا لا محالة وكائنًا لا محيد عنه .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ ﴾ أي السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي يتذكر بها أولو الألباب . ولهذا قال تعالى ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي ممن شاء اللَّه تعالى هدايته ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي تارة هكذا وتارة هكذا وذلك كله من غير قصد منكم ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي تارة يعتدلان وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾

أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾ أي من غير تحديد بوقت أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر ، وعبَّر عن الصلاة بالقراءة ، وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمه الله بهذه الآية وهي قوله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾ على أنه لا يجب تعين قراءة الفاتحة في الصلاة بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية أجزأه واعتضدوا بحديث المسيء صلاته : « ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ » (١) . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ » (٢) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ صَلَاةٍ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ فَهِيَ خِدَاجٌ فَهي خداجٌ غَيْرُ تَمَامٍ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل من مرضى لا يستطيعون ذلك ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله ، وهذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد فهي من أكبر دلائل النبوة لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقلة ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه .

عن أبي رجاء محمّد قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به إنما يصلي المكتوبة . وقال : يتوسد القرآن لعن الله ذاك ، قال الله تعالى للعبد الصالح : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ ﴾ قلت : يا أبا سعيد قال الله تعالى ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾ قال : نعم ولو خمس آيات وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري أنه كان يرى حقًّا واجبًا على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : « ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ » (٤) . فقيل : معناه نام عن المكتوبة ، وقيل : عن قام الليل ، وفي الحديث : « مَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا » (٥) . وأغرب من هذا ما حكي عن أبي بكر بن عبد العزيز من الحنابلة من إيجابه قيام شهر رمضان فالله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة ، وهنا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلّا بالمدينة والله أعلم ، وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولًا من قيام الليل ، واختلفوا في المدة التي بينها على أقوال كما تقدم ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : « خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ » . قال : هل عليّ غيرها ؟ قال : « لَا إِلّا أَنْ تَطَوَّعَ » (٦) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يعني من الصدقات فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٢/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) والترمذي في السنن (٢٤٧) وأحمد في السنن (٣٢٢/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٠/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٥) والنسائي في السنن (٢٠٤/٣) وأحمد في مسنده (٤٢٧/١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/٥) .
(٦) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٨) ومسلم في الإيمان (٨) وأبو داود في السنن (٣٩١) .

تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أي جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا ، وقال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّكُمْ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ ؟ » قالوا :يا رسول الله ما منا من أحد إلَّا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : « اعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » . قالوا : ما نعلم إلَّا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إِنَّمَا مَالُ أَحَدِكُمْ مَا قَدَّمَ وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ » [1] . ثم قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ أي أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢) .

سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ .

عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولًا قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وعن أبي سلمة قال : أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه : « فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاء قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَجَثَيْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ فَجِئْتُ إِلَى أَهْلِي فَقُلْتُ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُونِي فَأَنْزَلَ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ قال أبو سلمة : والرجز الأوثان - ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ » . وهذا السياق هو المحفوظ وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله « فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي كَانَ بِحِرَاءَ » . وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . ثم إنه حصل بعد هذا فترة ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذا السورة ، وعن ابن شهاب قال : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول : أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنِّي فَتْرَةً ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فجثيتُ منه فَرَقًا حتى هويتُ إلى الأرض فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُمْ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ » (١) . وعن ابن عبّاس قال : إن الوليد ابن المغيرة صنع لقريش طعامًا فلما أكلوا منه قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم : كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن ، وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم : ليس بشاعر ، وقال بعضهم : بل سحر يؤثر فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فحزن وقنع رأسه وتدثر فأنزل الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أي شمر عن ساق العزم وأنذر الناس ، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول النبوة ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي عظم وقوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال ابن عباس : لا تلبسها على معصية ولا على غدرة .

وعنه في هذه الآية قال : من الإثم . وقال مجاهد : نفسك ليس ثيابه ، وعنه قال : عملك فأصلح ، قال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٥/٣) والبخاري في تفسير القرآن (٤٩٢٤) .

قتادة : طهرها من المعاصي . وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لدنس الثياب وإذا وفَّى وأصلح إنه لمطهر الثياب ، وقال عكرمة والضحاك : لا تلبسها على معصية . وقال الشاعر :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُدَنَّسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

وقال ابن زيد : كان المشركون لا يتطهرون فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه وهذا القول اختاره ابن جرير وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه كما قال امرؤ القيس :

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ هَجْرِي فَأَجْمِلِي

وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسلِ

وقال سعيد بن جبير ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ وقلبك ونيتك فطهر ، وقال محمّد بن كعب القرظبي والحسن البصري : وخلقك فحسِّن ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ قال ابن عبّاس : والرجز وهو الأصنام فاهجر . وقال الضحاك : أي اترك المعصية ، وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال ابن عباس : لا تعط العطية تلتمس أكثر منها وروي عن ابن مسعود أنه قرأ - ولا تمنن أن تستكثر - وقال الحسن البصري : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره وقال مجاهد : لا تضعف أن تستكثر من الخير قال : تمنن في كلام العرب تضعف ، وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها تأخذ عليه عوضًا من الدنيا . فهذه أربعة أقوال والأظهر القول الأول والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك ﷻ . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ﴿ ٱلنَّاقُورِ ﴾ الصور . وهو كهيئة القرن ، وعن ابن عبّاس ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَم وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ ؟ » . فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « قُولُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلِ عَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْنَا » (١) . وقوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أي شديد ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أي غير سهل عليهم ، وعن زرارة بن أوفى قاضي البصرة أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ شهق شهقة ثم خرّ ميتًا رحمه الله تعالى .

. ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها وجعلها من قول البشر وقد عدَّد الله عليه نعمه حيث قال تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ أي خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى ،

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٣١) وأحمد في مسنده (٣٧٤/٤) .

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾ أي واسعًا كثيرًا قيل : ألف دينار ، وقيل : مائة ألف دينار ، وقيل : أرضًا يستغلها ، وقيل : غير ذلك ، وجعل له ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ قال مجاهد : لا يغيبون أي حضورًا عنده لا يسافرون بالتجارات بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملى بهم ، وكانوا فيما ذُكر ثلاثة عشر وقيل : كانوا عشرة وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴾ أي مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾ أي معاندًا وهو الكفر على نعمه بعد العلم ، قال اللَّه تعالى : ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ عن أبي سعيد عن رسول اللَّه ﷺ قال : « وَيْلٌ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ وَالصَّعودُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَتَصَعَّدُ فِيهِ الكَافِرُ سَبْعِينَ خَرِيفًا ثُمَّ يَهْوِي بِهِ كَذَلِكَ فِيهِ أَبَدًا »[(1)] . وعن ابن عبّاس : صعودًا صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه . وقال السدي : صعودًا صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعدها . وقال مجاهد ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ أي مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذابًا لا راحة فيه واختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أي إنما أرهقناه صعودًا أي قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان لأنه فكّر وقدّر أي تروّى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكّر ماذا يختلق من المقال ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أي تروى . ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ دعاء عليه ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي أعاد النظرة والتروي ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أي قبض بين عينيه وقطّب ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أي كلح وكره وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ أي صرف عن الحق ورجع القهقرى مستكبرًا عن الانقياد للقرآن ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي هذا سحر ينقله محمّد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم ولهذا قال : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ أي ليس بكلام اللَّه وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش لعنه اللَّه وكان من خبره في هذا ما روي عن ابن عبّاس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر ابن أبي قحافة فسأله عن القرآن فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجبًا لما يقول ابن أبي كبشة فواللَّه ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون وإن قوله لمن كلام اللَّه . فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا : واللَّه لئن صبأ الوليد لتصبوا قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا واللَّه أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال للوليد : ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألست أكثرهم مالًا وولدًا فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ! فلا واللَّه لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة وما قوله إلّا سحر يؤثر . فأنزل اللَّه على رسوله ﷺ : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ - إلى قوله - ﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴾ وقال قتادة : زعموا أنه قال : واللَّه لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه وما أشك أنه سحر . فأنزل اللَّه ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ الآية ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ قبض ما بين عينيه وكلح .

قال اللَّه تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أي سأغمره فيها من جميع جهاته ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم ، ثم فسّر ذلك بقوله تعالى : ﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴾ أي تأكل

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٦٤) وأحمد في مسنده (٧٥/٣) .

لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ثم تبدل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون .

وقوله تعالى ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد : أي للجلد ، وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ، وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها . وقال قتادة : أي حراقة للجلد . وقال ابن العباس : تحرق بشرة الإنسان . وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أي من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ خلقهم .

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يا محمّد ، غلب أصحابك اليوم فقال : « بِأَيِّ شَيْءٍ » . قال : سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ قال رسول الله ﷺ : « أَفُغْلِبَ قَوْمٌ يُسْأَلُونَ عَمَّا لَا يَعْلَمُونَ » فَقَالُوا : لا نَعْلَمُ حَتَّى نَسْأَلَ نَبِيَّنَا ﷺ ؟ عَلَيَّ بِأَعْدَاءِ اللَّه لكِنَّهُمْ قَدْ سألوا نبيهم أن يُرِيَهُمُ اللَّه جَهْرَةً » . فأرسل إليهم فدعاهم قالوا : يا أبا القاسم كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال : « هكَذَا » . وطبق كفيه ثم طبق كفيه مرتين وعقد واحدة وقال لأصحابه : « إِنْ سُئِلْتُمْ عَنْ تربة الجَنَّةِ فَهِيَ الدَّرْمَكُ » . فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار قال لهم رسول الله ﷺ : « مَا تُرْبَةُ الجَنَّةِ » . فنظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : خبزة يا أبا القاسم فقال : « الخُبْزُ مِنَ الدَّرْمَكِ » [1] .

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ أي خزانها ﴿ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أي زبانية غلاظًا شدادًا ؛ وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة . فقال أبو جهل : يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ، فقال الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أي شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون ، وقد قيل : إن أبا الأشدين واسمه كلدة بن أسيد بن خلف قال : يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجابًا منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه ، قال السهيلي : وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته وقال : إن صرعتني آمنت بك فصرعه النبي ﷺ مرارًا فلم يؤمن . قال : وقد نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب قلت : ولا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختبارًا منا للناس ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي يعلمون أن هذا الرسول حق فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمّد ﷺ ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي من

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٢٧) .

المنافقين ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلَّا هو تعالى لئلا يتوهم أنهم تسعة عشر فقط كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين ومن شايعهم من الملتين سمعوا هذه الآية فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها وهو قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ وقد ثبت في حديث الإسراء عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة « فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يعودون إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ » .

وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّه تَعَالَى » . فقال أبو ذر : والله لوددت أني شجرة تعضد (١) . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا فِي السَّموَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ وَلَا شِبْرٍ وَلَا كَفٍّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا : سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا » (٢) . وعن عباد بن منصور قال : سمعت عدي بن أرطأة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال : سمعت رجلًا من أصحاب النبيِّ ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ للهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً تُرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ تَقْطُرُ مِنْهُ دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ عَلَى مَلَكٍ يُصَلِّي وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً سُجُودًا مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً رُكُوعًا لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّموَاتِ وَالْأَرْض وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَإِذَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللَّهِ ﷻ قَالُوا : سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي النار التي وصفت ﴿ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أي ولى ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أي أشرق ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ أي العظائم يعني النار ، ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أي لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق أو يتأخر عنها ويولي ويردها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ۝ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ۝ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۝ بَلْ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣١٢) وابن ماجه في السنن (٤١٩٠) وأحمد في مسنده (١٧٣/٥) والحاكم في المستدرك (٥١٠/٢) .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٥١/١) والهندي في كنز العمال (٢٨٩٣٩) والألباني في الصحيحة (١٠٥٩) .

(٣) أورده الهندي في كنز العمال (٢٩٨٣٦) .

يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ .

يقول تعالى مخبرًا أن ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أي : معتقلة ، بعملها يوم القيامة . ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ فإنهم ﴿ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ أي : ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا . ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ أي : نتكلم فيما لا نعلم . وقال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ يعني الموت كقوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ وقال رسول اللَّه ﷺ : « أَمَّا هُوَ - يَعْنِي عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ - فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ مِنْ رَبِّهِ » (١) قال تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ أي من كان متصفًا بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلًا فأما من وافى اللَّه كافرًا يوم القيامة فإن له النار لا محالة خالدًا فيها ، ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴾ أي كأنهم في نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد ، وقال ابن عبّاس : الأسد بالعربية ، ويقال له بالحبشية : قسورة ، وبالفارسية : شير ، وبالنبطية : أوبا . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبيّ ﷺ وفي رواية عن قتادة يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل فقوله تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ أي : إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها .

ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي : حقًّا إن القرآن تذكرة ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أي هو أهل أن يخاف منه وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قرأ رسول اللَّه ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ وقال : « قَالَ رَبُّكُمْ أَنَا أَهْلٌ أن أُتَّقَى ، فَلَا يُجْعَلُ مَعِي إِلَهٌ فَمَنِ اتَّقَى أَنْ يَجْعَلَ مَعِي إِلَهًا كَانَ أَهْلًا أَنْ أَغْفِرَ لَهُ » (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٣) والبغوي في شرح السنة (٢٤٣/١٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٢/٣) والدارمي في السنن (٣٠٣/٢) .

سورة القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ .

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه إذا كان منتفيًا جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ قال الحسن : أَقْسَمَ بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة ، وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعًا ، وعن الحسن والأعرج أنهما قرآ - لأقسم بيوم القيامة [1] - وهذا يوجه قول الحسن ؛ لأنه أثبت القسم بيوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة ، والصحيح أنه أقسم بهما جميعًا معًا ، فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة ، قال الحسن البصري في هذه الآية : إن المؤمن والله ما نراه إلَّا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ، ما أردت بأكلتي ، ما أردت بحديث نفسي ، وإن الفاجر يمضي قدمًا قدمًا ما يعاتب نفسه ، وعن جويبر عن الحسن البصري قال : ليس أحد من أهل السموات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة . وقال عكرمة : يلوم على الخير والشر لو فعلت كذا وكذا ، وقال سعيد بن جبير : تلوم على الخير والشر ، وقال مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه ، وقال ابن عبّاس : ﴿ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ المذمومة ، وقال قتادة : ﴿ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ الفاجرة . قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر وتندم على ما فات .

وقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ ؟ أي يوم القيامة أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ قال ابن عبّاس : أن نجعله خفًّا أو حافرًا . ووجهه ابن جرير : بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا ، والظاهر من الآية أن قوله تعالى : ﴿ قَٰدِرِينَ ﴾ حال من قوله تعالى : ﴿ نَّجْمَعَ ﴾ أي أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه ؟ بلى سنجمعها . قادرين على أن نسوي بنانه ، أي قدرتنا صالحة لجمعها ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية . وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ قال ابن عباس : يعني يمضي قدمًا ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدي القيامة . وقيل : ليمضي أمامه راكبًا رأسه ، وقيل : لا يلفى ابن آدم إلَّا تنزع نفسه إلى معصية الله قدمًا قدمًا إلَّا من عصمه الله تعالى ، وروي أنه هو الذي يعجل الذنوب ويسوِّف التوبة وقيل : هو الكافر يكذب بيوم الحساب ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي يقول : متى يكون يوم القيامة وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده . ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴾ قرأ أبو عمرو بن العلاء : برِق بكسر الراء أي حار . وقرأ آخرون برَق بالفتح وهو قريب في

---

(١) قرأ ابن كثير ﴿ لأقسم ﴾ وقرأ الباقون (لا أقسم) . انظر حجة القراءات ص ٧٣٥ .

المعنى من الأول (١) ، والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ومن عظم ما نشاهده يوم القيامة من الأمور . وقوله تعالى : ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴾ أي ذهب ضوءه ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ قال مجاهد : كورًا ، وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ أي إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر أي هل من ملجأ أو موئل . قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ قال ابن مسعود وابن عبّاس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف : أي لا نجاة ، ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه . ولهذا قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ أي المرجع والمصير . ثم قال تعالى : ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أي يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، وهكذا قال ههنا : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ أي هو شهيد على نفسه عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر ، وقال ابن عبّاس : سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه . وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفي رواية قال : إذا شئت والله رأيته بصيرًا بعيوب الناس وذنوبهم غافلًا عن ذنوبه وكان يقال : إن في الإنجيل مكتوبًا يا ابن آدم تبصر القذاة في عين أخيك ، وتترك الجذع في عينك لا تبصره .

وقال مجاهد : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه . وقال السدي : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ حجته . وقال قتادة عن ابن عبّاس : لو ألقى ثيابه . وقال الضحّاك : ولو ألقى ستوره ، وأهل اليمن يسمون الستر المعذار . والصحيح قول مجاهد .

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ .

هذا تعليم من الله ﷿ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته فأمره الله ﷿ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبيّنه له ويفسره ويوضحه . فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ أي بالقرآن . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ أي في صدرك ﴿ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ أي أن تقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبيّنه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . وعن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك شفتيه قال : فقال لي ابن عبّاس : أنا أحرك شفتيَّ كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه . وقال لي سعيد : وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عبّاس يحرك شفتيه فأنزل الله ﷿ ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ قال : جمعه في صدرك ثم تقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ أي فاستمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما

---

(١) قرأ نافع (فإذا برَق البصَرُ) بفتح الراء وقرأ الباقون (برِقَ) بالكسر . انظر حجة القراءات ص ٧٣٦ .

أقرأه [١] . وعن ابن عبّاس ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ قال : كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه فقال اللّه تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ أي : نجمعه لك ﴿ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ أن نقرئك فلا تنسى ، وقال ابن عبّاس وعطية العوفي : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ تبيين حلاله وحرامه وكذا قال قتادة . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أي إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله اللّه ﷻ على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم إنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ من النضارة أي حسنة بهية مشرقة مسرورة ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أي تراه عيانًا كما رواه البخاري : « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَيَانًا » [٢] . وقد ثبتت رؤية المؤمنين للّه ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها وعن جرير قال : نظر رسول اللّه ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هذَا القَمَرَ ، فَإِن اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » [٣] . وعن أبي موسى قال : قال رسول اللّه ﷺ : « جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللّهِ ﷻ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ » [٤] . وعن صهيب عن النبيّ ﷺ قال : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ – قَالَ – يَقُولُ اللّهُ تَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ ؟ فَيُكْشَفُ الحِجَابُ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ وَهِيَ الزِّيَادَةُ » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [٥] .

وعن جابر « أَنَّ اللّهَ يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ يَضْحَكُ » . يعني في عرصات القيامة ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ﷻ في العرصات روضات الجنّات . عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَيَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ أَلْفَي سَنَةٍ يَرَى أقصاه كما يرى أَدْنَاهُ ، يَنْظُرُ إِلَى أَزْوَاجِهِ وَخَدَمِهِ ، وَإِنَّ أَفْضَلَهُم مَنْزِلَةً فِي وَجْهِ اللّهِ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ » [٦] . ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ، ولكن ذكرنا ذلك مفرقًا في مواضع من هذا التفسير وباللّه التوفيق ، وهذا بحمد اللّه مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام . وهداة الأنام ، ومن تأوّل ذلك بأن المراد بإلى مفرد الآلاء وهي النعم ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة ، قال قتادة : كالحة وقال السدي : تغير ألوانها وقال ابن زيد ﴿ بَاسِرَةٌ ﴾ أي عابسة ﴿ تَظُنُّ ﴾ أي تستيقن ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ قال مجاهد : داهية ، وقال قتادة : شر . وقال السدي : تستيقن أنها

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٣/١) وبنحوه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٥) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥١) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٨) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٧) والحاكم في المستدرك (٨٢/١) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٢) والترمذي في السنن (٣٣٣٠) .

هالكة وقال ابن زيد : تظن أن ستدخل النار .

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ۝ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ .

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت فقال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴾ إن جعلنا كلًّا رادعة فمعناها لست يا ابن آدم هناك تكذب بما أخبرت به ، بل صار ذلك عندك عيانًا ، وإن جعلناها بمعنى حقًّا فظاهر أي حقًّا إذا بلغت التراقي ، أي انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك ، والتراقي جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق ﴿ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴾ أي من راق يرقى ، وقيل : من طبيب شاف عن ابن عبّاس : ﴿ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴾ قيل من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة ، وعنه في قوله ﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ قال : التفت عليه الدنيا والآخرة وعنه يقول : آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فتلتقي الشدة بالشدة إلَّا من رَحِمَهُ اللَّهُ . وقال عكرمة : ﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ الأمر العظيم بالأمر العظيم ، وقال مجاهد : بلاء ببلاء ، وقال الحسن البصري : هما ساقاك إذا التفتا ، وقيل : هو لفهما في الكفن ، وقال الضحاك : ﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ اجتمع عليه أمران : الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه وقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴾ أي المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ : ردوا عبدي إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

وقوله جلَّ وعلا : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذبًا للحق بقلبه متوليًا عن العمل بقالبه فلا خير فيه باطنًا ولا ظاهرًا ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ أي جذلان أشرًا بطرًا كسلانًا لا همة له ولا عمل . عن ابن عبّاس ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ أي : يختال . وقال قتادة وزيد بن أسلم : يتبختر قال الله تعالى : ﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد من الله تعالى للكافر به المتبختر في مشيه أي يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك ، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله تعالى : ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ .

وعن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس ﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴾ ؟ قال : قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل ثم أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ ، وقوله تعالى : ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴾ . يعني لا يبعث وقيل : يعني لا يؤمر ولا ينهى ، والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أي ليس يترك في هذه الدنيا مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهي في الدنيا محشور إلى الله في الدار الآخرة ، والمقصود هنا إثبات المعاد والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد ، ولهذا قال تعالى مستدلًا على الإعادة بالبداءة فقال تعالى : ﴿ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴾ أي : أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ﴿ يُمۡنَىٰ ﴾ يراق من الأصلاب في الأرحام . ﴿ ثُمَّ

كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أي فصار علقة ثم شُكِّل ونفخ فيه الروح فصار خلقًا آخر سويًّا سليم الأعضاء ذكرًا أو أنثى بإذن اللَّه وتقديره . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه . وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة وإما مساوية على القولين في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ والأول أشهر . وعن موسى بن أبي عائشة قال : كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ قال : سبحانك فبلى . فسألوه عن ذلك فقال : سمعته من رسول اللَّه ﷺ . ، وعن أبي هريرة : قال قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ فَانْتَهَى إِلى آخِرِهَا ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فَلْيَقُلْ : بَلَى وَأَنَا عَلَى ذلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَمَنْ قَرَأَ ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فَانْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فَلْيَقُلْ : بَلَى ، وَمَنْ قَرَأَ : ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ فَبَلَغَ ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ فَلْيَقُلْ : آمَنَّا بِاللَّهِ » [1] وعن قتادة قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ﴾ ذكر لنا أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا قرأها قال : « سُبْحَانَكَ وَبَلَى » [2] .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢/٣١٠) والبغوي في شرح السنة (٣/١٠٤) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٨/٣٦٣) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد .

سورة الإنسان

عن ابن عبّاس أن رسول اللّه ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ ﴾ السجدة و ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ [(١)] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۞ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۞ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئًا يذكر لحقارته وضعفه ، فقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ ثم بيَّن ذلك فقال ﷻ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أي أخلاط ، والمشج والمشيج : الشيء المختلط بعضه في بعض ، قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور وحال إلى حال ولون إلى لون . وقوله تعالى ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أي نختبره ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ أي جعلنا له سمعًا وبصرًا يتمكن بهما من الطاعة والمعصية ، وقوله جل وعلا : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي بيّناه له ووضحناه وبصرناه به . كقوله ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ أي بيّنا له طريق الخير وطريق الشر . وقيل خروجه من الرحم وهذا قول غريب ، والصحيح المشهور الأول . وقوله تعالى : ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ منصوب على الحال من الهاء في قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ تقديره فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد ، فعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا أَوْ مُعْتِقُهَا » [(٢)] .

وعن جابر بن عبد اللّه أن النبيّ ﷺ قال لكعب بن عجرة : « أَعَاذَكَ اللّهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ » . قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أُمَرَاءُ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ ، وَلَا يَسْتَنُّون بِسنَّتِي فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا يَرِدُونَ عَلَيَّ حَوْضِي ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بكذبهم وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ ، وَسَيَرِدُونَ عَلَيَّ حوضي يَا كَعْبُ بْنُ عجرَة : الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِيءُ الخَطِيئَةَ ، وَالصَّلَاةُ قُرُبَاتٌ - أَو قال بُرْهَانٌ - يَا كَعْبُ بْنَ عجرَة إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِن سُحْتٍ ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ ، يَا كَعْبُ : النَّاسُ غَادِيَانِ فَمُبْتَاعٌ نَفْسَه فَمُعْتِقُها ، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا » [(٣)] .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ إِلَّا بِبَابِهِ رَايَتَانِ ، رَايَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ وَرَايَةٌ بِيَدِ شَيْطَانٍ ، فَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُحِبُّ اللّه اتَّبَعَهُ الملَكُ برايته ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ المَلَكِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ ؛ وَإِنْ خَرَجَ لما يُسْخِطُ اللّه اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ بِرَايَتِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الشَّيْطَانِ حتى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ » [(٤)] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٨٢١) وأحمد في مسنده (٣٣٤/١) والبيهقي في السنن (٢٠٠/٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١) والترمذي في السنن (٣٥١٧) وابن ماجه في السنن (٢٨٠) وأحمد في مسنده (٣٤٣/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢١/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٩٤/٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٩٣) .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير وهو اللهب والحريق في نار جهنم ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنّة . قال الحسن : برد الكافور في طيب الزنجبيل ؛ ولهذا قال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد اللَّه صرفًا بلا مزج ويروون بها ؛ ولهذا ضمّن يشرب معنى يروي حتى عداه بالباء ونصب عينًا على التمييز ، قال بعضهم هذا الشراب في طيبه كالكافور ، وقال بعضهم : هو من عين كافور ، وقال بعضهم : يجوز أن يكون منصوبًا بيشرب ، حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أي يتصرفون فيها حيث شاءوا وأين شاءوا قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم ، والتفجير هو الإنباع ، وقال مجاهد : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ يقودونها حيث شاءوا ، وقال الثوري : يصرفونها حيث شاءوا ، وقوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أي يتعبدون للَّه فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر . عن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّه فَلْيُطِعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّه فَلَا يَعْصِهِ »[(١)] . ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم الذي يكون شره مستطيرًا ، أي منتشرًا عامًا على الناس إلا من رحم اللَّه ، قال ابن عباس : فاشيًا ، وقال قتادة : استطار واللَّه شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ قيل على حب اللَّه تعالى ، وجعلوا الضمير عائدًا إلى اللَّه عز وجل لدلالة السياق عليه ، والأظهر أن الضمير عائد على الطعام أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له ، عن نافع قال : مرض ابن عمر فاشتهى عنبًا أول ما جاء العنب ، فأرسلت صفية يعني امرأته فاشترت عنقودًا بدرهم فاتبع الرسولَ سائلٌ فلما دخل به قال السائل : السائل ، فقال ابن عمر : أعطوه إياه ، فأرسلَت بدرهم آخر فاشترت عنقودًا فاتبع الرسول السائل فلما دخل قال السائل : السائل فقال ابن عمر : أعطوه إياه ، فأعطوه إياه ، فأرسلَت صفية إلى السائل فقالت : واللَّه إن عدت لا تصيب منه خيرًا أبدًا ، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به[(٢)] . وفي الصحيح : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأْمُلُ الغِنَى وَتَخْشَى الفَقْرَ »[(٣)] . أي في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ أما المسكين واليتيم فقد

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن(٣٢٨٩) والترمذي في السنن(١٥٢٦) وأحمد في مسنده(٤١/٦) .
(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى(١٨٥/٤) . (٣) أخرجه مسلم في الزكاة(٩٢) .

تقدم بيانهما وصفتهما ، وأما الأسير فقال سعيد بن جبير والحسن والضحّاك : الأسير من أهل القبلة ، وقال ابن عبّاس : كان أسراؤهم يومئذ مشركين ويشهد لهذا أن رسول اللّه ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء . وقال عكرمة : هم العبيد ، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك ، وقد وصى رسول اللّه ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث حتى أنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول : « الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » [١] . قال مجاهد : هو المحبوس أي يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه قائلين بلسان الحال ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أي رجاء ثواب اللّه ورضاه ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ أي لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ولا أن تشكرونا عند الناس .

قال سعيد بن جبير : أما واللّه ما قالوه بألسنتهم ولكن علم اللّه به من قلوبهم فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أي إنما نفعل هذا لعل اللّه أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير . قال ابن عبّاس : عبوسًا ضيقًا ، قمطريرًا طويلًا ، قال ابن جرير : والقمطرير هو الشديد يقال هو يوم قمطرير ويوم قماطر ويوم عصيب وقد اقمطر اليوم يقمطر اقمطرارًا وذلك أشد الأيام وأطولها في البلاء والشدة ومنه قول بعضهم :

بَنِي عَمِّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلَاءَنَا ؟ عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ قُمَاطِرُ [٢]

قال اللّه تعالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ وهذا من باب التجانس البليغ ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أي آمنهم مما خافوا منه ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً ﴾ أي في وجوههم ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أي في قلوبهم ، وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه ، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل وكان رسول اللّه ﷺ إذا سر استنار وجهه [٣] حتى كأنه فلقة قمر ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوّأهم ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ ، أي منزلًا رحبًا وعيشًا رغدًا ولباسًا حسنًا .

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنّة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال تعالى : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الصافات وذكر الخلاف في الاتكاء هل هو الاضطجاع أو التمرفق أو التربع أو التمكن في الجلوس ، وأن الأرائك هي السرر تحت الحجال وقوله تعالى : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ أي ليس عندهم حر مزعج ولا برد مؤلم ، هي مزاج واحد دائم سرمدي لا يبغون عنها حولًا ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ أي قريبة إليهم أغصانها ﴿ وَذُلِّلَتْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٣) وابن ماجه في السنن (٢٦٩٧) .
(٢) معاني القرآن للفراء (ص ٣٥١) ، تفسير الطبري (٢٦٢/٢٨) .
(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦) ومسلم في التوبة (٥٣) والحاكم في المستدرك (٦٠٥/٢) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٦) .

قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أي متى تعاطاه دنا القطف إليه تدلى من أعلى غصنه كأنه سامع طائع ، قال مجاهد : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ إن قام ارتفعت معه بقدر ، وإن قعد تذللت له حتى ينالها ، وإن اضطجع تذللت له حتى ينالها ، فذلك قوله تعالى ﴿ تَذْلِيلًا ﴾ وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد ، وقال مجاهد أرض الجنة من ورق وترابها المسك ، وأصول شجرها من ذهب وفضة ، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت والورق ، والثمر بين ذلك فمن أكل منها قائمًا لم تؤذه ، ومن أكل منها قاعدًا لم تؤذه ، ومن أكل منها مضطجعًا لم تؤذه . وقوله جلّت عظمته : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام وهي من فضة وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم وقوله : ﴿ قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ فالأول منصوب بخبر كان أي كانت قوارير ، والثاني منصوب إما على البدلية أو تمييز ؛ لأنه بيّنه بقوله جل وعلا ﴿ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ قيل : بياض الفضة في صفاء الزجاج والقوارير لا تكون إلَّا من زجاج ، فهذه الأكواب هي من فضة وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظواهرها وهذا مما لا نظير له في الدنيا .

وعن ابن عبّاس : ليس في الجنّة شيء إلَّا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلَّا قوارير من فضة . وقوله تعالى : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أي على قدر ريّهم لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هي معدّة لذلك مقدرة بحسب ري صاحبها ، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة ، وقال الضحّاك : على قدر كف الخادم وهذا لا ينافي القول الأول فإنها مقدرة في القدر والري .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ أي ويسقون : يعني الأبرار أيضًا في هذه الأكواب ﴿ كَأْسًا ﴾ أي خمرًا ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ، ومن هذا تارة ، وأما المقرّبون فإنهم يشربون من كل منهما صرفًا كما قاله قتادة وغير واحد . وقد تقدم قوله جلّ وعلا : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ وقال ههنا : ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ أي الزنجبيل عين في الجنّة تسمى سلسبيلًا . قال عكرمة : اسم عين في الجنّة ، وقال مجاهد : سميت بذلك لسلاسة مسيلها وحدة جريها : وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أي يطوف على أهل الجنّة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن ، ومن فسرهم بأنهم مخرصون في آذانهم الأقرطة فإنما عبر عن المعنى بذلك لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا ، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن . عن عبد اللّه بن عمرو : ما من أهل الجنّة من أحد إلَّا يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ما عليه صاحبه . وقوله جلّ وعلا : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أي وإذا رأيت يا محمّد ﴿ ثَمَّ ﴾ أي هناك يعني في الجنّة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أي مملكة للّه هنالك عظيمة

وسلطانًا باهرًا . وثبت أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنّة دخولًا إليها : إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفَي سَنَةٍ يَنْظُرُ إِلَى أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى أَدْنَاهُ » [(١)] .

وقوله ﷻ : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أي لباس أهل الجنّة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وهذه صفة الأبرار ، وأما المقربون فكما قال تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده : ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أي طهّر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة ، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : إذا انتهى أهل الجنّة إلى باب الجنّة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذى ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم ، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أي يقال لهم ذلك تكريمًا لهم وإحسانًا إليهم . قال تعالى ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أي جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلًا ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي كما أكرمتك بما أنزلت فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك ، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله فإن الله يعصمك من الناس ، فالآثم هو الفاجر في أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه . ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي أول النهار وآخره ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ ثم قال تعالى منكرًا على الكفّار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ يعني يوم القيامة ثم قال تعالى : ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد : يعني خلقهم ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أي وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم فأعدناهم خلقًا جديدًا ، وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني هذه السورة تذكرة ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ أي طريقًا ومسلكًا أي من شاء اهتدى بالقرآن ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٣٥/١٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢٠/١٠) .

تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعًا ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى . وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ثم قال : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

سورة المرسلات

عن عبد الله – هو ابن مسعود – ﷺ قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية ، فقال النبيّ ﷺ : « اقْتُلُوهَا » . فابتدرناها فذهبت . فقال النبيّ ﷺ : « وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا »[١] . وعن ابن عبّاس أن أمّ الفضل سمعته يقرأ ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ فقالت : يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب[٢] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

عن أبي هريرة ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ قال : الملائكة ، وقيل : هي الرسل ، وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات أنها الملائكة . وعن أبي العبيدين قال : سألت ابن مسعود عن المرسلات عرفًا قال : الريح ، وكذا قال في ﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾ إنها الريح وكذا قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وتوقف ابن جرير في ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ هل هي الملائكة إذا أرسلت بالعرف أو كعرف الفرس يتبع بعضهم بعضًا ، أو هي الرياح إذا هبت شيئًا فشيئًا ؟ وقطع بأن العاصفات عصفًا الرياح وقوله تعالى : ﴿ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ يعني الملائكة ولا خلاف ههنا : فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغي ، والحلال والحرام ، وتلقي إلى الرسل وحيًا فيه إعذار إلى الخلق وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام أي ما وعدتم به من قيام الساعة والنفخ في الصور وبعث الأجساد وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ومجازاة كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، إن هذا كله لواقع ، أي لكائن لا محالة . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أي ذهب ضوؤها . ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ أي انفطرت وانشقت وتدلت أرجاؤها ووهت أطرافها ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أي ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ : جمعت . وقيل : أجلت . وقيل : أوعدت ثم قال تعالى : ﴿ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يقول تعالى لأي يوم أجلت الرسل وأرجىء أمرها حتى تقوم الساعة . ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غدًا وقد قدمنا في الحديث أن ويل واد في جهنم ، ولا يصح .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٤) ومسلم في السلام (١٣٧) والنسائي في السنن (٢٠٨/٥) وأحمد في مسنده (٤٢٨/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٨/٦) .

مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعني من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴾ أي ممن أشبههم . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى ممتنًا على خلقه ومحتجًا على الإعادة بالبداءة ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ أي ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري ﷻ . ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يعني جمعناه في الرحم وهو قرار الماء من الرجل والمرأة والرحم معد لذلك حافظ لما أودع فيه من الماء . وقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعني إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ قال ابن عبّاس : ﴿ كِفَاتًا ﴾ ، كنًّا . وقال مجاهد : يكفت الميت فلا يرى منه شيء . وقال الشعبي : بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾ يعني الجبال أرسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب ﴿ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ أي عذبًا زلالًا من السحاب أو مما أنبعه من عيون الأرض ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة : ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾ يعني لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان ، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب ﴿ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ أي ظل الدخان المقابل للهب ﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾ هو في نفسه ﴿ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ يعني ولا يقيهم حرّ اللهب . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴾ أي يتطاير الشرر من لهبها كالقصر . قال ابن مسعود : كالحصون ، وقال ابن عبّاس وغيره يعني أصول الشجر ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ أي كالإبل السود . وقيل يعني حبال السفن ، وقيل قطع نحاس . وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴾ قال : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع ، وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي لا يتكلمون ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي لا يقدرون على كلام ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ، وعرصات القيامة حالات والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة وعن هذه الحال تارة ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده يقول لهم : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعني أنه جمعهم بقدرته في صعيد

واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر . وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد أي إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي وتنجوا من حكمي فافعلوا فإنكم لا تقدرون على ذلك . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ وفي الحديث : « يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي »(١) .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون أي بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليحموم وهو الدخان الأسود المنتن ، وقوله تعالى : ﴿ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم . ثم قال تعالى مخبرًا خبرًا مستأنفًا ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين وأمرهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى : ﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا ﴾ أي مدة قليلة قصيرة ﴿ إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ أي ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أي إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن ، فبأي كلام يؤمنون به ؟ .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) .

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكارًا لوقوعها ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ أي عن أي شيء يتساءلون ؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعني الخبر الهائل المفظع الباهر . ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ يعني الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر . ثم قال تعالى متوعدًا لمنكري القيامة ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد . ثم شرع تبارك وتعالى يبيِّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ أي ممهدة للخلائق ذلولًا لهم قارة ساكنة ثابتة ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أي جعلها لها أوتادًا أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها . ثم قال تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعني ذكرًا وأنثى يتمتع كل منهما بالآخر ويحصل التناسل بذلك وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أي قطعًا للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش في عرض النهار . ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أي يغشى الناس ظلامه وسواده وقيل سكنًا . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ أي جعلناه مشرقًا نيرًا مضيئًا ليتمكن الناس من التصرف والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ يعني السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم ، التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال ابن عبّاس : المعصرات : الريح . ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب ، وقال ابن عبّاس ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ أي من السحاب واختاره ابن جرير ، وقال الفراء : هي السحاب التي تتحلب المطر بعد ، كما يقال امرأة معصر إذا دنا حيضها ولم تحض . قوله جلَّ وعلا : ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ أي منصبًّا وقيل : متتابعًا . وقيل : كثيرًا قال ابن جرير : ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج وإنما الثج الصب المتتابع ومنه قول النبيِّ ﷺ : « أَفْضَلُ الحَجِّ العَجُّ وَالثَّجُّ » [١] . يعني صب دماء البدن هكذا قال ، قلت وفي حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ : « أَنْعَتُ لَكِ الكرسفَ » [٢] . يعني أن تحتشي بالقطن . فقالت : يا رسول الله هو أكثر من ذلك إنما أثج ثجًا . وهذا فيه دلالة على استعمال الثج في الصب المتتابع الكثير ، وقوله تعالى : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٢٢٤) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١/٣٨٨) والكُرْسُفُ القطنُ . المعجم الوسيط (٨١٤) .

وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿ حَبًّا ﴾ يدخر للأناسي والأنعام ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أي خضرًا يؤكل رطبًا ﴿ وَجَنَّٰتٍ ﴾ أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعًا ، ولهذا قال : وجنات ألفافًا ، قال ابن عبّاس وغيره : ألفافًا : مجتمعة .

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝ جَزَآءً وِفَاقًا ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن يوم الفصل وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معدود لا يزاد عليه ولا ينقص منه ولا يعلم وقته على التعيين إلَّا اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ قال مجاهد : زمرًا زمرًا . قال ابن جرير يعني تأتي كل أمة مع رسولها . عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ » . قالوا : أربعون يومًا ؟ قال : « أَبَيْتُ » . قالوا : أربعون شهرًا ؟ قال : « أَبَيْتُ » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « أَبَيْتُ » قال : « ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ »[1] . ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ أي طرقًا ومسالك لنزول الملائكة ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ وقال ههنا ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء وبعد هذا تذهب بالكلية فلا عين ولا أثر . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أي مرصدة معدة ﴿ لِّلطَّٰغِينَ ﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ﴿ مَـَٔابًا ﴾ أي مرجعًا ومنقلبًا ومصيرًا ونزلًا .

وقوله تعالى : ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ أي ماكثين فيها أحقابًا وهي جمع حقب وهو المدة من الزمان ، قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري : ما تجدون الحقب في كتاب اللَّه المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، لكل سنة اثنا عشر شهرًا ، كل شهر ثلاثون يومًا ، كل يوم ألف سنة . وعن عبد اللَّه بن عمرو : الحقب أربعون سنة كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . وقال بشير بن كعب : ذكر لي أن الحقب الواحد ثلاثمائة سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يومًا ، كل يوم منها كألف سنة . عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ أنه قال : « وَاللَّه لَا يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ أَحَدٌ حَتَّى يَمْكُثَ فِيهَا أَحْقَابًا » . قال والحقب بضع وثمانون ، كل سنة ثلاثمائة وستون يومًا مما تعدون[2] وقد قال مقاتل بن حيان إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ وقال خالد بن معدان هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ في أهل التوحيد . ثم قال ويحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ متعلقًا بقوله تعالى : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ ثم يحدث اللَّه لهم بعد ذلك عذابًا من شكل آخر ونوع آخر ثم قال : والصحيح أنها لا انقضاء لها ، وعن سالم سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٥) ومسلم في الفتن (١٤١) .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٥/١٠) والبزار في مسنده (٣٥٠٣) .

أَحۡقَابًا ﴾ قال : أما الأحقاب فليس لها عدة إلّا الخلود في النار ، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة كل يوم منها كألف سنة مما تعدون ، وقال الربيع بن أنس ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴾ لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلّا اللّه ﷻ ، وذكر لنا أن الحقب الواحد ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يومًا كل يوم كألف سنة مما تعدون . وقوله تعالى : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ أي لا يجدون في جهنم بردًا لقلوبهم ولا شرابًا طيبًا يتغذون به ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ قال أبو العالية استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموّه ، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه ، قال ابن جرير : وقيل المراد بقوله : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا ﴾ يعني النوم كما قال الكندي :

بَرَدَتْ مَرَاشِفُهَا عَلَيَّ فَصَدَّنِي عَنْهَا وَعَنْ قُبُلَاتِهَا الْبَرْدُ

وقوله تعالى : ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابًا ﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم دارًا يجازون فيها ويحاسبون ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ أي وكانوا يكذبون بحجج اللّه ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله صلى اللّه عليهم وسلم فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة وقوله : ﴿ كِذَّابًا ﴾ أي تكذيبًا ، وهو مصدر من غير الفعل ، قالوا : وقد سمع أعرابي يستفتي الفراء على المروة : الحلق أحب إليك أو القصار ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد كلهم وكتبناهم عليهم وسنجزيهم على ذلك إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴾ أي يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه فلن نزيدكم إلّا عذابًا من جنسه وآخر من شكله أزواج . وعن عبد اللّه بن عمرو قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴾ قال : فهم في مزيد من العذاب أبدًا .

﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن السعداء وما أعد اللّه تعالى لهم من الكرامة والنعيم المقيم فقال تعالى : ﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ قال ابن عبّاس والضحاك : متنزهًا . وقال مجاهد وقتادة : فازوا فنجوا من النار . والأظهر ههنا قول ابن عبّاس ؛ لأنه قال بعده ﴿ حَدَآئِقَ ﴾ والحدائق البساتين من النخيل وغيرها ﴿ وَأَعۡنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابًا ﴾ أي وحورًا كواعب ، قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ أي نواهد ، يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين ؛ لأنهن أبكار عرب أتراب ، أي في سن واحد ، وعن أبي أمامة أنه سمعه يحدّث عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إِنَّ قُمُصَ أَهْلِ الجَنَّةِ لَتَبْدُو مِنْ رضوانِ اللّه ، وإِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمُرُّ بِهِمْ فَتُنَادِيهِمْ : يا أَهْلَ الجَنَّةِ مَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أُمْطِرَكُمْ ؟ حَتَّى إِنَّهَا لَتُمْطِرُهُمُ الكَوَاعِبَ الأَتْرَابَ » [١] وقوله تعالى : ﴿ وَكَأۡسًا دِهَاقًا ﴾ قيل : مملوءة متتابعة . وقيل : صافية ، وقيل : الملأى

(١) أورده أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١٩٥/١) .

المترعة ، وقيل : هي المتتابعة . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ كقوله : ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ أي ليس فيها كلام لا عار عن الفائدة ولا إثم كذب ، بل هي دار السلام وكل ما فيها سالم من النقص . وقوله : ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ أي هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه بفضله ومنّه وإحسانه ورحمته ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ أي كافيًا وافيًا سالمًا كثيرًا ، تقول العرب : أعطاني فأحسبني أي كفاني ومنه حسبي الله أي الله كافيَّ .

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيه وما بينهما وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلّا بإذنه . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ما هو ؟ على أقوال أحدها : أنهم أرواح بني آدم ، الثاني : هم بنو آدم ، الثالث : أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم وليسوا بملائكة - ولا ببشر وهم يأكلون ويشربون . الرابع : هم جبريل ويستشهد لهذا القول بقوله ﷻ ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ وقال مقاتل بن حيان : الروح هو أشرف الملائكة وأقربهم إلى الرب ﷻ وصاحب الوحي . الخامس : أنه القرآن . والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ، عن ابن عبّاس قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ ﴾ قال : هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقًا .

والأشبه عندي والله أعلم أنهم بنو آدم . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ كقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ وكما ثبت في الصحيح « وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أي حقًّا ومن الحق لا إله إلّا الله ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ أي مرجعًا وطريقًا يهتدي إليه ومنهجًا يمر به عليه وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعني يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبًا ؛ لأن كل ما هو آت آت ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها ، قديمها وحديثها ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ أي يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابًا ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود ، وذلك حين عاين عذاب الله ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة ، وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء ، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كوني ترابًا فتصير ترابًا فعند ذلك يقول الكافر : ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ أي كنت حيوانًا فأرجع إلى التراب .

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٠٦) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) .

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ .

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الملائكة يعنون حين تنزع أرواح بني آدم فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط ، وهو قوله : ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ عن ابن عبّاس قيل : هي أنفس الكفّار تنزع ثم تغرق في النار . وقيل : الموت ، وقيل : هي النجوم ، وقيل : هي القسي في القتال . والصحيح الأول وعليه الأكثرون . وأما قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ قيل : هي الملائكة ، وقيل : الموت وقيل : هي النجوم ، وقيل : هي السفن . وقوله تعالى ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ يعني الملائكة ، قال الحسن سبقت إلى الإيمان والتصديق . وقيل : الموت وقيل : هي النجوم وقيل : هي الخيل في سبيل اللَّه .

وقوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ هي : الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها ﷻ ولم يختلفوا في هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك إلّا أنه حكى في المدبرات أمرًا أنها الملائكة ولا أثبت ولا نفى . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ قال ابن عبّاس : هما النفختان الأولى والثانية . وعن مجاهد أما الأولى وهي قوله جل وعلا : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ فكقوله جلّت عظمته ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ الثانية : وهي الرادفة فهي كقوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ عن أُبي بن كعب قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « جَاءَتَ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ » . فقال رجل : يا رسول اللَّه أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : « إِذًا يَكْفِيكَ اللَّه مَا أَهَمَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ » [١] . وقوله تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني خائفة . ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أي أبصار أصحابها وإنما أضيفت إليها للملابسة أي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ يعني : مشركي قريش ، ومن قال بقولهم في إنكار المعاد يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة وهي القبور ، وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها . ولهذا : قالوا ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ وقرئ ﴿ نَخِرَةً ﴾ [٢] أي بالية وهو العظم إذا بلي ودخلت الريح فيه ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ وعن ابن عبّاس وغيره : ﴿ الْحَافِرَةِ ﴾ الحياة بعد الموت ، وقال ابن زيد : الحافرة النار وما أكثر أسماءها ! هي النار والجحيم وسقر وجهنم والهاوية

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٦/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٠/٢) .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ورويس ﴿ نَخِرَةً ﴾ بالألف ، والباقون بغير ألف والوجهان عن الدوري عن الكسائي والعمل على الحذف (تقريب النشر ص ١٨٦) .

والحافرة ولظى والحطمة ، وأما قولهم ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ فقال محمّد بن كعب : قالت قريش : لئن أحيانا اللّه بعد أن نموت لنخسرن . قال اللّه تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أي فإنما هو أمر من اللّه لا مثنوية فيه ولا تأكيد فإذا الناس قيام ينظرون وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب ﷻ ينظرون . قال مجاهد : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ صيحة واحدة . وقال الحسن البصري : زجرة من الغضب . وعن الربيع بن أنس : هي النفخة الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال ابن عبّاس : الساهرة الأرض كلها . وقال ابن زيد : الساهرة وجه الأرض . وقال الثوري : أرض الشام ، وقال عثمان بن أبي العاتكة : الساهرة أرض المقدس وهذه أقوال كلها غريبة ، والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى ، وعن سهل بن سعد الساعدي ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال : أرض بيضاء عفراء خالية كالخبزة النقي .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ .

يخبر تعالى رسوله محمدًا ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيّده اللّه بالمعجزات ومع هذا استمر على كفره وطغيانه حتى أخذه اللّه أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به . ولهذا قال في آخر القصة : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ فقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ أي : هل سمعت بخبره ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي كلمه نداء ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ أي المطهر ، ﴿ طُوًى ﴾ وهو اسم الوادى على الصحيح فقال له : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أي تجبّر وتمرّد وعتا ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به ، وتسلم وتطيع ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي أدلك إلى عبادة ربك ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ أي فيصير قلبك خاضعًا له مطيعًا خاشعًا بعد ما كان قاسيًا خبيثًا بعيدًا من الخير ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية ودليلًا واضحًا على صدق ما جاءه به من عند اللّه ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ أي فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة ، وحاصله أنه كفر قلبه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره وعلمه بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علم القلب والإيمان عمله وهو الانقياد للحق والخضوع له . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل وهو جمعه السحرةَ ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ أي في قومه ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ بأربعين سنة . قال اللّه تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ أي انتقم اللّه منه انتقامًا جعله به عبرة ونكالًا لأمثاله من المتمردين في الدنيا وهذا هو الصحيح في الآية معنى أن المراد بقوله ﴿ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ أي الدنيا والآخرة وقيل : المراد بذلك كلماته الأولى والثانية ، وقيل : كفره وعصيانه ، والصحيح الذي لا شك فيه الأول ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أي لمن يتعظ وينزجر .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

يقول تعالى محتجًا على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿ ءَأَنتُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ يعني بل السماء أشد خلقًا منكم ، وقوله تعالى : ﴿ بَنَاهَا ﴾ فسره بقوله : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ أي جعلها عالية البناء بعيدة الفناء مستوية الأرجاء مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء . وقوله تعالى : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أي جعل ليلها مظلمًا أسود حالكًا ، ونهارها مضيئًا مشرقًا نيرًا واضحًا ، قال ابن عبّاس : أغطش ليلها أظلمه ، ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أي أنار نهارها . وقوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ فسّره بقوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ وقد تقدم في سورة السجدة أن الأرض خلقت قبل خلق السماء ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . عن ابن عبّاس ﴿ دَحَاهَا ﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام . فذلك قوله : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ أي قررها وأثبتها وأكدها في أماكنها وهو الحكيم العليم . الرؤوف بخلقه الرحيم .

وعن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ فَخَلَقَ الجِبَالَ فَأَلْقَاهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ فَتَعَجَّبَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ خَلْقِ الجِبَالِ ، فَقَالَتْ : يَا رَبُّ ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الجِبَالَ ؟ قَالَ : نَعَم : الحَدِيدُ . قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهل مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الحَدِيدَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، النَّارُ . قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ نَعَمْ ، المَاءُ . قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ المَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ : الرِّيحُ ، قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أشد مِنَ الرِّيحِ ؟ قَالَ : نَعَمْ : ابْنُ آدمَ يَتَصَدَّقُ بِيَمِينِهِ يُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أي دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ، كل ذلك متاعًا لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ۝ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ۝ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ۝ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ۝ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴾ وهو يوم القيامة ، قاله ابن عبّاس سميت بذلك ؛ لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع ، ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ أي حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره . ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ أي أظهرت للناظرين فرآها الناس عيانًا ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أي تمرد وعتا ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي قدّمها على أمر دينه وأخراه ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ أي فإن مصيره إلى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٤/٣) .

الجحيم وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ أي خاف القيام بين يدي الله ﷻ وخاف حكم الله فيه ونهى نفسه عن هواها وردها إلى طاعة مولاها ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أي منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنّة الفيحاء ثم قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ أي ليس عملها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردها ومرجعها إلى الله ﷻ فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ؛ ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال : « مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ »[1] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح ، وأنجح والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك . وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحى من يوم ، عن ابن عبّاس ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ أما عشية فما بين الظهر إلى الغروب الشمس ﴿ أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار وقال قتادة : وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

ذكر غير واحد من المفسّرين أن رسول اللَّه ﷺ كان يومًا يخاطب أحد عظماء قريش وقد طمع في إسلامه فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان ممن أسلم قديمًا فجعل يسأل رسول اللَّه ﷺ عن شيء ويلح عليه ، وود النبيّ ﷺ أن لو كف ساعته تلك ؛ ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعًا ورغبة في هدايته . وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل على الآخر ، فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ أي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أي يحصل له اتعاظ وازدجار عن المحارم ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ أي أما الغني فأنت تتعرض له لعله يهتدي ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ أي ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أي تتشاغل ، ومن ههنا أمر اللَّه تعالى رسول اللَّه ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحدًا ، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف والفقير والغني والسادة والعبيد والرجال والنساء والصغار والكبار . ثم اللَّه تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

عن عائشة قالت : أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى رسول اللَّه ﷺ فجعل يقول : أرشدني . قالت : وعند رسول اللَّه ﷺ رجل من عظماء المشركين . قالت : فجعل النبيّ ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : « أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا ؟ » . فيقول : لا ! ففي هذا أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ وعن هشام بن عروة عن أبيه قال : أنزلت عبس وتولى في ابن أم مكتوم ولم يذكر فيه عن عائشة [(١)] .

قلت : كذلك هو في الموطأ . وعن عبد اللَّه بن عمر يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ » [(٢)] . وهو الأعمى الذي أنزل اللَّه تعالى فيه ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ وكان يؤذن مع بلال ، قال سالم : وكان رجلًا ضرير البصر فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس حين ينظرون إلى بزوغ الفجر : أذن . وذكر عروة بن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف : أنها نزلت في ابن أم مكتوم والمشهور أن اسمه عبد اللَّه ويقال : عمرو واللَّه أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أي هذه السورة أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم ، وقال قتادة والسدي : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أي فمن شاء ذكر اللَّه تعالى في جميع أموره ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٣١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٧) ومسلم في الصيام (٣٧) والترمذي في السنن (٢٠٣) والنسائي في السنن (٢/ ١٠) وأحمد في مسنده (٢/ ٥٧) .

وقوله تعالى : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أي هذه السورة أو العظة وكلاهما متلازم بل جميع القرآن ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ أي معظمة موقرة ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي عالية القدر ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أي من الدنس والزيادة والنقص ، وقوله تعالى : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ : هي الملائكة . وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمّد ﷺ وقال قتادة : هم القراء ، وقال ابن جرير : والصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه ومنه السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير .

وقال البخاري : سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم . وقوله تعالى : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أي خلقهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة وطاهرة كاملة ، ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد . عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله : « الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ ، لَهُ أَجْرَانِ » (١) .

﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۝ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

يقول تعالى ذامًا لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ قال الضحاك عن ابن عبّاس ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ ﴾ لعن الإنسان ، وهذا لجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه بلا مستند بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم ، قال ابن جريج ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ أي ما أشد كفره ، وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد أي شيء جعله كافرًا أي ما حمله على التكذيب بالمعاد . وقال قتادة : ما ألعنه ، ثم بيّن تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير وأنه قادر على إعادته كما بدأه فقال تعالى : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ أي قدّر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ قال ابن عبّاس ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه ، واختاره ابن جرير ، وهذا هو الأرجح والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أي أنه بعد خلقه له أماته فأقبره أي جعله ذا قبر ، والعرب تقول : قبرت الرجل إذا ولي ذلك منه ، وأقبره الله ، وعضبت قرن الثور وأعضبه الله وبترت ذنب البعير وأبتره الله ، وطردت عني فلانًا وأطرده الله ، أي جعله طريدًا ، قال الأعشى :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إِلَى صَدْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أي بعثه بعد موته ومنه يقال : البعث والنشور . وعن أبي هريرة عنه ﷺ قال : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبُ الذَّنْبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال ابن جرير : يقول جل ثناؤه : ﴿ كَلَّا ﴾ ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدّى حق الله عليه في نفسه وماله ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يقول : لم يؤد ما فرض عليه ﷻ من الفرائض لربّه ﷻ . وعن مجاهد : لا يقضي أحد أبدًا كل ما افترض

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٣٧) وأحمد في مسنده (٤٨/٦) وأبو داود في السنن (١٤٥٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١٤٢) والنسائي في السنن (١١/٤) وابن حبان في صحيحه (٢٥٧٤) .

عليه ، ولم أجد للمتقدمين فيه كلامًا سوى هذا ، والذي يقع لي في معنى ذلك والله أعلم أن المعنى ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ أي بعثه ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ أي لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن سيوجد منهم ، ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كونًا وقدرًا فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم . روي عن وهب بن منبه قال : قال عزير عليه السلام : قال الملك الذي جاءني : فإن القبور هي بطن الأرض ، وإن الأرض هي أم الخلق ، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق وتمت هذه القبور التي مد الله لها انقطعت الدنيا ومات من عليها ولفظت الأرض ما في جوفها وأخرجت القبور ما فيها ، وهذا شبيه بما قلنا من معنى الآية والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ فيه امتنان وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظامًا بالية وترابًا متمزقًا ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أي أسكناه فيها فيدخل في تخومها وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ فالحب كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة ويقال لها : القت أيضًا . وقال الحسن البصري : القضب العلف ﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ وهو معروف وهو أدم وعصيره أدم ويستصبح به ويدهن به ﴿ وَنَخْلًا ﴾ يؤكل بلحًا وبسرًا ورطبًا وتمرًا أو نيئًا ومطبوخًا ويعتصر منه رب وخل ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾ : أي بساتين وقال قتادة : ﴿ غُلْبًا ﴾ نخل غلاظ كرام ، وقال ابن عباس : كل ما التف واجتمع . وقال عنه : الشجر الذي يستظل به ، وقال عكرمة : غلاظ الرقاب ، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل : والله إنه لأغلب ، وأنشد ابن جرير للفرزدق :

عَوَى فَأَثَارَ أَغْلَبَ ضَيْغَمِيًّا فَوَيْلُ ابْنِ المَرَاغَةِ مَا اسْتَثَارَا

وقوله تعالى : ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار . وقال ابن عباس : كل ما أكل رطبًا ، والأب ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس ، وهو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : الأب : الكلأ . وقال الحسن : الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم ، وقال عطاء : كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب ، وعن ابن عبّاس : الأب نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس . وعن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ فلما أتى هذه الآية ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال : قد عرفنا الفاكهة فما الأب ؟ . فقال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف . وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلَّا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ أي عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده . قال ابن جرير : لعله اسم للنفخة في الصور ، وقال البغوي : ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ يعني صيحة يوم القيامة سميت بذلك ؛ لأنها

تصخ الأسماع أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ أي يراهم ويفر منهم يبتعد عنهم ؛ لأن الهول عظيم والخطب جليل ، قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه أي بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنت ، وتثني بخيرٍ ما استطاعت فيقول لها : فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبت ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئًا أتخوف مثل الذي تخاف .

قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به ، فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ فيثني بخير . فيقول له : يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا . يقول اللّه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ . وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند اللّه في الخلائق يقول : نفسي نفسي ، لا أسألك اليوم إلّا نفسي ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول : لا أسأله اليوم إلّا نفسي لا أسأله مريم التي ولدتني ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ قال قتادة : الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب : من هول ذلك اليوم . وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أي هو في شغل شاغل عن غيره ، عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا » . فقالت امرأة : أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يَا فُلَانَةُ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » [1] . عن عائشة أن رسول اللّه ﷺ قال : « يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا » . فقالت عائشة : يا رسول اللّه فكيف بالعورات ؟ فقال : « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » [2] . وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين وجوه مسفرة أي مستنيرة ﴿ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي مسرورة فرحة من السرور في قلوبهم ، قد ظهر البشر على وجوههم وهؤلاء هم أهل الجنّة ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أي يعلوها وتغشاها قترة أي سواد ، قال رسول اللّه ﷺ : « يَلْجُمُ الْكَافِرَ الْعَرَقُ ثُمَّ تَقَعُ الْغَبَرَةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ » قال فهو قوله تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أي يغشاها سواد الوجوه وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أي الكفرة قلوبهم الفجرة في أعمالهم .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٧) والترمذي في السنن (٣٣٣٢) والحاكم في المستدرك (٢/٢٥١) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٤/١١٤) والحاكم في المستدرك (٤/٥٦٤) .

سورة التكوير

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ »(١) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ .

عن ابن عبّاس ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ : يعني أظلمت . وقال العوفي : ذهبت . وقال مجاهد : اضمحلت وذهبت . وقال الضحاك : ذهب ضوؤها . وقال الربيع : رمي بها . قال ابن جرير : والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض . فمعنى قوله تعالى ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ جمع بعضها إلى بعض ثم لفت فرُميَ بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها . وعن ابن عبّاس : إذا الشمس كورت قال : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحًا دبورًا فتضرمها نارًا . وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ أي انتثرت كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ وأصل الانكدار الانصباب . عن أُبيّ بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش فماجوا بعضهم في بعض ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : اختلطت ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ قال : أهملها أهلها ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر . قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج ، قال : فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، قال : فبينما هم كذلك إذا جاءتهم الريح فأماتتهم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أي زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعًا صفصفًا .

وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ تركت وسيّبت وقال أبي بن كعب : أهملها أهلها . وقال الربيع ابن خيثم : لم تحلب ولم تصر تخلى منها أربابها . وقال الضحاك : تركت لا راعي لها ، والمعنى في هذا كله متقارب ، والمقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر - واحدتها عشراء . ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها بعد ما كانوا أرغب شيء فيها ، بما دهمهم من الأمر العظيم المفظع

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/٢) والترمذي في السنن (٣٣٣٣) والألباني في الصحيحة (١٠٨١) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٤) .

الهائل وهو أمر يوم القيامة وانعقاد أسبابها ووقوع مقدماتها ، وقيل بل يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابها كذلك لا سبيل لهم إليها ، وقد قيل في العشار : إنها السحاب تعطل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا وقيل إنها الأرض التي تعشر ، وقيل : إنها الديار التي كانت تسكن تعطلت لذهاب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبي في كتابه التذكرة ، ورجح أنها الإبل وعزاه إلى أكثر الناس . قلت : لا يعرف عن السلف والأئمة سواه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أي جمعت . قال ابن عبّاس : يحشر كل شيء حتى الذباب . وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية : إن هذه الخلائق موافية فيقضي الله فيها ما يشاء ، وقال عكرمة : حشرها موتها . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : حشر البهائم موتها وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس ، فإنهما يوقفان يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال علي ﷺ لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . فقال : ما أراه إلّا صادقًا ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ . ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ . وقال مجاهد والحسن بن مسلم : سجرت أوقدت . وقال الحسن : يبست . وقال قتادة : غاض ماؤها فذهب فلم يبق فيها قطرة . وقال السدي : فتحت وصيرت . وقال الربيع بن خيثم : سجرت فاضت . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أي جمع كل شكل إلى نظيره ، عن النعمان بن بشير أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ - قال - الضُّرَبَاءُ كُلُّ رَجُلٍ مَعَ كُلِّ قَوْمٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ عَمَلَهُ »(١) . وذلك بأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ . قال : هم الضرباء ، عن النعمان قال : سئل عمر عن قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ، فذلك تزويج الأنفس . وعن مجاهد ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : الأمثال من الناس جمع بينهم . واختاره ابن جرير وهو الصحيح .

قول آخر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ عن ابن عبّاس قال : يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين ومقدار ما بينهما أربعون عامًا ، فينبت منه كل خلق بلي من الإنسان أو طير أو دابة ، ولو مر عليهم مارٌّ قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على وجه الأرض قد نبتوا ثم ترسل الأرواح فتزوج الأجساد فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ وقيل : زوج المؤمنون بالحور العين وزوج الكافرون بالشياطين . حكاه القرطبي في التذكرة . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ الموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات ، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت ليكون ذلك تهديدًا لقاتلها فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذًا ؟ وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءودة ، فعن عائشة عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت : حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الغيلَةِ فَنَظَرْتُ في الرُّومِ وَفَارِسَ فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ وَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذلِكَ شَيْئًا » . ثم سألوه عن العزل فقال رسول الله

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٤/٦) والطبري في تفسيره (٨٨/٢٩) .

ﷺ : « ذٰلِكَ الوَأْدُ الخَفِيُّ وَهُوَ المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ » [(١)] . وعن سلمة بن يزيد الجعفي قال : انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم وتقري الضيف وتفعل ، هلكت في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئًا ! قال : « لَا » قلنا : فإنها كانت وأدت أختًا لنا في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئًا قال : « الوَائِدَةُ وَالمَوْءُودَةُ فِي النَّارِ إِلَّا أَنْ يُدْرِكَ الوَائِدَةَ الإِسْلَامُ فَيَعْفُوَ اللهُ عَنْهَا » [(٢)] قال ابن عبّاس : أطفال المشركين في الجنّة فمن زعم أنهم في النار فقد كذب . يقول الله تعالى ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ قال ابن عبّاس : هي المدفونة . وعن عمر بن الخطاب في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني وأدت بنات لي في الجاهلية قال : « أَعْتِقْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقَبَةً » قال يا رسول الله : إني صاحب إبل قال : « فَانْحَرْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَدَنَةً » [(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ قال الضحّاك : أعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله . وقال قتادة : يا ابن آدم تملي فيها ثم تطوى ثم تنشر عليك يوم القيامة فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ قال مجاهد : اجتذبت ، وقال السدي : كشفت ، وقال الضحّاك تنكشط فتذهب .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ قال السدي : أحميت ، وقال قتادة : أوقدت ، قال : وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم . وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ قال الضحّاك وغيره قربت إلى أهلها ، وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ هذا هو الجواب أي إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها . عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما نزلت ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قال عمر : لما بلغ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ قال : لهذا أجري الحديث .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

عن عمرو بن حريث قال : صليت خلف النبيّ ﷺ الصبح فسمعته يقرأ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ وعن أبي إسحاق عن رجل من مراد عن علي ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ قال : هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل . وعن خالد عن علي قال : هي النجوم ، وقال بعض الأئمة : إنما قيل للنجوم : الخنس أي في حال طلوعها ثم هي جوار في فلكها وفي حال غيبوبتها يقال لها كنس . ومن قول العرب : أوى الظبي إلى كناسه إذا تغيب فيه . وقال الأعمش عن إبراهيم قال : قال عبد الله ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ قال : بقر الوحش ،

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٤١) وأبو داود في السنن (٣٨٨٢) وأحمد في مسنده (٤٣٤/٦) والترمذي في السنن (٢٠٧٧) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٨/٣) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (١٦/٨) والطبراني في الكبير (٣٣٨/١٨) .

وقال ابن عبّاس : هي الظباء ، وعن إبراهيم ومجاهد أنهما تذاكرا هذه الآية ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾ فقال إبراهيم لمجاهد : قل فيها بما سمعت ، قال : فقال مجاهد : كنا نسمع فيها شيئًا وناس يقولون إنها النجوم ، قال : فقال إبراهيم : قل فيها بما سمعت ، قال : فقال مجاهد : كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس في حجرتها ، قال : فقال إبراهيم : إنهم يكذبون عليّ على هذا ، كما رووا عن علي أنه ضمن الأسفل الأعلى والأعلى الأسفل . وتوقف ابن جرير في المراد بقوله : ﴿ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾ هل هو النجوم أو الظباء وبقر الوحش قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادًا ، وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ فيه قولان أحدهما : إقباله بظلامه ، والثاني : إذا أدبر عن أبي عبد الرّحمن السلمي قال : خرج علينا علي ﷺ حين ثوّب المثوب بصلاة الصبح فقال : أين السائلون عن الوتر ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ هذا حين أدبر حسن . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ إذا أدبر قال لقوله ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي أضاء واستشهد بقول الشاعر أيضًا :

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهُ تَنَفَّسَا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا [١]

أي أدبر وعندي أن المراد بقوله ﴿ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ إذا أقبل وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضًا لكن الإقبال ههنا أنسب ، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل وبالفجر وضيائه إذا أشرق ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ . وغير ذلك من الآيات ، وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة عسعس تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما والله أعلم . وقال ابن جرير : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن عسعس دنا من أوله وأظلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ قال الضحاك : إذا طلع ، وقال قتادة : إذا أضاء وأقبل . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ وهو المروي عن علي . وقال ابن جرير : يعني ضوء النهار إذا أقبل وتبين . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ يعني إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر وهو جبريل عليه الصلاة والسلام . ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ أي شديد الخلق شديد البطش والفعل ﴿ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴾ أي له مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة ، قال أبو صالح في قوله تعالى : ﴿ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴾ قال جبريل يدخل في سبعين حجابًا من نور بغير إذن ﴿ مُّطَاعٖ ثَمَّ ﴾ أي له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى . قال قتادة : ﴿ مُّطَاعٖ ثَمَّ ﴾ أي في السموات يعني ليس هو من أفناد الملائكة بل هو من السادة والأشراف معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة .

وقوله تعالى : ﴿ أَمِينٖ ﴾ صفة لجبريل بالأمانة وهذا عظيم جدًّا أن الرب ﷻ يزكي عبده ورسوله الملكي كما زكى عبده ورسوله البشري محمّدًا ﷺ بقوله تعالى ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴾ يعني محمّدًا ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ يعني ولقد رأى محمّد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷻ على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ أي البين وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء ، والدليل عليه أن المراد بذلك جبريل عليه السلام ، والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلّا هذه الرؤية وهي الأولى ، وأما

---

(١) البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن (ص : ٣٠) والطبري في تفسيره (٢٩/٩٨) .

الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ . فتلك إنما ذكرت في سورة النجم وقد نزلت بعد سورة الإسراء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بظنين ﴾ أي وما محمّد على ما أنزله الله إليه ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ أي بمتهم . ومنهم من قرأ ذلك بالضاد[1] أي ببخيل بل يبذله لكل أحد . قال سفيان بن عيينة : ظنين وضنين سواء أي ما هو بكاذب وما هو بفاجر . والظنين المتهم والضنين البخيل . وقال قتادة : كان القرآن غيبًا فأنزله الله على محمّد فما ضنَّ به على الناس بل نشره وبلَّغه وبذله لكل من أراده ، واختار ابن جرير قراءة الضاد قلت : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح كما تقدّم ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبهم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقًّا من عند الله ﷻ كما قال الصدِّيق ﷺ لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين وأمرهم فتلوا عليه شيئًا من قرآن مسيلمة الكذاب الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال : ويحكم أين تذهب عقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل ، أي من إله ، وقال قتادة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أي عن كتاب الله وعن طاعته .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أي لمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه مناجاة له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي ليست المشيئة موكولة إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين . عن سليمان بن موسى لما نزلت هذه الآية ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ قال أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (بظنين) وقرأ الباقون (بضنين) (حجة القراءات ص ٧٥٢) .

سورة الانفطار

عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل فقال النبيّ ﷺ : « أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ ؟ أَيْنَ كُنْتَ عَنْ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، وَالضُّحَى ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ! » [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ أي انشقت ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ أي تساقطت ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ : فجر الله بعضها في بعض وقال الحسن : فجر الله بعضها في بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة : اختلط عذبها بمالحها .

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ قال ابن عباس : بحثت ، وقال السدي : تبعثر تحرك فيخرج من فيها ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أي إذا كان هذا حصل هذا ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ هذا تهديد لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب حيث قال الكريم حتى يقول قائلهم غره كرمه بل المعنى في هذه الآية : ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم أي العظيم حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق وقال قتادة : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ شيء ، ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان . وقال الفضيل بن عياض : لو قال لي ما غرّك بي لقلت : ستورك المرخاة . وقال أبو بكر الورّاق : لو قال لي ما غرك بربك الكريم لقلت : غرّني كرم الكريم . وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال ﴿ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته كأنه لقنه الإجابة ، وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل لأنه إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور . وقد حكى البغوي عن الكلبي ومقاتل أنهما قالا : نزلت هذا الآية في الأسود بن شريق ضرب النبيّ ﷺ ولم يعاقب في الحالة الراهنة فأنزل الله تعالى ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أي ما غرك بالرب الكريم ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أي جعلك سويًّا مستقيمًا معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال ، عن بشر ابن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ ، وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟ » [٢] . وعن أبي هريرة أن رجلًا قال : يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلامًا أسود ، قال : « هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ ؟ » . قال : نعم ، قال : « فَمَا أَلْوَانُهَا » . قال : حمر . قال : « فَهَلْ فِيهَا مِنْ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٧٨) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٣) والنسائي في السنن (١٦٨/٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٦١١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠/٤) .

أَوْرَقَ » . قال : نعم ، قال : « فَأَنَّى أَتَاهَا ذٰلِكَ » . قال : عسى أن يكون نزعه عرق قال : « وَهٰذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَه عِرْقٌ »[1] ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ قال عكرمة إن شاء في صورة كلب وإن شاء في صورة حمار وإن شاء في صورة خنزير . ومعنى هذا القول عند هؤلاء أن الله ﷻ قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام حسن المنظر والهيئة .

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾ أي إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ يعني وإن عليكم لملائكة حفظة كرامًا فلا تقابلوهم بالقبائح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم وهم الذين أطاعوا الله ﷻ ولم يقابلوه بالمعاصي . ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ولهذا قال : ﴿ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة ﴿ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يومًا واحدًا ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ثم أكده بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ ، ثم فسره بقوله ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه إلّا أنْ يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، ونذكر ههنا حديث : « يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا »[2] . ولهذا قال : ﴿ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ قال قتادة ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ والأمر والله اليوم لله ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد .

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣١٤) ومسلم في اللعان (١٨) والترمذي في السنن (٢١٢٨) وأحمد في مسنده (٤٠٩/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٨) والنسائي في السنن (٢٤٨/٦) وأحمد في مسنده (٥١٩/٢) .

سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : لما قدم النبيّ ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا فأنزل اللّٰه تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك (١) . وعن عبد اللّٰه قال : قال له رجل يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل قال : وما يمنعهم أن يوفوا الكيل وقد قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ – حتى بلغ – يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ والمراد بالتطفيف ههنا البخس في المكيال والميزان إما بالازدياد إن اقتضى من الناس وإما بالنقصان إن قضاهم ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي من الناس ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أي يأخذون حقهم بالوافي والزائد ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أي ينقصون ، والأحسن أن يجعل كالوا ووزنوا متعديًا ويكون هم في محل نصب ، ومنهم من يجعلها ضميرًا مؤكدًا للمستتر في قوله كالوا ووزنوا ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه وكلاهما متقارب . وقد أمر اللّٰه تعالى بالوفاء في الكيل والميزان فقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ وأهلك اللّٰه قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال . ثم قال تعالى متوعدًا لهم : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي ما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول كثير الفزع جليل الخطب من خسر فيه أدخل نارًا حامية ؟ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي يقومون حفاة عراة غرلًا في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ويغشاهم من أمر اللّٰه تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه .

عن ابن عمر أن النبيّ ﷺ قال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ » (٢) .

عن المقداد بن الأسود الكندي قال : سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول : « إِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ أُدْنِيَتَ الشَّمْسُ مِنَ العِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قَدْرَ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ – قال – فَتَصْهَرُهُمُ الشَّمْسُ فَيَكُونُونَ فِي العَرَقِ كَقَدرِ أَعْمَالِهِمْ ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقِبَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ إِلْجَامًا » (٣) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللّٰه ﷺ لبشير الغفاري : « كَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ فِي يَوْمٍ يَقُومُ النَّاسُ فِيهِ ثَلاثمَائَةِ سَنَةٍ لِرَبِّ العَالَمِينَ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا لَا يَأْتِيهِمْ فِيهِ خَبَرٌ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا يُؤْمَرُ فِيهِمْ بِأَمْرٍ ؟ » قال بشير : المستعان اللّٰه ، قال : « فَإِذَا أَوَيْتَ إِلَى

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٤٥٩٠) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٨) وأحمد في مسنده (٦٤/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٦) والترمذي في السنن (٢٤٢١) .

فِرَاشِكَ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ وَسُوءِ الحِسَابِ »[١] . وعن ابن مسعود : يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يكلمهم أحد قد ألجم العرق برّهم وفاجرهم ، وعن ابن عمر : يقومون مائة سنة ، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل : يكبّر عشرًا ويحمد عشرًا ، ويسبّح عشرًا ويستغفر عشرًا ويقول : « اللَّهُمَّ اغْفِر لِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي » . ويتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة[٢] .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

يقول تعالى حقًّا ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ أي أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين فعيل من السجن وهو الضيق كما يقال فسيق وشريب وخمير وسكير ونحو ذلك ؛ ولهذا عظم أمره فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ أي هو أمر عظيم وسجن مقيم وعذاب أليم ، ثم قد قال قائلون : هي تحت الأرض السابعة ، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب في حديثه الطويل : يقول الله ﷻ في روح الكافر اكتبوا كتابه في سجين . وسجين هي تحت الأرض السابعة وقيل صخرة تحت السابعة خضراء ، وقيل بئر في جهنم ، وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « الفَلَقُ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ مُغَطًّى وَأَمَّا سِجِّينُ فَمَفْتُوحٌ »[٣] . والصحيح أن سجينًا مأخوذ من السجن وهو الضيق فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق وكل ما تعالى منها اتسع فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وقال ههنا ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ وهو يجمع الضيق والسفول كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ ليس تفسيرًا لقوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين أي مرقوم مكتوب مفروغ منه لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد . قاله محمّد بن كعب القرظي .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهين ، وقد تقدم الكلام على قوله ويل بما أغنى عن إعادته وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار كما يقال : ويل لفلان ، وكما جاء عن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله ﷺ : « وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ النَّاسَ وَيْلٌ لَهُ »[٤] . ثم قال تعالى مفسرًا للمكذبين الفجار الكفرة ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أي لا يصدقون بوقوعه ولا يعتقدون كونه ويستبعدون أمره ، قال الله تعالى :

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٢٤) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٣٥٦) وأحمد في مسنده (٦/١٤٣) والنسائي في السنن (٨/٢٨٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٦١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٧) والدارمي في السنن (٢/٢٩٦) وأبو داود في السنن (٤٩٩٠) .

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أي معتد في أفعاله من تعاطي الحرام والمجاوزة في تناول المباح ، والأثيم في أقواله إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل . قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا إن هذا القرآن أساطير الأولين بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ والرين يعتري قلوب الكافرين ، والغيم للأبرار والغين للمقربين . وقد روى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ المؤمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاء في قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغفرَ صقلَ قَلْبُهُ فَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّه فِي القُرْآنِ ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ »[1] . وقال الحسن البصري هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ أي لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم ، قال الإمام أبو عبد الله الشافعي : وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن وهو استدلال بمفهوم هذه الآية . كما دل عليه منطوق قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة رؤية بالأبصار في عرصات القيامة وفي روضات الجنان الفاخرة . وعن الحسن في قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ قال : يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون ثم يحجب عنه الكافرون ، وينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية أو كلامًا هذا معناه ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتصغير والتحقير .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

يقول تعالى حقًّا إن كتاب الأبرار وهم بخلاف الفجار ﴿ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ أي مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف سجين . عن ابن عبّاس في قوله ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ يعني الجنّة . وفي رواية العوفي عنه : أعمالهم في السماء عند الله ، وقال قتادة : عليون ساق العرش اليمنى ، وقال غيره : عليون عند سدرة المنتهى والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع ولهذا قال تعالى معظمًا أمره ومفخمًا شأنه ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ثم قال تعالى مؤكدًا لما كتب لهم ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ وهم الملائكة . وقال ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها . ثم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٩٧) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أي يوم القيامة هم في نعيم مقيم وجنات فيها فضل عميم ﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ ﴾ وهي السرور تحت الحجاب ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ قيل معناه ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد وقيل معناه ﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ إلى الله ﷻ ، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ﷻ وهم على سررهم وفرشهم ورد في حديث ابن عمر : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفَي سَنَةٍ يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ وَإِنَّ أَعْلاَهُمْ لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ ﷻ فِي اليَوْمِ مَرَّتَيْنِ » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم أي صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة مما هم فيه من النعيم العظيم . وقوله تعالى : ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴾ أي يسقون من خمر من الجنّة والرحيق من أسماء الخمر . عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري أراه قد رفعه إلى النبيّ ﷺ قال : « أَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا شَرْبَةَ مَاءٍ عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ المَخْتُومِ ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثِمَارِ الجَنَّةِ ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِنًا ثوبا على عري كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خضرِ الجَنَّةِ » [٢] . وقال ابن مسعود في قوله : ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ ﴾ أي خلطه مسك ، وقال ابن عبّاس : طيب الله لهم الخمر فكان آخر شيء جعل فيها مسك ختم بمسك ، وقال إبراهيم والحسن : ختامه مسك أي عاقبته مسك وعن أبي الدرداء ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ ﴾ قال : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم ولو أن رجلًا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلّا وجد طيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ أي وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون وقوله تعالى : ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴾ أي ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم أي من شراب يقال له تسنيم وهو أشرف شراب أهل الجنّة وأعلاه ، ولهذا قال : ﴿ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ أي يشربها المقربون صرفًا وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا قاله ابن مسعود وابن عبّاس ومسروق وقتادة وغيرهم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦ ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين أي يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم أي محتقرين لهم ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ أي وإذا انقلب أي رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين أي مهما طلبوا وجدوا ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم ﴿ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ أي لكونهم على غير دينهم قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم ؟ ولهذا قال : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ﴾ يعني

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣/٣) .

يوم القيامة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أي إلى الله ﷻ في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ليسوا بضالين بل هم من أولياء الله المقربين ينظرون إلى ربهم في دار كرامته . وقوله تعالى : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ، يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

سورة الانشقاق

عن أبي رافع قال : صلَّيت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ فسجد فقلت له فقال : سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه [(١)] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أي استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق وذلك يوم القيامة ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء ثم قال : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت .

عن علي بن الحسين أن النبيّ ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ مَدَّ اللَّه الأَرْضَ مَدَّ الأَدِيمِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِبَشَرٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُدْعَى وَجِبْرِيلُ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمنِ وَاللَّه مَا رَآه قَبْلَهَا فَأَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّ هذَا أَخْبَرَنِي أَنَّكَ أَرْسَلْتَهُ إِلَيَّ ، فَيَقُولُ اللَّه ﷻ صَدَقَ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَأَقُولُ يَا رَبِّ عِبَادُكَ عبدوك فِي أَطْرَافِ الأَرْضِ - قال - وَهُوَ المَقَامُ المَحْمُودُ » [(٢)] وقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم . وقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أي إنك ساع إلى ربك سعيًا وعامل عملًا ﴿ فَمُلَٰقِيهِ ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . ويشهد لذلك ما روي عن جابر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « قَالَ جِبْرِيلُ يَا مُحَمَّدُ عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مفارقه ، واعمل ماشئت فإنك مُلاقِيهِ » [(٣)] . ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ﴿ رَبِّكَ ﴾ أي فملاق ربك ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك ، وعلى هذا فكلا القولين متلازم . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أي سهلًا بلا تعسير أي لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة . وعن عائشة ﵂ قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ » . قالت : فقلت : أفليس قال اللَّه تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ قال : « لَيْسَ ذَاكَ بِالحِسَاب وَلكِنَّ ذلِكَ العَرْض ، مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ عُذِّبَ » [(٤)] . وعن عائشة قالت : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في بعض صلاته :

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٦٦) وأبو داود في السنن (١٤٠٨) .

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٩٠٩٤) .

(٣) هذا الحديث من الأحاديث المشهورة على ألسنة الناس وهو من الأحاديث الموضوعة ، فقد ذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (١٦/٢) والفتني في تذكرة الموضوعات (٢٠٠) والعجلوني في كشف الخفاء (٧٨/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٣٦) وأحمد في مسنده (٤٧/٦) والترمذي في السنن (٣٣٣٧) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٧٩) .

« اللَّهُمَّ حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا » . فلما انصرف قلت يا رسول اللّه ما الحساب اليسير ؟ قال : « أَنْ يُنْظَرَ فِي كِتَابِهِ فَيَتَجَاوَزَ لَهُ عَنْهُ إِنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَا عَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ هَلَكَ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنّة ، مسرورًا أي فرحًا مغتبطًا بما أعطاه اللّه ﷻ .

عن ثوبان مولى رسول اللّه ﷺ أنه قال : إنكم تعملون أعمالًا لا تعرف ويوشك الغائب أن يثوب إلى أهله فمسرورًا أو مكظوم (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ أي بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴾ أي خسارًا وهلاكًا ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ أي فرحًا لا يفكر في عواقب ولا يخاف مما أمامه فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل . ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى اللّه ولا يعيده بعد موته قاله ابن عبّاس وقتادة وغيرهما ، والحور هو الرجوع قال اللّه : ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ يعني بلى سيعيده اللّه كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرها وشرها فإنه كان به بصيرًا أي عليمًا خبيرًا .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴾ .

روي عن علي وابن عبّاس وعبادة بن الصامت وأبي هريرة وشداد بن أوس وابن عمر وغيرهم أنهم قالوا : الشفق الحمرة . وعن أبي هريرة قال : الشفق البياض ، فالشفق هو حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس ، وإما بعد غروبها ، كما هو معروف عند أهل اللغة . قال الخليل بن أحمد : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة فإذا ذهب قيل غاب الشفق . وقال الجوهري : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب من العتمة . وكذا قال عكرمة : الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء . وفي الصحيح عن عبد اللّه بن عمرو عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : «وَقْتُ المَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ » (٣) . ففي هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل . ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ : هو النهار كله وفي رواية عنه أيضًا أنه قال الشفق الشمس ، وإنما حمله على هذا قرنه بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي جمع كأنه أقسم بالضياء والظلام . قال ابن جرير : أقسم اللّه بالنهار مدبرًا وبالليل مقبلًا .

وقد قال عكرمة : ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ يقول : ما ساق من ظلمة إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ قال ابن عبّاس : إذا اجتمع واستوى ، وعن سعيد بن جبير ومسروق وأبو صالح والضحاك وابن زيد ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ إذا استوى . وقال قتادة : إذا استدار . ومعنى كلامهم أنه إذا تكامل نوره وأبدر جعله مقابلًا لليل وما وسق ، وقوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال ابن عبّاس ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ حالًا بعد حال قال هذا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٠٦) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨٠) والترمذي في السنن (٢٤٢٦).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/٨٩).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (١/٣٦٦).

نبيكم ﷺ [١] ، وعن الشعبي قال : لتركبنّ يا محمّد سماء بعد سماء . قلت يعنون ليلة الإسراء ؟ وقال ابن عبّاس : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ منزلًا على منزل ، قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : « لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القذَّةِ بالقذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ » . قالوا : يا رسول اللّه : اليهود والنصارى قال « فَمَنْ ؟ » [٢] . وهذا محتمل .

قال عبد اللّه : السماء تنشقُّ ثم تحمر ثم تكون لونًا بعد لون . وقال الحسن البصري ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ يقولا حالًا بعد حال ، رخاء بعد شدة وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر وفقرًا بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقمًا بعد صحة ، ثم قال ابن جرير بعدما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القرّاء والمفسّرين : والصواب من التأويل قول من قال لتركبن أنت يا محمّد حالًا بعد حال وأمرًا بعد أمر من الشدائد والمراد بذلك إن كان الخطاب موجهًا إلى رسول اللّه ﷺ جميع الناس وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالًا . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ أي فماذا يمنعهم من الإيمان باللّه ورسوله واليوم الآخر وما لهم إذا قرئت عليهم آيات اللّه وكلامه وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظامًا وإكرامًا واحترامًا . وقوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي يكتمون في صدورهم ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأخبرهم يا محمّد بأن اللّه ﷻ قد أعد لهم عذابًا أليمًا .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي بجوارحهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير منقوص ، وقال مجاهد والضحاك : غير محسوب وحاصل قولهما أنه غير مقطوع . وقال السدي : منقوص ، وقال بعضهم : غير ممنون عليهم وهذا القول الأخير عن بعضهم قد أنكره غير واحد فإن اللّه ﷻ له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة ، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم ، فله عليهم المنّة دائمًا سرمدًا ، والحمد للّه وحده أبدًا ؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس ، وآخر دعواهم أن الحمد للّه رب العالمين .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٤٥٥) وأحمد في مسنده (٥/٣٤٠) .

سورة البروج

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق [١] . وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .

يقسم تعالى بالسماء وبروجها وهي النجوم العظام . قال ابن عبّاس ومجاهد والضحاك وغيرهم : البروج النجوم وعن مجاهد أيضًا : البروج التي فيها الحرس . وقال يحي بن رافع : البروج قصور في السماء ، وقال المنهال بن عمرو ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ الخلق الحسن . واختار ابن جرير أنها منازل الشمس والقمر وهي اثنا عشر برجًا تسير الشمس في كل واحد منها شهرًا ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثًا فذلك ثمانية وعشرين منزلة ويستسر ليلتين ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ اختلف المفسرون في ذلك . فعن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة والموعود يوم القيامة [٣] . وعن أبي هريرة أيضًا أنه قال : اليوم الموعود يوم القيامة . وكذلك قال الحسن وقتادة وابن زيد ولم أرهم يختلفون في ذلك ولله الحمد .

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ الشَّاهِدَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَإِنَّ الْمَشْهُودَ يَوْمُ عَرَفَةٍ وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ ذَخَرَهُ اللَّهُ لَنَا » [٤] . وعن ابن عبّاس قال : الشاهد هو محمّد ﷺ والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ وعن شباك قال : سأل رجل الحسن بن علي عن ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : سألت أحدًا قبلي ؟ قال : نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا : يوم الذبح ويوم الجمعة ، فقال : لا ، ولكن الشاهد محمّد ﷺ ثم قرأ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ والمشهود يوم القيامة ثم قرأ ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ وقال مجاهد وعكرمة والضحّاك : الشاهد ابن آدم والمشهود يوم القيامة . وعن عكرمة أيضًا الشاهد محمّد ﷺ والمشهود يوم الجمعة ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس : الشاهد الله والمشهود يوم القيامة . وقال الأكثرون : على أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة . وقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أي لعن أصحاب الأخدود وجمعه أخاديد وهي الحفر في الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ﷻ فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم ، فحفروا لهم في الأرض أخدودًا وأججوا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٦/٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٧/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٨/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٣٩) والطبراني في الكبير (٣٣٨/٣) والألباني في الصحيحة (١٥٠٢) .

فيه نارًا وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أي مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي وما كان لهم عندهم ذنب إلَّا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجنابه المنيع الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به فهو العزيز الحميد ، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس . ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض ولا تخفى عليه خافية .

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم فعن علي أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم فامتنع عليه علماؤهم فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم . وعنه أنهم كانوا قومًا باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم فغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين فخدوا لهم الأخاديد وأحرقوهم فيها ، وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة واحدهم حبشي ، وقال ابن عبّاس ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ قال : ناس من بني إسرائيل خدوا أخدودًا في الأرض ثم أوقدوا فيه نارًا ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالًا ونساء فعرضوا عليها . وزعموا أنه دانيال وأصحابه . وهكذا قال الضحاك بن مزاحم وقيل غير ذلك .

عن صهيب الرومي أن رسول الله ﷺ قال : « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مَلِكٌ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبُرَ السَّاحِرُ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ كَبُرَ سِنِّي وَحَضَرَ أَجَلِي فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا لِأُعَلِّمَهُ السِّحْرَ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا كَانَ يُعَلِّمُهُ السِّحْرَ ، وَكَانَ بَيْنَ السَّاحِرِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ رَاهِبٌ ، فَأَتَى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ فَأَعْجَبَهُ نَحْوُهُ وَكَلَامُهُ ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ وَقَالَ : مَا حَبَسَكَ ، وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ وَقَالُوا : مَا حَبَسَكَ ، فَشَكَا ذلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ : إِذَا أَرَادَ السَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي وإذا أراد أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ . قال : فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ فَظِيعَةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا . فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَى اللّه أَمْ أَمْرُ السَّاحِرِ ، قَالَ : فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضَى مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ ، وَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ فَقَالَ : أَي بُنَيَّ أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُليت فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ ، فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ وَيَشْفِيهِمْ ، وَكَانَ لِلْمَلِكِ جَلِيسٌ فَعَمِيَ فَسَمِعَ بِهِ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ : اشْفِنِي وَلَكَ مَا هَهُنَا أَجْمَع فَقَالَ : مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفي اللّه ﷻ فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ دَعَوْتُ اللّه فَشَفَاكَ ، فَآمَنَ فَدَعَا اللّه فَشَفَاهُ ، ثُمَّ أَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوَ مَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا فُلَانُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟ فَقَالَ : رَبِّي ؟ فَقَالَ : أَنَا ! قَالَ : لَا ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللّه ، قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ : نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللّه فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَام فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَي بُنَيَّ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تُبْرِئَ

الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَهَذِهِ الأَدْوَاءِ ! قَالَ : مَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ﷻ ، قَالَ : أَنَا ، قَالَ : لَا . قَالَ : أَوَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قال : رَبِّي وَربكَ اللَّه ، فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالعَذَابِ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَأُتِيَ بِالرَّاهِبِ . فَقَالَ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى فَوَضَعَ المِنْشَارَ فِي مَفرقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ، وَقَالَ لِلأَعْمَى : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَوَضَعَ المِنْشَارَ فِي مَفرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ إِلَى الأَرْضِ . وَقَالَ لِلغُلَامِ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا وَقَالَ : إِذَا بَلَغْتُم ذرْوَتَهُ فَإِنْ رَجعَ عَنْ دَينِهِ وَإِلَّا فَدَهْدِهُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ فَلَمَّا عَلَوْا بِهِ الجَبَلَ قَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فَدُهْدِهُوا أَجْمَعُونَ وَجَاءَ الغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى المَلِكِ . فَقَالَ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرْقُورٍ ، فَقَالَ : إِذَا لَجَجْتُمْ بِهِ البَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَغَرِّقُوهُ فِي البَحْرِ ، فَلَجَّجُوا بِهِ البَحْرَ ، فَقَالَ الغُلَامُ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَغَرِقُوا أَجْمَعُونَ ، وَجَاءَ الغُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى المَلِكِ ، فَقَالَ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ قَتْلِي ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ تَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ، ثم قل : باسم اللَّه رب الغلام ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه ثُمَّ رَمَاهُ ، وَقَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلَامِ ؛ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فوضع الغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ . فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ . فَقِيلَ لِلْمَلِكِ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ فَقَدْ وَاللَّه نزلَ بِكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ فِيهَا الأَخَادِيدُ وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النِّيرَانُ وَقَالَ : مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ وَإِلَّا فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا ، قَالَ : فَكَانُوا يَتَعادون فِيهَا وَيَتَدَافَعُونَ ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ ، فَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ ، فَقَالَ الصَّبِيُّ : اصْبِرِي يَا أُمَّاهُ فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ » (١) .

وقال ابن إسحاق : فيما يرويه عن محمّد بن عمرو بن حزم أنه حدَّث أن رجلًا من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته فوجد عبد اللَّه بن الثامر تحت دفن فيها قاعدًا واضعًا يده على ضربة في رأسه ممسكًا عليها بيده فإذا أخذت يده عنها تنبعث دمًا ، وإذا أرسلت يده ردت عليها فأمسكت دمها وفي يده خاتم مكتوب فيه ربي اللَّه فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره فكتب عمر إليهم أن أقروه على حاله وردوا عليه الذي كان عليه ففعلوا (٢) . وروي عن عبد اللَّه بن جعفر عن بعض أهل العلم أن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطًا من حيطان المدينة قد سقط فبناه فسقط ثم بناه فسقط ، فقيل له : إن تحته رجلًا صالحًا ، فحفر الأساس فوجد فيه رجلًا قائمًا معه سيف فيه مكتوب : أنا الحارث بن مضاض نقمت على أصحاب الأخدود ، فاستخرجه أبو موسى ، وبنى الحائط فثبت ، قلت : هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مضاض الجرهمي أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم ، وولد

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٦) والترمذي في السنن (٣٣٤٠) ورواه مسلم بنحوه عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة في الزهد (٧٣) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣٧/١ ، ٣٨) .

الحارث هذا هو عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن وهو القائل في شعره الذي قال ابن هشام إنه أول شعر قالته العرب :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحُجُونِ إِلَى الصَّفَا ... أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا ... صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالجُدُودُ العَوَاثِرُ (١)

وهذا يقتضي أن هذه القصة كانت قديمًا بعد زمان إسماعيل عليه السلام بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها وما ذكره ابن إسحاق يقتضي أن قصتهم كانت في زمن الفترة التي بين عيسى ومحمّد عليهما من اللّه السلام وهو أشبه واللّه أعلم .

وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيرًا . قال أسباط عن السدي في قوله تعالى ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ قال : كانت الأخدود ثلاثة : خد بالعراق ، وخد بالشام ، وخد باليمن . وعن مقاتل قال : كانت الأخدود ثلاثة : واحدة بنجران باليمن والأخرى بالشام والأخرى بفارس حرقوا بالنار ، أما التي بالشام فهو انطنانوس الرومي ، وأما التي بفارس فهو بختنصر ، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس ، فأما التي بفارس والشام فلم ينزل اللّه تعالى فيهما قرآنًا وأنزل في التي كانت بنجران . وقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي حرقوا ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل . قال الحسن البصري انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ولهذا قال : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أي إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي ، فإنه تعالى ذو القوة المتين الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر أو هو أقرب . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أي من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ويعيده كما بدأه بلا مانع ولا مدافع ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ولو كان الذنب من أي شيء كان ، والودود قال ابن عبّاس وغيره هو الحبيب ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق والمجيد فيه قراءتان الرفع على أنه صفة للرب عز وجل والجر على أنه صفة للعرش وكلاهما معنى صحيح ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أي مهما أراد فعله لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله ، كما روينا عن أبي بكر

---

(١) كان السبب في قول هذا الشعر : أن عمرو بن الحارث ضلت له إبل فبحث عنها حتى أتى الحرم ، فأراد دخوله ليأخذ إبله ، فنادى عمرو ابن لحي : من وجد جرهميًا فلم يقتله قطعت يده ، فسمع بذلك عمرو ، وأشرف على جبل من جبال مكة فرأى إبله تنحر ويوزع لحمها ، فانصرف بائسًا خائفًا ، وأبعد في الأرض ، وبغربته يضرب المثل ، ثم قال هذا الشعر (انظر : السيرة النبوية ١/١٢٠) .
والحجون : جبل بأعلى مكة ، والجدودة الحظوظ .

الصدّيق أنه قيل له وهو في مرض الموت هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لي إني فعال لما أريد وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد ؟ وهذ تقرير لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذًا أليمًا شديدًا أخذ عزيز مقتدر . عن عمرو بن ميمون قال : مرَّ النبيّ ﷺ على امرأة تقرأ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ فقام يستمع فقال : « نَعَمْ قَدْ جَاءَنِي » . وقوله تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ أي هم في شك وريب وكفر وعناد ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي عظيم كريم ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ أي هو الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل .

سورة الطارق

عن خالد بن أبي حبل العدواني عن أبيه أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا ، حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ . حتى ختمها . قال : فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك ثم قرأتها في الإسلام . قال : فدعتني ثقيف . فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا لو كنا نعلم ما يقول حقًّا لاتبعناه [1] . وعن جابر قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء فقال النبيّ ﷺ : « أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ ! مَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقْرَأَ بِالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ والشمس وَضُحَاهَا وَنَحْوِهَا ؟ » [2] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ .

يقسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ثم فسّره بقوله : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ قال قتادة وغيره : إنما سمي النجم طارقًا لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح نهى أن يطرق الرجل أهله طروقًا [3] أي يأتيهم فجأة بالليل ، وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء « إِلَّا طَارِقًا بِخَيْرٍ يَا رَحْمنُ » [4] . وقوله تعالى : ﴿ الثَّاقِبُ ﴾ قال ابن عبّاس : المضيء وقال السدي : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها وقال عكرمة : هو مضيء ومحرق للشيطان .

وقوله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ، وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، وقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ يعني المني يخرج دفقًا من الرجل ومن المرأة فيتولد منهما الولد بإذن الله ﷻ ولهذا قال : ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يعني صلب الرجل وترائب المرأة وهو صدرها . وعن ابن عبّاس قال : هذه الترائب ووضع يده على صدره . وقال عطية عن ابن عباس : تربية المرأة موضع القلادة ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الترائب بين ثدييها ، وعن مجاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر وعنه أيضًا : الترائب أسفل من التراقي ، وقال سفيان الثوري : فوق الثديين وعن سعيد بن جبير : الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل . وعن الضحاك : الترائب بين الثديين والرجلين والعينين ، وعن معمر بن أبي حبيبة المدني أنه بلغه في قول الله ﷻ : ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال : هو عصارة القلب من هناك يكون الولد . وعن قتادة ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ من بين صلبه ونحره وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ فيه قولان :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٥/٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في العمرة (١٨٠١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٩/٣) .

أحدهما : على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك ، والقول الثاني : إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق أي إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر ؛ لأن من قدر على البداءة قدر على الإعادة ، وقد ذكر الله ﷻ هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ أي يوم القيامة تبلى فيه السرائر أي تظهر وتبدو ويبقى السر علانية والمكنون مشهورًا ، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يُقَالُ : هذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ » [1] . وقوله تعالى ﴿ فَمَا لَهُۥ ﴾ أي الإنسان يوم القيامة ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ أي في نفسه ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ أي من خارج منه أي لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ولا يستطيع له أحد ذلك .

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ .

قال ابن عبّاس : الرجع المطر وعنه هو السحاب فيه المطر وعنه ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾ تمطر ثم تمطر ، وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم ، وقال ابن زيد : ترجع نجومها وشمسها وقمرها يأتين من ههنا ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ قال ابن عبّاس : هو انصداعها عن النبات . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ قال ابن عبّاس : حق ، وقيل : حكم عدل ﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ أي بل هو جد حق ، ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله فقال : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أي يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن ثم قال تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ أي قليلًا أي وسترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك .

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٨٦) ومسلم في الجهاد (١١ - ١٤) وأحمد في مسنده (٤٦/٣) والبيهقي في السنن (١٦٠/٨) .

سورة الأعلى

سورة سبح مكية والدليل على ذلك ما روي عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبيّ ﷺ مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرئاننا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبيّ ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولان هذا رسول الله ﷺ قد جاء فما جاء حتى قرأت ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ في سور مثلها [1] . وعن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هَلَّا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » [2] . وعن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بسبّح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعًا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ .

عن إياس بن عامر : سمعت عقبة بن عامر الجهني لما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ : « اجْعَلُوهَا في رُكُوعِكُم » . فلما نزلت ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قال : « اجْعَلُوهَا في سُجُودِكُمْ » [3] . وعن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قال : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى » [4] . وعن عبد خير قال : سمعت عليًا قرأ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ فقال : سبحان ربي الأعلى . وعن أبي إسحاق الهمداني أن ابن عبّاس كان إذا قرأ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ يقول : سبحان ربي الأعلى وإذا قرأ ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فأتى على آخرها ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ يقول : « سُبْحَانَكَ وَبَلَى » ، وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأها قال : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى » ، وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أي خلق الخليقة وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة وهدى الأنعام لمراتعها . وهذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن موسى أنه قال لفرعون ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أي قدّر قدرًا وهدى الخلائق إليه . وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ قَدَّر مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ » [5] . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزروع ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ قال ابن عبّاس : هشيمًا متغيرًا . قال ابن جرير : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤١) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٥/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/١) وأبو داود في السنن (استفتاح الصلاة : ٣٨٥) والبيهقي في السنن (٣١٠/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠١/٣) .

الذي معناه التقديم وأن معنى الكلام والذي أخرج المرعى ، أحوى أخضر إلى السواد فجعله غثاء بعد ذلك ثم قال ابن جرير : وهذا وإن كان محتملاً إلّا أنه غير صواب لمخالفته أقوال أهل التأويل ؛ وقوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أي يا محمّد ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ وهذا إخبار من اللّه تعالى ووعد منه له ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير وقال قتادة : كان رسول اللّه ﷺ لا ينسى شيئًا إلّا ما شاء اللّه وقيل المراد بقوله ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ طلب وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ أي لا تنسى ما نقرئك إلّا ما يشاء اللّه رفعه فلا عليك أن تتركه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه من ذلك شيء .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ونشرع لك شرعًا سهلًا سمحًا مستقيمًا عدلًا لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر . وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أي ذكّر حيث تنفع التذكرة ، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين علي ﷺ : ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلّا كان فتنة لبعضهم ، وقال : حدث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذّب اللّه ورسوله . وقوله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ أي سيتعظ بما تبلغه يا محمّد من قلبه يخشى اللّه ويعلم أنه ملاقيه ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ أي لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه ، بل هي مضرة عليه لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال . وعن أبي سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَأَمَّا أُنَاسٌ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِمِ الرَّحْمَةَ فَيُمِيتُهُمْ فِي النَّارِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الشُّفَعَاءُ فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ الضَّبَارَةَ فَيُنْبِتُهُمْ - أو قال - يُنْبَتُونَ فِي نَهْرِ الحَيَا - أو قال الحَيَاةِ ، أو قال الحَيَوانِ ، أو قال نَهرِ الجَنَّةِ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الحِبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ » . قال : وقال النبيّ ﷺ : « أَمَا تَرَوْنَ الشَّجَرَةَ تَكُونُ خَضْرَاءَ ثُمَّ تكون صَفْرَاءَ ثُمَّ تَكُونُ خَضْرَاءَ ؟ » . قال : فقال بعضهم كأن النبيّ ﷺ كان بالبادية [(١)] .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة وتابع ما أنزل اللّه على الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ أي أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان اللّه وطاعة لأمر اللّه وامتثالًا لشرع اللّه . وعن جابر بن عبد اللّه عن النبيّ ﷺ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ قال : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إله إِلَّا اللَّهُ وَخَلَعَ الأَنْدَادَ وَشَهِدَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ » . ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ قال : « هِيَ الصَّلَوَاتُ الخَمْسِ وَالمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا وَالاهْتِمَامُ بِهَا » [(٢)] . وعن أبي خلدة قال : دخلت على أبي العالية فقال لي : إذا غدوت غدًا إلى العيد فمر بي . قال : فمررت به . فقال : هل طعمت شيئًا ؟ قلت : نعم قال : أفضت على نفسك من الماء؟ قلت : نعم . قال : فأخبرني ما فعلت زكاتك !

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧/٧) والبزار في مسنده (٢٢٨٤) .

قلت : قد وجهتها . قال : إنما أردتك لهذا ثم قرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء قلت : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر ويتلو هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة فليقدم بين يدي صلاته زكاة فإن الله تعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ وقال قتادة في هذه الآية : زكى ماله وأرضى خالقه .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة وتبدونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، فإن الدنيا دانية فانية والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ويهتم بما يزول عنه قريبًا ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد . وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ » (١) . وعن عرفجة الثقفي قال : استقرأت ابن مسعود ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ - فلما بلغ - ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة ، فسكت القوم . فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل ، وهذا منه على وجه التواضع والهضم أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو والله أعلم . وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ قال النبيّ ﷺ : « كَانَ كُلُّ هذَا - أو كَانَ هذَا - في صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » . وعن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ يقول : الآيات التي في سبّح اسم ربك الأعلى ، وقال أبو العالية : قصة هذه السورة في الصحف الأولى ، واختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي مضمون هذا الكلام ﴿ لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ وهذا الذي اختاره حسن قوي .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٧٨/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٢/٤) .

سورة الغاشية

عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة . وعن عبيد الله بن عبد الله أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : هل أتاك حديث الغاشية [١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ .

الغاشية من أسماء يوم القيامة ؛ لأنها تغشى الناس وتعمهم ، فعن عمرو بن ميمون قال : مرَّ النبيّ ﷺ على امرأة تقرأ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ فقام يستمع ويقول : « نعم قد جاءني » . وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ أي : ذليلة . قال ابن عبّاس : تخشع ولا ينفعها عملها وقوله تعالى : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ أي قد عملت عملًا كثيرًا ونصبت فيه ، وصليت يوم القيامة نارًا حامية . وعن أبي عمران الجوني يقول : مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بدير راهب فناداه ، يا راهب فأشرف ، قال : فجعل عمر ينظر إليه ويبكي فقيل له : يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا ؟ قال ذكرت قول الله ﷻ في كتابه ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ فذاك الذي أبكاني . وقال ابن عبّاس ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ النصارى [٢] ، وعن عكرمة والسدي عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار بالعذاب والإهلاك ، ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ أي حارة شديدة الحر ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ أي قد انتهى حرها وغليانها . وقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ قال ابن عباس : شجر من نار ، وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم ، وقال قتادة : هو الشبرق ، وقال عكرمة : وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض . وقال مجاهد : الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس وهو سم [٣] ، وعن قتادة أيضًا قال : من شر الطعام وأبشعه وأخبثه ؛ وقوله تعالى : ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ يعني لا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ .

لما ذكر حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء فقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ أي يعرف النعيم فيها ، وإنما حصل لها ذلك بسعيها ، وقال سفيان ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ قد رضيت عملها . وقوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي رفيعة بهية في الغرفات آمنون ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ أي لا تسمع في الجنّة التي هم فيها كلمة لغو ، ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أي سارحة وهذه نكرة في سياق الإثبات ، وليس المراد بها عينًا واحدة وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنهارُ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٠١/٣) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) .

(٢ ، ٣) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الغاشية) .

الجَنَّةِ تُفَجَّرُ مِن تَحْتِ تِلَالِ - أَو مِنْ تَحْتِ جِبَالِ - المِسْكِ »[١] . ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أي عالية ناعمة كثيرة الفرش ، مرتفعة السمك عليها الحور العين . قالوا فإذا أراد وليّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادها من أربابها ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ : النمارق الوسائد . وقوله تعالى : ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ : الزرابي البسط ، ومعنى مبثوثة أي ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها ؛ ونذكر ههنا هذا الحديث الذي رواه أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا هَلْ مِنْ مُشَمِّرٍ لِلجَنَّةِ فَإِنَّ الجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا ، هِيَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ ، وَقَصْرٌ مشيدٌ ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ وثمرةٌ نَضِيجَةٌ ، وَزَوجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ ، وَمُقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارٍ سَلِيمَة ، وَفَاكِهَةٌ وَخُضْرَةٌ ، وَحبرَةٌ وَنِعْمَةٌ ، فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ ؟ » . قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال : « قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّه » . قال القوم : إن شاء الله[٢] .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب ، فإنها في غاية القوة والشدة ، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها ، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضي يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ! أي كيف رفعها الله ﷻ عن الأرض هذا الرفع العظيم ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أي جعلت منصوبة فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه ، والسماء التي فوق رأسه ، والجبل الذي تجاهه والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه ؛ وهكذا أقسم ضمام في سؤاله على رسول الله ﷺ فعن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمّد إنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : « صَدَقَ » . قال : فمن خلق السماء ! . قال : « اللّه » قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « اللّه » قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ! قال : « اللّه » . قال : فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال آللّه أرسلك ؟ قال : « نَعَمْ » . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال : « صَدَقَ » . قال : فبالذي أرسلك ، آللّه أمرك بهذا ؟ قال : « نَعَمْ » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ؟ قال : « صدق » . قال : فبالذي أرسلك آللّه أمرك بهذا؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلًا . قال :

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٦٢٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٣٣٢) .

« صَدَقَ » . قال : ثم ولى فقال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن شيئًا ولا أنقص منهن شيئًا . فقال النبيّ ﷺ : « إِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الجنَّةَ » (١) .

وعن ابن عمر قال : كان رسول اللَّه ﷺ كثيرًا ما كان يحدث عن امرأة في الجاهلية على رأس جبل معها ابن صغير لها ترعى غنمًا ، فقال لها ابنها : يا أمه من خلقك ؟ قالت : اللَّه . قال : فمن خلق أبي ؟ قالت : اللَّه ، قال : فمن خلقني ؟ قالت : اللَّه ، قال : فمن خلق السماء ؟ قالت : اللَّه . قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : اللَّه . قال : فمن خلق الجبل ؟ قالت : اللَّه . قال : فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت : اللَّه . قال : فإني لأسمع للَّه شأنًا وألقى نفسه من الجبل فتقطع . وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أي فذكر يا محمّد الناس بما أرسلت به إليهم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ ولهذا قال : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ : قال مجاهد : لست عليهم بجبار أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم ، وقال ابن زيد : لست بالذي تكرههم على الإيمان . وعن جابر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتَّى يَقُولُوا : لَا إِله إِلَّا اللَّه فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه ﷻ » (٢) . ثم قرأ ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ أي تولى عن العمل بأركانه وكفر بالحق بجنانه ولسانه ، ولهذا قال : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ روي أن أبا أمامة الباهلي مرَّ على خالد بن معاوية فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول اللَّه ﷺ فقال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « أَلَا كُلُّكُمْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَلَى اللَّه شِرَادَ البَعِيرِ عَلَى أَهْلِهِ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ أي مرجعهم ومنقلبهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٣/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٢ ، ٣٣) وأبو داود في السنن (١٥٥٦) وأحمد في مسنده (١١/١ ، ١٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٨/٥) .

سورة الفجر

عن جابر قال : صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطول فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف فبلغ ذلك معاذًا فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى فقال : يا رسول الله جئت أصلي معه فطول علي فانصرفت وصليت في ناحية المسجد فعلفت ناقتي . فقال رسول الله ﷺ : « أَفَتَّانٌ يَا مُعَاذُ ؟ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَالفَجْرِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

أمّا الفجر : فمعروف وهو الصبح ، والمراد به فجر يوم النحر خاصة وهو خاتمة الليالي العشر ، وقيل المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده وقال عكرمة : المراد به جميع النهار . والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة ، وعن ابن عبّاس مرفوعًا « مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ فِيهِنَّ مِنْ هٰذِهِ الأَيَّامِ » . يعني عشر ذي الحجة قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ » (٢) . وقيل المراد بذلك العشر الأول من المحرم حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يعزه إلى أحد ، وقد روي عن ابن عباس ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ قال : هو العشر الأول من رمضان ، والصحيح القول الأول . وعن جابر عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ العَشْرَ عَشْرُ الأَضْحَى ، وَالوَتْرَ يَوْمُ عَرَفَةَ وَالشَّفْعَ يَوْمُ النَّحرِ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قد تقدم في هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة لكونه التاسع وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . قول ثان . عن واصل بن السائب قال : سألت عطاء عن قوله تعالى : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قلت : صلاتنا وترنا هذا؟ قال : لا ولكن الشفع يوم عرفة والوتر ليلة الأضحى . قول ثالث : عن أبي سعيد بن عوف قال : سمعت عبد الله بن الزبير يخطب الناس فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن الشفع والوتر . فقال : الشفع قول الله تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ والوتر قوله تعالى : ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ وقال محمّد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول : الشفع أوسط أيام التشريق والوتر آخر أيام التشريق . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ » (٤) . قول رابع : قال الحسن البصري : الخلق كلهم شفع ووتر أقسم تعالى بخلقه وهو رواية عن مجاهد والمشهور عنه الأول . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الله وتر واحد وأنتم شفع . ويقال : الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب .

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٦٨/٢) والبيهقي في السنن (١١٢/٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٧٢٧) وأحمد في مسنده (٢٢٤/١) والبيهقي في السنن (٤٨٤/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٧/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في السنن (٣٥٠٦) .

قول خامس : عن مجاهد ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الشفع الزوج ، والوتر : الله ﷻ . وقال : الله الوتر وخلقه الشفع الذكر والأنثى . وقال مجاهد : كل شيء خلقه الله شفع . السماء والأرض والبر والبحر والجن والإنس والشمس والقمر ونحو هذا ، ونحا مجاهد في هذا ما ذكروه في قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي لتعلموا أن خالق الأزواج واحد . قول سادس : عن الحسن ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : هو العدد منه شفع ومنه وتر . قول سابع في الآية الكريمة : عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « الشَّفْعُ اليَوْمَانِ ، وَالوَتْرُ اليَوْمُ الثَّالِثُ » [1] . وقال أبو العالية والربيع بن أنس وغيرهما : هي الصلاة منها شفع كالرباعية والثنائية ومنها وتر كالمغرب فإنها ثلاث وهي وتر النهار ، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل . وعن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر فقال : « هِيَ الصَّلَاةُ بَعْضُها شَفْعٌ ، وَبَعْضُها وِتْرٌ » [2] . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ أي إذا ذهب ، وقال عبد الله بن الزبير : حتى يذهب بعضه بعضًا ، وقال ابن زيد : إذا سار ، ويحتمل أن يكون المراد إذا سار أي أقبل وقد يقال إن هذا أنسب لأنه في مقابلة قوله : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ فإن الفجر وهو إقبال النهار وإدبار الليل فإذا حمل قوله : ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ على إقباله كان قسمًا بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس وقال عكرمة ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ يعني ليلة جمع ليلة المزدلفة . وعن كثير بن عبد الله بن عمرو قال : سمعت محمّد بن كعب القرظي يقول في قوله : ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ قال : اسر يا سار ولا تبيتن إلّا بجمع ، وقوله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ أي لذي عقل ولب ودين وحجا ، وإنما سمي العقل حجرًا لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ، ومنه حجر البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي ، ومنه حجر اليمامة ، وحجر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ كل هذا من قبيل واحد ، ومعنى متقارب ، وهذا القسم هو بأوقات العبادة وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له الخائفون منه المتواضعون لديه الخاشعون لوجهه الكريم ، ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين خارجين عن طاعته ، مكذبين لرسله جاحدين لكتبه ، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم وجعلهم أحاديث وعبرًا فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ وهؤلاء عاد الأولى وهم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا ﷺ فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع ليعتبر بمصرعهم المؤمنون فقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم وقوله تعالى ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشًا ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم

---

(١) أخرجه احمد في مسنده (٣٢٧/٣) ، والحاكم في المستدرك (٢٢٠/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٤٢) .

فقال : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم ، قال مجاهد : إرم ، أمة قديمة يعني : عادًا الأولى ، قال قتادة بن دعامة والسدي : إن إرم بيت مملكة عاد ، وهذا قول حسن جيد قوي ، وقال مجاهد وقتادة والكلبي في قوله ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ كانوا أهل عمد لا يقيمون ، وقال ابن عبّاس : إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم ، واختار الأول ابن جرير وَرَد الثاني فأصاب ، وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ أعاد ابن زيد الضمير على العماد لارتفاعها وقال : بنوا عمدًا بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد ، وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم ، وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف لأنه لو كان المراد ذلك لقال التي لم يعمل مثلها في البلاد وإنما قال ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ عن المقدام عن النبيّ ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال : « كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَأْتِي عَلَى الصَّخْرَةِ فَيَحْمِلُهَا عَلَى الحَيِّ فَيُهْلِكُهُمْ » [(١)] . وعن ثور بن زيد الديلي قال : قرأت كتابًا وقد سمي حيث قرأه أنا شداد بن عاد ، وأنا الذي رفعت العماد ، وأنا الذي شددت بذراعي نظر واحد ، وأنا الذي كنزت كنزًا على سبعة أذرع لا يخرجه إلا أمة محمّد ﷺ . قلت : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها أو أعمدة بيوتهم للبدو أو سلاحًا يقاتلون به أو طول الواحد منهم ، فهم قبيلة وأمة من الأمم وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع المقرونون بثمود كما ههنا والله أعلم .

ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ مدينة إما دمشق أو إسكندرية ففيه نظر فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ إن جعل ذلك بدلًا أو عطف بيان ، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ ، ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم . وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يقال لها : إرم ذات العماد ، مبنية بلبن الذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها ، وأن حصباءها لآلئ وجواهر ، وترابها بنادق المسك وأنهارها سارحة وثمارها ساقطة ودورها لا أنيس بها وسورها وأبوابها تصفر ليس بها داع ولا مجيب ، وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن ، وتارة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك .

وذكر الثعلبي وغيره أن رجلًا من الأعراب وهو عبد الله بن قلابة في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت فبينما هو يتيه في ابتغائها إذ اطلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب فدخلها فوجد فيها قريبًا مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها وأنه رجع فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئًا ، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال فأعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٤٧/٦) .

وليس كذلك ، وهذا مما يقطع بعدم صحته ، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسير الكبير ، ولكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ونحو ذلك من الهذيانات ويطنزون بهم ، والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزًا كثيرة من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله ، فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب .

وقول ابن جرير يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تصرف فيه نظر ، لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة ، ولهذا قال بعده ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها ، ومنه يقال : مجتابي النمار إذا خرقوها واجتاب الثوب إذا فتحه ومنه الجيب أيضًا ، وقال ابن إسحاق : كانوا عربًا وكان منزلهم بوادي القرى . وقوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ قال ابن عبّاس : الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره ، ويقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها . وقال السدي : كان يربط الرجل كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه وقال قتادة : بلغنا أنه كان له مظال وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وحبال . وعن أبي رافع : قيل لفرعون ذي الأوتاد لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي أنزل عليهم رجزًا من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ قال ابن عبّاس : يسمع ويرى يعني يرصد خلقه فيما يعملون ويجازي كلًّا بسعيه في الدنيا والأخرى وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ويقابل كلًّا بما يستحقه وهو المنزه عن الظلم والجور .

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسَّع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له ، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان ، وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين إذا كان غنيًّا بأن يشكر الله على ذلك وإذا كان فقيرًا بأن يصبر . وقوله تعالى : ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾

فيه أمر بالإكرام له كما جاء عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ « خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ وَشَرُّ بَيْتٍ في المسلمين بيت فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ - ثم قال بأصبعه - أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هكَذَا » [١] . وعن سهل يعني ابن سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ » . وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام [٢] . ﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ يعني لَا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ يعني الميراث ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أي كثيرًا زاد بعضهم فاحشًا .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة فقال تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أي حقًّا ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال وقام الخلائق من قبورهم لربهم ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمّد صلوات الله وسلامه عليه بعد ما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم حتى تنتهي النوبة إلى محمّد ﷺ فيقول : « أَنَا لَهَا ، أَنَا لَهَا » [٣] . فذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء ، فيشفعه الله تعالى في ذلك وهي أول الشفاعات ، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيؤون بين يديه صفوفًا صفوفًا وقوله تعالى : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ عن عبد الله هو ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ ﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ يعني يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصيًا ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعًا ، وعن محمّد بن عمرة وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال : لو أن عبدًا خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة ولودّ أنه رد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب . قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أي ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله من عصاه ﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ أي وليس أحد أشد قبضًا ووثقًا من الزبانية لمن كفر بربهم ﷻ وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين ، فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٦٧٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٨/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠٥) وأبو داود في السنن (٥١٥٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/١) . (٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٩٥/٤) .

﴿ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أي في نفسها ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ أي قد رضيت عن اللّه ورضي عنها وأرضاها ﴿ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴾ أي في جملتهم ﴿ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار وفي يوم القيامة أيضًا كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكذلك ههنا .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية . فن ابن عبّاس نزلت في عثمان بن عفّان . وعن بريدة بن الحصيب نزلت في حمزة بن عبد المطلب ﷺ . وقال العوفي عن ابن عبّاس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ يعني صاحبك وهو بدنها الذي كانت تعمره في الدنيا ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ وروي عنه أنه كان يقرؤها ﴿ فادخلي في عبدي وادخلي جنتي ﴾ وكذا قال عكرمة والكلبي واختاره ابن جرير وهو غريب والظاهر الأول لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ أي إلى حكمه والوقوف بين يديه . وعن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ قال : نزلت وأبو بكر جالس فقال : يا رسول اللّه ما أحسن هذا : فقال : « أَمَا إِنَّهُ سَيُقَالُ لَكَ هٰذَا » . وعن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه ثم لم ير خارجًا منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدرى من تلاها ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . وعن أبي أمامة أن رسول اللّه ﷺ قال لرجل : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَفْسًا بِكَ مُطْمَئِنَّةً تُؤْمِنُ بِلِقَائِكَ وَتَرْضَى بِقَضَائِكَ وَتَقْنَعُ بِعَطَائِكَ » [١] .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٥١) ، والهندي في كنز العمال (٣٧٣٥) .

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ .

هذا قسم من اللَّه تبارك وتعالى بمكة أُم القرى في حال كون الساكن فيها حلالًا لينبّه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها ، عن مجاهد : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ لا رد عليهم . أقسم بهذا البلد ، وقال ابن عبّاس ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ يعني مكة ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ قال : أنت يا محمّد يحل لك أن تقاتل به ، وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلال لك وقال قتادة : أنت به من غير حرج ولا إثم ، وقال الحسن البصري : أحلها اللَّه له ساعة من نهار ، وهذا المعنى قد ورد به الحديث المتفق على صحته : « إِنَّ هذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّه يَوْمَ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّه إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ أَلَا فَلْيُبْلغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ » . وفي لفظ آخر « فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّه فَقُولُوا إِنَّ اللَّه أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ الوالد الذي يلد وما ولد العاقر الذي لا يولد له ، وقال عكرمة : الوالد العاقر ، وما ولد الذي يلد . وقيل : يعني بالوالد آدم وما ولد ولده ، وهذا حسن قوي لأنه تعالى لما اقسم بأم القرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكن وهو آدم أبو البشر وولده .

وقال ابن جرير : أنه عام في كل والد وولده وهو محتمل أيضًا ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ روي عن ابن مسعود وابن عبّاس وعكرمة وغيرهم : يعني منتصبًا زاد ابن عبّاس في رواية عنه منتصبًا في بطن أمه والكبد الاستواء والاستقامة ، ومعنى هذا القول : لقد خلقناه سويًّا مستقيمًا . وعن ابن عبّاس : ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ قال : في شدة خلق ألم تر إليه وذكر مولده ونبات أسنانه . وقال مجاهد ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ : نطفة ثم علقة ثم مضغة يتكبد في الخلق . قال مجاهد : وهو كقوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ وأرضعته كرهًا ومعيشته كره فهو يكابد ذلك . وقال سعيد بن جبير : في شدة وطلب معيشة . وقال عكرمة : في شدة وطول وقال قتادة : في مشقة .

وروي أن الحسن قرأ هذه الآية ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ قال : يكابد أمرًا من أمر الدنيا وأمرًا من أمر الآخرة ، وفي رواية يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة . واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها . وقوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قال الحسن البصري : يعني يأخذ ماله . وقال قتادة : ابن آدم يظن أن لن يسأل عن هذا المال من أين اكتسبه وأين أنفقه . وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ أي يقول ابن آدم أنفقت مالًا لبدًا أي كثيرًا ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٧) ومسلم في الحج (٤٤٥) .

أَحَدٌ ﴾ قال مجاهد : أي أيحسب أن لم يره الله ﷻ وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ أي يبصر بهما ﴿ وَلِسَانًا ﴾ أي ينطق به فيعبر عما في ضميره ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام وجمالًا لوجهه وفمه .

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ : الطريقين ، وعن عبد الله بن مسعود قال : الخير والشر ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « هُمَا نَجْدَانِ ، فَمَا جَعَلَ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنْ نَجْدِ الخَيْرِ » (١) . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ قال : الثديين . ورواه ابن جرير ثم قال : والصواب القول الأول .

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

عن ابن عمر في قوله تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ﴾ أي دخل ﴿ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ قال : جبل في جهنم . وقال الحسن البصري : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ قال : عقبة في جهنم . وقال قتادة : إنها عقبة قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله تعالى . وقال قتادة : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ ﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير ثم بينها فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ ﴾ قرئ فك رقبة بالإضافة وقرئ على أنه فعل وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعوله وكلتا القراءتين معناهما متقارب (٢) . وعن أبي هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ إِرْبٍ - أي عضو - مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُعْتِقُ بِاليَدِ اليَدَ وَبِالرِّجْلِ الرِّجْلَ وَبِالفَرْجِ الفَرْجَ » . فقال علي بن الحسين : أنت سمعت هذا من أبي هريرة ؟ فقال سعيد : نعم فقال علي بن الحسين لغلام له أفره غلمانه ادع مطرفًا فلما قام بين يديه قال : اذهب فأنت حر لوجه الله (٣) وعند مسلم أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم ، وعن أبي نجيح قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ أَعْتَقَ رَجُلًا مُسْلِمًا فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ وَفَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِهِ مِنَ النَّارِ وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أعتقت امرأة مسلمةً فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ وَفَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهَا عَظْمًا مِنْ عِظَامِهَا مِنَ النَّارِ » (٤) .

وعن عمرو بن عبسة أنه حدّثهم أن النبيّ ﷺ قال : « مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِيُذْكَرَ اللهُ فِيهِ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ ، وَمَنْ أَعْتَقَ نَفْسًا مُسْلِمَةً كَانَتْ فِدْيَتَهُ مِنْ جَهَنَّمَ ، وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ » (٥) .

وعن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة : قال السلمي قلت له : حدّثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم قال : سمعته يقول : « مَنْ وُلِدَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ فِي الإِسْلَامِ فَمَاتُوا قَبْلَ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٥٣/٦) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر ﴿ فك ﴾ برفع الكاف ، وقرأ الباقون ﴿ فكَّ ﴾ بفتح الكاف (المهذب ص ٤٥٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٢/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في العتق (٢٥١٧) ومسلم في العتق (٢٤) والترمذي في السنن (١٥٤٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٦/٤) .

أَنْ يَبْلُغُوا الحنثَ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ ، وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَلَغَ بِهِ العَدُوَّ أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ كَانَ لَهُ عِتْق رَقَبَةٍ وَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ، وَمَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ يُدْخِلُهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ بَابٍ شَاءَ مِنْهَا » (١) .

وعن العريف بن عياش الديلمي قال : أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدِّثنا حديثا ليس فيه زيادة ولا نقصان فغضب وقال : إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته فيزيد وينقص ، قلنا إنما أردنا حديثًا سمعته من رسول اللّه قال : أتينا رسول اللّه ﷺ في صاحب لنا قد أوجب يعني النار بالقتل فقال : « أَعْتِقُوا عَنْهُ يُعْتِقُ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ » (٢) .

وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول اللّه علِّمني عملًا يدخلني الجنّة ، فقال : « لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ المَسْأَلَةَ ، أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ » . فقال : يا رسول اللّه أو ليستا بواحدة ، قال : « لَا إِنَّ عَتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَنْفَرِدَ بِعَتْقِهَا ، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عَتْقِهَا ، وَالمِنْحَة الوَكُوفِ ، وَالفَيْءِ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذٰلِكَ فَأَطْعِمِ الجَائِعَ ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذٰلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنَ الخَيْرِ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ قال ابن عباس : أي ذي مجاعة ، وقال إبراهيم النخعي : في يوم الطعام فيه عزيز ، وقال قتادة : في يوم مشتهى فيه الطعام .

وقوله تعالى : ﴿ يَتِيمًا ﴾ أي أطعم في مثل هذا اليوم يتيمًا ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي ذا قرابة منه كما جاء في الحديث عن سلمان بن عامر قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ » (٤) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي فقيرًا مدقعًا لاصقًا بالتراب وهو الدقعاء أيضًا . قال ابن عبّاس : ذا متربة هو المطروح في الطريق ، الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب . وفي رواية هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ليس له شيء . وفي رواية عنه : هو البعيد التربة ، قال ابن أبي حاتم : يعني الغريب عن وطنه . وقال عكرمة : هو الفقير المديون المحتاج ، وقال سعيد بن جبير : هو الذي لا أحد له . وقال ابن عبّاس وسعيد وقتادة ومقاتل : هو ذو العيال ، وكل هذه قريبة المعنى . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند اللّه ﷻ وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحًا ، المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة بهم كما جاء في الحديث « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » (٥) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٦/٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٢/٢) وأبو داود في السنن (٣٩٦٤) وأحمد في مسنده (٤٩١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٤) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٤/٤) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٤١) والترمذي في السنن (١٩٢٤) وأحمد في مسنده (١٦٠/٢) .

وعن عبد اللّه بن عمرو يرويه قال : من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا [(١)] . وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين . ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴾ أي أصحاب الشمال ﴿ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴾ أي مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها . قال أبو هريرة وابن عبّاس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم ﴿ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴾ أي مطبقة وقال ابن عباس : مغلقة الأبواب ، وقال الضحاك ﴿ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴾ حيط لا باب له وقال قتادة : مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد ، وقال أبو عمران الجوني : إذا كان يوم القيامة أمر اللّه بكل جبار وكل شيطان وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره فأوثقوا بالحديد ثم أمر بهم إلى جهنم ثم أوصدوها عليهم أي أطبقوها قال : فلا واللّه لا تستقر أقدامهم على قرار أبدًا ، ولا واللّه لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبدًا ولا واللّه لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبدًا ، ولا واللّه لا يذوقون فيها بارد شراب أبدًا .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٢/٢) والحاكم في المستدرك (١٧٨/٤) .

سورة الشمس

تقدم حديث الذي ورد عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بسبّح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والليل إذا يغشى ؟ » [(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ .

قال مجاهد ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ : أي وضوئها . وقال قتادة : النهار كله . قال ابن جرير : والصواب أن يقال أقسم الله بالشمس ونهارها لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ قال مجاهد : تبعها . وقال قتادة : ليلة الهلال إذا سقطت الشمس رئي الهلال ، وقال ابن زيد : هو يتلوها في النصف الأول من الشهر ثم هي تتلوه وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر ، وقال أيضًا إذا تلاها ليلة القدر . وقوله تعالى : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ قال مجاهد : أضاء وقال قتادة : إذا غشيها النهار ، وقال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى والنهار إذا جلا الظلمة لدلالة الكلام عليها قلت : ولو أن القائل تأول ذلك بمعنى ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ أي البسيطة لكان أولى ولصح تأويله في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ فكان أجود وأقوى والله أعلم ولهذا قال مجاهد ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ أنه كقوله تعالى : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ وأما ابن جرير فاختار عود الضمير في ذلك كله على الشمس لجريان ذكرها وقالوا في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ يعني إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق .

وقال يزيد بن ذي حمامة : إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله : غشي عبادي خلقي العظيم ، فالليل يهابه والذي خلقه أحق أن يهاب . وقوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ يحتمل أن تكون ما ههنا مصدرية بمعنى والسماء وبنائها ، ويحتمل أن تكون بمعنى من يعني والسماء وبانيها وهو قول مجاهد وكلاهما متلازم والبناء هو الرفع وهكذا قوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ قال مجاهد : طحاها دحاها ، وقال ابن عباس : أي خلق فيها وقال أيضًا : طحاها قسمها ، وقال ابن زيد : بسطها وهذا أشهر الأقوال وعليه الأكثر من المفسرين وهو المعروف عند أهل اللغة ، وقال الجوهري : طحوته مثل دحوته أي بسطته ، وقوله تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة وقال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُولَدُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ » [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها أي بيَّن ذلك لها وهداها إلى ما قدّر لها . قال ابن عباس : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ بيَّن لها الخير والشر . وقال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧١٤) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .

الضحاك والثوري : ألهمها الخير والشر . وقال ابن زيد : جعل فيها فجورها وتقواها . وعن أبي الأسود الديلي قال : قال لي عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه ؟ أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم الحجة ؟ قلت : بل شيء قضي عليهم ، قال : فهل يكون ذلك ظلمًا ؟ قال : ففزعت منه فزعًا شديدًا قال : قلت له ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . قال : سدَّدك الله إنما سألتك لأخبر عقلك إن رجلًا من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة ، قال : « بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ » . قال : ففيم نعمل ؟ قال : « مَنْ كَانَ اللَّه خَلَقَهُ لِإِحْدَى المَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لها وتصديق ذلِكَ فِي كِتَابِ اللَّه تَعَالَى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ يحتمل أن يكون المعنى ، قد أفلح من زكى نفسه أي بطاعة الله ، كما قال قتادة وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أي دسسها أي أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله ﷻ . وقد يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دسّى الله نفسه . وعن ابن عبّاس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ وقف ثم قال : « اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا ، وَخَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا »(٢) . وعن عائشة أنها فقدت النبيّ ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول : « رَبِّ أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا »(٣) .

وعن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ ، وَالهَرَمِ وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ وَعَذَابِ القَبْرِ . اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا . اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ . وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَدَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا » . قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن(٤) .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي ، فأعقبهم ذلك تكذيبًا في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم عليه الصلاة والسلام من الهدى واليقين ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ أي أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف عاقر الناقة وهو أحيمر ثمود وهو الذي قال الله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ الآية وكان هذا الرجل عزيزًا فيهم شريفًا في قومه نسيبًا رئيسًا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٣٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٣) وأحمد في مسنده (٤/٣٧١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢١٩) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٧١) .

مطاعًا ، وعن عبد الله بن زمعة قال : خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَارِمٌ عَزِيزٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زُمْعَةَ » [(١)] وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ يعني صالحًا عليه السلام ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ﴿ وَسُقْيَٰهَا ﴾ أي لا تعتدوا عليها في سقياها فإن لها شرب يوم ، ولكم شرب يوم معلوم . قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ ﴾ أي غضب عليهم فدمّر عليهم ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء . قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنبهم فسواها . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَخَافُ ﴾ وقرئ ﴿ فلا يخافُ ﴾ [(٢)] ﴿ عُقْبَٰهَا ﴾ قال ابن عبّاس : لا يخاف الله من أحد تبعة . وقال السدي : لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع ، والقول الأول أولى لدلالة السياق عليه والله أعلم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٤) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿ فلا يخاف ﴾ بالفاء والباقون بالواو (المهذب ص : ٤٥٩) .

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ .

عن علقمة أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق فصلى فيه ركعتين وقال : اللهم ارزقني جليسًا صالحًا قال : فجلس إلى أبي الدرداء فقال له أبو الدرداء : ممن أنت ؟ قال : من أهل الكوفة ، قال : كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ قال علقمة ﴿ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ فقال : أبو الدرداء : لقد سمعتها من رسول الله ﷺ فما زال هؤلاء حتى شككوني ثم قال : ألم يكن فيكم صاحب السواد وصاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره ، والذي أجير من الشيطان على لسان محمّد ﷺ ؟ [1] وعن إبراهيم قال : قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء فطلبهم فوجدهم ، فقال : أيكم يقرأ علي قراءة عبد الله ؟ قالوا : كلنا ، قال : أيكم أحفظ ؟ فأشاروا إلى علقمة فقال : كيف سمعته يقرأ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ - قال - ﴿ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ قال : أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا وهو لا يريدني على أن أقرأ ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ والله لا أتابعهم [2] . هكذا قرأ ذلك ابن مسعود وأبو الدرداء ورفعه أبو الدرداء ، وأما الجمهور فقرأوا ذلك كما هو المثبت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ فأقسم تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ أي إذا غشى الخليقة بظلامه ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ أي بضيائه وإشراقه ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ .

ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضًا متضادًا ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾ أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضًا ومتخالفة ، فمن فاعل خيرًا ومن فاعل شرًّا قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ أي أعطى ما أمر بإخراجه واتقى الله في أموره ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ أي بالمجازاة على ذلك ، وقال خصيف : بالثواب . وقال زيد بن أسلم : بالخلف . وقال الضحاك : بلا إله إلا الله ، وقال عكرمة : بما أنعم الله عليه ، وفي رواية عن زيد بن أسلم قال : الصلاة والزكاة والصوم ، وعن أُبيّ بن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى قال : « الحُسْنَى : الجنَّةُ » [3] .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾ قال ابن عباس : يعني للخير ، وقال زيد بن أسلم : للجنة وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ ﴾ أي بما عنده ﴿ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴾ أي بخل بماله واستغنى عن ربه ﷻ ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ أي بالجزاء في الدار الآخرة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴾ أي لطريق الشر كما قال تعالى ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله ﷻ يجازي من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٤٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٤) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣٠٥) .

والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة ؛ فعن عبد الله بن عبد الرَّحمن بن أبي بكر الصدِّيق قال : سمعت أبي يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول : قلت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتنف ؟ قال : « بَلْ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ » . قال : ففيم العمل يا رسول الله ؟ قال : « كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خَلَقَهُ » (١) . وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجنة ومقعده من النَّارِ » . فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل ؟ فقال : « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » . ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ - إلى قوله - فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (٢) .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ غَرَبَتْ فِيهِ شَمْسُهُ إِلَّا وَبِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يَسْمَعُهُمَا خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » (٣) . وأنزل الله في ذلك القرآن ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ » . وعن ابن عبّاس أن رجلًا كان له نخيل ، ومنها نخلة فرعها في دار رجل صالح فقير ذي عيال ، فإذا جاء الرجل فدخل داره فيأخذ الثمرة من نخلته فتسقط الثمرة فيأخذها صبيان الرجل الفقير ، فينزل من نخلته فينتزع الثمرة من أيديهم ، وإن أدخل أحدهم الثمرة في فمه أدخل أصبعه في حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه ، فشكا ذلك الرجل إلى النبيّ ﷺ أخبره بما هو فيه من صاحب النخلة ، فقال له النبيّ ﷺ : « اِذْهَبْ » ، ولقي النبيّ ﷺ صاحب النخلة فقال له : « أَعْطِنِي نَخْلَتَكَ الَّتِي فَرْعُهَا فِي دَارِ فُلَانٍ وَلَكَ بِهَا نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ » ، فقال له : لقد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها وإن لي لنخلًا كثيرًا ما فيها نخلة أعجب إلي ثمرة من ثمرها ، فذهب النبيّ ﷺ فتبعه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة فقال الرجل : يا رسول الله إن أخذت النخلة فصارت لي النخلة فأعطيتك إياها أتعطيني ما أعطيته بها نخلة في الجنة ؟ قال : « نَعَمْ » . ثم إن الرجل لقي صاحب النخلة ولكلاهما نخل : فقال له : أخبرك أن محمّدًا أعطاني بنخلتي المائلة في دار فلان نخلة في الجنّة فقلت له : قد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها ، فسكت عنه الرجل ، فقال له : أراك إذًا بعتها قال : لا ، إلا أن أعطى بها شيئًا ولا أظنني أعطاه قال : وما مناك ؟ قال : أربعون نخلة . فقال الرجل : لقد جئت بأمر عظيم نخلتك تطلب بها أربعين نخلة ، ثم سكتا وأنشآ في كلام آخر ، ثم قال : أنا أعطيتك أربعين نخلة . فقال : اشهد لي إن كنت صادقًا ، فأمر بأناس فدعاهم فقال : اشهدوا أني قد أعطيته من نخلي أربعين نخلة بنخلته التي فرعها في دار فلان ابن فلان ثم قال : ما تقول ؟ فقال صاحب النخلة : قد رضيت ، ثم قال بعد : ليس بيني وبينك بيع لم نفترق فقال له : قد أقالك الله ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة . فقال صاحب النخلة : قد رضيت على أن تعطني الأربعين على ما أريد . قال : تعطينيها على ساق ثم مكث ساعة ثم قال : هي لك على ساق ، وأوقف له شهودًا وعد له أربعين نخلة على ساق فتفرقا ، فذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٥) .

(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (١١٩/٤) .

فقال : يا رسول الله إن النخلة المائلة في دار فلان قد صارت لي فهي لك ، فذهب رسول الله ﷺ إلى الرجل صاحب الدار فقال له : « النَّخْلَةُ لَكَ وَلِعِيَالِكَ » . وقال عكرمة قال ابن عباس : فأنزل الله ﷻ ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ - إلى قوله - ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ إلى آخر السورة .

قال ابن جرير وذكر أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصدّيق ﷺ ، فعن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر ﷺ يعتق على الإسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أي بني أراك تعتق أناسًا ضعفاء فلو أنك تعتق رجالًا جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك . فقال : أي أبت إنما أريد - أظنه قال - ما عند الله ، قال فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ قال مجاهد : أي إذا مات . وقال زيد بن أسلم : إذا تردى في النار .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ .

قال قتادة ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ أي نبينٌ الحلال والحرام ، وقيل : من سلك طريق الهدى وصل إلى الله وجعله كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ أي الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ قال مجاهد : أي توهج . وعن النعمان بن بشير خطب قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول : « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهما دِمَاغُهُ » [١] . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ أي لا يدخلها دخولًا يحيط به من جميع جوانبه إلّا الأشقى ، ثم فسره فقال : ﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ ﴾ أي بقلبه ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي عن العمل بجوارحه وأركانه .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا شَقِيٌّ » . قيل : ومن الشقي قال : « الَّذِي لَا يعمل بِطَاعَةٍ وَلَا يَتْرُكُ للهِ مَعْصِيَةً » [٢] .

وعن أبي هريرة أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ أُمَّتِي تَدْخُلُ الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَبَى » . قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى » [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى ، ثم فسّره بقوله : ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفًا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما دفعه ذلك ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات قال الله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٢/٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٩٨) وأحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٢) .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ ، حتى أن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ، وكان صدّيقًا تقيًا كريمًا بذّالًا لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية : أما والله لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك ، وكان الصدّيق قد أغلظ له في المقابلة . فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّه دَعَتْهُ خَزَنَةُ الجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّه هَذَا خَيْرٌ » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : « نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ » [1] .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٦) ومسلم في الزكاة (٨٥) .

سورة الضحى

عبد الله بن أبي بزة المقري قال : قرأت على عكرمة بن سليمان وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد فلما بلغت والضحى قالا لي : كبّر حتى تختم مع خاتمة كل سورة ، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك ، وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك ، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عبّاس فأمره بذلك ، وأخبره ابن عبّاس أنه قرأ على أُبيّ بن كعب فأمره بذلك ، وأخبره أُبيّ أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك . فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمّد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزة وكان إمامًا في القراءات . فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال : لا أحدِّث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلي قال : هو منكر الحديث لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أن سمع رجلًا يكبّر هذا التكبير في الصلاة فقال : أحسنت وأصبت السنة وهذا يقتضي صحة هذا الحديث . ثم اختلف القرّاء في موضع هذا التكبير وكيفيته فقال بعضهم : يكبّر من آخر ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ، وقال آخرون : من آخر ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾ ، وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر ، ومنهم من يقول : الله أكبر لا إله إلّا الله والله أكبر . وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ثم جاء الملك فأوحى إليه ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ السورة بتمامها كبّر فرحًا وسرورًا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

عن الأسود بن قيس قال : سمعت جندبًا يقول : اشتكى النبيّ ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمّد ما أرى شيطانك إلّا قد تركك . فانزل الله ﷻ ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (١) وعن الأسود بن قيس أنه سمع جندبًا يقول : رمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه فقال : « هَلْ أَنْتَ إِلَّا أُصْبُعٌ دُمِيتِ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ » (٢) .

قال : فمكث ليلتين أو ثلاثًا لا يقوم . فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فنزلت ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ والسياق لأبي سعيد قيل إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب ، وذكر أن أصبعه ﷺ دميت ، وقوله هذا الكلام الذي اتفق أنه موزون ثابت في الصحيحين ولكن الغريب ههنا جعله سببًا لتركه القيام ونزول هذا السورة .

وقد ذكر بعض السلف منهم ابن إسحاق أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها ودنا إليه وتدلى منهبطًا عليه وهو بالأبطح ﴿ فَأَوْحَىٰ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠٢) ومسلم في الجهاد (١١٢) والترمذي في السنن (٣٣٤٥) .

﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ قال : قال له هذه السورة ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ قال ابن عباس : لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أيامًا فتغير بذلك . فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه فأنزل الله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أي سكن فأظلم وادلهم ، وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا ، وقوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أي ما تركك ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أي وما أبغضك ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار ، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها اطراحًا كما هو معلوم بالضرورة من سيرته ، ولما خيِّر عليه الصلاة والسلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله ﷻ اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية . وعن عبد الله هو ابن مسعود قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه فلما استيقظ جعلت أمح جنبه وقلت : يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَا لِي وَلِلدُّنْيَا إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ ظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته وفيما أعده له من الكرامة ، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه مسك أذفر ، وعن عبد الله بن عباس عن أبيه قال : عرض وعلى رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أُمته من بعده كنزًا كنزًا فسر بذلك فأنزل الله ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ فأعطاه في الجنَّة ألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم . وعن ابن عبّاس من رضاء محمّد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار . وقال الحسن : يعني بذلك الشفاعة ، وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ، ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ »(٢) .

ثم قال تعالى يعدّد نعمه على عبده ورسوله محمّد صلوات الله وسلامه عليه ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه ، وقيل بعد أن ولد عليه الصلاة والسلام ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين ، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب ، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم ، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ ومنهم من قال إن المراد بهذا أن النبيّ ﷺ ضلّ في شعاب مكة وهو صغير ثم رجع ، وقيل إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام وكان راكبًا ناقة في الليل فجاء

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٩١) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/١٠٤) والبغوي في شرح السنة (١٤/٢٤٨) .

إبليس فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ثم عدل بالراحلة إلى الطريق .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ أي كنت فقيرًا ذا عيال فأغناك الله عمن سواه فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر صلوات الله وسلامه عليه . وقال قتادة في قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ قال : كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله ﷻ . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ وَلكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ » (١) . وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّه بِمَا آتاهُ » (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أي كما كنت يتيمًا فآواك الله فلا تقهر اليتيم ، أي لا تذله وتنهره وتهنه ولكن أحسن إليه وتلطف به ، قال قتادة : كن لليتم كالأب الرحيم ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أي وكما كنت ضالًا فهداك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشد . قال ابن إسحاق : فلا تكن جبارًا ولا متكبرًا ولا فحاشًا ولا فظًا على الضعفاء من عباد الله وقال قتادة : يعني ردَّ المسكين برحمة ولين ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي وكما كنت عائلًا فقيرًا فأغناك الله فحدث بنعمة الله عليك ، وعن أبي نضرة ، قال : كان المسلمون يرون أن من شُكْرِ النعم أن يحدث بها .

عن أنس أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله قال : « لَا مَا دَعَوْتُمُ اللَّه لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ » (٣) . وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « لَا يَشْكُرُ اللَّه من لا يشكر النَّاسَ » (٤) . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيُجْزِ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ ، فَمَنْ أَثْنَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ » (٥) . وقال مجاهد : يعني النبوة التي أعطاك ربك . وفي رواية عنه القرآن ، وعن الحسن بن علي ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : ما عملت من خير فحدّث إخوانك ، وقال محمد بن إسحاق : ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدِّث بها واذكرها وادع إليها . قال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله وافترضت عليه الصلاة فصلى .

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٠) والترمذي في السنن (٢٣٧٣) وأحمد في مسنده (٢/٢٦١) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) وأحمد في مسنده (٢/١٧٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨١٢) والترمذي في السنن (٢٤٨٧) والحاكم في المستدرك (٣/٦٣) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨١١) وأحمد في مسنده (٢/٢٠٣) والبيهقي في السنن (٦/١٨٢) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٣٤) والبيهقي في السنن (٦/١٨٢) والألباني في الصحيحة (٦١٧) .

سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يعني أنا شرحنا لك صدرك أي نورناه وجعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا ، وكما شرح اللّه صدره ، كذلك جعل شرعه فسيحًا واسعًا سمحًا سهلًا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق . وقيل المراد بقوله ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء كما تقدم من رواية مالك ابن صعصعة وقد أورده الترمذي ههنا وهذا وإن كان واقعًا ليلة الإسراء كما رواه مالك بن صعصعة ولكن لا منافاة فإن من جملة شرح صدره ليلة الإسراء وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا فاللّه أعلم .

وعن أُبي بن كعب أن أبا هريرة كان جريئًا على أن يسأل رسول اللّه ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره . فقال : يا رسول اللّه ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول اللّه ﷺ جالسًا وقال : « لَقَدْ سَأَلْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، إِنِّي فِي الصَّحْرَاء ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ ، وَإِذَا بِكَلَام فَوْقَ رَأْسِي وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ : أَهُوَ هو ؟ فَاسْتَقْبَلَانِي بِوُجُوهٍ لَمْ أَرَهَا قَطُّ ، وَأَرْوَاحٍ لَمْ أَجِدْهَا مِنْ خَلْقٍ قَطُّ ، وَثِيَابٍ لَمْ أَرَهَا عَلَى أَحَدٍ قَطُّ ، فَأَقْبَلَا إِلَيَّ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِعَضُدِي لَا أَجِدُ لِأَحَدِهِمَا مَسًّا فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَضْجِعْهُ ، فَأَضْجَعَانِي بِلَا قَصْرٍ وَلَا هَصْرٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : افْلِقْ صَدْرَهُ ، فَهَوَى أَحَدُهُمَا إِلَى صدري فَفَلَقَهُ فِيمَا أَرَى بِلَا دَم وَلَا وَجَعٍ . فَقَالَ لَهُ : أَخْرِجِ الغِلَّ وَالحَسَدَ . فَأَخْرَجَ شَيْئًا كَهَيْئَةِ العَلَقَةِ ، ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا . فَقَالَ لَهُ : أَدْخِلِ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ . فَإِذَا مِثْلُ الَّذِي أَخْرَجَ شَبَهُ الفِضَّةِ ، ثُمَّ هَزَّ إِبْهَامَ رِجْلِيَ اليُمْنَى ، فَقَالَ : أعد وَاسْلَمْ ، فَرَجَعْتُ بِهَا أَغْدُو رِقَّةً عَلَى الصَّغِيرِ ، وَرَحْمَةً لِلكَبِيرِ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ بمعنى ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الإنقاض الصوت وقال غير واحد من السلف : أي أثقلك حمله ، وقوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال مجاهد : لا أذكر إلّا ذكرت معي أشهد أن لا إله إلّا اللّه وأشهد أن محمّدًا رسول اللّه وقال قتادة : رفع اللّه ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلّا ينادي بها أشهد أن لا إله إلّا اللّه وأن محمّدًا رسول اللّه .

وعن ابن عبّاس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ ، قُلْتُ : قَدْ كَانَ قَبْلِي أَنْبِيَاء مِنْهُمْ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الرِّيحُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْيِي المَوْتَى ، قَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ ؟ قُلْتَ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ ؟ . قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ أَلَمْ أَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ » (٢) . وعن ابن عبّاس ومجاهد أن المراد بذلك الأذان يعني ذكره فيه وأورد من شعر حسان بن ثابت :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٩/٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٥٥/١١) .

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللَّه مِنْ نُورٍ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
وَضَمَّ الإِلٰهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وَهذَا مُحَمَّدُ

وقال آخرون : رفع اللَّه ذكره في الأولين والآخرين ، ونوه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به وأن يأمروا أممهم بالإيمان به ، ثم شهر ذكره في أمته فلا يذكر اللَّه إلَّا ذكر معه ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ثم أكد هذا الخبر . وعن أنس بن مالك يقول : كان النبيّ ﷺ جالسًا وحياله جحر فقال : « لَوْ جَاءَ العُسْرُ فَدَخَلَ هذَا الجُحْرَ لَجَاءَ اليُسْرُ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْهِ فَيُخْرِجَهُ » [١] . فأنزل اللَّه ﷻ ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ وعن الحسن قال : خرج النبيّ ﷺ يومًا مسرورًا فرحًا وهو يضحك وهو يقول : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ » [٢] . ومعنى هذا أن العسر معرف في الحالين فهو مفرد واليسر منكر فتعدّد ؛ ولهذا قال : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ » . يعني قوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فالعسر الأول عين الثاني واليسر تعدّد . ومما يروى عن الشافعي أنه قال :

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَقْرَبَ الفَرَجَا ... مَنْ رَاقَبَ اللَّه فِي الأُمُورِ نَجَا
مَنْ صَدَّقَ اللَّه لَمْ يَنَلْهُ أَذًى ... وَمَنْ رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا

وقال آخر :

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الفَتَى ... ذَرْعًا وَعِنْدَ اللَّه مِنْهَا المَخْرَجُ
كَمَلَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا ... فُرِجَتْ وَكَانَ يَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطًا فارغ البال وأخلص لربك النية والرغبة ، ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته « لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ وَلَا وَهُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ » [٣] . وقوله ﷺ : « إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَحَضَرَ العَشَاءُ فَابْدَؤُوا بِالعَشَاءِ » [٤] . قال مجاهد في هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فانصبْ لربك ، وفي رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك . وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل . وقال زيد بن أسلم والضحاك : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أي من الجهاد ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ أي في العبادة ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ قال الثوري : اجعل نيتك ورغبتك إلى اللَّه ﷻ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٥٥/٢) . (٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٢٨/٢) .
(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٦٧) والبيهقي في السنن (٧٣/٣) .
(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (٨٤/٢) .

سورة التين

عن البراء بن عازب كان النبيّ ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ .

اختلف المفسرين ههنا على أقوال كثيرة فقيل : المراد بالتين مسجد دمشق . وقيل : وهي نفسها . وقيل : الجبل الذي عندها . وقال القرطبي : هو مسجد أصحاب الكهف . وعن ابن عبّاس : أنه مسجد نوح الذي على الجودي ، وقال مجاهد : هو تينكم هذا ﴿ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ قال كعب الأحبار وقتادة : هو مسجد بيت المقدس . وقال مجاهد وعكرمة : هو هذا الزيتون الذي تعصرون ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ وقيل : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ يعني مكة قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما ولا خلاف في ذلك ، وقال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبيًا مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول محله التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام والثاني طور سينين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران والثالث مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمنًا ، وهو الذي أرسل فيه محمّدًا ﷺ . قالوا وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء – يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران – وأشرق من ساعير – يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى – واستعلن من جبال فاران – يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمّدًا ﷺ فذكرهم مخبرًا عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منهما .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ هذا هو المقسم عليه وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القامة سوي الأعضاء حسنها ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ أي إلى النار ، قاله مجاهد وأبو العالية وغيرهما ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيرهم إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وقال بعضهم ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ أي إلى أرذل العمر ، وروي هذا عن عكرمة قال : من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر واختار ذلك ابن جرير ، ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك ، لأن الهرم قد يصيب بعضهم ، وإنما المراد ما ذكرناه . وقوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع كما تقدم ، ثم قال : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ أي يا ابن آدم ﴿ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ أي بالجزاء في المعاد ولقد علمت البدأة وعرفت أن من قدر على البدأة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا . عن منصور قال : قلت لمجاهد ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ عنى به النبيّ ﷺ قال : معاذ الله ، عنى به الإنسان . وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه .

سورة العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ .

عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبّب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : « فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ – قال – فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ . فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ – حتى بلغ – ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ » . قال : فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي » . فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع فقال : « يَا خُدِيجَةُ مَا لِي ؟ » . وأخبرها الخبر وقال : « قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » . فقالت له : كلّا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة أخي أبيها وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب وكان شيخًا كبيرًا قد عمي . فقالت خديجة : أي ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ليتني فيها جذعًا ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : « أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ » فقال ورقة : نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلّا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزنًا غدًا منه مرارًا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقًّا ، فيسكن بذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له : مثل ذلك [(١)] .

فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات ، وهي أول رحمة رحم الله بها العباد وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه ، وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم فشرّفه وكرّمه بالعلم وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان . وتارة يكون في اللسان وتارة يكون في الكتابة بالبنان ذهني ولفظي ورسمي . والرسم يستلزمهما من غير عكس . فلهذا قال : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وفي الأثر قيدوا العلم بالكتابة ، وفيه أيضًا من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٣٢) .

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ أي إلى الله المصير والمرجع وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيم صرفته . عن عون قال : قال عبد الله : منهومان لا يشبعان صاحب العلم وصاحب الدنيا ولا يستويان فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان ، قال ثم قرأ عبد الله ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ وقال للآخر : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ وقد روي هذا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ « مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا » [1] ثم قال تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ نزلت في أبي جهل لعنه الله ، توعد النبيّ ﷺ على الصلاة عند البيت فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولًا فقال : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أي فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله ﴿ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾ بقوله وأنت تزجره وتتوعده على صلاته ولهذا قال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ، ويسمع كلامه وسيجازيه على فعله أتم الجزاء . ثم قال تعالى متوعدًا ومتهددًا ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أي لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ أي لنسمنها سوادًا يوم القيامة . ثم قال : ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ يعني ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في أفعالها ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ أي قومه وعشيرته أي ليدعهم يستنصر بهم ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب أحزبنا أو حزبه ؟ وعن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمّدًا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبيّ ﷺ فقال : « لَئِنْ فَعَلَ لَأَخَذَتْهُ الملائكةُ » [2] .

وعن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمّد وجهه بين أظهركم . قالوا : نعم ، قال : فقال : واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب ؛ فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلّا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له ما لك ؟ فقال : إن بيني وبينه خندقًا من نار وهولًا وأجنحة قال : فقال رسول الله ﷺ : « لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا » . قال وأنزل الله لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ إلى آخر السورة [3] ، وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ يعني يا محمّد لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها وصل حيث شئت ، ولا تباله فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ » [4] . وتقدم أيضًا أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ و ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٩٢/١) والطبراني في الكبير (٢٢٣/١٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٤٨) وأحمد في مسنده (٢٤٨/١) . (٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٣٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٥) وأبو داود في السنن (٧٨٥) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) .

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي الليلة المباركة التي قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ وهي ليلة القدر وهي من شهر رمضان كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ قال ابن عبّاس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفصلًا حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ثم قال تعالى معظمًا لشأن ليلة القدر : التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها فقال : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . عن القاسم بن الفضل الحداني عن يوسف بن سعد قال : قام رجل إلى الحسن ابن علي بعدما بايع معاوية فقال : سودت وجوه المؤمنين أو يا مسود وجوه المؤمنين فقال : لا تؤنبني رحمك الله ، فإن النبيّ ﷺ أري بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ يا محمّد يعني نهرًا في الجنة ونزلت ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يملكها بعدك بنو أمية يا محمّد ، قال القاسم : فعددنا إذا هي ألف شهر لا تزيد يومًا ولا تنقص .

قلت : وقول القاسم بن الفضل الحداني إنه حسب مدة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يومًا ولا تنقص ليس بصحيح ، فإن معاوية بن أبي سفيان ﷺ استقل بالملك حين سلم إليه الحسن بن علي الإمرة سنة أربعين، واجتمعت البيعة لمعاوية وسمي ذلك عام الجماعة ، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها لم تخرج عنهم إلّا مدة دولة عبد الله بن الزبير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريبًا من تسع سنين ، ولكن لم تزل يدهم عن الإمرة بالكلية بل عن بعض البلاد إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة ، وذلك أزيد من ألف شهر فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر ، وكأن القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير وعلى هذا فيقارب ما قاله الصحة في الحساب والله أعلم ، ومما يدل على ضعف هذا الحديث أنه سيق لذم دولة بني أمية ، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق ، فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم ، فإن ليلة القدر شريفة جدًّا ، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر ، فكيف تمدح بتفضيلها على أيام بني أمية التي هي مذمومة بمقتضى هذا الحديث وهل هذا إلّا كما قال القائل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ ينقصُ قَدْرُه   إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا

وقال آخر :

إِذَا أَنْتَ فَضَّلْتَ امْرأً ذَا بَرَاعَةٍ   عَلَى نَاقِصٍ كَانَ المَدِيحُ مِنَ النَّقْصِ

ثم الذي يفهم من الآية أن الألف شهر المذكورة في الآية هي أيام بني أمية ، والسورة مكية فكيف يحال على ألف شهر هي دولة بني أمية ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها والمنبر إنما صنع

بالمدينة بعد مدة من الهجرة ، فهذا كله مما يدل على ضعف الحديث ونكارته [١] ، والله أعلم .

وقال سفيان الثوري : بلغني عن مجاهد ليلة القدر خير من ألف شهر قال : عملها صيامها وقيامها خير من ألف شهر . وعن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر . وقال عمرو بن قيس الملائي : عمل فيها وخير من عمل ألف شهر ، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . وهو اختيار ابن جرير وهو الصواب لا ما عداه وهو كقوله ﷺ : « رِبَاطُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّه خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ المَنَازِلِ » [٢] . وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة ، ونية صالحة أنه يكتب له عمل سنة أجر صيامها وقيامها إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ : « قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرٌ مُبَارَكٌ افْتَرَضَ اللَّه عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الجَنَّةِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الجَحِيمِ ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينِ ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ » [٣] . ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » [٤] ، وقوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيمًا له وأما الروح فقيل المراد به ههنا جبريل ﷺ فيكون من باب عطف الخاص على العام وقيل هم ضرب من الملائكة وقوله تعالى : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قال مجاهد : سلام هي من كل أمر . وعنه في قوله ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ ﴾ قال : هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا أو يعمل فيها أذى ، وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور وتقدر الآجال والأرزاق . كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ عن الشعبي في قوله تعالى : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ قال : تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر . وقال قتادة وابن زيد في قوله ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ ﴾ يعني هي خير كلها ليس فيها شر إلى مطلع الفجر ، ويؤيد هذا المعنى ما روي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْلَةُ القَدْرِ في العَشْرِ البَوَاقِي ، مَنْ قَامَهُنَّ ابْتِغَاءَ حِسْبَتِهِنَّ فَإِنَّ اللَّه يَغْفِرُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَهِيَ لَيْلَةٌ وِتْرٌ : تِسْعٌ أو سبع أَوْ خَامِسَةٌ أَوْ ثَالِثَةٌ أَوْ آخِرُ لَيْلَةٍ » . وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَمَارَةَ لَيْلَةِ أَنَّهَا صَافِيَةٌ بلْجَةٌ كَأَنَّ فِيهَا قَمَرًا سَاطِعًا سَاكِنَةٌ سَاجِيَةٌ لَا بَرْدَ فِيهَا وَلَا حَرَّ وَلَا يَحِلُّ لِكَوْكَبٍ يُرْمَى بِهِ حَتَّى يُصْبِحَ ، وَأَنَّ أَمَارَتَهَا أَنَّ الشَّمْسَ صَبِيحَتِهَا تَخْرُجُ مُسْتَوِيَةً لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ مِثْلُ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدرِ وَلَا يَحِلُّ لِلشَّيطَانِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهَا يَوْمَئِذٍ » [٥] .

فصل : اختلف العلماء هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة أو هي من خصائص هذه الأمة ؟ على

---

(١) انظر الحديث في الترمذي في السنن (٣٣٥٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٦٤) وأحمد في مسنده (٧٥/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٥) .

قولين . قال مالك : أنه بلغه أن رسول الله ﷺ أري أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خيرًا من ألف شهر . وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر وقد نقله صاحب العدة أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء فالله أعلم . وحكى الخطابي عليه الإجماع ونقله الراضي جازمًا به عن المذهب ، والذي دلّ عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضين كما هي في أمتنا .

وعن مرثد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها قلت : يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي أو في غيره ؟ قال : « بَلْ هِيَ فِي رَمَضَانَ » . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال « بَلْ هِيَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » . قلت : في أي رمضان هي قال : « التَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَّلِ وَالعَشْرِ الأَخِرِ » . ثم حدَّث رسول الله ﷺ وحدَّث ثم اهتبلت غفلته ، قلت : في أي العشرين هي ؟ قال : « اِبْتَغُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا » . ثم حدَّث رسول الله ﷺ ثم اهتبلت غفلته فقلت : يا رسول الله أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي ؟ فغضب علي غضبًا لم يغضب مثله منذ صحبته وقال : « اِلْتَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا » (١) . ففيه دلالة على ما ذكرناه وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبيّ ﷺ لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية على ما فهموه من الحديث الذي سنورده بعد من قوله عليه الصلاة والسلام « فَرفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ » . لأن المراد رفع علم وقتها عينًا . وفيه دلالة على أن ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور ، لا كما روي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة من أنها توجد في جميع السنة وترتجى في جميع الشهور على السواء .

وقد ترجم أبو داود في سننه على هذا فقال : باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان . عن عبد الله ابن عمر قال : سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر . فقال : « هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ » (٢) .

فصل : ثم قد قيل إنها تكون في أول ليلة من شهر رمضان ، وقيل : إنها تقع ليلة سبع عشرة وروى فيه أبو داود حديثًا مرفوعًا عن ابن مسعود وروي موقوفًا عليه وعلى زيد بن أرقم وعثمان بن أبي العاص وهو قول عن محمّد بن إدريس الشافعي ، ويحكى عن الحسن البصري ، ووجهوه بأنها ليلة بدر وكانت جمعة هي السابعة عشرة من شهر رمضان ، في صبيحتها كانت وقعة بدر وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ وقيل : ليلة تسع عشرة ، وقيل : ليلة إحدى وعشرين ؛ لحديث أبي سعيد الخدري قال : اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال : إن الذي تطلب أمامك فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال الذي تطلب أمامك ثم قام النبيّ ﷺ خطيبًا صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : « مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِي فَلْيَرْجِعْ فَإِنِّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ القَدْرِ وَإِنِّي أُنْسِيتُهَا وَإِنَّهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ فِي وِتْرٍ وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧١/٥) والحاكم في المستدرك (٤٣٣/١) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٣٨٧) والبيهقي في السنن (٣٠٧/٤) .

أَسْجُدُ في طِينٍ وَمَاءٍ » . وكان سقف المسجد جريدًا من النخل وما نرى في السماء شيئًا فجاءت قزعة فمطرنا فصلّى بنا النبيّ ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول اللَّه ﷺ تصديق رؤيا . وفي لفظ : في صبح إحدى وعشرين [١] قال الشافعي : وهذا الحديث أصح الروايات ، وقيل ليلة ثلاث وعشرين لحديث عبد اللَّه بن أنيس وهو قريب السياق من رواية أبي سعيد فاللَّه أعلم ، وقيل ليلة أربع وعشرين . عن أبي سعيد أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لَيْلَةُ القَدْرِ لَيْلَةُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ » [٢] . وقد تقدم في سورة البقرة حديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا « إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ ليلة أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ » . وقيل تكون ليلة خمس وعشرين لما رواه عبد اللَّه بن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قال « التمسوها في العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَان في تَاسِعَةٍ تَبْقَي فِي سابعة تبقى في خَامِسَةٍ تَبْقَى » [٣] . فسره كثيرون بليالي الأوتار وهو أظهر وأشهر ، وحمله آخرون على الأشفاع . عن أبي سعيد أنه حمله على ذلك واللَّه أعلم ، وقيل إنها تكون ليلة سبع وعشرين لما رواه أبي فقال : واللَّه الذي لا إله إلّا هو إنها لفي رمضان يحلف ما يستثني وواللَّه إني لأعلم أي ليلة القدر هي التي أمرنا رسول اللَّه ﷺ بقيامها هي ليلة سبع وعشرين ، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها ، وفي الباب عن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم عن رسول اللَّه ﷺ أنها ليلة سبع وعشرين وهو قول طائفة من السلف وهو الجادة من مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وهو رواية عن أبي حنيفة أيضًا وقد حكي عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن من قوله ﴿ هِيَ ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرين من السورة فاللَّه أعلم .

قال ابن عبّاس : دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمّد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر فأجمعوا أنها في العشر الأواخر ، قال ابن عبّاس : فقلت لعمر : إني لأعلم - أو إني لأظن - أي ليلة القدر هي فقال عمر : وأي ليلة هي ؟ فقلت : سابعة تمضي - أو سابعة تبقى - من العشر الأواخر فقال عمر : من أين علمت ذلك قال ابن عبّاس فقلت : خلق اللَّه سبع سموات وسبع أرضين وسبعة أيام وإن الشهر يدور على سبع وخلق الإنسان من سبع ويأكل من سبع ويسجد على سبع والطواف بالبيت سبع ورمي الجمار سبع لأشياء ذكرها . فقال عمر : لقد فطنت لأمر ما فطنا له ، وعن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول اللَّه ﷺ عن ليلة القدر فقال رسول اللَّه ﷺ : « في رَمَضَانَ فَالْتَمِسُوهَا في العَشْرِ الأَوَاخِرِ فَإِنَّهَا في وِتْرٍ إِحْدَى وَعِشْرِينَ أَوْ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ أَوْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ أَوْ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ أَوْ تسع وعشرين أو في آخر لَيْلَةٍ » [٤] . وعن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال في ليلة القدر : « إِنَّهَا في لَيْلَة سَابِعَةٍ أَوْ تَاسِعَة وَعِشْرِينَ وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ في الأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الحَصَى » [٥] . وعن أبي بكرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « في تِسْعٍ يَبْقَيْنَ أَوْ سَبْعٍ يَبْقَيْنَ أَوْ خَمْسٍ يَبْقَيْنَ أَوْ ثَلاَثٍ أَوْ آخِرِ لَيْلَةٍ يَعْنِي التَمِسُوا لَيْلَةَ القَدْرِ » . وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ في ليلة القدر « إِنَّهَا آخِرُ لَيْلَةٍ » .

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٤٠) والبيهقي في السنن (٢/٢٨٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/١٢) .
(٣) أخرجه البخاري في ليلة القدر (٢٠٢١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٢٠) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٥١٦) .

فصل : قال الشافعي في هذه الروايات : صدرت من النبيّ ﷺ جوابًا للسائل إذا قيل له أنلتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية ؟ يقول : « نَعَمْ » . وإنما ليلة القدر ليلة معينة لا تنتقل . وروي عن أبي قلابة أنه قال : ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك والثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم . وهو محكي عن الشافعي وهو الأشبه والله أعلم . وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت عن عبد الله بن عمر أن رجالًا من أصحاب النبيّ ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيَهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ » [١] . وفيها أيضًا عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » [٢] . ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل وأنها معينة من الشهر ، بما رواه عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : « خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ فَالْتَمِسُوها فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ » [٣] . وجه الدلالة منه أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة ؛ إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إن إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط . وقوله : « فَتَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فُرِفِعَتْ » . فيه استئناس لما يقال إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع كما جاء في الحديث « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » [٤] . وقوله : « فَرُفِعَتْ » . أي رفع علم تعيينها لكم لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله جهلة الشيعة لأنه قد قال بعد هذا « فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ » . وقوله : « وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ » . يعني عدم تعيينها لكم فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع رجائها فكان أكثر للعبادة بخلاف ما إذا علموا عينها ، فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط ، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها ، ويكون الاجتهاد في العشر الأخير أكثر ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده [٥] ، وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر [٦] ، ولمسلم عنها كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره [٧] ، وهذا معنى قولها وشد المئزر ، وقيل المراد بذلك اعتزال النساء ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين لما روي عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شد مئزره واعتزل نساءه [٨] . وقد حكي عن مالك رحمه الله أن جميع ليالي العشر في تطلب ليلة القدر على السواء لا يترجح منها ليلة على أخرى ، والمستحب الإكثار من

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (٢٠٥) وأحمد في مسنده (٢/٥) .
(٢) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٧) ومسلم في الصيام (٢١٩) .
(٣) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٨٠) .
(٥) أخرجه مسلم الاعتكاف (١) والبخاري في الاعتكاف (٢٠٣٣) .
(٦) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤) ومسلم في الاعتكاف (٧) .
(٧) أخرجه مسلم في الاعتكاف (٨) والترمذي في السنن (٧٩٦) .
(٨) أخرجه احمد في مسنده (٦/٦٧) .

الدعاء في جميع الأوقات ، وفي شهر رمضان أكثر وفي العشر الأخير منه ، ثم في أوتاره أكثر . والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني . فعن عائشة قالت : قلت يا رسول اللَّه أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : « قُولِي : اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي » (١) .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٣) وابن ماجه في السنن (٣٨٥٠) وأحمد في مسنده (١٨٣/٦) .

سورة البينة

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ » . قال : وسماني لك ؟ قال [١] : « نَعَمْ » . فبكى .

وعن أبي بن كعب قال : إن رسول الله ﷺ قال لي : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ القُرْآنَ – قال : فقرأ – ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ – قال : فقرأ فيها – وَلَوْ أَنَّ آدَمَ سَأَلَ وَادِيًا مِنَ مَالٍ فَأُعْطِيَهُ لَسَأَلَ ثَانِيًا ، وَلَوْ سَأَلَ ثَانِيًا فَأُعْطِيَهُ لَسَأَلَ ثَالِثًا ، وَلَا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدم إِلَّا التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ ، وَإِنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ الحَنِيفِيَّةُ غَيْرُ المُشْرِكَةِ وَلَا اليَهُودِيَّةِ وَلَا النَّصْرَانِيَّةِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ خَيْرًا فَلَنْ يَكْفُرَهُ » [٢] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ .

أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم ، وقال مجاهد : لم يكونوا ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ يعني منتهين حتى يتبين لهم الحق . وهكذا قال قتادة ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ أي هذا القرآن ولهذا قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ . ثم فسر البينة بقوله ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ يعني محمدًا ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة . وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ قال ابن جرير : أي في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ لأنها من عند الله ﷻ وقوله تعالى ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم واختلفوا اختلافًا كثيرًا كما جاء في الحديث « إِنَّ اليَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَسَتَفْتَرِقُ هٰذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ كقوله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ولهذا قال ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ أي متحنفين من الشرك إلى التوحيد ﴿ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وهي أشرف عبادات البدن ﴿ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ أي الملة القائمة العادلة أو الأمة المستقيمة المعتدلة ، وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٥٩) وأحمد في مسنده (١٣٠/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٣) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ .

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها ، أي ماكثين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله وذرأها . ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم ، بأنهم خير البرية ، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية الملائكة لقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ ومقام رضاه أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم . وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ البَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال : « رَجُلٌ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّه ، كُلَّما كَانَتْ هَيْعَةٌ اسْتَوَى عَلَيْهِ . أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ البَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رَجُلٌ فِي ثُلَّةٍ مِنْ غَنَمِهِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَر البَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى . قال : « الَّذِي يُسْأَلُ بِاللَّه وَلَا يُعْطِي بِهِ » (١) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/٢) .

سورة الزلزلة

عن عبد الله بن عمرو قال : أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أقرئني يا رسول الله . قال له : « اِقْرَأْ ثَلَاثًا مِنْ ذَوَاتِ الرَّاءِ » فقال له الرجل : كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني ، قال : « فَاقْرَأْ مِنْ ذَوَاتِ حم » فقال مثل مقالته الأولى ، فقال : « اِقْرَأْ ثَلَاثًا مِنَ المُسَبِّحَاتِ » فقال مثل مقالته ، فقال الرجل : ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة فأقراه ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل : والذي بعثك بالحق نبيًّا لا أزيد عليها أبدًا ثم أدبر الرجل . فقال رسول الله ﷺ : « أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ ، أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ – ثم قال – عَلَيَّ بِهِ – فجاءه فقال له – أُمِرْتُ بِيَوْمِ الأَضْحَى جَعَلَهُ اللَّهُ عِيدًا لِهَذِهِ الأُمَّةِ » فقال له الرجل : أرأيت إن لم أجد إلَّا منيحة أنثى فأضحي بها ، قال : « لَا وَلَكِنَّكَ تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِكَ وَتُقَلِّمُ أَظْفَارَكَ وَتَقُصُّ شَارِبَكَ وَتَحْلِقُ عَانَتَكَ فَذَاكَ تَمَامُ أُضْحِيَتِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ » (١) وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ ، وَإِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ رُبُعَ القُرْآنِ » (٢) وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ نِصْفَ القُرْآنِ ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ تَعْدِلُ رُبُعَ القُرْآنِ » (٣) وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : « هَلْ تَزَوَّجْتَ يَا فُلَانُ » قال : لا والله يا رسول الله ولا عندي ما أتزوج ؟ قال : « أَلَيْسَ مَعَكَ قُلْ هُو اللَّهُ أَحَدٌ ؟ » قال : بلى قال : ثلث القرآن – قال : أَلَيْسَ مَعَكَ إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله وَالفَتْحُ – قال : بلى ، قال : رُبُعُ القُرْآنِ – قال : أَلَيْسَ مَعَكَ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ؟ – قال : بلى قال – رُبُعُ القُرْآنِ – قال أَلَيْسَ مَعَكَ إذا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ – قال : بلى ، قال : رُبُعُ القُرْآنِ ، تَزَوَّجْ (٤) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أي تحركت من أسفلها ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تُلْقِي الأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ فَيَجِيءُ القَاتِلُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَتَلْتُ ، وَيَجِيءُ القَاطِعُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي ، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ في هذا قطعت يَدِي ، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا » (٥) وقوله ﷻ ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ أي استنكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة وهو

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٩/٢) وأبو داود في السنن (١٣٩٩) والحاكم في المستدرك ٥٣٢/٢ .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٩) والترمذي في السنن (٢٨٩٩) والنسائي في السنن ٢٥٠/٢) ، وأحمد في مسنده (٤١٨/٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٤) والحاكم في المستدرك (٥٦٦/١) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٥) .

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (٢) والترمذي في السنن (٢٢٠٨) .

مستقر على ظهرها ، أي تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها . عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : « أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا ، أَنْ تَقُولَ عَمِلَ كَذَا وكذا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فَهذِهِ أَخْبَارُهَا » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ قال البخاري : أوحى لها وأوحى إليها ووحي لها ووحى إليها واحد . وكذا قال ابن عبّاس أوحى لها أي أوحى إليها . والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها . وقال ابن عبّاس ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : قال لها ربها قولي فقالت ، وقال مجاهد : أوحى لها أي أمرها . وقال القرظي أمرها أن تنشق عنهم . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أي يرجعون عن موقف الحساب أشتاتًا أي أنواعًا وأصنافًا ما بين شقي وسعيد مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار ، قال ابن جريج : يتصدعون أشتاتًا فلا يجتمعون آخر ما عليهم . وقال السدي أشتاتًا فرقًا . وقوله تعالى : ﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي ليعلموا ويجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر لهذا قال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ ؛ لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ . فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللّه فَأَطَالَ طيلَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذلِكَ فِي المَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَات ، وَلَو أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا فَاسْتَنَّتْ شرفًا أَوْ شرفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ . وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يرد أَنْ تُسقَى بِهِ كَانَ ذلِك حَسَنَاتٍ لَهُ ، وهِيَ لِذلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ . وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وتعففا وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللّه فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنوَاءً فَهِيَ عَلَى ذلِكَ وِزْرٌ » فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال : « مَا أَنْزَلَ اللّه فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هذِهِ الآيَة الفَاذَّة الجَامِعَةَ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [٢] .

وعن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبيّ ﷺ فقرأ عليه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ قال حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها . وعن عدي مرفوعًا « اِتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » [٣] وله أيضًا « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُفرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ المُسْتَسْقِي وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ » [٤] وفي الصحيح : « يَا مَعْشَرَ نِسَاءِ المُؤْمِنَاتِ لَا تحقرن جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فرسنَ شَاةٍ » يعني ظلفها [٥] . عن

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٣) وأحمد في مسنده (٣٧٤/٢) والحاكم في المستدرك (٢٥٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٧٣٥٦) والترمذي في السنن (١٦٣٦) والبيهقي في السنن (١٥/١٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٦٣) ومسلم في الزكاة (٦٨) والنسائي في السنن (٧٥/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٥) والألباني في الصحيحة (١٣٥٢) .

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٠) والترمذي في السنن (٢١٣٠) .

عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « يَا عَائِشَةُ اسْتَتِرِي مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنَّهَا تَسُدُّ مِنَ الجَائِعِ مَسَدَّهَا مِنَ الشَّبْعَانِ » [1] . وروي عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت : كم فيها من مثقال ذرة .
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : لما أنزلت ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد فبكى ، حين أنزلت ، فقال له رسول الله ﷺ : « مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا بَكْرٍ » قال : يبكيني هذه السورة . فقال له رسول الله ﷺ : « لَوْلَا أَنَّكُمْ تُخْطِئُونَ وَتُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ لَخَلَقَ اللَّهُ أُمَّةً يُخْطِئُونَ وَيُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » [2] .

وعن سعيد بن جبير في قول الله تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ وذلك لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه ، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون : ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك يقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر فرغّبهم في القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر ، وحذرهم اليسير من الشر فإنه يوشك أن يكثر فنزلت ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ يعني وزن أصغر النمل ﴿ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ يعني في كتابه ويسره ذلك قال يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة ، وبكل حسنة عشر حسنات ، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضًا بكل واحدة عشرًا ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة . وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ » وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحفر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها [3] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٩/٦) والمنذري في الترغيب (١٠/٢) والألباني في الصحيحة (٥٢٣) .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤١/٧) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) .

سورة العاديات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ﴾ .

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو ﴿ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴾ يعني اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار ﴿ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴾ يعني الإغارة وقت الصباح كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحًا ويستمع الأذان فإن سمع أذانًا وإلا أغار . وقوله تعالى : ﴿ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴾ يعني غبارًا في مكان معترك الخيول ﴿ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جمع . وعن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس حدَّثه قال : بينا أنا في الحجر جالسًا جاءني رجل فسألني عن : ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴾ فقلت له : الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم . فانفتل عني فذهب إلى علي ﷺ وهو عند سقاية زمزم ، فسأله عن العاديات ضبحًا فقال : سألت عنها أحدًا قبلي ؟ قال : نعم سألت ابن عبّاس فقال : الخيل حين تغير في سبيل الله . قال : اذهب فادعه لي فلما وقف على رأسه قال : أتفتي الناس بما لا علم لك . والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد فكيف تكون العاديات ضبحًا . إنما العاديات ضبحًا من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى ، قال ابن عباس : فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي ﷺ ، ﴿ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴾ يعني : بحوافرها وقيل : أسعرت الحرب بين ركبانهن ، وقال مجاهد : يعني : مكر الرجال وقيل : هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل . وقيل المراد بذلك نيران القبائل . وقال من فسرها بالخيل هو إيقاد النار بالمزدلفة . قال ابن جرير : والصواب الأول : أنها الخيل حين تقدح بحوافرها .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعني : إغارة الخيل صبحًا في سبيل الله ، وقال من فسرها بالإبل هو : الدفع صبحًا من المزدلفة إلى منى . وقالوا كلهم في قوله : ﴿ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴾ هو : المكان الذي حلت فيه أثارت به الغبار إما في حج أو غزو . وقوله تعالى : ﴿ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴾ يعني : جمع الكفار من العدو ويحتمل أن يكون فوسطن بذلك المكان جميعًا ويكون جمعًا منصوبًا على الحال المؤكدة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴾ هذا هو المقسم عليه بمعنى أنه لنعم ربه لكفور جحود . قال أنس وابن زيد : الكنود الكفور . قال الحسن : الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله عليه . وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾ قال قتادة وسفيان الثوري : وإن الله على ذلك لشهيد ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنودًا لشهيد أي بلسان حاله أي : ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أي : وإنه لحب الخير وهو المال لشديد ، وفيه مذهبان : أحدهما أن المعنى إنه لشديد المحبة للمال والثاني : وإنه لحريص بخيل من محبة

المال وكلاهما صحيح . ثم قال تبارك وتعالى مزهدًا في الدنيا ومرغّبًا في الآخرة ومنبهًا على ما هو كائن بعد هذه الحال وما يستقبله الإنسان من الأهوال ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ أي : أخرج ما فيها من الأموات . ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ قال ابن عبّاس وغيره يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي : لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم مثقال ذرة .

سورة القارعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾ .

القارعة من أسماء يوم القيامة كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك . ثم قال تعالى معظمًا أمرها ومهولًا لشأنها ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث . وقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾ يعني صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزّق . ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم فقال : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴾ يعني في الجنة ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته ، وقوله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴾ قيل : معناه فهو ساقط هاوٍ بأمّ رأسه في نار جهنم وعبرّ عنه بأمه يعني دماغه . وقال قتادة : يهوي في النار على رأسه ، وقيل : معناه فأمه التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها هاوية وهي اسم من أسماء النار ، قال ابن جرير : إنما قيل للهاوية أمه لأنه لا مأوى له غيرها ، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين فيقولون : روحوا أخاكم ، فإنه كان في غم الدنيا ، قال فيسألونه : ما فعَل فلان ، فيقول : مات ، أو ما جاءكم ؟ فيقولون : ذهب به إلى أمه الهاوية . وقوله تعالى : ﴿ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾ أي حارة شديدة الحر قوية اللهب والسعير . عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال : « نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقِدُونَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ؟ فقال : « إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا » [١] و عن يحيى بن جعدة .. عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ : « إِنَّ نَارَكُمْ هذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَضُرِبَتْ بِالبَحْرِ مَرَّتَيْنِ ، وَلَوْلَا ذلِكَ مَا جَعَلَ اللّٰه فِيهَا مَنْفَعَةً لِأَحَدٍ » [٢] وعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « هذِهِ النَّارُ جُزْءٌ مِنْ مائَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّمَ » [٣] وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ » [٤] وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ » [٥] وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ : يَا رَبِّ ، أكل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) ومالك في الموطأ (٩٩٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٤/٢) والدرامي في السنن (٣٤٠/٢) وابن ماجه في السنن (٤٣١٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٩/٢) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٩١) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٦٣) .

بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَس في الشِّتَاءِ وَنَفَس فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ في الشِّتَاءِ مِنْ بَرْدِهَا وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ في الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا » [١] وقال : « إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ » [٢] .

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٣٧) ، مسلم في المساجد (١٨٥) والترمذي في السنن (٥٩٢) .
(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٣٣) مسلم في المساجد (١٨) وأبو داود في السنن (٤٠٢) .

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .

يقول تعالى : أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها .

عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ حَتَّى يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ » وقال الحسن البصري : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ في الأموال والأولاد ، وعن أنس بن مالك عن أُبيّ بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ يعني : « لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ » [1] وعن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي ، مالي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » ؟ [2] وعن أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ : يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ » [3] وعن أنس أن النبيّ ﷺ قال : « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ : الْحِرْصُ وَالأَمَلُ » [4] وذكر في ترجمة الأحنف بن قيس واسمه الضحاك أنه رأى في يد رجل درهمًا فقال : لمن هذا الدرهم ؟ فقال الرجل : لي ، فقال : إنما هو لك إذا أنفقته في أجر أو ابتغاء شكر ، ثم أنشد الأحنف متمثلًا قول الشاعر :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكْتَهُ ... فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَالْمَالُ لَكْ

وعن ابن بريدة في قوله : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان بن فلان وفلان . وقال الآخرون مثل ذلك تفاخروا بالأحياء ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبور ومثل فلان . وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل . وقال قتادة : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ كانوا يقولون : نحن أكثر من بني فلان ، ونحن أعدُّ من بني فلان وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم . والصحيح أن المراد بقوله : ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أي : صرتم إليها ودفنتم فيها . كما في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده فقال : « لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » فقال : قلت : طهور بل هي حمى تفور ، على شيخ كبير تزيره القبور ،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤) ومسلم في الزهد (٥) والترمذي في السنن (٢٣٧٩) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٣٩) وأحمد في مسنده (١٩٢/٣) والطبراني في الكبير (٢٥٨/٧) .

قال : « فَنَعَمْ إِذَنْ »(١) . وعن علي قال : ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ وعن ميمون بن مهران قال : كنت جالسًا عند عمر بن عبد العزيز فقرأ : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ فلبث هنيهة ثم قال : يا ميمون ما أرى المقابر إلَّا زيارة وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله . قال أبو محمّد يعني أن يرجع إلى منزله أي : إلى جنة أو إلى نار . وهكذا ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلًا يتلو هذه الآية ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ فقال : بعث اليوم ورب الكعبة أي أن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . قال الحسن البصري : هذا وعيد بعد وعيد . وقال الضحّاك : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني أيها الكفار ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني أيها المؤمنون . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي : لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر . ثم قال : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم وهو قوله : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . توعدهم بهذا الحال وهو رؤية أهل النار التي إذا زفرت زفرة واحدة خر كل ملك مقرب ونبي مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال على ما جاء به الأثر المروي في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي : ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم اللَّه به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته . عن أبي هريرة ﷺ قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهما النبيّ ﷺ فقال : « مَا أَجْلَسَكُمَا ههُنَا ؟ » قالا : والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلَّا الجوع ، قال : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ مَا أَخْرَجَنِي غَيْرُهُ » . فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار فاستقبلتهم المرأة ، فقال لها النبيّ ﷺ : « أَيْنَ فُلَان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب لنا ماء فجاء صاحبهم يحمل قربته ؛ فقال : مرحبًا . ما زار العبادَ شيءٌ أفضل من نبي زارني اليوم ، فعلَّق قربته بكرب نخلة ، وانطلق فجاءهم بعذق ، فقال النبي ﷺ : « أَلا كُنْتَ اجْتَنَيْتَ » ؟ فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم ، ثم أخذ الشفرة فقال له النبيّ ﷺ : « إِيَّاكَ وَالحَلُوبُ » فذبح لهم يومئذٍ فأكلوا فقال النبيّ ﷺ : « لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هذَا يَوْمَ القِيَامَةِ . أَخْرَجَكُمُ الجُوعُ فَلَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَبْتُمْ هذا فَهذَا مِنَ النَّعِيمِ »(٢) . وعن أبي عسيب - مولى رسول اللَّه ﷺ - قال : خرج رسول اللَّه ﷺ ليلًا فمر بي فدعاني فخرجت إليه ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه ثم مرّ بعمر فدعاه فخرج إليه ، فانطلق حتى دخل حائطًا لبعض الأنصار فقال لصاحب الحائط : « أَطْعِمْنَا » فجاءه بعذق فوضعه فأكل رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ثم دعا بماء بارد فشرب وقال : « لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هذَا يَوْمَ القِيَامَةِ » قال : فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر قِبَل رسول اللَّه ﷺ ثم قال : يا رسول اللَّه إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال : « نَعَمْ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : خِرْقَةٌ لَفَّ بِهَا الرَّجُلُ عَوْرَتَهُ ، أَوْ كِسْرَةٌ سَدَّ بِهَا جَوْعَتَهُ ، أَوْ جُحْرٌ يَدْخُلُ فِيهِ مِنَ الحَرِّ وَالقرِّ »(٣) .

وعن جابر بن عبد اللَّه قال : أكل رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر وعمر رطبًا وشربوا ماء فقال رسول

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٧٠) والبيهقي في السنن (٣٨٣/٣) والطبراني في الكبير (٣٤٢/١١) .
(٢) أخرجه مسلم في الأشربة (١٤٠) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٥) .

الله : « هذا مِنَ النَّعيم الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ » [(١)] وعن محمود بن الربيع قال : لما نزلت : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قالوا : يا رسول الله عن أي نعيم نسأل ؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر فعن أي نعيم نسأل ؟ قال : « أَمَا إِنَّ ذلِكَ سَيَكُونُ » [(٢)] وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال النبيّ ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ - يَعْني يَوْمَ القِيَامَةِ - العَبْدُ مِنَ النَّعِيم أَنْ يُقَالَ لَهُ أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ بَدَنَكَ ونروِّكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ » ؟ [(٣)] وعن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ في قوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال : « الأَمْنُ وَالصِّحَّةُ » [(٤)] وقال زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ يعني : شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم .

وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصري : من النعيم الغداء والعشاء . وقال أبو قلابة : من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي . وقول مجاهد أشمل هذه الأقوال ، وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ والفَرَاغُ » [(٥)] . ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين لا يقومون بواجبهما ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون . عن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ ﷻ - قال عفان يوم القيامة - : يَا ابْنَ آدَمَ حَمَلْتُكَ عَلَى الخَيْلِ وَالإِبِلِ وَزَوَّجتُكَ النِّسَاءَ وَجَعَلْتُكَ تَرْبَعُ وَتَرْأَسُ فَأَيْنَ شُكْرُ ذلِكَ ؟ » [(٦)]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٥١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٦٤) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٨) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٨٨) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٠٤) وابن ماجه في السنن (٤١٧٠) وأحمد في مسنده (١/٣٤٤) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٩٢) .

سورة العصر

ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ! فقال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ ففكّر مسيلمة هنيهة ثم قال : وقد أنزل علي مثلها ، فقال له عمرو وما هى ؟ فقال : يا وبر يا وبر وإنما أنت أذنان وصدر وسائرك حفر نقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب . والوبر دويبة تشبه الهر أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقيه دميم فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن . فلم يخرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان . وعن عبيد الله بن حفص قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلّا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر . وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ .

العصر : الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر . وقال مالك عن زيد بن أسلم : هو العصر ، والمشهور الأول فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر أي في خسارة وهلاك ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ، ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو : أداء الطاعات ، وترك المحرمات ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ أي : على المصائب والأقدار وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ .

الهماز بالقول واللماز بالفعل يعني : يزدري الناس وينتقص بهم ، قال ابن عبّاس : ﴿ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ طعان معياب . وقال الربيع بن أنس : الهمزة يهمزه في وجهه ، واللمزة من خلفه . وقال قتادة : الهمزة واللمزة لسانه وعينه ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم . وقال مجاهد : الهمزة باليد والعين واللمزة باللسان ، وهكذا قال ابن زيد . وقال مالك عن زيد بن أسلم : همزة لحوم الناس . ثم قال بعضهم : المراد بذلك الأخنس بن شريق ، وقيل غيره . وقال مجاهد : هي عامة . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ أي : جمعه بعضه على بعض وأحصى عدده ، وقال محمد بن كعب : ألهاه ماله بالنهار هذا إلى هذا فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة . وقوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي : يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار . ﴿ كَلَّا ﴾ أي : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ثم قال تعالى : ﴿ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ أي : ليلقين هذا الذي جمع مالًا فعدده في الحطمة ، وهي : اسم صفة من أسماء النار ؛ لأنها تحطم من فيها . ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ قال ثابت البناني : تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ثم يبكي . وقال محمّد بن كعب : تأكل كل شيء من جسده حتى إذا بلغت فؤاده حذو حلقه ترجع على جسده . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴾ أي مطبقة . وقوله تعالى : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ : عمد من حديد ، وقال السدي : من نار ، وقال ابن عبّاس : يعني : الأبواب هي الممدة ، وقال قتادة في قراءة عبد الله بن مسعود - إنها عليهم مؤصدة بعمد ممدة - وقال ابن عبّاس : أدخلهم في عمد ممدة عليهم بعماد في أعناقهم السلاسل فسدت بهاالأبواب . وقال قتادة : كنا نحدث أنهم يعذبون في النار . واختاره ابن جرير . وقال أبو صالح ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ : يعني : القيود الثقال .

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ .

هذه من النعم التي امتن اللّٰه بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود فأبادهم اللّٰه وأرغم آنافهم وخيب سعيهم وأضل عملهم وردهم بشرّ خيبة . وكانوا قومًا نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان ، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول اللّٰه ﷺ فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ولسان حال القدر يقول : لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمّد صلوات اللّٰه وسلامه عليه خاتم الأنبياء . وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب ، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود : أن ذا نواس وكان آخر ملوك حمير وكان مشركًا ، وهو الذي قتل أصحاب الأخدود وكانوا نصارى وكانوا قريبًا من عشرين ألفًا ، فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام وكان نصرانيًا فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم في جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ، وهلك ذو نواس غريقًا في البحر . واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران أرياط وأبرهة فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافّا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا ، ولكن ابرز إلي وأبرز إليك فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك ، فأجابه إلى ذلك فتبارزا وخلف كل واحد منهما قناة فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرياط فقتله ورجع أبرهة جريحًا فداوى جرحه فبرأ واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه ويتوعده ويحلف ليطأنّ بلاده ويجزنّ ناصيته ، فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه وبعث مع رسوله بهدايا وتحف وبجراب فيه من تراب اليمن وجز ناصيته فأرسلها معه ويقول في كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك ، فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ورضي عنه وأقرّه على عمله ، وأرسل أبرهة يقول للنجاشي : إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن قبلها مثلها ، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء عالية الفناء مزخرفة الأرجاء سمتها العرب : القليس ؛ لارتفاعها ؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها ، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة ونادى بذلك في مملكته فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا حتى قصدها بعضهم وتوصل إلى أن دخلها ليلًا فأحدث فيها وكرّ راجعًا ، فلما

رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة ، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضبًا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به . فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجرًا حجرًا .

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارًا وكان يومًا فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض فتأهب أبرهة لذلك ، وسار في جيش كثيف عرمرم لئلا يصده أحد عنه واستصحب معه فيلًا عظيمًا كبير الجثة لم ير مثله يقال له : محمود . وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك . ويقال : كان معه ثمانية أفيال وقيل : اثنا عشر فيلًا غيره فالله أعلم . يعني : ليهدم به الكعبة بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل ، ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة ، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموه ذلك جدًا ، ورأوا أن حقًّا عليهم المحاجبة دون البيت ، ورد من أراده بكيد فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له : ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله وما يريده من هدمه وخرابه ، فأجابوه وقاتلوا أبرهة فهزمهم لما يريده الله ﷻ من كرامة البيت وتعظيمه وأسر ذو نفر فاستصحبه معه ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم اعترض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه شهران وناهس ، فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة ، وأسر نفيل بن حبيب فأراد قتله ثم عفا عنه واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز ، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات فأكرمهم ، وبعثوا معه أبا رغال دليلًا فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب ، وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة وكان يقال له : الأسود بن مقصود ، فهجاه بعض العرب فيما ذكره ابن إسحاق ، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وأمره أن يأتيه بأشراف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم إلَّا أن تصدوه عن البيت ، فجاء حناطة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلَّغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخلي بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حناطة : فاذهب معي إليه ، فذهب معه فلما رآه أبرهة أجلّه ، وكان عبد المطلب رجلًا جسيمًا حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط ؛ وقال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال للترجمان : إن حاجتي أن يرد عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي ، فقال أبرهة لترجمان : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ؟ وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تكلمني فيه ، فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربًّا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع مني قال : أنت وذاك ، ويقال إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت فأبى عليهم ، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال تخوفًا عليهم من معرة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُـمَّ إِنَّ المَرْءَ يَمْـ ـنَعُ رَحْلَـهُ فَـامْـنَعْ رِحَـالَـكْ
لَا يَـغْـلِبَنَّ صَـلِـيـبُـهُـمْ وَمِـحَـالُـهُـمْ أَبَـدًا مِـحَـالَـكْ

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال . وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة لعل بعض الجيش ينال منها شيئًا بغير حق فينتقم الله منهم . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وكان اسمه محمودًا ، وعبأ جيشه فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : ابرك محمود وارجع راشدًا من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مراقه فنزعوه بها ليقوم فأبى فوجهوه راجعًا إلى اليمن . فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا يصيب منهم أحدًا إلَّا هلك وليس كلهم أصابت ؟ وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق ويسألون عن نفيل ليدلّهم على الطريق ، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة ، وجعل نفيل يقول :

أَيْـنَ المَفَـرُّ وَالإِلَـهُ الـطَّـالِـبُ وَالأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغَـالِبُ

قال ابن إسحاق وقال نفيل في ذلك أيضًا :

أَلَا حُـيِّـيـتَ عَـنَّـا يَـا ودِيـنَـا نَـعِـمْـنَـاكُـمْ مَـعَ الإِصْـبَـاحِ عَـيْنَا
ودِيـنَـةُ لَـوْ رَأَيْـتِ وَلَا تَـرِيـهِ لَـدَى جنبِ المُحَصَّبِ مَا رَأَيْنَا
إِذًا لَـعَـذَرْتِـنِـي وَحَـمِـدْتِ أَمْـرِي وَلَمْ تَأْسَيْ عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَا
حَـمِـدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَـيْرًا وَخِـفْـتُ حِـجَـارَةً تُـلْـقَـى عَـلَـيْنَا
فَـكُـلُّ الـقَـوْمِ تَـسْـأَلُ عَـنْ نُـفَـيْـلٍ كَـأَنَّ عَـلَـيَّ لِـلْـحُـبْـشَـانِ دَيْـنَـا [1]

وذكر الواقدي بإسناده أنهم لما تعبؤوا لدخول الحرم ، هيأوا الفيل جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلَّا ذهب فيها فإذا وجهوه إلى الحرم ربض وصاح ، وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ليقهر الفيل على دخول الحرم وطال الفصل في ذلك ، هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة فيهم المطعم بن عدي وعمرو بن عائد بن عمران بن مخزوم ومسعود بن عمرو الثقفي على حراء ينظرون ما الحبشة يصنعون ، وماذا يلقون من أمر الفيل وهو العجب العجاب ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم طيرًا أبابيل أي : قطعًا قطعًا صفرًا دون الحمام وأرجلها حمر ومع كل طائر ثلاثة أحجار وجاءت فحلقت عليهم وأرسلت تلك الأحجار ، عليهم فهلكوا . وقال محمّد بن إسحاق : جاؤوا بفيلين فأما محمود فربض ، وأما الآخر فشجع فحصب .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٥) .

وقال وهب بن منبه : كان معهم فيلة ، فأما محمود وهو فيل الملك فربض ليقتدي به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تشجع فحصب فهربت بقية الفيلة . وقال عطاء بن يسار وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سريعًا ومنهم من جعل يتساقط عضوًا عضوًا وهم هاربون . وكان أبرهة ممن تساقط عضوًا عضوًا حتى مات ببلاد خثعم . وقال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطوا بكل طريق ويهلكون على كل منهل وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر . فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

وذكر مقاتل بن سليمان أن قريشًا أصابوا مالًا جزيلًا من أسلابهم وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة . قال ابن إسحاق : وحدَّثني يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رئيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رئي به مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعسر ذلك العام ، وهكذا روي عن عكرمة من طريق جيد . قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمّدًا ﷺ كان فيما يعد به على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عليهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ قال ابن هشام : الأبابيل الجماعات ولم تتكلم العرب بواحدة . قال : وأما السجيل فعن يونس النحوي وأبي عبيدة أنه عند العرب الشديد الصلب . قال وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة وإنما هو سنج وجل يعني بالسنج الحجر والجل الطين . يقول الحجارة من هذين الجنسين الحجر والطين قال : والعصف ورق الزرع الذي لم يقضب ، واحدته عصفة انتهى ما ذكره . وعن عبد الله وأبي سلمة بن عبد الرّحمن ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : الفرق . وقال ابن عبّاس والضحّاك : أبابيل يتبع بعضها بعضًا . وقال الحسن البصري وقتادة : الأبابيل الكثيرة . وقال مجاهد : شتى متتابعة مجتمعة . وقال ابن زيد : الأبابيل المختلفة تأتي من ههنا ومن ههنا أتتهم من كل مكان ، وقال الكسائي : سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل إبيل .

عن ابن عبّاس ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكفّ الكلاب . عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : كانت طيرًا خضرًا خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع . وعن عبيد بن عمير قال : هي طيور سود بحرية في مناقيرها وأظافيرها الحجارة . وقال سعيد بن جبير : كانت طيرًا خضرًا لها مناقير صفر تختلف عليهم . وعن ابن عبّاس ومجاهد وعطاء : كانت الطير الأبابيل مثل التي يقال لها : عنقاء مغرب ، وعن عبيد بن عمير قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيرًا أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف ، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة حجرين في رجليه وحجرًا في منقاره . قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت ، وألقت ما في أرجلها ومناقيرها فما يقع على رأس رجل إلّا خرج من دبره ولا يقع على شيء من جسده إلّا خرج من الجانب الآخر وبعث الله ريحًا شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني التبن الذي تسميه العامة هبور ، وقال سعيد : ورق الحنطة وعنه : العصف التبن والمأكول القصيل يجز للدواب . وعن ابن عبّاس : العصف القشرة التي على الحبة كالغلاف على الحنطة .

وقال ابن زيد : العصف ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته فصار درينًا ، والمعنى : أن اللّه سبحانه وتعالى أهلكهم ودمّرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيرًا وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلّا وهو جريح كما جرى لملكهم أبرهة فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء وأخبرهم ماذا جرى لهم ثم مات . فملك بعده ابنه يكسوم ، ثم من بعده أخوه مسروق ابن أبرهة . ثم خرج سيف بن ذي يزن الحميري إلى كسرى فاستعانه على الحبشة فأنفذ معه من جيوشه ، فقاتلوا معه فرد اللّه إليهم ملكهم وما كان في آبائهم من الملك ، وجاءته وفود العرب بالتهنئة . وعن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

قلت : كان اسم قائد الفيل أنيسًا . وقد ذكر الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة قصة أصحاب الفيل ولم يذكر أن أبرهة قدم من اليمن ، وإنما بعث على الجيش رجلًا يقال له : شمر بن مقصود وكان الجيش عشرين ألفًا وذكر أن الطير طرقتهم ليلًا فأصبحوا صرعى . وهذا السياق غريب جدًّا وإن كان أبو نعيم قد قواه ورجحه على غيره . والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشي قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار . وهكذا روي عن عروة أن أبرهة بعث الأسود بن مقصود على كتيبة معهم الفيل ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه ، والصحيح قدومه ولعل ابن مقصود كان على مقدمة الجيش واللّه أعلم . ثم ذكر ابن إسحاق شيئًا من أشعار العرب فيما كان من قصة أصحاب الفيل فمن ذلك شعر عبد اللّه بن الزبعرى :

تَنَكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا ... كَانَتْ قَدِيمًا لَا يُرَامُ حَرِيمُهَا
لَمْ تَخْلُقِ الشِّعْرَى لَيَالِي حرمَتْ ... إِذْ لَا عَزِيزَ مِنَ الأَنَامِ يَرُومُهَا
سَائِلْ أَمِيرَ الجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى ... فَلَسَوفَ يُنْبِي الجَاهِلِينَ عَلِيمُهَا
سِتُّونَ أَلْفًا لَمْ يَؤُوبُوا أَرْضَهُمْ ... بَلْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ الإِيَابِ سَقِيمُهَا
كَانَتْ بِهَا عَادٌ وَجُرْهُمُ قَبْلَهُمْ ... وَاللّه مِنْ فَوْقِ العِبَادِ يُقِيمُهَا

وقد قدمنا في تفسير سورة الفتح أن رسول اللّه ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش بركت ناقته فزجروها فألحت فقالوا : خلأت القصواء أي : حرنت فقال رسول اللّه ﷺ : « مَا خَلَأَتِ القَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ - ثم قال - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي اليَوْمَ خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللّه إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا » ثم زجرها فقامت [١] ، وروي أن رسول اللّه ﷺ قال يوم فتح مكة : « إِنَّ اللّه حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الفِيلَ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ » [٢] .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٦٧٥) والبيهقي في السنن (٢١٩/٩) .
(٢) أخرجه مسلم في الحج (٤٤٧) وأبو داود في السنن (٢٠١٧) والدارمي في السنن (٢٦٥/٢) .

سورة قريش

ذكر حديث غريب في فضلها : عن عن أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال : « فَضَّلَ اللّٰهُ قُرَيْشًا بِسَبْعِ خِلَالٍ : إِنِّي مِنْهُمْ ، وَإِنَّ النُّبُوَّةَ فِيهِمْ ، وَالحِجَابَةُ وَالسِّقَايَةُ فِيهِمْ ، وَإِنَّ اللّٰهَ نَصَرَهُمْ عَلَى الفِيلِ ، وَإِنهُمْ عَبَدُوا اللّٰهَ ﷻ عَشْرَ سِنِينَ لَا يَعْبُدُهُ غَيْرُهُمْ ، وَإِنَّ اللّٰهَ أَنْزَلَ فِيهِمْ سُورَةً مِنَ القُرْآن – ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ .

هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام كتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم وإن كانت متعلقة بما قبلها كما صرح بذلك محمّد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ لأن المعنى عندهما : حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله لإيلاف قريش أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين ، وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان حرم الله فمن عرفهم بل احترمهم بل من صوفي إليهم وسار معهم أمن بهم ، وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم ، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ ﴾ بدل من الأول ومفسر له ولهذا قال تعالى : ﴿ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ . وقال ابن جرير : الصواب : أن اللام لام التعجب كأنه يقول : اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك . قال : وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان مستقلتان . ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ أي : فليوحدوه بالعبادة كما جعل لهم حرمًا آمنًا وبيتًا محرمًا . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ أي : هو رب البيت وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ أي : تفضل عليهم بالأمن والرخص ، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ، ولا يعبدوا من دونه صنمًا ولا ندًا ولا وثنًا . ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما منه ، عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « وَيْلٌ لَكُمْ قُرَيْشُ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ » (٢) .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٣٦/٢) والألباني في الصحيحة (١٩٤٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/٦) والطبراني في الكبير (١٧٧/٢٤ – ١٧٨) .

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أرأيت يا محمّد الذي يكذب بالدين وهو المعاد والجزاء والثواب . ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ أي : هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه ولا يطعمه ولا يحسن إليه . ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ يعني الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته . ثم قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ . قال ابن عبّاس وغيره : يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر . ولهذا قال : ﴿ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ الذين هم من أهل الصلاة ، وقد التزموا بها ثم هم عنها ساهون . إما عن فعلها بالكلية كما قاله ابن عبّاس ، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعًا فيخرجها عن وقتها بالكلية . وقال عطاء بن دينار : الحمد للّه الذي قال : ﴿ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ولم يقل : في صلاتهم ساهون . وإما عن وقتها الأول فيؤخرها إلى آخره دائمًا أو غالبًا ، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به ، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها ، فاللفظ يشمل ذلك كله . ولكلّ من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية ، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه وكمل له النفاق العملي . كما ثبت أن رسول اللّه ﷺ قال : « تِلْكَ صَلَاةُ المُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ المُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ المُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللّه فِيهَا قَلِيلًا » [1] فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى كما ثبت به النص إلى آخر وقتها وهو وقت كراهة ، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضًا ؛ ولهذا قال : لا يذكر اللّه فيها إلّا قليلًا ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس لا ابتغاء وجه اللّه فهو كما إذا لم يصل بالكلية : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ عن عمرو بن مرة قال : كنا جلوسًا عند أبي عبيدة فذكروا الرياء فقال رجل يكنى بأبي يزيد : سمعت عبد اللّه ابن عمرو يقول : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللّه بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ وَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ » [2] ، ومما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ أن من عمل عملًا للّه فاطّلع عليه الناس فأعجبه ذلك أن هذا لا يعد رياء . والدليل على ذلك ما روي عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رجل : يا رسول اللّه الرجل يعمل العمل يسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لَهُ أَجْرَانِ : أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ العَلَانِيَةِ » . وعن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول اللّه ﷺ : لما نزلت هذه الآية : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، « اللّه أَكْبَرُ هَذَا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ لَوْ أُعْطِيَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ جَمِيعِ الدُّنْيَا ، هُوَ الَّذِي إِنْ صَلَّى لَمْ يَرْجُ خَيْرَ صَلَاتِهِ وَإِنْ تَرَكَهَا لَمْ يَخَفْ رَبَّهُ » [3]

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٩٥) وأبو داود في السنن (٤١٣) وأحمد في مسنده (١٤٩/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢/٢) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (٤٠٤/٣٠) .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : سألت رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون قال : « هُمُ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا » [١] قلت : وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعًا أو تأخيرها عن أول الوقت .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ أي : لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم . فهولاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى . وعن مجاهد قال علي : الماعون الزكاة . قال الحسن البصري : إن صلى راءى ، وإن فاتته لم يأس عليها ، ويمنع زكاة ماله . وفي لفظ : صدقة ماله . وقال زيد بن أسلم : هم المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها ، وخفيت الزكاة فمنعوها . سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون فقال : هو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس والقدر . عن عبد الله قال : كنا مع نبينا ﷺ نقول : الماعون منع الدلو وأشباه ذلك . عن ابن عبّاس ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ : يعني : متاع البيت . وقال : لم يجئ أهلها بعد . وقال ابن عباس : اختلف الناس في ذلك فمنهم من قال : يمنعون الزكاة ، ومنهم من قال : يمنعون الطاعة ، ومنهم من قال : يمنعون العارية . وعن علي : الماعون منع الناس الفأس والقدر والدلو . وقال عكرمة : رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والإبرة . وهذا الذي قاله عكرمة حسن فإنه يشمل الأقوال كلها وترجع كلها إلى شيء واحد وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة . ولهذا قال محمّد بن كعب : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ : المعروف . ولهذا جاء في الحديث : « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ » [٢] . وعن الزهري ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ قال : بلسان قريش المال . وعن علي بن فلان النميري : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ إِذَا لَقِيَهُ جَاءَ بِالسَّلَامِ وَيَرُدُّ عَلَيْهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ لَا يَمْنَعِ الْمَاعُونَ » . قلت : يا رسول الله ما الماعون ؟ قال : « الْحَجَرُ وَالْحَدِيدُ وَأَشْبَاهُ ذٰلِكَ » [٣] .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢/٢١٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/٣٢٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢١) ومسلم في الزكاة (٥٢) .
(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٧٥٤) والسيوطي في الدر المنثور (٦/٤٠٠) .

سورة الكوثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ .

عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسمًا إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ » فقرأ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ حتى ختمها فقال : « هَلْ تَدْرُونَ مَا الكَوْثَرُ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي ﷻ فِي الجَنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدَ الكَوَاكِبِ يَخْتَلِجُ العَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ »[(١)] وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يشخب فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر ، وأن آنيته عدد نجوم السماء .

وقد استدل كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية ، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة وأنها منزلة معها . فأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَّتَاهُ خِيَامُ اللُّؤْلُؤِ فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَى مَا يَجْرِي فِيهِ المَاءُ فَإِذَا مِسْكٌ أَذْفَرُ ، قُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ اللَّهُ ﷻ »[(٢)] . وعنه قال : لما عرج بالنبيّ ﷺ إلى السماء قال : « أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ المُجَوَّفِ : فَقُلْتُ ما هذا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هذَا الكَوْثَرُ »[(٣)] وعن أنس أن رجلًا قال : يا رسول الله : ما الكوثر ؟ قال : « هُوَ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ أَعْطَانِيهِ رَبِّي لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ ، فِيهِ طُيُورٌ أَعْنَاقُهَا كأعناق الجزرِ » . قال عمر : يا رسول الله ، إنها لناعمة . قال : « آكِلُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا يَا عُمَرُ »[(٤)] . وعن عائشة قالت : الكوثر نهر في الجنة شاطئاه در مجوف . وقال إسرائيل : نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء . وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه . عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : الكوثر الخير الكثير . وهذا التفسير يعمّ النهر وغيره لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ومن ذلك النهر . وقال مجاهد : هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة . وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة . وقد صح عن ابن عبّاس أنه فسره بالنهر ، فقال : الكوثر نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة يجري على الياقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ وَالمَاءُ يَجْرِي عَلَى اللُّؤْلُؤِ وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِن العَسَلِ »[(٥)] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٢/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٥/٣) والحاكم في المستدرك (٨٠/١) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٠/٣) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٦١) وأحمد في مسنده (١٥٨/٢) والحاكم في المستدرك (١٧١/٣) .

عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب يومًا ، فلم يجده ، فسأل عنه امرأته وكانت من بني النجار . فقالت : خرج يا نبي الله آنفًا عامدًا نحوك فأظنه أخطأك في بعض أزقة بني النجار ، أوَ لا تدخل يا رسول الله ؟ فدخل ، فقدمت إليه حيسًا فأكل منه فقالت : يا رسول الله هنيئًا لك ومريئًا ، لقد جئت وأنا أريد أن آتيك فأهنيك وأمريك أخبرني أبو عمارة أنك أعطيت نهرًا في الجنّة يدعى الكوثر فقال : « أَجَلْ وعرصته - يعني أرضه - يَاقُوتٌ وَمَرْجَانٌ وَزَبَرْجَدٌ وَلُؤْلُؤٌ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أي : كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته ، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ، وتحرك فاعبده وحده لا شريك له وانحر على اسمه وحده لا شريك له . ويعني بذلك نحر البدن ونحوها . وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله والذبح على غير اسمه . وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ وضع اليد على اليسرى تحت النحر ، يروى هذا عن علي ولا يصح . وعن أبي جعفر الباقر : رفع اليدين عند افتتاح الصلاة ، وقيل : استقبل بنحرك القبلة . ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير . وقد روي عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبيّ ﷺ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « يَا جِبْرِيلُ مَا هذِهِ النَّحِيرَةُ الَّتِي أَمَرَنِي بِهَا رَبِّي ؟ » فقال : ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة ارفع يديك إذا كبّرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع ، وإذا سجدت ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة (٢) .

وعن عطاء الخراساني : ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل وأبرز نحرك يعني به الاعتدال . وكل هذه الأقوال غريبة جدًا . والصحيح القول الأول : أن المراد بالنحر ذبح المناسك ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ، ثم ينحر نسكه . ويقول : « مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا ، ونسكَ نُسُكَنَا فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ ، ومن نسك قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسُكَ لَهُ » . فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله إني نسكت شاتي قبل الصلاة وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم قال : « شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ » ، قال : فإن عندي عناقًا هي أحب إليّ من شاتين أفتجزئ عني ؟ قال : « تُجْزِئُكَ وَلَا تُجْزِئُ أَحَدًا بَعْدَكَ » (٣) . قال أبو جعفر بن جرير : والصواب قول من قال إن معنى ذلك : فاجعل صلاتك كلها لربك خالصًا دون ما سواه من الأنداد والآلهة ، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان شكرًا له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له وخصك به . وهذا الذي قاله في غاية الحسن .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ أي : إن مبغضك يا محمّد ، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره . قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : نزلت في العاص بن وائل . وعن يزيد بن رومان : قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٧/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٦٣/١٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٣٨/٢) . (٣) أخرجه البخاري في العيدين (٩٨٣) .

ذكره . فأنزل الله هذه السورة . وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي معيط . وقال ابن عباس وعكرمة : نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش . وعن ابن عبّاس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصنبر المنبتر من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية ، فقال : أنتم خير منه . قال : فنزلت : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ وعن عطاء نزلت في أبي لهب وذلك حين مات ابن لرسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمّد الليلة ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ .

وعن ابن عبّاس : نزلت في أبي جهل ، وعنه ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ يعني : عدوك وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم . وقال عكرمة : الأبتر الفرد ، وقال السدي : كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا : بتر ، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا : بتر محمد فأنزل الله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقابه العباد ، مستمرًا على دوام الآباد ، إلى يوم المحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد .

سورة الكافرون

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعًا وعشرين مرة ، أو بضع عشرة مرة ، قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد [١] . وعن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ أربعًا وعشرين أو خمسًا وعشرين مرة يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بقل يا أيها الكافرون وقل هوالله أحد [٢] وعن ابن عمر قال : رمقت النبيّ ﷺ شهرًا وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد [٣] . وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن ، وعن فروة بن نوفل - هو ابن معاوية - عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له : « هَلْ لَكَ فِي رَبِيبَةٍ لَنَا تَكْفُلُهَا ؟ » قال : أُرَاهَا زَيْنب قال : ثم جاء فسأله النبيّ ﷺ عنها قال : « مَا فَعَلتِ الجَارِيَةُ ؟ » قال : تركتها عند أمها قال : « فمجيء ما جاء بك » قال : جئت لتعلمني شيئًا أقوله عند منامي قال : « اقْرَأْ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ » [٤] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ .

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركين ، وهي آمرة بالإخلاص فيه فقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش . وقيل : إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة . فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : من الأصنام والأنداد . ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ وهو الله وحده لا شريك له ، فما ههنا بمعنى من ، ثم قال : ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي : ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئًا من تلقاء أنفسكم فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه ، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده وعبادة يسلكها إليه فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ؛ ولهذا كان كلمة الإسلام : لا إله إلّا الله محمّد رسول الله أي : لا معبود إلّا الله ولا طريق إلا بما جاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عباة لم يأذن بها الله ؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ قال البخاري : يقال ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الكفر ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ الإسلام ، ولم يقل : ديني لأن الآيات بالنون فحذف الياء كما قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجيبكم بما بقى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٤/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٦/٥) والبيهقي في السنن (٢٤١/٨) .

من عمري ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وهم الذين قال : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾ انتهى ما ذكره .

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ . فهذه ثلاثة أقوال : أولها : ما ذكرناه أولاً ، الثاني : ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ في الماضي ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ في المستقبل ، الثالث : أن ذلك تأكيد محض . وثم قول رابع : وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد ، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلًا لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان-الشرعي أيضًا . وهو قول حسن أيضًا والله أعلم . وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة ، فورث اليهود من النصارى وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى » [1]

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٢١٠٨) والحاكم في المستدرك(٢/٢٤٠) وأحمد في مسنده(٢/١٩٥) والدار قطني في السنن(٤/٧٢) .

سورة النصر

عن عبد المجيد بن سهيل عن عبيد الله بن عتبة قال : قال لي ابن عبّاس : يا ابن عتبة أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت ؟ قلت نعم : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ قال : صدقت . وعن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق فعرفت أنه الوداع فأمر براحلته القصواء فرحلت ثم قام فخطب الناس ، وعن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال : « إِنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي » فبكت ثم ضحكت وقالت : أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت . ثم قال : « اصْبِرِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقًا بِي » فضحكت [١] .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ، فقال عمر : إنه ممن قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال : ما تقولون في قول الله ﷻ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا . فقال لي : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ فذلك علامة أجلك . ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ فقال عمر بن الخطّاب : لا أعلم منها إلا ما تقول [٢] . وعن ابن عبّاس قال : بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال : « اللَّه أَكْبَرُ اللَّه أَكْبَرُ ، جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ ، جَاءَ أَهْلُ اليَمَنِ - قيل : يا رسول الله وما أهل اليمن ؟ قال : قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ لَيِّنَةٌ طِبَاعُهُمْ ، الإِيمَانُ يَمَانٍ ، وَالفِقْهُ يَمَانٍ ، وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ » [٣] .

وعن ابن عبّاس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ علم النبيّ ﷺ أن قد نُعِيَتْ إِلَيه نفسه فقيل : إذا جاء نصر الله والفتح السورة كلها [٤] ، وعن ابن عبّاس قال : آخر سورة نزلت من القرآن جميعًا ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ وعن أبي سعيد الخدري أنه قال : لما نزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها فقال : « النَّاسُ خَيْرٌ وَأَنَا وَأَصْحَابِي خَيْرٌ - وقال - لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ » فقال له مروان : كذبت وعنده رافع بين خديج وزيد بن ثابت قاعدان معه على السرير فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدثاك ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه ، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة . فرفع مروان عليه الدرة ليضربه فلما رأيا ذلك قالا : صدق [٥] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧/١) والطبراني في الكبير (١١٩٠٧) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٠) .
(٣) ذكره الهيثمي في موارد الظمآن (٢٢٩٩) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٤/١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢/٣) .

وعن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَلَكِنْ إِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا » [١] . فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر ﷺ أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبّحه ، يعني نصلّي له ونستغفره . معنى مليح صحيح وقد ثبت له شاهد من صلاة النبيّ ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات ، فقال قائلون : هي صلاة الضحى وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها فكيف صلاها ذلك اليوم ، وقد كان مسافرًا لم ينو الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريبًا من تسعة عشر يومًا ، يقصر الصلاة ، ويفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نحوًا من عشرة آلاف . قال : هؤلاء وإنما كانت صلاة الفتح قالوا : فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات ، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن .

ثم قال بعضهم : يصليها كلها بتسليمة واحدة . والصحيح أنه يسلِّم من كل ركعتين كما ورد في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يسلِّم يوم الفتح من كل ركعتين . وأما ما فسر به ابن عبّاس وعمر رضي الله تعالى عنهما من أن هذه السورة نعي فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة ، واعلم أنك إذا فتحت مكة وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجًا فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا ، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى . ولهذا قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

وعن مسروق قال : قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول : « سُبْحَانَ اللَّه وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّه وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » وقال : « إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي وَأَمَرَنِي إذا رأيتُها أَنْ أُسَبِّح بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ، فَقَد رَأَيْتُهَا ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ » [٢] . وعن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ كان يكثر إذا قرأها وركع أن يقول : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيم » ثلاثًا [٣] ، والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولًا واحدًا ، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانًا ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلّا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة . وعن جار لجابر بن عبد الله قال : قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد الله فسلم عليّ ، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا ، فجعل جابر يبكي ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّه أَفْوَاجًا وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا » [٤] .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣) ومسلم في الإمارة (٨٥) والترمذي في السنن (١٥٩٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٦) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٧) ومسلم في الصلاة (٢١٧) والنسائي في السنن (٢١٩/٢) وأحمد في مسنده (٤٩٤/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٣/٣) .

سورة المسد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ .

عن ابن عبّاس أن النبيّ ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « يَا صَبَاحَاهُ » فاجتمعت إليه قريش فقال : « أَرَأَيْتُم إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيكُمْ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي ؟ - قالوا : نعم ، قال : فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذَاب شَدِيد » فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ، تبًا لك فأنزل اللَّه : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى آخرها [1] . وفي رواية : فقام ينفض يديه وهو يقول : تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل اللَّه : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ الأول : دعاء عليه والثاني : خبر عنه ، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول اللَّه واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتيبة ، وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه ، وكان كثير الأذية لرسول اللَّه ﷺ والبغضة له والازدراء به والتنقص له ولدينه . عن أبي الزناد قال : أخبرني رجل يقال له : ربيعة بن عباد من بني الديل وكان جاهليًا فأسلم قال : رأيت النبيّ ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قولوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه تُفْلِحُوا » . والناس مجتمعون عليه وراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب [2] . فقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه ﴿ وَتَبَّ ﴾ أي : وقد تبّ تحقّق خسارته وهلاكه .

وقوله تعالى : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ قال ابن عبّاس وغيره : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعني : ولده ، وذكر عن ابن مسعود أن رسول اللَّه ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا ، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي ، فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أي : ذات شرر ولهب وإحراق شديد ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهي أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان ، وكانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عونًا عليه في عذابه في نار جهنم . ولهذا قال تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ يعني : تحمل الحطب فتلقي على زوجها ، ليزداد على ما هو فيه . هي مهيأة لذلك مستعدة له ، قال مجاهد والسدي : كانت تمشي بالنميمة وقال الضحاك : كانت تضع الشوك في طريق رسول اللَّه ﷺ قال ابن جرير : وقيل : كانت تعير النبي ﷺ بالفقر ، وكانت تحتطب فعيرت بذلك والصحيح الأول واللَّه أعلم . قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة فقالت : لأنفقنّها في عداوة محمّد يعني : فأعقبها اللَّه منها حبلًا في جيدها من مسد النار . وروي عن الشعبي : المسد الليف ، وعن عروة : المسد : سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا ،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤١/٤) .

وعن الثوري : هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعًا . وعن مجاهد : طوق من حديد ، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسدًا ؟ وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول :

مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » وقرأ قرآنًا اعتصم به . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم ترَ رسول الله ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر ، إني أخبرت أن صاحبك هجاني قال : لا ورب هذا البيت ما هجاك . فولّت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها . قال : وقال الوليد في حديثه أو غيره : فعثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت فقالت : تعس مذمم ، فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إني لحصان فما أكلم ، وثقاف فما أعلم . وكلتانا من بني العم ، وقريش بعد أعلم [1] . وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى : ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ أي : في عنقها حبل من نار جهنم ، ترفع به إلى شفيرها ثم ترمي إلى أسفلها . ثم لا تزال كذلك دائمًا ، قال العلماء : وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء ، وعدم الإيمان ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما لا باطنًا ولا ظاهرًا ، ولا مسرًا ولا معلنًا ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٦١/٢) وأبو يعلى في مسنده (٢٣٥٨) .

سورة الإخلاص

ذكر سبب نزولها وفضلها

عن أُبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمّد ، انسب لنا ربك ؛ فأنزل اللّٰه تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (١) . زاد ابن جرير والترمذي قال : ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء يولد إلّا سيموت ، وليس شيء يموت إلّا سيورث ، وإن اللّٰه ﷻ لا يموت ولا يورث . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء (٢) .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ بعث رجلًا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو اللّٰه أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال : « سَلُوهُ لأيِّ شيْءٍ يَصْنَعُ ذلِكَ ؟ » فسألوه فقال : لأنَّهَا صفة الرحمن ، وأنا أُحب أن أقرأ بها . فقال النبيّ ﷺ : « أَخْبِرُوه أَنَّ اللّٰه تَعَالَى يُحِبُّهُ » (٣) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو اللّٰه أحد ، حتى يفرغ منها . ثم كان يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، فقال : ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم . وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره . فلما أتاهم النبيّ ﷺ أخبروه الخبر فقال : « يَا فَلَانُ ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا حَمَلَكَ عَلَى لُزُوم هَذهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ؟ » قال : إني أحبها ، قال : « حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّة » (٤) . وعن أبي سعيد أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالها ، فقال النبيُّ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُث القُرْآن » (٥) وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ لأصحابه : « أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ ؟ » . فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أيّنا يطيق ذلك يا رسول اللّٰه . فقال : « اللّٰه الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القُرْآن » (٦) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بقل هو اللّٰه أحد فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَده إِنَّهَا لَتَعْدِلُ نِصْفَ القُرْآنِ – أو ثلثه – » (٧) .

وعن عبيد بن حنين قال : سمعت أبا هريرة يقول : أقبلت مع النبيّ ﷺ فسمع رجلًا يقرأ : قل هو اللّٰه أحد فقال رسول اللّٰه : « وَجَبَتْ – قلت : وما وجبت ؟ قال – الجَنَّةُ » (٨) وعن عبد اللّٰه بن حبيب قال :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٣/٥) . (٢) أخرجه الترمذي في التفسير (٥) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٥) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٦٣) .

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٨٨) والترمذي في السنن (٢٩٠١) والبيهقي في السنن (٢٤١/١) .

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٤) . (٦) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٥) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٢) .

(٨) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٧) وأبو داود في السنن (١٧١/٢) والحاكم في المستدرك (٥٦٦/١) .

أصابنا عطش وظلمة فانتظرنا رسول اللَّه ﷺ يصلي بنا فخرج فأخذ بيدي فقال : « قل » فسكت قال : « قل » قلت : ما أقول ؟ قال : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالمُعَوِّذَتَينِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِح ثَلاثًا ، تَكْفِيكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَينِ » [١] وعن تميم الداري ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَاحِدًا أَحَدًا صَمَدًا لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفوًا أَحَدٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ كَتَبَ اللَّه لَهُ أَرْبَعِينَ أَلْف حَسَنَةٍ » [٢] .

وعن معاذ بن أنس الجهني عن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّه أَحَدٌ حَتّى يَخْتمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى لَهُ قَصْرًا فِي الجَنَّةِ » فقال عمر : إذًا نستكثر يا رسول اللَّه ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « اللَّه أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ » [٣] وروي عن النبيّ ﷺ قال : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنَامَ عَلَى فِرَاشِهِ فَنَامَ عَلَى يَمِينِهِ ثُمَّ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّه أَحَدٌ مِائَةَ مَرَّةٍ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ يَقُولُ لَهُ الرَّبُّ ﷻ : يَا عَبْدِي ادْخُلْ عَلَى يَمِينِكَ الجَنَّة » [٤] .

حديث آخر في الدعاء بما تضمنته من الأسماء : عن بريدة : أنه دخل مع رسول اللَّه ﷺ المسجد ، فإذا رجل يصلي يدعو يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَهُ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ به أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ به أَجَابَ » [٥] . وعن جابر بن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « ثَلَاثٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ الإِيمَانِ دخل مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ شَاءَ ، وَزُوِّجَ مِنَ الحُورِ العِينِ حَيْثُ شَاءَ : مَنْ عَفَا عَنْ قَاتِلِهِ ، وَأَدَّى دَيْنًا خَفِيًّا ، وَقَرَأَ فِي دُبُرِ كل صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ عَشْرَ مَرَّاتٍ قُلْ هُوَ اللَّه أَحَدٌ » قال : فقال أبو بكر : أو إحداهن يا رسول اللَّه ؟ قال : « أَوْ إِحْدَاهُنَّ » [٦] .

حديث في الإكثار من قراءتها في سائر الأحوال : عن أنس قال : نزل جبريل على النبيّ ﷺ فقال : مات معاوية بن معاوية الليثي ، فتحب أن تصلي عليه ؟ قال : « نعم » فضرب بجناحه الأرض فلم تبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ، فرفع سريره فنظر إليه فكبر عليه ، وخلفه صفان من الملائكة في كل صف سبعون ألف ملك فقال النبيّ ﷺ : « يَا جِبْرِيلُ بِمَ نَالَ هَذِهِ المَنْزِلَةَ مِنَ اللَّه تَعَالَى » قال : بحبه قل هو اللَّه أحد وقراءته إياها ذاهبًا وجائيًا قائمًا وقاعدًا وعلى كل حال [٧] .

حديث آخر في فضلها مع المعوذتين : عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول اللَّه ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يا رسول اللَّه بمَ نجاة المؤمن ؟ قال : « يَا عُقْبَةُ أَخْرِسْ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » . قال : ثم لقيني رسول اللَّه ﷺ فابتدأني فأخذ بيدي فقال : « يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ أَلَا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ ثَلَاثِ سُوَرٍ أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيل وَالزَّبُورِ وَالقُرْآنِ العَظِيم » . قال : قلت : بلى جعلني اللَّه فداك قال : فأقرأني : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/٥) والترمذي في السنن (٣٥٧٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٣/٤) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/٣) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/١) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٧٥) وأحمد في مسنده (٣٤٩/٥) .
(٦) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤٠٥/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠١/٦) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم قال : « يَا عُقْبَةُ لَا تَنْسَهُنَّ وَلَا تَبِتْ لَيْلَةً حَتَّى تَقْرَأَهُنَّ » قال : فما نسيتهن منذ قال : لا تنسهن ، وما بتّ ليلة قط حتى أقرأهن ، قال عقبة : ثم لقيت رسول اللَّه ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يا رسول اللَّه أخبرني بفواضل الأعمال فقال : « يَا عُقْبَةُ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » (١) .

حديث آخر في الاستشفاء بهن ؛ عن عائشة أن النبيّ ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه ، ثم نفث فيهما وقرأ فيهما : قل هو اللَّه أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات (٢) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .

قال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عزير ابن اللَّه ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن اللَّه ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان ؛ أنزل اللَّه على رسوله ﷺ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على اللَّه ﷻ ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله . وقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ : يعني : الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم ، وعن ابن عباس : هو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته . وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو اللَّه سبحانه ، هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء وليس كمثله شيء ، سبحان اللَّه الواحد القهار ، وعن الحسن : هو الباقي بعد خلقه . وعنه أيضًا : الحي القيوم الذي لا زوال له ، وعن عكرمة : الذي لم يخرج منه شيء ، ولا يطعم ، وعن الربيع بن أنس : هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيرًا له وهو قوله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو تفسير جيد . وعن أبي رباح وعطية العوفي وغيره : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسير الصمد : وكل هذه صحيحة ، وهي صفات ربنا ﷻ ، هو الذي يصمد إليه في الحوائج ، وهو الذي قد انتهى سؤدده . وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقي بعد خلقه . وقوله تعالى : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي : ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة . قال مجاهد : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ يعني : لا صاحبة له . وفي الحديث « لا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٤٨) وأبو داود في السنن (٥٠٥٦) والترمذي في السنن (٣٤٠٢) .

أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذى سَمِعَهُ مِنَ اللّه ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ »[1] . وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « قَالَ اللّه ﷻ : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذلِكَ ، وَشَتَمَني وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللّه وَلَدًا وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أولد ولم يَكُنْ لي كُفُوًا أَحَد »[2] .

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٤٩) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٢) والنسائي في السنن (١١٢/٤) .

سورة الفلق

عن زر بن حبيش قال : قلت لأُبي بن كعب : إن ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له : قل أعوذ برب الفلق فقلتها ، قال : قل أعوذ برب الناس فقلتها ، فنحن نقول ما قال النبيّ ﷺ (١) . وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ هذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ . ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ » (٢) وعن عقبة بن عامر قال : بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب إذ قال لي : « يَا عُقْبَةُ أَلَا تَرْكَبُ » قال ، فأشفقت أن تكون معصية قال : فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية ثم ركب ثم قال : « يَا عُقْبَ أَلَا أُعَلِّمُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ » قلت : بلى يا رسول الله فأقرأني : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم رسول الله ﷺ يقرأ بهما ، ثم مر بي فقال : « كَيْفَ رَأَيْتَ يا عُقْبَ اقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَكُلَّمَا قُمْتَ » (٣) وعن عقبة بن عامر أنه قال : إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شهباء ، فركبها ، فأخذ عقبة يقودها له ، فقال رسول الله ﷺ : « اقْرَأْ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَق » فأعادها له حتى قرأها ، فعرف أني لم أفرح بها جدًّا فقال : « لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا ؟ فَمَا قُمْتَ تُصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلِها » (٤) وعن عقبة بن عامر قال : اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب ، فوضعت يدي على قدميه ، فقلت : أقرئني سورة هود أو سورة يوسف فقال : « لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَنْفَعَ عِنْدَ اللهِ مِنْ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ » (٥) . وعن أبي عبد الله بن عابس الجهني أن النبيّ ﷺ قال له : « يَا ابْنَ عَابِسٍ أَلَا أَدُلُّكَ - أو ألا أخبرك - بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ المُتَعَوِّذُونَ ؟ » . قال : بلى يا رسول الله ، قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ هَاتَانِ السُّورَتَانِ » (٦) .

وعن أبي العلاء قال : قال رجل : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، والناس يعتقبون وفي الظهر قلة ، فحانت نزلة رسول الله ﷺ ونزلتي ، فلحقني فضرب منكبي فقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ فقرأتها معه . ثم قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ فقرأتها معه فقال : « إِذَا صَلَّيْتَ فَاقْرَأْ بِهِمَا » (٧) الظاهر أن هذا الرجل هو عقبة بن عامر والله أعلم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ .

عن جابر قال ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾ الصبح وعن ابن عباس ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾ الخلق ، أمر الله نبيّه أن يتعوذ من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٩/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٤/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٤/٤) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٢٥٤/٨) وأحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن (١٥٨/٢) وأحمد في مسنده (١٥٩/٤) .

(٦) أخرجه النسائي في السنن (٢٥٢/٨) وأحمد في مسنده (١٤٤/٤) والألباني في الصحيحة (١١٠٤) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٥) .

الخلق كله ، وقال كعب الأحبار : ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾ بيت في جهنم ، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره . وقيل : جب في قعر جهنم ، عليه غطاء ، فإذا كشف عنه خرجت منه نار تضج منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه .

قال ابن جرير : والصواب القول الأول : إنه فلق الصبح وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخاري في صحيحه رحمه الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي : من شر جميع المخلوقات ، وقال ثابت البناني والحسن البصري : جهنم وإبليس وذريته مما خلق ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : قال مجاهد : غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس ، وقال ابن نجيح وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه . وقال الزهري : الشمس إذا غربت ، وعن عطية وقتادة : الليل إذا ذهب . وعن أبي هريرة : الكوكب . وعن ابن زيد : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها . عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ : « ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ النَّجْمُ الغَاسِقُ » . قلت وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبيّ ﷺ ، قال ابن جرير ، وقال آخرون : هو القمر ، قلت : وعمدة أصحاب هذا القول ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع وقال : « تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا ، هَذَا الغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ » [(١)] قال أصحاب القول الأول : وهو آية الليل إذا ولج وهذا لا ينافي قولنا ؛ لأن القمر آية الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وكذلك النجوم لا تضيء إلّا بالليل ، فهو يرجع إلى ما قلناه ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ : يعني السواحر . قال مجاهد : إذا رقين ونفثن في العقد . وعن طاوس قال : ما من شيء أقرب من الشرك من رقية الحية والمجانين . وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ، ولا يأتيهن ، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا . فقال : « يَا عَائِشَةُ أَعَلِمْتِ أَنَّ اللَّه قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عند رجليَّ فَقَالَ الَّذِي عند رَأْسِي لِلآخَرِ : مَا بَالُ الرَّجُلِ ؟ قَالَ : مَطْبُوبٌ ، قال : وَمَنْ طَبَّهُ ؟ قال : لَبِيدُ بنُ أَعْصَمَ رَجُلٌ مِنْ بني زُرَيْقٍ حَلِيفُ اليَهود كَانَ مُنَافِقًا ، قَالَ : وَفِيمَ ؟ قال : فِي مشْطٍ وَمشَاطَةٍ ، قَالَ : وَأَيْنَ ؟ قال : فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ تَحْتَ رَاعُوفَةٍ فِي بِئْرِ ذرْوَانَ » قالت : فأتى البئر حتى استخرجه فقال : « هَذِهِ بِئْرُ الَّتِي أُرِيتُهَا وَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ ، وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ » . قال : فاستخرج ، فقلت : أفلا تنشرت ؟ فقال : « أَمَّا اللَّه فَقَدْ شَفَانِي وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا » [(٢)] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦١/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٦٣) .

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ .

هذه ثلاث صفات من صفات الرب ﷻ : الربوبية والملك والإلهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بني آدم إلَّا وله قرين يزيّن له الفواحش ، ولا يألوه جهدًا في الخبال ، والمعصوم من عصمه اللَّه .

وقد ثبت في الصحيح : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ » قالوا : وأنت يا رسول اللَّه قال : « نَعَمْ إِلَّا أَنَّ اللَّه أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَم فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ » [(١)] . وثبت عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف وخروجه معها ليلًا ليردها إلى منزلها فلقيه رجلان من الأنصار فلما رأيا النبيّ ﷺ أسرعا فقال رسول اللَّه ﷺ : « على رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ » فقالا : سبحان اللَّه يا رسول اللَّه فقال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا - أو قال شَرًّا - » [(٢)] .

عن رديف رسول اللَّه ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حماره فقلت : تعس الشيطان فقال النبيّ ﷺ : « لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إِذا قُلْتَ تَعِسَ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ . وقال : بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ وَإِذَا قُلْتَ بِاسْمِ اللَّه تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ » [(٣)] ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر اللَّه تصاغر الشيطان وغلب ، وإن لم يذكر اللَّه تعاظم وغلب . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الْمَسْجِدِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فَأَبَسَّ بِهِ كَمَا يُبِسُّ الرَّجُلُ بِدَابَّتِهِ ، فإذا سَكَنَ لَهُ زَنَقَهُ أَوْ أَلْجَمَهُ » قال أبو هريرة ﷺ : وأنتم ترون ذلك أما المزنوق فتراه مائلًا كذا لا يذكر اللَّه ، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر اللَّه ﷻ [(٤)] . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ قال : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر اللَّه خنس . وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه : ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ، فإذا ذكر اللَّه خنس . وقال العوفي عن ابن عباس : هو الشيطان يأمر فإذا أطيع خنس .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر أو يعم بني آدم والجن ؟ فيه قولان ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليبًا . وقال ابن جرير : وقد

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٦٩) وأحمد في مسنده (١/٣٨٥) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٨١) ومسلم في الإسلام (٢٤) وأبو داود في السنن (٢٤٧٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٥٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٣٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢٤٢) .

استعمل فيهم رجال من الجن فلا بدع في إطلاق الناس عليهم . وقوله تعالى : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ هل هو تفصيل لقوله : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم بيّنهم فقال : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ وهذا يقوي القول الثاني وقيل : قوله : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس ، من شياطين الإنس والجن ، وعن أبي ذر قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد ، فجلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ ؟ » قلت : لا قال : « قُمْ فَصَلِّ » قال : فقمت فصليت ثم جلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ بِاللَّه مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ » . قال : فقلت : يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : « نَعَمْ » قال : فقلت يا رسول الله الصلاة ؟ قال : « خَيْرٌ مَوْضُوعٌ مَنْ شَاءَ أَقَلَّ وَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ » قلت : يا رسول الله فالصوم ؟ قال : « فَرْضٌ مُجْزِئٌ وَعِنْدَ اللَّه مَزِيدٌ » . قلت : يا رسول الله فالصدقة ؟ قال : « أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ » قلت : يا رسول الله أيها أفضل ؟ قال : « جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ أَوْ سِرٌّ إِلَى فَقِيرٍ » قلت : يا رسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدَم » قلت : يا رسول الله ونبيًا كان ؟ قال : « نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ » قلت : يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال : « ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا » وقال مرة « خَمْسَةَ عَشَرَ » قلت : يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آيَةُ الكُرْسِي ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ » (١) وعن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إليّ من أن أتكلم به قال : فقال النبيّ ﷺ : « اللَّه أَكْبَرُ اللَّه أَكْبَرُ ، الحَمْدُ للّه الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الوَسْوَسَةِ » (٢) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٩/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٥/١) وأبو داود في السنن (٥٠٤) .

الفهارس والمراجع

- فهرس القراءات القرآنية
- فهرس الأحاديث
- فهرس الآثار
- المراجع
- فهرس المجلد الثالث

فهرس القراءات القرآنية

الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾	المائدة	٥٣	٥٣٥
﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ ﴾	المائدة	٥٧	٥٣٨
﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ ﴾	المائدة	٦٠	٥٣٩
﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾	المائدة	٩٥	٥٥٧
﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾	المائدة	١٠٦	٥٦٧
﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ ﴾	المائدة	١٠٧	٥٦٨
﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾	المائدة	١١٢	٥٧١
﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾	الأنعام	٥٥	٥٩٠
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾	الأنعام	٧٤	٥٩٨
﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ ﴾	الأنعام	٨٣	٦٠٢
﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾	الأنعام	٩٤	٦٠٦
﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾	الأنعام	١٠٥	٦١١
﴿ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾	الأنعام	١٠٩	٦١٣
﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾	الأنعام	١١١	٦١٤
﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾	الأنعام	١١٩	٦١٦
﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾	الأنعام	١٢٥	٦٢٢
﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾	الأنعام	١٥٢	٦٣٦
﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ﴾	الأعراف	٢٧	٦٥٧
﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ ﴾	الأعراف	٥٤	٦٧٠
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا ﴾	الأعراف	٥٧	٦٧١
﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ ﴾	الأعراف	١٠٥	٦٨٣
﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ ﴾	الأعراف	١٢٧	٦٨٦
﴿ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾	الأعراف	١٤٣	٦٩١
﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾	الأعراف	١٤٩	٦٩٤
﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾	الأعراف	١٦٤	٧٠١

الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ﴾	النمل	٢٥	١٣١٩
﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ ﴾	النمل	٦٦	١٣٢٩
﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾	العنكبوت	٢٥	١٣٦١
﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾	الأحزاب	٦٨	١٤٥٩
﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾	سبأ	١٩	١٤٧١
﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾	يس	٦١	١٥١١
﴿ بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾	الصافات	٦	١٥١٩
﴿ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾	الصافات	٩٥	١٥٢٤
﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾	الصافات	١٣١	١٥٣٢
﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾	ص	٨٤	١٥٥٠
﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾	الزمر	٣٦	١٥٥٩
﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾	غافر	١٦	١٥٧٧
﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَاعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾	فصلت	٤٤	١٦٠١
﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ ﴾	الزخرف	٧١	١٦٢٩
﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ ﴾	النجم	١٩	١٧٣٣
﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾	الرحمن	٣٥	١٧٥٢
﴿ فِيهِنَّ خَيِّرَٰتٌ ﴾	الرحمن	٧٠	١٧٥٦
﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾	الواقعة	٢٢	١٧٦٤
﴿ فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾	الواقعة	٨٩	١٧٧٤
﴿ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ ﴾	المجادلة	١١	١٧٩٤
﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قِبَلَهُۥ ﴾	الحاقة	٩	١٨٧٢
﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾	المعارج	٤٢	١٨٨٢
﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوُلْدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾	نوح	٢١	١٨٨٥
﴿ لِيُعْلَمَ ﴾	الجن	٢٨	١٨٩٣
﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾	نوح	٢٥	١٨٨٦
﴿ لَأُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾	القيامة	١	١٩٠٦
﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴾	النازعات	١١	١٩٢٤
﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾	التكوير	٢٤	١٩٣٦

فهرس الأحاديث

[حرف الباء]

[حرف الكاف]

[حرف اللام]

[حرف النون]

[حرف اللام ألف]

[حرف الياء]

فهرس الآثار

[حرف العين]

[حرف الغين]

[حرف الفاء]

[حرف القاف]

[حرف الكاف]

[حرف اللام]

[حرف النون]

[حرف الهاء]

المصادر والمراجع

– الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت : ٧٣٩ هـ) تحقيق : كمال يوسف الحوت . مؤسسة الكتب الثقافية ١٩٨٧ م .
– إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
– أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت : ٤٦٨ هـ) . دار الفكر بيروت (١٩٩٨ م) .
– تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (ت ١٣٥٣ هـ) ط . دار الاتحاد العربي للطباعة . القاهرة . بدون تاريخ .
– الترغيب والترهيب للحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت : ٦٥٦ هـ) تحقيق : مصطفى محمد عمارة . دار إحياء التراث العربي – ١٩٦٨ م .
– جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري (ت : ٢١٠ هـ) ط . المكتبة التجارية ١٩٩٥ م .
– الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت : ٢٥٦ هـ) ط . دار الفكر ١٩٩٤ م .
– الجامع الصحيح للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت : ٢٧٩ هـ) ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت . بدون تاريخ .
– الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (ت : ٦٧١ هـ) ط . دار الفكر ١٩٨٧ م .
– الجامع الصغير وزيادته لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٧٩ م .
– الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي (ت : ٩١١ هـ) ط . دار المعرفة . بيروت . بدون تاريخ .
– زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي (ت : ٥٩٧ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٤ م .
– سلسلة الأحاديث الضعيفة لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
– سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
– سنن ابن ماجه للإمام ابن ماجه (ت : ٢٧٠ هـ) ط . دار الفكر العربي ١٩٥٤ م .
– سنن أبي داود للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (ت : ٢٧٥ هـ) ط . دار الكتب العلمية . بيروت . بدون تاريخ .
– سنن الدارقطني للإمام علي بن عمر الدارقطني ط . دار المحاسن للطباعة . مصر ١٩٦٦ م .
– السنن الكبرى للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي (ت : ٤٥٨ هـ) ط . دار الفكر . بدون تاريخ .
– سنن النسائي للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب . ط . مكتبة المطبوعات الإسلامية . حلب ١٩٨٦ م .
– السيرة النبوية لابن هشام . تحقيق : مصطفى السقا وآخرين . دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ .
– شرح السنة للإمام الحسين بن مسعود البغوي (ت : ٥١٦ هـ) تحقيق شعيب الأرناؤوط

ومحمد زهير الشاويش . المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .
- صحيح ابن خزيمة للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت : ٣١١ هـ) تحقيق د . محمد مصطفى الأعظمي . المكتب الإسلامي ١٩٧٥ م .
- غريب الحديث لأبي القاسم بن سلام (ت : ٢٢٥ هـ) ط . حيدر آباد . بدون تاريخ .
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت : ١١٦٢ هـ) . تحقيق أحمد القلاش . مؤسسة الرسالة ١٩٨٥ م .
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي ، (ت : ٩٧٥ هـ) تحقيق : بكري حياني ، وصفوة السقا - مؤسسة الرسالة ١٩٨٩ م .
- لسان العرب لابن منظور الأنصاري (ت : ٧١١ هـ) ط . دار المعارف . بدون تاريخ .
- مختار الصحاح للرازي (ت : ٦٦٦ هـ) ط . دار البصائر ١٩٨٥ م .
- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري (ت : ٤٠٥ هـ) . دار الكتاب العربي . بيروت . بدون تاريخ .
- مسند أبي يعلى الموصلي للحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت : ٣٠٧) تحقيق : حسين سليم أسد - دار المأمون للتراث ١٩٨٤ م .
- مسند أبي عوانة للإمام أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني (ت : ٣١٦ هـ) . دار المعرفة - بيروت - بدون تاريخ .
- المسند للإمام أحمد بن حنبل (ت : ٢٤١ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .
- مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي . تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
- المصباح المنير للفيومي (ت : ٧٧٠ هـ) المطبعة الأميرية . مصر . ط ثالثة ١٩١٢ م .
- المصنف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت : ٢١١ هـ) تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت : ٨٠٧) . مكتبة القدسي - بدون تاريخ .
- المعجم الأوسط لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت : ٣٦٠ هـ) تحقيق د . محمود الطحان . مكتبة المعارف الرياض ١٩٨٥ م .
- المعجم الصغير لأبي القاسم سليمان أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت : ٣٦٠ هـ) تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان . دار الفكر بيروت ١٩٨١ م .
- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت : ٣٦٠ هـ) تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي - بدون تاريخ .
- المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية ط . ثالثة ١٩٨٥ م .
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (ت : ٦٠٦ هـ) ط . الخيرية . بدون تاريخ .

فهرس المجلد الثالث

رقم الإيداع
2000/2608
I.S.B.N **الترقيم الدولي**
977-5146-84-4